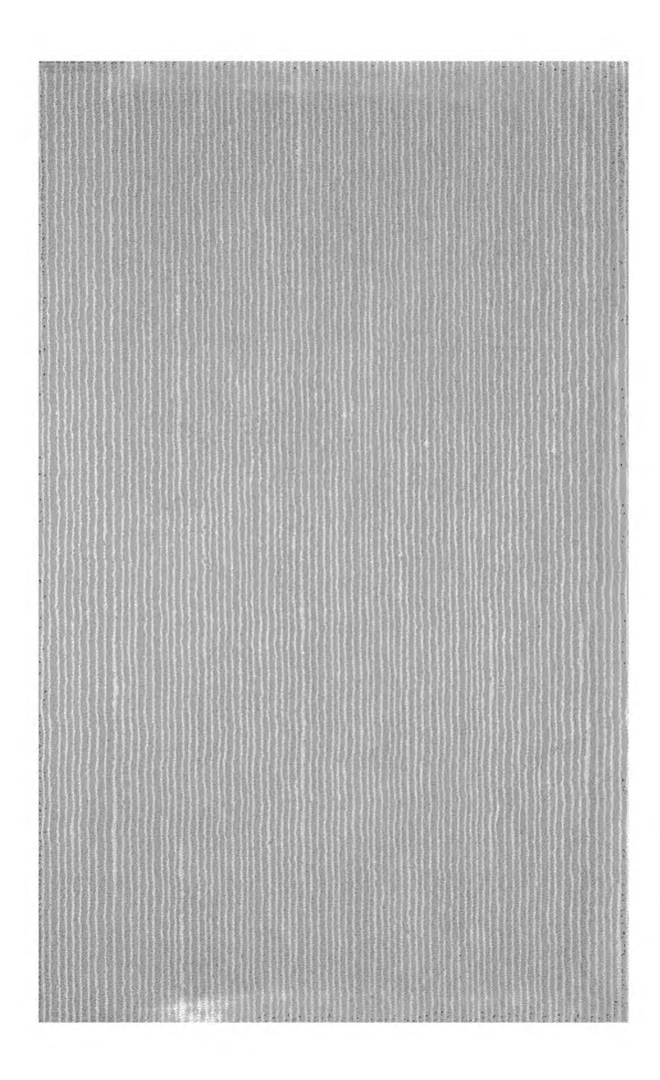
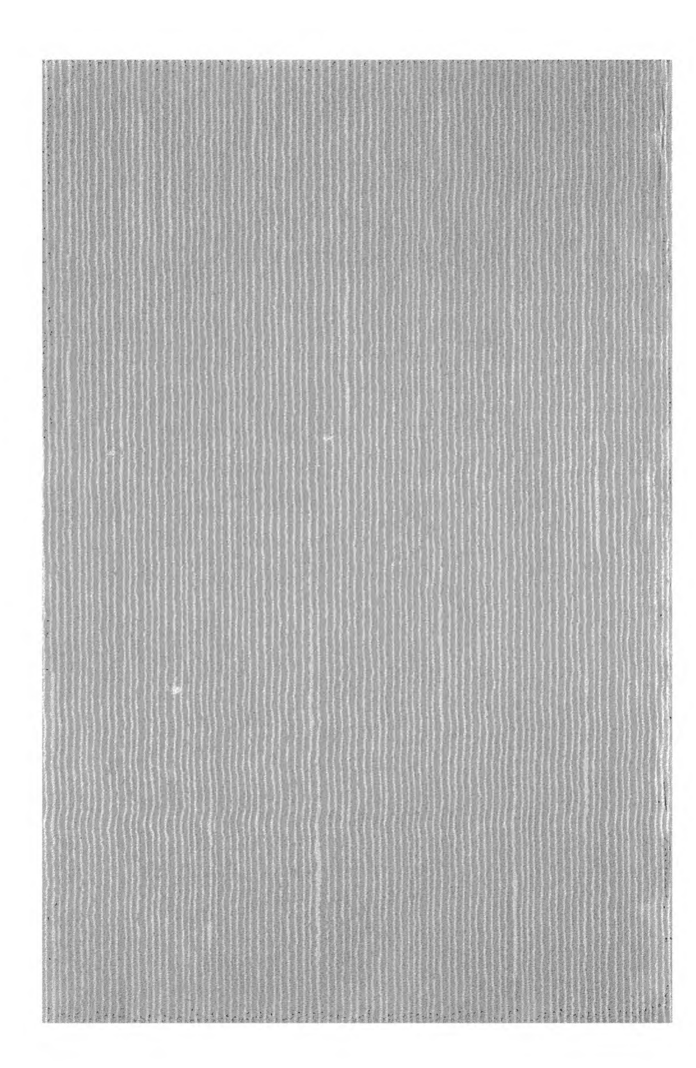

Bibliotheca Alexandrina
0093141





على أطلال المذهب المادي

« الجزء الاول »

« طالع هـذا الكتاب بكل تمعن ولا تطالعه الا بعد أن تطلق »
« نفسك من أسر الاغراض لئلا تغم عليك وانت واقف تطل »
« على العالم من شرفة عقلك تتلمس الحقيقـة من وراء ستارها »
(كتبها الدكتور شبلي شميل فوق)
(كتابه فلسفة النشوء والارتقاء)

(تأليف)

محمد فريد وجدي



الطبعة الثانية

(طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر)
سنة ١٩٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله على التوفيق والهداية ، ونستعينه على السداد والكفاية ، ونصلي ونسلم على خاتم أنبيائه ، محمد وعلى آله وأوليائه . آمين

لقد كانت للمذهب المادى في القرن الثامن والتاسع عشر دولة ، امتد سلطانها على عقول أكثر الخاصة ، وسرى منهم الى بعض العامة ، دولة جنودها العلوم الطبيعية والمعارف الكونية ، ودعاتها المكتشفات الآلية ، والمخترعات الصناعية ، وقادتها العلماء الاعلون ، والفلاسفة المقدمون ، فكان من لا يشايعها يحق الجهود الشخصية ، في بعض الفروع العلمية ، يسايرها طلبا للالمعية ، وتنزها عن العامية .

فكنت لاترى الا عالما ينظر الى الوجود نظر الواقف على صميم أسراره ، الملم بجميع أدواره ، أو متعلما داخله الكبر فردد ماسمعه من استاذه ، ترديدالببغاء لعبارات ملقنه ، أو متعالما تشدق في المجالس بما قرأه في بعض المجلات ، أو ماسمعه من بعض الثقات . فاذا ذكر ما فرق المادة أمامهم ذاكر ، نظروا اليه نظر المشفقين عليه ، فاما قرعوه على جموده أن آنسوا منه الفهم ، أو تركوه وماهو فيه من الوهم . . . .

ماهو مؤدى هذا المذهب الذى نال كل هذا السلطان على العقول فى مدي قرنين متواليين؟

مؤداه أن الوجود قديم ، وأن المادة هى مصدر كل كائن ومرجعه ، تلازمها خصائص لاتنفك عنها ، تصلح لان ترقي بها من الجماد الذي لايعي ، الى أكبر فيلسوف المعي ، بتدرجها في أدوار متعاقبة ، مقودة بنواميس ثابتة ، عاملة على نظام آلى بحت ، لا أثر للعقل والشعور فيه . فكل مايفتنك من آثار التدبير والتعقل ، ينتهي بالتحليل العلمي الى المادة الاولية ، وخصائصها الذاتية ، وكل ماعدا هذا مما أتت به الاديان والفلسفة ، من وجود عقل مدبر ، وروح مفكر ، وعالم وراء هذا العالم ، فزخارف كلامية

ولدها الخيال، وتمسك بها الجهال ، يقوم على حفظها رجال لمصلحة ذاتية ، أو بتأثير وراثة تقليدية ،قد لايمضي عليهم قرن أو قرنان حتى يضطروا التخلي عنهما، فيصبح الناس كلهم اخوانا على المحجة المادية البيضا ،لا يضربون في متاهات الاوهام، ولا يدينون لحلم من الاحلام

هذا هو مؤدي المذهب المادي، الذي افتتن به الناس قرنين كاملين، وهم ما افتتنوا به الا لانه أعد لكل معضلة حلا خلابا ، وأرصد لكل سؤال جوابا

فان قلت له كيف يُعقل أن تكون المادة قديمة ؟

اجابك . وكيف يعقل حدوث شيء من لاشيء ؟

فان قلت له كيف ينشأ النظام من غير قوة منظمة ؟

أجابك بأن الكون مقود بنواميس ثابتة، فلايمكن أن تصدر منها الا كائنات منتظمة .

فان قلت أن ثبوت النواميس في وجهة معينة يفضي الى قيام الكائنات على نظام ثابت ، لايقبل التغير مثلها، ولكننا نراه مترقيا متدرجا ، وقد يرتكس في بعض جهاته متقهقرا .

اجابك بأن هذا التحول نتيجة عوامل تابعة لتلك النواميس، افردت لها في كتب مذاهب التحول فصول كثيرة.

فان قلت له ان تلك الفصول كلها افردت لتطور الكائنات الحية ، ولكني أسأل عن كيفية طروء الحياة على الجماد، ولايخفى أن طروء الحياة حادث جلل غير وجه الطبيعة كلها .

اجابك انا ان كنا نجهل كيف نشأت الحياة، فلا يجوز لنا ان نجعل هذا الجهل منا ذريعة الى بناء الصروح والعلالي من الاوهام ،فان ما يبني على الجهل لايجوز ان يسمي علما فان كنا نجهل ذلك، فلابد أن تكون له علة خفية سيكشفها العلم بالجرى على اسلوبنا لابالخبط في الخيالات

فان قلت له كيف يصدر العقل من المادة التي لاعقل لها

اجابك . انك تغمط حق هذه المادة، وتحقر من شأن خصائصها ، انك تحسبها غليظة ليس لها الا صفات سلبية ، وهي في الواقع ممتعة بصفات إيجابيـة ، فهي من اللطف بحيث لا يمكن تصورها، ومن النشاط والحركة والحياة والعقل والفكر بحيث لا يلم اليه خيال . فهي تظهر غليظة جامدة في المواد الميتة ، ولـكنها متي تركبت على شـكل خاص ، وعلى نظام معين ، في شئ ماهي عليه في مخ الانسان واعصابه ، ظهرت فيها هذه الخصائص على اكمل مايكون (انظر صفحة ١٣٠ من هذا الكتاب).

فان قلت له : الايدل مالدى الحيوانات وخصوصا الدنيئة منها من الالهام على وجود عقل مدبر ألهمها مابه حياته وقوامها ؟

اجابك : ان ماتسميه الهاما هو عادات موروثة . ومعني هذا ان اسلافها اضطرتها أحوال البيئة للقيام على سنة خاصة لحفظ وجودها ، فأورثت هذه العادات ذراريها ، فصارت تأتيها بغير روية كأنها ملهمة بها ، وهي ليست كذلك .

فان قلت له . فلم لم يرث الانسان عاداته ، فيولد الطفل حاذقا لصناعـة أبيـه ؟

اجابك : لان الانسان لسعة عقله مدفوع للترقي فهو ممن لا يقف عند حد ، فجملت وراثة الصناعات والعلوم في نوعه لا في آحاده .

٠.٠

هذا مثال من اجوبة الماديين وهي خلابة خداعة ، توهم من يلم بها في جملتها أنه فهم أسرار الـكون ، وأحاط بقواه علما ، ويغفل عن ان هذه السفسطات كلها مبنية على عقيدة ايمانية ، لا تختلف عن أي عقيدة دينية .

تلك العقيدة هي زعمهم أن المادة قديمة أزلية أبدية ، متمتعة بخصائص ، ومقودة بنواميس، تصل بالـكون الي هذا الحد من الابداع والاحكام .

فهذا القول اولا ليس من العلم الطبيعي، ولا منتزل من اسلوبه ، لان العلم لم يثبت ولا يستطيع أن يثبت ان المادة قديمة ، وليس في وسعه ان يقرر بأنها ممتعة بخصائص

ذاتية ترقي بها الي أقصي درجات الكمال ، فربما كانت متنزلة من قوة ، أي أنها حركة محضة في تلك القوة (كما يقول بذلك جمهور الطبيعيين اليوم)، وربما كانت تلك الخصائص المشاهدة في الكون ليست خصائص تلك المادة ولكنها قوة روحية مالئة لهذا الكون تنوّع كل ما تؤثر فيه، وتذهب في ابداعه وترقيته كل مذهب .

فالقول بأبدية المادة وازليتها ونعتها بخصائص لاحد لها، هو عقيدة ايمانية لا تفترق عن أية عقيدة بالله قديم متصف بكل صفات الكمال، تصدر منه جميع الموجودات علي مقتضي حكمته العالية ، وعلمه الشامل . فالمادي والديني يستويان في الايمان بالغيب ايمانا لا حدله .

وانما الفرق الوحيد بين العقيدتين هو أن الديني يطلق على الموجود الاول كلمة (الله) والمادي يطلق عليه كلمة (المادة)

وكما أن الديني كلما آنس في الموجودات أمرا جديدا نسبه الى خصائص الخالق غير المتناهية ، فكذلك المادي يعزوه الي خصائص المادة غير المتناهية .

فان عيّر المتدين بأنه قائم علي أصل ليس له عليه دليل حسي ، لحق هذا التعيير بالمادي، لانه قائم علي أصل ليس له عليه دليل تجريبيّ ، ولا عبرة بقوله أنه يرى المادة بعينيه ، ويلمسها بيديه، لانه يُرَدّ عليه بان هذه المادة الملموسة ربما كانت حالا من أحوال القوة (كما يقول بذلك جمهور العلماء في هذا العصر)، ثم هو مضطر للقول بوجود الاثير وان لم يره ولم يحس به، وهو فوق ذلك يعزو للمادة صفات، ولم يز ملازمة تلك الصفات لها، واستناده علي انه لم ير قوة من قوى الكون الا ملازمة للمادة، فهو وهم كبير لانه لما كان لا يستطيع ، وهو في حالته المادية والعادية، أن يدرك القوي المجردة بحاسة من حواسه فهو لا يحس بها الا مؤثرة الي مادة . ولكن هل قصوره هذا يمنع من أن تكون تلك القوى موجودة بذاتها على حالة مجردة محضة ؟ وهل من العلمية أن يتخذ الانسان من قصوره علما يبني عليه مذهبا يدعي انه هو المذهب الذي ليس وراءه مرمى لطلب الحقيقة ؟

يدعي الماديون أنهم حريصون في مباحثهم علي أسلوب الفلسفة الحسية التي

لاتسلم بغير المشاهدة والتجربة ، فهل هم منه فى شىء ؟ ليحكم بيننا هذا الاسلوب نفسه.

قال العلامة (ليتريه) وهو خليفة (اوجست كونت) واضع اصول الفلسفة الحسية فى كتابه (كلمات عن الفلسفة الحسية) .

« بما اننا نجهل اصول الكائنات ومصائرها فلايجوز لنا ان ننكر وجود شيء سابق عليها او لاحق لها ، كما لايجوز لنا أن نثبت ذلك . فالمذهب الحسى يتحفظ كل التحفظ فى مسئلة وجود السبب الاول لاقراره بجهله المطلق فى هذا الشأن ، كما ان العلوم الفرعية التي هي منابع للمذهب الحسي يجب عليها تحترس من الحكم على اصول الاشياء ونهاياتها ، بمعنى اننا ان لم ننكر وجود الحكمة الالهية فلانتعرض لاثباتها لاننا على الحياد التام بين النفى والاثبات » .

وقال الفيلسوف (روبينيه) فى كتابه (الفلسفة الحسية) :

« يريد الفلاسفة الحسيون أن يبعدوا كل خيال أو توهم، وان لا يعتمدوا الا على المشاهدة المحسوسة، وأن يحذفوا من اقوالهم كل الافتراضات التي لايمكن تحقيقها » ،

هذه هي اصول الفلسفة الحسية، فهل الماديون منها فى شىء ؟ هل منها الحكم بقدم المادة وأبديتها، وبعدم وجود عالم ارفع منها ؟ وهل منها الاعتماد على الافتراضات العلمية وبناء مذهب المادى عليها ؟

أصغ الى لاتلو عليك مايقوله العلم الحسي عن الوجود ومافيه ، وعما نقدر كمنه بحواسنا القاصرة ، ثم احكم بعد ذلك ان كان يحسن بنا اعتمادا على هذه الحواس المضللة ان نزهى بما نعلمه من هذه القشور المسماة بالعلم الطبيعي ، وان نبني عليها مذهبا إلحاديا نداوم عنه بحماسة اهل القرون الوسطى ، وأن نصد عن كل بحث جديد يؤتينا بحقيقة مجهولة مناقضة لهذه المقررات السطحية ، بحجة أنها قررت ان المادة قديمة وانه ليس وراءها مرمى .

قال العلامة الكبير الرياضى الفلكى الفرنسى (كاميل فلامريون) في كتابه

(الموت وغامضته) المطبوع في اخريات السنة الماضية (١٩٢٠) صفحة ٦٥ الى ٦٩ قال :

« الانسانية تعيش في جهالة بعيدة النور، وهي لاتدرى ان تركيبنا الجثماني الطبيعي يعرفنا بحقيقة الواقع . فان حواسنا تخدعنا في كل شيء ، والتحليل العلمي وحده هو الذى يؤاتي عقولنا بعصيص من النور .

« من أمثلة ذلك اننا لانشعر بشيء من الحركات الهائلة للكوكب الذى نحن عليه فانه يظهر ساكنا ذا اتجاهات محدودة الي فوق وتحت ويمنة ويسرة الخ ومع هذا فو يسبح في الفضاء بسرعة ١٠٧٠٠٠ كيلو متر في الساعة في تطوافه السنوى حول الشمس ، وهي نفسها تنتقل في خلال اللا نهاية السماوية بحيث ان خط سير الارض ليس خطا منحنيا مقفلا ولكن حلزونيا مفتوحا دائما ، وان كرتنا الهائمة علي وجهها لم تمر من نقطة واحدة دفعتين منذ وجدت الى اليوم .

« وفي الوقت نفسه تدور هذه الكرة على نفسها دورة في كل اربع وعشرين ساعة ، ان ما نسميه (فوق) في ساعة من الساعات يكون (تحت) بعد اثنتي عشرة ساعة . واننا نجرى في هذه الحركة النهارية بمعدل ٣٠٥ امتار في الثانية في خط عرض باريز و ٤٦٥ مترا في خط الاستواء .

« هذا وكوكبنا الارضي تلعب به أربع عشرة حركة مختلفة ، فلا نشعر بواحدة منها حتى التي تمسنا من قرب كالمد والجزر للقشرة الارضية ، وهي ظاهرة طبيعية ترتفع معها القشرة الارضية دفعتين في اليوم تحت ارجلنا الي علو ٣٠ سنتيمترا ، ولا توجد أى علامة ثابتة تجعلنا نلحظ هذا الامر المباشر . ولولا وجود الشواطىء لما ادركنا وجود المد والجزر في الاوقيانوس كذلك .

« وهل نشعر بالهواء الذى نستنشقه أو ندرك له ثقلا ؟ ان سطح جسم الانساني يحمل منه ماوزنه ١٦٠٠٠ كيلو غرام معادلا بمثله من الضغط الداخلي . وما كان احد يتخيل ان الهواء ثقيل قبل (غاليليه) و (باسكال) . و (تورشلي) هذا مايشهدنا اياه العلم ، ولكن الطبيعة لاتشعرنا به .

«وهذا الهواء مخترَق بتيارات مختلفة نجهلها كل الجهل . فالكهرباء تلعب فيه دورا لا ينقطع، ولكنا لانشعر بها الاوقت الاعاصير ، أي وقت اختلال التوازن بشدة .

«والشمس ترسل لنا على الدوام باشعاعات مغناطيسية، تؤثر عن بعد ١٥٠ مليون كيلو متر على الابرة الممغطسة مما لانشعر نابه مشاعرنا . ولكن توجد اجساد حساسة لطيفة تشعر بوجود هذه التيارات الكهربائية والمغناطيسية .

«وعيننا لا تدرك مانسميه نورا الا بواسطة ذبذبات الاثير المحصورة بين ٣٨٠ ترليون ذبذبة في الثانية (أحمر متطرف) و٧٦٠ ترليون(بنفسجي متطرف). ولكن الذبذبات البطيئة للاشعة الحرارية الحمراء المعتمة فيا دون ٣٨٠ ترليون موجودة وعاملة في الطبيعة كما تعمل الذبذبات السريعة فيا فوق الـ ٧٦٠ ترليون للاشعة الحرارية البنفسجية المعتمة غير المرئية لشبكية عيننا

«واذننا لا تدرك مانسميه (أصواتا) الا منذ الذبذبة الثانية والثلاثين من الاثير في الثانية للاصوات التي نسميها شديدة الى ٣٦٠٠٠ ذبذبة في الثانية للنغمات الحادة

وأنفنا لاتشعر بما نسميه (روائح) الا عن قرب شديد، وفي حالة عدد محصور من التصاعدات فقط . ويختلف شم الحيوانات عن شم الانسان .

«وغير ذلك فالواقع أنه لايوجد في الطبيعة خارج حواسنا لانور ولاصوت ولا رائحة . فنحن الذين خلقنا هذه الـكلمات لنعبر عما نحسه من تأثراتنا . فالنور شكل من أشكال الحركة كالحرارة . والا ففي الفضاء من النور في وسط الليل على قدر مايوجد منه في وقت الظهيرة ؛ اعني توجد فيهما أعداد متساوية من الذبذبات الاثيرية تخترق هذه اللانهاية السماوية . والصوت شكل آخر من أشكال الحركة ، وليس هو بذي جلبه الا بالنسبة لعصبنا السمعي . والروائح تحدث من جزيئات معلقة في الهواء تؤثر على عصبنا الشمي

«فهذه هي الثلاثة الحواس التي تصلنا ونحن في تركيبنا الارضي هذا ، بالعالم

الخارجي . وأما الحاستان الاخريان الذوق واللمس فلا تؤثران الا بالملامسة، وهذا شيء قليل ، وهو في كل الاحوال لا يؤتينا بشيء من العلم بحقيقة الواقع . فيوجد حولنا من الذبذبات والحركات الاثيرية أو الهوائية، ومن القوى والاشياء غير المرئية، مالانراه ولا نحس به . هذه حقيقة علمية مطلقة، وبديهة عقلية لا يمكن النزاع فيها.

«فيمكن أن يوجد حولنا أشياء ، بل كائنات حية لا تُري ولا تُلمس، ولا تستطيع حواسنا أن تصلنا بها. انا لا أقول أن هذه الكائنات الحية موجودة، ولكني أقول يجوز أن تكون موجودة، وهذا التأكيد هو النتيجة العلمية المطلقة المعقولة للمشاهدات السابقة .

«فاذا تقرر وثبت بالدليل أن أعضاءنا الادراكية لا تكشف لنا كل ما هو موجود، وأنها تعطينا شعورات كاذبة أو ضالة عن الكون المحيط بنا (لا تحس حركات الارض وثقل الهواء والاشعاعات والكهرباء والمغناطيس الخ) فلسنا نكون على شيء من التثبت إن فكرنا أن ما نراه هو كل الحقيقة ، بل نحن مضطرون للتسليم بضد ذلك .

«قلنا أن كائنات حية يجوز أن تكون موجودة حولنا، فمن الذي كان يحلم بوجود الميكروبات قبل اكتشافها، فها هي تتكاثر حولنا بالمليارات والعوالم التي تلعبه في حياة جميع الاجسام من الخطورة بمكان.

«فالمظاهر لا تكشف لنا الواقع، ولا يوجد الا حقيقة واحدة نستطيع تقديرها مباشرة هي فكرنا، والموجود الذي لا يمكن النزاع فيه في الانسان هو عقله . هذه هي النتيجة التي تأديت اليها في مؤلفاتي السابقة، وقد اعددت هذا المؤلف للتدليل عليها بوضوح أوفي » . انتهي

كل هذه النظرات الصادقة ، المبنية على العلوم المحققة ، أيقظت العقل من غفلاته وكبحت من رعوناته ، وكسرت من شرة ادعائه ، وفلت من حدة خيلائه، وأرته رأى العين ان ما علمه من أسرار هذا الوجود، ذرة لا تُدرك في بحر لجيّ، أو هباءة لا قدر لها في هذا الاطلاق العالي، وأن وراء ما أدركه منه من هذا الجانب المادي عوالم لا تنتهي الي مدي تقف عنده، وكائنات لا تصادف في ترقيها تخماً تلتزم حده

أدب عقلي بعيد الغور، لم يتحل به الانسان في عهد من عهوده قبل هذا الدور الاخير. فقد كان في كل طور من أطواره شديد الاعتداد بمدركاته، عظيم الثقة بمحسوساته، الى حد انكر معه ما وراء حسه، وهو غافل عن انخداعه لقصوره، واستهزأ بكل ما لا يتفق مع علمه، وهو جاهل بمبلغ غروره، حتى أن من صرح من الناس بجهله فعل ذلك اما تواضعا أو تصنعا. أما اليوم فقد أدرك الانسان جهله بدليل حسي، وفهم قصوره بدليل مادي. وهذا الادب كان من أعظم آثاره عليه أن غير وجهة نظره الى الوجود. فقد كان ينظر اليه من وجهة أنه مجال مادي بحت، تكفي في سبر غوره حواسه الخمس، فكان الوجود في نظره محدودا على لانهائيته، مفهوما في جملته، ولكنه اليوم ينظر اليه من وجهة أنه مجال غير محدود، تعمل فيه قوى لا يحيط بها عقل، المادة وجه من وجوهها، وليست أصلا لوجودها، والقوانين التي تؤثر عليها، مظهر من مظاهر تلك القوى الكلية تعمل في الكائنات على نظام يناسبها، لا أن تلك القوانين هي كل ما في الوجود من العوامل المؤثرة.

هذه الوجهة الجديدة من النظر باحالتها المادة الى قيمتها الحقيقية، قرت في عينه هذا الوجه المحسوس للوجود، ونبهته لما وراءه من العالم غير المشهود، فدبحثه الى ذلك العلم، ولكن لا على الاسلوب القديم من تسليم الخيال قيادة العلم، ولكن على الاسلوب الجديد من المشاهدة والتجربة، فبعد أن كان يقصر علمه الطبيعي على هذا المجال الضيق من عالم المادة الظاهرة، ويعني بالطبيعة هذه الباحة الحرجة من مدركات حواسه القاصرة، أخذ يمد علمه الى ما بعد هذا العالم المحسوس، ويوسع من مدى ادراكه الطبيعة فسماء فلم يحصرها في هذه الدائرة الضيقة.

هذا تطور بعيد المدى، أحدث من النتائج في كل فرع من فروع العلم ما غير وجه الفلسفة، وقضى على قصر النظر قضاء لا قيام له بعده. وقد عولنا في هذا الكتاب، على أن نقف الناطقين بالضاد على حقيقة هذا التطور العظيم الذي يعتبر بحق أكبر تطور سجله التاريخ لارتقاء الانسان من الوجهة الادبية، دفعه لادراك ما وراء هذه الحجب المادية من العوالم العلوية، فلم ندخر وسعا في تصويره بكل دقائقه، مستأنسين في ذلك بأقوال

ما ة العلم أنفسهم ، حتى اننا لانعلم اننا وضعنا بحثا حوى من آراء العلماء والفلاسفة مثل ماحواه هذا المؤلف ، ولنا في ذلك واسع العذر، فان هذا التطور العقلي من الخطورة والجلالة بحيث يتطلب المطالع عليه علي كل وجه من وجوهه دليلا . ونحن لم نبخل عليه بهذه الطلبة، فأكثرنا له من الادلة بحيث لايجد في نفسه حاجة الى المزيد.

واني باعلاني لهذا العهد الجديد في حياة الانسان العقلية، ارمى ان احدث في ارواح الشرقيين وعقولهم نفس الاثر الذى أحدثه في ارواح الغربيين وعقولهم.

ولست اقصد من قولي العهد الجديد للعقل البشرى، أن هذا الترقي الواسع النطاق وصل الى كل درجات العقول ، فان في الناس بل وفي العلماء انفسهم، من لا يسألون بغير ما القرد ولو سقطت السماء على الارض، ولهؤلاء اشباه ونظراء في كل بلاد من بلاد العالم . ولقد تحادت نظرية الانتخاب الطبيعي التى بني دارون عليها مذهبه، ولا يزال في الناس من يظنون انهم حلوا بها اسرار التطورات الحيوية الى درجة لم يبق معها مجال من شك ، بل في الناس من يزالون يقولون بالجوهر الفرد الذي لايقبل الانقسام، وهي النظرية التى وضعها ديموكريت ولو سيب منذ اكثر من الفي سنة، ويخيل اليهم انهم ادركوا سر الوجود ادراكا لا يسمح لهم بالاطلاع على مايذيعه من المباحث الجديدة.

هذه الطائفة تقمصت من روح الجمود مالا يتفق مع روح كل باحث متثبت ، وصبغت العلم صبغة الجبار المتمرد، مع انه في الواقع معترف بنقصه، ومتواضع في حكمه، واتخذت من بضعة الافتراضات التى اضطر اليها العلم للتعليل المؤقت، ومن بضعة الوجوه عن القوى العاملة في الكائنات، ذريعة الى بنا فلسفة عرجاء خرقاء عمياء، لحمتها وسداها قصر النظر، والدعوى الباطلة، والكلمات المقعرة.

ادعوا انهم تحرروا من ربقة الايمان بالغيب، وما دروا انهم وضعوا في اعناقهم اغلالا من الايمان بالطبيعة ينوؤن بحملها، وفي ارجلهم قيودا يرسفون في سلاسلها، وزعموا انهم ترفعوا عن العامة في القول باله خالق العالم بقدرته وارادته، وماعلموا انهم تسفلوا الي القول بالهية المادة ونحلوها بخيالاتهم من القوى والقدر مالا يمكن تحقيقه بحجة ناهضة، ولا يأتي شهوده بتجربة حاسمة.

وخيل اليهم انهم بلغوا من بعد النظر ، وسعة العقل، الى مايسمح لهم بأن يهزأوا بأصحاب العقائد الجامدة ، وما فهموا انهم بوقوفهم في دائرة ماحصلوه من هذا القدر من العلم قد وضعوا على أعينهم حجبا من الغشاوات ، وعلى عقولهم كسفا من العبارات ، لاتسمح لهم برؤية شيء غير ماتخيلوه وجدوا عليه .

ينظر أحدهم الى السماء ثم يرمي ببصره الى الارض ، فيخيل اليه انه يرى عوالم وصل الى ابعد غاية من ادراكها . فهو بناموس الجاذبية العامة و ببضعة القوانين الطبيعية الكيماوية المعروفة ، وبأربع نظريات دارون المشهورة يحل جميع معضلات الخليقة ، ويدافع عنها دفاع الواضع لها ، فيصدق عليهم قول الفيلسوف (شوبنهور) حيث قال :

« كلما انحط الانسان في القوة العقلية ، قلت مساتير الوجود في نظره ، فكل شيء عنده يحمل معه تفسيرا لكيفية وجوده ، وسبب حدوثه » انتهى .

ومن أعجب العجب ان هؤلاء الجامدين يتبجحون بأنهم انما يستندون على العلم مدعين انهم اقرب الاقربين اليه دون الخلق .

فأى علم يعني هؤلاء ؟ العلم يصرح بأنه لايدري بدايات الاشياء ، ولا مصائرها ، فمن أين جاءهم العلم بما كان وما سيكون ، ومن أى مورد استقوا عقائدهم التى بنوا عليها هذا الجمود الغريب ؟

من شاء ان يعرف الجواب على هذين السؤالين ، ويعذرنا على هذه اللهجة القارصة ، فليطالع ما كتبناه في هذه الصحف القليلة الآتية ، والله ولى الكفاية .

وقفة بين عهدين

لم يتضح أثر العلم والفلسفة على حالتنا النفسية والعقلية مثل اتضاحه عليهما في هذا العهد الاخير . وهو دور تقابله بالبشر والترحيب لدلالته على نضج العقول لقبول أرقي المدركات، وتأهل النفوس للوصول الى ابعد الغايات. ولكنه دور خطير الشأن لقيامه على هدم بناء قديم من المدركات والموروثات، واقامة صرح جديد على انقاضه ، وعلي الانسلاخ من روابط تاريخية من الآداب والعادات، والخضوع لعواطف حديثة صاغها العقل الجديد على الطراز الذي رآه أصلح لشأن الجماعة الناهضة.

هذا الدور من الانتقال الذي يضع فيه الانسان حدا بين الماضي والحاضر أو بين القديم والجديد، يستدعي ضربا من ضروب الفوضي الفكرية، ونوعا من أنواع التطرف والتناهي، يهدفيه ذووالقلوب الصغيرة والابصار القصيرة حب الظهور بمظاهر المجددين، والاتسام بوسم الزعماء والمصلحين . وما الذي يصدهم عن ذلك وهم في وسط جمهور متعطش للجديد، يظن كل نعيق يطرق سمعه من داع الى هوى صيحة ناصح حكيم يهيب به الي مورد عذب من موارد الاصلاح والتكمل، ويخيل اليه أن كل هادم لاصل قديم عاملا من عمال العهد الذهبي المنتظر، يرفع العقاب عن سبيل السالكين ، ويمهد الصعاب أمام المتسابقين ؟

نعم ان هذا الدور من أشد الادوار خطرا على كل مجتمع لما يختلط به الحابل بالنابل، ويشتبه فيه الحق بالباطل، ويفقد الناظرون وجوه الفرقة بين الجادين والهازلين وبين البانين والهادمين . وهو الدور الوحيد الذي يجد فيه الاباحي من أمانت الشهوات شعوره فرصة التلبيس، والملحد الذي طمس القصور نوره نهزة التدليس . ويصادف فيه المعدم من الفضائل، والملق من الحقائق، والعابث بالمدارك، خلسا ينتحلون فيها وظيفة قيادة العواطف والميول . هنا الطامة الكبرى على الاخلاق الضرورية، والرزية العظمي على الاصول العمرانية.

لاجرم إن مالجة هذه الحالة السوأى من الصعوبة بمكان ، فان الدهماء في تهامهم بالجديد النض ، وتحرزهم من القديم الرث يحسبون كل متاضل عن أصل عريق مهما كان محله من الصواب وضرورته للمجتمع من الجامدين على الموروثات العاملين في احياء مافات وأصبح من الرفات. ويفترص هؤلاء القوم هذه الفرصة للحط من كرامته والتصغير مما يدعو اليه فيضيع صوت الحق في ضوضائهم وتعمى على الاكثرين وجوه التفرقة بين ماهو غث وما هو سمين وتجد النفوس المنحلة في وسط هذا النزاع مساغا الى الاندفاع في الفوضى الخلقية والفكرية. فنتعرض لكل ما يستتبع ذلك من قوارع عمرانية :

ليس الانسان بمحدود الادراك فيقنع بالدون من المطالب المعنوية ، ولا هو بالجسد المحض فيكتفي بالقومات المادية ، فهو من لدن نشوئه على هذه الارض يتهالك على ادراك سر حياته ويتفانى في كشف النقاب عن وجه الكون ليقف على العلل التي عملت على ايجاده وتعمل في استمراره ، فهو مدفوع في هذا السبيل بدوافع معنوية لا تقل في قوتها عن الدوافع المادية التي تدفعه للبحث عن غذائه والعمل على بقائه. وان كانا يضحي ذاته وافلاذ كبده وهو في أشد أدوار جهالاته واشتغالاته بمقوماته في سبيل عقيدة روحية لهو كائن عريق في الروحانية ودخيل في الكائنات المادية

هل وقف اندفاع الانسان في هذا السبيل ، وهل قنع من الوجود بالحياة الصورية بعد كل ما حصله من المبدعات الصناعية والمقومات الجثمانية

تقول ناجمة الماديين عندنا نعم : قد وضع العلم الطبيعي حدا بين عهد الخضوع للخيالات الفكرية بالامس وعهد الخروج عليها اليوم فخفتت العقائد بالعقل الكلي المدبر وبالروح المستقل عن الجسم وبالوحي الخارج عن نطاق الحس إلى عالم التصورات الوهمية . ولا يعدم كل من هؤلاء الجيبين أن يكون قد ادخر كتابا في الفلسفة المادية كتب في عهد الغرور العلمي القرن التاسع عشر فهو ينتحل منه ماينفثه بين معاشريه بفمه ويتناثر في كتاباته من أسلة قلمه

أما نحن فنقول ان الانسان العصري أكثر تدينا اليوم منه في أي زمن حتى في عهد

حبالته الاولى. نعم انه يترفع عن التعبد للصور الذهنية والاستخذاء للمدركات الخيالية بل انه قد أسلس من جميع القيود الدينية، ولكنه بما فتح له العلم من مجالات النظر وكشف له البحث عن طرف من المجهول الضخم الذي يحيط به، قد حل فيه محل الخوف الطفلي من الافاعيل الطبيعية ولوع بادراك الحقيقة الكلية ليس من نوع الولوع بكشف المساتير الوجودية بل من نوع الاندفاع لحصول على المقومات الروحية التي لا حياة له بدونها . فانه اذا كان بالامس قد عبد صوراً ذهنية لنيل ثوابها والهرب من عقابها، فهو اليوم يطلب حقيقة مطلقة يشعر بأنه جزء منها يحن اليها حنين البعض الى كله ويندفع للوصول اليها اندفاع الشيء الى مقومه . فان لم يكن هذا من عاطفة التدين المعروفة فهو أرفع منها لامحالة.

هذان موقفان متضادان. وبما ان خصومنا يعتمدون على الفلسفة الحسية والعلم الطبيعي في الدعوة الى مذهبهم فسنجعلهما عمدتنا في هذه المباحث بل لامناص لنا من الاعتماد عليهما لانهما هما اللذان أوصلا الانسان الى هذه المنصة من العهد الروحاني الجديد بكماله وكل الفرق بيننا بينهم أنهم يعتمدون عليهما وهما في دور التصور والغرور ونحن نعتمد عليهما وهما في دور التكمل والنضوج

هل في الوجود حقيقة مطلقة يمكن ادراكها ؟ ان كانت فكيف يبحث عنها ؟ هل وصل اليها أحد ممن كانوا قبلنا أو من معاصرينا ؟ ماهي الفلسفة ، وماهو العلم وماهي حدودهما وغايتهما ؟ لم استهوى المذهب المادى العقول وماهي العوامل التي أسقطته من الاوج الى الحضيض ؟ العلل الاولية والمذاهب التى تصدت لبيانها . اللاماركية والداروينية وغيرهما وما آلت اليه ، موقف العقل حيال المسائل الكبرى ؟ أيمكن أن يخلص الانسان من الحيرة ؟ أهناك معقول تسكن اليه نفسه وتزول به شكوكه ؟

هذه مباحث يخفق لذكرها كل قلب ويهيم بها كل عقل وتهزلها كل عاطفة وهي من التسلط على تطورات الامم والتحكم فى حالاتها النفسية في كل زمان ومكان بحيث يعد اغفالنا لها ونحن في هذا الدور الانتقالي من الجراثم الادبية ، لهذا اجمعنا على ان

نخوض عبابها هنا في مقالات متتالية لعلنا نقوم ببعض مايجب علينا لامتنا المحبوبة من هذه الوجهة وبالله التوفيق

***

(هل من حقيقة مطلقة يجب البحث عنها ؟)

الانسان بما ركب فيه من قوى النظر والتفكير والاستقراء والاستدلال ، مضطر بحكم تركيبه المعنوى هذا الان يقف على معقول يطمئن اليه من كل مايهيج فيه تلك القوى ويثيرها . فأول شيء هاجهافيه عند مادفع به الى هذا العالم ، وسائل حفظ ذاته من العطب في هذه البيئة المحفوفة بالمبيدات ، فجره هذا البحث الى النظر في وجوده وعلاقته بالاشياء المحيطة به ، وبالوجود العام الشامل له ولتلك الاشياء ، فأخذ يسائل نفسه : كيف احفظ وجودى بين هذه الحيوانات الضارية وكيف اقترس غير الضارية منها لاجعلها من مقوماتي الغذائية ؟ وبأية وسيلة أتقي لفحات الحر المحرقة ، ونفحات القر القارسة ؟ وبأية حيلة أمنع نفسي العوادى الطارئة من طغيان الانهار وثوران البراكين وهبوب العواصف ؟

فلما حصل الانسان على بعض مايركن اليه من هذه الناحية ، هاجته الامراض الجائحة والاوبئة الماحقة ، فطفق يسائل نفسه ثانية : ماهذه الكوارث المتكررة ، ما هذه النوازل المتتالية ؟ هل من عامل خفي وراء هذه الظواهر يسلط عليّ المبيدات لغرض يريده مني ؟ هل يمكن استعطافه واسترضاؤه ؟ وما هي مراضيه ومساخطه ؟

فلما وجد الانسان حصة صالحة من الوسائل الغذائية ، وذاق شيئا من لذة الاجتماع وهناءة الاسرة ، لفت نظره ذلك الموت الذى يهدده ويختطف ذويه ولا يستطيع دفعه فشرع يسائل نفسه ثالثة : ما الحياة وما الموت ؟ كيف يكون الانسان بالامس فارسا متوازا تهابه الضراغم في آجامها فيصبح اليوم جثة هامدة تنوشه الكلاب بأنيابها ؟

هل كان جسمه أهلا بشيء خرج منه؟ ماهو ذلك الشيء والى أين ذهب ؟

هنا ألمت بالانسان الحيرة أمام هذا المجهول الضخم، فرفع بصره الى السماء كأنه يريد أن يسبر هذه اللانهاية، ثم اداره فيما حوله واندفع يسائل نفسه أيضا : ماهـذا الوجود ؟ أين انا منه ومن دفعني اليه ؟ ماذا أنا وأي شيء كنت قبل أن اوجدهنا ؟ الى اين اذهب بعد ان اموت ؟ أأبيد كما تبيد الحيوانات والنباتات ام ينتقل شيء مني الى وجود آخر ؟ ماهو ذلك الوجود الآخر واين هو ؟

هـذه النظرات من الانسان كانت أصـلا لأديانه المتنوعة ، وينبوعاً لفلسفاته المختلفة. وهي التي دفعته للبحث عن الحقيقة المطلقة . وهذا التطلع منه كما نرى حال اضطرارية لاخيرة له فيها،اندفع اليها بحكم تركيبه المعنوي . فليس هو بالـكائن الذي ينظر ولا يفكر، أو يفكر ولا يستدل، ولا بالذي يقف من هذه القوى فيه عندحد، ولكن أهنالك حقيقة مطلقة يمكن أن يدركها المتعقب لهذه المباحث، أم هي حلم يصوره له الالم ويسوغه له حب الخلاص، فيتأدى الى خيالات يتعزى بها حتى ينتهي وجوده على أي حال كان ؟

أظهر لنا النقد الفلسفي أن الانسان اطمأن الى خيالاته آلافاً من السنين، وأنه لايزال على هذه السنة يتعبد لأمور تحيلها بداهة العقل ، ويحكم عليها مجرد النظر بالبطلان ، مدعيا أنها حقائق مطلقة يجب عليه أن يأخذ بها وأن يحمل عليها غـيره ولو بالقوة .

ولـكن هل تنفي هذه الحال وجود حقيقة مطلقة عن الوجود والحياة والموت يطمئن بها الانسان ويجري على سنتها الى غاياته البعيدة من الكمال؟

أما الحقيقة المطلقة فلا يشك في وجودها عاقل مادام هذا العالم، حتى في مذهب الذين يقولون بان المحسوسات المرئية خيالات لا وجود لها الا في وجدان الانسان مثلها كمثل الخيالات التي تتراءى له في النوم ، فان هؤلاء مع ضنهم على الوجود بالوجود يسمحون به للانسان، وليس في العالم من يقول بأن الانسان نفسه خيال أيضاً وان الكل عدم في عدم . ومادام هنالك شيء معين فلا بد من حقيقة مطلقة تتعلق به .

فهل يمكن الوصول الى هذه الحقيقة المطلقة، والخلاص من الخيالات التي يغلبها

الانسان -فائق وليست بها ؟ وهـل لنا مصلحة صورية او معنوية فى البحث عن الحقيقة ؟

أما السؤال عما اذا كان لنا مصلحة في البحث عن الحقيقة المطلقة فلا محـل له، فانا مضطرون بحكم تركيبنا المعنوى للبحث عنها كما قدمنا . فليس فى العالم من يعيش ولا يسأل عن معنى الحياة،ولا من يموت ولا يسأل عن مصيره بعد الموت،ولا من يرى الوجود بعينيه ولا يسأل عن علاقته به.فالبحث عن الحقيقة المطلقة حاجة معنوية للانسان لامناص له من توفيتها

نعم في الناس من لايعنيهم أمرها وهم في بعض ادوار حياتهم، ولكنهم يدفعون عن هذا الاهمال غالبا حينما يضطرهم دور آخر الى التأمل في مصائرهم .ومع هذا فلا ننسي هناك فريقا من الناس يولـدون أنعاما ويموتون أنعاماً

ثم انا ان لم نـكن مضطرين بحكم تركيبنـا المعنوى للبحث عن الحقيقة المطلقة، لوجب علينا أن نبحث عنها لمصلحتنا الذاتية لانا في اندفاعنا وراءها نثير من قوى نفوسنا مايرفعنا عن حضيض الحيوانية، التى تنحط بنا اليها أجسادنا المادية .فان كانت تلك القوى العالية كامنة فينا ولم نصادف مايصرفنا عن الرتوع في حمأة الحيوانية ، من حنين سام الى مجهول، وهدف عال على مستور، وتطلع كريم لغاية بعيدة، ارتكسنا بما نتورط فيه من ضروب المطالب الجسدانية الى حال هي دون البهيمية بمراحل.

انا لانكر أن فى كل أمة طائفة من الشباب والشيب ارتفعوا بقدر من المعارف عن طبقة العامة،وانحطوا بنقص علومهم عن درجة رجال العلم، يتخيلون انهم قد وجدوا المعنى الصحيح للحياة بالاباحة المطلقة،والانملاص من كل قيد، ولكنهم لايجرؤون على نشر مذهبهم خشية من أهل الاعتقاد،وهم أصحاب الجمود فى نظرهم،فيموهون تعاليمهم بظواهر خداعة من الاصول التى تحترمها العامة، منتظرين حلول ذلك العهد الذهبي الذى تسقط فيه جميع المعتقدات بغلبة الاصول المادية على الناس، ويفوتهم أن الاصول العلمية اليوم بما كابدته من التحول الغريب فى الخمسين السنة الاخيرة، اكثر مناقضة لمذهبهم من الاصول الاعتقادية .وهو التطور الجلل الذي سنحاول ان نعمم

العلم به في مباحثنا فيه هنا

فالانسان العصري أكثر غراما بالحقيقة المطلقة، وأشد تتيما بها اليوم مما كان عليه في اى عهد كان فما هي تلك الحقيقة المطلقة وبأي الوسائل تذرع للبحث عنها؟ أتكفيه تلك الوسائل لوجد انها ام تبقى تلك الحقيقة المطلقة في نظره حلما من الاحلام لايزال يمني نفسه بتحقيقه ولا يصل اليه ؟

...

(الحقيقة المطلقة ووسائلنا لادراكها)

ماهي الحقيقة المطلقة وماهي وسائلنا لادراكها ؟ أتكفينا تلك الوسائل ام هي حلم من الاحلام نمني انفسنا بتحقيقه ولا نصل اليه ؟

الحقيقة المطلقة التي يهيم بادراكها الانسان، هي ماهية ذاته وماهية الوجود الذي هو جزء منه. وهو لم يندفع في هذا البحث ارضاء لشهوة عقلية، ولكن محفوزا بعوامل قهرية أساسها ما غرز فيه من عاطفة حفظ الذات، وهي الغريزة التي يشترك فيها مع الحيوان الاعجم، ولكنه لانطلاق خصائصه العقلية من القيود لم يقف منها عند الحد الذي وقف عنده الحيوان، اى في الدائرة الجثمانية، بل تخطى منها الى الدائرة الروحية وجعل همه حفظ وجوده المعنوى من الفناء، اذ كبر عليه ان يكون حظه من الحياة مقصورا على سنين قليلة يقضيها في الكد والكدح، ثم ينتهي امره الي التلاشي والعدم، وقد جرته هذه النزعة الي النظر في مجموع الكون لتحققه بأنه جزء منه وان لا سبيل لحل مسألة الجزء مع بقاء مسألة الكل غير محلولة.

هذا الاندفاع من الانسان لادراك الحقيقة الخاصة بذاته وبالكون، لاينفك عنه مادام يتأثر بعاطفة حفظ وجوده وهو يدل علي انه خلق ليعلو عن مستوي الحيوانية، ويترفع عن حضيض الحياة المادية وقد بدأ منه ذلك في جميع ادواره فضحي وجوده المادى في سبيل هذه النزعة العالية، واحتقر لاجلها كل مطالب جثمانه الاالضروري

منها، فصام نهاره وقام ليله وترهب وتبتل وكلف نفسه ماليس وجوده "ضروري في حاجة اليه ، فلو لم يكن هذا الكائن يحمل في سويداء قلبه نفحة خاصة حرمتها الطبيعية برمتها لما مال الترفع عليها، والازرا بها، واعتبارها فتنة له تصده عن مقاماته المعنوية الرفيعة، ولما عمل على تقليل متاعه بطيباتها، وتحرير نفسه من سلطانها.

هنا يقول الماديون نعم حصل منه كل ذلك ولكنه من قبيل استفاماته لاوهامه وخيالاته . ونحن نقول ليس هنا موطن مناقشتهم في هذا الامر فنده الفصل الخاص به ولكننا نوجه نظرهم الي ان هذه النزعة السامية في الانسان ظهرت في فجر حياته الاولية، أي في الحين الذي كان يعذر لو تلهي بمشتهياته المادية، وانصرف عن كل عاطفة معنوية تقربه من الحيوانية . ونوجه نظرهم أيضا الى أن هذه النزعة لازمته حيث كان من سطح الكرة الارضية، وجماعاته في عزلة بعضها عن بعض، واستمرت في جميع أدوار الانسانية، وظهرت بأجلي مظاهرها في حياته العلمية، حتي أن الماديين أنفسهم لا يتجردون منها. فليس فيهم واحد يود أن ينزل الى مستوى البهيمية، أو يكره أن يكون فيه معني يعلو به عن جميع الكائنات الارضية . والفرق بينهم وبين خصومهم ينحصر في أنهم يرون أن هذه النزعة الانسانية قائمة علي وهم وخيال، ويراها سواهم مرتكزة على خاصة نفسية وضعت فيه لتنزهه عن الاخلاد الي الحياة الطبيعية، وتدفعه للخروج من اسر الطبيعة الي حيث تعرج به روحه الى ارقي ما اعد له من المراتب المعنوية .

ماذا تذرع الانسان لادراك الحقيقة المطلقة ؟ انه لم يجد بين يديه غير هذا البصيص من النور المسمي بالعقل . ومن قيمة هذا البصيص الضئيل في وسط هذا البحر اللجي من الظلمات المحيطة به ؟ لاجرم أنه تأدى به الى مدركات طفلية ساذجة لا تعدو قدره . فكان كلما ازداد هذا البصيص اشراقا ، هذب من تلك المدركات واطمأن منها. ولكن الى متي ؟ فهل بلغ هذا البصيص غايته في عهد من عهود الانسان، وهل يكفي وهو في كال اشراقه لبلوغ شأو هذه الحقيقة العليا؟

ما زاد بلاء الانسان في سهامه هذا انه ما انتهي الي درجة عالية من هذه القوة

العاقلة حتى تبين بالدليل الحسي أن أحكامها نسبية، وانها ممنوة بالضلال وعاجز بطبيعتها عن ادراك كنه الاشياء، وأنها مجموع تجارب منتزعة من المحسوسات المحيطة، وأن هذه المحسوسات لاتمثل لها بحقائقها ولكن بما يناسب قواها القاصرة التأثر به فيدرك حسه مادة جامدة وهي ليست غير متحركة حركة سريعة الغاية، ويتأثر بحرارة وكهرباء ونور وهي ليست غير ذبذبات متكررة في بيئة مجهولة سماها الاثير. وترى عينه بياضا ناصعا وهو مركب في الواقع من ألوان متعددة عثر عليها اتفاقا، وسماها أصلية، وقد تكون مركبة هي ايضا من الوان أخرى. ووقف بالتحليل على عناصر اولية سماها بسائط، وقد تكون مركبة من عناصر ادق منها، أو هي كلها مظاهر مختلفة لعنصر واحد لاسبيل له الى ادراكه الخ الخ فتبين الاعتماد على القوة العاقلة في الوصول الى الحقيقة المطلقة من باب الاعتماد على غير معتمد.

هنا ألم به طائف من اليأس كاد يجزم معه بأن الحقيقة المطلقة فوق متناوله. وانحازت جماعة فقررت ان محاولة ادراك تلك الحقيقة ضرب من العبث، وان لاجدر بالانسان ان يعيش على اكمل ما يستطيعه من المدنية مكتفيا من العلم بما يخفف ويلات الانسانية، ومن الفلسفة بما يمكنه من الاعتدال في مطالبه الجسمية.

اذا لم تكن في الانسان تلك النفحة الخاصة التي تزعجه دائما عن الاخلاد للحياة المادية، لالقى بنفسه في حضن هذه الفلسفة بعد تلك الهزيمة الكبرى. ولكنه عاد فقلب المسألة على وجه آخر واخذ يسائل نفسه. هل قواي الادراكية قاصرة على ما تحصله لي هذه المشاعر الكلية؟ وهل انا والحيوان الاعجم سواء في كل المواهب المعنوية الا من جهة الكمية؟

هنا مزدحم الآراء المتضاربة، ومقتتل الفلسفات المتناقضة، ومعرض المذاهب التي استنفدت جهود النفوس الجادة في طريق البحث عن الحقيقة. ومجموع ذلك يجلي لك منظرا رهيبا من تهالك الانسان على رفع الستار عما وراء هذه المظاهر الشهودية من القوى العالية ويصور جهاده العنيف المتواصل لرفع الحجب عن حقيقته الذاتية، تارة بالاستمداد بقوى مشاعره الجسدية، وطورا بالاستمداد من بداهات خصائصه العقلية، فاذا لم تسعفه

هذه او تلك حاول أن يناجي روح الوجود نفسه لتكاشفه بأسرارها الخفية.

هـذا الهم الناصب من الانسان استثار كل مواهبه النفسية، واستجاش جميع قواه المعنوية، واستخلص من مادته زبدة طبيعته العلوية ، فلا مناص ونحن بصـدد هذا الامر الضخم من اعطاء القارىء صورة تفصيلية لما اجملناه ليكون على بينة من صحة النتيجة التي نريد أن نجعلها ثمرة لما ننشره في هذه الوريقات من الفصـول المتتابعة .

∴

(أدوار الانسانية فى البحث عن الحقيقة)

ان على الانسان فى البحث عن الحقيقة ثلاثة أدوار لامناص لنا من تتبع مواقفه فيها، لانها تحصر وجوه تطوراته العقلية حيال أكبر مسألة لها الأثر الاول في رقيه الادبي وهي : دور الفطرة ودور الفلسفة، ودور العلم

فأما في دور الفطرة فقد اعتمد الانسان فى حل مسألة ذاته ومسألة الوجود على القاعدة التى هـدته اليها فطرته العقلية، وهو أن كل مصنوع لابد له من صانع موعما انه هو والوجود مصنوعان وقابلان للتأثر فلا بد من القول بوجود صانع لهما موثر فيهما . ولـكن الانسان ليس بالكائن الذى يقتنع بالكليات دون الجزئيات، ولا ممن يكتفى بالقشر دون اللباب، فأخذ يبحث في ذلك الصانع وعن مكانه من الوجود، وعن مبلغ قواه التى خلق بها الكون وكنه صفاته التي هو عليها . ولم يقف عند هذا الحد فأراد أن يعرف كيف خلق الكائنات، وعلى أى وجه يؤثر فيها، وماذا كان يعمل قبل أن يخلقها، والى أى حال تؤول هي بعد أن تؤدى دورها من الوجود الخ الخ، فتأدى من ذلك كله الى مايناسب مداركه في ذلك الدور، فتخيله على صورته ر بما وقويا له عواطف واهواء، وأسكنه في أوسع ماعلمه من الغابات أو أرفع ماتصوره من الجبال، ثم رأى ان ذلك يحط من قدره فأسكنه السماء ، وذلك في تقدير طبيعته وخصائصه طريقته فى تصور شكله

فأتي بكل ما يؤثر على خياله وهو في جهالته الاولي، فتخالفت الشعوب في هذه المدركات على قدر ما بينها من التخالف في بيئاتها وحالاتها الاجتماعية، وفي قواها التخيلية .

تلا هذا الدور دور الفلسفة وهو العهد الذى وضع فيه الانسان حدودا للنظر، وأصولا للمعقولات، ورسم دوائر معينة للممكنات والمستحيلات، وحاكم المدركات الى قوانين عقلية عامة، وسمى مطابقة مدركاته لتلك القوانين أدلة. وهو دور مختلط في بدايته بنهاية الدور الذي قبله، فلا يمكن تبيين حده بفاصل، فالمصريين القدماء والهنود والبابليين والصينيين منذ عدة ألوف من السنين موقف في هذا المجال المقرر حصلوا منه على مدركات عالية، لا يمكن الوصول اليها الا بالجرى على أصول معينة في التأمل، والوقوف عند حدود مقررة في النظر، والتفرقة بين الممكنات والمستحيلات، وما يصح أن يجعل من المسلمات العقلية ومالا يصح . الا أن الفلسفة لم تعرف بهذا الاسم الا في الامة اليونانية القديمة. وان كان اليونانيون يعترفون بأنهم مدينون بمعارفهم الطبيعية والفلسفية لكهنة المصريين .

في هذا الدور تأسست الفلسفة لا على قضايا العقل فقط، ولكن على العلم أيضا، فكان للفلاسفة اليونانيين الاقدمين قدم راسخة في كثير من فروعه كالرياضيات والطبيعة والطب والفلك ، أخذوها عن المصريين وأشاعوها في بلادهم وزادوها مواد بأبحاثهم وتجاربهم .

فكان أول شيء شغل بال الفلاسفة الاولين البحث في الاصل الثابت للكائنات أي الهيولى أو المادة الاولية، وفي القوى التي تعمل في تحويلها وتغييرها، ثم في اعادتها الى تلك الهيولى، وفي مصدر الحركة والابداع الفائض على الكائنات. هذه كلها ابحاث طبيعية بحتة ولكنهم لم يلبثوا أن تحولوا الدرس الانسان نفسه، فخاضوا من الكلام في روحه ومصدرها وارادته وعقله وأخلاقه في لجج بعيدة الغور، تأدوا منها الي هذه المسائل الضخمة وهي : هل من حقيقة مطلقة فوق هذه الحقائق النسبية . وهل من خير محض قائم بنفسه وراء هذه الخيور الجزئية والشرور الوقتية وأعيان الاشياء، أحقيقية هي أم وهمية الخ الخ؟

هنا انقسموا الي ثلاث فرق ، ففرقة رأت ان اصل الخليقة قوة أزلية أبدية حية مدركة واجبة الوجود أوجدت المادة بارادتها وشيأت الاشياء منها بقدرتها ، وخلقت النفس الانسانية واسكنتها هذا الجسد لتبتلي فيه أمداً محدوداً ثم تبرحه الي عالم الارواح المجردة والنفوس الطيبة في عالم وراء هذا العالم .

وفرقة ذهبت الى أن الوجود أصلين قديمين متلازمين، روحاً محيطاً بكل شيء علماء ونافذاً على كل كائن ، حكما وهيولى أى مادة تنفعل لارادته، وتقبل الصور التي يطبعها فيها . وقد نبغ في هذه الفرقة الفيلسوفان العظيمان افلاطون وتلميذه أرسطو ، فكان يرى الاول وجود عالم روحاني مثالي وعالم مادي، وقرر بأنه ما من كائن مادى الاوله مثال يشبهه في العالم الروحاني وذهب أرسطو الي وجود أصلين أيضاً ، لكنه سماها الهيولى والصورة . الهيولى عنده هى الشيء القابل والصورة هى الروح المانح القوة والحركة . وقرر انهما متلازمان لا ينفصلان ، فكل كائن مؤتلف من هيولي وصورة أى من مادة وروح .

والفرقة الثالثة زعمت أن أصل الوجود مادة أزلية فقط، ورأت أنه لا حاجة لفرض وجود روح قديمة بجانبها ، فالمادة عندهم أصل كل كائن ، وليست القوة العقلية نفسها الا مظهراً من مظاهرها التى لا تحصي، وقرروا بأن هذه المادة لا تقبل الفناء ، وانما تتغير صورها الى مالا نهاية تبعا لنواميس مقررة وقوانين ثابتة . وذهبوا الي أن القول بوجود أصل روحاني أوجد المادة أو شاركها في تكوين الكائنات، وهم باطل ليس له قيمة فلسفية .

أما الدور الثالث من أدوار الانسانيه فى تطلب الحقيقة وهو دور العلم فقد بدأ عند ما تقرر الاعتماد على المشاهدات والحوادث في تقرير الاصول الفلسفية ، لا على العقل وحده ولا على الظنون والنظريات التي تحسب من العلم وليست منه فى شيء . وكان الفضل في ايجاد هذا العهد للعلامة بيكون الانجليزي المولود سنة (١٥٦١) والمتوفي سنة (١٦٢٦) وقد كان لهذا المذهب اليد الطولي في امداد الفلسفة المادية فوصلت به الي درجة أسقطت معها كل المذاهب المخالفة لها ، ووقر في النفوس

ان عهد القول بضرورة وجود القوة المدبرة، والعالم الروحاني،قد زال زوالا لارجعة بعده .

في هذا الدور الذي دام نحو ثلاثة قرون نشأت المعارف الكونية العليا،وتقررت الاصول العلمية الكبرى،وظهرت المذاهب في تعليل أصل الوجود وتفسير تنوعات الاحيا ،وصار للعلم سطوة على النفوس والعقول لم تكن له في عهد من عهود الانسان، وانتقل السلطان من حفظة العقائد الي حملة المعارف، وصغرت قيمة المعابد الدينية بجانب الجامعات العلمية،وشعر الناس انهم قد دخلوا في دور نهائي من الحياة العقلية . ولكنهم ماعتموا ان رأوا أن هذا الدور قد كان توطئة لدور آخر انقلبت فيه اصول الماديين رأسا على عقب، ونشأ دور جديد جمع جميع طيبات العهود السابقة وتنزه عن سيئاتها فكان هو الدور النهائي المنتظر .

وبما اننا تصدينا في هذه المقالات لاعلان هذا الدور الجديد للعلم والفلسفة، فلا مناص لنا من الافاضة في بيان أطوار المذهب المادى وتتبع جميع مقرراته مع الدلالة على وجوه قوتها وضعفها وانصافه الانصاف الجدير بالغيورين على الحقيقة ليكون ذلك أكثر تجلية للدور الجديد، واشد ادلالا على مكانته الرفيعة.

...

(تاريخ المذهب المادى)

يصعد الماديون بأصل مذهبهم الى نحو القرن السادس قبل المسيح، أي الى عهد الفيلسوف طاليس المولود سنة (٦٣٨ أو ٦٣٩)، ويعتبرون من أتوا بعده من تلاميذه الي نحو ١٥٠ سنة اسلافا يمتون اليهم بأواصر وثيقة من القرابة المذهبية ، فيعدون من مشهوريهم (اناكز يماندر)و(اناكزيمين)و(اكزينوفان)و(بارمينيد)و(هيراقليد) و(امبيدوكل) و (لوسيب) و (ديمو كريت)

أما نحن فلا نعرف وجها وجيها لاقتسابهم لهؤلاء الفلاسفة لامن الوجهة الاعتقادية لانهم كانوا مؤمنين بالعالم الروحاني ولا من الوجهة المذهبية في تعليل الوجود فانها مما لايباهي بالاعتزاء اليها فقد كانت بأقاصيص العجائز أشبه . ناهيك بما تثمره التأملات في وقت كان فيه علم الطبيعة في دور السذاجة الاولى .

فأما (طاليس) فقد زعم بأن المادة الاولية هي الماء فبتكاثفه وجدت الارض وبتمدده تولد الهواء والنار . قال الاستاذ (بانجون) في كتابه تاريخ الفلسفة : ان طاليس كان يعتقد ان كل تحول مادى لايكون الا تحت تأثير عوامل روحانية

وأما (أناكيزماند) فكان يقول ان المادة الاولية ليست الماء بل هي اللانهاية المطلقة أي الحالة غير المحدودة التي يخرج ويعود اليها كل كائن متوحد بحركة أزلية . وكان يري ان الكواكب آلهة سماوية الخ الخ .

واما (اناكزمين) فكان يذهب الى أن المادة الاولى للاشياء هي الهواء وان ماده الآلة نفسه من ذلك الهواء الخ .

واما (اكزينوفان) فكان يرى ان اصل المادة الماء والتراب والهواء والنار مجتمعة . قال الاستاذ (بانجون) المتقدم ذكره . كان اكزينوفان متدينا جدا ولكنه كان خالصا من الاوهام الدينية العامية .

واما (بارمينيد) فكان ينكر العدم والفراغ ويقول باستحالة وجود شيء من لاشيء ، ولكنه من الوجهة الاعتقادية كان من القائلين بوحدة الوجود ، اى أن الله هو الكل وان الكل هو الله .

واما (هيراقليد) فكان يقول اننا نرى الاشياء ثابتة ولكنها في الحقيقة في حالة صيرورة مستمرة تنظهر وتزول ولا تثبت في وقت ما . قال الاستاذ

(بامعون) وكان هيرا قليـد يري أن فوق هذه الكائنات المتحولة عقـلا الهيا ثابتا لا لايتحول .

وأما (امبيدوكل) فذهبه أن العناصر كانت ساكنة ومجتمعة بالشوق الذى فيها، ثم تنافرت فحدث العالم من تجاذبها وتدافعها ، وكان مؤمنا يعتقد بخلود الروح.

وأما (لوسيب) فلم نعلم عنه أكثر من انه واضع نظرية الجواهر الفردة وقد يكون الواضع لها تلميذه (دعوكريت) ومؤداها ان المادة تتألف من ذرات صغيرة جـدا متمتعة بحركة ذاتية فيها غير مستمدة من محرك خارج عنها وهذا المذهب أداه اليه مجرد النظر في الكائنات ، فلم يتكلف الاوصف ماتراه العين بدون النفوذ الى ماوراء ذلك . ولا يخفى ان في طي هذا الزعم دعوى عريضة وجهالة مطبقة، فان الاكتفاء بالعين المجردة في تعليل الظواهر المنوعة التي لاتقف عند حد، والاكتفاء بحكم هـذا الفكر الناقص، يعتبر من التحكم الذى ليس وراءه مرمي، ويكون مثل مرتكبه كمثل رجل من متوحشي الزنوج يقف أمام ساعـة صغيرة فيعللها تعليلا سطحيا على حسب ماتهـديه اليه معارفه الناقصـة ويغفل عـن سر حركتها الحقيقة ووظيفتها الآلية .

الا أن دعوكريت لم يك ماديا في معتقده، فقد كان يقول بوجود الروح ويزعم انها مركبة من جواهر فردة كرية غاية في اللطافة ويرى ان الآلهة مركبة هي ايضا من جواهر فردة الا ان جواهرها اكثر حياة واقوى .

هؤلاء هم الفلاسفة الذين يعتبرهم الماديون اسلافا لهم وقد رأيت انهم كلهم من المؤمنين . فان كان لابد من اعتزاء الماديين العصريين لاصل قديم فأولى الناس بهم السوفسطائيون الذين نشأوا بعد عهد دعوكريت فانهم هم الذين عمدوا الى تشكيك الناس في الآلهة وفي الاصول الاولية الاخرى للفلسفة الرسمية. منهم (بروتاغوراس) المولود سنة ٤٤٠ قبل الميلاد فهو اول من قال أن الآلهـة لا يمكن اثبات وجودها بدليل .

ثم نبغ بعده (كريتياس) فقرر بان الآلهة ليسوا سوى مخترعات خيالية دعا

اليها الدعاة من محبي التسلط ليقهروا بها الشعوب لاحكامهم.

وكان من تعاليم السوفسطائيه انكار الخير المطلق والقول بأن العدل والظلم من الامور الاصطلاحية، لذلك كان اسمهم مقرونا لدى معاصريهم بالتحقير والازدراء، ومحاطا بكل ضروب التشهير. ولكن النقد الفلسفي العصري اثبت ان الطعن العام في اخلاقهم وسيرهم كان لكفرهم بالآلهة وعدم اعتدادهم بالخيالات الاعتقادية.

اما هم في الواقع فكانوا اولي علم وحكمة واصول خلقية ولكنها مادية بحتة.

استمر الرأي المادي ماثلا في المعارك اليونانية يناهض الفلسفة الروحانية وتناهضه حتي تغلبت عليه نهائيا قبل المسيح بنحو ثلاثة قرون. وهي ما تغلبت عليه في ذلك العهد بحجة قاطعة ولا بتجربة حاسمه، وانما بتشييع العامة لها وقصدهم بالسوء خصومها. والعامة في كل زمان ومكان ينفرون من كل فلسفة لا تشايع خيالاتهم الاعتقادية. فخلا الجو لمذهبي افلاطون وارسطو، وكان الاخير اوفر حظا من الاول فانتشر في العالم النصراني محرفا، وايده رجال الكنيسة واتخذوه عمادا للدين وتعصبوا له اشد تعصب حتي احرقوا بالنار كل من تجارأ على نقضه.

دام الحال على هذا المنوال الي القرن الخامس عشر حيث ظهرت باكورة الآراء الطبيعية المؤثرة علي مجري المدركات الانسانية، كالرأي القائل بأن الارض كرية وبأنها ليست مركزا للعالم بل هي كوكب حقير من الكواكب الدائرة حول الشمس، وغير ذلك وتهيأت البيئة الفكرية للرأي المادي فظهر في القرن السادس عشر باشد قوة واكثر لالاء، رافعا راية العلم ومعلنا علي الاديان والمعتقدات حرب الفناء. فلنتتبعه في هذا الدور باكثر امعان ولنتعقب المعارك التي نشبت بينه وبين الفلسفه الروحانيه في الثلاثة القرون الاخيرة فانها كانت كمناوشات بين الطلائع انتهت بمعارك فاصلة في النصف الاول من القرن الماضي، كانت نتيجتها انتصاره ذلك الانتصار الباهر. فان الالمام بهذا كله ضروري لاظهار العهد الفلسفي الجديد في اكمل ماهو عليه من الجلال والجمال.

(الفلسفة في القرن السادس)

حلّ القرن السادس عشر وظهرت بعض الآراء العلمية في الفلك والطبيعة فكان ذلك سبباً في ايقاظ الشكوك الكامنة في النفوس ، وتوليد الشبهات على الفلسفة الروحانية. وكان أول مجترىء على احياء المذهب المادى الفيلسوف الايطالي (بطرس بومبانيوس) فنشر في سنة (١٥١٦) كتابا ثار فيه على نظرية أرسطو في خلود النفس قال فيه : ان القول بخلود النفس يقتضي اقامة الدليل على انها تحيا بدون جسد وهذا مستحيل ».

وتلاه في القرن السابع عشر (بطرس بيل) المولود سنة (١٦٧٤) فقرر بأن الالحاد أفضل من التمسك بالاضاليل. وقرر ان الامم تقوم وتحيا بدون الاعتقاد بالله وبخلود النفس.

وفي سنة (١٧٤٥) نشر الفيلسوف الفرنسي (دولامترى) كتابا اسماه (التاريخ الطبيعى للنفس) قال فيه . « ان القول بوجود روح تقوم بدون جسم ضرب من الهذيان. فالروح والجسم مرتبطان لاينفصلان، والمادة والقوة لاتنفك احداهما عن الاخرى الافي الوهم . أما في الواقع فهما شيء واحد . وكل الافكار مصدرها الحواس فلو كان العقل جوهراً مستقلا لنا بقوته الذاتية وان كان الانسان معزولا عن الخلق . وهذا لم يحصل قط »

وفي سنة (١٧٧٠) نشر البارون (هولباخ) الالماني كتابه (نظام الطبيعة) قرر فيه ان كل شيء محصور في الطبيعة، وأن كل مايتخيل وراءها وهم في وهم ، وان ليس الانسان الاثمرة القوى الطبيعية، وأن ليست طبيعته المعنوية الامظهراً من مظاهر طبيعته المادية . وقال ان الانسان لم يذهب في رفع نفسه عن مستوى الطبيعة إلامدفوعا بحبه لذاته وايثاره لمصلحته الشخصية . وأثبت ان العالم كله مادة وحركة وسلسلة أسباب ومسببات لاتنتهي عند حد . وأن المادة والحركة أزليتان . وقال ان ليس في

الطبيعة أمر عجيب الا للذين لم يدرسوها حق دراستها وان الحسن والقبيح اعتباريان في الوجود مثل النظام والاتفاق فيه .

وقال ان الذى يزعم أن النفس تحس وتفكر بعد الموت يلزمه القول بأن الساعة المعطلة لاتزال تبين الوقت بعد تحطمها كما كانت تفعل ذلك قبله

وظهرت في سنة (١٧٥١) أول دائرة معارف فرنسية وكان من أشهر كتابها (ديدرو) فكتب في مؤلفه (المادة والحركة) ان مانراه من خروج كائن حي من البيضة بواسطة الحرارة وحدها ينقض كل تعاليم اللاهوتيين ويهدم كل هياكل الارض .

نقول ان (ديدرو) قال ذلك قبل أن يكتشف باستور الجراثيم الميكروسكوبية الحية التي توجد في كل بيضة ملقحة فظن ان البيضة الميتة مع خلوها من كل جرثومة حية يخرج منها فروج حي بالحرارة ليس الا .

وقال ان الروح ليس الا ثمرة التركيب الجثماني، وعلم النفس ليس الافزيولوجية الاعصاب .

وقد تقدم هؤلاء الماديين وتأخر عنهم جمهور في كل أمة لم نشأ سرد أسمائهم لتشابه نظرياتهم ووحدة آرائهم :

فلما جاء القرن التاسع عشر كانت العلوم الفرعية قد بلغت شأوا بعيداً من التقدم وأثمرت ثمراتها اليانعة في الصناعة والزراعة ووسائل تخفيف الويلات الانسانية، واستخدام القوى الطبيعية. وحدث من المخترعات ماأوقر في صدر الخاصة وبعض العامة ان الطريق الذى يسير فيه العلم هو الطريق الصحيح المنتج ، وأن الفلسفة التي ستنتج من أصوله هي الفلسفة الحقة التي لايجادل فيها لاجامد أو مفتون . وان كل ما كان للاقدمين من الاقوال في الروح والملأ الاعلى ان هي الاخيالات لاتعدوما عليه الطوائف المنحطة في سلم الارتقاء منها . وأخذوا ينتظرون حلول ذلك العهد الذهبي الذى تسقط فيه كل الاحلام المذهبية التى فرقت بين اجناس النوع الانساني آونامن السنين فيصبح الناس اخوانا امام الطبيعة يرتعون في خيراتها الي امدمحدود ثم ينزحون من هذا الوجود

خالصين من ضوضاء الحياة وتكاليفها الى أبد الآبدين

وأما أنصار الفلسفة الروحانية بين موحدة وثنوية فاودعوا بقايا تلك النظريات العزيزة عليهم ثنايا قلوبهم تساورها الشكوك والشبهات، وتنتقص من أطرافها الريب والاستشكالات، بعد أن استنصروا لها القضايا المنطقية فأكدت، والفلسفة العقلية فما أجدت، وأين تأثير المقولات والآلات البخارية والابداعات الصناعية وبواهر سحر التلفون والتلغرافات والآلات البخارية والابداعات الصناعية وفواتن المدنية ؟

بينما الناس على هذه الحال واذا بحادث جلل ظهر في عالم المباحث الطبيعية سنة (١٨٥٩) قضى على البقية الباقية من فلول الاعتقاديين الاوهام (مذهب داروين) في تعليل وجود الانواع الحية ونشوءها بناموس الانتخاب الطبيعي وفي قيام الكائنات على نظام آلي بحت ليس فيه أثر لتدبير مدبر وتنظيم منظم . فكان ظهوره نهاية المعركة القاطعة بين الماديين والروحيين، فتفردت المادية بالسلطان و بلغ الغرور العلمي أقصى ما يمكن أن يصل اليه . ووقر في صدور العلماء أن مسألة الوجود الكبرى قد حلت حلا نهائياً، وان لم يكن ذلك في الاتجاه الذي يساير الانسان في مراميه الروحية وحواشيه في أمانيه المعنوية . فقد ثبت لهم أن الانسان حيوان أراد ذلك أم لم يرد، وانه فان أرضى عن حظه أم سخط، وأن الطبيعة في ماديتها وآليتها هي الاول والآخر والظاهر والباطن ، وأن الكائنات مقودة بنظام آلي محض لا أثر للتدبير العقلي فيه . وأن الابداع الفائض عليها حال اقتضاه النظام العام وليس مقصودا من واضع وضعه ورمى به الى غاية معينة . وان العالم العلوي الذي تعبد له الانسان الوفا من السنين ، وبذل في سبيله النفس والبنين، وعمره بالآلهة والقديسين، والملائكة المقربين ، لم يوجد الا في خياله . واما في الواقع فلا شيء غير هذه اللانهاية الآهلة بالاجرام المقهورة على حركتها الغافلة عن وجودها .

لماذا تأدى الناظرون في الكون الى هذه النتيجة ولم يتأدوا الى نقيضها ؟ فهل من طبيعة المباحث الكونية أن تحمل الفلسفة المادية هذا السلطان العظيم ، وأن تخذل

الفلسفة الروحية ؟ كيف يحدث ذلك تحت تأثير المشاهدات العلمية وتكاد تجمع عليه أرقي العقول الانسانية في ارقي العصور الفلسفية .

***

(لماذا يتأدي الباحثون في الكون الى الالحاد)

هل من طبيعة المباحث الكونية أن تنصر الفلسفة المادية على الروحانية حتى يشيع الالحاد كما نرى في اكثر الطبقات المفكرة ؟ هذا بحث يحتاج للافاضة فنوجزه في كلمتين فنقول:

الانسان لايطيق بحكم تركيبه المعنوي أن يقف جامداً أمام أي مجهول كان فهو مضطر الي تعرف كل ما يؤثر على حسه وعقله، والى تعليله على قدر ماتسمح له به وسائله. فلما قذف به الى هذا العالم شرع في تعرفه مقهوراً بفطرته، فنظر الى سمائه وأرضه، وتأمل في حوادثهما معملا جميع خصائصه العقلية، فآب من هذا الجهاد بمدركات تناسب حالته من السذاجة، فنسب جميع الحوادث الى علل روحانية . الا أنه ليس بالكائن الذي يقف عند حد يصل اليه، فما زال دائبا وراء استكناه المجاهيل حتي هدى الى كثير من العلل الطبيعية المباشرة، فكان كلما أدرك علة مرتبطة بمعلولها ورفع العلة الروحانية عنها مع الاحتفاظ بها كعلة أولية.

فلما نشأت الفلسفة كانت العلوم الكونية قد كشفت كثيراً من العلل الطبيعية ، وأظهرت وجوه تسلسلها ، فلم يبق أمام العقل الانساني غير العلة الاولية أو علة العلل، وهو كما قلنا لايطيق بحكم تركيبه أن يقف جامداً حيال أي مجهول كان. فوقف لادراك تلك العلة الاولية حيل وسائله الفكرية غير قانع بأن يعتقدها ذاتاً أزلية أبدية واجبة الوجود، عالمة بكل شيء ، وقادرة على كل شيء. فأراد أن يعرف كيف هي أزلية أبدية ، وماذا كانت تعمل قبل أن تخلق الكون، وعلى أي حال تحيط بكل شيء علما، وبأي أسلوب تطبع ارادتها في القوى الكونية الخ. فكان كلما اصطدم بهذه المنيعة استعصت على

عقليه وامتنعت على الانطباق على دستوره . وأحس بوحشة لاتنطبق وسكينته المعنوية. ولقد كان هذا العجز مما يصح أن يزيده تقديساً له واستسلاماً لسلطانه، لو كان تركيبه المعنوي على غير ما هو، أي لو كان ممن يكبر ما يجهله ويعظم ما لا يعلمه . ولكن ذلك فيه يضطره الى اعتبار كل ما لا ينطبق على دستوره باطلا فلا يرفع به رأساً ويندفع للبحث عن غيره مما ينطبق على ذلك الدستور ويسايره .

ثم لاقى الانسان من انخداعه بهذا الدستور العقلي أشد ما يلاقي كائن من طبيعته. فكم مدرك اعتبره باطلا جريا على دستوره هذا، ثم انكشف له بعد ترقي ذلك الدستور أنه من الحقائق الساطعة . ولكنه محمول بدافع قهري للخضوع له على قصه لعلمه بأنه مصباحه الوحيد في ظلمات هذا الوجود ولا مناص له من الاستهداء بنوره في قطع مفاوزه والا تردى في كل عماية تصادفه .

ثم نشأت اللا أدرية في الفلسفة اليونانية بنبوغ الفيلسوف (بيرهون) في القرن الرابع قبل المسيح ، أي بعد أن بلغ العلم شأوا بعيداً في كشف المجاهيل الطبيعية. ومؤدي هذه الفلسفة الامتناع من الحكم على الاشياء لاستحالة ادراكها على حقيقتها بهذا العقل الناقص . فلم يأبه بها العقل الانساني لانه يعتبر نفسه قائماً لمسايرة الكون فلا يرضيه أن يقف هذا الموقف السلبي امام المجهولات التي تعترضه .

لما تكرر نكوص العقل عاجزاً عن ادراك موجودات أزلية يمكن تناول العلم بها على أسلوبه حول وجهه عنها لاول مرة الي النظر في علة العلل من وجهة طبيعية بحتة، وكان ذلك في القرن الخامس قبل المسيح في عهد السوفسطائية، الا ان العلماء لم تقبل شكوكهم في هذه المسئلة فلم تنتشر فلسفتهم . واتفق ان جاءت الديانة المسيحية ثم اعقبتها الاسلامية فقويت السلطة الدينية قوة لم تعهد لها من قبل فخضع العقل للدين مضطراً خمسة عشر قرناً. وحدث أن اعترى اهل الدين في الغرب زهو بسلطانهم على النفوس فأسرفوا في تقييد العقل وغلوا في مصادرة العلم فكان ذلك مدعاة لان يحمل العقل من التحامل على الاديان والمتدينين ما يلقفه النهاية القصوى من مزاعمه ومطامعه . فلما استرد دولته في القرن الخامس عشر صرح على رؤوس الاشهاد بأنه على جهل جميع معاضل الكون من غير

ان يلجأ الى فرض يتعالى عن تحليله ويترفع عن تمحيصه. وعرض الناس جميع ما كان يتعلم به من الشبهات في وجود العقل المدبر والعالم الروحاني وصرح أنها لا تقبل الحل. فدام الالحاد في رجال العلم واندفعوا يتلمسون الحلول التي تنطبق على دستور العقل فخطبم العلم من ذلك الحين بهذا العابر، ودونت كتبه بهذه الروح. والذي زاد الامر شدة ان خصومهم وهم رجال الدين كانوا في اثناء هذه الفورة العقلية يزدادون جمودا على جمودهم، وتشددا في مصادرة البديهيات العلمية فوق سابق تشددهم، فكان يقابلهم العلميون بتطرف يناسب تطرفهم، حتى وقعت الطائفتان في نوعين من الغلو يتفقان شكلا ويختلفان موضوعا. فاذا كان الدينيون خيل اليهم في إبان دولتهم انهم حفظة المعارف السماوية، وخزنة الاسرار العلوية، واولوا الحل والعقد في الحظيرة القدسية، فقد خيل للعلميين في هذا الدور بأنهم قد حلوا طلاسم الطبيعة، وفكوا معميات الخليقة، وكشفوا ستائر القوى الكونية، وانهم بلغوا الى مكانة من العلم تمكنهم من مفاجأة النواميس التكوينية وهي تصور الكائنات العالمية، وانتهوا الى أوج من الفهم يسمح لهم بالحكم على بداآت الاشياء، ونهاياتها، حكما لا يقبل جدالا، ولا يحتمل قيلا ولا قالا.

في هذا الدور بلغ غرور رجال العلم حدا زعموا معه ان الاحكام التي تصدرها دور التشريح ومعامل الطبيعة ومراصد الكواكب ومستنبتات الجراثيم الميكروسكوبية يجب ان تحني لها الرؤس خاضعة، وان تعتبر حقائق مطلقة. وسرى هذا الغرور من رجال العلم الى صغار طلابه والى مقلديهم من المتكئين بهم، فخيل اليهم باطلاعهم على أثارة مما سطروه وزعموا انهم اعرف بالكون وخوافيه، وبالعوامل التي تعمل فيه، من الدكاني بمحتويات دكانه، ومن المستبضع بما تحت اردانه.

ولكن هيهات ان يظل العقل محجوبا وراء هذه الكسف الكثيفة من الغرور وهو القوة التي لا تنخدع بخيال الا ريثما تستجم قواها لتأمله، ولا تقنع بظاهر شيء الا قدر ما تمهد الوسيلة لتبطنه. فبيت في النصف الاخير من القرن التاسع عشر من تحت هذا الحشو الرث من الادعاآت الباطلة، والمزاعم العاطلة، كمن هب من نومه عقيب

كابوس أخذ بمخنقه ، معلنة على رؤس الاشهاد أن ما خضعت له في مدى الثلاثة القرون الماضية من الآراء الفلسفية كان أدخل في عالم الوهم من كل ماخضعت له من الآراء الضالة في عهودها السابقة . وانها وهي في هذا الدور من الغرور كانت أبعد عن دستورها ، وأعصى لقانونها منها في أي دور كان قبله ، وانها لا تزال تنشد الحقيقة المطلقة على ما كانت عليه اول يوم وجدت فيه على هذا الارض .

فما هي العوامل التي ايقظت هذه القوة العقلية من سباتها ودلتها على وجه غرورها ؟ وماهو هذا الوهم الضخم الذي تمثّل لها في صورة الحقيقة المطلقة وأنجح في خدعها قرونا متوالية ؟ والى أي جهة ولت وجهها بعد هذه اليقظة النهائية

***

(افاقة العقل من غروره العلمي)

فاذا أن القوة العقلية كانت قد انخدعت بظاهر من العلم مدة ثلاثة قرون ثم افاقت من غرورها في النصف الاخير من القرن التاسع عشر وتبينت انها كانت متمسكة مما تسميه بالعلوم المحصنة بما هو أدخل في الوهم من كل ماخضعت له من الآراء الضالة في عهودها السابقة ، فاذ كان هذا الانتقال الجلل يعتبر فاتحة عهد بلوغ الرشد للعقل الانساني ، حيث وضحت له معالم الطرق التى لا يضل بعدها في اندفاعه وراء الحقيقة المطلقة ، فقد وجب علينا ان نستشهد لكل ماقلناه في هذا الصدد بكلمة لعالم من اشهر المشتغلين بالعلوم الطبيعية وهو الاستاذ (جوستاف لوبون) فقد ألم بذكر هذا الحادث الجلل في كتابه (تحول المادة) فقال :

« كان اذا اتفق ان فيلسوفا من المنصرفين الي درس الموضوعات ذات الحدود المبهمة والنتائج غير المحققة ، كعلم النفس والسياسة والتاريخ قرأ منذ عدة سنين كتابا

خاصا بالعلم الطبيعي كان يدهش من وضوح التحديدات فيه وصحة البراهين وضبط التجارب . اذ كان يرى كل ما في ذلك الكتاب متسلسلا بعضه يشرح بعضا بدقة. وكان يرى أن بجانب كل ظاهرة طبيعية مهما بلغت من التركب تفسيراً يبين غامضها .

«فاذا حمل حب الاطلاع هذا الفيلسوف نفسه على أن يبحث عن الاصول العامة لهذه العلوم المضبوطة الى هذا الحد ، لا يملك نفسه من بساطتها المدهشة ومن عظمتها المهيبة . فيجد في قاعدة علم الكيمياء نظرية (الجوهر الفرد) الذى لا يقبل الانقسام، ويجد في قاعدة علم الطبيعة (القوة) التي لا تتلاشى . ويرى معادلات علمية ولدتها التجربة أو العقل المحض، تشمل في نظريات صارمة، العناصر الاساسية الاربعة للاشياء، وهي : الزمان والفضاء والمادة والقوة . ويعرف أن جميع الجواهر الوجودية من الكوكب المظلم الدائر في الفضاء دوراته الاولية الابدية الى ذرة الغبار الحقيرة التى يظهر ان الرياح تذورها اتفاقاء تخضع كلها لنواميس سائدة عليا .

«كان العالم يختال بهذا العلم الذى هو ثمرة جهود بذلت في عدة قرون. وكانت الوحدة والبساطة سائدة بفضله في كل مكان حتى أن بعض العقول المغرمة بالنظريات كانت تعتقد امكان تبسيط العلم أكثر مما هو عليه بعدم اعتبار شيء غير العلاقات الرياضية بين الظواهر الطبيعية. فان هذه الظواهر كانت تتراآى لهم كأنها مظاهر لموجود واحد وهو القوة وكان يخيل لهم أن تكوين بعض المعادلات الفرقية تكفى لتفسير جميع الحوادث التى تقع تحت المشاهدة . وكانوا يظنون أن الغرض الاول للعلم هو كشف نظريات جديدة تعتبر على الفور كأنها نواميس عامة يجب أن تخضع لها الطبيعة .

«فكان الفيلسوف المتقدم ذكره لايسعه الا الانحناء أمام هذه النتائج الضخمة، معترفا بأنه إن عدم اليقين في البيئة الفلسفية التي عرفها فمن الممكن الحصول على ذلك اليقين في مجال العلم المحض» .

« كيف يعقل أن يشك في ذلك ؟ اما كان يرى ان اكثر العلماء كانوا من الوثوق براهينهم بحيث لاتتطرق أخف الشكوك اليهم ؟ وأنهم بتسلطهم على التيار المتحول للاشياء ، وعلى فوضى الآراء المتغيرة والمتناقضة يسكنون هذا الجو الصافي من الاطلاق الذى تتلاشى فيه جميع الشكوك ، وتشرق فيه أنوار الحقيقة النقية الآخذة بالابصار ؟

« كل نظرياتنا العلميـة العظيمة ليست بقديمة العهد جداً ، لان تاريخ العلم التجريبي المحقق لايصعد الى أبعد من ثلاثة قرون وفى هذا العهد القريب قريبا نسبيا حدث دوران مختلفان من أدوار التحول في أفكار العلماء .

« فالدور الاول كان دور الثقة والاعتقاد الذى تكلمت عنه آنفاً ، فكانت فيه المقررات الفلسفية والدينية ، وهي قواعد مدركاتنا القديمـة عن الوجود ، تضمحل وتزول ببطء امام المكتشفات العلمية التى تتوالى يوميا ، ولاسيما فى النصف الاول من القرن الماضي . فما كنت تسمع من يرفع عقيرته بشكوى . وكيف يشتكى من احلال الحقائق المطلقة على أوهام المعتقدات القديمة ؟ فكان يظن مؤسسو كل علم جديد انهم يحدون له الدوائر النهائية التي لايعوزها غير سد مافيها من الفراغ . وكان يخيل اليهم انهم متى اتموا بناء الصرح العلمي استمر هذا الصرح قائما على انقاض اوهام الزمان الماضي . فكانت العقيدة العلمية في هذا الدور على غاية تمامها . نعم انها كانت تمثل الطبيعة غير مبالية بالانسان ، والسماوات خالية من السكان ، ولكنهم كانوا يؤملون أن يعمروها قريبا بأوثان جديدة ويقترحون على الناس عبادتها . وهي وان كانت أوثانا خشنة الا انها لاتخدعنا أبداً .

« دامت هذه العقيدة في المقررات الكبري للعلم العصرى حافظة لقوتها الي ان حدثت فى الايام الاخيرة مكتشفات غير منتظرة قضت على الفكر العلمى ان يكابد من الشكوك ما كان يعتقد انه قد تخلص منه أبد الآبدين . فان الصرح العلمي (تأمل) الذي كان لايرى صدوعه الا عدد قليل من العقول العالية تزعزع فجأة بشدة عظيمة

وصارت التناقضات والمحالات التي فيه ظاهرة للعيان بعد ان كانت من الخفاء بحيث تكاد لاتبلغها الظنون .

« أدرك الناس على عجل انهم كانوا مخدوعين ، وأسرعوا يتساءلون عما اذا كانت الاصول المسكونة المقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية لم تكن الا فروضا واهية تحجب تحت غشائها جهلا لايسبر له غور . فحدث اذ ذاك في المقررات العلمية مثل ماحدث قبل ذلك للعقائد الدينية عند ماشرعوا في مناقشتها الحساب . فسبقت ساعة الانحطاط ثم تلاها دور الزوال والنسيان .

« لامشاحة فى أن الاصول التي كان العلم يختال بها اختيالا لم تزل كل الزوال، بل هي ستبقى أمدا طويلا في نظر العامة كحقائق مقررة، وستستمر الكتب الابتدائية على نشرها ولكنها قد فقدت كل ماكان لها من الاجلال فى نظر العلماء المحققين .

« تلك المكتشفات التى نوهت بها آنفا قد كشفت اللثام عن الظنيات التى بدأت تفضحها الكتب الحديثة، وبذلك دخل العلم نفسه فى دور من الفوضى كانوا يظنون انه قد سلم منه الى الابد . وأصبحنا نرى أصولا كان يظن انها ذات قاعدة رياضية محققة صارت موضوع النزاع بين العلماء الذين من وظائفهم تعليمها والدفاع عنها . وقد صدرت كتب على مثل الكتاب القيم المسمى (العلم والافتراض) لهنرى بوانكاريه تؤتينا بالبرهان على مانقول فى كل صفحة من صفحاتها . فلقد أرانا هذا الرياضي المشهور اننا نعيش وسط الافتراضات والاتفاقات حتى في مجال العلوم الرياضية .

« وقد بين لنا زميل كبير له في مجمع العلماء وهو العالم الرياضي (أميل بيكار) في بعض مؤلفاته مقدار تنافر الاصول الحالية لعلم الميكانيكا، وهو العلم الاساسى الذى يتطاول الى تصوير النواميس العامة للكون . واليك ماقال في هذا الموضوع (في آخر القرن الثامن عشر كانت أصول علم الميكانيكا تظهر فوق متناول كل نقد، وكانت أعمال مؤسسي هذا العلم تؤلف كتلة ظن الناس انها تكافح الزمان . ولكن

منذ ذلك الحين أخذ التحليل العلمي الدقيق يبحث القواعد التي يقوم عليها هذا البنا بمساعدة الرجابات المكبيرة، وقد أفضى ذلك الى اننا نصادف الآن عقبات صعبة التذليل حيث كان لايتخيل أمثال العالمين (لاجرانـج) و(لابلاس) الا بسائط وممهدات. ولقد شعر كل من تكلفوا تعليم بداءات الميكانيكا بدقليـل من التروي بمبلغ تنافر أصولها التقليدية اذا أريد عرضها على الناظرين)

«وقد أبدى الاستاذ (ماتشي) في كتابه (تاريخ علم الميكانيـكا) الذى نشره حديثا رأيا من هذا القبيل فقال:

(أن الاصول الميكانيكية التي تظهر أبسط الاصول هي في الحقيقةمن طبيعة تعتبر غاية في التعقد. فانها اسست على تجارب لم تتحقق ولا يمكن تحققها. وعليه فلا يمكن بأية وسيلة من الوسائل أن تعتبر كلها حقائق مثبتة).

« اننا نملك الآن ثلاثة مذاهب لعلم الميكانيـكا يصم كل منهـا الآخر بالبطـلان، فاذا لم يكن واحـد منها يستحق هـذا الوصف فيمكن أن تعتبر جميعها ناقصة للغاية، ولايمكن أن تعطينا الا قليلا من التفسيرات المقبـولة لحوادث الـكون».

«وقد كتب المسيو (لوسيان پوانكاريه) من جهته يقول (انه لا توجـد لدينـا نظريات كبرى الآن يمكن قبولها قبولا تاماً ويجمع عليها المجربون اجماعاًعاماً، بل يسود اليوم على عالم العلوم الطبيعية نوع من الفوضى. وقد اتسع المجال للاجتراءات الممكنة، ولم يظهر أن ناموسا من النواميس يعتبر ضروريا ضرورة مطلقة. فنحن نشهد في هذه الآونة أعمالا هي بالهدم اشبه منها باقامة بناء نهائي. فالآراء التي كانت تظهر لمن سبقنا كأنها تأسست تأسسا ثابتاً، صارت اليوم لدينا موضوعا للمناقشة. وقد رفض اليوم على وجه عام الرأي القائل بأن كل الظواهر الطبيعية تقبل تفسيرات ميكانيكيـة. فان أصول علم الميكانيكا نفسها صارت مشكوكا فيها. وقد شوهدت حوادث جديدة زعزعت عقائدنا المتعلقة بالقيمة المطلقة للنواميس التى اعتبرت أساسيـة الى اليوم)

انتهى كلام الاستاذ لوسيان بوانكاريه . ثم ختم العلامة (جوستاف لوبون) مقالته بهذه الكلمات :

«من حسن الحظ لاشيء أكثر ملاءمة للرقي العلمي من هذه الفوضى . فالوجود مفعم بمجهولات لاتراها والحجاب الذي يحجبها عنا منسوج غالبا من الآراء الضالة أو الناقصة التي توجبها علينا تقاليد العلم الرسمي . فلا يمكن عمل خطوة للامام بعد تفكك عرى الآراء السابقة . والاشد خطرا على تقدم العقل الانساني هو تقديم الظنيات للقراء لابسة حلل الحقائق المقررة على نحو ما تفعله كتب التعليم ، والتطاول لوضع تخوم العلم ورسم حدود لما يمكن معرفته كما كان يود ذلك أجوست كونت» انتهى

فما هي تلك المكتشفات غير المنتظرة التي خاصت العقل من غروره ، وماذا كانت تلك الآراء الضالة التي كان يخبط في دياجيرها ثلاثة قرون ؟

**

(المسائل التي فتنت العقل)

تألبت على فتنة العقل في دور الغرور العلمي بضع مسائل كان لها سلطان كبير عليه لا مناص لنا من النظر فيها لبيان وجوه اغتراره بها وما طرأ عليها فتسبب عنه خلاصه من ذلك الاغترار

أول تلك المسائل مسألة المادة . شغلت هذه المسألة عقول الباحثين في الكون من أقدم العصور فأرادوا أن يقفوا على الاصل الذي نشأت منه وعلى سر استحالاتها ونظام تفاعلاتها وعلى حقيقة القوى العاملة في تلك الاستحالات والتفاعلات التي لا تقف عند حد . فتخيل الفلاسفة الاولون إن اصلها الماء او الهواء أو النار الخ حتى جاء لوسيب وديموكريت في القرن الخامس قبل الميلاد فوضعا نظرية الجوهر الفرد وقررا بان المادة مؤلفة من جواهر غاية في الصغر متمتعة بحركة ذاتية فيها وانها أزلية أبدية

فكان حكم هذا المذهب أوفر من حظ غيره شايعه فلاسفة كثيرون ممن أتوا بعد ديموكريت

فلما تغلب الدين على الفلسفة بظهور المسيحية والاسلامية لبث هذا المذهب حتى عهد النهضة الاوربية،فكان هو المذهب الغالب على عقول المتكلمين ، فهذبوه على ما يناسب مداركهم،فقالوا أن الجواهر الفردة متساوية في الحجم في جميع الاجسام وأن بينها فراغاً تعمل فيه قوتا جذب ودفع وان تلك الجواهر لا تنعدم ولا تتجدد ولكنها تتحول من جسم الى جسم حافظة لجميع خصائصها الذاتية، وان تخالف الاجسام مع وحدتها في الاصل ناشيء من اختلاف عددها وتباين أوضاعها في كل منها.فالموجود المطلق هو هذه الجواهر الفردة لايشاركها في الوجود غير القوة الملازمة لها التي لايعقل أن تنفصل عنها .

سكن العقل الى هذا المذهب لبساطته ، والعقل لا يهنيه الا أن يرتاح الى تعليل يجد فيه حاجته الماسة من فهم الكون الذى يحيط به،لانه كما قلنا يستوحش بحكم تركيبه من الجهل ولا يطيق الصبر عليه . وأى تعليل أسهل وأبسط من هذا التعليل الذى أحال عالم الشهادة كله الى المادة المحسوسة،وعالم الغيب برمته الى القوة الملازمة لها ؟ فالمادة تؤلف ظواهر الاشياء. والقوة تعمل فيها وتذهب في ابداعها كل مذهب . فهل من حاجة بعد هذا الى خالق يضع أصول الطبيعة وعقل أولى يدبر نظام الكائنات

قال العلامة (بوخنر) الالماني في كتابه (القوة والمادة) « ان الذين يقولون بوجود قوة خالقة خارجة عن المادة وفوق الطبيعة خلقت العالم من ذاتها أو من العدم ، يناقضون الاصول الاساسية للعلم الطبيعي المؤسس على التجربة والواقع . »

وقال في مكان آخر من ذلك الكتاب :

« ان القول بوجود قوة مجردة عن المادة لا معنى له كالقول بوجود مادة بلا قوة . فان الناس ما سلموا بوجود قوى حافة ممتازة عن المادة إلا بتأثير الاوهام والجهالات

التي كانت سائغة في العصور المتقدمة، ولكن العلم لا يقبل اليوم مثل هذا الرأي»

فان قلت له ماهي تلك المادة التي تضعونها هذا الموضع الاعلى من الوجود المطلق؟ أجابك كما ورد في ذلك الكتاب :

«نحن لا نعلم ماهي المادة في ذاتها، كما لانعلم ماهي القوة في ذاتها ايضا . ولا ندرى ما اذا كانت المادة واحدة في أصلها، أومكونة من ستين أوسبعين عنصراً كماريا معروفا . ولكننا نعلم علما يقينيا بأنه يوجد شيء يجذب ويدفع ويقاوم ويتحرك وينتج ظواهر النور والحرارة الخ، وانه في الوقت الذى يزول فيه هذا الشيء تزول هذه الظواهر معه . فهذا الشيء هو الذى نسميه مادة ونسمى الظواهر المذكورة، ظاهرها ، وندعو سبب الظواهر القوى المشمولة في المادة» .

فان قلت له فهل يعقل خروج الابداع مما لا يدري ما هو الابداع، وبروز الحياة من الجماد الميت ؟ أجابك بما ورد في كتابه المذكور بصفحتي ٤٥ و٤٦

« ان ادراك هذا السر يقتضي أن تعرف أن قوى طبيعية بل وعقلية ملازمة لجوهر المادة. هذه القوى العقلية تظهر في جميع الاحوال التي تجتمع فيها شروط ضرورية في المخ أو في المجموع العصبي حيث تكون عناصر المادة متحدة على شكل خاص، ومتأثرة بحركة خاصة، فتنتج منها ظواهر الشعور والفكر، كما تنتج منها في أحوال أخرى ظواهر الجذب والدفع . ولقد قال شوبنهور :(اذ كانت المادة تستطيع أن تسقط فهى تستطيع أن تفكر). نعم هي في شكل حجر تسقط الى الارض، وفى شكل عضلات تنقبض، وفي شكل مادة عصبية حية توجد فيها خاصتا الشعور والفكر وتصير مدركة لذاتها »

لسنا هنا بصدد مناقشة الماديين في مذهبهم، ولكنا نقول أي فرق يصبح بعد هذا من الوجهة الاعتقادية بين المادى المنزه عن الاوهام، وبين المؤمن المنغمس فيها في رأي بوخنر؟ فاذا كان المؤمن يعتقد أن أصل الوجود قوة عاقلة أزلية أبدية قادرة

على كل شيء . فالمادي (يعتقد) بأن أصل الوجود مادة أزلية أبدية قادرة على كل شيء .. وإذا كان للمؤمن قد بت في أمر لا يعلمه ولا يستطيع أن يخضعه للتجربة والمشاهدة، فقد فعل المادي مثل ذلك، وليس له بعد اعترافه بأنه يجهل المادة وقوتها من محيص . وإذا كان المادي قد عز عليه أن يعترف لأصل الوجود بالحياة والشعور، لعدم امكانه التوفيق بين هذه الخصائص وبين وجود الشر والنقص في هذا العالم وسيادة النظام الآلي فيه، فان المؤمن قد أثبت لها هذه الخصائص لانه صعب عليه أن يعلل وجود هذه الخصائص نفسها في بعض مكنوناتها مع تجردها هي منها قائلا : كيف يهب الحياة والشعور والعقل ما لا حياة له ولا شعور ولا عقل ؟

وقد أدرك المؤمن مبلغ الشر والنقص في العالم وسيادة النظام الآلي فيه ، ولكنه رأى أن بجانب هذا الشر خيرا، وبجانب النقص ابداعا، ومع تلك الصرامة الآلية حكمة، فقطع بأن لاقتران هذه الاضداد بعضها ببعض حكمة لا يعلمها .

نعم قد علل المادي وجود الحياة والقوى العقلية والخير الجزئي والابداع الجلي وآثار القصد والحكمة في الخليقة بعلل طبيعية محضة فتنت كثيرا من العقول، ولكنها لم تستطع ان تفتن العقول العليا، فلا يزال الاعلام من حملة أسرار العلوم وخزنة كنوز المعارف ينصرون الايمان على الالحاد على رؤوس الاشهاد.

قلت لست هنا بصدد مناقشة الماديين فلا أكتفي بما قلت حتى يجيء موضع تلك المناقشة، ولكني بصدد بيان اغترار العقل البشري بالحلول الوقتية لمسألة المادة وذهابه في الافتتان بها الى أقصى حد. ولكن هيهات أن يسكن العقل لامثال هذه الخيالات. فلم يلبث ان شك فيها جملة ثم حمل عليها وجها لوجه، وكشف جميع نقائصها وابتنى نظريات سواها تناسب ما وصل اليه من المعارف الجديدة .

فلننظر لم شك فيها ، وكيف حمل عليها، وما الذي بدا له من نقائصها، وما هي النظريات الجديدة التي استبدلها بها

(خلاف العلماء في أصل المادة)

لم يلبث العقل أكثر من ثلاثة قرون بعد النهضة العلمية في غروره بمذهب الجوهر الفرد حتى أفاق من غشيته فنظر في هذا المذهب نظرات انتقادية أحالته الى قيمته الحقيقية، أى قذفت به الى عالم التصورات الخيالية . وبما ان هذا الرأى هو الاساس الذى يقوم عليه المذهب المادى، وما ينتج منه من الدعاوى الطويلة العريضة ، نرى من الحكمة أن لاندعه قبل أن نثبت للقارئين انه انهار على نفسه ولم يبق له من قيمة علمية . وأحسن أسلوب نتوخاه لذلك أن نترجم لهم ما كتب تحت كلمة « مادة » في دائرة معارف القرن العشرين الفرنسية وهي آخر موسوعة علمية صدرت في اعرق البلاد مدنية وأبعدها عن التأثر بالعاطفة الدينية .

جاء في تلك الدائرة بعد سرد الادوار التى تقلبت فيها الآراء الفلسفية القديمة عن المادة ما يأتي:

«المسائل الاساسية التي تشغل الفلسفة والعلم في العصر الحاضر فيما يختص بالمادة يمكن حصرها فيما نعتقد في مسألتين . الاولى تتعلق على وجه خاص بالفلسفة، والثانية تتعلق بالعلم

(المسألة الاولى) ماهي الاسباب الحقة التي تحملنا على القول بأن للمادة وجوداً حقيقيا متحيزا في الخارج؟ وماهي قيمة المعرفة، والاولى أن يقال ماهي قيمة الفكرة، التي نستطيع أن نكونها لانفسنا عنها ؟

(المسألة الثانية) ماذا نعلم عن طبيعة المادة ، وعلى اى وجه نحاول ان نمثلها لانفسنا ؟

« أما عن المسألة الاولى فالوفاق تام بين المذاهب المختلفة، وذلك بإجماعها على ان وجود المادة في الواقع ليس معروفا لنا من طريق مباشر، ولكننا نفترض وجودها فرضاً بدليل مؤسس على العلاقة السببية، وذلك لاجل ان نفسر لانفسنا حدوث الظواهر

التي تؤثر على حواسنا . وعليه فمهما كانت الفكرة التي نكونها لانفسنا عن المادة فانا لاندركها أبدا على ماهي عليـه في الواقع، بل على ماهي عليه بالنسبة لشعورنا وبالنسبة لعادات أو حاجات افـكارنا »

ثم أخذت دائرة المعارف فى مناقشة القائلين بالجوهر الفرد فقالت :

« ان هذا الرأى آخذ في الارتباك، اذعليه من جهة تفسير ظواهر الضوء والحرارة والـكهرباء التى تضطر الباحثين للقول بأن الجواهر الفردة نفسها يجب أن تكون مشمولة في وسط مادي ليسد ما بينها من الفراغ . وعليه ايضا من جهة أخرى أن يفسر تفسيرا ميكانيكيا قوتي الجذب والدفع اللتين تنسبان اليها ولا يمكن ان يفرض لها وجود الا فى الحركات الباطنة لاجزائها. فمذهب الجوهر الفرد ينحدر والحالة هذه على سفح دور وتسلسل لاينتهيان، اذ يمكن ان يقال ماذا عسى ان تكون هذه الاجزاء من الجواهر الفردة ان لم تكن جواهر فردة أصغر منهـا ؟ وهذا الاثير الذى يتخيلون وجوده بين الجواهر الفردة ألا يكون مكونا هو ايضـا من جواهر فردة اذا كان ماديا ؟ فيكون الحد الذي زعموا انهم بلغوه يتقهقر بدون انقطاع امام الفكر الانساني . اضف الى ماتقدم التناقض الذى يحدث اذا نظر الى هذه المسألة من وجهة علم العلل الاولية من فرض وجود شيء متحيز لايقبل الانقسام وهو نفسه مع ذلك يقبل الانقسام الى مالا نهاية له . من هنا تفهم ان القول بالجوهر الفرد لايعتبر لا كثر من فيلسوف عصرى الا وسيلة أو حيلة او خيال يسهل التعبير عن نتائج التجارب ويخضعها للتحليل العلمى ولـكنه لاعلاقة له بحقيقة المادة .

« اذا تصورت المادة على هذا الوجه لازمها أمران لايمكن ان يزايلاها وهما الحجم المتحيز والقوة، فوجب ابدال هذا الرأى برأى أكثر بساطة . فقد قال « فراديه » . مايلزم علمنا بالجوهر الفرد خارجا عن القوة ؟ انك تتخيل نواة تسميها « ب » تحيطها بقوة تدعوهـا « م ». اما انا فلا اعقل الا ان النواة « ب » تفني ولا يبقى الا القوة « م » وحدها،

وفي الواقع أي فكرة نستطيع ان نكونها لانفسنا عن تلك القوة المستقلة عن القوة ؟

« في هذا الرأي الجديد الذي لا ينفرد به (فاراديه) يشاركه فيه بوسكوفتش و (كانت) و (كوشي) و (رنوفييه) وغيرهم، يكون العنصر النهائي للمادة ليس هو الجوهر الفرد ولكن مركز القوى. فيكون كل عنصر مادي نقطة لا تقبل الانقسام تشع حولها في جميع الاتجاهات خطوط من القوي تصلها بجميع النقط الاخرى الوجود وهي مع ذلك قابلة لان تنتقل من مكانها لتقرب او تبعد من اوعن تلك النقط . وهـذا يفضي الى القول بأن تلك النقطة تتركب وتتجدد من مجموع الآثار التي تحدثها هي على المراكز الاخرى ثم تعود فتتأثر بها . ولكن من الذي لا يرى ان في هـذا المذهب تكون الوحدة وعدم قبول الانقسام لكل مركز من القوى مما يستحيل تحديده بل ولا ادراكه ؟ أي فكرة نكونها لانفسنا عن مجموع هذه القوي التي يشملها كل مركز من تلك المراكز مع علمنا بأن اي قوي لا تتعرف الينا ميكانيكيا الا بالحركات التي تسببها او تمنعها او تغيرها ؟ الا يفضي هـذا الى القول بأنه لا يوجد في الكون غير حركات عاملة وغير عاملة متعلق بعضها ببعض تستمر وتتطور على مقتضي قوانين رياضية ؟

« من هنا نشأ رأي جـديد لا يشتق من الحركة ولا من الميكانيكا يصح ان يسمي رأيا هندسيا، وهو يحاول ان يحيل المادة الي حركة محضة. اول من قال بهذا الرأى (ديكارت) ثم جدده في عصرنا هذا (وليم طومسون) الانجليزي و (لاسويتز) الالماني . فتكون المادة في رأيهم سيالا مصمتا متجانسا تتحدد الحركة فيه في وحدات ظاهرة . فالجواهر الفردة في هذا المذهب ليست الازوابع او حلقات زوبعية هولمولتز كالحلقات التي حـددت خصائصها حسابات (هولمتز) وحققتها تجارب (تيت) . ولكن الحركة في سيال متجانس كل التجانس وغير قابل للانضغاط اى مصمت لا تكون حركته محسوسة كما اعترض بذلك (ستالو)، اذ يكون كل فرق في مثل هذا السيال تصوري محض . ورغما عن انفصال كتلة منه بتأثير كتلة اخرى تحتل حيزا مفروضا

يكون على الدوام شاملا مقداراً ثابتا من الاختلال لايمكن تمييزه مطلقا عن المقدار الذى كان يشغله في اللحظة التي قبلها . وغير ذلك كما لاحظه (ماكسويل) ان الذرة الزوبعية لا تكون صالحة بتصورها الذاتي لتبول كل تأثير يقع عليها

«وعلى هذا فجميع الفروض التي فرضت للآن عاجزة عن حل تناقضاتها الذاتية ولا تنطبق على الحوادث . فاذا تستنتج من هذه الحال غير أن مدركاتنا العلميــة في المادة، وهى تختلف في صلاحيتها كوسائل الترتيب والتحليل، لانستطيع أن نزعم أنها الحقيقة المطلقة. وهذه الفروض باعتبار أنها لاوظيفة لها الا تسهيل وتعميم صفات وعلاقات الظواهر المحسوسة، لايمكن أن تكون حتما الا رمزية وخداعة كهذه الظواهر نفسها . فهي تخدم على حال من الاحوال لضبط الظواهر الوجودية بلمة أكثر وضوحا والتئاما لما تضعه مشاعرنا، ولكنها لاتنفذ بنا الى ماوراء هذه الظواهر . على أنها لغة نفسها مشتقة من لغة المشاعر ومتأثرة بحالة نسبية لايمكن معالجتها . فنحن محكوم علينا والحالة هذه بجهل ماهية المادة على الدوام »

ثم ختمت الدائرة هذا الفصل بقولها:

«وعلى هذا فلو صرفنا النظر عن الرأي اللاأدرى الذى هو عبارة عن رفض أي محاولة لتفسير الحوادث، فيظهر ان الرأى الذى يرمي اليه حل علماء العلل الاولية هو ان المادة باعتبار أصلها تنحل كما فكر في ذلك (ليبنتز) الى موجود روحاني طبيعته كطبيعة الوجود الذى يتجلى لوجداننا . والنقطة التي تبقى بعد ذلك غير محققة هى أن نعرف ما اذا كان الوجود هو مجتمع ذرات روحية متميز بعضها عن بعض، أو انه كائن واحد لايقبل الانقسام ومستمر على الدوام وانه البقاء والحلول التام » انتهى

هذا معرض آراء العلماء في المادة قبل بصح انه يبنى على واحد منها وخاصة على القول القديم الرث بالجوهر الفرد مذهب يدعي أنه يوصل الى ادراك سر الطبيعة والتحكم في معضلات الخليقة ? فلننظر الآن فيما جد من الآراء في المادة أي بعد ظهور دائرة المعارف اي في القشرين السنة الاخيرة

(المباحث على المادة في القرن العشرين)

ماذا جد من المباحث عن المادة في العشرين السنة الاخيرة ؟ أمر جلل وهو القول بتحليلها وأحالتها الى قوة. المسئلة هذه المرة ليست مسألة كلامية ككل ما سبق بل عملية تجريبية ضاق معها الخناق على المذهب المادي حتى أصبح لايجد له متنفساً الا في رؤوس الذين يجمدون على النظريات التي توافق أهواءهم وان خالفت العقل والحس معاً:

قال الطبيعى (جوستاف لوبون) في رسالة له أسماها (تطور المادة).

«ان عقيدة عدم تلاشي المادة احدى العقائد القليلة التى اخذها العلم العصرى عن العلم القديم بدون أن يغير فيها شيئاً. فمن عهد الشاعر الكبير (لوكريس) الذي جعلها اساس فلسفته الي (لافوازييه) الخالد الذكر الذى أقعدها على قواعد اعتبرت أبدية لم تكابد هذه العقيدة أي تزعزع ولم يفكر أحد في أن يجادل فيها. فاستحق الدكتور (جوستاف لوبون) لقبا من المجد لانه أول من هاجم هذه النظرية التي يسميها (عقيدة) وتوصل الى اسقاطها في سنين معدودة » انتهي

ونحن بدل أن نأخذ تاريخ هذا الاكتشاف الضخم عن العالم (جوستاف لوبون) نأخذه عن مكتشفه نفسه ، فنترجم لمعاً من محاضراته التي ألقاها عن أكتشافه ذلك في سنة ١٩٠٧ ونشرها فى كتاب أسماه (تولد المادة وفناؤها) قال :

« أقص عليكم حديثا عجيباً غريباً لم يكن يعلم به العلم منذ عشر سنين ، حديثاً عن قطعة من أية مادة لتكن حجراً تصدمونه في طريقكم أوورقة موضوعة أمامكم أو قطعة من المعادن التى تتداولونها كل يوم

«كان يعتقد العلم في الزمن الماضي، ولا يزال قوم يعتقدون أيضا ، أن المادة تتألف من عناصر جامدة لا يعتريها العدم، وجدت في أصل الاشياء ، وتبقى في خلال

جميع تطوراتها بقاء سرمديا . فكانت الكيمياء تقول لايفني شيء . وكانت على حق بما تقول لان المادة كانت رغما عن كل الاستحالات التي تتكبدها تظهر انها حافظة لوزنها الاول .

« ولكن العلم يعلمنا شيئا آخر اليوم ، انه يرينا المادة مركبة من مجموعات صغيرة تشبه المجموعات الشمسية ، مؤلفة من عناصر يدور بعضها حول بعض بسرعة عظيمة جدا وهي لاترى ثابتة في حسنا الا بسبب تلك السرعة المفرطة . ويقرر لنا أن الجوهر الفرد مستقر قوى ضخمة لاتعد القوى التي تستخدمها صنائعنا بجانبها شيأ يذكر ، وينتظر أن تنتفع بها تلك الصنائع في يوم من الايام ، ويعرفنا ايضا ان المادة وهي مستودع حياة مركزة لها حس يجعلها تتغير بأخف المؤثرات وألطفها . ويقول لنا أخيرا بأن المادة ليست ابدية بل هي خاضعة للناموس الختم الذى يقضي على جميع الكائنات بالفناء .

« انا لااستطيع ان اصل الي غور بعيد من هذا الموضوع في ساعة واحدة فلا كتف في هذه المحاضرة بأن ابين لكم بعض نتائج المباحث التي أتيتها منذ عشر سنين في موضوع تحليل المادة وقد فصلتها في كتابين نشرتهما حديثا

« هذه المباحث التي كانت نتيجتها الاساسية غير المنتظرة منذ سنين قليلة اثبات ان المادة ليست غير قابلة للزوال ، قد انتشرت بسرعة في جميع المعامل العلمية (تأمل) ، وبعض قضايانا منها مما اعتبرت متطرفة عند ماقررناها لاول مرة بدأت تكون اليوم من الامور المألوفة وان كانت لاتزال بعيدة عن انتاج كل النتائج المرجوة منها . ومتى شاعت هذه النتائج فستؤدى الى بناء صرح علمي يخلد الي الابد :

فاليكم الاصول الاساسية التي اجتهدت في تحليلها معتمدا على تجاربي الخاصة :

أولا — المادة التي كان يظن انها غير قابلة للزوال تتلاشى ببطء بالتحلل المستمر للجواهر الفردة التي تكونها.

ثانيا — متحصلات تحليل المادة هي مادة وسطى بخصائصها بين الاجسام القابلة للوزن وبين الاثير غير القابل للوزن، اى بين عالمين كان العلم قد فصل بينهما فصلا نهائيا الى اليوم.

ثالثا — المادة التي كانت تعتبر قبل اليوم جامدة لا تعطينا غير القوة التي لا تأخذه من سواها هي على العكس من ذلك مستودع عظيم للقوة ـ القوة الباطنة للجواهر الفردة ـ التي يمكن أن تنفقها بدون ان تستعير شيأ من الخارج

رابعا — اكثر قوى الكون كالكهرباء والحرارة الشمسية على وجه خاص هي من القوة الباطنة للجواهر الفردة التي تخلص في اثناء تحلل المادة

خامسا — القوة والمادة شكلان مختلفان لشيء واحد فالمادة هي الشكل الثابت للقوة الباطنة للجواهر الفردة والحرارة والصوت والكهرباء الخ هي الاشكال غير الثابتة لتلك القوة

سادسا — اننا بتحليل الجواهر الفردة أى بصرف المادة عن حالتها المادية لا نعمل غير تحويل الشكل الثابت للقوة المسماة مادة الى أشكال غير ثابتة تسمى كهرباء وضوءا وحرارة الخ . فالمادة والحالة هذه تستحيل الى قوة بحالة مستمرة

سابعاً — ان قانون التطورات المتعاقبة التى يطبق على الكائنات الحية يطبق كذلك على الاجسام البسيطة فالانواع الكيماوية كالانواع الحية ليست ثابتة بل قابلة للتغير

ثامناً — القوة ليست أبعد عن عوامل التلاشى من المادة التي تنتج منها

« فعلم الامس كان مؤسسا على أبدية المادة ولكن علم الغد سيتأسس على قبولها الفناء . وسيكون غرضه الاول الجهاد وسائل سرعة الزيادة أعلاها امور ضمنه بذلك غرضت العصر في

الانسان قوى يكاد لا يكون له حد »

ثم بادر الاستاذ بحل هذه الشبهة وهى : اذا كانت المادة فى ذاتها لا شىء غير القوة فكيف نحس بها جامدة ؟ فقال :

«قد عملت تجارب فى المعامل الكمربائية المائية فأثبتت أن عموداً مائياً لا قطره سنتيمتران اذا أسقط فى انبوبة من علو ٠٠٠ ه متر فلا يمكن خدشه بضربة شديدة من سيف قاطع اذ ترى السيف يقف على سطح السائل كما يقف اذا صادف حائطاً . واذا كانت سرعة عمود السائل أكثر فلا تستطيع قذيفة مدفع أن تخترقه . فاذا قذف شريط من الماء ثخنه بضعة سنتيمترات بسرعة كبيرة يصبح أمام قذيفة المدفع فى مناعة الطبقة الفولاذية لسفينة مدرعة فلا تستطيع أن تخترقه .

« فاذا أعطينا الماء المنصب شكل زوبعة كان لدينا صورة من جزيئات المادة وتفسيراً مرجحا لصلابتها . وبذلك نفهم كيف يصير الاثير اللامادي ماديا جداً اذا استحال الى زوابع ممتعة بسرعة كافية . ونفهم من هنا كذلك أن هذه الحركات الزوبعية لو بطلت لفنيت المادة لوقتها وعادت الى أصلها فى الاثير ».

هذا ماقاله الاستاذ (جوستاف لوبون) فى مقدمة محاضراته فلننظر فى المقالة التالية كيف ... فى تحليلها وماذا رأى من اطوار استحالتها

٠٠

(كيفية تحليل المادة)

ذكر الاستاذ « جوستاف لوبون » كيفية تحليل المادة فى الفصل الخامس من محاضرته كما ورد فى كتابه تولد المادة وفناؤها فقال :

« علينا الآن أن ندرس كيفية تحليل المادة فنقول :

« حدثت تجارب عديدة جداً لا يمكن التشكك فى قيمتها أثبتت ما كنت أنا أول مقرر له من أن الجواهر الفردة المادية التى كانت تعتبر فى الازمان السالفة ثابتة على حالها

يمكن أن تنحل اما من ذاتها أو تحت تأثير عوامل مختلفة وان متحصلات هذا التحلل متشابهة في جميع الاجسام سواء أكانت متولدة من نقطة انصراف الكهرباء من قناعة كروكس باشعاع معدن موضوع تحت تأثير النور أم بتحلل جسم اشعاعي مثل الاورانيوم والتوريوم والراديوم.

وعليه فمن أريد بحث تحلل المادة فلننتخب الاجسام التي تكون أكثر قبولا لظاهرة التحلل من غيرها سواء أكانت قناعة كروكس أو أي معدن يكون في حالته بحيث تنصرف منه الكهرباء. وهو تحت تأثير تيار مسلط عليه من ملف كهرباني والاسهل ان يستعمل لذلك مركبات من اجسام اشعاعية كاملاح التوريوم او الراديوم. وهناك اجسام تنحل بالنور اوغيره وتعطي النتائج بينها ولكن يعاني تحللها بطأ جداً من الاجسام السابقة فتكون ملاحظة التحلل فيها اشد صعوبة .

وقد شوهد ان المتحصلات المختلفة التي عرفت الي الآن من تحلل المادة يمكن ان ترتب في هذه الرتب الست وهي: جزيئات متطايرة ويونات سالبة ويونات موجبة والالكترونات واشعة اكس واشعاعات مشابهة لها واليون يطلق علي كل من العنصرين المتحلين من جسم واحد بتأثير الكهرباء . والالكترون هو الجزيء المنحل من المادة حاملا لكهربائية سالبة اوموجبة ».

« كمية الجزيئات المتطايرة من الاجسام في اثناء التحلل تختلف تبعا لاختلاف تلك الاجسام فهي بالنسبة لغرام الاورانيوم والتوريوم ٧٠٠٠٠ في الثانية وبالنسبة للراديوم مئة مليار كما اثبته حسابات مجربين مختلفين.

« اذا قربت الاجسام القابلة للتألق بجزيئات المادة المتحللة اضاءت . فعلي هذه الخاصة اسست « السبينتاريسكوب » وهي آلة تجعل التحلل المستمر للمادة مرئيا لاعين أبعد الناس عن التصديق وهي تتركب من صفيحة من كبريتور الزنك مركب عليها ابرة صغيرة غمس طرفها بمحلول من جسم قابل التحلل من ذاته . فاذا نظر الي تلك الصفيحة بالعدسة المكبرة فيري حدوث مطر من شرارات صغيرة ناتجة من تصادم الجزيئات المتحللة . عندي انا واحدة من هذه الآلات وهي لا تزال منذ اربع سنين

تلتث امتاراً من الشرر ناتجة من تحلل عشر مليغرام من برومور الراديوم مثبت في طرف الابرة .

« قد ذكرنا فيا قلناه هنا كلة (ملايين الجزئيات التي يستطيع أن يفنيها في مدى عدة أجيال مليغرام واحد من جسم اشعاعي) ومثل هذا العدد يثير دائماً نوعا من قلة الثقة لدى السامع ، لاننا لم نتوصل لان نصور لانفسنا الصغر المتناهي للعناصر المادية . ولكن هذا الاستبعاد يزول متى شاهدنا ان المواد العادية قابلة لان تمكث عدة سنين بدون أن تكابد أي تحلل وهي مع ذلك عرضة لتصريف جزيئات كثيرة منها يسهل الحس بها بواسطة الشم ولكن لا يستطيع أن يقدر ذلك الفقد فيها أشد الموازين حساً .

« وقد عمل المسيو (برتلو) في هذا الموضوع مباحث مفيدة فجرب ان يحدد الفقد الذي تكابده اجسام ذات رائحة قوية جداً من التي تقل فيها قوة التطاير والشم اكثر احساسا بما لا يقدر من الميزان ، اذ انه يستطيع كما قرر ذلك المسيو برتلو أن يشعر بالنسبة لبعض الاجسام كاليودوفورم مثلا بوجود جزء من مئة مليون جزء من المليغرام .

« وقد توصل بتجاربه على هذا الجسم الى هذه النتيجة وهي ان الغرام من اليودوفورم يفقد جزءاً من مئة من المليغرام من وزنه في السنة أي انه يفقد مليغراما واحدا في مئة عام رغما عن انه يصعد منه على الدوام تيار من الجزيئات ذات الرائحة في كل الاتجاهات . وأضاف المسيو برتلو الى هذه التجربة قوله انه اذا استعمل المسك بدل اليودوفورم كان الثقل المفقود أقل كثيرا مما مر (قد يكون ألف ضعف) فيقتضي لتصريف المليغرام منه مرور مئة ألف سنة .

« السرعة التي تتطاير بها جزيئات المادة وهي تتحلل تبلغ من ثلاثين الفا الى ثلاث مئة الف كيلو متر في الثانية الواحدة ، وقد يظهر ان من الصعب جداً قياس سرعة أجسام تدفع بهذه الشدة ومع ذلك فقياسها امر سهل التأدية .

« وإيضاح ذلك تقول اذا عملنا على حزمة من الاشاعات بوسيلة مامن جسم اشعاعي ووجهناها الى صفيحة قابلة للتألق ظهرت على تلك الصفيحة بقعة مضيئة ، وبما ان هذه الحزمة من الجزيئات متكهربة فهي تحيد اذا واجهت سطحا ممغنطا. فيمكن اذن تحويلها بواسطة مغناطيس ويكون تحول البقعة المضيئة على السطح القابل للتألق مشيراً الى مقدار الانحراف الذي يكبده سطح مغناطيسي معروف الشدة للجزيئات المتصاعدة من المادة . وبما ان القوة الضرورية لتحويل كتلة مقدرة من تلك الجزيئات الى مسافة معينة تسمح بتحديد سرعة اندفاع تلك الجزيئات فيعلم انه من الممكن استنتاج درجة سرعتها من مقدار انحرافها ، فاذا احتوت حزمة من الاشعاعات على جزيئات مختلفات في السرعة فانها ترسم خطا يختلف في الطول والقصر على الصفيحة القابلة للتألق بدل ان يظهر على شكل نقطة بسيطة . بهذه الوسيلة يمكن قياس سرعة كل منهما »

هذا ماذكره الاستاذ جوستاف لوبون عن كيفية تحليل المادة في محاضرته مجملا وقد فصل تلك الكيفية في كتابين ضخمين . وبما انه يقول بأن المادة بتحللها تفنى في الاثير فلننظر في ماهية هذا الاثير الذى يعلل به الطبيعيون اكثر الظواهر المجهولة .

**

(الاثير ماهو ؟)

تتردد كلمة الاثير في أفواه العلماء عند كلامهم على النور والحرارة والكهرباء وغيرها من القوى الطبيعية فيعللون به ما أشكل عليهم حله من مسببات الكون ويتكون منه مايستقيم من خلاصة .

فالذي دعا الطبيعيون الى افتراض وجود شيء لايدرك بالحواس ولا

يخضع للتجربة ويناقض بخصائصه وصفاته كل ما يعرف من أشياء الطبيعة ؟

كان الطبيعيون الاقدمون يرون أن النور والحرارة ينتقلان من بعض الاجسام الى بعض بتأثيرهما الذاتي من بعد فلما تأملوا في ذلك في العصور الحديثة وجدوه مما لا يعقل فافترضوا أنهما يتسربان من الاجسام المنيرة والحارة على صورة امواج فأجمعوا على قبول هذا الافتراض لانه فسر لهم كثيراً من المجهولات. ولكن اعترضهم أمر جلل وهو على أى شيء تسرى تلك الامواج من النور والحرارة اليناً من الشمس والكواكب وليس بيننا وبينها هواء ؟ فاضطروا الى فرض وجود حامل لتلك الامواج ولكنهم ان قالوا أن ذلك الحامل هو الهواء كذبهم الحس فان الهواء ثبت انتهاؤه عند حد محدود من سطح الارض. ثم ان وجوده يستلزم أن يكون ثقله لا يطاق وأن يكون عقبة كأداء في طريق الكواكب فيصدها بكتلته غير المتناهية كما تصدها حجب الفولاذ. وان قالوا أن ذلك الحامل ليس بالهواء ولكنه شيء مادي ألطف منه لزمه كل ما يلزم من الافتراض الاول. فانه مادام ماديا فان لانهايته تجعله أكثف من الهواء وانا انما نرى ما وراء هذا الهواء من الكواكب لانه عبارة عن طبقة قليلة السمك ومع ذلك فانه يلون السماء باللون الازرق ويكسر أضواء الكواكب فيخدعنا عن أماكنها ويرينا بعضها قبل أن تظهر على الافق وغير ذلك فما ظنك لو كان ما لنا لهذه اللانهاية ؟

لما آنس العلماء كل هذه الصعوبات من فرض ذلك الحامل ماديا اضطروا أن يفرضوه غير مادى لا بمعنى أنه روحاني بل بمعنى أنه شيء لم يصل لدرجة المادية فلا تسري عليه قوانينها . وهم لاجل أن يتخلصوا من كل الايرادات التي يمكن أن توجه الى ذلك الشيء فتحول بينهم وبين التعليل به اتخذوا لانفسهم كل حيطة فافترضوه شيئا مالئا للوجود كله لا يخلو منه ذرة في الارض ولا في السماء لا وزن له ولا مسام وغير قابل للانضغاط وغاية في اللطافة .

في عهد الشعور بالضرورة الملحة لافتراض الاثير كان النقل يتجددرا. فاضطروا الى

جديدة غير نظرية الجواهر الفردة فوجد من هذا الاثير رسمة، فتصورها حركة زوبعية حاصلة فيه كما قررنا ذلك في المقالة العاشرة. والمرأى استحالة بعض قوى الطبيعة الى بعض كاستحالة الحرارة الى كهرباء أو نور الخ قرر بأن هذه القوى كلها ليست بشيء سوى ذبذبات حاصلة في ذلك الاثير ايضا .

أشعر وأنا اكتب هذا بأن القارئ، البعيد عن المسائل العلمية قد أخذته العجب كل مأخذ من تألب رجال يعتبرون أبعد الناس عقولا عن الاوهام على القول بوجود شيء خلقوه بخيالهم وخلعوه كل الصفات التي يحتاجون هم اليها في تعليلاتهم، وليس لهم على ذلك دليل ولا شبه دليل . ثم يتساءل ذلك القارئ، بعد ذلك عما اذا كان يوجد بينهم وبين غلاة الدينيين فرق من الوجهة الاعتقادية، وعما عسى أن يفضي اليه الاغراق في تمجيد هذا الاثير .

نقول نعم انه أفضى بهم الى القول بانه الموجود المطلق الذي لا أول لوجوده ولا آخر لبقائه، فهو مصدر كل كون، ومستقر كل قوة، ومستودع كل ابداع ، منه تصدر الكائنات واليه تعود، بعد أن يتم كل منها دورته التكوينية، ويؤدي وظيفته العالمية .

ما الذي بقي من الفرق بين الصفات التي يوصف بها الخالق وبين الصفات التي تنحل للاثير ؟ الفرق لا يكاد يذكر، وقد أفضى القول بالاثير الى القول بالخالق فاعتبر الاثير نفسه اله الكون . قال بهذا الرأى جمهور كبير من علماء الالمان على رأسهم الاستاذ (ارنست هيكل) المشهور المدرس بجامعة (يينا) من المانيا فكتب في كتابه (وحدة الوجود) قوله :

« ان هذا الترقي في ادراك الاثير يكسب فلسفة وحدة الوجود قوة عظيمة . وذلك ان الآراء الضالة التي كانت تقول بوجود الفراغ وبتأثير بعضها على بعض من بعد، قد زالت الآن . وهذه اللانهاية الوجودية وان كانت المادة لا تشغلها كلها فانها برمتها مشغولة بالاثير . ثم قال :

« نعم ان نظرية الاثير اذا أخذت كقاعدة للايمان يمكنها أن تعطينا شكلا

معقولا لدين : وذلك اذ جعلنا بازاء الكتلة الجامدة التقيلة أى المادة ذلك الاثير الشامل المتحرك الذى هو الاله الخالق »

ثم أيد الاستاذ (هيكل) رأيه هذا برأى الاستاذ (غليسنجر) الالماني الذى أبداه فى خطابة القاها في التنبورغ من المانيا فذكر عنه انه قال :

« ان أحقر مظهر من مظاهر الطبيعة غير الآلية، واكبر عمل من مجالى الحياة الآلية،يمكن ان يعلل وجودهما على السواء بفعل قوى طبيعية واحدة . وبما انهما من جهة أخرى يشتركان في الصدور من الاصل الاصيل المتوحد الذى يملأ الوجود اللانهائى وهو الاثير فيمكن اعتبار هذا الاثير (الها عاما) ويكون نتيجة ذلك هذا الحكم وهو أن الاعتقاد بالخالق يتفق والعلوم الطبيعية » انتهى .

الى هذا الحد وصل الاعتداد بأمر الاثير لدى العلماء المعاصرين لنا . فهم وان كانوا لم يجمعوا على الهيئة الا انهم اجمعوا على ضرورته، لانهم كل صغيرة وكبيرة فى الكون .

عندى ان العلماء الذين قالوا بالهيئة أكثر تحوطا لسمعتهم من الذين لم يقولوا بها . ذلك لانهم لما عجزوا عن تعليل أصغر صغيرة فى الكون بدون فرض هذا الاثير ورأوا انهم بفرضهم وجوده يعتمدون على مجرد خيالاتهم وأوهامهم، ويجافون أسلوبهم الرسمي نفسه خجلوا ان تكون هذه سيرتهم فى أوليات علومهم فيغفرونها لانفسهم ويحملون على الذين عجزوا قبلهم عن تعليل وجود الكون فقالوا بوجود خالق له ، نعم اننا لنعجب من عالم يؤمن بوجود مادة مصمتة لاوزن لها ولا تقبل الانضغاط، وهى مع ذلك غاية فى اللطافة موجودة من ازل الآزال وباقية آبد الآباد،وهو لم يرها ولن يراها،ومع هذا كله يصيح على فيه ناعيا على المعتقدين بالله انهم يقولون بوجود ذات لم يروها،وباطلاق صفات عليها ليس لهم عنها من علم غير الظن وما تهيله الاهواء. الخ الخ مما شحنت به كتب الملاحدة فى القرن التاسع عشر . نعم اننا نعجب من هذا التناقض، وعندى أن الاجدر بالعالم أحد أمرين فاما أن يكون لاادريا فهو يريح نفسه ويريح غيره، واما ان يتشدد فى تسرية أسلوبه العلمي فلا يحكم بوجود شيء لم يره ولا

يستطيع أن يراه متطفلا حتى يفتح عليه ما لا يعلم . أما فرض الفروض والجمود عليها كما ترى في مسألة الاثير فليست من العلم ولا عابر في العلم . وجمودهم هذا على أمثال هذه الفروض يفهم تلاميذهم واشياعهم انها فروض فيتشبثون بها ويتوهمون انهم قد آووا من العلم الى ركن ركين، وما دروا انهم يطيرون على أجنحة خيالاتهم على غير هدى فيضرون باسم العلم اكثر مما ينفعون.

اما نحن وقد انتهينا الى هذا الحد فسننظر أي المواقف اجدر بالعقل في مسألة المادة، وأي الطرق يسلكها في تطلاب الحقيقة المطلقة، بحيث لا تصدمه نظرية، ولا يخدعه خيال.

***

(نظرة انتقادية على الآراء في المادة)

رأى القارىء من عرضنا آراء العلماء في المادة قديما وحديثا انهم لم يهتدوا الى شيء من أمرها، وانها لا تزال تتعالى عن مداركهم. وان ما كان يدعيه الماديون من انها جواهر فردة جامدة وجدت من أزل الآزال وتبقى أبد الآباد، اصبح ابعد الآراء عن العقل حتى قال عنه الفيلسوف (جيو) في كتابه (اللادين في المستقبل) وهو لا يتهم بمشايعة الاديان قال في طبعته السادسة .

ان الرأى الذى مؤداه ان الجوهر الفرد لا يقبل الانقسام ولا التجزؤ يعتبر من الوجهة الفلسفية من الآراء الطفلية . فقد أثبت طومسون وهلمولتز ان الذرات في ذاتها زوبعات متشابهة ثم قال :

« اذا وسع المذهب المادى مدى نظره وجب عليه أولا نسبة الحياة الى العنصر العام بدلا من أن يفرضها مادة حية . قال الفيلسوف (سبنسر) كل جيل من الطبيعيين يكتشف في المادة المسماة حية قوى ما كان يحلم بوجودها أعلم علماء الطبيعة قبل ذلك بسنين معدودة) فاننا لما رأينا أجساما جامدة تحيي رغما من جمودها الظاهر

بتأثير قوي لا يحصي عددها. ولما اثبتت لنا آلة التحليل الطيفي بأن الذرات الارضية تتحرك موافقة حركة الذرات الموجودة في الكواكب ، ولما اضطررنا الي ان نستنتج من ذلك أن ذبذبات لا يحصي لها عدد تخترق الفضاء في كل جهة وتحركة، لما رأينا ذلك كله وجب علينا أن ندرك ما قاله سينسر من أن (الوجود ليس بمؤلف من مادة ميتة بل هو وجود حي في كل جهة من جهاته حي بأعم معاني هذه الكلمة ان لم يكن بأخص معانيها).

وقال الدكتور (فيلبون) في مجلة (العلم والحياة) الفرنسية صفحة ١٥ ٤من مجلد سنة ١٩١٧ وهي مجلة طبيعية بحتة :

« لقد حلت كلمة (القوة) محل كلمة المادة ، فما يدرينا ما اذا كانت كلمة (روح) ستحل محل كلمة (قوة) ؟ هذه المسائل المبهمة لاتزال سرا من اسرار المستقبل.» انتهي

نعم أن مذهب الجوهر الفرد اصبح لا يستحق المناقشة، ولكن اذا كان العقل قد أباه لما يرد عليه من الاستشكالات، وقد جاءت التجربة بنفيه أيضاً، فهل يرتاح العقل الى المذهب الاخير وهو ان المادة لاشيء غير قوة متحركة حركة سريعة جداً ؟

نحن لاندرك القوة إلا على صورة حركة في جسم مادي، أما القوة المجردة عن المادة فلا ندركها، وليس لدينا من دليل على وجودها مستقلة في الخارج . فكيف يسوغ لنا اسناد المادة الي مجهول، واعتبار هذا الاسناد علما أرقي مما كان لنا من قبل ؟ .

يقول معترض : الا تعرف بأن المادة امكن احالتها الى اصلها وهو القوة ، وهذا الدكتور شبلي شميل الذي طالما دافع عن الجوهر الفرد وعن نظرية عدم تلاشي المادة اعترف به كما ورد ذلك في كتابه (فلسفة النشوء والارتقاء) صفحة ٢٤ وهو قوله :

« اتجه نظر العلماء الي هذه المسألة علي اسلوب اقرب الي العلم منه الي الفلسفة

في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن . وقد ذهب (غوستاف لوبون) في مؤلف له سماه نشوء المادة الى نفي ثبوت الجوهر الفرد ثبوتاً مطلقاً اذا اعتبره مخزناً لقوى هائلة أو هو متجمد قوى وانطلاقها تبديد لماديته . وذهب الى أن المادة بناء على ذلك تتلاشى خلافاً للمقرر في العلم من أن المادة لا تتلاشى، والحقيقة أنها تتلاشى في (القوة) التي تتحول اليها . الى أن يقول :

«وسواء سمينا جوهر الكون الاصلي أثيراً أو هيولى، والقوة المتحولة عنه قوة او حركة، فالمعنى واحد وما هو الا اختلاف الفاظ فقط، والمهم تحول هذا الجوهر وانحصاره في واحد هو (القوة أو الحركة) التي هما حقيقة ثابتة في العلم بخلاف الأثير أو الهيولى التي هي فرض لجلاء الكلام وتقريبه الى الفهم» انتهى

يقول المعترض فاذا كان القول بامة القوة قد غلب حتى اخذ به غلاة الماديين فاوجه الاشكال فيه ؟

نقول أن واجب الباحث عن الحقيقة المطلقة أن يشك في كل امر لا يقع تحت سلطان التجربة والمشاهدة، فان أخذ به فلا يجوز أن يعدو به قدره من الامور الظنية التي يتواضع عليها العلماء لتفسير الغوامض وتعليل الحوادث . فلو كانت القوة شيئاً يرى ويمكن ضبطه مجرداً بدون حامل مادي ورأينا بالتجربة استحالة المادة الى قوة وهذه الى تلك كان قبول هذه النظرية أمراً لا امناص منه . ولكن الواقع ان (القوة) كلمة تقال للدلالة على آثار تتم في العالم المادي لا يمكن فهمها الا بها . فاذا ثارت عاصفة قيل تحرك الهواء بقوة، واذا سقط حجر على الارض قيل انجذب اليها بقوة، ولكن ما هي القوة مجردة عن هواء وحجر ؟ لا ندري ولا أحد في العالم يدري .

فكلمة (القوة) التي جعلها العلماء المعاصرون لنا مبدأ ومعادا لجميع الكائنات المحسوسة لا تساوي أكثر من كلمة «الجوهر الفرد» ، وستخول تلك ماخولت هذه من السلطان المطلق، ثم يعتريها السقوط الى الحضيض فتخلفها كلمة أخرى أصلح منها لمسايرة العلم في الدرجة التي يكون عليها اذ ذاك، ثم لا تكون تلك هي الكلمة النهائية . لانه لا ينفك الانسان ينتقل من مدركات ومصطلحات حتى يبلغ الغاية مما اعد لمعرفته

من العلم . ولا ندرى ان كان يتم له هذا العلم المطلق في عالمه هذا بحواسه القاصرة هذه ام في عالم آخر حيث تنطلق روحه من القيود المادية

فيجب على طالب الحقيقة المطلقة ان يحترس من الكليات الفارغة وان سايرت أهواءه الراحة هرب انخداع بنظرية لااساس لها يقف بصاحبه عشرات السنين في دائرة محدودة من الخيال ويقف بأمم برمتها عشرات القرون في حالة محدودة من الضلال . فأسلوبنا في الوصول الى الحقيقة المطلقة هو أسلوب العلم الطبيعي العصرى ، أى المشاهدة والتجربة بحيث لا يقع تحت سلطانها من النظريات فليس من العلم في شىء، ولا يجوز ان يعتد به مجال حل من مشكلات العلوم ومعوصات الامور. فقد كان الطبيعيون الى ماقبل مئة وخمسين عاما يقولون جميع المسميات الوجودية بالعناصر الاربعة الماء والهواء والتراب والنار وقد اتضح اليوم بالتجربة انها مركبة . و كانوا يعلون بالجوهر الفرد الذى لايقبل الانقسام ولا التلاشى كل المعضلات الطبيعية وقد ثبت بالدليل انه قابل للانحلال والفناء. فلا يصح والحالة هذه ان يحول الباحث عن الحق الصراح الاعلى مايحس به. وتمكنه تجربته بوسائله الذاتية . وعلى هذا الاصل العلمى الصارم أسسنا مذهبنا الاعانى الذى سنفضى به الى القراء. فأحسن موقف نقفه أمام مسألة المادة هي ان نعترف بأن اصلها مجهول، وان كل مايقال فيه لايخرج عن دائرة الظنون والآراء . فلننتقل بعد ان استوفينا الكلام فى المادة الى النظر فيا يسمى بالنواميس الطبيعية لنرى ماهيه.

٭٭٭

(النواميس الطبيعية)

الناس مذهبان في حدوث الحوادث احدهما مؤداه ان في العالم ارادة حرة مطلقة تعمل فيه على مقتضى علمها وحكمتها وترمى به اليه الى غاية بعيدة قدرتها له . هـذا

مذهب جم الدينيين . وثانيهما ينفي هـذه الارادة الحرة المطلقة ويقرر ان الـكون مقود بنواميس ثابتة لاتتحول . وهذا رأى العلم الطبيعي والفلسفة :

أفاض أصحاب الـكلام في هـذا الموضوع كثيراً فقال بعضهم ان النواميس لاتنفي الارادة الحرة للخالق، اذ يقال ان تلك الارادة شاءت أن يكون الوجود قائماً على هذه الحال فبرأه وسلط عليه هذه النواميس الثابتة . وقال غـيرهم ان ارادة الله الحرة المطلقة العاملة في العالم لاتنـافي أن يقوم الوجود على نظام ثابت بقوى ثابتـة لان الله منزه عن الهوى والتردد والعبث ولا تصدر عنه الا الامور الثابتة الكاملة فما ترونه من ثبوت القوى الطبيعية هو مظهر الارادة الالهية الثابتة .

ماهي النواميس الطبيعية ؟ هي القواعد الثابتة التي تخضع لها جميع الكائنات والتي من مقتضاها ان الحوادث المتشابهة تحصل دائما في أحوال متشابهة .

ادراكنا للنواميس أمر ذاتي وتجريدي وواقعي معا فهو ذاتي لانه عقلي محض ، وتجريدي لانه حاصل مجموع حوادث عامة كثيرة . وواقعي لان حقيقته لايمكن النزاع فيها كما لايمكن النزاع في تلك الحوادث ذاتها .

في العالم ظواهر وخواص ينتج من تآلفها جميع ماهو كائن من الحوادث الطبيعية ، هذه الظواهر ليست بشيء سوى تلك الخواص في حالة تأثير على حسنا لتحدث فيه الصور المحسوسة . وقد عرف أن في تعاقب وتجمع تلك الخواص المختلفة التي تولد الحوادث نظاما مقرراً . هذا النظام نفسه هو الناموس الطبيعي . وقد اعتبرت النواميس عامة لانها هي هي في جميع الاحوال وجميع الامكنة . وأبدية لانها لاتتغير بتأثير أي مؤثر في اي زمن من الازمان .

هذا هو رأي العلم والفلسفة منذ دهر طويل، الا ان هذا المذهب أخذ في القرون الثلاثة الاخيرة من الاذهان مكانا اوسع مما كان له وشاع حتى وصل الى من لاحظ لهم من فهمه

أما طالب الحقيقة فلا يهمه الا أن يدرك الواقع كما هو سواء تحقق هـذا الرأي في النواميس أم لم يتحقق. فما يجب أن يعرف في هذا المقام أن توالي انخداع العقـل بالمقررات الرسمية، ولبثه فيها قروناً طويلة، ثم تبينه وهنها وخروجه منها الى سواها، قد أثر في رجال في أواخر القرن التاسع عشر وفي العشرين تأثيراً صالحاً حتى أصبح الواحد منهم أخوف ما يخاف منه أن يقف عند رأي لم تحققه التجربة، ولم تؤيده المشاهدة، علماً أن ذلك الوقوف يصده عن الوصول الى الحقيقة التي هي غرضه من البحث، حتى أنه مما يدهش له القارىء غاية الدهش، أن يهب رجال من أرقى طبقات المفكرين فيشكون في ثبات النواميس ويقولون بامكان تخلفها واتيانها في سيرها تدبير مدبر. لو كان القائلون بهذا الرأي من الطراز الوسط لما عبأنا بآرائهم ولـكنهم من رتبة واضعة النواميس أنفسهم. منهم العلامة «اميل بوترو» العضـو بالمجمع العلمي الفرنسي فقـد نشر كتابا في هذا الموضوع أسماه «امكان النواميس الطبيعية»(١) جاء في طبعته الثامنة الصادرة في سنة ١٩١٥ ما يأتي :

«من الخطأ اذن أن نقول أن النواميس هي التي تدبر الحوادث الطبيعية، فهي لم تكن قبل الاشياء، ولكن الاشياء هي التي اقتضتها. فهي لا تدل على غير العلاقات المشتقة من طبائعها الموجودة قبل وجود تلك النواميس »

ثم قال «فالعالم يرينا في كل مـكان بجانب الدوام والثبوت، وهي الحالة التي تنفي كل شك في ثبات النواميس، تغيراً وارتقاء وانحطاطاً، وهو يقتضي القول بامكانها وليس هذا في النواميس التفصيلية ولكن في النواميس الجلية التي تجمع تلك النواميس التفصيلية »

ثم قال «ولـكن أكان هذا النظام العالي (يريد نظام العالم) مما يمكن أن يوجـد

---

(١) المراد بامكان النواميس إنها من قبيل الامور الممكنة لا الامور الواجبة .

اذا كان الوجوب المطلق هو الناموس السائد في الكون وكان الاصل الذي مؤداه لا يتلاشى شيء ولا يتجدد شيء سارياً بدقة على الكائنات؟ أكانت توجد في العالم قيم متفاوتة أي صفات ومزايا بعضها ارجح من بعض؟ أكان يوجد ترق وتكمل بين درجات قوة واجبة واحدة؟..

ثم قال «الانسان في علاقاته مع العالم لم يك بمتفرج ساذج ليس عليه الا أن يقنع بالاشياء كما تحدث بمقتضى القوة الواجبة، ولكنه يستطيع أن يعمل ويطبع المادة بطابعه الخاص، ويستخدم نواميس ليحدث أعمالا ارقى من اعمالها. فسموه على الكائنات ليس بالقول المجازى أو الوهمي المتولد عن الجهل، وليس هو بالشعور المقيم بقيمة عالية وهمية. فان سموه هذا يدل عليه سلطانه العقلي على غيره من الكائنات، وقدرته على احالتها على درجات متفاوتة الى ما يوافق أفكاره.

وقال أيضاً «ان وجود الانسان وهو كائن شاعر بذاته لا يمكن تفسيره بمحض فعل النواميس الطبيعية والفزيولوجية. فان وجوده واعماله تقتضي من الطبيعة احداث تغييرات لا تستطيع احداثها» انتهى

هذه نظرات لم يصل الى العلم بها بعد الا الذين نصبوا أنفسهم لتتبع حركات العقل الانساني في عهده الاخير، بعد خروجه من دور الانخداع العلمي الذي جمد فيه نحوا من ثلاثة قرون متوالية، كما بينا ذلك. أما جمهور الناس ممن يكتفون من العلم الطبيعي بما قرأوا من مبادئه ولم يقفوا على حركة العقل الانساني حيال المجاهل الوجودية، فيعدون مثل هذا الكلام من البدع التي لا تغتفر للكاتب كائناً من كان، لانهم ألفوا أن يسمعوا ان النواميس الطبيعية موجودة من أزل الآزال، وانها مندفعة الى افعالها اللائقة ومراميها المحكمة بمحض طبيعتها، متغافلين عما يرد على هذه المدركات من الاشكالات التي لا تقف عند حد. فاذا حاول اليوم وضع تلك النواميس نقض ما ابرموه بالامس تكلم عليهم بعضهم ولم يلبثوا أن يكونوا تلاميذ تلاميذهم فرموهم بالتهاون او بالجنوح الى الوساوس الدينية.

اما نحن حيال هذا الامر الجلل فلا يسعنا الا توفية هذا المقام حقه بنقل آراء عدة من العلماء الاعلام في هذا الموضوع لنثبت ان هذه النزعة ليست فردية اقتضاها تطلع نزوع الى المخالفة، ولكنها ثمرة نظرات صادقة ونتيجة حركة من العقل للخلاص من ربقة الكلمات الفارغة التي اقتضتها ثورة عقلية في عهد سابق.

ليس غرضي من هذا ان اعلن بأن رأيي في النواميس الطبيعية هو رأي العلامة (اميل بوترو) ورأي العلماء الذين سأذكرهم فليس هذا موطنه، ولكن غرضي ان اصور للقارئين ان العقل العصري بعد ما كل من حمل آصار الالفاظ الفارغة، والعبارات الخلابة، تحت اسم مقررات علمية قرونا متوالية، آب اليوم يناقش كل تلك المقررات الحساب ليميز حقها من باطلها، وهي نزعة يجب ان تقابل منه بالاجلال، لان الاستنامة الي النظريات مبهمة كانت عريقة في القدم، وحاصلة من الخلابة على حظ وافر، فليست مما يليق بشرف العقل، ولا يتفق والغرام بادراك الحقيقة المطلقة

٥٠

(النواميس الطبيعية أيضا)

ليس الخروج على ماتقرر من أمهات المدركات العلمية، الخاصة بالعلل الاولية، فردية، بل هي ثورة فكرية عامة يريد العقل الانساني بها أن يرفع عن عاتقه نيراً ثقيلا من الفاظ فارغة اعتبرت عقائد راسخة وانتظر منها حقبا طويلة أن تؤدي الي كشف مساتير الوجود، ثم تبين انها حجب كثيفة تحجب وراءها الحقيقة المطلقة في لألائها وجلالتها.

فقد رأينا إن النواميس الطبيعية التي كان يذهب العقل العلمي المحجوب وجودها من أزل الازال، وبقائها أبد الآباد، أصبحت موضع الشك لا في وجوبها فقط بل في

وجودها أيضا . فقال الفيلسوف (ادوارلوروا) كما نقلت العلامة الرياضي الكبير هنري بوانكاريه في كتابه (قيمة العلم) صفحة ٢٣٤

« العلم لم يتألف الا من تواضع العلماء على أصولها، وهو لكونه على هذه الحالة يظهر لنا بمظهره من الثبوت . فالحوادث الطبيعية بل النواميس ليست الا من مخترعات العلماء أنفسهم. فالعلم لا يستطيع وحالته هذه، أن يكشف لنا عن وجه الحقيقة المطلقة ، وكل ما ينتظر منه أن يخدمنا كقاعدة للعمل »

كلام صريح في أن النواميس مخترعات عقلية فرضت لفهم الحوادث الطبيعية، وليس الاستاذ أدوار لوروا وهو صاحب مذهب فلسفي خاص بأقل اطلاعا على الحوادث الوجودية من أي مبشر من مبشري المادية في الشرق .

وقال العلامة (وليم كروكس) الكيماوي العضو بالجمعية العلمية الانجليزية، وهو واحد من الافراد يعدون على الاصابع في خطبة له ، كما ورد في مجموعة خطبه صفحة ٣٦ :

« ان ما نسميه ناموسا طبيعياً هو في حقيقته وجه من وجوه الانجاه التي يعمل على موجبه شكل من أشكال القوة . ونحن نستطيع ان نعلل الحركات الذرية كما نعلل حركات الاجرام السماوية، ونستطيع ان نستكشف جميع القوانين الطبيعية للحركة، ولكنا مع هذا لا نكون أقرب مما كنا عليه الى حل هذه المسألة وهي : أي ضرب من ضروب الارادة والفكر كان خلف هذه الحركات الذرية، يجبرها على اتباع طريق مرسوم لها من قبل ؟ وما هي العلة السامية التي تؤثر من وراء حجاب ؟ (وفي الاصل من وراء ستار المسرح) . وأي ازدواج من الارادة والفكر يقود الحركة الآلية الصرفة للذرات، خارجة عن النواميس الطبيعية بحيث يحملها على تكوين هذا العالم المادي الذي نعيش فيه ؟ »

هذا قول واضح بأن الناموس الطبيعي في حقيقته وجه من وجوه اتجاه قوة تعمل في التكوين، لا أنه عامل مستقل يمكن أن يسمى باسم، وينحل صفات الالوهية ، وأن خلفه ارادة وفكرا هما العاملان الحقيقيان في الواقع.

وقال الاستاذ المذكور في خطبة أخرى وهو يدل على انه لا يرى في النواميس الطبيعية المعروفة لنا الا قوى تابعة لقوى أرقى منها كما ورد في صفحة ٨ من مجموعة خطبه:

«متى امتحنا من قرب بعض النتائج المادية للظواهر الطبيعية، نبدأ بادراك الى أي حد تنحصر هذه النتائج، أو كما نسينا النواميس في دائرة نواميس أخرى ليس لنا بها أقل علم. اما انا فان عدم اعتمادي على رأس مال العلمي قد بلغ حداً بعيداً جداً. فقد تقبض هذا النسيج التكويني العلم، كما عبر عنه بعض المؤلفين، حتى لم يبق منه الا كرية حقيرة تكاد لا تدرك».

انظر الى اى حد يصل اعتراف العلماء في هذا العهد من التنبه من الغرور العلمي بجهلهم وقصر نظرهم حيال مسألة النواميس التي يظنها خفاف الاحلام ممن قشوا بعض القشور العلمية، وجدوا اطيا، من الاوليات العلمية، حالين بها كل مسألة تعترض عقولهم من مسائل الوجود حتى عزت عليهم معضلة اخترعوا لها ناموساً جديداً بخيالهم ثم دانوا له واعتبروه من الحقائق الاولية.

وقد عقد الاستاذ الاشهر (هنرى بوانكاريه) العضو بالمجمع العلمي الفرنسي فصلا طويلا عن النواميس في كتابه (قيمة العلم) نقتطف منه مايدل على رأيه فيها. قال في صفحة ٢٧١:

«اذا نظرنا في ناموس خاص أيا كان فانا نستطيع أن نتأكد من انه لا يمكن أن يكون الا تقريبيا. ذلك لانه مستنتج من تحقيقات تجريبية، وهذه التحقيقات لم تكن ولا يمكن أن تكون الا تقريبية».

وقال في صفحة ٢٧٧

«كثيراً ما يتساءل من ذا الذى يدريهما اذا كانت النواميس لا تتطور وانها لم تكن في العهد الفحمي على ما هي عليه اليوم؟»

ثم ذكر أن محاولة الاجابة على هذه المسئلة ليست فى قدرة العلم وقال . « ان هذا الامر يتحامى على كل ضرب من ضروب المراقبة بحيث أنه اذا كانت نواميس الطبيعة ليست اليوم على ما كانت عليه فى العهد السحيق فاننا لانستطيع التحقق من ذلك ، لاننا لا نعلم شيئا عن ذلك العهد الا ما نستنتجه استنتاجا من (افتراضنا) دوام النواميس الطبيعية » :

كلام يدل على أن النواميس الطبيعية محل شك ولايمكن البت فى امرها بحكم فاصل ، فالقول بثبوتها فى مرتبة القول بتطورها وتحولها.

وقال الاستاذ الدكتور (ج جيليه) المدرس بجامعة السوربون بباريز فى صفحة ٧١ من كتابه (من اللاشاعر بذاته الى الشاعر بها) فى الطبعة الثالثة المطبوعة سنة ١٩٢٠

« النواميس التى تقود العالم المادى ليست حاصلة على ما كان يظنه الناس لها من الصرامة التامة المطلقة ، ولكن قيمتها نسبية ليس الا . وعليه فيمكن أن لا توجد لاجل محدود ، وان تتغير بعارض من العوارض ، وأن يبطل عملها أيضا »

هذه طائفة من آراء بعض كبار اقطاب العلم فى النواميس وهى آراء غريبة فى هذه البلاد ، ومنكرة فى نظر الذين لم ينفذوا الى مضايق العلم وتعودوا ان يتقوا ثقة عمياء بكل ما لقنوه فى طفولتهم ، وليس لهم من القدرة العلمية على النظر لانفسهم ، ولايخلو الامر من رجوع بعضهم الى المؤلفات الموضوعة فى (القرن التاسع عشر) حيث كان الغرور العلمى بالغا أقصى حالاته ، فيجدون كلاما مناقضا لهذا الكلام ، ويحسبون أو يتناسون اننا انما ننقل عن أكابر العلم فى عهدهم الجديد ، بعد تخلص العقل الانسانى من الغرور العلمى الذى ران عليه قرونا متوالية .

أما نحن وقد أتممنا الكلام على المادة الجامدة وما يتعلق بها فننتقل الى الكلام على عالم الحياة وهو المجال الذى لقيت فيه الفلسفة المادية حتفها فى العهد الاخير . أليس لهم الا فى نظر الذين يعيشون بأجسامهم فى القرن العشرين وبعقولهم فى القرون الخالية

﴿ ماهي الحياة ؟ ﴾

في الـكائنات الارضية اجسام تتحرك وتتغذى وتتوالد، وأجسام لايطرأ عليها شيء من هذه الاحوال ، فاصطلح على تسمية الاول حية والثانية جامدة . فما هي هذه الحياة ؟ أهي أصل قائم بذاته تحـل بالمادة الجامـدة فتحييها، ثم تنفصل عنها بالموت وتذهب الى حيث أتت ، أم هي حالة تطرأ على بعض المركبات تقتضيها النواميس الطبيعية عند ماتـكون تلك الاجسـام قائمة على تركيب خاص ، فيكون لاشيء في الـكون غير المـادة وقواها اللازمـة لها على مايقوله الماديون ؟ اختلف الفلاسفة والعلماء في هـذا منذ القـدم الى اليوم، ونحن نورد للقارىء موجزاً من مذاهبهم في ذلك.

وجوه الاختلاف كلها بين العلماء تنحصر في ثلاثة مذاهب : (أولها) المذهب الآكي أي الطبيعي الـكيماوي، و (ثانيها) المـذهب الحيوي، و (ثالثها) المذهب الروحاني .

فأما الاول فمؤداه ان الظواهر الحيوية يمكن تفسيرها بنفس القوى الآليـة الكيماوية الطبيعية العاملة في المادة الجامدة .

وأما الثاني فمغزاه ان الظواهر الحيوية لايمكن تعليلها الا بافـتراض وجود قوى متميزة عن القوى الآلية، ولاتستحيل اليها تسمى بالحياة.

وأما الثالث فحصواه ان تلك الظواهر لايمكن ان تحصل الا بوجود روح عامة حالة بالطبيعة كلها، تسوق كل كائن فيه الى غايته وتربيه على مقتضى الدستور الذي سنته له .

فالفلاسفة اليونيون من الاغارقة الاقدمين كانوا من المذهب الروحاني أي إنهم كانوا يرون ان الـكون كله متقود بروح عامة تخلق وتربي كل كائناته على السواء، فلما جاء ارسـطو عارض هـذه النظرية، وزعم ان الحياة وان كانت اصلا

قائماً بنفسه الا انها ليست متوحدة بل متكثرة وعلى درجات شتى في الاحياء .

ولما نبغ ابيقور عزز مذهب ديموكريت في الجواهر الفردة ، واتبعه جم غفير من الاطباء اليونانيين والرومانيين ،فكانوا يعللون جميع الظواهر الحيوية بقوى الجواهر الفردة .

فلما ظهر الرواقيون وهم اتباع الفيلسوف ذينون جمعوا بين مذهب اليونانيين الروحاني ومذهب ارسطو الحيوي فقالوا بوجود روح كلية مدبرة للكل وأرواح جزئية مدبرة للاجزاء ، ولم يشذ فلاسفة الاسكندرية عن مذهب ذينون الا في امور ثانوية .

بقيت هذه الآراء الفلسفية على ماذكرنا حتى حدثت النهضة العلمية في أوروبا في القرن الخامس عشر ، وترقى علم التشريح وزاد علم الناس بأنواع الحيوانات والنباتات على اثر الاستكشافات الجغرافية ،نظراً تتغير في الآراء القديمة ، فقام العالم (باراسلز) يدافع عن المذهب الحيوى واخذ (فان هلمونت) يقرر بأن كل عضو من الجسم الحي له حياة خاصة به .

فلما نبغ الفيلسوف (ديكارت) في القرن السابع عشر رفض جميع الآراء السابقة وذهب الى ان جميع ظواهر الحياة تستحيل كلها بالتحليل الى حركات وتعلل بالنواميس الآلية . ولكن هذا المذهب ظهر للباحثين بأنه من السذاجة بحيث لا يفسر جميع الحوادث واتفق في هذا العهد ان ترقت المباحث الكيماوية ، فأخذ كثير من العلماء يعللون الحياة لا بالقوى الآلية بل النواميس الكيماوية .

فلما جاء العلامة (نيوتن) نبي على ديكارت قصور مذهبه عن تعليل جميع حوادث الحياة ، وقرر انه يجب القول بوجود قوى خاصة وسوائل بين الكواكب في الاجزاء الخالية من الفضاء تؤثر من بعد ، ولا يمكن نسبتها الى القوى الطبيعية .

فلما نشأ (ستاهل) في القرن الثامن عشر ذهب الى ان المذاهب الآلية المتقدمة

لاتعلل الصفات الخاصة للحياة، وأعاد المذهب الروحاني الى الفلسفة . ولكن مذهبه لم يعش الا سنين محدودة، فتلاه مذهب جامعة مونبلييه تحت زعامة العالم (بوردو) و(جرجو) و(بارز) بنمو المذهب الحيوي بينه . فأحدث العالمان (بيشا) و(كوفييه) تهذيبا فيه فبقي سائدا الى النصف الاول من القرن التاسع عشر

وفي سنة ١٨٣٣ نبغ (جان موللر) مؤسس الفزيولوجيا الالمانية، فأعطى المذهب الحيوي شأنا عظيما وعلل به جميع الاختلافات البيولوجية

الا انه في آخر القرن الثامن عشر كانت استكشافات العالم (لافوازييه) في الكيمياء ومباحثه في التنفس ذات تأثير كبير على هذه المسألة . وجاء ثبوت تألف الاجساد الحيوانية من الاوكسيجين والكربون والايدروجين والازوت، مضافا الى ما عرف من قانون حفظ القوة، كدليل حسي في نظر الماديين لنظرية الآلية، اذ زعموا استنادا على هذه المعلومات أن الحياة لاتؤتي الاجسام التي تحل بها شيئا جديدا، وأن هذه الأجسام هي عبارة عن آلات مولدة للحرارة فتتحول فيها الى حركة . وجاءت تجارب (برتلو) في المواد العضوية فمحت الفرق بين الكيمياء المعدنية والكيمياء العضوية، فاستطاع الماديون اعتمادا على هذه التجارب أن يجاهروا بان الاجساد الحية مركبة من نفس العناصر التي تتركب منها الكائنات الجامدة، وأن هذه البسائط تتحول في الاولى بتأثير القوى الطبيعية وتخضع لذات النواميس الكيماوية التي تخضع لها الثانية .

هذه الاستكشافات عينها هي التي سمحت لطائفة من اعلام الفزيولوجيا أمثال كلود برنار في فرنسا وبروك وهلمولتز ولودويج في المانيا بان يعلنوا غلبة المذهب الآلي في امر الحياة . فقال كلود برنار: ان علم الفزيولوجيا تسود فيه نفس الحتمية الآلية السائدة في الطبيعة والكيمياء . فلكل ظاهرة فيه شروط ثابتة محددة تقتضيها يمكن الوقوف عليها من طريق التجربة والمقارنة . فلا يجوز الكلام والحالة هذه عن تدخل قوة تسمى بالحياة غير معلومة ومختبرة بل نواميس ثابتة غير قابلة للتغيير تجعل من تجانس

غائية بل صبيبة .

الا أن كلود برنار قائل هذا الكلام كان يرى أن حدوث اشخاص الاحياء في اختلافاتها وتنوعاتها التي لا تقف عندحد لايمكن أن يعلل بغير فرض وجود عقل مدبر اوجدها على هذه الصور بإرادته . فأكمل بهذا الرأي الاخير ما نقصه في الرأي الاول .

الركن الاقوي اليوم للرأي الآلي هو مذهب الاستاذ (لوداتك) الذي كان مدرساً البيولوجيا (علم الحياة) بجامعة السوربون بباريز فان الماديين يزعمون أنه دعم المذهب الآلي على أصول علمية وعلل حدوث الحياة بالنواميس الكيماوية الطبيعية على أتم واكمل الوجوه . ونحن لامناص لنا من اعطاء مذهبه هذا عناية خاصة ولذلك فسنخصه بحيز يناسب شهرته في الفصل التالي قبل أن نخوض في عباب هذا البحث الجليل ونتغلغل في مناحيه حتى يكون لما نأتي عليه من أقوال العلماء المثبتين للحياة ولادلتهم وتجاريبهم نفس القيمة التي لها في نظر كل باحث مستقل لا تهمه الا الحقيقة المطلقة .

***

(مذهب الاستاذ «لوداتك» في الحياة)

الاستاذ لوداتك توفي منذ بضع سنين وكان مدرساً لعلم البيولوجيا في جامعة السوربون بفرنسا وهو عمدة الماديين اليوم قال :

يذهب هذا البيولوجي أن كل خلية حية اولية هي أصل الخلية العامة للجسد كله . فلاجل معرفة سر الحياة في ذاتها يجب أن تدرس حياة الخلية نفسها . فبالتأمل في الخلية نجد انها لاتفترق عن المادة الجامدة الا بخاصة التمثيل أي بإحالة المواد الجامدة الى مادة مماثلة لمادتها . والمشاهد انه لو صار جسم جامد صالحاً لتفاعل كيماوي قابلة

ينقص وينتهي أمره بالتلاشي . ولكن اذا صار جسم حي موضع] فالك التغذ في بيئة صالحة له فانه يحفظ تركيبه ويزداد نمواً . هذا هو المعنى المراد من التمثيل وتحديده ضروري لفهم أصل الحياة . واذا بلغ جسم حي مكون من خلية واحدة حـ معيناً فانه ينقسم إلى خليتين فتنموان كلاهما حتى اذا وصلت الى حـد معين انقسـ أيضاً وهلم جرا . وهذا هو التوالد وهو الميزة الثانية للاجسام الحية . وأما الموت فـ انهدام المادة الحية أى استحالتها الى مادة غير آلية فتصبح غير صالحة للتمثيل

قال « لودانتك » : «فيظهر من هنا ان الاستحالات التي تحصل للخلية تأتي من عوامل خارجة عنها طبيعية وكياوية تابعة للبيئة لاذاتية في الخلية » .

وقال: «أما حياة الاجسام المكونة من خلايا كثيرة من اول الكائنات الحقيرة الى الانسان نفسه فهي لاشيء غير مجموع حياة خلاياه الجسمية كلها »

هذا مذهب « لودانتك » وهو معتمد الماديين اليوم، ولكن هذا العالم على عز انه في البيولوجيا فليس بعميد هذا العلم ولا بصاحب الكلمة العليا فيه. فهو ليس في درجة توما هكسلي ولا أرنست هيكل ولا دارون ولا رسل والس وغيرهم من الاقطاب الذين لايحصون كثرة، فجميعهم أثبتوا وجود الحياة وقرروا بأنها ارفع مستوى من النواميس الطبيعية الكياوية. ولابد لنا من ايراد طائفة من اقوالهم .

فأما « دارون » فقد قال ان الانواع مشتقة كلها من أصل واحد أو اصول معدودة نفخ فيها الخالق روح الحياة. فهو يعتقد بأنها استمدت الحياة من خالق أو جدها . ثم ثم أخذت في التنوع على مقتضى نظريته بالانتخاب الطبيعي .

وقال العلامة المشهور «روسل ولاس» نديد دارون في كتابه عالم الحياة المطبوع سنة ١٩١٤ صفحة ٤:

« ان الظواهر القائمة بالكائنات الحية هي من العجب ، وخصائصها من التفوق على جميع الصور المادية الخاضعة لنواميس الآلية طبيعية وكياوية ، بحيث انه من العبث

المحض أن يحاول البيولوجيون الوقوف على سر مظاهرها العجيبة وتحديد ماهية (الحياة) بوضوح تام وبعبارات علمية .

وقال الاستاذ (كيوز) الالماني في كتابه الحافل (التاريخ الطبيعي للنباتات):

« الظواهر المشاهدة في البروتوبلاسما الحية في أثناء نموها وأخذها شكلها النهائي لايمكن أن تعلل في مجموعها بوجود تركيب خاص للبروتوبلاسما لكل نوع من انواع النباتات »

ثم قال : « لذلك لاأتردد أصلا في تسمية هذا التأثير الطبيعي قوة حيوية لايجوز الخلط بينها وبين أية قوة أخرى، وأن آلة هذه القوة البروتوبلاسما وان نتائجها الخاصة تعتبر بمثابة مؤلفة لما يسمى بالحياة ».

وقال الاستاذ الاشهر (ارنست هيكل) الالماني كما رواه عنه العلامة روسل ولاس في كتابه عالم الحياة :

« ان كل خلية لها روح تدبرها ولكنها لاتشعر بوجودها »

وقال أكبر بيولوجي العصر الاستاذ (توماس هكسل) في كتابه (المدخل على ترتيب الحيوانات) صفحة ١٠ عند كلامه على جماعات الحيوان المسمى (اميب) قال :

« في كل المملكة الحيوانية لايوجد مجموع يفوق هذا المجموع في تأييد هذا المذهب القوى الذي أومأ اليه جون هنتر أكثر من مرة وهو أن (الحياة) هي علة الاجسام لا انها نتيجة لها . لانه في هذه الصور الدنيئة لحياة الحيوانية (يريد جماعة الاميب) لايصادفه الباحث مهما توسل بالآلات الدقيقة التي نملكها اليوم أي أثر للتركيب الجثماني فيها . فان هذه الاحياء لاشكل لها ومجردة من الاعضاء ومن الاجزاء المحدودة، ومع ذلك فانها تملك الخصائص والمميزات الاصلية لحياة . حتى انها تستطيع ان تبتني لنفسها قواقع ذات تراكيب معقدة أحيانا وعلى غاية مايمكن من الجمال » .

وقال الاستاذ الدكتور (ج. جوليه) في كتابه (من لاشاعر الى شاعر) في طبعته الثالثة الصادرة في سنة ١٩٢٠:

« قال شوبنهور : (كلما انحط الانسان في القوة العقلية قلت مساتير الوجود في نظره . فكل شيء عنده يحمل معه تفسيرا لكيفية وجوده وسبب حدوثه. فهذا جسمنا لاشيء أقرب الينا من وظائفه وكذلك لاشيء أبسطها في نظر الرجل العامي. والواقع انه لا يوجد أعصى منها على افهامنا . فالحياة لاتزال سراً مكنونا والحركة الحيوية ونشاط الوظائف العضوية الكبرى ليست أقل منها تعاليا عن مداركنا . هذا النشاط الذي لايخضع للارادة الشاعرة لذواتنا ينشأ ويتم بدون شعور منا كما ينشأ ويتم في الفزيولوجيا المسماه بفزيولوجية ما فوق الطبيعة.

« بل أن التركيب الجثماني وكل ما يتعلق به من الميلاد والنماء والتطور الجنيني وما بعده ودوام الشخصية مدة الحياة والتجدد الذي يحدث لبعض الحيوانات في بعض اعضائها وفي بعض غددها ، كل هذه الامور اسرار لاندركها اذا اخذنا بالقول المدرسي في مسألة الشخصية (يريد به القول بان شعور الانسان بشخصيته هو مجموع الشعورات الجزئية لكل خلية من خلاياه) .

ثم قال « فلنحاول أن نفهم تحت ضوء هذه النظرية قيام هذه الشخصية التشريحية الفزيولوجية وادائها لوظائفها. ولندع جانباً الى حين النظر اليها من الوجهة الفلسفية المحضة، بل ومن الوجهة النفسية البسيطة ، ولا نواجهن الا الوجود الطبيعي، أي الشخصية الفزيولوجية باعتبار انها مجموع حياة الخلايا الجسدية . فمن أين حصل هذا المجموع من الخلايا المركبة لاي شخص من الاشخاص على صورته النوعية. وكيف تم له ذلك ؟ وكيف يحفظ شكله طول مدة حياته؟ وكيف تتكون شخصيته الطبيعية وتحفظ وجودها، وتعيد تكوين بعض ما دثر من اعضائها؟

ثم قال . « من أين كل هذا ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ لنقل مرة أخرى هذه من مسائل المساتير .

الطبيعية . وقد وصف (داستر) بقوله من لا يعيره فكره ما يحدث في اثناء نمو الخلية الجرثومية من جذبها الى نفسها المواد الخارجية عنها ووصولها بذلك الى اقامة هذا البناء المدهش وهو الجسم الحيواني أو الانساني أوجد انسان بينه وبين سنة التدرج ومع هذا كله حاول بعضهم ووجد لهذه المسائل تفسيراً ، ولكنه من الضعف بحيث يوجب الحيرة »

هذه حيرة العلماء في امر الحياة فلننظر في حيرتهم بمسألة تنوع الانواع وما اقتضته من المذاهب الغربية

.·.

﴿ حيرة العلماء في أصل الانواع ﴾
النباتية والحيوانية

من اين اتت هذه الصور الحية التي تعمر الارض والهواء والماء ولا تدخل تحت حصر ؟ كيف خلف بعضها بعضاً في مدى الزمان ؟ وما هي العلل الطبيعية التي اوجبت تكوّن هذه الصور المختلفة ؟ وكيف نفسر وجود هذا التشابه الاساسي الذي يربط الكائنات الحية بعضها ببعض ، وهذه الخلافات الكبيرة والصغيرة التي تفصلها الى ممالك وطوائف ورتب وفصائل واجناس ؟ وما هو (النوع) في حقيقته وهو الامر الذي لا بد من اعتباره في التاريخ الطبيعي ؟ هل هو أصلي ام مشتق ، أولي ام ناتج من تسلسل حوادث طبيعية ؟ والانواع الشديدة التخالف فيما بينها انشأت مستقلة على حدتها ام لها أصل قديم مشترك نشأت عنه ثم تخالفت شيأ فشيأ بالاسباب الطبيعية ؟ ان كان كذلك فلا بد من البحث عن هذا الاصل في بطن الارض الى اعماق بعيدة حتى نصل الى السطح الذي بدأت فيه حياة هذه الصور الحية .

هذه هي المسائل التي جاشت في صدور علماء التاريخ الطبيعي من زمان بعيد

ظرفت المذاهب المختلفة في أصل الانواع الحية . ونحن لامناص لنا من تلخيص هذه المذاهب ليلم القارئ بتاريخ هذا البحث ولكن لاسبيل اليه الامن لدن القرن الثامن عشر. اما ماهو فوق ذلك فكان أشبه بأقاصيص السمار وفيما نقلناه من تاريخ الفلسفة اليونانية نموذج منه.

ولا نجد مؤرخا لهذه المذاهب اكبر ولا اوثق من العلامة الفزيولوجي الكبير (دوكاتروفاج) الفرنسي فستلخص ماأورده في هذا الباب.

﴿ مذهب بيودومايه الفرنسي ﴾

بيودومايه من علماء القرن الثامن عشر وضع كتابا في سنة (١٧٤٨ و١٨٥٦) أسماه (محادثة بين فيلسوف هندي ومرسل فرنسي على مسألة انحسار البحر) سرد فيه آراءه في تركيب الكرة الارضية وفي أصل الكائنات الحية .

فكان يقول بوجود أعاصير تشبه أعاصير ديكارت. ويذهب الى ان الشموس وهي مراكز هذه الاعاصير تفني تحت تأثير هذه التيارات الهوائية شيأ فشيأ آخذة من كواكبها بطريق التبخير مقادير من المواد وخصوصا الماء. وهذه المواد تحتوي جراثيم الاحياء الموجودة على تلك الكواكب

فاذا حال على شمس من الشموس وقفت اعاصيرها ، وخمدت نارها وصارت كتلة كثيفة فتلبث في الفراغ هي وما تحت سلطانها من الكواكب حتى تجذبها شمس أخرى في حالة حياة فتنجذب اليها . ولا بد قبل وصولها الى مكانها منها من أن تمر بتلك الطباق المتصاعدة بالتبخير من الكواكب فتعلق بكل منها طبقة من الماء فيها من عناصر الاحياء مايكفي لعمارتها . فتى أخذت هذه الكواكب محالها من الشمس الجديدة التقطت الجراثيم التي اجتذبتها في السماء فانتشرت على سطحها بعد قليل أنواع من النباتات والحيوانات يغيرها من حال الى حال.

هذه أصول الاحياء لدى دومايه وهو يقسمها الى قسمين أرضية ومائية ويزعم

ان الثانية أصل للاول . فكل نوع بحري ولد النوع الارضي المقابل له توليدا مباشرا . ويرى ان كثيراً ما حدثت استحالات شخصية تشبه استحالة الدودة الى فراشة ؛ وعنده ان هـذه الاستحالة تمكن بتقل بيض جعل ليتقس في لجة مائية الى جهة هوائية . فاذا خرجت الصغار امكنها المعيشة في الهواء فتكون اصلا ارضيا جديدا .

وهذه الاستحالات في رأى دومايه تمت تحت تأثير الضرورة التي أوجبتها البيئة والعادة معاً .

وأول ما حدث منها كان بسبب انحسار الطبقة المائية التى كانت على الجبال من جزاء مرور الارض من منطقة الابخرة المذكورة آنفا ، ثم ما زالت المياه تنحدر من على سطح الارض وتلك الكائنات التي كانت فيها تستقر في العراء حتى وقفت المياه في الحد الذي نشاهده الآن .

ولكن كيف امكن الحيوانات المائية ان تعيش في الهواء بعد انحسار البحر عنها ؟

يقول دومايه امكن ذلك بحكم الضرورة ، فان هذه الحيوانات التى لا يحصى لها عدد في بقعة اذا انحسر عنها الماء اضطربت وهاجت ومات معظمها ولكن لا يعقل ان تموت كلها بل لابد ان يكون بقي منها ولو زوجان أثنان وهما يكفيان لتوليد هذا النوع في العراء .

هذا هو اصل العالم الارضي وامثاله ، وتفسير تكون الصور الحية عليه وعليها .

ولكن فات العلامة دومايه اصل تكون هذه الجراثيم على اول كرة ارضية . هذا هو الامر الذي حير العقول ، اما افتراض مجيئها من كوكب آخر فلا يحل عقدة المسائل ولكن يزيدها تعقيدا كما رأيت .

﴿ مذهب رونيه روبينيه الفرنسي ﴾

نشر العالم رونيه روبينيه مذهبه في تكون الخليقة وقيامها في كتابه المسمى (اعتبارات فلسفية للتدرج الطبيعي لصور الكائنات) او (محاولات الطبيعة التي تتعلم كيف تخلق الانسان) الصادر في سنة ١٨٦٨ .

يذهب العلامة روبينيه الي ان الطبيعة مجموع واحد مستمر مؤلف من وجودات متنوعة غير تاركة محلا لثغرة ولا لفترة فيه . ولكن الطبيعة لا تعرف الطفرة فهي سائرة في جميع مكوناتها على سنة التدرج حتي في اقصى تغيراتها . والوجود كله حي حتي أن المادة التي يراها الناس جامدة هي في نظر روبينيه حية ومؤلفة من جراثيم تصلح لتوليد كل شيء من جماد ونبات وحيوان . وتوالد هذه الكائنات لا يعوزه اكثر من وضع المادة في احوال تصلح معها التوليد . ومتي نمت جرثومة من هذه الجراثيم ضمت الجراثيم المجاورة لها اليها ومتى انحلت خرجت منها تلك الجراثيم ودخلت في الحالة التي كانت عليها قبل دخولها في تكوين ذلك الجسم الجديد . وهذه الجراثيم صالحة لان تأخذ بنائها جميع الصور الممكنة . وعليه فلا توجد في الطبيعة غير مملكة واحدة هي المملكة الحيوانية . فالارض والكواكب في رأيه كائنات حية ولكننا لا ندرك ذلك لضخمها وتعاليها عن احساسنا . ففي هذا العالم الضخم الذي لا يمكن أن يتولد الا آحاد . أما الانواع التي يصطلح فيها العلماء فهي وهم باطل لا حقيقة له نشأ من ضعف أحساسنا . ذلك انا نعجز عن ادراك الخلافات الصغيرة التي تفصل بين أشخاص الكائنات الحية فنجمع الاشخاص التي تكون الخلافات فيها غير مدركة لنا ونجعلها نوعا . ونشأت كلمات الجنس والرتبة والمملكة التي تستعمل في التاريخ الطبيعي من الملاحظات المذكورة آنفا . وعلى الاجمال كلمات فارغة استوجبها قصورنا ليس الا . ودليلنا على ذلك بخلاف العلماء الذين في تحديد عدد الانواع واستكشاف أشخاص حية كل يوم تأتي فتسد فراغات بين الاحياء كانت تعتبر حدودا فاصلة بين نوعين متجاورين

فكل هذه الصور وقتية والطبيعة في تجديد مستمر لا تكرر ما عملته أولا . والترقي مستمر ايضا فيها . فالجماد يستحيل الى نبات والنبات الى حيوان والحيوان الى الانسان . ولا يصح في نظر رويبنيه أن يقف الترقي عند حد الانسان بل يجب أن تكون موجودة كما يقول : صور ألطف وقوى اعظم مما للانسان من ذلك . والقوى تستطيع أن تتخلص شيأ فشيأ من كل مظهر مادى لتكوين عالم آخر غير هذا العالم » ، انتهى .

فرمى الطبيعة فى نظر رويبنيه هو تكوين هذا الانسان ولكنها لم تتوصل الى تكوينه الا بعد محاولات كثيرة ، انتجت كائنات لا تدخل تحت حصر ، فلا تعتبر القرد من نوع الاورانج أوتانغ انه من تلك المحاولات الطبيعية لتحقيق غرضها النهائي وهو الانسان ، ولكن اعتبر منها أيضا الحصان وشجرة البلوط والاحافير والجمادات والدليل على ذلك انك قد تصادف أحجارا منها مايشبه القلب ومنها مايشبه المخ ومنها ما يشبه اليد والرجل . وكلها محاولات جزئية من الطبيعة جاءت بعد محاولاتها الجلية .

وذكر روبينيه ان الطبيعة بعد ان انجحت في توليد الانسان أخذت في ترقيه وضرب مثلا بالفرق بين الانسان ذى الذنب ، وبين الايطالي واليوناني والجركسي ؛ ثم قال وليس هذا منتهى ترقيتها للانسان بل انها ساعية فى امر اكبر من ذلك وهو محو التخالف بين الذكر والانثى . وقد ظهرت محاولتها احداث هذا الامر بتكوينها الكائنات الخنثى أى التي لها أعضاء تناسل الجنسين معا فلا شبهة في أنها ترمي بذلك الى محاولة توحيد الجنسين وسيتم ذلك على مدى الدهور .

هذا هو مذهب روبنيه روبينيه وهو من النقص بحيث لايحتمل النقد . فاما ذهابه الى ان الوجود كله شيء واحد حي فهذا ماآلت اليه الفلسفة العلمية في هذا العصر ولكن ضعفه في تحميل الطبيعة تبعة الايجاد والابداع فيما لايفهم . فهل هو يعتبر الطبيعة روحا مدبرة للوجود تفكر وتعقل وتحاول الوصول الى غايات الخ الخ أم هو يعبر بهذه الالفاظ على اسلوب التوسع والتسامح ، أما هو في الواقع فلا يعتبر ان في الوجود قوة اعلى منه تدبره أو تفكر له ، وانما هو يصف أدوار الخليقة على ما تأدت اليه عقل

فانها لا بقصد قاصد ولا بتدبير مدبر .

يجوز أن يكون قصده هـذا أو ذاك ولكنه على أي حالتيه لايحتمل النقد ولا يستحق المناقشة .

﴿ مذهب لامارك الفرنسي ﴾

نشر هذا العالم في سنتي (١٨٠٩ و ١٨١٥) كتابين احدهما (الفلسفة الزولوجية) أي فلسفة علم الحيوانات والآخر (التاريخ الطبيعي للحيوانات اللافقرية) بسط فيهما مذهبه في تكوّن الانواع فبدأ الكلام عنها بهـذا السؤال . ماهي الانواع ، تلك الطوائف الاولية في المملكتين الآتيتين (يعني النباتية والحيوانية) ؟ وهنا بسط حيرة العلم وما يعانيه المؤرخ الطبيعي في تحديد الانواع المتجاورة . والحق بان كثرة الانواع المشكوك فيها أي التي لا يمكن ان يتبين حقيقة انواعها وتغيراتها . ثم عاد من ذلك الى لفت الابصار التدرج الذي تترجم عنه الانواع والاصول، واستنتج من هذه المشاهدات ان الانواع ليس لها ذلك الثبات الذي يعزى اليها عادة.

ثم عقد فصلا خاصا استشهد فيه على نظريته في عدم ثبات الانواع بأمثلة لتغيرات كثيرة مدهشة تحدث بين حيواناتنا البيتية كالدجاج والحمام . ثم شرع في تفسير ذلك على مقتضى مذهبه الذي تلخصه للقارىء في أسطر قليلة.

لامارك يفرق في مذهبه بين العالم والطبيعة ، فالعالم عنده هو المجموع العاطل المجرد من القوة الذاتية وهو جملة الاجسام والمواد الموجودة . وأما الطبيعة فهي القوة العاملة المنزهة عن الفساد بطبيعتها التي لاتفتر عن التأثير في المواد طرفة عين ، ولكنها مجردة عن العقل ومحكومة بقوانين . وبعبارة أوجز مما مر نقول كان لامارك يسلم بوجود مادة جامدة وبقوى مؤثرة عليها هي الاسباب الحقيقية لحدوث جميع الظواهر الطبيعية . ومن بين هذه القوى واحدة تسمى (الحياة) ولكنها عند لامارك ليست بقوة خاصة لكنها نتيجة خاصة ببعض المركبات ، وجودها وقتي فيها .

على أي أسلوب تسير الطبيعة في ايجاد الكائنات ؟

قال لامارك :

« لاجل ان توجد الطبيعة كائناتها المباشرة تعمد الى تكوين منسوج خلوي من الكتل الصغيرة المادة الجيلاتينية (الهلامية) التي تجدها تحت يدها ثم تملأ هذه الكتل الخلوية الصغيرة في الاحوال الموافقة بالسوائل المناسبة وتحيها بتحريك هذه السوائل بواسطة سوائل الطف منها طبيعتها التهيج تأتيها على الاستمرار من البيئات المحيطة » .

فالطبيعة في رأي لامارك تولد بعض الكائنات توليدا مباشرا وهو ما يعبر عنه اليوم بالتولد الذاتي وهي تفعل ذلك فيما يختص بالحيوانات الدنيا كالنقاعيات . وقد تولد كائنات أرقى من ذلك على هذا الاسلوب أيضا . أليس مما يرجح هذا الرأي تولد الديدان في الامعاء كما يقول ؟

هنا نقول ان عذر لامارك في هذه الجرأة ان الميكروبات لم تكن معروفة في ذلك الحين ، ولو كانت لما استطاع إمام في العلم مثل لامارك ان يقول مثل هذا الكلام الذي يضحك اصغر طلبة علم الطبيعة اليوم .

وهنا نلفت نظر القراء لهذه الحقيقة وهي ان كل المذاهب الفلسفية التي تستهوينه بأصولها وتعبيراتها كلها مبنية على الدرجة (المحدودة) التي لنا من العلم بالكون . فكلما اتسعت دائرة هذا العلم توسعت الفلسفة بقدرها وخففت أخطاءها السابقة . وما دمنا لانزال من العلم في الدرك الاسفل ، الهم الا علاقات ضبطناها عن الكائنات موجودة بينها ، ففلسفتنا مهما ظهرت لنا راقية متقنة فانها لاتمثل الحقيقة ولكنها تمثل درجتنا من العلم الناقص ليس إلا . وستنتقل من دور الى دور على مر القرون والله وحده يعلم الى اي مدى تنتهي في هذه الآماد المتتابعة . وكل ما نريد أن ننبه اليه القراء هو أن فلسفتنا التي نحني أمامها رؤسنا اليوم سيضحك منها خلفاؤنا كما نضحك

نص من قول زعيم نظرية التولد الذاتي اكبر علما. وقد قال لامارك بتولد الديدان في الامعاء بفعل الطبيعة مباشرة ....

.·.

كيف تنوعت الانواع بفعل الطبيعة في رأي لامارك وهي غير عاقلة والحياة نفسها عرض من اعراض المادة ؟

الامر في نظره سهل ، قال:

من الجلي ان الطبيعة لم تستطع أن توجد الحيوانات كلها دفعة واحدة . فان الطبيعة لا توجد شيأ الا تدريجيا وببطء عظيم ، حتى قد يدرك تقدمه الى الامام . فالكائنات الدنيا من سلفة خروجها من يد الطبيعة ، مؤلفة من المواد المتنوعة تحت تأثير القوى المختلفة ، وممنوحة باول شرارة من الحياة أخذت في الترقي ولا تزال تترقى الى اليوم ، وهي تلك الكائنات الدنيا التي ولدت كل ما نراه في المملكتين النباتية والحيوانية من الانواع التي لا تدخل تحت حصر عن طريق التسلسل ، فهي لم تنشأ طفرة كما يقول دوماييه ولكن بترق تدريجي في آماد لا يمكننا حسبانها .

كيف حدث هذا الترقي في هذه الكائنات الاولية ، وكيف تم النمو في التراكيب والحياة على ما نشاهده اليوم في النباتات والحيوانات العليا .

حدث كل ذلك وتم بتأثير البيئة والاحوال وفعل المادة ، فالطبيعة تتصرف في المادة وفي الزمان والمكان تصرف المالك ولكنها مقيدة بقوانين لا تتعداها ، أهمها اربعة :

(أولها) الحياة بقواها الذاتية تميل باستمرار الى زيادة حجم كل جسم تحصل فيه ولمد ابعاد اجزائه الى غاية محدودة . هذه الغاية هي الموت ، وهو التابع الطبيعي للعلة .

(ثانيها) كل ما يحصله الجسم الحي من الصفات أو يتأثر به من التغيرات ينتقل .

الى نسلها ويظهر فيهم على ما كان عليه في آبائهم . وقد ابان لامارك في شرحه هذا القانون بأن جملة التغيرات في مدى القرون توجد بين الاحياء تنوعات لاتقف عند حد .

(ثالثا) الجسم الحي اذا احتاج الى عضو بتأثير أحوال البيئة تطلبه وافضل لحصول عليه، وتحرك حركات خاصة تحت فعل الحاجة اليه فيتحقق ذلك، والحاجة في نظر لامارك هي الوسيلة العامة التي تستخدمها الطبيعة لتغيير أعضاء الحيوانات.

(رابعها) ان نمو الاعضاء وقدرتها على اداء وظائفها يكون دائما بنسبة استعمال هذه الاعضاء.

ومؤدي هذا القانون ان استعمال عضو من الاعضاء يقويه وينميه واهماله يضعفه ويلاشيه ؛

ومن هنا يتبين ان لامارك لم يقل فقط بالترقي التدريجي ولكن بالتقهقر التدريجي أيضا على حسب الاحوال .

وبتطبيق هذا القانون يسهل عليك في نظر لامارك ان تفهم كيف نشأت ذوات الثدي من الزواحف أمثال التماسيح وكيف انقسمت الى ثلاث طوائف أصلية .

ظهرت ذوات الثدي أولا ماشية على أربعة أرجل غير نامية ، بعضها ككلب البحر اعتاد التغذي بالحيوانات الحية . وهي لنشاطها في الصيد تجرأت على التوغل في الارض فنشأت ذوات الثدي المتمتعة بالمخالب، وهي اصول الحيوانات الضواري او الفراخة.

ومنها طائفة تعودت التغذي باوراق الاشجار فصارت أصولا للحيوانات المجترة .

وعند هذه وما تقتضيها ضرورة الجولان في الارض لطلب الغذاء بقيت عضلاتها وشدت روابط ارجلها بجذوعها ووصلت حوضها الخ

واليك أمثلة اخرى تبين لك ما يراه لامارك من العوامل في تنويع اشكال الحيوانات ؛

الظاهرة والباطنية منها : الحيوان المسمى (توب) لعيشته في الجهات المظلمة وعدم حاجته الى البصر صار فاقدا العينين او ذا عينين اثريين . ولحاجته الى التغذي بصيد النمل اخذ لسانه الشكل المعروف المناسب لصيد ذلك الحيوان

والحاجة الى التمديد والتزحيط الاعضاء بشدة قوى عضلاتها الجانبية واوجد اجنحة الخفافيش وما يشاكلها .

ولم يجعل الثعابين فوات اجسام ملساء مستطيلة مجردة عن الاعضاء الا وجودها لما كان كمشت عليها بالزحف والمرور من مسارب ضيقة .

والبط مثلا لم يوجد له ذلك الغشاء بين اصابع رجليه الا لاضطراره الى السباحة .

والمبرون الذي يكون بجوار البحار ما اكسبه هذه الارجل القوية الثابتة الا شعوره بضرورة الثبات وقضا مع شدة العوامل القاضية عليه بالسقوط . أما عنقه الطويل ومنقاره الممدود فقضت بهما عليه حاجته الى تناول الطعام خطفا .

والضرورة قضت ان تطول عنق الزرافة الى هذا الحد لانها اضطرت لتناول اغذيتها من اوراق الاشجار العالية .

لماذا حدثت الضواري مخالب ? يقول لامارك لانها اضطرت للتغذي بلحم الحيوانات الحية واحتاجت غرس اصابعها في اجساد فرائسها لتمنعها من الافلات .

وقد كان تعليل لامارك الزائدة التي في رأس الجمل سببا لضحك كثير من جانب خصومه وسلاحا استخدموه ضد مذهبه .

قال في تعليل تلك الزائدة ان ذلك الحيوان الضعيف متى خرج من فرقته واراد الانتقال احتاج لان يرود الارض التي امامه قبل ان ينتقل اليها فكان يشعر بضرورة منها برأسه على غير كثير من الحيوانات الدنيا فكانت تحشر قوة عصبية في الجهة التي يريد المس بها من رأسه ويقصد اليها دم غزير . وبتكرر ذلك على طول الازمان نمت هذه الجهة وما زالت تنمو حتى تكونت تلك الزائدة التي تطلع تلم

الصلاحية لجنس الارض امام ذلك الحيوان الضعيف .

فالجسم الحيواني ليس بمحض كتلة قابلة للتحول في يد البيئة ولكنه يؤثر في نفسه بقوة ارادته ايضاً .

هذا مذهب لامارك في جملته ونحن نلخص أصوله الاولية فيما يلي ليسهل مقارنتها بأصول خليفته دارون .

(١) التقاسيم المعتبرة في العلم الآن كالطوائف والصفوف والانواع الخ ليست طبيعية ولكن وضعية ، أي وضعها الباحثون فيها .

(٢) الانواع الحية لم تتكون الا شيأ فشيأ . ووجودها نسبي وبقاؤها محدود .

(٣) اختلاف الاحوال يؤثر في تكوين الحيوان باطنا وظاهرا .

(٤) الطبيعة في تكوينها الحيوانات بدأت من الادنى فما فوقه حتى انتهت الى الاعلى .

(٥) لافرق بين النباتات والحيوانات الا في الحس .

(٦) الحياة عرض طبيعي وليست بأصل مستقل .

(٧) العقل منشأه الاعصاب .

(٨) الارادة الانسانية غير حرة بل مقيدة بمقتضيات الجسم .

﴿ مذهب دارون ﴾

ظهر هذا المذهب في سنة (١٨٥٩) ووضعه شارل دارون العالم الانجليزي وأطلع عليه بعض اخوانه قبل هذا التاريخ فاتفق ان العلامة الكبير الانجليزي (الفرد رسل ولاس) كان اذ ذاك ينقب عن حياة بعض الحيوانات والنباتات وغيرها لمستراليا فهدى الى ذات مذهب التحول بتأثير ناموس الانتخاب الطبيعي وهو مذهب دارون بعينه فأرسل بمقالته لتنشر في مجلة الجمعية الملكية العلمية فعرض أعضاء تلك الجمعية

ان العدل يقضي بنشر المذهبين في وقت واحد فتقرر ان يعزى المذهب الى دارون دون روسل ولاس لاعتبار ما سابقا .

هذا المذهب مؤداه ان اصل الانواع النباتية والحيوانية التي تعيش بهاهذه الارض جرثومة واحدة أو جراثيم قليلة تطورت من حال الى حال تحت تأثير عوامل مختلفة طبيعية محضة حتى وصلت الى ما نراه من التنوعات التي على رأسها الانسان .

فهو لا يقول ان اصل الانسان القرد الموجود الآن ولكن حيوان بين القرد والانسان لم يعثر على هيكله في الاحافير للآن . أما القرد فان دارون يعتبره نهاية ترقي لفرع من أفرع الشجرة الحيوانية .

وقد بنى دارون مذهبه على اصول طبيعية مشاهدة وهي .

(١) قبول الاحياء التغير بمزاولة الحياة .

(٢) انتقال هذه التغيرات الى النسل من طريق الوراثة .

(٣) تنازع الاحياء البقاء .

(٤) بقاء الاقوى والاكمل من المتنازعين وضمور الاضعف وتلاشيه .

هذه العوامل هي التي تولت أول جرثومة حية ، ومازالت بها حتى اوجدت منها هذا التنوع الخطير الذي على رأسه الانسان .

لم يرد دارون أن يبحث في اصل الحياة ولا في كيفية وجود الجرثومة الاولى لهذه الاحياء واكتفى بأن يعزو ايجادها لخالق لصعوبة بحثها من طريق العقل والمشاهدة . فكان من هذه الوجهة أحكم من جميع من تقدموه وعقبوه فانهم خدعتهم تأثير الالفاظ الخلابة حتى خيل اليهم أنهم أدركوا سر الخليقة وعابوا على دارون تحفظه وتحرجه ، ولكن لم يلبث سلطان هذا الانخداع أكثر من نصف قرن حتى تبين الباحثين وهن هذه الاصول فعادوا الى مذهب لامارك لا لانه يعتبرانه الحقيقة ولكن لانه اقل مخالفة للمشاهدات . وقد استقر في روع العلماء ان هذين المذهبين وما ماثلهما لا يعللان نشوء الحياة ولا يعللان قيام العضو بتركيب آلي في الطبيعة .

ونحن قبل ايراد آراء هؤلاء العلماء نبسط مذهب دارون على ما يقرره فنقول

بمثال محسوس

فاذا افترضنا وجود سرب من الابقار الوحشية في غابة تسير متحدة كما دأبها في البحث عن غذائها فلاح لها مرعى تزاحمت عليه وتنازعت وفازت أهاليه أقواها واميزها. فالذي يحدث من ادمانها على هذا العمل ان اقواها تزداد قوة على قوتها، واضعفها يزداد ضعفا على ضعفه. وهذا معنى ناموس تنازع البقاء وفوز الاقوى.

فان ازعج هذا السرب من موطنه واضطر للانتقال الى مدى بعيد ملؤه مهاوٍ ووعوث ومجاهل لا يقوى على اختراقها الا الممتازون بالقوة والجلد لم يبق من هذا السرب بعد أن يصل الى مأمنه الا الافراد من امتاز بهذه الصفات وهذا مؤدى ناموس الانتخاب الطبيعي وبقاء الاصلح.

وهذه الطائفة الباقية لا يتولد منها الا افراد حاصلون على ارقى صفات سربهم الممتاز. فان اتفق وجودها في بيئة جديدة فيها احوال معيشية لم تتعودها وفواعل طبيعية لم تألفها حدث انتخاب طبيعي جديد ولم يبق على قيد الحياة الا الممتازة بصفات عليا من الجلد والصلابة، فاذا أدمنت الفئة الباقية المعيشة في هذه البيئة الجديدة اضطرت بحكم تغير الاحوال والفواعل الى اكتساب صفات جديدة جسدية ونفسية تناسب هذه الاحوال والفواعل. وهذا فحوى ناموس قبول الاحياء التغير على حسب البيئات التي توجد فيها ولا شك بأن النسل الذي يأتي منها يولد حاصلا على تلك الصفات الجديدة المكتسبة، ويورثها هو أيضا نسله وهلم جرا فتصبح ثابتة في النوع. وهذا مغزى ناموس الوراثة :

فالخلية الاولى التي تكونت منها هذه الاحياء كلها تكاثرت اولا بحكم طبيعتها فصارت نباتات دنيئة او حيوانات دنيئة، فعرتها النواميس الاربعة التي ذكرناها فأثرت فيها مشتركات الالوف فلبثت تتنازع البقاء، فلم يبق منها الا الاصلح، ثم أثر تغير عليها البيئة فتكتسب صفات جديدة تورثها فروعها فيحدث فيها تنوع تباين به فروعها بعضها عن بعض في بيئات اخرى، وهلم جرا حتى تكوّن من هذه الجرثومة الاولى كل ما تراه باعيننا أمامك من سكان هذه الارض.

﴿ الاعتراضات على مذهب دارون ﴾

لم يعترض على مذهب من المذاهب قدر مااعترض على مذهب دارون ، ولم ينتشر مذهب في العقول ويؤثر على الاخلاق والميول مثل ماانتشر وأثر مذهب دارون، وهو مبني على أصول تعتبر من المجربات اليومية لـكل انسان، وكل ماقي اهل الناس وعاولاتهم ادلة حسية على صحة تلك الاصول. لذلك انتشر هذا المذهب بين الطوائف حتى العامية، وراج في عقول اكثر العلماء في أول الامر ، ولكنهم لا يسلمون برجحان نظرية حتى يعودوا اليها ليستنفدوا كل مايسمه البحث والتنقيب . فلما جروا على عادتهم مع مذهب دارون تبين لاكثرهم وهن اصوله، وضعف ما بني عليها، ولكن كيف يفهم العامة ذلك وقد انتشرت بينهم كلمات تنازع البقاء وبقاء الاصلح وقانون الوراثة الخ حتى صارت سجية متينة .

ونحن لانريد من قولنا ان اهل العلم تبينوا وهن اصول مذهب دارون انهم أصبحوا يقولون بالخلق المستقل، فهذا مالا يقول به الا الشاذ من أهل العلم اليوم ، ولكنهم أصبحوا يرون لتسلسل الاحياء بعضها من بعض نواميس أخرى غير نواميس دارون، بل اكثرهم مال اليوم الى مذهب لامارك. اما الاعتراضات على مذهب دارون فمنها قديم تبين للناقدين بالبداهة ، ومنها حديث نتج من الابحاث الجديدة ونحن نعرض القديمة أولاً ثم نتبعها بالجديدة فنقول .

تنحصر الاعتراضات القديمة على مذهب دارون في ثلاثة أمور كلية وهي:

(أولاً) تنكر ان الارتقاء في الاحياء، ومؤداه أن الحيوانات الدنيا هي اليوم على ماكانت عليه لم يشاهد فيها ارتقاء ما ، وان الاحياء العليا والدنيا توجد معاً في جميع الطبقات الارضية فلو كان مذهب الارتقاء صحيحاً لاقتضى ان يوجد الادنى منها قبل الاعلى ، والامر على العكس فقد وجد بين أقدم الصور المستخرجة من باطن الارض ما هو بالغ من التركيب درجة عالية .

فرد عليهم أنصار مذهب دارون بقولهم : ان وجود صور ذات تكوين عال فى الطبقات القديمة جدا للارض لا ينقض مذهب دارون بل يبعد أصل السلسلة وتفرعاتها الي أزمنة أبعد وأدوار جيولوجية أقدم. وانا لم نكتشف للآن أقصى الطبقات الارضية. ثم ان الاحياء الدنيا التي نشأت منها الاحياء العليا يستحيل ان تحفظ اجسادها في بطن الارض ملايين من السنين لصغرها من جهة، ولقلة مقاومتها لعوارض الطبقات الارضية من جهة أخرى .

ولكن قد ثبت بما لايدع شكا لشك ان عالم النباتات سبق عالم الحيوانات، والحيوانات المجردة من الفقر سبقت الحيوانات الفقرية التي هي أعلى منها رتبة . وما كان من الاصل الفقرى أتم وأكمل جاء بعد ما كان منه دونه . فجاءت الحشرات بعد الاسماك ، وذوات الثدى والطيور بعد الحشرات، والانسان بعد الطيور ولا يعلم انه حصل عكس ذلك البتة .

(ثانيا) نكران الصور المتوسطة بين الانواع . قال خصوم دارون لو كانت الانواع النباتية والحيوانية مشتقا بعضها من بعض لكان بين كل نوعين منها صور متوسطة .

فرد الداروينيون على هذا الاعتراض بقولهم ان الصور المتوسطة بين الانواع الحية كثيرة، ومما يدل عليه حيرة العلماء في عد الانواع فقد عد بعضهم من نوع الهراسيون فى المانيا ٣٠٠ نوع وحسبها الاستاذ فرستل ١٠٦ وجعلها لوك ٥، وهكذا الشأن في جميع الانواع وما ذلك الا لعدم وجود حد فاصل بينها .

ثم قالوا ان الصور المتوسطة ان عدمت بين كثير من الانواع الحية فبسبب انقراضها بسرعة ، لان تنازع الحياة يشتد كلما تقاربت الصور، ويكون نتيجة ذلك تلاشي الصور المتوسطة ، فلا تبقى الا الصور المتباعدة التي لا تظهر للرائى انها من نوع واحد .

أما الصور المتوسطة فى الكائنات الاحفورية التى وجدت فى بطن الارض فكثيرة جدا وكل يوم يكتشف منها عدد كبير .

(ثالثها) طول الزمان اللازم للانتقال بمتوالية اذا كان قد مضى على العالم نحو ستة آلاف عام منذ دون التاريخ ولم يشاهد أدنى تحول في الانواع، فكم عدد السنين التي مرت على الخلية الحية الاولى حتى نشأت منها كل هذه الكائنات المختلفة التي في قمتها الانسان ؟

وقد شعر دارون نفسه بخطورة هذا الاعتراض فقال : ان السر وليم طمسون يزعم ان الارض لم تيبس قشرتها قبل اكثر من مائتي مليون سنة وهذا الزمان غير كاف لبلوغ الحياة الى حالاتها الحالية بالنشوء والارتقاء. فان صح مذهبي فلا بد أن يكون الزمان الذي مضى قبل تكون الطبقات الكبرية الارضية السفلى طويلا جدا وربما كان اطول منه بينها وبين اليوم .

ورد زعماء مذهب دارون هذا الاعتراض بقولهم أن تحديد السير وليم طمسون وغيره قائم على محض ولیس في وسائلنا ما يمكننا من تحديد عمر الارض بالضبط.

(الاعتراضات الجديدة على)

مذاهب التحول

مع عدم وجود عالم يحترم يقول بالخلق المستقل الآن، فان جمهور الباحثين اليوم أدركوا أن كل النظريات التي افترضت في تفسير تسلسل الكائنات الحية بعضها من بعض لا تمثل الحقيقة، ولا تروج الا في اذهان الذين يفتنون بالالفاظ الضخمة . وهذا التوقف من اهل العلم اليوم اثر من آثار تخلص العقل من سلطان الخداع العلمي السابق، وهو الخداع الذي اوهمه انه ادرك سر الوجود ووقف على جميع سرائره بفضل الفلسفة المادية والعلم الطبيعي .

وقد لخص العلامة الدكتور (جوستاف بوليه) من كبار علماء فرنسا الامور التي لم تحلها مذاهب التحول الرسمية سواء اكانت داروينية أو لاماركية او غيرها فقال في

خمسة امور هامة وهي منقولة عن كتابه (عن الاشاعر الانشاعر):

(١) العوامل التي فرضها العلم الرسمي تعجز عن تعليل وجود الانواع

(٢) تلك العوامل تعجز عن تعليل وجود الالهام عند الحيوان .

(٣) تلك العوامل تعجز عن تفسير تلك الاستحالات النهائية الموجودة لانواع جديدة.

(٤) تلك العوامل تعجز عن تعليل ذلك الرسوخ المباشر النهائي للصفات الاصلية للانواع التي تتكون حديثا، وتعجز أيضا عن تعليل نشوء الالهامات الجديدة فيها (وقد ثبت أن أنواعا جديدة لا تزال تخلق الآن كما سنراه).

(٥) تلك العوامل تعجز عن حل هذه المعضلة الفلسفية الخاصة بمذاهب التحول وهي: كيف يخرج المركب من البسيط وينشأ الاكثر من الاقل؟

ثم أخذ الدكتور (جوستاف جوليه) يفيض في بيان وجوه هذا العجز في نظريات التحول عن تعليل الامور المذكورة، مما لا نستطيع إثباته هنا لان غرضنا ليس إثبات فساد مذهب دارون، ولكن التدليل على ان العقل الانساني خرج من سلطة الدعوى العلمية الباطلة فأصبح لا يستهويه شيء من الالفاظ الضخمة والتعبيرات الدامغة. وهذا الغرض يكفي فيه نقل آراء العلماء في ذلك ليس الا .

والذي نريد بيانه هنا هو عجل أن مذهب دارون الذي كان انتشر هذا الانتشار المدهش عقب ظهوره، فقد سلطانه اليوم وأصبح الناس يميلون الى مذهب لامارك لا باعتبار انه الحقيقة المطلقة، ولكن باعتبار انه أفضل من مذهب دارون.

قال الدكتور (جوستاف جوليه) المذكور في كتابه التقدم صفحة ٢٠ :

« لقد أصبحت الغالبية العظمى من العلماء الطبيعيين يتشيعون النظرية اللاماركية التي تحاول ان تحيل مذهب التحول كله الى تأثير البيئة . وبما مذاهب (كوب) و(باكارد) بأمريكا و(جيار) و(لوداتك) في فرنسا الا لاماركية المبنية

وقال الدكتور المذكور في صفحة ١٧ من كتابه المذكور :

« يرى مما تقدم ان اللامركية والدارونية تستويان في العجز عن اعطاء تفسير عام صالح ينطبق على كل الاحوال من ظهور الانواع الحية ».

ثم أخـذ العلامـة (جوستاف جوليه) يفصل في توسع نقص (اللامارككية) فقال :

« تستطيع اللامارکية ان تفسر لنا ظهور طائفة من الجزيئات العضوية الثانوية، والتغيرات المتتالية في الحجم، كضمور عيني الحيوان المسمى (التوب)، وتضخم الوسطى من اصابع الحيوان المعروف المسمى (ايكيدى) أو التركيب الخاص لمفاصل رجله.

« ولـكن هذا المذهب باطل من جهة كونه نظرية عامة ، لانه يعجز عن بيان الحوادث الاكبر قيمة . فهو لا يفسر التحولات الكبيرة التى تكلمنا عنها في نقـد المذهب الداروني، فكلاهما يستوى في القصور، لان هذه التحولات تستدعي تغيرات أصلية ، وهي تغيرات مباشرة لا مجموع تغيرات تافهة بطيئة .

« فالتحول من الحياة المائية الي الحياة الارضية ، ومن هذه الحياة الارضية الي الحياة الهوائية الجوية ، لا يجوز على الاطلاق ان يعتبر نتيجة لازمة لناموس المطابقة .

فالانواع السالفة التي تناسب البيئات الخاصة لم يكن بها من حاجة الى تغيير ماهي عليه وان كانت أحست بحاجة الى ذلك لما استطاعت ذلك .

« فـكيف استطاع الحيوان الزاحف وهو سلف العصفور، ان يتناسب والبيئة التى ليست له ، ولا يمكن ان تكون له الا بعد أن يتحول من صوره حيوان زاحف الي صورة عصفور، فكان لا يستطيع قبل ان تكون له أجنحة ، اجنحة نافعة لا اثرية ، ان تكون له حياة هوائية وان يتناسب معها

« ونظرة تشبه النظرة المتقدمة تنطبق على تحول السمكة الى باتراسيان (الباترسيان طائفة من الحيوانات المقربة على رأسها الضفدعة).

« ولكن المثال الذي يظهر فيه بوضوح استحالة التحولات بواسطة التناسب هو تطور الحشرة . اذ لا توجد اية علاقة من جهة علم الحياة بين الدودة التي تمثل على حالة مّا الصورة الاولى للحشرة الاولية وبين الحشرة الكاملة . ولم يتصل احد الى ادراك تلك السلسلة الغامضة من التناسبات التي بها أمكن حشرة تعودت الحياة الدودية تحت الارض أو في المياه ان تصل شيأ فشيأ الى ايجاد أجنحة لجسمها تصلح لحياة هوائية بعيدة عنها بل مجهولة منها .

«ومتى فكر الانسان في ان هذه السلسلة الغامضة من التناسبات حصلت لا مرة واحدة على سبيل الاستثناء بنوع من الخوارق الطبيعية ولكنها حصلت بقدر عدد أنواع الحشرات ذات الاجنحة يدع الانسان كل أمل في تعليل ظهورها اجناسها بالعوامل اللاماركية كما يرفض فكرة تعليلها بالعوامل الدارونية » .

ثم قال :

« من هنا نري ان اللاماركية والدارونية تستويان فى العجز عن اعطاء تفسير عام يمكن تطبيقه على جميع الاحوال من ظهور الانواع »

«واذا كان اكثر القائلين بنظرية التحول لم يدركوا ذلك للآن فان قوما منهم يعترفون به ويجتهدون فى ان يجدوا في غير هذا المجال العامل الصالح في التحويل العامل الصالح لتذليل كل هذه الصعوبات الملازمة لعلم الطبيعي الرسمي .

«فبعض اللاماركيين الجدد من امثال (بولي) ينسبون الي عناصر الجسم والى الجسم نفسه سواء أكان نباتيا أم معدنيا نوعا من الشعور القوى . وهذا الشعور القوي كان العامل الاصلى فى احداث كل التغيرات والتناسبات . وذهبوا الي انه يوجد في جميع درجات السلم التحولي جهد مستمر ومقصود بالذات لاحداث التناسب مع البيئة .

«اما (نايجلي) فهو اكثر تصريحا فعنده ان الاجساد تحوي نوعين من

البلاسما (أي المادة الحية) : البلاسما القاعدية العامة لجميع الأنواع المختلفة ولا نوعية ، والبلاسما النوعية ومثالها ايديو بلاسما .

«وهذه الايديو بلاسما تحتوي لا على الميزات التي تميزها فقط ، ولكن على ميـل بالحي أيضاً للترقي ، وعلى كل الصلاحيات والقابليات للتحول والتكمل . وهذه القابليات قد وجدت منذ وجود الحياة في الصور الحية الاولية . والعوامل الخارجية والداخلية لا يكون عملها غير تسهيل تناسبها مع البيئة . ولكن هذه العوامل تعجز هي في ذاتها أن توجد الترقي» انتهى .

فمن هنا يرى القارئ أن النظريتين الداروينية واللاماركية اللتين استغرقتا العقل البشري عشرات من السنين ، ولا يزال ينخدع بهما كثير من الذين تلقوهما أو تلقفوهما بالشهرة ، فقدتا كل ما كان لهما من سلطان على العقول وسنرى فيما يلي الى أي مـدى وصل العقل البشري من خلع نيريهما . كل هذا حصل في العالم الغربي ولا يزال الشرقيون الذين يدعون انهم في طليعة النهضة العلمية يجعلون الداروينية عمدتهم في كل تعليلاتهم حتى في شؤنهم الادبية .

(ثبوت فساد أصول اللاماركية والداروينية)

بالتجارب العملية

قال العلامة الدكتور (جوستاف جوليه) في كتابه (من اللاشاعر الى الشاعر) المطبوع سنة ١٩٢٠ :

«اللاماركية والداروينية توجبان القول بأن تغيرات بطيئة وصغيرة لا يمكن حصرها حدثت فتحولت بها الانواع على سنة التدريج .

وهذا القول الذي اعتبر من العقائد الراسخة يظهر للقائلين بهاتين النظريتين انه فوق كل جدال

ولكن لم يلفت نظر الناس حتى جاء المسيو (دوفري) فأعلن مشاهداته في جلسة

الانتقالات، أو الظهور الفجائي لأنواع نباتية جديدة ظهرت بدون مؤثرات في صور مغايرة متميزة من صور أسلافها الأولية ، فكان لهذا الاستكشاف عند المشتغلين بالفلسفة الطبيعية أثر كبير من التشويش والارتباك .

ثم نقل الدكتور (جوستاف جوليه) قول الأستاذ البيولوجي الكبير (فوداتشك) وهو مدرس علم الحياة بجامعة السوربون الباريزية وهو مأخوذ من كتابه المسمى (أزمة مذهب التحول).

« وقد ظهرت منذ عدة سنين نظرية جديدة مؤسسة على تجارب ممحصة شايعها عدد عديد من علماء العلوم الطبيعية . والحال ان هذه النظرية المسماة بنظرية الانتقالات أو التحولات بالطفرة تعتبر انكارا للامارکية بل تكاد تكون انكاراً لأصل التحول نفسه »

ثم عاد الدكتور (جوستاف جوليه) الى تفصيل مذهب (دوفري) فقال :

« المسألة الوحيدة التي يجب حلها هي : أهذه الانتقالات الفجائية في التحول قاعدة أم استثناء ؟

يقول (دوفري) بصراحة ان التحولات الفجائية هي القاعدة في عالمي الحيوانات والنباتات . وهو محق فيما يقول . فاذا امتحن الانسان جميع التاريخ الطبيعي بدقة في سلم الارتقاء ، ادرك أن نظرية التحول بالطفرة تصادف في كل مكان ما يؤيدها .

فهناك حقائق ظاهرة للعيان ولكنهم كانوا لا يريدون ان يروها ، أو كانوا يخفونها عن الانظار بغير شعور منهم ، قد ظهرت الآن ظهوراً بيناً وامتحنت امتحاناً مدققاً .

وقد كان اعلن هذه الحقائق الطبيعيون الكبار من امثال جوفروا سانت هيلير ولكنها لم تسد على القول . وعليه فمذهب التحولات البطيئة لم تجد مناقضاً لها حتى ظهرت اعمال (دوفري) »

« وبيا . (كوب) فاعتمد على نظرية التحول بالطفرة واعادة دراسة الصور الطفرية وخاصة الصور الطفرية (قبل البراسيان) وذوات الثدي بأمريكا ولم يجد صعوبة في ترجيح حدوث تغيراتها نحو الارتقاء من طريق الطفرات » .

« ومن السهل اذا اعتمدنا على المعتقدات الطفرية التي تؤلف سجلات الخليقة ان نشاهد دائما الظهور الفجائي للانواع الكبيرة الرئيسية . فالبراسيان والزواحف والطيور وذوات الثدي تظهر فجأة في الاراضي الجيولوجية . ويظهر أنها بمجرد ظهورها تحصل بسرعة على صفاتها وتحفظها بعد ذلك كاملة ولا تكابد بعدها تغيرات اصلية مادامت أنواعها حية .

ثم قال :

« يبنا علم الطفريات بربنا كثيرا من الاعضاء الاثرية في اجساد الحيوانات الحية ، وهي اعضاء بطل استعمالها وعدمت فائدتها ، فلا يعطينا قط مثالا واحدا لاعضاء آخذة في التكون ولا تزال لا تصلح للاستعمال . وعليه فيظهر ان التحولات الفجائية هي القاعدة في رقي الاحياء . ولقد اتضح الآن ان ناموس الانتخاب الطبيعي وتأثير الوسط لا يستطيعان تفسير الظهور الفجائي للانواع الجديدة » انتهى ما قاله الدكتور جوستاف جوليه .

ان أستكشاف (دوفرى) قد احدث انقلابا في نظريات علم الحياة ومذاهب التحول لم يكن يخطر على بال احد . وهو ليس بنظرية جديدة بل هو مقررات تجريبية محسوسة وضع فيها كتابا ضخما لا سبيل الى بسطه هنا . وكفانا اعتراف الاستاذ (لوداتك) بذلك وقد كان من اشد انصار نظرية دارون ثم انقلب الى مذهب لامارك كما كثير العلماء المعاصرين لنا . فأين الجامدون هنا على مذهب دارون من هذه الانقلابات

القردة ؟

ان المقالة (دوزي) هذا لا يؤدي الى القول بالتولد الذاتي أي بالخلق المستقل ولكن مؤداه ان التحول في الاحياء لم يحدث بطريق نظرية دارون من الانتخاب الطبيعي الآلي ولا بطريق نظرية لامارك من تأثير البيئة وحدوث التناسب التدريجي بين الكائنات والبيئات ولكن بطريق الطفرة أي ان القوة المدبرة للكون أوجدت الانواع المختلفة بعضها من بعض على سنة الطفرة . فلأجل [illegible] الانسان مثلا حولت جرثومة القرد في رحم القردة الى جرثومة انسانية [illegible] وصار نوعا قائما بذاته . لا ان الانسان نشأ بلا قصد من تأثير ناموس الانتخاب الطبيعي على القردة او على حيوانات أخرى بابقاء الاصلح وباكتساب صفات وميزات جديدة على سنة التدرج البطيء في الوف القرون كما يقول دارون ، أو بتأثير البيئة كما يقول لامارك.

﴿ حياة الحشرات تنقض نظريات ﴾

التحول الطبيعي بالحس

قال الدكتور (جوستاف جوليه) في كتابه (من لاشاعر الى شاعر) المذكور آنفا :

« يكفي ان يتأمل الانسان في حياة الحشرة بعناية ليدرك بطلان النظريات القديمة والحديثة في وجود الانواع وترقيها .

« فان الحشرة بظهورها من اقدم عهود الحياة الارضية وثبات انواعها في جميع الاحوال بعد بروزها ، تناقض ما يذهب اليه من التحولات المستمرة البطيئة غير المتناهية .

« وتقوم ضد نظرية الترقي بالعوامل الآلية الرئيسية من الانتخاب الطبيعي والتناسب مع البيئة شهادة الحشرة بوجود القوة التي تفصل بينها وبين ما كانت عليه من الحالة

الدودية الحقيرة، وهي حوة تضيم فيها ولا كرامة جم النظريات الداروينية واللاماركية».
وتقيم الحشرة كذلك ضد هذه النظريات أمراً اعجزت عن تفسيره وهو غرائزها الاولية الصحية المميزة لها».

«وتقوم ايضا ضد ما يذهب اليه من التطور بفعل العوامل الخارجية شهادة الحشرة بتطوراتها الهائلة، تلك التطورات الذاتية داخل شرنقة مقفلة محمية الى حد بعيد من تأثير هذه العوامل الخارجية

« وتقيم الحشرة أيضا ضد نظرية التطور المستمر غير المتقطع بالتمثيل الوظيفي شهادتها بتطوراتها واستحالاتها وتغيراتها في الترقي او التدلي مدة حياتها الدودية وانها لتنقض خصوصا تلك النظريات وهي داخل شرنقتها بظهورها بهذا الحدث الذي لا يعقل وهو احالة اكثر أعضائها الى سيال لا شكل له قبيل دخولها في شكلها الاخير.

«هذه الشهادة الحيرة للعقل بتعليمنا بأنه لا تغيراتها الديدانية الهائلة، ولا تلاشي انسجتها تؤثر على شكلها المستقبل كحشرة كاملة. هذه الشهادة تنقض جميع مدركاتنا على بناء الاجسام وعلى تحولات الانواع».

« فالحشرة تهبنا والحالة هذه في مجموع أدوارها الحيوية رمزا عن ماهية التطور في الحقيقة كما نرى ذلك. فانها تثبت لنا بأن سبب التطور لايجوز ان يبحث عنه لا في تأثير البيئة ولا في التأثيرات المضادة له من المادة الآلية، ولكنه مستقر في حركة علوية مدبرة مستقلة عن هذه المادة العضوية.

«والحشرة ترينا التطور حاصلا بخاصة بتأثير داخلي متميز عن تأثير البيئة المحيطة بها، وبدافع اولي محقق ولكنه مجهول عندنا، وهو ضد الطبيعي الرسمي لا يمكن تفسيره على الاطلاق».

«ليس هذا كل ما يقال فان هذه الشهادة التي لا مثيل لها من الحشرة في الحين الذي تنقض فيه النظريات الطبيعية العصرية تناقض كذلك المذهب القديم القائل بحدوث الخليقة تحت اشراف العناية الالهية

« ذلك لان الوصف المميز للحشرة من الوجهة النفسية هو ان لها غريزة تكاد تكون مجردة من كل اثر للادراك . والمشاهدة أن هذه الغريزة المحضة، والتي يجب عدها في بدء مئات القرون ، تمتاز بوحشية مروعة ، وحشية عاتية لا نظير لها في بقية العالم الحيواني ، ومع ذلك فالحشرة بريئة منها كل البراءة .

« فاذا قيل بوجود خالق شاعر بنتيجة تصرفاته ، فتكون هذه الوحشية من عمله وتكون حالة الخليقة كلها مرآة لاعماله » انتهى كلام الدكتور جوليه .

نقول ان هذا العالم لا ينكر وجود قوة مدبرة خلقت الكائنات ولكنه يفرضها قوة لا شاعرة ، وأنها توصلت الى الشعور بذاتها في كائناتها كالانسان وغيره .

أما كلامه عن شهادة الحشرة فيشير الى تلك الظاهرة المدهشة التي تتجلى في حياة الحشرة ، ولنضرب مثلا لذلك بدودة القطن ، فهي تولد دودة تحيا ايامًا حياتها المعروفة ثم تنسج لنفسها شرنقة فتدخل فيها ، وهناك لا تموت فقط بل يسيل جسمها ويستحيل الى مادة أولية لا شكل لها ، ثم تتركب هذه المادة بنفسها فتكون جسما لا نسبة بين شكله وشكل الدودة ، تكون فراشة ذات أجنحة وغرائز أخرى غير غرائز الدودة .

هذا المثال وحده ينقض كل نظريات الداروينيين واللاماركيين المؤسسة على إن اختلاف الاعضاء وتطورها وارتقاء الانواع واشتقاق بعضها من بعض لا يكون الا على مقتضى نواميس سموها بأسماء متنوعة . والحقيقة ان كل نوع نشأ كما نشأت الحشرة بفعل قوى ليست من القوى الطبيعية المعروفة . وأي شاهد اصدق من هذا الشاهد المحسوس ؟

والعقل العصري معذور في استخفافه بالنظريات العلمية المقررة ، فقد طال عليه زمن الانخداع بالالفاظ الاصطلاحية الضخمة ، واصبح اليوم وهو مقتنع جد الاقتناع بأن كل هذه النظريات التعليلية اوهام باطلة تصد عن سبيل الحقيقة التي ينشدها ، وقد دخل بهذا الادراك في دور جديد سيكون فاتحة عهد هو اكرم عهود العقلية ، واسرعها ايصالا له الى الحقائق الاولية .

﴿ مذهب داروين في نظر داروين ﴾

من الناس من يؤمن بحقية مذهب داروين ايمانا لاحد له، يخيل اليه انه حل مشكلات الخليقة حلا لامطمع بعده لطامع، وعذره في ذلك انه يجهل الطبيعة، ولا يدرك فيه النظريات من جهة تعليلها للحوادث، لانه يجهل سلسلة تلك الحوادث ولا يعرف الا مايقع تحت نظره منها. على ان داروين نفسه كان يدرك ان نظريته لاتفسر وجود الانواع تفسيرا يثلج عليه الصدر، وتطمئن له النفس، ويرى انه لابد من وجود عوامل أخرى خفية اشتركت مع ناموس الانتخاب الطبيعي في تنويع الاحياء، فقد قال في صفحة ٤٢١ من كتابه (اصل الانواع) :

« أنا مقتنع بأن ناموس الانتخاب الطبيعي كان العامل الرئيسي لحدوث التنوعات في الانواع ولكنه لم يكن العامل الوحيد في احداث ذلك التميز »

وكتب داروين الى المستر (هيات) وقد جمع هذا الكتاب مع بقية كتبه في مجموعة تدعى (كتب داروين) أي رسائله قال :

« اسمح لي أن اضيف الى هذا بأني لست من قلة العقل بحيث اتصور بأن نجاحي يتعدى رسم دوائر واسعة لبيان أصل الانواع »

﴿ ماسبب انتشار الداروينية ﴾

على فسادها

من العجب ان مذهبا كمذهب لامارك أو داروين يكون فيه من وجوه النقص مايجعل صاحبه نفسه يزري به، ينتشر هذا الانتشار الكبير ويجد له انصارا متحمسين من درجة متحمسي الاديان في التصور البعيد.

على ذلك الفيلسوف الكبير (ادوار هارتمان) الالماني خليفة شوبنهور في كتابه (المذهب الدارويني) فقال في صفحه ١ منه ،

« ما أثر في سرعة نشر المذهب الداروني أكثر من الحية التي كافحه بها علماء اللاهوت من كل مذهب متحدين مع الفلسفة الرسمية ، فاقتضى الحال اذ ذاك ان يظهر ازاء هؤلاء الخصوم الذين لا يستندون إلا على براهين وهمية وغير علمية خصوم آخرون شديدو التعصب لنظرية داروين، حملتهم غيرتهم الشديدة بأن يستنتجوا منها نتائج لم ينوه بها صاحبها الا من طرف خفي أو اخفاها عمدا . فكانت هذه الجرأة من هؤلاء دافعة لخصومهم على الاستبسال ، وجاءت الفلسفة المادية من جهة أخرى فتقمصت روح الداروينية لفائدة مذهبها . . .

« أما في العالم العلمي فقد تقرر من الوجهة التي اختير السير عليها في ذلك الحين انه من المستحيل مكافحة هذه النظريات الجديدة، وانه يجب على أي حال من الاحوال احناء الرؤس اجلالا لها ، ولم يبق الا علماء طاعنون في السن فقدوا المرونة العقلية الكافية لاعادة بناء معارفهم ظهروا في غاية الاستعصاء عن التأثر بالداروينية . أما العقول الراجحة التي كانت تحاول التمييز بين الحق والباطل من هذا المذهب الجديد فكانت نادرة جدا . وكانت أصواتهم تضيع بين الضوضاء المنبثة من المعركة التي شبت نارها بين أنصار الداروينية المتحمسين ، وبين خصومهم المتعصبين »

رأي فون باير في الداروينية

فون باير هو العلامة الالماني الكبير مؤسس علم الامبريولوجيا (علم الاجنة) ، وهو من اقطاب الفزيولوجيين والمشرحين والبيولوجيين، قال في كتابه المسمى (دحض المذهب الداروني) في طبعته الثانية الصادرة في سنة ١٨٨٦ .

« ان الرأي القائل بأن النوع الانساني متولد من القردة السيميانية هو بلاشك أدخل رأي في الجنون قاله رجل على تاريخ الانسان ، وجدير بأن ينقل الي اخلافنا جميع الحماقات الانسانية مطبوعة بطابع جديد . يستحيل ان يقوم دليل على هذا الرأي

المضحك من جهة المكتشفات الحفرية».

وقال في ختام كتابه المسمى(خطابات ومباحث علمية) .

«انا لا أعادك نفسي من التصريح (بال العلم بأن فرضا من الفروض لا تكون له قيمة ولا سبيل في البقاء الا اذا عاملناه معاملتنا لسائر الفروض، أي نجعله كنقطة يتوجه منها الي مباحث خاصة . ولكن من الشؤم والانحطاط ان نعتبر فرضا من الفروض آخر كلة للعلم وهو مجرد كل التجرد عن الوسائل التي يثبت بهـا نفسه . ان علمنا مؤلف من قطع واجزاء فتكميل هذه القطع بواسطة الافتراضات يمكن أن يؤدي الى ارتياح شخصي ولكن لا يكون هذا من العلم شيء ».

﴿ رأي الاستاذ بربر في مذهب ﴾
دارون

قال العلامة بربر في كتابه (طوائف الحيوان) المطبوع سنة ١٨٨١

«ان الاسباب الاولي التي احدثت الاختلافات الشخصية،والتي لابد من أنهـا كانت كثيرة جدا،لا تزال مجهولة ويجب تعينها،وتعيين سبب الفقر الناتج من تصالب الانواع،وكذلك المسافات التي يلزم قطعها من القاعيات حتي الانسان شاسعة جدا»

ان بربر كما كثير العلماء مع اعتراضهم على مذهب دارون لايقولون بالخلق المستقل ولـكنهم يرون ان مذهب دارون يقصر عن تعليل هـذا التسلسل بدليل قول بربر بعد ذلك :

«ان هـذه مسائل يجب اكتشافها ولا يصح أن تكون اعتراضات على مذهب التسلسل فأي مذهب كيماوي او طبيعي لا اعتراض عليه ؟

﴿ رأي العلامة فيركو في مذهب دارون ﴾

«الاستاذ(فيركو) الالماني من اعلام علم الانثروبولوجيا(التاريخ الطبيعي للانسان)

نقض مذهب دارون ووافقه العلامة الانتربولوجي الفرنسي الكبير (دوكاترفاج) في كتابه (النوع الانساني) الصادر في سنة ١٨٧٧ قال :

« يجب عليّ أن اعلن بأن جميع الترقيات الحسية التي حدثت في دائرة علم الانتروبولوجيا السابقة على التاريخ تجعل القرابة المزعومة بين الانسان والقرد تبعد عن الاحتمال شيأ فشيأ. فاذا درسنا الانسان الحفرى في العهد الرابع، وهو الذي يجب ان يكون الانسان فيه أقرب الى اسلافه، نجد انسانا مشابها لنا كل الشبه .فان جماجم جميع الرجال الحفريين تثبت بطريقة لا تقبل المنازعة بانهم كانوا يؤلفون مجتمعا محترما للغاية .وكان حجم الرأس فيهم على درجة يعتبر الكثير من معاصرينا انفسهم سعداء اذا كان لهم رأس مثله .واذا قابلنا مجموع الرجال الحفريين الذين نعرفهم للآن بما نراه في ايامنا هذه استطعنا أن نؤكد بكل جرأة بأن الاشخاص ناقصي الخلقة هم بين الرجال العصريين اكثر منهم بين الرجال الحفريين. ولا اتجاسر أن افترض بأننا في اكتشافاتنا الحفرية لم نصادف غير اصحاب القرائح السامية من اهل العهد الرابع . والعادة اننا نستنتج من تركيب هيكل عظمي حفري تركيب معاصريه الذين عاشوا معه في وقت واحد. ومهما كان الامر فيجب على ان اقول بانه لم توجد قط جمجمة قرد تقرب حقيقة من جمجمة الانسان. . . . على انه يوجد بين الانسان والقرد خط انفصال نهائي آخر . فاننا لا نستطيع قط ان نعلم الناس بان الانسان يتولد من القرد او من اى حيوان آخر، ولكن لا نستطيع أن نعتبر ذلك من الامور العلمية »،

﴿ رأى ايلي دوسيون ﴾

في مذهب دارون

ايلي دوسيون من كبار علماء الفزيولوجيا ذكر عن مذهب دارون في كتابه (الله والعلم) صفحة ٢٩٥ من طبعته الثانية الصادرة في سنة ١٩١٢

ما يأتي :

« بعد أن قاوم المذهب الداروني عشرين سنة تلك المكافحات الحقة التي قصده بها خصومه قضي عليه قضاء غريبا بأن يهلك تحت ضربات أشد اشياعه غيرة عليه . الفرضان الرئيسيان اللذان يقوم عليهما هـذا المذهب هما الانتخاب الطبيعي وانتقال الصفات المكتسبة بالوراثة في مدى تنازع البقاء . فقد جاء هربرت سبنسر الميتافزيكي الكبير (الميتافزيكا علم العلل الاولية) وهو أمثل المبشرين بالمدركات العالية لدارون فتكفل بهدم الفرض الاول من أساسه واثبت استحالة تحول الاجسام العليا بتأثير ناموس الانتخاب الطبيعي استحالة تامة (انظر ما كتبه تحت عنوان عدم كفاية ناموس الانتخاب الطبيعي في مجلة (كونتامبورارى رفيو لسنة ١٨٩٠) ثم تبعه نصير آخر للمذهب الداروني لايقل عنه حماسة وهو الامبريولوجي ويسمان (الامبريولوجيا علم الاجنة) فحلل المشاهدات الاصلية التي يقوم عليها هذا المذهب للدلالة على امكان انتقال الصفات والخصائص المكتسبة في مدى حياة الاجسام بطريق الوراثة تحليلا انتقاديا مفصلا وبرهن على ان هذه المشاهدات المزعومة لاتقوم الا على حكايات مخترعة في جميع أجزائها ولا تعلو قيمتها العلميـة عن قيمة حكايات المرضعات » .

﴿ سقوط ناموس الانتخاب الطبيعي ﴾
في نظر العلماء

ذكرنا ان مذهب دارون يقوم على ناموس الانتخاب الطبيعي ووراثة الصفات المـكتسبة، وقد تناولهما العلماء بحثا فوجدوهما لايغنيان فتيلا فيما نسب اليهما ونحن ننقل هنا بعض ماقاله فيهما العارفون الاخصائيون.

نشر الاستاذ (جورج بوهن) مدير معمل البيولوجيا والبسيكولوجيا بالمقابلة في جامعة باريس كتابا خصصه لعلم البسيكولوجيا الحيوانية الجديد ، اجازه المجمع العلمى للعلوم الادبية والسياسية ، ثار فيه على نظرية الانتخاب الطبيعي، قال فيه

صفحة (١٢٥) :

« ان التركيب الجسمي ليس بتركيب وجد لغاية محدودة،ولكنه مجتمع صفات وراثية يختلف بعضها عن بعض في درجات الاستقلال ، بعضها نافع وبعضها غير نافع بل ضار ، والتركيب الجسمي كثيرا ما يوجد لهذا السبب قليل التناسب مع البيئة التي هو فيها .

« فان كان الانتخاب الطبيعي للصفات النافعة يلعب دوراها ماً في الواقع لم يكن أثر التركيب الجسمي على هذه الحال . وعليه فان البيولوجيين الذين لايزالون يعتقدون بالقدرة المطلقة لناموس الانتخاب الطبيعي ليسوا بمحقين في هذه النقطة . فان رأى كثيرين من البيولوجيين العصريين انه لايوجد انتخاب طبيعي بين الصفات المختلفات ولكنه يوجد بين الانواع التي تم تكونها من قبل » .

ثم قال الاستاذ المذكور في صفحة ١٩٦ من كتابه ذلك :

« الى هنا نرى ان نتائج كثير من المباحث البيولوجية والبسيكولوجية الحيوانية قد ظهر بطلانها بسبب القيمة العظيمة التي كان أصحاب هذه المباحث يعطونها لنظرية الانتخاب الطبيعي . ويكفي في ذلك ان يقرأ الانسان الكتابات الاخيرة التي نشرها (ج لويب) وكتابات (دولاج) و (جولدسميث) ليدرك مبلغ نقص الثقة في هذه النظرية (أي نظرية الانتخاب الطبيعي) .

﴿ رأي العلامة ادمون بريه ﴾

في ناموس الانتخاب

كتب العلامة (ادمون بريه) مدير دار الآثار الحيوانية في باريز في مجلة (العالم الحي) الصادرة في ٢٠ يونيو سنة ١٩١٢ عن كتاب نشره الاستاذ (جينو) المدرس بجامعة نانسي اسمه (الاصول التكوينية للانواع) ونال عليه احدى الجوائز التي يشتد تطلع العلماء اليها وهي الجائزة الخاصة بعلماء التاريخ الطبيعي أو جائزة كوفيه قال :

«ان ثقة الاستاذ(جينو) بتأثير البيئة (الوسط الخارجى) ضعيفة جداً . فان هذه البيئات على مايقول لا تصلح لايجاد أى تغيير وراثى ثابت . وعلى ذلك فان البط وسائر الطيور المائية ترى متمتعة بأرجل ذات أصابع متصلة بغشاء فيظن أن هذه الاغشية قد أوجدها نوع معيشتها ، ولكن الامر على العكس من ذلك فى مذهب المسيو(جينو) فانه يقول بانها قد وجدت لها مقدما بدون تأثير من الخارج . واخذ البط يعوم لانه وجد لنفسه أرجلا مغشاة تصلح للعوم . فهذه الحيوانات قد اعدت من قبل للعوم اى انها خلقت لتعوم قبل ان تستفيد من تركيب أرجلها فى العوم » .

﴿ عدم ثقة العلماء بناموس الوراثة فى نقل الصفات ﴾

﴿ وهو الركن الثانى لمذهب دارون ﴾

قال العلامة الالمانى الكبير ويسمان وهو من اعلام (علم الامبرولوجيا) كما نقله عنه الفزيولوجى (ايلى دوسيون) فى كتابه (الهوالعلم) صفحة ٥٠ م قال :

«لايوجد مشاهدة واحدة تثبت وراثة الصفات المكتسبة» .

وقال (بلوجر) العلامة الفزيولوجى الالمانى الشهير فى كتابه (الاغراض الآلية فى الطبيعة الحية)

قد بحثت من قرب جميع المشاهدات التى قيل انها تثبت انتقال الصفات المكتسبة بالوراثة أى الصفات التى لاتشتق من التركيب الاولى للبيضة والجرثومة المنوية ، بل الصفات التى اكتسبها الجسم بعد تكونه بتأثير الاسباب الخارجية، فلم اجد واحدة من هذه المشاهدات تثبت انتقال هذه الصفات بالوراثة »

وقال الفزيولوجى الكبير(دوروا ريموند) الفرنسى كما نقله عنه العلامة(ايلى دوسيون) فى كتابه المتقدم ذكره :

« اذا اردنا ان نكون مخلصين وجب علينا ان نعترف بأن وراثة الصفات المكتسبة قد اختلقت لمجرد تعليل الحوادث المراد تعليلها، وانها هي نفسها من الافتراضات الناقضة »

﴿ رأي دائرة المعارف الفرنسية الكبرى ﴾

في مذهب دارون

دائرة المعارف الفرنسية الكبرى المسماة بدائرة معارف القرن العشرين هي احدث دوائر المعارف ظهوراً، وادقها تصويراً لرأي العلمي الحديث ، قالت عن مذهب دارون في الصفحة ٢٩٩ من مجلدها الحادي والثلاثين بعد تفصيلها اصول مذهب دارون :

« لقد رأيت مبلغ استهواء هذه النظرية الدارونية للعقول، ومبلغ اجابتها بظرف على الاعتراضات التي توجه اليها، ولكنها لسوء الحظ مختلة من اساسها لانها تفرض ان جميع الصفات النافعة، أعني كل صفات الانواع الحية، قد حدثت في بدايتها اتفاقاً (أي بالصدفة) فلا بد من وجود قوة تسليم عظيمة لا بل قبول مثل هذا الاصل . ويجرى هذا الجري عينه تسليمنا بأن جميع الحيوانات قد حدثت على ما هي عليه اتفاقاً (أي بالصدفة) وهو افتراض يلاشي المسئلة نفسها»

﴿ ماهو رأي العلم الرسمي اليوم ﴾

في أصل الانواع

قد رأيت مما مر رأي العلماء في وهن اصول مذاهب التحول الرسمية سواء اكانت لاماركية أو دارونية، فما هو موقف العلم اليوم حيال مسئلة وجود الاحياء وتنوعها؟ أحسن ما نسلك للاجابة على هذا السؤال هو ان ننقل قول العلم نفسه في شخص اكبر ممثليه، ومن احدث ما وصلنا منهم ،

قال الاستاذان (ايف دورج) العضو بالمجمع العلمي الفرنسي والدكتور (م. جولد سميث) في كتابيهما المسمى (نظريات التحول) المطبوع سنة ١٩١٦ صفحة ٣٤٥ .

« ماذا نستطيع ان نستنتج من كل ما مر ؟ نستنتج منه ما يأتي وهو : انه وان لم يكن مذهب من المذاهب التي امتحناها هنا يعطينا حلا عاما مطلقا يثلج عليه الصدر عن مسألة التحول، فان العوامل التي يعتمدون عليها تعمل في الحقيقة عملا ما في احداث ذلك التحول. ولكن اعمال هذه العوامل من التركيب الشديد، والتداخل المعقد، بحيث يصعب أن يعرف لكل منها قسطه في العمل، والى هذا يرجع بلاشك السبب في محاولة الواضعين لهذه المذاهب المختلفة نسبة التأثير الرئيسي لبعض هذه العوامل دون البعض الآخر مع اغفال اشتراك العوامل الاخرى . وهذا الموقف الاطلاقي للتابية هو سبب النقص في مدركاتهم .

« ويمكن للانسان الآن ان يتساءل على أي صورة سيكون الحل النهائي لهذه المسألة ؟ اينبغ لمذهب التحول رجل مثل (نيوتن) فيأتينا طفرة برأى عبقري فيحل لنا المسألة باكتشاف عامل جديد غير منتظر يكون من الوضاحة التامة بحيث يتغلب على جميع المعتقدات، ويترك الناس يتساءلون كيف بقوا كل هذه المدة الطويلة دون ان يهتدوا بهذا الحل الحاسم ؟

« لما اتى دارون بناموس الانتخاب الطبيعي (تأمل) خيل الناس انه هو نيوتن المنتظر ، ولكننا نأسف من ان نظريته لم تقاوم النقد الذي وجه اليها ، فنأمل ان يأتي من هو اسعد حظا منه » انتهي .

.. هذا هو موقف العلم اليوم ، ومنه يتضح ان العقل الانساني خلع نير الانخداع بالكليات الفارغة ، وتجرد من رين تلك الدعوى الطويلة العريضة ، بادراك جميع مساتير الكون، مما اوقعه في الغرور الذي حوله وصده عن بحث كل ما يناقض المقررات الموضوعة ، ورمي بالجهل والغباوة كل من يقول بوجود عالم وراء هذه المادة فاعل فيها

ومؤثر عليها فوق النواميس المعروفة. فأين من هذا الادب العالي أولئك الذين رشفوا رشفات لاتبلغ بهم حد الري من الفلسفة والطبيعيات فراحوا في الشرق ينشرون من سموم الغرور العلمي ما لفظته بقية العالم الغربي وأصبح الظهور به دليلا على الحماقة وعلى الجهل في وقت معا .

﴿ الشبهات الخطيرة من مذهب ﴾
دارون

اتي دارون بمذهبه فاستهوى السواد الاعظم من الباحثين عند الصدمة الاولى، وذلك بلطف مداخله، وحسن تعليلاته، ووضوح تفسيراته ، حتى يمكن ان يقال ان تاريخ العلم لم يسجل مذهبا كان له مثل هذا التأثير على النفوس في عصر من العصور. ولقد تهدمت اركان هذا المذهب ، وتقوضت اصوله تحت معاول النقد العلمي الصارم ولاتزال تعليلاته آخذة بهوى كثير من الناس، وبخاصة أولئك الذين ليس لهم من العلم الا مايحفظونه من مسائله العامة وما يتأثرون به من شبهاته وشكوكه .

فمن الاصول التي قام عليها مذهب دارون اصلان لايزالان عالقين بكثير من الاذهان احدهما ان التكوين الطبيعي جاء من غير قصد، وحدث لغير غاية معينة ، فصدر على نظام آلي محض، مقودا بنواميس ميكانيكية تعمل فيه بغير شعور، وتنوعه بغير اختيار . فاعيننا لم توهب لنا هبة من قوة مدبرة لننظر بها، بل حدثت فينا اتفاقا في أدوار التكون، فاستخدمناها في النظر، وانتفعنا بها لهذه الغاية غير المقصودة، فقس على ذلك سائر الاعضاء .

والاصل الثاني هو ان الغرائز العجيبة التي فطرت عليها الحيوانات من التحايل على استجلاب اغذيتها والعمل على بقاء ذواتها وتنمية أنواعها ليست بالهامات من قوة مدبرة، ولكنها عادات موروثة ألهمتها اياها الضرورات الطبيعية ، وطبعتها فيها الحاجات الحيوية .

ونحن لانجد مناصا من ان ننقد لهذين الاصلين فصلين :

(شبهة النظام الآلي في الطبيعة)

ونفي القصد والغاية منها

يقول عمدة الملحدين ، وشيخ شيوخ الماديين بوخـنر في كتابه (المـادة القوة) ما نصه:

« كل الاجرام السماوية كبيرة أو صغيرة تخضع صاغرة بغير استثنا . ولا انحراف الى الناموس الملازم لكل مادة ولكل جزء من مادة كما تدلنا عليه التجربة من آن لآخر ، وان جميع حركاتها تبدوا لنا وتتحدد أمامنا وتنبئنا عن حدوثها بضبط رياضي لا يتطرق اليه الخلل » انتهى كلامه .

فياليت شعري اذا كانت الاجرام السماوية وهي على ما نعلم من النظم والجـلالة تتحرك في مداراتها خاضعة صاغرة لناموس مقرر ملازم لاصغر ذرات المادة ، فهل بعد هذا دليل على وجود القصد ؟ ألا يقال هنا لماذا كان الناموس المدبر المنظم مـلازما للمادة لا يفارقها ؟ هل قرره الاتفاق المحض والعدم الصرف ، أم قضى على الكون بالنظام منذ الابد ؟ من قضى بذلك ولماذا لم يكن مكانه الخبط والفوضى والانحـلال ؟ لماذا تقولون ان هذا الناموس المدبر الملازم للمادة ، وجود بلا قصد ولا تقولون انه أثر قدرة عالية وتدبير حكيم ؟ اذا كانت بداهة العقل تشعر بأن النظام لا يصدر من العدم ، والضبط لا ينشأ من ضابطه فلماذا تنسبون الناموس المنظم الملازم للمادة الى العدم الصرف ولا تنسبونه الى عقل مدبر ؟

قال الدكتور شبلي شميل وهو من زعماء المذهب المادي في الشرق في كتابه مذهب النشوء والارتقاء صحيفة ٢٤٤ :

« اما المادة (يريد مجادلاته) الى الغاية والقصد فمنقوض على الحيوانات والنباتات من الاعضاء الزائدة التي يسمونها أثرية والتي لا قائمة لها وفيها يسمونه حكم الضرورة

فمثال الاعضاء التي لا فائدة لها الاسنان القواطع في أجنة كثير من الحيوانات المجترة فهذه تكون في سمك عظم مابين الفكين ولا تبرز أبداً وقد لك لا فائدة لها فالغاية من وجودها؟ والانسان في غني عن تحريك أذنيه فما الفائدة من العضلات المرتبطة بهما، وربما اكتسب الانسان بالمزاولة والتمرين القدرة على تحريكهما ؟ وأما فائدتهما فظاهرة في بعض الحيوان . ومن هذا القبيل أيضا العيون الاثرية التي لا تبصر في بعض الحيوانات التي تقطن الكهوف و تقيم تحت الارض، وفي أكثر ذوات الفقار يوجد زوجان من الاطراف زوج أمامي وزوج خلفي ويكون أحد هذين الزوجين ضامراً غالبا وفي النادر يكون الاثنان ضامرين كما في الحيات على ان بعض الافاعي (كالبوايثون) له زائدتان عظميتان في القسم الخلفي لا فائدة لها وانما هما أثران لطرفين كانا موجودين في اجداده، وأمثلة ذلك كثيرة جدا في الحيوان والنبات كما لا يخفى على علماء هذين الفنين وفي هذا القدر كفاية لغرضنا . فلو كانت الغاية موجودة لما وجب أن يكون في هذه الكائنات شيء لا فائدة له وربما كان مضراً أيضا . وكم دار علماء طبائع الحيوان والنبات بهذه الاعضاء الاثرية قبل دارون وذهبوا فيها مذاهب شتى حتى ظهر مذهب دارون فقطعت جهيزة قول كل خطيب لان كل عضو لازم نما بالاستعمال فعرف ان الاعضاء الاثرية كانت اعضاء نامية في اجداد كانت لازمة فيها وضمرت حيث لم يبق لها لزوم وفي البعض زالت بالكلية فلا دخل للغاية وانما الدخل للضرورة، وما تراه من النظام فهو كذلك ضروري لا مقصود لان التغير الحاصل في جزء من اجزاء هذا العالم يتبعه تغير في سائر الاجزاء على حكم الضرورة كنتيجة لسبب فاذا كانت العوالم موجودة على النظام الذي تراها فيه فلانها هي من الارتباط بعضها مع بعض بحيث لا يمكن أن تكون على خلاف ذلك . فلو تغير نظام أحدها لوجب أن يكون التغير شاملا لعموم النظام ولذلك لم يكن الكون بعضه بالنسبة الى بعض ولا هو كان ولن يكن الا منتظما وان اختلف في الازمنة الثلاثة لارتباطه بعضه ببعض وجريه على سنن شاملة لجميعه . وكذلك يقال في الارتقاء فان العالم لا يسير الا متقدما لضرورة تغلب الانسب في منازعة هذا الوجود كما هو

مقرر في مذهب دارون » انتهي كلام الدكتور شبلي شميل .

.:.

نقول اننا لاجل دحض هذه الشبهة نصعد أولا الى النظر في مجموع الكون ثم ننزل منه الي كائناته لان الحكم علي المجموع بالنظر الى بعض جزئياته يفضي الى ضلال بعيد وخطأ عظيم .

فهل مجرد النظر الي الكون جملة يشعرنا بأنه وجد بالضرورة بلا قصد ؟ اللهم لا .

ان هذه الكواكب السابحة في الفضاء علي مدارات منتظمة تشعر بتجاذبها المتبادل وجريها الي غاياتها ، وانتهائها الي نهاياتها بأنها مقودة بنظام دقيق ، ينبيء عن قصد حكيم ، وتدبير سديد أريد به قيامها على هذا الترتيب البديع لانتاج اغراض بعيدة من عمارية الكون وتحليته بكل الابداعات الممكنة .

ان قال الماديون ان هذا النظام لايدل علي قصد وانما هي الضرورة التي تقيمه علي هذا النمط وتعليلهم ذلك بأن التغير الذي يحصل في جزء من اجزاء هذا العالم يتبعه تغير في سائر الاجزاء علي حكم الضرورة كنتيجة لسبب الخ ، ان قال الماديون هذا أجبناهم بأن كلامنا في مبدأ هذا النظام لافي أطواره ، فلماذا كان الكون في مبدأ منتظما حتي اقتضي الحال ان يجر كل تغير في جزء من أجزائه الي تغير في مجموعه علي حكم الضرورة ، ولم لم يكن في مبدأه خبطاً وخلطاً وفوضي مستحكمة حتي يؤدي كل كل تغير في جزء من أجزائه الى اضطرابات لاتتناهي وارتباكات لاتقف عند حد ؟

يقولون الكون منتظم بحكم الضرورة وهي كلة فارغة فما هى هذه الضرورة القاضية بالنظام ، المنزهة عن الخبط والفوضى ؟

الضرورة ان لم تكن كلة فارغة فهي حالة عمياء صماء بكماء ، فلماذا تتجه دائماً الي الوجهة المتجهة للابداع ، المثمرة للعمران ، ولا تتجه الي خطة خسف ، ووجهة عسف ، فتنتج

الدمار والفناء، وتسمر الانحلال والتلاشي ؟

خل الكون جانبا وهلم ننظر الى بعض عوالمه وهي الكرة الارضية فهل لا يرى الرائي اذا ألقى عليها نظرة تأملية بأن آثار القصد بادية على كلياتها وجزئياتها ؟

ألا يرى أولا انها بما متعت به من عوامل الحياة ووسائل العيش قد اعدت بقصد لان تكون مأهولة بالنباتات والحيوانات والانسان ؟

ثم ألا يرى انها بما أودعت من المرافق والقوى المختلفة قد أعدت لان تكون مجالا للمبدعات التكوينية والترقيات الانسانية ؟

دع الكون في جملته وتأمل عالم النباتات وقل لي ألا ترى معي ان آثار القصد ظاهرة فيها ظهور الشمس في رائعة النهار ؟ انظر الى أعضاء شجرة وسرح فكرك في اجزائها المختلفة من اول جذورها الضاربة في بطن الارض الى قمم أغصانها المشرئبة الى عنان السماء ، وأجل الروية فيما أودعته أوراقها من الاعصاب الدقيقة والخزانات التنفسية والمادة الخضراء ، ومامتعت به تلك الاوراق من الخواص لامتصاص الغازات المختلفة من الجو ثم اعادة بعضها اليه بعد تحويله الى مركبات جديدة وما حليت به أزهارها من الالوان البديعة والروائح الشذية والهيئات الجميلة ، وما وضع في بطنها من اعضاء الذكورة والانوثة ، وما هديت اليه تلك الاعضاء من التقارب في حين التلقيح لاداء تلك الوظيفة . وانتقل من ذلك الى الثمرة وتأمل في هيئة غلافها ولونها وطعمها ورائحتها وبزورها وما أودعته من الاجنة لانتاج شجرة مماثلة للتي خرجت منها وما أحيط ذلك الجنين به من المواد الحافظة لحيويته الخ الخ تأمل في ذلك كله ثم قل لي ألا ترى فيه آثار القصد ودلائل للارادة ؟

دع عالم النباتات في تنوعه واختلافه الذي لا ينتهي الى حد ، ثم تأمل في عالم الحيوانات وما متعت به من أسلحة الكفاح ووسائط التكاثر ، وما ألهمته من الحيل والاساليب للذياد عن حياتها وحياة صغارها ، وما أحيطت به من الوبر لاتقاء أقاصيل الجو عليها ، ثم قل لي ألا ترى في ذلك كله آثارا للقصد ، ودلائل للارادة والاختيار ؟

يقول الماديون كل ذلك أوجدته الفواعل الوجودية والعوامل الطبيعية، وكل ما تراه فيها من آثار الالهام كالحيل الحافظة لوجودها، والاعضاء الواقية لها، فانما هو من آثار الضرورة الطبيعية والحاجة الفطرية . فالحيوانات في البلاد الحارة توجد بلا وبر أو بوبر خفيف، ولكن التى توجد في البلاد الباردة تحلّى بوبر وتلهم بأمور كثيرة لحفظ وجودها، وليس ذلك لان خالقا قصد ذلك بها، ولكن لان الضرورة تقضي ان تكون على تلك الحال والا تلاشت .

نقول ليت شعري ماهي تلك الضرورة التى تهب لكل محتاج حاجته، وتلهم كل حي ما به حياته وبقاؤه ؟ أهي عاقلة مدركة أم عمياء بكماء صماء . اهي كلة فارغة أم الهة مدركة تقصد عمارية الكون وبقاءه ؟

ان كان كل هـذا لايدل على القصد ولا يشعر بارادة عاملة في الكون ، وانما هي مجرد الضرورة والحاجة، فهل الضرورة هي التى أرادت بقاء الانواع فخلقت الذكر والانثى وجعلت في كل جنس ميلا فطريا الى الآخر، وجعلت احدهما حاملا للجراثيم المنتجة والآخر وعاء لها يحملها في احشائه ويغذوها بدمه حتى تستوفي حياتها الجنينية؟ ثم اعدت لها أثداء تمدها بالغذاء الخالص حتى تشب وتترعرع ، وأودعت صدرى الابوين من الحنان والرحمة ما يضطرهما الى تربية صغارهما واعدادها للحياة؟

هل الضرورة هي التى أدركت أن دوام النوع لا يكون الا بايجاد انثى بجانب الذكر تشابهه في التركيب الظاهرى وتخالفه في التركيب الباطني فأعدت لكل منهما الاعضاء اللازمة للتوليد، ثم ادركت أن تقاربهما لايمكن أن يكون بمجرد عاطفة حفظ النوع وانه لابد لذلك من وسيلة تجعل اتصالهما أمرا محتما عليهما ، فخلقت لكل منهما لذة في ذلك الاتصال ليكون واقعا لا محالة مهما اعترضهما من الموانع، فأخذ أحدهما ينجذب الى الآخر طلبا لتلك اللذة وتوفية لتلك الحاجة ليتم التلقيح وان لم يريداه ولم يسعيا اليه.

اللهم ان آثار القصد في هذا الامر من أظهر ما يكون، فان كانت الضرورة هي التي

فلت ذلك فهي ضرورة عـاقلة مـدبرة حكيمة مريدة لبقاء الانواع، تستحق أن تعبدوان يُتأمل في آثار رحمتها وسعة سلطانها ويُتعجب من شمول علمها واحاطة قدرتها .

الضرورة. . . . ما احقر هذه الكلمة بجانب هذا الابداع المظيم وحيال هذه المشاهد الطبيعية التي لا تُعد.

الضرورة . . . ما أضيق مدلول هذه الكلمة عن تفسير عجائب هذا الخلق، وتعليل قيام هذا الوجود المحير لاقوى المدارك.

واذا كانت الضرورة أعجز من أن تعلل ظاهرة واحدة من هـذه الظواهر التي لا تحصى، فان القائلين بهـا يستحقون الرحمة لا الرد، وشبهتهم تستحق السخرية لا الحل.

﴿ رأى الدكتور الدكتور ادوارد هارتمان ﴾

في القصد والغاية

الدكتور ادورد هارتمان خليفة الفيلسوف الـكبير شوبنهوروهو يعد ركن الفلسفة الالمانية . قال في كتابه (المذهب الداروني صفحـة ١٥١ من الطبعـة الفرنسية ما مؤداه .

«كان المذهب المادي قد انكر قبـل داروين وجود النظام في الطبيعة رغما عن المشاهدات «ولكن المذهب الداروني اعاد الاعتراف بوجود ذلك النظام، الا انه تخيل تعليله بأنه نتيجة الادوار الميكانيكية المحض .

«وعلى هذا فاذا عُد النظام الطبيعي كشيء مقرر، واذا زُعم انه نتيجة للحوادث الميكانيكية، لزم القائل بهـذا ان يختار واحـداً من اثنين . فاما ان يقول بأن نظام الحوادث الطبيعية الناتجة من ميكانيكية الطبيعة غير مرتبط بالنواميس الميكانيكيـة ولم توجد تلك الحوادث الا اتفاقا(اى بالصدفة)، واما ان يكون هذا النظام نتيجـة

ضرورية ثابتة لهذه النواميس وحادث من طبيعتها.

« فني الحالة الاولى يسقط زعم تعليل الحوادث بالنواميس الميكانيكية . لان الاتفاق (أي الصدفة) يكون في هذه الحالة العامل الوحيد في ايجاد النظام الطبيعي . وهذا ، بعبارة أخرى ، يلاشي امكان التعليل بأصول طبيعية عامة في الوجود على نظام مقدر ...

« وفي الحالة الثانية يكون الحال على العكس اذ يفضي الى الاعتراف بوجود القصد لان من مقتضيات الميكانيكية حدوث حوادث مطابقة لنظام مقدر ، اي تكون الميكانيكية ذات غاية وقصد .

« هذ حق لامرية فيه ، ولا تنس ان كلمة الميكانيكية تعني آلة التكوين او مجموعا من الوسائل، وهذا يقتضي ان تكون موضوعة لغرض .

« واذا لم تكن ميكانيكية الطبيعة موضوعة لغاية وقصد، رأيت ان السائد في الكون فوضى عمياء لاتوى مستقلة هائمة على وجهها هيمان الثيران المهملة .

« ونقول بعبارة اخرى ان القصد يقتضي الميكانيكية ، فانه يستحيل بدونها ، كما يستحيل وجود الميكانيكية بدون وجود القصد . فاذا تقررت نظرية الميكانيكية على اطلاقها تحققت معها نظرية القصد على اطلاقها كذلك، واذا تحققت نظرية القصد على اطلاقها تحققت نظرية الميكانيكية كذلك .

« وان وجود هذا الرأي عند الداروينيين (رأي عدم وجود القصد) هو من المسلمات التي لايقوم عليها دليل، ومن الاوهام التي لااساس لها » .

﴿ رأي لويز بوردو ﴾

في الغاية والقصد

العلامة لويز بوردو من كبار مؤلفي فرنسا قال في كتابه (مسألة الحياة) الصادر في سنة ١٩٠١ مايأتي :

« القول بوجود القصد هو المصباح الذى ينير مسائل علم البيولوجيا(علم الحياة) فاذا حرمت من هذا النور اصبحت علوم التشريح والفزيولوجيا غير مفهومة وخالية من المعنى . وقس على ذلك كل شيء . وحيثما يتأسس نظام ويستتب ويترقى، وتشاهد اقترانات وتطابقات واتجاهات وظيفية الى غاية واحدة ، او استحالات منتظمة لقوة واحدة، اولعالم برمته ، هنالك يجب ان يعترف بأن هنالك قصدا مقصودا وروحا مدبرة ، لانه بدون ذلك تفقد وحدة المجموع رابطتها . فالقصد يظهر في تلازم الحوادث ويثبت به .

ثم قال :

« اذا اعتبرت النواميس على وجه عام فغاياتها البينة مجموع آثارها . فغاية ناموس الجاذبة العامة ازالة التهويش الذى حل به من وجود المادة في حالة اضطراب وارتباك، وتكوين اجرام عالية ودفعها للدوران ، وغاية الحوادث الطبيعية ونواميسها تحديد الظواهر المتغيرة التي تنزل منها حيع تشكلات الكائنات ، وغاية ناموس الالفة الكياوية هو انتاج هذه المجموعة العظيمة للاجسام المركبة المتمتعة بخصائص مختلفة، والصالحة لجميع الاستعمالات ، وغاية الحياة هو تكوين مجموعة لايحصى عدد افرادها من الكائنات الآلية الحية المترقية الى طوائف متعاقبة وقابلة للتكمل من اول المونير الى الانسان (المونير الخلية الاولية الحية) » .

﴿ رأي الاستاذ فون باير في ﴾
الغاية والقصد

العلامة فون باير الالماني هو من وصفناه فيما تقدم قال في صفحة ٢٤٠ من كتابه (دحض مذهب دارون) .

« اذا كانوا يعلنون الآن بصوت جهوري بأنه لايوجد قصد في الطبيعة، وان الكون لايقوده الاضرورات عميا، فانا اعتقد ان من واجباتي ان اعلن عقيدتي في

ذلك، وهي اني على العكس أرى جميع هذه الضرورات تؤدى الى اغراض سامية . وان الزوبعة الفكرية التي ثارت في ايامنا هذه تعلن ان هذه التعاليم لا تثبت كثيراً. والذى اعتبره أنا قصدا في الحياة العضوية لايمكن ان يضحى في سبيل سلسلة من الاتفاقات (الصُدف) » .

﴿ رأى العلامة كاميل فلامريون ﴾

في الغاية والقصد

كاميل فلامريون اشهر فلكي العالم ومعدود من العقول النادرة في العصر الحاضر قال في كتابه (المجهول) صفحة ٩ :

«ان درس الوجود يجعلنا ندرك ان له نظاما مقررا وغاية دفع به اليها، وان المقصود بهما ساكن هذا الكوكب وحده ، وانهما يتعاليان عن ان نلم بهما في حقارتنا.

«ان ناموس الترقي الذى يقود الحياة ، والنظام الطبيعي لهذه الحياة نفسها ، وتجاذب الاجناس ، والتبصر الذي يظهر في النباتات والحشرات والطيور الخ وهي غافلة عنه مما يقصد به حفظ ذريتها ، وامتحان المشاهدات الرئيسية للتاريخ الطبيعي يقررمنها كما قال اورستيد بأنه يوجد في الطبيعة عقل مدبر

﴿ رأى العلامة لوجيل الفرنسى ﴾

في الغاية والقصد

لوجيل من اقطاب العلم العصرى كتب فى كتابه (العلم والفلسفة):

«ان العلم يستدرج احيانا لشكوك وإنكارات تزعجنا، ولكن العالم مسايير لا يسير لها غور ، فهو يكتفى بالالفاظ كلما لم يجد سبيلا للنفوذ الى سرائر الظواهر المحسوسة . تكثر الكيمياء من ذكر الألفة ؟ أليست هذه الالفة قوة فرضية، وآنية غير مدركة بالحواس

كالحياة والروح ؟ الكيمياء ترجع الي الفزيولوجيا فكرة الحياة، وتأبي عليها ان تشتغل بها، ولكن هل في الفكرة التي تحوم حولها الكيمياء ظل من الحقيقة ؟ هذه الفكرة لا تُدرك غالباً، ليس في أصلها فقط ولكن في آثارها أيضاً . أيستطيع الانسان أن يتأمل لحظة واحدة في القوانين المسماة بقوانين (برتلو) دون أن يشعر بأنه حيال سر لا يسبر له غور ؟ واذا اعتبرنا ظاهرة ساذجة من ظواهر الاتحاد الكيماوي، ورأينا هذا الميل الذي يدفع بعض الذرات الي بعض، فتتباحث ثم تتضام بعد تخلصها من المركبات التي كانت تحويها ، أليس في هذا ما يحير العقل ؟ كلما أمعن الانسان في درس العلوم من وجهتها المعنوية ازداد اعتقاده بان ليس في العلم ما يمنع من اتفاقه مع ابعد الفلسفات مرمي .

الي أن يقول:

«نحن لا نعلم ولا نرى الا الظواهر والقشور، أما الحقيقة والعلة فتأبيان ان تنكشفا لنا. وانه ليحق لفلسفة عالية ان تعتبر كل القوى الخاصة التي افاعيلها قد تحللت بالعلوم المختلفة، صادرة من قوة اولية أبدية واجبة الوجود مصدر كل حركة ومركز كل عمل. اذا وجهنا انفسنا هذه الوجهة تظهر لنا الحوادث الطبيعية والكائنات ذاتها صوراً متغيرة لفكرة المبدع».

﴿ رأي دائرة معارف القرن العشرين ﴾

الفرنسية

كنا نستطيع ان نأتي على مئات من شهادات العلماء في هذا الصدد ولكنا رأينا الاكتفاء بما تقدم، وختمها بشهادة دائرة المعارف الفرنسية الكبرى، فهي وحدها تمثل رأي العلم الرسمي كله.

جاء في صفحة (٥٠٦) من المجلد السابع والعشرين:

« ان الوجود الذي خلقه الله ليس بآلة ساذجة (بسيطة) كما تحاول ان تقدم

به الناس تلك المقارنات الطائشة . وليس مذهب وحدة الوجود هو المذهب الوحيد الذى من خواصه الادلال على أن لكل من الكائنات المتنوعة الطبيعة الحيةغاية وضع لاجلها ومركزا يدور عليه » .

﴿ الدارونيون ينكرون الالهام في الحيوانات ﴾

الماديين انكارات للمحسوسات تعتبر من المدهشات ، وتظاهرهم بمظهر المتمدين المناقضة . من ذلك انكارهم للالهام الحيواني وعزو جميع الحيل التي تستخدمها الحيوانات لحفظ وجودها والبحث عن غذائها الى الضرورة العمياء، هروبا من القول بالقصد . فنريد في هذا الفصل أن نأتي على أمثلة من علم الحيوانات في الالهام الحيواني ليرى القارىء آثار القصد بادية فيه تشهد بالقصد الالهي والعناية الربانية .

دع مايبتنيه النحل من الخلايا المسدسة الاشكال ، وما يقيمه كلب البحر من السدود على الانهار،مما تقدر قيمته بألوف الفرنكات، وما يأتيه النمل من المدهشات في اقامة مساكنه ، وماتفعله الطيور من العجائب في حضانة البيض والزغاليل والقيام بحاجاتها من مأكل ودفء، ثم تدريبها على الطيران الخ الخ مما لاتسعه المجلدات،دع كل هذا واتل ما أقصه عليك من المشاهدات التى اطلع عليها العلماء بمراقبة الحشرات . ولكني قبل ذلك أريد أن اذكر لك مذهب الماديين في الالهام الحيواني:

يقول الماديون ان الالهام الحيواني عادة موروثة، فان النحل مثلا اهتدى بعد محاولات كثيرة الى أن حفظ حياته يرتبط ببناء خلاياه على نسق معين، فأدمن عليه فصار عادة له فأورثها صغاره . . ولكن اثبت غير الماديين من علماء الحيوانات ان هذا الزعم باطل.فأخذوا حيوانات كالنحل وكلب البحر وهي صغيرة جدأ وربوها حتى كبرت وهي لم تر ما يفعله آباؤها،ثم تركوها فعملت نفس أعمالهم من بناء مساكن واقامة جسور

بحيث لم يوجد أدنى فارق بين العملين. فكيف تعلل هذه المشاهدة بغير الالهام الذي اودعه فيها الخالق؟

ان كان ذلك عادة موروثة فلم لم يرث الانسان عادة آبائه في البناء والنحت وهم قد اعتادوها منذ ألوف مؤلفة من السنين، وأنت ترى انك لو ربيت أحد أفراده بمعزل عن الناس لنشأ جاهلا لا يكاد يميز بين الخير والشر؟ فاما أن يقول الماديون بأن الحيوان أرقى عقلا من الانسان، واما أن يقولوا بأن صنائع الحيوانات من الالهام الالهي.

نرجع الى ذكر مشاهدات العلماء في عجائب حياة الحيوانات المثبتة للالهام الالهي.

منها ان الفراش متى وصل الى الطور الثالث من حياته، يضع بيضه على هيئة دوائر على الاوراق الخضراء، هذا البيض لا يفقس الا في الفصل التالى فيخرج على هيئة ديدان صغيرة فى الوقت الذي تكون فيه أماته (أمهاته) فى عداد الاموات، اى انها لا تراه، فمن الذى علم الفراش أن صغاره متى خرجت احتاجت الى التغذى بجنى النباتات الخضراء؟ ومن الذي هداه الي وضع بيضه على تلك النباتات؟ هل هداه آباؤه؟ لا، انه لم يرها في حياته. فلم يبق الى الالهام الالهى.

ومن تلك المشاهدات أن الحشرات المسماة (نيكروفور) تموت بعد أن تبيض مباشرة أى انها لاترى لها ذرية أبداً (تأمل)، وليس فرد من أفرادها رآى له اماً أو ولداً، ولكن من العجيب أن هذه الحيوانات قبل أن تبيض تعنى غاية العناية بجمع جثث حيوانية تضعها بجانب البيض، لتصلح غذاء لصغارها متى خرجت. ففي أي كتاب قرأت هذه الحيوانات ان بيضها يحتوى على صغار، وان تلك الصغار ستخرج وهي في حاجة الى الغذاء، وان ما تحتاجه تلك الصغار هو تلك الجثث الحيوانية؟ الا يدل هذا على الالهام الالهى من كان له قلب او القى السمع وهو شهيد؟

ومن اعجب المشاهدات من هذا القبيل ان الحيوانات المسماة (بوميبل) من أكلة الحشائش ولكن صغارها تولد من اكلة الحيوانات فترى الامهات تعمد الى

وضع بيضها على اجساد الحيوانات حتى اذا خرجت صغارها وجدت ما تتغذى به فمن الذي أدراها أن أولادها من اكلة الحيوانات ؟

ومن المدهشات في هـذا الباب الحيوانات المسماة (اوديتير) و (سفكس) فان صغارها متى ولدت احتاجت بأن تتغذى بأجساد حيوانات حيـة فـترى امانها متى باضت تعمد الى اصطياد حيوانات لا تقتلها ولـكن تضربها بحيث تمنعها الحركة وتركها بعضها على بعض على تلك الحالة من العجز فاذا خرج صغارها وجدت امامها لغذائها حيوانات حية وان كانت لا تستطيع الحركة .

ومن المحيرات للفـكر من أمر الهام الحيوانات ما تكلم الاستاذ ميلن ادوراد عنه في جامعة (السربون) من فرنسا وهو الحيوان المسمى (اكسيلوكوب) فقـد قال أن هذه الحيوانات التي تراها طائرة في الربيع تعيش منفردة وتموت بعد أن تبيض مباشرة فلا ترى صغارها أمامها ولا تعيش هي حتى ترى أولادها التي تـكون على حالة ديدان لا ارجل لها ، ولا تستطيع حماية نفسها من أية عادية ولا الحصول على غذائها ، ومع ذلك فحياتها تقتضي أن تعيش مدة سنة من الزمان في مسكن مقفل وهدوء تام والا هلكت

فترى الام متى حان وقت بيضها تعمد الى قطعة من الخشب فتحفر فيها سردابا طويلا فاذا أتمته على ما ينبغي أخذت في جلب ذخيرة تكفي صغيرها سنـة ، وتلك الذخيرة هي طلع الازهـار وبعض الاوراق السكرية فتحشوها في قاع السرداب ثم تضع بيضة وتأتي بنشارة الخشب تـكوّن منها عجينة تجعلها سقفا على تلك البيضـة ثم تأتي بذخيرة جديدة تضعها فوق ذلك السقف ثم تضع بيضة أخرى وهكذا فتبني بيتها مكونا من جملة أدوار ثم تترك الكل وتموت.

قال العلامة ميلن ادوارد عقب هذه المشاهدة

« يجب أن يدهش الانسان لما يرى حيال هـذه المشاهـدات الناطقة المتكررة رجالا يدعون لك ان كل هذه العجائب الكونية ليست الا نتائج الاتفاق (الصدفة) أو بعبارة أخرى نتائج الخواص العامة للمادة وأثر لتلك الطبيعة التي تكون مادة الخشب ومادة الاحجار ، وان الهامات النمل مثل اسمى مدركات القوة المدركة الانسانية

ليست الا نتيجة عمل القوى الطبيعية والكيماوية التي بها يتم تجمد الماء واحتراق الفحم وسقوط الاجسام. ان هذه الفروض الباطلة بل هذه الاضاليل العقلية التى يسترونها باسم العلم الحسي قد دحضها العلم الصحيح دحضا فان الطبيعى لا يستطيع أن يعتقدها ابداً . واذا أطل الانسان على وكر من اوكار بعض الحشرات الصيفية يسمع بغاية الجلاء والوضوح صوت العناية الالهية ترشد مخلوقاتها الى اصول أعمالها اليومية » انتهى كلام العلامة ميلن أدوارد .

بقي علينا أن نبدي رأينا في أصل هذه الشبهة وهي الاعضاء الزائدة في الحيوانات ودحض استدلال الداروniين من ذلك على نفي القصد .

﴿ شبهة الاعضاء الزائدة ﴾

ظهر ببحث العلماء في الكائنات الحية والبائدة أن لكثير منها أعضاء زائدة أى اثرية مثالها العيون الأثرية التى لاتبصر في بعض الحيوانات التى تقطن الكهوف أو تقيم تحت الارض.

ومن أمثلة ذلك أيضاً وجود زوج من الاطراف ضامراً في بعض الحيوانات الفقرية وقد وجد كلا الزوجين من الاطراف ضامراً في بعض الحيوانات كالحيات

فـكل هذا يدل ببداهة العقل على أن الخالق الحكيم جرى في ايجاد الكائنات وتنويعها وابداع أشخاصها على سنة تدريجية ، واودع في كل كائن قابلية لان يلائم البيئة التى يعيش فيها

فان اتفق وجود حيوان متمتع بعينين في بيئة خالية من الضوء ضمرت عيناه وصارتا فيه أثريتين على تعاقب الاجيال . وان حدث وجود حيوان ذى أربعة أطراف في بيئة لايحتاج فيها الا الى طرفين اثنين ضمر فيه الطرفان اللذان لايحتاج اليهما وأورث هذا الضمور أولاده فصار فيها ذانك الطرفان أثريين .

وبالعكس إن قضى على حيوان لاناب له ولا منسر ان يعيش في بيئة يحتاج فيها الى ذينك العضوين تكوّنا له بالتدريج حتى يصبح من ذوي الانياب والمناسر (أي

ضحت مذاهب التحول وقد اريناك شكوك العلماء فيها .

ولكن أليس الاولى بنا ان نعد هذا التحول التدريجي أثراًمن آثار العناية الالهية بدلاً ان نعده من آثار الضرورة التي لا تعقل ولا تعي شيئاً؟

عيل الماديون أن يعتبروا هذا التحول دالا على أن الخلق جار على سنة العناية المطلقة والضرورة المحضة . كأنهم يريدون ان يهلك كل حيوان او نبات يقضي عليه بأن يوجد في بيئة غير بيئته الاولى ليسوغ لهم ان يقولوا أن في الكون قوة عاقلة مدبرة وهذا من غرائب شؤن الماديين ، والا فكيف لا يعد امداد الحيوان بحاجته من الاعضاء التي لم تكن له من الرحمة الالهية ويعد عكسه من دلائل الحكمة والعناية والقصد ؟

ان الذي حدا بالماديين الى هذا الزعم توهمهم أن هذا التحول الجزئي يدل على أن العالم كله خلق على هذه الوتيرة فوجدت الخلية الاولى اولا ثم تحولت الى ارقى منها بتغير البيئة وهكذا تم الخلق على ما هو عليه من الابداع والكمال .

هب أن الخليقة تكونت على هذا الضرب من التدرج فماذا فيه من نفي القصد الالهي ؟

هل مما ينفي القصد الالهي أن توجد خلية ساذجة متمتعة بخاصية مقاومة للمؤثرات وقابلية التدرج نحو الكمال حتى تصل الى ارقى أنواع النبات والحيوان .

أليس هذا اجدر ان يدل على قوة خالقة اوجدت هذه الخلية ومتعتها بكل قوة ووسيلة لحفظ حياتها حتى تصل الى كمالها ؟

ايهما أدل على دقة الصنع وغاية الابداع في عمل عامل ؟ أعمله الشيء دفعة واحدة وتركه وشأنه يبيد ان لم تناسبه الظروف ، ام تكوينه على حال تمكنه من التدرج شيئاً فشيئاً وإمتاعه بالوسائل التي تمكنه من مكافحة التغيرات الطارئة في كل حين ؟

خلق الله الارض على سنة تدريجية كما تدل عليه المباحث الجيولوجية ، وجعل بيئتها وقواها دائمة التحول والتغير، حتى ان سطح الارض التى نعيش عليه كان قاعا لبحر في عصر من العصور ،وما فيه الآن من مدن عامرة كان قبل عدة اجيال غابات كثيفة، وما كان غابات كثيفة يظل ويقيت ملايين من الحيوانات اصبح الآن مناجم للفحم الحجري . وقس على ذلك مالا يحصى من الانقلابات. فاذا كان الله خلق الارض على هذه السنة أفليس من الحكمة أن يخلق الكائنات ممتعة بخاصة مقاومة المؤثرات. مقاومة المؤثرات حتى لاتبيد وتتلاشى أمام التغيرات السريعة؟

فاذا لم يخلق الحيوان البصير على حالة تمكنه من أن يعيش في الظلام فتصبح عيناه اثريتين ، وما لا ناب ولا منسر له ان يكون له ذانك العضوان اذا اقتضت الاحوال المعاشية وهلم جرا ،فهل كان بقي، لولم يمتع الخالق الحيوانات والنباتات بهذه الخاصية من التحول ، على الارض حي يعمرها الآن ؟

﴿ نظرة على ماسبق ﴾

سردنا للقاري، ما حاوله الانسان من تعليل وجود الاحياء وتنوعها على الارض، واتيناه بمذاهبه المختلفة حتى مذهب دارون وهو احدثها ظهوراً، واكثرها ذيوعاً وقد رأى القاري، انه أصبح كثيرة مثقلا باعباء النقد، نائياً تحت آصار التجريح حتى فضل عليه مذهب لامارك وان كان هو أيضاً لايستطيع الوقوف على ساقيه من كثرة ما حمل من أوزار الاستشكالات.

وقد زاد الانسان اطلاعاً على الدقائق البيولوجية والامبريولوجية، ووقوفا على كنه الاختلافات الجنسية والنوعية، وعلى حقيقة المؤثرات الطبيعية والعوامل الخارجية فازداد علماً بأن هذه المذاهب كلها لا تفسر وجود الحياة ولا ظهور الاحياء وتنوعها. وجاء العلامة (دوفرى) فأثبت بالعمل حدوث الطفرة في عالمي النباتات والحيوانات فأصبحت نظرية التسلسل نفسها فى أزمة اعترف بها اكبر اشياعها من أمثال (لوداتك) و(ايف) و (دولاج) و(جواد سميث) فتغير موقف العلم حيال هذه المسئلة كل

التغير ، وادرك العقل في هذه الدفعة ايضا انه كان مخدوعا بآراء بالجملة فهل معنى ذلك ان المرجع الى القول بالمذهب القديم وهو ان كل نوع خلق على حدته ؟

لا . فان القول به يرد عليه من الاستشكالات أكثر مما يرد على غيره من المذاهب ، وتأثير العوامل اللاماركية والداروينية في الاحياء لايمكن نكرانها بوجه من الوجوه ولكنها غير كافية في تعليل وجود الحياة وتنويع الاحياء . واصبح الباحثون يرون انفسهم المسألة الى أحد امرين : فاما ان يوفق نابغة من نبغاء العلم الى وجدان نظرية تحل جميع معاضلها ، وتفسر كل غوامضها ، بما لا يدع محلا لنقد ناقد ، ولا استشكال مستشكل ، واما أن يقتنع العقل نهائيا بأنها من المسائل التي لا تحل كمسألة الوجود نفسه .

وعلى كلتا الحالتين فقد خلص العقل الانساني بادراك وهن هذه المذاهب من إصر كان اثقل الآصار عليه ، ناهيك بنظريات كانت توهمه بأنه فهم سر الخليقة فهما لاتردد بعده ، في الحين الذي كان فيه ابعد عن هذا الفهم منه في أي زمن كان .

ولا أستطيع أن أصور هنا مبلغ ارتقاء القوة المعنوية للانسان بادراكه أنه كان مخدوعا بزخارف من الكلام أحلها محل الحقائق المقررة عشرات من السنين ، فان ذلك يزعه عن الوقوع في مثله ويحثه على مد مدى بصره ، وعدم قبوعه في زوايا من المباحث حرجة لا تصور له غامضة الوجود على ماهي عليه ، ولا تشعره بروعة هذا المجهول الضخم الذي يحيط به من كل مكان ، فيصدر الاحكام الطائشة على بداءات الاشياء ونهاياتها ، ويبعد عن مصدر الحق الذي يتهالك لادراكه ، ويتمنى الوصول اليه بجهوده المتوالية في مدى الوف من السنين .

فاذا كانت مهمة العلم أن يبحث عن الحقيقة وان يجدها فليس اضر عليه من ان يتخيلها في رأي من الآراء ويجمد عليه . ولا احيل القارئ لفهم خطر هذا الانخداع العلمي الا الى ما كتب في كتب الداروينيين في مدى خمسين سنة بعد ظهور هذا المذهب ليحقق من مبلغ الغرور الذي كان آخذا بانفسهم والزهو الذي كان قابضا على

مخترعيهم . ولست في حاجة لاعطاء القارئ أمثلة مما كانوا ينشرونه من ذلك فهو مشهور متداول ، ولكني أعطيه امثالا مما نشره الباحثون بعد هذا الدور، أي في مدى العشرين السنة الاخيرة بعد زوال هذا الكابوس عنهم مما يشف عن الادب العالي الذي افاضه عليهم تحققهم من انهم كانوا واهمين ، وبالقشور قانعين . وحوادث دفعتهم الى تلمس الحقيقة لا من ناحية المذاهب الخادعة، والتعبيرات الفارغة ، ولكن من ناحية النظر الصحيح في كل ما يعرض لهم، غير محتقرين موضوعا بحجة أنه بقية من بقايا الاقدمين، ولا مجاوزين مجالا بدعوى أنه من المقررات المتفق عليها او أنه غير جدير بالبحث استنادا الى أصول وضعها الواضعون أيام الغرور العلمي المشؤم، فظهر لهم من أسرار الوجود ماحير عقولهم ، وصغر في نظرهم أصولهم ، وانفتح أمامهم مجال لايحده القصور بحد ، ولا تحصر عجائبه ولا تعد، ونحن هنا نسرد عليك بعض مما اعترفوا به من ذلك وما فرضه عليهم هـذا الموقف العادل من الزراية على المذهب المادي، والتحقير لاصوله الضيقة الحرجة، وما هدوا اليه من الطريق المؤدي الى لباب الحقيقة التي تردد فيها ، ولا حيرة معها .

واني الفت نظر القارئ الى أمر جدير بالنظر، وهو أن هذه الاقرارات بقصور العلم ، وبحقارة القدر الذي وصلنا اليه منه ، وبكونه قاصراً على العلاقات الموجودة بين الكائنات لا يتعـداها الى كنهها ، هي الوصف المميز لعلم القرن العشرين، على نقيض ما كان عليه الحال في القرن التاسع عشر، حيث كان الغرور بهذا القـدر الناقص من العلم بالغا اشد درجاته، وهو انتقال بعيد المدى ، تحرر به العقل من اسر الاوهـام ذات الصيغ العلمية ، وتعرض معه لحقيقة وجها لوجه، فشعر من جلالها وروعتها بما لم يشعر به في عهد من عهوده السابقة . فاذا كان عالم القرن التاسع عشر قد بلغت منه الكبرياء مبلغها حتى صرفته عن الحقيقة التي ما نوقد العلم الا لنشدانها ، زاعماً أنه بلغ الى درجة من فهم المساتير تمكنه من تعليلها وتفسيرها بنظرياته واصوله المصطلح عليها ، معتدا بحواسه ومشاعره واحكامها ، فان عالم القرن العشرين متواضع معترف بقصور علمه عن تعليل أصغر الظواهر واحقرها ، مقر بانه كان ولا يزال يخدعه بحواسه

ومشاعره ، وانها لاترية من الموجودات الا قشورها ، اما لبابها وحقيقتها التي هي مرمى العلم ومطمح نظره ، فمستورة عنه بحجاب تلك الحواس نفسها ، والفرق بين الحالين بعيد الغور ، واسع المدى ، بحيث ان القيام على احدهما يؤدى الى عكس مايؤدي اليه الآخر . فالاول يؤدى الى نكران كل شيء فوق المادة، والثاني الى نكران المادة واثبات مافوقها واعتبارها وجها من وجوه القوة، وكيف يؤمن بالمادة عالم القرن العشرين بعد ماتوصل الى افنائها في القوة ، وبعد مارأى إشعاعها وتلاشيها بذاتها الى تلك القوة ؟

والاول يفضى الى قصر البحث على المادة باعتبار انها اصل الوجود كله، والثاني الى مد البحث لما وراءها من عالم القوة الذى ثبت انه الاصل الذى تنزلت منه .

فالخلاف بين المطمحين لايقدر بقدر ، ولا يقاس بمقياس .

فلنبدأ الآن في ان نعرض على القارىء آراء اركان النهضة العلمية الراهنة في العالم والوجود، ليقابلوها بتلك الكتابات الطائشة التى يريد أصحابها ان يوهموا الناس ان العلم الطبيعي قد حل معضلة الوجود، وادرك سر قيام الموجودات على الاسلوب المادى البحت، وليعذرونا ان اكثرنا من النقل في هذا الباب فان هذه الفتنة العمياء تجب ازالتها مهما كلفت الباحثين من جهد وثبات، لانها مثار كل الضلالات الالحادية ومنبعث جميع الرعونات العقلية .

﴿ رأي الاستاذ شارل ريشيه ﴾

من مقدمة كتبها شارل ريشيه المدرس بجامعة الطب الفرنسية والعضو بالمجمع العلمي لكتاب الدكتور ماكسويل النائب العام فى حكومة الجمهورية الفرنسية وهو كتابه المسمى (الظواهر النفسية) قال الاستاذ ريشيه . فى صفحة ٧ من طبعته الخامسة سنة ١٩١٤

« يجب على الانسان مع احترامه العظيم للعلم العصرى ان يعتقد بقوة ان هذا العلم العصري مهما بلغ من الصحة فهو لايزال ناقصاً نقصاً هائلا .»

ثم قال في صفحة ٩ معللا جهلنا العظيم بالكون :

« ان حواسنا من القصور والنقص على حال يكاد معها يفلت من شعورها الوجود كل الافلات . فالقوة المغناطيسية العظيمة لم تعرف الا عرضاً . واذا لم يوضع الحديد الملو بجانب حجر المغناطيس اتفاقا كنا جهلنا دائما ان المغناطيس يجذب الحديد. وما كان احد منذ عشر سنين يحلم بوجود أشعة رنتجن . وقبل اكتشاف الفوتوغرافيا كان لايدرى احد ان النور يؤثر على املاح الفضة . ولم تكتشف الامواج الهرتزيه (نسبة الى هرتز الطبيعي) الا منذ ثلاثين سنة . ومنذ مئتي عام كان لايعرف عن هذه القوة الكهربائية العظيمة الاخاصة جذب الكهرمان اذا دلك بالصوف .

« اذا سألنا رجلا بربريا بل لو سألنا فلاحا مصريا أو قرويا روسيا عما يعلمه عن قوى الطبيعة وجدناه لايدري منها عشر ماتسرده منها الكتب الابتدائية لهذا العلم في سنة ١٩٠٣ . ويظهر لي ان علماء هذا العصر سيكونون حيال علماء القرون المقبلة في مثل موقف قروي اليوم ازاء اساتذة كلية فرنسا .

ثم قال بعد ضربه الامثال :

« ثم لماذا لانصرح بصوت جهورى بأن كل هذا العلم الذي نفخر به الى هذا الحد ليس في حقيقته الا ادراكا لظواهر الاشياء ، واما حقائقها فتفلت منا ولا تقع تحت مداركنا ، والطبيعة الصحيحة للنواميس التي تقود المادة الحية أو الجامدة تتعالى عن ان تلم بها عقولنا ؟ مثال ذلك اننا اذا القينا حجرا في الهواء نراه يسقط الى الارض ، فلماذا سقط ؟ يجيبنا نيوتن بقوله سقط بجذب الارض له جذبا مناسبا لكتلته والمسافة التى سقط منها . ولكن ماهو هذا الناموس ان لم يكن مجرد تحصيل حاصل ، والا فهل منهم أحد ادرك تلك الجاذبية التي تجعل الحجر يسقط على الارض . ان ظاهرة سقوط حجر على الارض من الشيوع بحيث لاتدهشنا . ولكن الحقيقة انه لايوجد عقل انساني فهم ذلك . ان هذه الظاهرة عادية وعامة ومقبولة ولكنها غير مفهومة ككل ظواهر الطبيعة بغير استثناء (تأمل) ؛

« نرى البيضة تلقح فتصبح جنينا ، ونرانا نصف أدوار هذه الظاهرة ونحن نجهل

مخطئين ومصيبين في الحقيقة ، ولكن هل فهمنا رغماً عن وصفنا الدقيق لها سر ذلك التحول الذي يحدث في البروتوبلاسما الخلوية فيقلبها الى كائن حي عظيم ؟ وبأي معجزة تحدث تلك التجزؤات ؟ ولماذا تتجمع تلك التحيات هنالك ؟ ولماذا تتهادم هنالك لتعيد تكونها في مكان آخر .

«انا نعيش في وسط ظواهر تتوالى حولنا ولم نفهم سر واحدة منها فهما يليق بدرجتها . حتى أن أكثرها سذاجة لاتزال سرا من الاسرار المحجوبة كل الاحتجاب. فما معنى اتحاد الايدروجين بالاوكسيجين؟ ومن الذي استطاع أن يفهم ولو مرة واحدة معنى هذا الاتحاد وهو يفضي الى ابطال خواص الجسمين المتحدين وايجاد جسم ثالث مخالف للاولين كل المخالفة؟ ان العلماء لم يتفقوا للآن حتى على طبيعة الذرة المادية التي توصف بانها غير قابلة للوزن وهي مع ذلك تصير قابلة له متى اجتمع عدد كبير منها.

« فالاولى بالعالم الصحيح ان يكون متواضعا وجريئا في آن واحد متواضعا لان علومنا ضئيلة ، وجريئاً لان مجال العوالم المجهولة مفتوح امامه .

ثم ختم مقدمته بقوله :

«فالويل للعلماء الذين يظنون بأن كتاب الطبيعة قد اقفل، وانه لايوجد شيء جديد يحسن تفهيمه للانسان الضعيف .

رأى الفيلسوف الفرنسى جيو :

وقال الفيلسوف جيو ى كتابه(عدم التدين في المستقبل) في طبعته السادسة سنة ١٨٨٦ وهو من الد أعداء الاشكال الموجودة من الاديان:

«ان الفرض القائل بأن الذرة المادية لا تقبل الانقسام ولا التجزؤ يعتبر من الوجهة الفلسفية من الآراء الطفلية . فقد اثبت طومسون وهلمولتز ان الذرات في ذاتهـا زوبعات متشابهة مكونة من الابخرة (كبخار كلوريدرات الامونياك مثلا) فقال ان كل حلقة زوبعية تتألف على الدوام من جزيئات واحدة ولايمكن فصل

أحداها عن سائرها . فلكل منها والحالة هذه شخصية ثابتة .

« اذا وُسّع المذهب المادي وجب عليه أولا نسبة الحياة الى العنصر العام بدلا من ان يفترضه مادة صماء . قال الفيلسوف سبنسر (كل جيل من الطبيعيين يكتشف في المادة المسماة صماء قوى ما كان يحلم بوجودها أعلم علماء الطبيعه قبل ذلك بسنين معدودة) فاننا لما رأينا أجساما جامدة تحس رغما عن جودها الظاهر بتأثير قوى لايحصي عددها ولما اثبتت لنا آلة التحليل الطيفي (السبكترسكوب) بان الذرات الارضية تتحرك بالاتفاق مع الذرات الموجودة في الكواكب ، ولما اضطررنا الى أن نستنتج من ذلك أن ذبذبات لايحصي لها عدد تخترق الفضاء في كل وجهة وتحركه ، لما رأينا ذلك كله وجب علينا ان ندرك كما يقول سبنسر (ان الوجود ليس بمؤلف من مادة ميتة ، بل هو وجود حي في كل جهة من جهاته ، حي بأعم معاني هذه الكلمة ان لم يكن بأخص معانيها) . . . .

« الاصلاح الثاني الذي يحتاج اليه المذهب المادي لكي يفي بحاجة البحث عن العلل الاولية هو أن يفترض ان المادة مع الحياة جرثومة روحانية . وعا ان هذه المادة الاولية هي عبارة عن قوة صالحة للحياة والفكر معا فليس هذا ما يُفهم عليا بل ولاعليا من معنى المادة فضلا عما يفهم من معنى الايدروجين(الذي يظن البعض أنه المادة الاولية). فالمادي البحت الذي يلمس بيديه كرة الدنيا معتمدا على الحاسة الغليظة وهي حاسة اللمس يصيح قائلا : الكل مادة .ولكن المادة نفسها تستحيل في نظره الى القوة ، والقوة ليست الاصورة اولية من صور الحياة . وعلى هذا يستحيل المذهب المادي الى مذهب روحاني ، وتجده مضطراً أمام الكرة الارضية الدائرة لان يقول انها حية . واذ ذاك يتدخل شخص ثالث يضرب هذه الكرة برجله كما فعل غاليليه ويقول نعم هي قوة،هي حركة، هي حياة. نقول ومع ذلك فهي أيضاً شيء آخر لانها تفكر فيّ وتدرك ذاتها بي .

ثم قال « اذا كان المذهب المادي الذي يدعى انه علمي محض لايقبل ان الطبيعة تعطي بقدر مايدرك العقل ، واذا انكر وجود الفكر والطبيعة معا كان بذلك منكراً

انطباق الطبيعة على أحكام العقل وهو الاصل الذي تعتمد عليه كل فلسفة تدعى أنها علمية محضة.

ثم قال :

« اننا عوضا عن أن نحاول ادماج المادة في العقل والعقل في المادة نعتبر الاثنين معاً في هذه التركيب وهو الحياة ، وهذا التركيب اضطر العلم نفسه في تنزهه عن الغرض سواء أكان أدبياً أو دينياً للاعتراف به. فالعلم يوسع كل يوم دائرة الحياة حتى صار لا يوجد خط انفصال ثابت بين العالم العضوى والعالم غير العضوى » انتهى .

﴿ رأى الاستاذ جوستاف لوبون ﴾

نقلنا رأي هذا العلامة الكبير في العلم والمزاعم الفلسفية في صفحة (٢٣ـ٢٨ من هذا) الكتاب فراجعه فيها وهي آية في هذا الباب .

﴿ رأى الاستاذ هنرى بوانكاريه ﴾

قال الاستاذ الرياضي الكبير هنرى بوانكاريه العضو بالمجمع العلمي الفرنسي في مقدمة كتابه (العلم والافتراض) صفحة ١ .

« الحقيقة العلمية في نظر المشاهد السطحي تعتبر خارجة عن متناول الشكوك . وعنده ان المنطق العلمي غير قابل للنقض وان العلماء ان اخطأوا احيانا فلا يكون ذلك الا لانهم لم يراعوا قواعده .

« والحقائق الرياضية في نظره تشتق من عدد قليل من القضايا الجلية الواضحة بسلسلة من الادلة المنزهة عن الخطأ . وهي واجبة ليس علينا فقط بل وعلى الطبيعة أيضا ، مقيدة الخالق نفسه ولا تسمح له الا باختيار حل من بين الحلول القليلة العدد فقط نسبية . فيكفينا والحالة هذه عدة تجارب لنعرف منها أى شيء قد اختار الخالق منها، ومن كل تجربة من هذه التجارب تنتج طائفة من نتائج رياضية وعلى هذه الصورة تعرفنا كل واحدة منها زاوية مجهولة من زوايا الكون .

«وهذا هو أصل الثقة العلمية لناس كثيرين من اهل الدنيا والتلاميذ الذين يتلقون مبادىء علم الطبيعة . وماهو جهد فهمهم للدور الذى تؤديه التجربة والرياضيات ، وما هو ايضا غاية فهم كثير من العلماء الذين كانوا يعلمون منذ مئة سنة ان يبنوا العالم باستخدام أقل ما يمكن من المواد المستمدة من التجربة.

«ولـكن لما تروى العلماء قليلا لاحظوا امكان الافتراضات من هذه العلوم، ورأوا ان الرياضي نفسه لا يستطيع الاستغناء عنها ، وان التجربة لاتستغني عنها كذلك. حينذاك سأل بعضهم بعضا هل كانت هذه المباني العلمية على شيء من المتانة، وتحققوا ان نفخة واحدة تكفي لجعل عاليها سافلها . فمن ألحد على هذا الوجه صار سطحيا ايضا. فان الشك في كل شيء او الاعتقاد بكل شيء يعتبران حلين قليلي المؤنة، فان كلا منهما يغنينا من اعمال الروية».

﴿ رأى الاستاذ وليم جيمس ﴾

الاستاذ وليم جيمس استاذ بجامعة (هارفارد) بالولايات المتحدة وصاحب المؤلفات الممتعة في علم النفس. قال في كتابه ارادة الاعتقاد:

صفحة ٧٣:

«قد بدأ عصر العلم بتاليليه من نحو ثلاث مئة سنة، ومن ذلك اليوم الى هذا الحين كان يكفي أن ينبغ أربعة رجال يفضي كل منهم الى خليفته بما فتح على الناس في عهده من مكتشفات العلم، فكأن يصل الينا عنهم ذلك النور العلمي كله. فهل يعقل ان علما ليس له من العمر الا يوم واحد . . . . يستطيع ان يمثل لنا شيأ آخر غير صورة ضعيفة لما سيكون عليه الكون في نظر الذين سيفهمونه على حقيقته في يوم من الايام؟ كلا. ان علمنا ليس الا نقطة ، ولـكن جهلنا بحر زاخر . والامر الوحيد الذي يمكن ان يقال بشيء من التأكيد هو ان عالم معارفنا الطبيعية الحالية يتصل بعالم اوسع منه من نوع آخر لم ندرك خواصه المـكونة له الى اليوم».

﴿ رأى الاستاذ كروكس ﴾

الاستاذ وليم كروكس من اكبر علماء الانجليز ومن أعضاء المجمع العلمي الملكي حصل على جميع ألقاب الشرف العلمية التي تمنح في بلاده للنابغين، وهو مكتشف اشعاع المادة وآلات كياوية كثيرة. قال في خطبة له في مجمع العلوم كما ورد ذلك في مجموع خطبه صفحة ٨

«من بين جميع الصفات التي عاونتني في مباحثي النفسية وذللت لي طرق اكتشافاتي الطبيعية ، وكانت تلك الاكتشافات احيانا غير منتظرة ، قلت من بين تلك الصفات عندي اعتقادي الصحيح الراسخ بجهلي . واكثر الذين يدرسون الطبيعة يستحيل أمرهم عاجلا او آجلا الى اهمالهم الشكلي لجانب عظيم من رأس مالهم العلمي المزعوم لانهم يرون ان رأس مالهم هذا وهمي محض».

وقال في معرض آخر من تلك الخطبة :

«متي امتحنا من قرب بعض النتائج المادية للظواهر الطبيعية، نبدأ بادراك الي اى حد هذه النتائج او النواميس كما نسميها محصورة في دائرة نواميس اخري ليس لنا بها اقل علم . اما انا فان تركي لرأس مالي العلمي الوهمي قد بلغ حداً بعيداً. فقد تقبّض عندي هذا النسيج السكيوني للعلم كما عبر بذلك بعض المؤلفين الي حد أنه لم يبق منه الا كرة صغيرة تكاد لاتدرك.

«ولست بآسف من الحدود التي تضعها امامنا الحياة الانسانية، بل انّي اعتبرها منشطا منقذا . اني اعتقد بأني لست أنا وليس احد سواي اهلا لان نعيّن مقدما ماليس بموجود فى الكون . ولا استطيع انا ولا احد غيرى يستطيع ان نقول بان شيأ بعينه لايحصل حولنا فى كل يوم من ايام حياتنا . هذه العقيدة تدع لي املا مقويا بأن اكتشافا وتيهما جديدا يمكن ان يحدث فى مجال من المجالات، فى أقل الاوقات تفكراً فيه .» انتهى .

وقال في خطبة أخرى صفحة ٣٦

«الكون كله، على ماندركه ، نتيجة الحركة الذرية . وهذه الحركات الذرية تنطبق تماما على قانون حفظ القوة ، ولكن ماتسميه ناموسا طبيعيا هو في الحقيقة مظهر من مظاهر الاتجاه الذى يعمل على موجبه شكل من اشكال القوة . ونحن نستطيع ان نطل الحركات الذرية كما نطل حركات الاجرام الجسمية، ونستطيع أن نكتشف جميع النواميس الطبيعية للحركة ، ولكنا مع ذلك لا نكون أقرب مما كنا عليه الى حل اهم مسئلة وهي . اى نوع من انواع الارادة والفكر يمكن ان يوجد خلف هذه الحركات الذرية، مجبرين لهذه الحركات على اتباع طريق مرسوم لها من قبل ؟ وماهي العلة العاملة التي تؤثر من خلف هذه الظواهر (وفي الاصل من وراء ستار المسرح) ؟ وأي ازدواج من الارادة والفكر يقود الحركة الآلية الصرفة للذرات خارجاً عن نواميسنا الطبيعية بحيث يعملها على تكوين هذا العالم المادى الذى نعيش فيه ؟»

ثم قال.

«اسمحوا لى ان استنتج من هذا الفهم انه يستحيل علينا ان نتخيل مقدما الامر الذى التي يحتويها الكون والعوامل الدائبة على العمل فيما ، ولنا» انتهى .

(رأي الاستاذ اوليفرلودج)

اوليفرلودج من اكبر علماء الطبيعة الانجليز، عضو بالمجمع العلمي الملكي ورئيس جامعة برمنجهام ومكتشف نظرية التلغراف اللاسلكي . قال في خطبة خطبها في جمعية تقدم العلوم الانجليزية وهو رئيس القسم الرياضي والطبيعى منه (نقل هذه القطعة عنه العلامة (اليردوروشاس)) مدير مدرسة الهندسة الفرنسية في كتابه الحالات العميقة للنوم المغناطيسي . قال:

«ان الذى نعلمه ليس بشيء في جانب مايجب علينا ان نعلمه وقد يقال ذلك احيانا بلا اعتقاد . اما بالنسبة لى انا فهى الحقيقة الحرفية . وارادة قصر مباحثنا على المجالات التي افتتحناها نصف افتتاح بمتبر خيانة لجهود الرجال الذين كافحوا للحصول على حرية البحث

وتخييبا لاقدس آمال العلم » .

﴿ رأي الأستاذ كاميل فلامريون ﴾

كاميل فلامريون اكبر فلكي الفرنسيين ومن اشهر فلاسفة الغرب قال في كتابه (المجهول) صفحة ٥٧٨ :

فلا نضيقن دائرة مدركاتنا ، ولا نؤسسن مذاهب ولا نظريات ، ولا نزعمن ان كل شيء يجب ان يعلل حتى يمكن التسليم به ، فان العلم لا يزال بعيدا عن أن يلفظ كلمته الاخيرة في أي موضوع كان »

وقال في كتابه (القوى الطبيعية المجهولة) يخاطب الماديين :

« ايه أيها السادة مهما بلغ من ضيق احكامكم قصر نظركم لا يصح ان يسري على الوجود . فقد اعلنتم بأنه رغما منكم ومن كل العقبات التي تضعونها فان مركبة المعارف الانسانية ستتقدم الى ابعد مما هي عليه الآن وستستمر متقدمة وهي قائدة لاعاقة بادراك قوى جديدة » .

الى ان قال :

« ترانا نفكر ولكن ماهو الفكر لا يستطيع احد ان يجيب على هذا السؤال . وترانا نمشي ولكن ما هو العمل العضلي لا يعرف أحد ذلك . ارى ان ارادتي قوة غير مادية وان جميع خصائص روحي غير مادية أيضا ومع ذلك فمتى اردت ان ارفع ذراعي ارى ان ارادتي تحرك مادتي ، فكيف يحدث ذلك ، وما هو الوسيط الذي يتوسط القوى العقلية في انتاج نتيجة مادية لا يوجد من يستطيع ان يجيبني عن هذا أيضا . بل قل لي كيف ينقل العصب البصري الى الفكر صور الاشياء الخارجية ؟ وقل لي كيف يدرك هذا الفكر وابن مستقره وماهي طبيعة العمل المخي ؟ قولوا لي ايها السادة . . . . ولكن كفى فاني استطيع ان اسألكم عشر سنين ولا يستطيع اكبر رأس فيكم ان يجيب على احقر اسئلتي » انتهى

﴿ رأي الفيلسوف الكبير هربرت سبنسر ﴾

هربرت سبنسر اشهر الفلاسفة العصريين وتعاليمه تعتبرا كثرالتعاليم سلطانا على العقول قال في كتابه (الاصول الاولية) صفحة ٢٤٧ :

قال بعد ان سرد الاصول التي يحاول بها تفسير الوجود :

«اي وظيفة تؤديها هذه الاصول في تكوين هذا الفهم ؟ هل تستطيع واحدة منها ان تعطينا وحدها فكرة عن هذا الوجود اعني عن مجموع ظواهر الوجود الذي لايمكن ادراكه ؟ واذا اعتبرناها مجتمعة فهل تستطيع ان تعطينا فكرة تساوي جلالة هذا الوجود ؟ واذا رتبت وجملت مذهبا فهل تستطيع ان تكون لنا هذه الفكرة للوجود ؟ ليس لنا على كل هذه المسائل الاجواب واحد وهو : لا »

﴿ رأي الفيلسوف اندريه كريسون ﴾

قال الاستاذ (اندريه كريسون) مدرس الفلسفة في جامعة ليون في كتابه (قواعد الفلسفة الطبيعية) وهو في صفحة ١٧٠

« العلم لايعطينا على الوجود في مجموعه الا معارف مبهمة الغاية . فاننا لانعلم العدد الحقيقي للنجوم ولا الكواكب التي تحيط بالشموس البعيدة . فابداء فرض والحالة هذه على تركيب مجموع الكون لا يمكن ان يكون الا تحكما . فالفلاسفة الطبيعيون المتحفظون يرفضون ان يبنوا من النظريات ما يمكن ان يسمى بالرواية الخيالية للسماء ، فهم لذلك يفضلون القيام على ارض ثابتة اقرب الى روح العلم.

الي ان قال :

«ماهي الفلسفة الطبيعية اليوم في الواقع ان لم تكن عقيدة تفوق متناول العلم . هل يقتصر الطبيعي على قول مايعرفه ؟ هل يمتنع عن الحكم على الاشياء التي يجهلها ؟ لا ، فان مذهبه يكبر ويمتد لانه في كل خطوة من خطواته يحمل العلم ماليس عنده ، فتراه تلميحا أو تصريحا يؤكد لك بانه سيحل مسائل لم يحلها العلم وانه سيثبت قوانين وجهة معينة ،

أحقق الكيماويون التركيب الحيوي واثبتوا امكان التولد الذاتي ؟ أفسر أحد اصل التمثيل الوجداني . اصارت اصول فلسفة النشوء والارتقاء تامة وتنزهت عن كل صعوبة ؟ أقامت نظرية للمادة والقوة على حالة نهائية ؟ أتفق العلماء على جميع النقطالتي يبحثونها ؟ أصار مما لاجدال فيه ان جميع مافي الوجود خاضع لنظام مقرر لايتغير ؟ ألا يوجد عالم اطلاق تتخلف فيه النواميس فى جهة أخرى ؟ يستطيع العالم المدقق ان يجيب على هذه الاسئلة بأنه ربما كانت له على هذه المسائل عقائد مؤسسة على المرجحات ولكنه لايستطيع ان يبت فيها بالقول الفصل الذى يتطلبه العلم . ومع ذلك فالفيلسوف الطبيعي ينكب هذا التحفظ ويبني مذاهب وهو هادىء البال فمل من يعتقد ان الاستكشافات المقبلة لن تكذبه .

الى ان قال :

« ان قيمة مايظهر لنا انه اشد المعارف ثبوتا واوضحها صحة لاتزال مشكوكا فيها من وجهة علم العلل الاولية . ولا يستطيع احد ان يثبت انها حقيقية كما لايمكن احد ان يثبت انها باطلة » .

الى ان قال :

« فالذى يغتر بنتائج الفلسفة الطبيعية لايجوز له ان ينسى ان هذه النتائج لم تثبت ثبوتا مطلقا ولا يمكن ان تصل الى هذه الدرجة ابدا . فهي تفوق جهد العلم العصرى بما لايقدر . ولا يمكن ان تعلن صحتها بدون التسليم بهذا الافتراض الكبير وهو : « ان الشيء الذى لايستطيع عقلنا ان يشك فيه هو مظهر الحقيقة الواقعية » فلنقل بايجاز ان الفلسفة الطبيعية ملأى بعقائد غير مثبتة ولا تقبل الاثبات » .

﴿ أثر هذا الانتقال العقلي على الانسان ﴾

(وخاتمة الكتاب)

إننا نستطيع أن نأتي بمئات من هذه الاعترافات ولكنا رأينا ان نجتزىء بما

تقدم خشية الاملال . وليست هذه الاقوال في حاجة الى الشرح ، ولكنني ارجو ان لا يقرأها القارىء كما يقرأ أخبار الصحف، ولكن أن يهتم بتفهم ماهي جديرة به فانها في الحقيقة تبين موقف العقل الانساني في القرن العشرين ، وتعبر عن خلاصه من أسر الانخداع بالعبارات الفارغة التي كانت تلقب بالعلمية أو الفلسفية وهي مبنية على الوهم البحت أو الدعوى الباطلة التي تجر اليها الكبرياء الجاهلية .

لقد مضى ولله الحمد ذلك الزمان، وأصبح العقل معترفا بقصوره ، مقرا بانخداعه لاحكام الحواس ، وهذا عهد جديد كان أثره على ترقيه في ادراك المجاهيل اكبر الآثار المعهوده في تاريخه العقلي وأجلها ، بل كان من اثره انه اصبح في موقف يصلح فيه لان الحقيقة التي كان يتهالك عليها، ولا يصل اليها .

رب قائل يقول . ماهذا التناقض ؟ كيف يدرك العقل انه قاصر ، وانه مخدوع بحواس الجسم ، وانه في وسط بحر لا ساحل له من مجاهيل لم يدرك من مجموعها الا علاقات سطحية لبعض ظواهرها، ويكون في الوقت نفسه اجدر مما كان عليه بادراك الحقيقة التي يتفانى في طلبها ؟

جوابنا على هذا الاعتراض :

ان هذا الشعور بالقصور وبالانخداع للحواس هو في نفسه علم عال خرج به الانسان من منطقة التبعية للطبيعة الى منطقة الاستقلال المطلق عنها، فاستطاع ان يحكم عليها غير متأثر بعواملها ولا مفتونا بظواهرها ، فنقله هذا الشعور الصحيح فجأة من التعويل على هذه المظاهر المحدودة من القوى العاملة حوله التي سماها بالنواميس الى تلمس ماوراءها من القوة الخفية المسيطرة عليها .

نعم ان الانسان اسير حواسه الجسمية ، ليس له مصدر غيرها يستنزل منه العلم بما يحيط به من الموجودات غير قوة التخيل ، وهذه القوة قد تخطىء المرمى وقد تصيبه بل هي الى الخطأ اقرب منها الى الصواب وصوابها لا يمكن تحقيقه لبعده عن مجال الحس ، وتاريخ العلم مشحون بالشواهد على ان التعويل على هذه القوة يرمي به الى مطارح بعيدة من الضلال والشطط ، وعلى ان الوقوف عند حكم الحواس ادعى الى

الوصول الى الحقائق التى لايمكن النزاع فيها وان كان مايصل اليه متناهياً. قليل لايبلغ ما يطمح اليه الانسان من فهم الوجود وعوامله الاولية .

هذا كله صحيح وليس في العالم رجل يعول على رأيه ينصح بتسليط قوة التخيل على العلم بعد خلاصه منها منذ نحو ثلاثة قرون ولكن هذه اليقظة الجديدة للعقل الانساني من شعوره بقصوره، وباعتدامه لحواسه ، وبان مايراه ومايحس به ليس هو الامظاهر وقشوراً للباب تعمل فيه قوى ارقي من القوى التي يدركها ، هذه اليقظة الجديدة نبهته لخطأ جلل كان يقع فيه ويعتبره ألمية ، ويصم من لايشايعه فيه بالعامية . هـذا الخطأ الجلل هو عزوه كل ظواهر الوجود الى العدد المحدود من مظاهر القوى العالميـة التي سماها بالنواميس ، وتشدده في ذلك الى حد الافراط الذي ليس بعده مرمى .

فـكان اذا رأى ظاهرة جديدة عللها بتلك النواميس فان علت عن النواميس حط منها لتقبل التعليل صاغرة ، ويعز عليه ان يعترف بقصور تلك النواميس وبوجود ظواهر في الـكون يجب ان يكون لها نواميس ارقي منها . وقد تأدى بالجرى عـلى هذا الاسلوب الى حال من الجمود العلمى استحال معه العلم، وهو متواضع منصف معترف بعجزه، الى طاغية متجبر ليس لاستبداده حد يقف عنده .

واننا نضرب لك مثالا من ذلك . يشهد الحس نفسه ان الفارق بين الجماد والانسان من العظم بحيث لايدع محلا لاي نزاع ، ذلك ميت لاحس به ولاشعور، وهـذا حي له حس وشعور، وله فوق ذلك ادراك يصلح لاخضاع قوى الطبيعة نفسها، فالنظر المجرد اليهما يقضي بالحكم بأن في الانسان قوة ليست من نوع القوى التي في الجـماد ، قوة يجب درسها والوقوف على مصدرها ، وعدم التسليم بما يتخيله العقل بشأنها حتى يؤيده شاهد من المحسوسات

هذا مايجب على كل باحث في الطبيعة متبصر منصف، ولكن النزعة التى كانت استولت على اهل العلم قبل هذا الدور كانت لاتسمح لهم بهذا التبصر والانصاف ، ولـكن كانت تدفعهم لغلوهم في الاعتداد بالنواميس التي اكتشفوها الى الزعم بأن القوى العاملة في الانسان هي نفس القوى العاملة في الجماد، حرصا على السلطان الوهمي الذي

تعلوه بخيلاتهم لتلك النواميس . فان قلت لاحدهم كيف يمكن تعليل صدور القوة العاقلة من قوة عمياء لاشعور لها ولا ادراك؟ اجابك امثالهم وهو (بوخنر) العلامة الالماني بقوله كما جاء في صفحة (٤٥) من كتابه القوة والمادة :

«ان ادراك هذا السر يقتضي ان يعلم هـذا الامر وهو ان قوى طبيعية بل وعقلية تلازم جواهر المادة . وهذه القوى العقلية تظهر في جميع الاحوال التي تجتمع فيهـا شروط ضرورية في المخ، أو في المجموع العصبي، حيث تكون عناصر المادة متحدة على شكل خاص ومتأثرة بحركة خاصة، فتنتج منها ظواهر الشعور والفكر كما تنتج فيها في احوال اخرى ظواهر الجذب والدفع».

فليتأمل القارىء في مبلغ هذا الجمود العلمي ، فان بوخنر لاجل ان يماشي المذهب المادي القاضي بان لاموجود غير المادة وقوتها الملازمة لها ، آثر ، وهو حيال مسألة تعليل وجود العقل الانساني ، ان ينحل المادة صفة العقل وان يبذل قصارى جهده في اذاعة هذا الحكم ، على ان يقف موقف المتثبت المتبصر ، فيبحث لعله يجد لهذا العقل اصـلا عقليا عاما مستقلا عن المادة ، بل لعله يجد هو أو غيره بعد خمسين او مئة سنة ان المادة ليست بشيء غير حركة اثيرية كما مال اليه جمهور العلماء اليوم .

ان هـذه الجرأة المفرطة في الحـكم على مساتير الوجود بضعة القشور العلميـة المعروفة ، ليست من العلم في شيء ، بل هي من تسليط قوة التخيل على العـلم والفلسفة معا وتحكيمها فيهما ، ومن الغريب ان الماديين مع هـذا الافتئات كله يدعون انهم قائمون عـلى الاسلوب العـلمي الدقيق ، وأنهم لايحـكمون على الوجود بقوتهم المتخيلة

فان اظهرت تعجبك من عقلية الماديين في اكبارهم المادة الى هـذا الحد حـتى نسبوا اليهـا العقل (مع انهم في جهة اخرى يقولون لاعقـل بغير مـخ) دهشوا من تعجبك هذا ، وقالوا لك كما قال بوخنر في كتابه المتقدم وهو يدعي الكتاب المقدس للمذهب المادي :

«ان المادة ليست بشيء خامل على طائفة كاملة من خواص سلبية ، كما اعتاد

الناس ان يتمثلوها خطأ على تلك الحال ، ولكنها في الواقع على الضد من ذلك كله . فالمادة ليست ميتة ولا جامدةولكنهامتحركة في كل مكان وملأى من الحياة على أقصى درجات النشاط . وهي ليست مجردة عن الصورة ، بل ان الصورة والحركة كما يرى بعدُ من خصائصها الضرورية اللازمة لها . وليست المادة بغليظة كما يقول بذلك خطأً رجال ليسوا على شيء من العلم ، ولكنها من اللطف بحيث لا نستطيع ان نتصور ذلك تصوراً . وليست مجردة عن القيمة بل هي على العكس الام العامة التي يتولد منها كل كائن . ولها معنى هو اسمى المعاني المعروفة.وهي ليست مجردة لا من الشعور ولا من العقل ولا من الفكر (تأمل) فهي قابلة لارقي درجات الشعور ولأكمل اعمال الفكر في الكائنات الحية المتولدة منها عن طريق التدرج » انتهى .

الى هذا الحد وصل تحكم الماديين في ادعاء خصائص المادة ليمكنهم ان يحافظوا على مذهبهم في عدم وجود شيء سواها في هذه اللانهاية الوجودية كلها ،حتى اذا ثبت لهم أن من الناس من يعرف الامور المستقبلة،اقرروا حرصاً على كيان مذهبهم ان يزيدوا في صفات المادة صفة أخرى ولأضافوا الى قولهم انها عاقلة مفكرة قولهم (وتعلم الغيب أيضا) وقس على هذا . ولكن هذا الضرب من التحكم ليس من العلم في شيء ولكنه من تسليط قوة التخيل على العلم والفلسفة والاستبداد بالرأى الى حد يأباه العقل نفسه لانه يشعر بأن القائلين به قد عرفوا سر تركيب المادة،وقابلوها في عالمها الاثيرى الاعلى متحلية بكل هذه الصفات التي ينحلونها اياها. فهل تصل الدعوى بالماديين الى هذا الحد ؟

اذا سألنا عن ذلك زعيم الماديين (بوخنر) اجابنا بما قاله في صفحة (٤٥) من كتابه المادة والقوة :

« نحن لا نعلم ماهي المادة في ذاتها كما لا نعلم ماهي القوة في ذاتها أيضا ولا ندرى هل المادة واحدة في أصلها أو مكونة من ستين أو سبعين عنصرا كيماويا معروفا ، ولكننا نعلم بطريقة مؤكدة بأنه يوجد شيء يجذب ويدفع ويقاوم ويتحرك وينتج ظواهر النور والحرارة الخ . وانه في الوقت الذى يزول فيه هذا الشيء تزول

هذه الظواهر معه . هذا الشيء هو الذي نسميه مادة ونسمي الظواهر المذكورة مظاهر لها ، ونسمي سبب هذه الظواهر القوة المشمولة في المادة » .

نقول هذا كلام صريح في ان الماديين يجهلون ماهية المادة وماهية القوة ، فمن أين جاءهم اذن انها هي الموجود الاول ، ألا يجوز ان يكون الموجود الاول هي القوة وان المادة تنزلت منها كما يقول به جمهور الطبيعيين اليوم ؟

وهل ملازمة الجذب والدفع والحركة والنور والحرارة للمادة يضطرنا للقول بملازمة القوة العقلية لها أيضا ، مع وجود الخلاف الجوهرى بين الظواهر الآلية ، والظواهر الادراكية ؟ أليس الجزم فى هذه الامور الخطيرة التي هي فوق متناول العقل والتجربة مما ينم عن طيش ونزق لايصح ان يتصم بهما باحث طبيعي يجد وراء الحقيقة ؟

يقول قائل منهم : ومن اين جاء للدينيين ان أصل الوجود روح مدبر مريد مختار أوجد الاشياء من العدم المحض ، وقام على تدبيره بحكمة ليس لها حد ؟

نقول . نحن الآن في مجال العلم الطبيعي لافي مجال الدين ، فان أراد الماديون ان يتناموا بالدينيين كفانا منهم هذا الاعتراف وحده ، وعددنا مذهبهم دينا لاعلما ، وأضفناه الى جدول الاديان البشرية ، ولكنهم لايقبلون ذلك بل يأتون منه مدعين أنهم على الصراط العلمي الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فان صدقوا فكيف يتفق هذا الضرب في الخيالات ، وهذا التحكم في المجهولات ، والقطع في النهايات والبداءات ، مع اسلوب الفلسفة الحسية التي تفخر بعدم تعرضها لما يعلو عن متناول التجربة والمشاهدة ؟

قال العلامة (ليتريه) وهو خليفة (اوجست كونت) واضع تلك الفلسفة في كتابه (كلمات عن الفلسفة الحسية) :

« بما أننا نجهل اصول الكائنات ومصائرها فلا يجوز لنا ان ننكر وجود شيء سابق عليها اولاحق لها ، كما لايجوز لنا أن نثبت ذلك ، فالمذهب الحسي يحتفظ

كل التحفظ في مسئلة وجود العقل الاول لاقراره بجهله المطلق في هذا الشأن ، كما ان العلوم الفرعية التي هي منابع المذهب الحسي يجب عليها ان تحترس من الحكم على اصول الاشياء ونهاياتها ، بمعنى اننا ان لم ننكر وجود الحكمة الالهية فلا نتعرض لاثباتها لا نناعلى الحياد التام بين النفي والاثبات » .

وقال الفيلسوف (روبنيه) في كتابه (الفلسفة الحسية).

«يريد الفلاسفة الحسيون ان يبعدوا كل خيال اوتوهم ، وان لا يعتمدوا الا على المشاهدة المحسوسة ، وان يحذفوا من اقوالهم كل الافتراضات التي لا يمكن تحقيقها» انتهى .

اذا كان الامر كذلك ألا يكون من الحكم على اصول الاشياء ومصائرها زعم الماديين بأن اصل الوجود المادة ، ومصيره المادة؟ وهل القول بأن المادة عاقلة ومفكرة تعتبر بعدا عن كل خيال وتوهم ، واعتماد على التجربة والمشاهدة؟

اللهم ان المذهب المادي ليس من العلم الطبيعي لانه مبني على احكام لا يمكن مشاهدتها ولا الحكم عليها بالتجربة ، وليس من الفلسفة الحسية ، لانه قائم على الخيال والوهم والافتراضات التي لا يمكن تحقيقها ، فما هو اذن؟ هو عرض لمرض الزهو الذي كان اصاب العقل الانساني بتأثير توالي الفتوحات العلمية ، فخيل اليه ردحا من الزمن انه ادرك كنه الوجود ، فقام محاطا بآلاء المخترعات والمستكشفات يقطع ويفصل في امور الكون كأنما خلقه بيده ، وكان الناس تأخذ تلك المخترعات والمستكشفات المتوالية بألبابهم فيخيل اليهم ان العقل العصري الذي هي آثاره لا يقرر ما يقرره من الامور الفلسفية عن طيش اونزق فاندفعوا في تياره بغير روية ، واحتقروا كل ما يخالفه من المذاهب الفلسفية .

اما اليوم وقد صحا العقل من نشوته ، وتنبه من غفوته فقد تبين له ان كل ما حصله من المكتشفات العلمية لا يتعدى العلاقات بين الكائنات ، ولا ينفذ الى ما بعد قشورها الغليظة ، وان كل ما رأيناه من المزاعم على هذه القشور ليس له أصل يقوم عليه ، بل هو مجموع من دعاو باطلة ، ادى اليها زهو لا موجب له بأمور لا تبلغه

بعض ما يتوق اليه من لباب الحقيقة ،وادرك انه مخدوع بحواسه في كل شعور من شعوراته ،فبحث عن لنفسه اصلا آخر يقوم عليه ليسير بقدم ثابتة الى عالم الحقيقة فأعلن على رؤس الاشهاد ان كل هذه العلوم التى حصلها في مدى القرون السابقة لاتتعدي العلاقات بين الكائنات ، وانه لا يتصل بها الا بهذه الحواس الخمس، وهي مضللة خدّاعة لاتصله منها الا بظواهرها المناسبة لتلك الحواس، وانه ان اعتمد على مقرراتها في الحكم على الحقيقة كان ضاربا في متاهات من الخيال المحض تنزل به الى حضيض من الجهل يكون تأثيره على افساد كيانه أشد من تأثير اى مذهب من المذاهب التى هدمها واقام فلسفته على انقاضها .

هذه اليقظة من العقل نقلته كما قلنا من منطقة التبعية للطبيعة الى منطقة الاستقلال عنها، ومكنته من الحكم عليها غير متأثر بعواملها، ولا مفتون بظواهرها، ودفعته بقوة قاهرة الى تلمس ما وراءها من القوى الخفية المسيطرة عليها . فاصبح العقل اليوم يتهم مدركاته السابقة ويحاسب كلا منها حسابا دقيقا حتى لا ينخدع لالفاظ وضعها بخياله وحمل نفسه نيرها قرونا عديدة .

فاذ كان العالم في عهد غروره الاعمى يحل بكلمة (الطبيعة) ما لا يحل من معاضل الكون ،ويعلل بها ما لا يعقل من اسراره، فهو اليوم لا يأبه بهذه الكلمة لانه يراها فارغة ان تجردت عن علم صحيح بكنه المادة، وكنه النواميس العاملة فيها. واين هو من ذلك ؟

وكان اذا سأله سائل عن عالم ارقي من عالم المادة جزم بعدم وجوده، فان ناقشه السائل في جزمه، رماه بأنه من الجهل بحيث لا يفهم ما يقال له، ولكنه اليوم اندفع يبحث عنه بكليته، وعلى نفس الاسلوب العلمي وطريقته.

وكان اذا ذكر له عالم الروح ضرب بيده مكتبه وصاح قائلا هذا ضلال قديم، لقد شرحنا الجسم فلم نجد للروح اثراً فيه

ولكنه اليوم، وقد ظهر له انه كان مخدوعا بحواسه ومغرورا بقشور علومه، قد عاد اليه التبصر الذي يجدر بكل باحث عن مساتير الوجود، واصبح لا يجزم

بوجود شيء ولا بعدم وجوده حتى يتحقق من ذلك بالاسلوب العلمي من المشاهدة والتجربة .

فلذلك لم تظهر أول حادثة من الحوادث المعزوة للارواح في أمريكا سنة ١٨٤٦ حتى بادر لتحقيقها بهمة المتعطش الحقيقة ، لا بكبرياء المدعى الالمام بالطبيعـة . ولما ثبتت له صحتها اخذ فى تحقيق كل مايشابهها فى كل بلد . ولما آنس ان هذه المباحث تؤدى الى اكتشاف قوى مجهولة من عالم ارفع من هذا العالم ، أخذ في تكوين الجمعيات العلمية لبحثها ، وما زال دائبا وراء هذا السبيل في مدى أكثر من ثمانين سنة ، حتى تحقق ان حل مساتير هذا الوجود المادى لاسبيل اليه الا بالوقوف على حدود ذلك العالم المعنوى ، وتأكد ان العلم لم ينقطع عند التخوم التى وصل اليها من مباحثه المادية، ولـكنه يتصل بذلك العالم الروحانى ويمتد فيه الى مالا نهاية له . وتبين اننا لم نر من الطبيعة الا جهتها المادية، ولـكن جهتها الروحية الجامعة لـكل القوى التي كنا نعتبرها مجهولة هي فى ذلك الذي كنا نجزم بعدم وجوده . فانفتحت امام العقـل الانساني والعلم التجريبي باحة ليس لها حد تقف عنده ، والفرق بين العالم الباحث وبين الاعتقاديين امام تلك الباحة ، انهم كانوا يحكمون قوة التخيل فى الحكم على كائناتها ، ولكنه الآن يحكم فيه المشاهدة والتجربة، أى الاسلوب العلمى بكل مايقتضيه من تحليل وتمحيص .

فلم يعد العقل يعتبر العلم الطبيعى واقفا عند حدود هذه المـادة المحسوسة ، ولا الاسلوب التجريبي مقصورا عليها . فبعد أن كان عالم ماوراء المـادة لاينال الا بالمكاشفات الروحانية ، من طريق الرياضات النفسانية ، فيؤمن به واحد عن عيان ، ويسلم به الكافة من طريق الايمان ، أصبح اليوم جزءاً من علم الطبيعة ، يسرى عليه ما يسري على سائر أجزائها من الاساليب التجريبية والنظم العملية ، فبطلت المنافسة القديمة بين الدين والعلم ، اذ اختلطا معاً وصارا شيأ واحداً، فبعد أن كان الانسان يقرأ العلم فيمتلىء شكوكا وشبهاً ، ويرجع الدين فيجده لاعتماده على المسلمات ، وقيامـه على الايمان بالغيب ، لايشفى للمتأثرين بشكوك العلم علة ، ولا ينقع لهم غلة ، أصبح

اليوم بفضل دخول المباحث النفسية الى حظيرة التجربة لايجد امامه الا علما جامعا لمطالبه ، موفقا بين حاجات جوهريه ، وهي حالة كانت من المستحيلات فى نظر جمهور المفكرين ، فصارت هى الامر الواقع فى القرن العشرين .

كيف حدث هذا الانقلاب العظيم ؟ وما الذى أوجبه واقتضاه فى عصر كان يعتبر أعرق العصور فى الشكوك ؟ ماهى أدوار هذا الانقلاب ؟ والى أى مدى بلغ تأثيره فى أوروبا وامريكا ؟

أحسن وأجمع ما كتبناه فى هذا الموضوع هو ما نشر لنا فى مجلة المقتطف
الزاهرة فى خمس عشرة مقالة متتابعة من يناير سنة (١٩١٨) الى
(ابريل) من سنة (١٩٢٠) فرأينا ان نجعلها مادة الجزء الثاني
لهذا الكتاب بعد أن نضع لها مقدمة هي ترجمة مقدمة
وضعها الاستاذ الكبير كاميل فلامريون لكتابه
العظيم المسمى بالمجهول والمسائل النفسية
والحمد لله اولا وآخرا

سيظهر الجزء الثاني من هذا الكتاب لطبعته الثانية في
شهر يناير سنة ١٩٣٢

فهرست الكتاب

صفحة

صحيفة

اصلاح خطأ

صحيفة	٥	س	٩	ـ	صفحة ١٣٠	صوابه	١٣٤
«	١٢	س	١	ـ	ما ة	«	قادة
«	٣٠	س	١	ـ	السادس	«	السادس عشر
«	١٠٤	س	٩	ـ	برير	«	برير

على أطلال المذهب المادي

« الجزء الثاني »

« طالع هـذا الكتاب بكل تمعن ولا تطالعه الا بعد أن تطلق »
« نفسك من أسر الاغراض لئلا تعم عليك وانت واقف تطل »
« على العالم من شرفة عقلك تتلمس الحقيقـة من وراء ستارها »
(كتبها الدكتور شبلي شميل فوق)
(كتابه فلسفة النشوء والارتقاء)

(تأليف)

محمد فريد وجدي

الطبعة الثانية

(طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر)
سنة ١٩٣١



نحمد الله ونستعينه، ونستكفيه فيما نستفيه، ونسلم على رسوله محمد خاتم مرسليه، وعلى آله وصحبه وتابعيه، آمين ،

(وبعد) فهذا هو الجزء الثاني من كتاب (على اطلال المذهب المادي) بادرنا الى نشره بعد الاول لانه منه كالنتيجة من المقدمة، أو كالثمرة من الشجرة، وهو مجموع المقالات التي كنا نشرناها بمجلة المقتطف الزاهرة في اجزاء متوالية منها من يناير سنة ١٩١٨ الى ابريل سنة ١٩٢٠ وكان الداعي اليها ان المقتطف نشر في جزئه الذي صدر في شهر ديسمبر سنة ١٩١٨ مقالة تحت عنوان (الفلسفة الحديثة) آنست فيها هتفا عاليا لحق الباحثين العصريين في الروح من طريق الاسلوب العلمي المقرر، فرأيت ان اكشف النقاب عن حقيقة هذه المسألة التي شغلت جمهور العلماء اليوم، وأثرت في المدركات البشرية تأثيرا قضت به على الفلسفة المادية قضاء لا قيام لها بعده، وأوجدت للبحث عن الحقيقة التي بادت الاجيال في تلمسها من طريق العلم الطبيعي عهدا جديدا لم يكن يحلم به الباحثون منذ أقدم أزمنة الفلسفة . وقد أقر بهذه الحقيقة من اعلام العلماء الطبيعيين وكبار الفلسفة العصريين مئات لا يعقل تواطؤهم على الكذب ولا لانخداع يجانبهم ألوف من المجربين المتطوعين من اطباء وأصوليين ومهندسين وصحفيين وماليين ممن لا تنطلي عليهم حيل المحتالين، ولا تروج لديهم احابيل المشعوذين ، وقد مضى على هذه المباحث اكثر من سبعين سنة وهي تقاوم تمحيص الممحصين ، وتقاوي نقد الناقدين وتثبت على تجارب المجربين ، حتى تغلب عليها من أنواع العقول ما لم يتغلب على سواها من المسائل العلمية ، فخرجت من كل هذه الامتحانات فائزة منتصرة ، فاذا يطلب من الضمان على صحة امر بعد استجماعه مثل هذه الشهادات التي لا تعد والتحقيقات التي لا ترد، وليست هي من الامور العقلية فيقال انها خيال من الخيالات بنها

الفلسفية تروج في الاذهان اليوم وتسقط غدا ، ولكنها امر حسي يخضع لحكم الحواس ويمكن تجربته بالآلات والادوات ، وليس خاصا ببلد ولا بجنس ولا بدرجة معينة من درجات العقول، ولكنه عام شائع وُجد من يوم وجود الانسان ولازمه في كل ادواره، ثم جاء العلم المادي فتشكك فيه ردحا من الزمن ثم عاد فبحثه على اسلوبه واعترف به، فبل يجمل بالعاقلين أن يحترموا التحقيقات العلمية في الامور المادية، ويزدروا بها في الامور الروحانية، واقطابه يقولون لهم اننا لا نأتيكم بها مستمده من دين، ولا مستقاة من فلسفة كلامية، ولكنا نأتيكم بها على الاسلوب العملي التجريبي كالامور الطبيعية سواء بسواء .

لاجرم ليس بين الشرقيين واحترام المباحث الروحية العصرية الا ان تنكشف في صورتها الحقيقية، وهو الذي اندبنا له فأفسح لنا المقتطف الزاهر مكانا من صحفه القيمة، فنشرنا فيه هذه المقالات التي نعتبرها كافية في اطلاع الناطقين بالضاد على تاريخ هذه المباحث من لدن ظهورها الى اليوم .

وبما ان هذه المسئلة من المسائل التي كان العلم قد تشدد في رفضها وابعادها عن مجاله، ورمي القائلين بها من الاقدمين بكل مثلبة، فقد لقي العلماء الذين بحثوها اخيرا من ضروب المقاومات مالا يخطر ببال، حتى اضطر اكثرهم لبدء تحقيقاتهم فيها بمقدمات تأنيبية ثاروا فيها على الجمود العلمي ثورات كان لها اكبر الآثار في كشف الاغشية المادية التي رانت على قلوب الماديين. من احسنها مقدمة وضعها العلامة الكبير الاستاذ (كاميل فلامريون) الفلكي الفرنسي في صدر كتابه المسمى (المجهول والمسائل النفسية) ألم فيها بأدوار الجمود العلمي، وتاريخ استعصائه عن قبول كل جديد، فرأينا ان نصدر بها كتابنا هذا فان فيها من الحقائق التاريخية ما يندر وجوده في كتاب واحد . قال حضرته تحت عنوان (المنكرون) :

« عدد كبير من الناس مصابون بقصر نظر حقيقي في العقل، وقد صورهم (لوميير) أصدق تصوير بقوله أنهم يتخيلون ان الافق المحيط بهم هو نهاية العالم، فترى الحوادث الجديدة والآراء الحديثة تكسفهم وتذعرهم . فهم لا يريدون ان يتنبهوا لسير الدهر

•

للاشياء . اما تاريخ تقدم المعارف الانسانية فلديهم من الامور المهملة.

«وتظهر لهم جراءة الباحثين والمخترعين ومحدثي الانقلابات من الجرائم ويخيل اليهم بان النوع الانساني كان دائما على ماهو عليه الآن ، فلايتـذكرون عصر الحجر، ولا عهد اكتشاف النار، ولا زمن اختراع عمل البيوت والمركبات والسكك الحديدية ، ولا توالى الفتوحات العقلية، ولا استكشافات العلم، فترى فيهم للآن اثراً من وراثة اسلافهم الاسماك بل والحيوانات الرخوة، وتجد هؤلاء السادة المحترمين يتمكنون من الجلوس على كراسيهم ويظلون على تلك الحالة في راحة لايسبرها. اقل اضطراب ؛ وهم ليسوا اهلا لقبول مالا يفهمون ولا يطوف بخيالهم حالهم الحقيقي من انهم لايعلمون اقل شيء . لايعرفون بأن في ثني كل تعليل لاية ظاهرة من الظواهر الطبيعية مجهولا، فيكتفون بتغيير الالفاظ ليس الا .لماذا يسقط الحجر الان الارض تجذبه .مثل هـذا الجواب الواضح يشبع مطامعهم العلمية ، فيتوهمون انهم قد فهموا هذه المسئلة. والتلاعب بالتفسيرات المدرسية المقررة يفتنهم على نحو ما كان عليـه الحال في عهـد موليير. . . .

« في كل عصر، وفي جميع ادوار المدنية يصادف امثال هؤلاء الرجال البسطاء وهم في حالة هـدوء وسكون، ولـكن ليس بغير زهو، فينكرون بسلامة قلب جميع الاشياء التي لم يبحثوا فيها ويزعمون انهم يحكمون على النظام الكوني الذي لا يسبر لغور .مثلهم كمثل علتين في حديقة تتكلمان في تاريخ فرنسا او في بعد الشمس عن الارض.

«فلنعرض للقارىء حوادث من التاريخ، ولنأت ببعض الشواهـد على ما نقول:

« تحررت مـدرسة فيثاغوس من الآراء العامية على الطبيعة، وارتقت الى ادراك الحركة اليومية لكوكبنا الارضي، فنحت بفلك السماء التي لانهاية لهـا من ان تتكلف الدوران حول نقطة تافهة في كل اربع وعشرين ساعة. فلسنا في حاجة لان نقول بأن الرأى العام ثار على هذا الرأي الجليل،فلا يمكن ان يطلب الى الجيل ان يطير الى وكر النسر . ولـكن كانت قوة المعتقدات الراسخة بحيث منعت العقول الراقية

من قبول هذا الرأي حتى افلاطون وارخيذس، وهما العقلان اللذان يتألقان نوراً و كان من عداد المكذبين ايضا الفلكيان هيبارك و بطليموس . حتى ان هذا الاخير لم يتمالك نفسه من الاغراق في القهقهة من مثل هـذه الخزعبلة الفارغة . وقد وصف نظرية دوران الارض بأنها مضحكة للغاية . هذا التعبير قارص جدا . وكأننا نرى من هنا بطن كاهن صالح من كهان ذلك العصر يضطرب ويتلوى من دعابة مثل هـذه النبوة وهو يقول : ما اكبر هذا السخف ! الارض تدور ؟ لقد اصاب انفيثاغورسيين الخبل ، تلك ادمغتهم التي تدور »

ثم اخذ الاستاذ كاميل فلامريون يسرد تاريخ الاستكشافات العلميـة وما لقيه العلماء المكتشفون من المكافحات والاضطهادات . فذكر ان الفيلسوف الكبير سقراط قبض عليه وقتل بالسم لانه ترفع عن تصديق الخرافات التي كانت شائعة في زمنه . وان الفيلسوف اناجزاغور اضطهد وعذب لانه زعم ان الشمس اكبر من شبه جزيرة بلوبونيز ببلاد اليونان .

وجاء بعده غاليليه بالفي سنة فأحرق بالنار لانه قال ان الارض كرة حقيرة في هذه اللانهاية السماوية . ثم قال ما ترجمته حرفيا :

« وقد حضرت في ١١ مارس من سنة (١٨٧٨) تقديم الفونوغراف الذي اخترعه اديسون الى مجمع العلماء الفرنسي . فلما أدار مقدمه الآلة وتكلم الفونوغراف هب احد العلماء الكبار وهو المسيو (بويو) من مكانه وامسك بخناق الرجل وصاح في وجهه تعسا لك انا لا ننخدع لمشعوذ مثلك يتكلم من بطنه . وما هو اعجب من هـذا ان هذا العالم اعلن بعد هذه الحادثة بستة اشهر اي في جلسة ٣٠ سبتمبر لمجمع العلماء بأنه درس مسألة الفونوغراف (درساً مدققا) فرأى ان المسألة مسألة تدليس وان الصوت الذي يرن منه ليس منبعثا من الفونوغراف ولكن من بطن مقدمه . ثم قال : (أي العلامة بويو) ولا يعقل ان يستطيع المعدن محاكاة الجهاز الصوتي الشريف للانسان » فلم يكن الفونوغراف في نظره الا من الاوهام .

« ولما حلل الكيماوي الكبير (لافوازييـه) الهواء الى عنصريه الاوكسيجين

والازوت ثار عليه اكثر من عالم عظيم ، وانبرى له الـكيماوي الأشهر (بوميه) أحد أعضاء المجمع العلمي ، ومخترع الأريومتر ورد عليه بقوله :

« ان العناصر أو الاصول المكونة للاجسام قد اعترف بها وحقق منها الطبيعيون في جميع العصور وفي كل الامم . وليس من المحتمل ان توضع هذه العناصر التي عرفت منذ الفي سنة بأنها بسيطة ، في عـداد الأجسام المركبة ، كما انه ليس من المحتمل أيضا ان تعتبر حقيقية تلك الوسائل التي تقدم لنا لتحليل الماء والهواء ، ولا تلك الادلة المستحيلة (ولا نقول اكثر من ذالك) الداعية الى انكار وجود عنصري النار والتراب . فان الخواص المعترف بها لـهـذه العناصر تتعلق بجميع المعارف الطبيعية والـكيماوية التي تحصلنا عليها الى الآن . وقد صارت هذه العناصر قواعد لعدد لا يحصى من مكتشفات ونظريات تتبارى كلها في الوضوح والجلاء . وهذه المكتشفات والنظريات يجب أن ترفع منها كل ثقة اذا اعتبر ان النار والهواء والماء والتراب غير عناصر اصلية .

ثم قال كاميل فلامريون عقب هذا :

« كل الناس يعلمون اليوم بأن هذه الاربعة العناصر التي دوفع عنها بهذه الروح العظيمة من التقوى ، لا وجود لها ، وان الحق في جانب الـكيماويين العصريين بتحليلهم الهواء والماء . اما عنصر النار الذي كان يقول عنه بوميه ومعاصروه بأنه الاصل للمواد الطبيعية والحياة فلم يوجد الا في خيال اولئك الاساتذه .

والعالم لافوازييه نفسه ليس بريء من مثل هـذا الجمود العلمي ، فقـد كتب للجمعية العلمية بحثا مسهبا يثبت لها فيه استحالة سقوط الاحجار من السماء . وقد كانت تلك الاحجار وهي النيازك قد شوهدت في اماكن متعددة ورؤيت وهي ملتهبة ومع هذا كله اعلنت الجمعية العلمية بأن ذلك من الامور التي لا يتصورها العقل . وفي سنة (١٦٢٧) سقط نيزك يزن ثلاثين كيلو غرام في رائعة النهار رآه العالم (غاساندي) بعيني رأسه ولمسه وفحصه ونسبه لثورة ارضية مجهولة ، مع ان النيازك عرفت بعد

ذلك بأنهما بقايا كواكب متحطمة تمر بها الارض فتجذبها اليها ، فتسقط عليها من السماء .

« وقد كان الاساتذة الارسطاليسيون يؤكدون في عصر غاليليه أن الشمس لا يمكن ان يكون عليها كلف وقد ثبت ذلك بعدُ بالحس .

ولما رأى العالم (جالفاني) مكتشف الكهرباء بأن ارجل الضفادع التي كان علقها على قضبان الحديد في بيته قد اضطربت واتهمك في درس سبب ذلك ونسبه للقوة الكهربائية هزىء به الناس وسموه استاذ رقص الضفادع . فكتب يقول سنة ١٧٩٢ : « لقد هوجمت بطائفتين متعارضتين العلماء والجهلاء . كلتا الطائفتين تهزآن بي وتسمياني استاذ رقص الضفادع . ومع هذا فاني متحقق من أني قد اكتشفت احدى القوى الطبيعية »

« وفي هذا الوقت نفسه انكر المجمع العلمي والمجمع الطبي المغناطيس الانساني انكارا مطلقا وعلقا تصديقهما به على نجاح (جول كاوكيه) في استئصال سرطان ثدي لامرأة بدون بنج وبواسطة التنويم المغناطيسي وحده .

« ولما اكتشف هارفي الدورة الدموية هزئت به جامعة الطب وسلقته بالسنة حداد ،

« ولما قدم المركيز جيفروا سنة ١٧٧٦ مشروع عمل السفن البخارية رماه الناس بالبله وقالوا هل يتفق الماء والنار ؟ وعرضت الحكومة مشروعه على الجمعية العلمية لفحصه فقررت بانه خيال . فاشتد استهزاء الناس بالمخترع وغيروه بالالقاب . فنبغ عقبه (فولتون) وعرض مشروعه على اولي الامر فلم يصادف غير ما صادفه سابقه ، فرحل الى امريكا وهناك لقي بعض المساعدة بعد جهد جهيد .

« ولما اكتشف فيليب لوبون الاستصباح بالغاز نشر مشروعه فلم يأبه به احد ، وسخر الناس منه ومات صاحبه ولم يجد لنفاذه سبيلا ، وكانوا يردون عليه باستحالة وجود مصباح بدون فتيل . . . »

« ولما اكتشفت السكة الحديدية لنقل المسافرين والبضائع ثار الناس على المخترع

وعدّوه مخرقة ، وكتب المهندسون الفصول الطوال لاثبات ان المجلات تدور على نفسها ولا تسير على القضبان . وقام العالم الرياضي المشهور (اراغو) في مجلس النواب سنة (١٨٣٨) فأثبت فساد هذا المشروع وافاض في بيان جمود المادة وصلابة المعادن ومقاومة الهواء . وزعم ان هذا المشروع لو نجح افضى الي تقليل ايرادات النقل على الحكومة فتخسر بذلك مالا طائلا . ثم ختم خطبته بقوله : « لتحذر من المضي مع الاوهام فان مثلين متوازيين من الحديد (يريد القضبان) لا يغيران طبيعة أراضي فاسكونيا البور »

« وخطب السياسي الكبير (تيرس) في هذا الموضوع فقال : « انا اسلم بأن مشروع السكة الحديدية يكون من ورائه (بعض الفوائد) لنقل المسافرين اذا قصر ذلك على بعض الخطوط القصيرة جدا والمنتهية الي بعض البلاد الكبيرة كباريس . ولا يجوز عمل خطوط طويلة . . . .

«وقال الاقتصادى الكبير (برودون) : « ان من الآراء الساذجة المضحكة الزعم بأن السكك الحديدية تخدم في تسهيل تبادل الافكار »

« ولما استشيرت الجامعة الطبية الملكية في امر السكك الحديدية اجابت بانها ان تحققت توجب المضار الشديدة على الصحة العامة فتسبب الدوار للركاب والمشاهدين في الخارج ونصحت بعمل حواجز عالية خشبية تحيط بالسكك حيثما مدت (حتى لا يرى القطار احد وهو سائر)

« ولما اقترح عمل اسلاك تلغرافية بحرية بين اوروبا وامريكا في سنة (١٨٥٣) قام احد اقطابنا في علم الطبيعة العلامة (بابنيه) احد اعضاء المجمع العلمي وممتحن مدرسة الهندسة فكتب في مجلة العالمين يقول : انه لا استطيع ان اعتبر هذه الآراء من الآراء الجدية فان نظرية التيارات الكهربائية تستطيع ان تعطينا ادلة غير قابلة للنقض عن استحالة مثل هذا النقل للمخابرات ، حتى ولو اغفلنا التيارات التي تحدث من نفسها في سلك كهربائي طويل ، وهي تلك التيارات التي ثبت انها في غاية الحساسية في المسافة القصيرة الموجودة بين هوفر وكاليه (وهي لا تبلغ ثلاثين ميلا)

وأن الوسيلة الوحيدة لايصال العالم القديم بالحديث (أوربا بأمريكا) هو اجتياز مضيق بيرنج بدون المروج على جزائر فيروية واسلاندا وجروينلاندا ولابرادور !!

«وقد عاش العلامة الجيولوجي (ايلي دوبومون) السكرتير المستديم للمجمع العلمي والمتوفى سنة (١٨٧٤) طول حياته ينكر وجود الانسان الحجري بدون ان يعرف شيأ مطلقا في هذا الموضوع . مع ان صديق الفاضل (اميل ريفير) كان قد اكتشف الانسان الحجري سنة (١٨٧٢) واحضره الى دار الآثار بباريز ورآه كل انسان.

«وقد ابت الجمعية الملكية الانجليزية سنة (١٨٤١) نشر اهم مذكرات العلامة (جول) المشهور الذي اسس هو والعلامة (ماير) علم الترمودينا ميك . وقد سخر اللورد (بروغهام) بتوماس يونج الذي وضع هو والعلامة فرسنل نظرية تموجات الضوء .

« ولما رأى العلامة ماير الجحود الذي قابل به العلماء اكتشافه الخالد في المانيا اعتراه الجنون فرمي بنفسه من النافذة . والعلامة الكهربائي الكبير (اوهم) عدمجنونا عند قومه الالمانيين .

« ولما اكتشفت العدسات البلورية المقربة للابعاد رفض السناتو في هولاندا ان يعطي مكتشفها امتيازا لعملها بحجة ان الناظر بها لا يستخدم الا عينا واحدة . وبعد ذلك بخمسين سنة رفض العالم الفلكي الكبير ان يضع زجاجات مكبرة في آلاته لظنه انها تضر بضبط وتحديد مواقع النجوم . . . .

« وقد وضع صديقي الحكيم (أوجين نو) في مقدمة كتابه الذي اسماه (اشياء عن العالم الآخر) قوله :

« هذا هدية الى ارواح العلماء الذين ماتوا من حقة الامتيازات والشهادات والتشريفات والاوسمة ، اولئك العلماء الذين أنكروا دوران الارض وسقوط النيازك والكهرباء ودورة الدم والتطعيم وتموجات الضوء ومانعة الصواعق والداجيريوتيب

ولوة البخار والمحرك السفن والسفن البخارية والسكك الحديدية والاستصباح بالغاز والتنويم المغناطيسي . ثم ماهي اهديه الى الاحياء منهم والى الذين سيولدون ممن يجرون على عجلة من سبقهم في الحال وسيجرون عليها في الاستقبال »

« اني ارى أن من التحقير الشديد لهؤلاء العلماء ان اقدم صديقي (اوجين نو) وأرباً بنفسي عن كتابة مثل هذا الاهداء في رأس هذا الكتاب . ولكنني مع هذا انبه القارىء اليه واسمح بنشره لانه لايخلو من القيمة الفلسفية ، واضيف اليها متأسفا مؤرخا لهذه الظواهر بأن هؤلاء العلماء الرجعيين الذين يصادفون في كل مجال من مجالات العلم والفنون والصنائع والسياسة والادارة يتفق بهم من وجهة انهم يقفون عند حدود يتبين الناظر اليها مسافة التقدم .

« تبغ اوجست كونت وليتريه وأرادا تحديد الطريق التوالي الحسي فلما أرادا ان لايسلما الناس الا بما يرونه بأعينهم ويلمسونه بأيديهم ويسمعونه بآذانهم وان لا يحاولوا ادراك مالا يمكن ادراكه . وقد صارت هذه قاعدة العلم منذ خمسين سنة ·

« ولكننا بتحليلنا شهادات حواسنا وجدنا انها تخدعنا خدعا تاما . فانا نرى الشمس والقمر والنجوم تدور حولنا ، وهو ضلال مبين ، ونحس بأن الارض ثابتة وهو ضلال مبين أيضاً . ونرى الشمس تشرق فوق الافق والحال انها تحته ، ونحس بأجسام صلبة ؟ ولايوجد شيء من ذلك ، ونسمع اصواتا متناسقة ، مع ان الهواء لايحمل في الواقع الاتموجات ساكنة في ذاتها . ونعجب بنتائج النور والالوان التي تجلي في نظرنا المظهر البديع للطبيعة ، والحال انه لايوجد ضوء ولا الوان ولكن حركات اثيرية محضة بتأثيرها على عصبنا البصري تحيلها شعورات ضوئية . ونرى ارجلنا تحترق في النار على غير علم منا ، ونرى أن مستقر الشعور بالاحتراق موضع منا وحده ، ونجدنا نتكلم عن الحرارة والبرودة ، والحال انه لايوجد في الكون لا حرارة ولا برودة بل حركة فقط . وبناء على هذا فحواسنا تخدعنا في حقائق الاشياء حتى اعتقدنا ان الشعور والواقع ذيئان مستقلان .

« ليس عبثا كل مايقال فان حواسنا الخمس المنكبة تظهر أنها لاتشكل في

تميزها بالواقع فهي لا تشعرنا الا بعدد قليل من الحركات التي تؤلف حياة الكون ولاجل أعطاء القارىء فكرة من ذلك اردد هنا ما كتبته في كتابي المدعو (لومين) منذ ثلث قرن . قلت : « من آخر درجات احساسنا بالصوت المدرك باذننا في عدد من الذبذبات يبلغ ٣٦٨٥٠ في الثانية الى اول درجات شعورنا البصرى المدرك بعيننا في عدد من الذبذبات يبلغ ٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ اربعة كترليون في الثانية أيضا لا نستطيع ان ندرك شيأ فيما بين هاتين الدرجتين من الذبذبات . ولا مشاحة في ان بينهما مسافة بعيدة جدا لا تتأثر بذبذباتها حاسة من حواسنا . فاذا كان في وجودنا اوتار أخرى ، كعشر أو مئة أو الف ، فان نظام الطبيعة بتركيبها كان يظهر لنا على اتم واكمل حال ، فحواسنا تخدعنا من جهة ، وشهادتنا ناقصة كما رأيت من جهة أخرى . فليس لدينا ما نفتخر به ولا ما يحملنا على وضع فلسفة حسية مزعومة .

« نعم يجب علينا ان ننتفع بما عندنا فان كانت العقيدة الدينية تقول للعقل : « يا صاحبي الصغير ليس لك الا مصباح يهديك الطريق فأطفئه واتركني اتولى قيادتك » الا انه ليس هذا رأينا . نعم ليس لنا الا مصباح ضئيل ولكن اطفاءه يفضي الى العمى المطلق . فلنجعل مبدأنا وهو ان العقل او النقل يجب دائما وفي كل شيء ان يكون دليلا لنا . وليس وراء هذا الا العدم ، ولكن لا يجوز لنا ان نحصر العلم في هذه الدائرة الضيقة ولا نرجع الى (اجوست كونت) لانه مؤسس المذهب العصري ولانه يعتبر من اكبر العقول في جيلنا الحاضر . فقد حدد دائرة علم الفلك على ما كان يعلمه في زمنه ، وهو الامر الذي يعتبر من المستحيلات العقلية فقال « انا نعلم انه يمكن دراسة اشكال الكواكب وابعادها وحركاتها ولكننا لن نستطيع ابدا باية وسيلة من الوسائل دراسة تركيبها الكيماوى » وقد توفى هذا الفيلسوف سنة (١٨٥٧) أى قبل اكتشاف التحليل الطيفى بخمس سنين ، وهو الاكتشاف الذى عرفنا بالضبط التركيب الكيماوى للكواكب على حسب ترتيب طبيعتها الكيماوية

« ولقد كان مثله كمثل فلكى القرن السابع عشر الذين كانوا يؤكدون بأنه لا يوجد غير سبع كواكب ، ولم يعلموا ان الجهل بالامس يكون عين الحقيقة غدا »

ثم ذكر الاستاذ كاميل فلامريون ان العلماء ابسوا وجدهم للصابين بالجمود امام كل جديد ولكن بشاركهم الكاتبة في ذلك والتمس لهم عذرا ثم قال:

«ان استكشاف اشعة رنتجن حديثا وهو الاستكشاف الذي لم يكن يخطر ببال احد لغرابته في ذاته يجب ان يحذرنا بضيق مجال ملاحظاتنا العادية . فان الرؤية من خلال الاجسام الكثيفة في باطن صندوق، وتمييز الهيكل العظمي للذراع من خلال اللحم والثياب الكاسية له، لاشك انها من الامور المناقضة لحقائقنا العادية . هذا المثال هو على التحقيق افصح دليل على هذه البداهة العلمية وهي : من الامور المناقضة قبل التأكيد بان الحقائق تقف عند حد معارفنا وملاحظاتنا»

«ثم ان التلفون الذي ينقل الكلمة ينقلها لا بواسطة تيارات رنانة ولكن بواسطة حركة كهربائية، فاذا كنا نستطيع ان نتكلم من باريس الى مرسيليا بواسطة انبوبة فان صوتنا يلبث سائراً ثلاث دقائق ونصف قبل ان يصل الى الجهة المرسل هو اليها، وتلبث كلة مخاطبنا مثل هذه المدة أيضا اى ان الجواب المركب من كلة واحدة لا يصل الينا الا بعد سبع دقائق . هذا مالا يفكر فيه احد، ولكن التلفون ادخل في البعد عن التصور من اشعة رنتجن من جهة معارفنا بالاشياء السابقة عليه .

«لقد تكلموا عن النوافذ الخمس لمعارفنا وهي البصر والسمع والشم والذوق واللمس . ولكن هذه النوافذ الخمس لاتصلنا بالعالم الخارجي الا قليلا، ولاسيا النوافذ الثلاثة الاخيرة . فان العين والاذن تذهب الي بعدما . ويكاد يكون النور وحده هو الذي يصل بين عقلنا والوجود ولكن ماهو النور ؟ هو نوع من الذبذبة في الاثير بسرعة مفرطة والشعور بالنور ينتج على شبكية اعيننا على درجة من الذبذبات الاثيرية تمتد من ٤٠٠ تر ليون في الثانية الواحدة (وفيها يظهر الطرف الاحمر من الطيف الضوئي) الي ٧٥٦ تر ليون (وفيها يظهر الطرف البنفسجي) وعدد هذه الذبذبات قد قدر بضبط منذ زمان طويل، وفيما هو مثل هذا العدد وما بعده توجد ذبذبات في الاثير لاتدركها اعيننا فما بعد اللون الاحمر تحدث الذبذبات الحرارية المعتمة ، وفيما بعد البنفسجي تحدث الذبذبات الكهماوية الاشعة الكيماوية الممكن تصورها

بالفوتوغرافيا وهي اشعة ممتنة ايضا . ويبقى امامنا ذبذبات كثيرة غير هذه مجهولة عندنا

ثم قال بعد ايراده تحقيقات علمية لما سبق :

«الظواهر الطبيعية التي تحصل حولنا على الدوام تحدث تحت تأثير قوى غير مرئية لنا . فبخار الماء الذي له اكبر تأثير في اختلاف الاقاليم غير مرئي بالعين، والحرارة والكهربائية غير مرئيتين أيضا . والطيف الشمسي بتمثيله مجموع الاشعة المضيئة التى تحس بها شبكية العين اصبحت الاشعة المرئية بالعين ويعرفها الكافة اليوم. فاذا امررنا شعاعا شمسيا من خلال منشور زجاجي تحصلنا منه وهو خارج من ذلك المنشور على شريط من الاشعة ملون من الاحمر الى البنفسجي يخترقه عدد كبير من الخطوط

«أشهرها يدل عليه بالحروف من اول ا الى ح من الحروف الابجدية وتلك الخطوط هي خطوط الامتصاص الناتجة من المواد التي تحترق في الجو الشمسي ومن الابخرة المائية الموجودة في الجو الارضي . ويعرف منها الآن الوف مؤلفة فاذا وضعنا ترمومترا على يسار الطيف المرئي بعد الشعاع الاحمر نرى زئبقه يرتفع فيعرف ان هنالك اشعة حرارية لاتراها اعيننا . واذا وضعنا زجاجة فوتوغرافية على يمين الطيف فيما بعد البنفسجي رأيناها تتأثر فيعرف بذلك ان هنالك اشعة كيماوية شديدة الفعل محجوبة عنا . ثم اكاشفه لهذا الامر الهام وهو ان الاجسام غير المرئية يمكن ان تصير مرئية. فالاورانيوم وسلفات الكنين تصير مرئية في الظلام تحت تأثير اشعاع الاشعة التي هي بعد البنفسجي»

ثم قال :

«يرجع اننا نجد اشعة وكتين بين الدرجة ٥٨ و٦١ حيث الذبذبات الاثيرية تكون من ٧٦٤ ٧١١ ١٥٦ ٣٧٦ ٢٨٨٢٥٠ الى ٩٩٥٩٥٢ ٣٦٣ ٠٠٩ ٣٣٠٥٫٨٤٣

في الثانية الواحـدة وقد يكون عدد الذبذبات اكبر من ذلك . فيرى ان في هـذه الرتبة من الذبذبات يوجـد فراغات كبيرة او مواطن مجهولة ليس لنا عنها ادنى علم. فمن الذى يستطيع ان يقول ان هـذه الذبذبات لا تلعب دوراهاما في التركيب الوجودى العام؟

« ثم يقال الا توجد ذبذبات في الاثير اسرع من الدرجة التي ذكرناها »
ثم قال :

« يوجد في الحياة الارضية خصائص لم يكتشفها الانسان للآن وحواس لاتزال مجهولة لديه .فكيف يجد الحمام السياح والسنونو اعشاشها التى تركتها ؟ و كيف يعود الكلب الي بيته بعد ان يبعد منه عدة مئات من الكيلومترات فى طريق لم يعهده من قبل ؟ و كيف تستهوى الحية العصفور الى فمها ؟ و كيف يجذب البرص اليه الفراش بعد ان يوقعه فى خدر الخ الخ؟ وقد بينت فى كتاب غير هذا ان سكان الدنياوات الاخرى يجب ان يكونوا متمتعين بحواس مخالفة لحواسنا .

« ليس لنا علم مطلق بشيء من الاشياء فكل معارفنا نسبية اي ناقصة وقاصرة

« فالعقل العلمي يوجب علينا ان نحتفظ في انكاراتنا ونرى لنا الحق في ان نكون متواضعين، ولنقل مع اراغو« ان الشك دليل علي التواضع وما اضر بتقدم العلم الا ادعاء ولكننا لا نستطيع ان نقول مثل هذا القول من الانكار المطلق».

« ويوجد كذلك عدد عظيم من الحوادث لاتزال بعيـدة عن التفسير تختص بالعالم المجهول ، ومن هـذا الباب الحوادث التي سنتكلم عنها في هـذا الكتاب . فالتلباتيا اى الشعور عن بعـد وظهور اشباح الموتى ، وانتقال الافكار والرؤي في النوم، وفي حالة الانتقال النومي بدون استخدام الاعين لقرى ومدن وآثار، ومعرفة المستقبل من حادثة قريبة، والشعور بما هو آت، والانذارات الخارقة للعادة والحس بحوادث مستقبلة او الابلاء بواسطة الطرق على الاخونة (الترابيزات)، وحدوث

ضوضاء لا يمكن تعليلها ، وظهور أرواح في بعض البيوت ونقل الاشياء من أمكنتها ورفعها الى فوق ضد نواميس الثقل ، وحركة الاشياء وانتقالها بدون مس أو حوادث تشبه تجسد القوى (وهو مايظهر حالا لأول وهلة) والظهور الوهمي أو الحقيقي للارواح أو لنفوس من جميع الرتب ، وظواهر أخرى غريبة لاتزال بعيدة عن التفسير للآن كلها تستحق أن نطلع عليها وأن نوجه اليها اهتمامنا العلمي .

ثم قال :

« والذين يقولون : حاشانا أن نصدق هذه المستحيلات . لالا ، نحن لانصدق الا نواميس الطبيعة ، وهذه النواميس معروفة ، هؤلاء يشبهون قدماء الجغرافيين السذج الذين كانوا يكتبون على خرائطهم عند مايصلون في رسمهم الى جبل طارق هذه العبارة (هنا تنتهي الدنيا) ولم يعرفوا أن في تلك الشقة القريبة المجهولة يوجد من الارض ضعف ماكان يعلمه أولئك الجغرافيون المسرورون في ذلك الحين .

« كل مانعرفه من العلوم الانسانية يمكن أن يشبه بجزيرة صغيرة ، صغيرة للغاية عائمة بأوقيانوس لاساحل له » .

وقال في صفحة ٢٥٠ :

« المشاهدات الحسية تثبت وجود عالم روحاني محقق كتحقق العالم المادي المدرك بحواسنا الخمس » .

وقال هذا العالم الكبير أيضاً في صفحة ٨ من كتابه (القوى الطبيعية المجهولة) :

« لا أخفي عن نفسي بأن كتابي هذا سيثير ثائرة مناقشات واعتراضات طويلة ، ولا يستطيع أن يمنع غير الباحثين المستقلين . ولكن ماالقول المتقول المتفقة

المرة على سطح كوكبنا هذا ، وما اقل الميل الصحيح للاطلاع مجردا عن كل مصلحة ذاتية . كأني بجمهور قرائي يقولون : أي شيء في هذه المسئلة يوجب الاهتمام : اخونة (أي ترابيزات) ترفع عن الارض ، ومناضد تتحرك ، وكراسي تنتقل من مواضعها و بيانات تقفز ، وستائر تضطرب وطرقات تحدث بلا سبب معروف ، واجوبة توجه الى أسئلة عقلية ، وجل على عكسها ، وأيدي ورؤوس واشباح تظهر ، كل هذا من الامور التافهة او الهذيان التي لا يصح ان يلفت نظر عالم من العلماء . . . .

« اجل من الناس من قد تسقط السماء على رؤسهم فلا يتأثرون .

« اما انا فأجيبهم قائلا : ماذا تقول ؟ ألا يجدي شيأ في نظركم ان نطلع ونشاهد ونعترف بأنه توجد حولنا قوى لا تزال مجهولة ؟ ألا يعد شيأ يؤبه له عندكم ان ندرس طبيعتنا الخاصة وخصائصنا الذاتية ؟ ألا تستحق مثل هذه المسائل ان تكتب في برنامج المباحث ، وان نخصص لها ساعات من العناية ؟

ثم قال :

« اني كلما افكر في هذا الامر ادهش من ان دهماء الناس لا يزالون يجهلون هذه المسائل كل الجهل بينما قد عرفها ودرسها وقدرها حتي تقديرها وسجلها من منذ مدة مديدة جميع الذين تتبعوا حركتها بكل نزاهة في مدى هذه السنين الاخيرة » انتهى .

***

وقال العلامة الانجليزي الكبير السير وليم كروكس احد رؤساء المجمع العلمي البريطاني الحاصل على اكبر الالقاب العلمية ، وهو مكتشف اشعاع المادة ، قال من خطبة القاها في جمعية المباحث النفسية في ٢٩ يناير سنة ١٨٩٧ وكان اذ ذاك رئيسا لها (انظر مجموعة خطبه) قال :

اني لا أستطيع أن اؤكد لكم بأن أعمال ومنشورات جمعيتنا هذه فيما يختص بالتدوين الدقيق للمشاهدات الجديدة الهامة ، او بالفائدة التي تنتج من هذه المشاهدات

تؤلف مقدمة لاتقدر قيمتها لعلم هو ابعد غورا من اى علم ظهر على سطح الارض (تأمل) سواء فى كشفه عن حقيقة الانسان اوعن حقيقةالطبيعة، وعوالم اخرى ليس لنا عليها الى الآن اقل اثارة من علم»

...

وقال العلامة الشهير(هنرى سيد جويك) المدرس بجامعة كمبردج وهو يعتبر اكثر اخوانه العلماء تشككا وتثبتا .قال في خطبة رئاسة جمعية المباحث النفسية سنة ١٨٨٢ اى قبل اربعين سنة

« من الامور الفاضحة ان يتناقش الى الآن فى صحة هذه الحوادث (الحوادث الروحية) التي اعلن تصديقه بها عدد عظيم من الشهود الاخصائيين ، واهتم غاية الاهتمام بحل مسائلها عدد آخر منهم ،وان يحتفظ العالم العلمي مع كل هذا حيالها بالانكار الساذج ، ، . .

« كان الناس يظنون منذ ثلاثين سنة ان الاعتقاد بالميسمير يسم (التنويم المغناطيسي) وبالاخونة المتحركة يفسر تفسيرا كافيا بقلة التهذيب العلمي عند اهله ، فلما اكد رجال من اهل العلم المشهورون الواحد بعد الآخر صحة تجاربهم الشخصية،اظهر معارضوهم مهارة في تسفيه العقل فحط من مقامهم العلمي،فقالوا ان هؤلاء الباحثين غواة وليسوا من اهل تلك المهنة ، أو اخصائيون في بعض الفروع العلمية وليس لهم نظرات عامة ولاخبرة كافية ، أو مخترعون فقط يجهلون الاساليب الدقيقة للبحث العلمي،اوانهم ليسوا اعضاء في المجامع العلمية ، فاذا كانوا من اعضاء تلك المجامع اظهر المعارضون اسفهم لهذا وعدوه من الحوادث المحزنة

اننا في متابعتنا السير في هذه المباحث لا يجوز لنا ان ننتظر من شهادة واحدة مهما كانت كلمة قاطعة على العرف الانساني فان الانكار العلمى اخذ فى النمو من زمان بعيد ، وقد صارت له جذور قويه عديدة لاقبل لنا باجتثاثها اذاقدر لنا ذلك الا بابطالها بمجموعة من الحوادث المحققة ، فيجب علينا ان نعمل بلا فتور ، وان نزكم

البراهين على البراهين ،وان تضيف التجارب الى التجارب ، وان لا نطيل الجدال مع المنكرين الاجانب عن مباحثنا على قيمة تجربة من التحقيق ، ولكن لنعتمد على عدد هذه التجارب للحصول على الاقناع المطلوب» .

*

هذه كلمات من خطبة القاها الاستاذ سيد جويك في جمعية المباحث النفسية بلوندره فيما هي هذه الجمعية ؟ قال الباحث الفرنسي المشهور (جبريل دولان) في كتابه المسمى (الوساطة) صفحة ٧ :

« تأسست في انجلترة منذ سنة ١٨٨٢ (أي منذ خمسين سنه) جمعية المباحث النفسية جمعت بين اعضائها رجالا من الطراز الاول في العلم مثل الطبيعي المعظم (وليم كروكس) والمؤرخ الطبيعي المشهور (الفرد روسل ولاس) و (اوليفر لودج) وهؤلاء الثلاثة من اعضاء الجمعية العلمية الملكية . وكان يعاونهم اساتذة آخرون وبسيكولوجيون (علماء بالنفس) وغيرهم . فعملت مباحث مدققة في سنين طويلة اتخذت لها ادق التحوطات لتجنب اسباب الخطأ . وان الانسان ليجد في المجلدات الثلاثة والاربعين التي نشروها الى هذا اليوم مستندات عديدة خاصة بالتجارب والملاحظات المنتظمة والمحققة بعناية اولئك الباحثين الخ الخ »

نقول وهذه الجمعية لا تزال موجودة الى اليوم وقد بلغ عدد مانشرته من مجلداتها اربعين مجلدا . وقد تأسس في فرنسا في سنة ١٩١٩ مجمع علمي شبيه بها سيرد عليك ذكره في هذا الكتاب . ولم تبق في اوروبا وامريكا جريدة يومية ولا مجلة الا وتذكر المباحث النفسية بل منها ما خصتها كل يوم بعمودين كجريدة (السيكولو) الايطالية ، وسوادنا الاعظم لا يزال الى اليوم لا يدرى هل لهذه المسئلة وجود في العالم العلمي ،مع انها امس مسألة بالانسان ، واخصها به لانها تحيط التام عن وجوده الروحاني وخلوده في عالم بعد هذا العالم

وقد نشر المقتطف الزاهر في صدر جزئه الصادر في اغسطس من هذه السنة (١٩٢١) تحت عنوان (مناظرة في مناجاة الارواح) مقالا للمستر (مكايب) ناظر بها الكاتب الكبير الطبيب الدكتور (ارثر كونان دويل) في مسألة مناجاة الارواح وقد وعد المقتطف بايراد رد الدكتور كونان دويل في الجزء القادم الذي يصدر في سبتمبر فرأينا ان نأتي على ملخص كلام المستر(مكايب) لترى القراء مبلغ جهد المنكرين ليروا مثالا من وهن اساليبهم في دحض هذه المباحث . فقد قال :

«ان هذا المذهب ولد في الخداع وربي في الخداع وانتشر الآن في المسكونة والخداع وسيلته».

واستدل على قوله هذا بثبوت خداع الوسيطة (اوزابيا بلادينو) مع ان كاشف خداعها هو العلامة (هودجسون) من كبار علماء انجلترا ومن اعاظم المصدقين بمخاطبة الارواح .

ثم ذكر ان جميع الوسطاء خادعون واستشهد على ذلك بقول العلامة كاميل فلامريون والبارون شرنك فقال :

« اكتفي بالاستشهاد برجلين من الذين بحثوا في هذه الاعمال او المظاهر وهم يعتقدون صحتها، الاول فلامريون الفلكي الفرنسوي المشهور الذي بحث في هذا الموضوع بحثا دقيقا مدة خمس عشرة سنة فقد قال. «ان كل وسيط يستعمل وساطته الربح فهو غاش » والثاني البارون شرنك نوتزنيج من اعيان الاطباء في فينا فقد قال قلما قام وسيط الا وثبت انه يستعمل الغش . قال هذا القول بعد ان بحث في هذا الموضوع بحثا دقيقا جدا مدة ٣٠ الى ٣٥ سنة.

«وقال آخر من المعتقدين بصحة مناجاة الارواح ان ٩٨ في المئة من حوادث مناجاة الارواح الطبيعية المحسوسة خداع .

«فلست مبالغا فيما نسبته من الغش الى هذا المذهب » انتهى

نقول ما اغرب هذا التدليل . يستشهد المستر (مكايب) على ان هذا المذهب

مبني على الخداع بأقوال رجال يقول عنهم انهم من المصدقين بها ولم يرد أن يسألهم على أى دعامة أقاموا عقيدتهم به ما دام الامر كما ذكروا

نعم لم يسألهم المستر (مكايب) هذا السؤال مع انه أول ما يتبادر الى ذهن كل قارىء، لانه يعلم أنهم سيجيبونه بأنهم بنوا عقيدتهم على تجارب وسطاء غير مأجورين وقد ظهرت خاصة الوساطة في علماء أعلام واطفال رضع ونساء سريات من زوجات المحترمين وبناتهم. فظهرت فى المستر ستيد اكبر صحفى العالم وأشرفهم نفسا ، وفى العلامة فارلى الكهربائى الانجليزى ، وفي بنتي المستر ادموندس رئيس مجلس الشيوخ الامريكى، وفي امرأة الوزير الروسى الشهير اكزاكوف ، وفي ابنة البارون كير كوب الانجليزى وعمرها لم يتجاوز تسعة أيام (ايام) وفي القصصي الفرنسى الكبير ساردو . راجع ما كتبناه على الوساطة فى هذا الكتاب . وفي العالم اليوم الوف غير هؤلاء ممن لا يعقل فيهم الخداع والتدليس . فلو كان سأل المستر (مكايب) هؤلاء العلماء الاعلام الذين يقول عنهم انهم من المصدقين بمخاطبة الارواح لأخبروه بالواقع ، وليبنوا له الاصول التي بنوا عليها عقيدتهم .

ثم قال ان كاميل فلامريون بحث هذه المسائل مدة خمس عشرة سنة والحقيقة انه بحثها مدة خمس وخمسين سنة كما صرح بذلك في آخر كتاب له وهو (الموت وغامضته) التى تترجمة الآن تباعا فى الوجديات التي نصدرها كل خمسة عشر يوما (١) . فلو كان هذا مبلغ تثبت المستر (مكايب) فى مناظرته فانا نربأ به ان يخوض في موضوع ليس له المام صحيح بتاريخه .

ثم قال المستر (مكايب) :

« أرى ان مناظرى حسب ان من أقوى الادلة على صحة هذا المذهب ما ادعاه من كثرة عدد العلماء الذين اعتنقوه » .

هي مجلة كنا نودعها كل خمسة عشر يوما مقامة خيالية خلقية وننشر فيها مباحث علمية أخرى اشتراكها ١٠ قرشا فى السنة .

ثم استشهد المستر مكايب على فساد هذا القول بما كتبه الدكتور ستانلي هول رئيس جامعة كلارك ضد السير او ليفرولودج رئيس جامعة برمنجهام الذي ذهب الى أمريكا لنشر مذهب مخاطبة الارواح وهذا قول الدكتور ستانلي المذكور في السير او ليفرلودج :

« ان منظر اب يرى الناس قلبه الدامي على ابنه القتيل يجعله بمأمن من الانتقاد » يشير بذلك الى مقتل ابن العالم الانجليزي في الحرب، مع ان السير اوليفر لودج يعتقد بصحة الاتصال بالارواح قبل الحرب العامة بعشرات من السنين .

ثم أورد المستر مكايب قول الدكتور ستانلي المذكور وهو :

« ولكن تبشير السير اوليفر لودج بمناجاة الارواح احتقار للعلم »

ثم أشار الى الحياة التي تحياها الارواح بعد الموت حسب ما ادعاه السير اوليفر لودج (كما يقول) فذكر « انها تشبه حياة ضعاف العقول في البيمارستان » :

وختم الدكتور ستانلي مقالته بقوله :

« اني اؤكد انه لا يوجد ذرة من الحق في كل هذا الجبل الكبير من دعاوي مناجاة الارواح » انتهى .

أشار المستر مكايب الى هذه المقالة ليدحض قول السير ارثر كونان دويل مناظره ان من أقوى الادلة على صحة مذهب استحضار الارواح كثرة عدد العلماء القائلين به . فهل غاب عن المستر مكايب ان القول بوجود علماء كثيرين يقولون بصحة شيء لا ينفي وجود علماء آخرين ينكرونه ؟ وهل رأى عالم منكر لم ير شيأ من التجارب النفسية يدحض جيلا كبيرا كما يقول من تجارب قام بها علماء آخرون ورجال من كل طبقة في مدى جيلين متواليين ؟ وهل من العلم أن تكذب بشيء لم تعمل فيه تجربة واحدة بحجة انه لا يسيغه عقلك ، وانت تدرى قيمة هذا العقل ومبلغ رأس ماله العلمي في هذه اللانهاية المجهولة ؟

ان الرأي العلمي الذي يؤثر في هذه المسئلة حقيقة هو أن يتصدى لها عالم أو جمع علمي فيمضي في تجربتها وقتا كافيا ثم يكتب عن تجاربه تقريرا مفصلا يثبت فيه ما قام به من

التجارب وما اتخذ من الوسائل وما شوهد فيه من التدليس وما انتهي اليه الامر من عدم وجود شيء اصلا يعول عليه في هذا الباب

هذا هو الرأى الذى يؤثر في دحض هذه المسئلة، اما رجل ينظر الى مجموع التجارب التي حصلت فيراها مما لا يسيغها عقله... لغرابتها، (وما غرابتها الا لكونها تفوق علمه الناقص)، فيندفع للكتابة في نفيها منتقدا تجارب العلماء امثاله متهما اياهم بالانخداع والوقوع في حبالة المدلسين، فهذا ليس من العلم، وليس من الحكمة، وليس من الاخلاص، وهو عار سيسجله التاريخ على كل من يرتكبه كائنا من كان. كما سجل على (لافوازييه) تكذيبه بالنيازك، وعلى (بومية) تكذيبه لتحليل الهواء، وعلى (بوبو) تكذيبه لنظرية الفونوغراف وعلى (بابينيه) تكذيبه لامكان مد الاسلاك البحرية، وعلى (تييرس واراغو) استهجانهما لفكرة السكك الحديدية، وعلى المجمع العلمي البريطاني تكذيبه للدورة الدموية، وعلى كل المجامع العلمية تكذيبها بالتنويم المغناطيسي الخ الخ، أليس في تاريخ الجمود العلمي مزدجر لكل متهور يخيل اليه ان مساتير الوجود انحصرت في بضعة القشور العلمية التي حصلها له هذا العقل الناقص؟

ان هذه المباحث النفسية كما مرت من ادق الاختبارات العلمية الفردية، مرت كذلك من تمحيصات اكبر مجمع علمي اجتمع خصيصا لفحصها وتقديم تقرير عنها

وذلك انه تقدم طلب من جم غفير من الانجليز سنة (١٨٦٩) حيث كثر اللغط بهذه المسائل الى الجمعية الجدلية العلمية بانجلترة لاعطاء الرأى العام البريطاني رأيا حاسما فيها، فندب هذا المجمع ثلاثين من اعضائه لفحصها فحصا علميا، وتقديم تقرير تفصيلي عنها. وقد صدعت هذه اللجنة بالامر، وكان من اعضائها السير وليم كروكس من اكبر علماء الانجليز، والمستر الفريد روسل ولاس، مكتشف ناموس الانتخاب الطبيعي وقوانين النشوء والارتقاء، وهو بمعزل عن دارون فنسب المذهب الي الثاني بسبب سبقه اليه بشهادة بعض من اطلعهم دارون عليه. وقد وقع هذا التقرير في اكثر من خمسمئة صفحة ونشر في البلاد الانجليزية وترجم الى كثير من اللغات، ونحن ننقل من الطبعة الفرنسية التي بين ايدينا فقرات من خلاصته وهي:

«كل هذه الاجتماعات عقدت في البيوت الخاصة بالاعضاء لنفي كل احتمال في اعداد آلات لاحداث هذه الظواهر أو أية وسيلة من أي نوع كان .

«وقد عملنا تجارب في ضوء النار ماعدا اعدادا قليلا منها اقتضي شأنه الخاص ان نعمله في الظلام دقائق معدودة .

« وقد تحاشت اللجنة أن تستخدم الوسطاء المشتغلين بهذه المهنة في الخارج أو الذين يأخذون أجرا على عملهم هذا . فكان واسطتنا الوحيد احد اعضاء اللجنة (تأمل في أنه لم يكن معهم وسيط مأجور) وهو شخص جليل الاعتبار في الهيئة الاجتماعية وحاصل على صفة النزاهة المطلقة وليس له غرض مالى يرمى اليه ولا أى مصلحة في غش اللجنة.

« كل تجربة من التجارب التي عملناها بما امكن لمجموع عقولنا ان تتخيله عملت بصبر وثبات . وقد دبرت هذه التجارب في أحوال كثيرة الاختلاف واستخدمنا لها كل المهارة المكنة لاجل ابتكار وسائل تسمح لنا بتحقيق مشاهداتنا وابعاد كل احتمال لغش وتوهم .

«وقد بدأ نحو اربعة أخماس اللجنة التجارب وهم في أشد درجات الانكار لصحة هذه الظواهر (تأمل) وكانوا مقتنعين أشد اقتناع بانها نتيجة التدليس أو التوهم أو انها حادثة بحركة غير اراديه للعضلات . ولم يتنازل هؤلاء الاعضاء المنكرون اشد الانكار عن فروضهم الا بعد ظهورها بوضوح لا تمكن مقاومته وفي شروط تنفي كل فرض من الفروض السابقة وبعد تجارب وامتحانات مدققة ومكررة اقتنعوا مضطرين بأن هذه المشاهدات التي حدثت في خلال هذا البحث الطويل هي مشاهدات حقة لاغبار عليها » الخ .

نقول فهل هذا الرأى العلمي الناضج الذى هو نتيجة تجارب ثلاثين من اكبر علماء الارض في مدي ثمانية عشر شهرا بغير وسيط مأجور ولا تأثير من أي نوع كان يتأتي دحضه بكتابة مقالة يكتبها رجل مهما كانت منزلته لم يكلف نفسه تجربة هذه المسائل والتورط في مآزقها ؟

اذا جوز العقل ان ينخدع بحيل المدلسين عالم أو عالمان او عشرون عالما درسوا هذه المسألة علي انفراد فهل يجوز ان ينخدع بها مئات منهم لخصوصهم في كل بلد وان ينخدع

كذلك الوف مؤلفة من أطباء ومهندسين وأصوليين وماليين وصحفيين ومؤلفين ممن خبروا أساليب الخلق وعرفوا دخائلهم في مدى ثمانين سنة، وفي كل صقع من اصقاع الارض ؟

وهل يعقل ان ينخدع بها ثلاثون عالماً من اكابر علماء الانجليز ندبوا خصيصاً لفحصها وهم في أشد درجات الانكار لها ، فبحثوها بتيرو وسيطها جور في مدى ثمانية عشر شهرا واتخذوا لتمحيصها ماامكن لعقولهم الراقية من الوسائل والتدابير ؟

ماذا يزيد الناس اكثر من هذا الضمان على صحة مشاهدة من المشاهدات ؟

ان هذه الخوارق الروحية هي المسئلة الوحيدة التي لا يقبل ان يأخذها آخذ الا بعد أن يراها بعيني رأسه. ولو رآها الناس اجمعون الا واحدا منهم لظل ذلك الواحد منكرا لها حتى يراها . وهذا التنويم المغناطيسي الذي كافح العلماء الجامدين مئة سنة ثم تغلب عليهم وصار يدرس اليوم في جامعات الطب الكبرى ، لايزال في الناس من ينكره ولا يأبه به، فما قولك في الخوارق الروحية التي لا تعد عجائب التنويم المغناطيسي بجانبها شيئاً يذكر ؟

ألا إن هذا الجمود العلمي الذي يعتبره البعض من قوة العقل، ومن الألمعية هو شر مامني به هذا الانسان المسكين ، ولا ندرى متى يخلص من كابوسه ليسرع في ترقيه الى الغايات البعيدة التي اعد لبلوغها، مدفوعا بالقوى العلوية التي متع بها دون غيره من الكائنات الحية .

نحن نكره بل نرى من الشؤم عليه ان يجري وراء كل ناعق بخرافة ، ولسنا نرى به ان ينكر مايؤتى به حاصلا على كل الضمانات العلمية مما بحث على أدق الاساليب التجريبية وسريت عليه أشد الاصول التمحيصيه .

قال العلامة (جان فينو) مدير المجلة العالمية في بحث جليل نشره في مجلته في ثلاثة أجزاء متوالية من دسمبر سنة ١٩٢٠ الى ١٥ يناير سنة ١٩٢١ تحت عنوان (فتح علمي - الروح خالدة) مشيرا الى هذه المسائل الروحية قال :

« يكفي الانسان ان يلقي نظرة على الشواهد التي لا يحصى لها عدد مما قدم من

بعنايات مضاعفة ، ومراقبات شديدة الدقة ، ونشر في مطبوعات الجمعية الجدلية بلوندرة ليحني رأسه اجلالا لهذه الحقيقة الجديدة » .

وقال بعد ذلك :

« فالمنكرون حتى أعصاهم قيادا لا يستطيعون أن ينكروا وهم مخلصون في انكارهم انه توجد قوة نفسية تحدث ظواهر خارقة للعادة يزداد عددها يوما بعد يوم ولا يمكن النزاع في صحتها » انتهى .

وقال المستر (مكابب) في مقالته :

« أشرت آنفا الى ماقاله مناظري من انه يستطيع ان يذكر أسماء خمسين من الاساتذة في معاهد العلم الكبرى الذين فحصوا مظاهر تمناجاة الارواح واثبتوها . فاني أطلب منه ان يذكر لي عشرة فقط » .

نقول ان المستر مكابب عرّض نفسه لخصمه تعريضا غريبا فان مناظره لا يستطيع ان يذكر له اسماء خمسين فقط بل خمس مئة واني احيل القارىء الى ماقلته عن رجال العلم في هذا الكتاب لينظر اين يقع تحدي المستر مكابب في هذا الباب .

ثم أخذ المستر مكابب يناقش في حادثة طيران الوسيط (هوم) التي شهدها الارل كروفورد واللورد ادر والسكبتن ونعاولا اثبات ان الوسيط المذكور خدع هؤلاء الثلاثة الرجال رغما عن تأكيدهم ذلك وعن قول احدهم وهو السكبتن ون : (اني احلف ان هوم خرج من شباك ودخل من آخر) ، وأخذ يعيب على الدكتور كونان دويل قوله ان صحة هذه الحادثة اثبت من صحة الحوادث القديمة التي اتفق الناس كلهم على تصديقها .

وانا أعيب على المستر مكابب جرأته على رمي ثلاثة يوصفون بدرجة الرجال الذين ذكرناهم بالانخداع في حادثة عيانية من هذا القبيل لان هذا الضرب من الازراء بعقول الناس وخصوصا من الطبقة المذكورة يطمس اعلام كل حقيقة ولا أدري وهو كاتب ديني كيف يجمع بين هذا الافراط في التشكك وبين ايمانه بالتاريخ الديني الذي يكتب فيه .

ثم اخذ المستر مكايب يطعن في راحة كتابي السير اوليفر لودج والدكتور اوثر كونان دويل وهو يعلم انهما ليسا بالركنين الذين تأسس عليهما المذهب الروحاني . ولو كان هذا المذهب قائما على كتابين لفردين لما قامت له قائمة في العالم، ولحكم عليهما بالجنون المطبق في هذا العصر الحافل بأعلام الماديين .

والحقيقة ان هذا المذهب قام على تجارب اجراها مئات من العلماء وألوف من الاذكياء في مدى جيلين متواليين، وكان من اهم اركانه (اولا) قرار لجنة الجمعية الجدلية الانجليزية التي تألفت من ثلاثين عالما طبيعيا ودرست هذه الخوارق الروحية في مدى ثمانية عشر شهرا وبدون وسيط مأجور في بيوت اعضائها . و (ثانيا) مجاميع جمعية المباحث النفسية التي الفها علماء انجلترة من منذ سنة ١٨٨٢ ولا تزال قائمة للآن وقد جمعت من تجاربها اكثر من اربعين مجلدا ليس فيها حادثة واحدة غير ممحصة على الاسلوب العلمي الدقيق

على هذه الاركان القوية قام المذهب الروحاني وانتشر هذا الانتشار البعيد المدى، فهل يمكن ان تهدم كل هذه المجهودات العملية التجريبية مقالات كلامية، وتشكيكات لفظية من اناس اراحوا انفسهم من حيث تعب العاملون ؟ فلو كان العالم يتبع في سيره أمثال هؤلاء الذين جعلوا حظهم من العلم التشكيك في كل جديد، ورمي العاملين عليه بالبله والانخداع، لما مدت الخطوط الحديدية، ولا الاسلاك البحرية، ولا اكتشفت الكهربائية، ولا عد الاوكسيجين في المواد الكياوية، ولا عرفت الدورة الدموية، الى ماليه مما لا يمكن حصره . ولكن الانسانية تصغي قليلا لهؤلاء المشككين، ثم تلفظهم الى عالم الجامدين، وتجري خلف العاملين الى ما اعد لها من الغايات البعيدة.

***

هنا يجب علينا ان نلفت نظر القارئين الى امر جدير بالتنبه اليه وهو :

ان الباحثين في الخوارق الروحية قسمان : قسم السواد الاعظم، وقسم العلماء . فاما الاولون فيطيرون وراء كل ظاهرة روحية وينسبونها الى ارواح الموتى فيدعون انهم

خالطوا روح ارسطاليس وابن رشد وشوبنهور ونابليون، ويمنون بنقل هذا الكلام ونشره، وقد اتخذوا هذه للباحث دينا لهم لا يفترق عن الاديان الاخرى في شيء.

واما قسم العلماء فقد بحثوا في هذه الخوارق عقب شيوعها وانتشار القول بها ولهم غرض واحد وهو التدليل ببراهين محسوسة على انها قائمة على الغش والتدليس ، لانهم كانوا كلهم ماديين لا يتخيلون وجود عالم وراء المادة، ولا قوة غير قوتها الذاتية. فتبين لهم بعد إنعام النظر في تلك الخوارق أنها لا تعلل بالخداع، ورأوا أنهم حيال قوى مجهولة يجب الاعتداد بها ، والعناية بكشف القتام عن وجهها.

فأخذوا يعللونها بالعلل المادية في حيز النواميس المعروفة مع الانعام في دراستها ، فكانت تستعصي على تلك العلل ، وتظهر لهم وجوه اخرى لا يمكن تعليلها بقوى المادة ولا بقوة الانسان الطبيعية، ولا بالقوة التي سموها بالنفسية، وقد درسنا هذه التعليلات في الفصل الخاص بها من هذا الكتاب وبينا وجوه استعصاء هذه الخوارق عليها ، حتى انتهى بهم الامر الى القول بأنها تتعلق بقوة عاقلة غير قوى الحاضرين، لها قدرة على التكلم باللغات التي يجهلها جميع المجربين، وعلى الاتيان بما يعجزون عنه من الاعمال منفردين ومجتمعين ، وعلى التجسد والظهور أمام عينهم في مثل اجسادا لآدميين مدعية بانها ارواح المتوفين.

فوجد اولئك الباحثون أنفسهم حيال امر محسوس لا يمكن الشك فيه تدركه مشاعرهم وتسجله آلاتهم وتتأثر بمشهده حتى الحيوانات التي تكون معهم فرأوا أن تكذيب المحسوسات ضرب من الجنون فسلموا بوجود عالم روحاني بيد النورفيه بوالحية حياة عقلية عالية وقادرة على مالا يقدر عليه الاحياء المتجسدون .

ولكنهم رغما عن تأكيد تلك الكائنات العاقلة بانها ارواح الموتى واقامتها ادلة كثيرة على صحة ماتقول، كتكلمها بلهجتهم، واستخدامها تعبيراتهم، و كتابتها بخطوطهم وتوقيعها بتوقيعاتهم، لم تسمح لهم حيطتهم بالتسليم لها بما تدعيه لان كل هذه الامور مرجحات لا ادلة علمية مطلقة، فتوقف جمهورهم عن القول بانها ارواح الموتى، وذهب كثير منهم الى القول بانها روح الوسيط نفسه (وفي هذا ربح نسبي للمذهب الروحاني

لان هؤلاء ما كانوا يقولون بوجود روح على الاطلاق) ومال غيرهم الى القول بأنها ارواح مجردة موجودة في العالم ولكنها غير ارواح الآدميين ، وسلم جماعة منهم على رأسهم العلامة (الفردروسل ولاس) الطبيعي الانجليزي الكبير بأنها ارواح المتوفين. واستدل على ذلك بالمرجحات التي ذكرناها وزاد عليها قوله انها لو كانت من عالم غير العالم الانساني لذكرت ذلك ولو لبعض الباحثين ، ولما أجمعت في كل بلد على القول بأنها ارواح الميتين.

فاذ ذكرنا من الاسير تسمر او المذهب الروحاني او المباحث النفسية فلا نعني الا المباحث العلمية المجردة عن كل صبغة مذهبية ، والموافقة لخطة العلمية الرسمية ، أي اننا لا نجزم بأنها أرواح الموتى ، بل نرجح ذلك فقط ، ولا نعبأ بأي تجربة لا تأتينا على الاسلوب العلمي الدقيق.

هذا هو موقفنا وموقف كل متثبت ، فلسنا نذهب بادعاء الالهية الى ابعد ما يؤدي اليه الجمود ، كما يفعل المتحذلقون ، ولا ننزل من درجات الثقة الى حضيض نأخذ فيه بكل ما يقال من هذا القبيل كما يفعل الساذجون .

ومع هذا التوقف والتثبت فاننا نعلن على رؤس الاشهاد بأن العلم التجريبي قد اكتشف العالم الروحاني بأسلوبه العلمي المحسوس ، وشرع يدرسه على طريقته في درس عالم المادة ، وهذا عهد البشرية لم يكن يخطر ببال اجرأ الخياليين ، انتقلت به من دور الايمان بالغيب الى دور الايمان عن مشاهدة ، ولا تسل عما سيقضي على ذلك من القضاء على ما بقي في الانسان من الميول الحيوانية ، والرعونات البهيمية ، وما سيقوم عليه من الاصول الخلقية ، والكمالات الروحية في مستقبل ليس ببعيد ، فاذا كان الانسان كلف بالبحث عن السعادة من يوم وجوده على ظهر الارض فأعجزه وجد انها في شيء من اشيائها ، فسوف يجدها في هذا الفتح العظيم ، وسوف يجد فيه ما يحقرها في نظره إزاء سعادة اخرى ما كان يتخيلها في عهده القديم .

مقالة المقتطف

(نشر المقتطف في جزئه الصادر في دسمبر سنة ١٩١٨ ما يأتي تحت عنوان:)

البحث الفلسفي الحديث

من يطالع ما ينشر من الكتب والمقالات الفلسفية يجد ان اصحابها مالوا عن الطريقة العلمية الى الطريقة الروحية . والفلسفة تشمل مواضيع مختلفة تتفق كلها في صعوبة ادراكها فمنها ما تحققت قضاياه حتى صار يحق له ان يحسب بين العلوم الطبيعية، ومنها ما ابانت المعارف الحديثة انه من باب الاوهام والخرافات. ومما يدعو الى الاسف ان كثر اهتمام الناس كان موجها في السنوات الاخيرة الى هذا القسم من الفلسفة كما يظهر مما نشرناه من اقوال السر اوليفر لدج واضرابه من المعتقدين بمناجاة الارواح والتلبثي ما اشبه .

ولقد كانت الفلسفة دائما في عراك بين الذين يحكمون العقل والذين يحكمون العواطف . فان الانسان مفطور شديد الاميال الرغائب فاذا لم يثقف عقله التثقيف الكافي حسب رغائبه حقائق . يرغب في أمر فيعتقد انه حقيقة مقررة حتى اذا ابنت له خطأه رماك بالكفر او بسوء العقيدة او قال انك مادي لا تؤمن بشيء روحي . ولقد اثارت هذه الحرب رغبات شديدة لا يلام من ظهرت في نفسه وتملكتها . وهل تلام من كان ابنها فلذة كبدها في ميادين القتال اذا رغبت في التكلم معه او في مناجاة روحه وقلما تسلم انه اسلم الروح . لا نلام ولكن رغبتها هذه بقوّي عواطفها فتتغلب على احكام عقلها . اما العلم فغرضه اظهار الحقائق كما هي وعلى رجال العلم ان يرشدوا العامة حتى لا يصدقوا شيئا لمجرد رغبتهم فيه او لانه يطابق اميالهم . لكن المعتقدين بمناجاة الارواح غرضهم الاول اهمال العقل وارضاء العواطف

«من الكتب الحديثة التي ألفت في هذا الموضوع كتاب الدكتور مرسير خطأ فيه السر اوليفر لدج وبيّن انه على ضلال مبين على ماقاله هيو اليوت في مجلة «تقدم العلم» الانكليزية . ولم نطلع على هذا الكتاب حتى الآن ولكنا نرجح ان تخطئة المؤلف للسر اوليفر لدج جاءت مطابقة لتخطئتنا له في كل ما نشره في المواضيع النفسية سواء كان في كتابه خلود الانسان او كتابه عن ابنه رعند .

والدكتور مرسير من اشهر اطباء الامراض العقلية في هذا العصر وهو طبيب بيمارستان تشرنج كروس ببلاد الانكليز وقد قال قولاً يثقل وقعه على المعتقدين بمناجاة الارواح والتلبثي وهو ان الاشتغال بهما يؤدي الى اختلال العقل ويعرّض اصحابه للجنون . واستشهد لتأييد قوله بالدكتور روبرتصن مدير البيمارستان الملكي بادنبرج . وهذا يؤيد ما قلناه في مقتطف مارس سنة ١٩٠٦ «وهو» ان الذين يصدقون مناجاة الارواح ويمارسونها تضعف قوام العصبية رويداً رويداً وينتهي أمرهم الى الجنون» . والظاهر ان الذين فيهم ضعف خلقي ميالون الى تصديق السبرتزم ومناجاة الارواح وما كان من هذا القبيل

ومن الكتب الفلسفية الحديثة رسالة في الخلود لجماعة من الكتاب قال فيها هيو اليوت انها تدل على ان كتابها يعتقدون بان الحجاب الفاصل بين الدنيا والاخرى يمكن هتكه وان آراءهم مطابقة لرغائبهم . ولكنه رجح ان القارىء الذي يقرأ رسائلهم وهو غير معتقد اعتقادهم لايقنعه ما فيها من الادلة . والّف آخر كتاباً في التلبثي صحيحها وفاسدها اظهر فيه اسباب الفاسد منها اما الصحيح فلم يظهر اسباب صحته، ولعله رآه صحيحا لانه يميل لتصديق الاوهام فلم يبحث عن اسبابه البحث الكافي .

«هذا ونعيد ماذكرناه مراراً وهو ان الذين يدعون صحة مناجاة الارواح والتلبثي ويصدقونهما لايلزم ان يكونوا كلهم خادعين ولا ان يكونوا مخدوعين من غيرهم، بل يغلب ان يكون كثير منهم مخدوعين من تلقاء انفسهم اي ان ايهامهم

تسلط على عقولهم في هذه المسائل مع أنهم في غيرها يكونون من اذكى الناس عقلا عقـلا واكثرهم بحثا وتدقيقا. ومن هذا القبيل السر اوليفرلدج . ونحن نعرف رجلا كان اشهر الناس في العلوم الرياضية وحل غوامضها وتطبيقها ولكنه كان مع ذلك يصدق من الاوهام مالا يصدقه العامي

⁂

(نشر المقتطف هذه الكلمة فرددنا عليها في المقتطف نفسه بهذه المقالة الآتية)

المباحث النفسية

والفلسفة المادية

قرأت في مقتطف الشهر الماضي (دسمبر سنة ١٩١٨) مقـالا تحت عنوان (البحث الفلسفي الحديث) فرأيت ان ابدي ملاحظات عنت لي فيه رجاء تجلية الحقائق العلمية التي تنشدونها.

جاء في ذلك الفصل ان ماينشر الآن من الكتب والمقالات الفلسفية قد ميل به من الطريقة (العلمية) الى الطريقة (الروحية) وان اكثر اهتمام مناس كان موجها في السنوات الاخيرة الى هذا القسم من الفلسفة.

هـذا كلام صريح بان الميل العام اخذ يتجه غير الوجهة المادية في المباحث الفلسفية . وهو حادث جلل في تاريخ الفلسفة الاوروبية لايصح ان يهمل امره او ان يعلل تعليلا بنظرة عجلى ، فان أوروبا التي بلغت اشدها في المباحث المادية وذاقت ثمار جهادها فيها عدة قرون ، لاتظهر فيها مثل هذه الحركة اعتباطا ولكن لابد ان لها من علل جديرة بامعان النظر .

ثم جاء في تلك المقالة ان « المنقدين عناجاة الارواح غرضهم الاول اهمال العقل وارضاء العواطف »

وهو كلام يدل بصراحة على ان الباحثين في مسألة الروح مخرفون يجانبون الاسلوب العلمي الدقيق في ابحاثهم ولا يتوخون الا مشايعة ميولهم.

ثم جاء في ذلك المقال ان الذين يصدقون مناجاة الارواح تضعف قواهم العصبية رويداً رويداً وينتهي أمرهم الى الجنون.

ثم ذكر الكاتب لتلك المجلة ان الباحثين في هذه المسائل لا يلزم ان يكونوا كلهم خادعين أو مخدوعين، ولكن يغلب ان يكون كثير منهم مخدوعين من تلقاء أنفسهم، أي ان ميولهم تتسلط على عقولهم مع انهم في غيرها يكونون من اذكى الناس عقلا، واكثرهم بحثا وتدقيقا، ومن هذا القبيل السر اوليفرلدج، ثم قال ونحن نعرف رجلا كان من امهر الناس في العلوم الرياضية وحل غوامضها وتطبيقها ولكنه كان مع ذلك يصدق من الاوهام ما لا يصدقه العامي.

وهذا القول صريح الدلالة في ان جميع الباحثين في هذه المسألة لا يوثق باقوالهم وان السر او ليفرلدج وذلك الرياضي الجليل يكادان يكونان العالمين الوحيدين الذين يشار كان دهماء الروحيين في وساوسهم.

وبما اني من المتتبعين لحركة المباحث النفسية في اوربا وامريكا وقرأت اجل ما كتب فيها لجنة الباحثين أنفسهم، رأيت أن اوافي المقتطف ببحث وجيز في هذا الموضوع تجلية للحقيقة واعدا بالعود الي مثله كما سنحت لي فرصة. واني ما وقفت سنين كثيرة من حياتي العلمية لاستقصاء هذه المباحث الا لانها حادث جلل في تاريخ العلم العصري سيكون من اثره تعديل مزاج الفلسفة العصرية وتكميل بناء المدركات البشرية على المادة والروح معا

كيف نشأت المباحث النفسية

حدث في سنة ١٨٤٦ في قرية هيد سفيل من ولاية نيويورك بأمريكا ان اسرة رجل اسمه جون فوكس ازعجتها طرقات كانت تحدث في البيت الذي تسكنه فتجاسرت مدام فوكس ذات يوم وسألت ذلك الفاعل المستتر قائلة هل

انت روح؟ واتفقت معه على ان يكون علامة الاثبات طرقتين وعلامة النفي طرقة واحدة . فاجابها بطرقتين. ثم مازالت تسأله وهو يجيب بواسطة الطرق حتى علمت منه انه روح رجل كان ساكنا بهذا البيت قتله جاره ودفنه فيه ثم سلبه ماله ولم تهتد الحكومة اليه . فاسرعت مدام فوكس باخبار البوليس والنيابة فحضر رجالها واخذوا كل حيطة وتسمعوا الطرقات على طريقة صاحبة البيت وفهموا منها مافهمته .فصعدوا الى الحفر في المكان الذى دلت عليه الروح فوجدوا جثة القتيل وكان من أثر ذلك اهتداؤهم الى القاتل.

هدأت روح القتيل ولكنها ظلت تزور بنتي المستر جون فوكس حتى آنستا بها وحضرت ارواح اخرى ادعت انها ارواح موتى آخرين، وتحسنت طريقة التفاهم بينهما وبين هذه الكائنات،فجعلت على هذه الطريقة وهي:ان تقرأ واحدة منهما الحروف الهجائية فتطرق الروح عند الحرف المراد كتابته طرقة فتكتب الاخرى ذلك الحرف ثم تعيد الاولى سرد الحروف فتطرق الروح عند الحرف المراد كتابته طرقة ثانية وهلم جرا . ثم تجمع تلك الحروف وتقرأ.

فجاءت تلك الروح ذات يوم ورجت الاختين ان تعلنا بانهما مستعدتان لاشهاد الناس خوارق تثبت لهم وجود الارواح في أكبر مكان للمحاضرات في نيويورك. فأبت البنتان ذلك اشد اباء خشية من سوء القالة واتهامهما بالشعوذة . فاجابتهما الروح بانها تصر على ذلك لانها تريد ان تنتهز هذه الفرصة لتثبت للناس صحة خلود النفس،قائلة انها ما تجشمت الاستئناس بهما الى هذا الحد الا لهذه الغاية . فاصرت البنتان على الاباء والامتناع . فانذرتهما الروح بانهما ان بقيتا على اصرارهما ذهبت ولم تعد . فلما استمر اصرارهما ذهبت كما قالت ولم تعد البنتان تسمعان شيئا. فحدث لهما من جراء ذلك كدر عظيم لانهما كانتا قد انستا بتلك الروح وجعلتا التكلم معها من اكبر المسليات لهما. فلم يسعهما اخيراً الا القبول ولكنهما شرطتا ان يكون العمل في الصالونات الكبيرة لبعض البيوت ثم تتدرجان من ذلك الى قاعة المحاضرات الكبرى . فأخذ الابنتان تحضران في بعض تلك الصالونات امام جمهور من العلماء

والمفكرين فتحدث خوارق عديدة رغماً عن كل ما يتخذ من التحوطات. ثم اعلنتا التحضير في قاعة المحاضرات الكبرى فشهد هذه الخوارق جم غفير من الناس وكثر التحدث بها في كل ناد

فكان القاضي ادموندس رئيس مجلس الشيوخ بأمريكا من اسرع الناس الى بحث هذه الخوارق، فاعتقد صحتها وكتب فيها بحثا مستفيضا ، فحملت عليه الجرائد حملات عنيفة، ففضل أن يستقيل ويخدم الحقيقة على ان يبقى في وظيفته مقيداً بتقاليدها فكان من أكبر العاملين على نشر هذه المباحث .

ثم تلاهُ الاستاذ (مابس) معلم علم الكيمياء بالمجمع العلمي فانتهى امره بتصديقها ونشر مباحثه على رؤوس الاشهاد.

فحذا حذوه العلامة روبيرت هير واطال البحث والتنقيب فظهر له صدق نظر صاحبيه فوضع كتابا جليلا اسماهُ (الابحاث التجريبية على الظواهر النفسية).

فكان من اثر هذه الكتابات فيه ان نشبت حرب قلمية بين الباحثين فلم يبق عالم ولا كاتب في الولايات المتحدة الاخاض غمارها، وانتقلت الحركة الى انجلترا فانتدب العلامة الكيماوي الكبير وليم كروكس لبحثها مع بعض الوسط، الانجليز فاتضح له انهُ حيال قوى كبيرة من قوى النفس كانت مجهولة، فكتب في ذلك كتابا دعاه (مباحث على الظواهر النفسية قال) فيه :

«بما اني متحقق من صحة هذه الحوادث فمن الجبن الادبي ان ارفض شهادتي لها بحجة ان كتاباتي قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم ممن لا يعلمون شيئا في هذا الشأن ولا يستطيعون بما علق بهم من الاوهام ان يحكموا عليها بأنفسهم، اما انا فسأسرد بغاية الصراحة ما رأيته بعيني وحققته بالتجارب المتكررة ».

ولما تولى هذا العالم رياسة الجمعية الملكية اشار في خطابة الرياسة الى المسائل النفسية وقال انه مضى عليه في بحثها ٣٠ سنة وان معارفه قد زادت فيها وانه سينشر عنها كتابا جديدا وقد نقل المقتطف عن هذه الخطبة .

وكان من السابقين الى بحث هذه المسئلة العلامة الكبير الفرد روسل والاس .

مكتشف مذهب النشوء والارتقاء مع دارون في وقت واحد فوضع فيها كتابين جليلين يسمى احدهما (خوارق العصر الحاضر) ويدعى الثاني (الدفاع عن الاسبرتزم) وقد قال في الاول ما نصه :

« لقد كنت ملحدا بحتا مقتنعا بمذهبي تمام الاقتناع ولم يكن في ذهني محل للتصديق بحياة روحية ولا بوجود عامل في هذا الكون كله غير المادة وقوتها ، ولكني رأيت ان المشاهدات الحسية لاتغالب ، فانها قهرتني واجبرتني على اعتبارها حقائق مثبتة قبل ان اعتقد نسبتها الى الارواح بمدة طويلة . ثم اخذت هذه المشاهدات مكانا من عقلي شيئا فشيئا ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية ، ولكن بتأثير المشاهدات التي كان يتلو بعضها بعضاً على صورة لايمكن تعليلها بوسيلة أخرى ».

وممن عني ببحثها من كبار العلماء العلامة الايطالي الكبير (سيزار لومبروزو) مكتشف علم الجرائم فانه بعد ان رمى المصدقين بها بالجنون وكتب عنهم فصولا انتقادية في مؤلفاته ، عاد فبحث هذه الخوارق مع العلامتين كاميل فلامريون الفلكي المشهور والاستاذ شارل ريشيه العضو بالمجمع العلمي الفرنسي ومدير الجريدة العلمية والمدرس بجامعة الطب الباريزية وألف في ذلك كتاباً قال في مقدمته :

« لم يكن أحد أشد مني عداء للاسبرتزم بحكم تربيتي العلمية وميولي النفسية ، وكنت أعتبر من البديهيات العلمية ان كل قوة ليست الا خاصة من الخواص المادية ، وان كل فكر وظيفة من الوظائف الحية . وكنت أهزأ دائما من الأخونة المتكلمة . ولكن غرامي باظهار الحقيقة وتجلية الحوادث المشاهدة قد تغلب على عقيدتي العلمية.

ومن كبار العلماء الذين درسوا هذه المسألة درساً مدققا الاستاذ هودسون والاستاذ ميرس المدرسان بجامعة كمبردج ، وستنتون موزس المدرس بجامعة اكسفورد والسير جون كوكس المشترع المشهور ، والاستاذ باركس الجيولوجي ، والمستر غلادستون والمستر بالفور وزير الخارجية لانجلترا الحاضر ، والعلماء سيدجويج وبودمور وبلربيت وغارني وكلهم من الانجليز .

أما من العلماء الفرنسيين فنذكر شارل ريشه وكاميل فلامريون المتقدم ذكرهما والدكتورين ماكسويل وبيرجانيه والرياضي الكبير مدير مدرسة الهندسة الفرنسية البير دوروشاس والدكتور باراديك.

ومن الالمان العلماء زولنر الفلكي وفيشنر وويبر والترس.

ومن الامريكان شارل وليم اليوت رئيس جامعة هارفارد ووليم جيمس استاذ علم النفس بجامعة هارفارد وهزلوب استاذ العلوم العقلية بجامعة كولومبيا ووليم ليوبولد استاذ الفلسفة بجامعة بنسلفانيا.

كل ماذكرناهم من أقطاب العلم الرسمي وكانوا ماديين لايعتقدون بشيء غير المادة، وكتبهم بين ايدينا، ولوشئنالملأنا من أسماء أمثالهم صحفا عديدة وانما اكتفينا بهذا القدر للادلال على عظم خطر هذه المباحث الجديدة. ولم يحصل لواحدمنهم جنون وقد مضى على بعضهم في البحث اكثر من نصف قرن وجميعهم شاغلون لمناصبهم العالية من مجتمعاتهم.

قال الفيلسوف جان فينو مدير مجلة المجلات الفرنسية فى مجلته (عند ذكر هذه المباحث فى مجلد سنة ١٨٩٥ وبعد سرده عدداً من العلماء المشتغلين بها) :

« لايصح ان يفترض انهؤلاء الرجال يستخدمون الغش والتدليس لانجاح الخرافات التي حطت كثيرا من العظمة الروحية . كما انه من الصعب ان نتهم هؤلاء العلماء بالسذاجة فان دقتهم الشديدة في التجارب العلمية هي اشهر من ان تذكر ».

وقال الاستاذ (بينيه) في كتابه (تحولات الشخصية) في صفحة (٢٩٨) بعد ذكره بعض التجارب الروحية :

« وهذه البراهين كافية لان يتمكن منه ـ كالاسبرتزم من ادهاش الناس اجمعين وكسب الوف مؤلفة من المصدقين ».

وقال العلامة البسيكولوجي الشهير (بير جانيه) في كتابه (الحركة النفسية الذاتية) صفحة (٣٧٦) وما بعدها :

« المذهب الذي اوجزنا الكلام عنه هنا يستحق درسا مدققا ومناقشة اصولية.

وان التشكك والازدراء الذين يحصلان على نكران مالا يفهم وعلى تزداد كلمتي غش وتدليس دائما وفي كل مكان،ليس لهما مكان هنا ولا حيال ظواهر المناطيس الحيواني. فان الحركة التي دفعت الى تأسيس خمسين جريدة في اوروبا وحملت على اعتقادها عدداً عظيما من الناس لايصح ان تعتبر قليلة القيمة».

وقال الاستاذ شارل ريشيه العضو بالمجمع العلمي الفرنسي والمدرس بالجامعة الطبية بباريز في مجموعة العلوم النفسية لسنة (١٨٩٣) صفحة ٣٤٩ :

« لا يمكن ان مثل هذا العدد العظيم من الرجال الممتازين في انجلترا وامريكا وفرنسا والمانيا وايطاليا يقعون تحت تأثير الانخداع الغليظ الثقيل . فان كل ماوجه اليهم من الاعتراضات قد فكروا فيه وتناقشوا عليه ، ولم يزدهم احدعلماء،وكلما عرضوا مسألة المصادفات الممكنة والتدليس وجدوا انهم قد فكروا فيها قبل ان يعارضوا بها حتى اني لا استطيع ان اتوهم ان اعمالهم كانت عقيمة، اوانهم قد تأملوا وجربوا في اوهام خداعة » .

وقال الكاتب الفرنسي المشهور (جبرييل دولان) في كتابه (مباحث على الوساطة) :

« اننا نعتقد انه متي اكد رجال من درجة روبرت هار ومابس والقاضي ادمون بأمريكا وكروكس وولاس ولودج بانجلترا واكزاكوف وبوتلوف في روسيا وفيشنر وزولنر في المانيا وجيبيه بفرنسا – قلنا متي اكد رجال من هذه الدرجة ومعهم عدة الوف من المجربين انهم شاهدوا الحوادث المذكورة آنفا وانهم راقبوها بعناية فاننا نعتقد ان لهذه المشاهدات وجوداً حقيقيًا وانها خلت من ذلك الحين الى المجال العلمي ».

(ايهمل الباحثون في هذه المسئلة العقل)

(ليرضوا العواطف؟)

اكثر العلماء الذين بحثوا في هذه المسئلة لم يدفعهم اليها الآحب فضح استار المشعوذين فاستخدموا لذلك ادق الاساليب العلمية، والآلات الكشفية، فانتهي

امرهم باعتقاد سلامتها من كل تدليس .

ولما شاع ذكر هـذه المباحث في انجلترا ثارت لها الخـواطر وخشي المتنورون من عودة دولة الاوهام البائدة الى العلم والفلسفة فرفع عدة الوف منهم طلبا الى الجمعية العلمية لتبدى للامة رأيها في هذه المسألة. فاهتمت تلك الجمعية بالامر وعينت لفحصها لجنة مؤلفة من ثلاثين عالماً منهم روسل ولاس ووليم كروكس وتندلوالورد افبري وغيرهم ، فقامت هذه اللجنة بما عهد اليها في ثمانية عشر شهراً وعقدت للبحث والتجربة اربعين جلسة ورفعت عن ذلك تقريرا مطولا وقع في مجلد ضخم ترجم الى اكثر اللغات جاء منه ما يأتي :

« عقدت هذه اللجنة اجتماعاتها في البيوت الخاصة بالاعضاء لاجل نفي كل احتمال في اعداد آلات لاحداث الظواهر او اى وسيلة من اى نوع كانت .

« وقد تحاشت اللجنة ان تستخدم الوسطاء المشتغلين بهذه المهنة او الذين يأخذون اجراً على عملهم هذا ، فقد كان واسطتنا احد اعضاء اللجنة وهو شخص جليل الاعتبار في الهيئة الاجتماعية وحاصل على صفة النزاهة المطلقة وليس له من غرض مالي يرمي اليه ولا أي مصلحة في غش اللجنة .

« كل تجربة من التجارب التي عملناها بما امكن لمجموع عقولنا ان تتخيله من التحوطات عملت بصبر وثبات . وقد ديرت هـذه التجارب في احوال كثيرة الاختلاف واستخدمنا لها كل المهارة الممكنة لاجل ابتكار وسائل تسمح لنا بتحقيق مشاهداتنا وابعاد كل احتمال لغش اوتوهم .

« وقد اكتفت اللجنة في تقريرها بذكر المشاهدات التي كانت مدركة بالحواس وحقيقتها مستندة الى الدليل القاطع .

« وقد بدأ نحو اربعة اخماس اعضاء اللجنة تجاربهم وهم في اشد درجات الانكار لصحة هذه الظواهر وكانوا مقتنعين اشد اقتناع بانها كانت إما نتيجة التدليس او التوهم او أنها تحدث بحركة غير عادية للعضلات . ولم يتنازل هؤلاء الاعضاء المنكرون البتاية عن فروضهم هذه الا بعد ظهور المشاهدات بوضوح لا يمكن مقاومته وفي شروط

تنق كل فرض من الفروض السابقة وبعد تجارب وامتحانات مدققة مكررة فاقتنعوا رغما عنهم بأن هذه المشاهدات التي حدثت في خلال هذا البحث الطويل هي مشاهدات حقة لاغبار عليها . الخ الخ »

هذا بعض ماورد في نتيجة ذلك التقرير والقارىء يرى ان خوض ثلاثين عالما انجليزيا من اعضاء الجمعية الملكية في بحث هذه المشاهدات لم يكن الدافع اليه اهمال العقل وارضاء العواطف ولكن تهدئة ثورة الخواطر . وهذا التقرير الذي هو حادث جلل في تاريخ العلم العصري يعتبر فاتحة عهد جديد لتكميل الفلسفة وتحليتها بما تجردت عنه من القسم الروحي تحت تأثير الفلسفة المادية .

ومما يجب التنبيه اليه ان جل الذين يكذبون بهذه المباحث لم يقرأوا فيها كتابا واحدا ولم يلموا بتاريخها وأدوارها الى حد يسمح لهم بالحكم عليها . ومنهم من عمل فيها تجارب ناقصة أو وقع تحت طائلة بعض المدلسين وكثير ماهم في كل مجال من مجالات العلم والعمل . فهبوا يصيحون أن جميع التجارب تدليس في تدليس .

لو كان الذين يتولون هذه الحركة بعض العامة أو جماعة من كتاب الاقاصيص لما أعرناها أقل التفات ولكن العاملين فيها هم أعلم علماء الارض وما كنا نعبأ بهم أيضا لو كان عددهم محصورا في عقد أو عقدين وكنا قلنا كما يجوز الانخداع على واحد يجوز على عشرة أو عشرين ولكن عددهم قد تجاوز حد الاحصاء . فهم يعدون بالالوف ومنتشرون في كل بلد متمدن وكتبهم بين أيدينا مفصلة تجاربهم كل التفصيل مما لا سبيل الى الزراية عليه .

ثم لماذا يستنكر البعض امر هذه المباحث وهل الغرض منها الا اثبات شيء أجمع العالم على القول به قديما وحديثا وهو وجود الروح وخلودها بعد الموت ؟

نعم كانت الفلسفة المادية قد تشككت في هذه المسألة وعدتها من بقايا الخرافات السابقة ولكن ليس في الارض فيلسوف يقول بأن المذهب المادى قد

وصل الى الدرجة التي ليس وراءها غاية، بل هو اليوم وقد انهـدم ركن الجوهر الفرد، وثبت تحلل المـادة واستحالتها الى قوة ، قـد فقد اساسه الذى كان يعتمد عليه .

لقد حاربت الفلسفة المـادية التنويم المغناطيسى مئة سنة وعدت المشتغلين به مخرفين، ثم اضطرت لاعتباره فرعامن العـلوم الرسمية . وهذه الفلسفة عينها اليوم تحارب المباحث النفسية بنفس السلاح الذى حاربت به التنويم المغناطيسي ولكن هيهات فقد خرج الامر من يديها بعد مافقدت سلطانها علي العقول بثبوت تحلل المادة وبعد ماشهد الوف من العلماء المحققين بحقية المشاهدات النفسية . فالاولي باشياع تلك الفلسفة العتيقة ان يتلافوا الامر ويوفقوا اصولهـا على مافتح الله به على الناس من المباحث الجديدة، لان من اخص صفات العلم العصرى متابعة طريقه فى التقدم لا الجمود علي اصول قديمة ثبت بالامتحان انها ضيقة حرجة لاتجمع بين اطراف الحركة العلمية الحاضرة

...

هذا وقد تكونت في لوندره منذ سنة ١٨٨٢ جمعية دعيت باسم جمعية المباحث النفسية جمعت بين اعضائها خـيرة علماء الانجليز والفرنسيين والامريـكان، وكان الغرض من تأسيسها ان تكون وصلة بين العلم الرسمى وهذه المباحث ، فـكان من تأثير هذه الجمعية صبغ هذه المسئلة بصبغة علمية بحتة لتسهيل دخولهـا الى العلم الرسمى ، وسنأتي على اسماء اعضائها ونتيجة تجاربهم في الجزء المقبل من المقتطف ان شاء الله .



جمعية المباحث النفسية

في اوروبا وامريكا

(نشرها المقتطف في جزئه الصادر في فبراير سنة ١٩١٨ ما يأتي)

وعدنا في مقالنا السابق هنا ان نأتي على تفصيل عن الجمعية النفسية التي تألفت في اوروبا وامريكا للبحث عن معالم العالم الروحاني فنوفي اليوم بما وعدنا. واحسن اسلوب نتبعه في ايراد ما نريده هو ان نأتي به بلسان العلماء الاوروبيين فنترجم ما كتبوه في مؤلفاتهم عنها.

قال الاستاذ (وليم جيمس) العضو بالمجمع العلمي الفرنسي ومدرس علم النفس بجامعة هارفرد بالولايات المتحدة في كتابه (ارادة الاعتقاد) صفحة ٣١٣ وما بعدها .

ان جمعية المباحث النفسية التي يعتد عليها في انجلترة وأمريكا قد سمحت بان يلتقي العالمان العلمي والروحاني في مجال واحد . واني اعتبر ان هذه الجمعية مهما كانت وظيفتها محدودة سيكون لها نصيب كبير في ترتيب المعارف الانسانية. فلهذا استحسن ان افضي الى القارىء بنتائج اعمالها بايجاز فاقول:

« اذا صدقنا الجرائد واوهام الصالونات خيل لنا ان الضعف العقل وسرعة التصديق هما الرباط المنوى الجامع بين اعضاء هذه الجمعية، وان حب العجائب هو الروح المحرك لها . ومع هذا فيكفي ان نلقي نظرة واحدة على اعضائها لدحض هذه التهمة . فان رئيس هذه الجمعية الاستاذ سدجوك *Sidgwick* المعروف بانه اشد الناس شكية في النقد واعصاهم قياداً في الشك بجميع البلاد الانجليزية ووكيلاها المستر ارثر بلفور والاستاذ ج .ب. لنجلى سكرتير المجمع الشمسوني :

ويمكن التشويه من اعضائها العاملين بالاستاذ ريشيه الفزيولوجي الفرنسي الخطير . وتشمل قائمة اعضائها رجالا كثيرين آخرين كفاءتهم العلمية اشهر من نار على علم . فاذا طلب الي ان اعين جريدة علمية تكون مصادر اغلاطها ممحصة بادق الاساليب، فاني اتوه بمحاضر جمعية المباحث النفسية . فان الفصول الفزيولوجية التى تنشرها الجرائد الخاصة بهذا العلم لا تبلغ في دقة النقد مبلغ دقة هذه المحاضر المذكورة . حتى ان صرامة الاساليب الكشافة التي طبقت منذ عدة سنين على شهادات بعض الوسطاء كانت بحيث توجد اختلاف الآراء في باطن الجمعية نفسها ».

وقال البحاثة الفرنسي المهندس جبريل دولان في كتابه الوساطة صفحة ٧ :

«قد تأسست في انجلترة منذ سنة ١٨٨٢ جمعية المباحث النفسية فجمعت بين اعضائها رجالا من اعيان العلم يعتبرون في الطبقة الاولى، مثل الطبيعي العظيم وليم كروكس والمؤرخ الطبيعي المشهور الفردرسل والس واوليفر لودج، وهؤلاء الثلاثة من اعضاء الجمعية العلمية الملكية وكان منهم اساتذة وبسيكولوجيون (علماء بالنفس) وغيرهم فعملت مباحث مدققة في سنين طويلة اتخذت لها ادق التحوطات لتجنب أسباب الخطأ . ويجد الانسان في المجلدات الثلاثة والعشرين التي نشروها الى هذا اليوم مستندات عديدة خاصة بالتجارب وللاحظات المتطلفة والمحققة بعناية من اولئك الباحثين بحيث يمكن التأكيد اليوم بان الكشف والتلقين العقلي والتليبثي (التأثير الروحي عن بعد) أصبحت من الظواهر الطبيعية ككل الظواهر التي لا تحدث باستمرار . فان الشفق القطبي والزوابع المغناطيسية وثوران البراكين وظهور المذنبات الخ ليست من الحوادث العادية ولا يمكن احداثها بالارادة، ولكن ندرتها النسبية لا يمكن ان تتخذ دليلا على عدم وجودها » انتهى

ونحن الآن يجمل بنا ان نأتي على اسماء اكثر اعضاء جمعية المباحث النفسية بدون الاطالة في وصف مزايا كل واحد منهم كما فعل الاستاذ وليم جيمس في كتابه

المتقدم ذكره فنقول :

منهم الاستاذ رسل ولس مكتشف ناموس النشوء والارتقاء هو وداروين في وقت واحد بدون ان يطلع أحدهما على مباحث الآخر . والاستاذ هنري سدجوك المدرس بجامعة كمبردج . والاستاذ وليم كروكس الكيماوي الانجليزي الكبير مكتشف اشعاع المادة ومخترع مكتشف كهربائي يعرف باسمه ، وآلات أخر للمباحث الكيماوية . والاستاذان الدكتور ميرس ورتشارد هودسون وكلاهما مدرسان في جامعة كمبردج لعلم النفس ، والاستاذ أوسكار بروننج من أشهر علماء الانجليز ، والاستاذ تشارلس اليوت نورتون مدرس بجامعة هارفار بأمريكا والاستاذ وليم جيمس مدرس علم النفس بجامعة هارفرد أيضا والاستاذ وليم ر . ليوبولد مدرس علم النفس والفلسفة في جامعة بنسلفانيا بأمريكا ، والاستاذ جيمس هيزلوب مدرس العلوم العقلية بجامعة كولومبيا بأمريكا ، والاستاذ كاميل فلامريون الفلكي الفرنسي الاشهر والاستاذ شارل ريشيه الفزيولوجي الكبير والعضو بمجمع العلماء والمدرس بجامعة الطب باريز ، ورجال آخرون بينهم عدد كبير من الاطباء المشهورين والحكماء المجربين نضرب عن ذكرهم خوف الاطالة . فاذا أراد القارىء الآن ان يعرف الاسلوب الذي جرى عليه هؤلاء القادة في مباحثهم والباعث الذي حداهم الي تجشم هذه المتاعب ، أتيناه بما يريد منقولا عن أولئك الباحثين أنفسهم .

قال العلامة الدكتور ميرس *myers* المدرس بجامعة كمبردج وهو الذي يصفه الاستاذ وليم جيمس بأنه اكبر مجرب في انجلترا . قال في كتابه (الشخصية الانسانية) في صفحة ١١ وما بعدها :

« حوالي سنة ١٨٧٢ حيث كان للمذهب المادي الذي أوغل حتي وصل الى سواحلنا وبلغ اوج سطوته على العقول اجتمع ثلة من الاصحاب في كمبردج واجمعوا رأيا على ان هذه المسائل العويصة المتنازع فيها يريد المباحث الروحية تستحق التفاتا وجهدا جديا أكثر مما عولجت بهما الي ذلك الحين . وكنت أري

انا ان محاولة جديرة بهذا الامر لم تصل الى ذلك الوقت قبت فيما اذا كنا أهلا أو غير أهل للالمام بشيء يختص بالعالم غير المرئي (عالم ماوراء المادة)، وكنت مقتنعا بأنه لو أمكنت معرفة شيء من ذلك العالم على اسلوب يمكن الدليل ان يقبله ويعتقده، فلا يكون ذلك لا بالتنقيب في الاساطير القديمة ، ولا بوسيلة التأمل فيما بعد الطبيعة، ولكن بواسطة التجربة والمشاهدة، وبتطبيقنا على الظواهر التي تحدث فينا وفيما حولنا نفس أساليب المباحث المضبوطة المنزهة عن الاغراض والمتروى فيها، اي تلك الاساليب التي نحن مدينون لها بمعارفنا عن العالم المرئي المحسوس :

فالمباحث التي تجب علينا لايمكن ان تقتصر على تحليل ساذج للاسانيد التاريخية او التي صدرت عن هذا الوحي او ذاك مما يوحى به في الزمان الماضي، ولكن يجب ان تؤسس قبل كل شيء — ككل بحث علمي بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة — على تجارب يمكننا تكرارها اليوم، ونملين ان نزيد عليها غداً . فلا يمكن ان تكون الا مباحث مؤسسة على هذه القضية، وهي انه « اذا كان يوجد عالم روحاني، وكان هذا العالم الروحاني موجودا في اي عهد كان، وكان قابلا لان يظهر ويستكشف فيجب ان يكون كذلك في ايامنا هذه.

« فمن هذه الوجهة وبالجرى على هذه الاعتبارات العامة واجهت الجمعية التي انا عضو منها هذه المسئلة » انتهى

ثم اخذ هذا الاستاذ يسرد التجارب التي عملها هو وعملها غيره مما لاسبيل الى بسطه في هذه العجالة . ثم قال مخاطباً الذين يكذبون بهذه المشاهدات في صفحة ٢٢١ :

« ماهي الادلة التي تحملني على الاعتقاد بأن هذا ليس بصحيح ؟ هذا السؤال يجب ان يضعه كل انسان نصب عينه اذا توصل الى التحقق بغير طريق التأمل العلمي من الجهل المطلق الذي هو عليه بماهية الوجود الحقيقية.

« واني اعترف في كل حال بان جهلي هو بحيث ان معارفي فيما هو مرجح او غير مرجح في الوجود لم تظهر لي كافية لرفض مشاهدات تظهر بحق انها مثبتة، وانها

مع ذلك ليست مناقضة لمشاهدات واصول عامـة اكثر منها تأسساً . ومهما كان مجال المشاهدات العلمية واسعاً فانهُ «حتى باعتراف ممثلي العلم» ليس الا نظرة عجلى في العالم المجهول وغير المتناهي للنواميس الطبيعية» . انتهى

وقال السير (أوليفر لودج) في كتابه (خلود الروح الانسانية) في النسخة الفرنسية الصادرة في سنة ١٩١٢ صفحة (١) وما بعدها :

«قد ثبتت صحة حوادث غريبة حدثت في كل أمة، وفي جميع العصور، ويمكن حذف جانب كبير من تلك الحوادث الى مجال الاوهام والوساوس، ولكن لا يمكن حذفها كلها الى ذلك المجال . وليس من المظنون في الحالة الحاضرة للعلوم الطبيعية اننا على علم بجميع اعمال الروح الانساني، واننا قد أوصلناها الى درجة من البساطة بحيث ان كل ما يحدث في العالم العقلي والروحاني يمكن ان يفهمهُ الكافة بسهولة . ومع هذا فيوجد كثير من الناس يظهر انهم يعتقدون ذلك . على أنهم يضطرون من حين آخر الى قبول مكتشفات جديدة مدهشة في علوم البيولوجيا (علم الحياة) والكيمياء وفي العلوم الطبيعية على وجه عام . ولكنهم يقبلون ضمنياً أن هذه المكتشفات العلمية هي وحدها من الوجود الاجزاء التي يمكن اكتشافها اكتشافاً اساسياً، واما ما بقي فقد عرف أحسن معرفة .

« هذا ايمان ساذج وهو يبين استعداد من يميلون لقبول عقيدة ما ، ولكنها عقيدة لا تعتمد على العلم ولا يمكن حفظها الا باغفال مقدار عظيم من الشهادات في الجهة المضادة :

« تألفت منذ ٢٨ سنة جمعية خاصة في لوندرة الغرض منها بحث ما في هذه التاكيدات من الحقيقة (يريد التأكيدات بوجود عالم روحاني) ، وقد كان مؤسسوها من رجال الادب والعلماء ، وقد ألمت مدة عدة سنوات بمقدار من هذه الحوادث الغريبة ، وهي وان كانت غريبة الا انه قد اعتبرها صحيحة افراد من اهل الحكم والذوق . وقد كان غرض هؤلاء العاملين اما ادماجها بطريقة مناسبة في العلم المرتب ، واما حذفها نهائياً باعتبار انها غير قائمة الا على سرعة التصديق والخديعة والتدليس» .

انتهى .

وقال العلامة سدجوك رئيس جمعية المباحث النفسية في خطبة الرياسة ونحن نترجم ما نترجمه منها منقولا عن كتاب الاستاذ لودج المتقدم ذكره قال :

« من الامور الفاضحة ان يتنازع الى الآن في صحة هذه الحوادث (الحوادث الروحية) التي اعلن تصديقه بها عدد عظيم من الشهود الاختصاصيين واهتم غاية الاهتمام بحل مسألتها عدد عظيم آخر ، وان يحتفظ العالم العلمي حيال ذلك كل هذا الانكار السافح » .

الى ان قال :

« كان الناس يظنون منذ ثلاثين سنة (هذه الخطبة قيلت في سنة ١٨٨٢) ان الاعتقاد بالمسمرزم (التنويم المغناطيسي) والموائد المتحركة يفسر تفسيرا كافياً بقلة التهذب العلمي عند اهله . فلما اكد رجال من اهل العلم مشهورون الواحد بعد الآخر صحة تجاربهم الشخصية اظهر معارضوهم مهارة مضحكة في تصيد العلل للحط من مقامهم العلمي ، فقالوا ان هؤلاء الباحثين هواة وليسوا من أهل تلك المهنة ، او انهم اختصاصيون في بعض الفروع العلمية وليس لهم نظرات عامة ولاخبرة كافية ، او انهم مخترعون بسطاء يجهلون الاساليب الدقيقة للبحث العلمي ، او انهم ليسوا اعضاء في المجامع العلمية . فاذا كانوا من أعضاء تلك المجامع اظهر المعارضون أسفهم لهذا الوقوع من الحوادث المحزنة .

« اننا في متابعتنا السير في هذه المباحث لا يجوز لنا أن ننتظر من شهادة واحدة مهما كانت كاملة نتائج قاطعة على العرف الانساني . فان الانكار العلمي بدأ في النمو من زمان بعيد وقد صارت له جذور قوية عميقة ، ولا قبل لنا باجتثاثها اذا قدّر لنا ذلك ، الا باجتثاثه بمجموعة من الحوادث المحققة . فيجب علينا ان نعمل بلا فتور وأن نركم البراهين على البراهين ، ونضيف التجارب الى التجارب ، وان لا نطيل الجدال مع المنكرين الاجانب عن مباحثنا على قيمة تجربة من التحقيق ، ولكن لنعتمد على

عدد هذه التجارب للحصول على الاقناع المطلوب »

٭٭

هذه بعض اقوال قالها اعضاء جمعية المباحث النفسية وقد جمعوا من تجاربهم اكثر من اربعين مجلدا ضخما اصبحت الآن عمدة الباحثين في هذا الموضوع وقد اثرت في العالم العلمي تأثيراً لاحد له حتي اصبح يطلب رجال العلم من كل قبيل ادخال هذه المباحث الى العلوم الرسمية التي تدرس في الجامعات

قال العلامة كاميل فلامريون الفلكي المشهور في كتابه (القوى الطبيعية المجهولة) صفحة ٦٠ :

« الكائن الانساني ممتع بخصائص لم تعرف الا قليلا وهي خصائص قد اظهرتها الملاحظات التي عملت على الوسطاء والمستعدين لتوليد الحركات، كما اظهرها كذلك التنويم المغناطيسي والتليثي والابصار بدون الاعين والاخبار بالمغيبات

« هذه القوى النفسية المجهولة تستحق ان تدخل في دائرة التحليل العلمي . وهي الآن لاتزال في عصر بطليموس (يشبهها بالعلوم الفلكية) ولم تصادف للآن كبلرها ونيوتنها ولكنها تستوجب العناية والبحث »

وقال الدكتور انكوس الطبيب بجامعة الطب البارزية في كتابه (العلوم الخفية والسبرتزم) في طبعة الثالثة سنة ١٩١١ صفحة ٧ .

« لقد انتشرت الجمعيات الروحية وتكثرت وشعر الناس بوجوب استفرادتها واصبحنا نؤمل ان نظريات هذا المذهب الروحاني ستنال حرية المدينة في الفلسفة العصرية »

وقال العلامة الفرنسي الدكتور ج . ماكسويل في كتابه (الحوادث النفسية) في طبعته الخامسة الصادرة في سنة ١٩١٤ صفحة ٣١٣:

« انا لاآسف من اني عبرت عن شعوري نحو الحوادث التي لاحظتها بنفسي فاني واثق من انها ستدخل في يوم من الايام — ولعل ذلك اليوم قريب — الى النظام العلمي ، نعم انها ستدخل فيه رغما عن جميع العقبات التي يركمها في طريقها

العناد والخوف من السخرية »

هـذا غيض من فيض ذكرته لخدمة الحقيقة ويرى القارئون ان جمعية بل جمعيات تتألف من أمثال هؤلاء الفحول الذين جدوا على الدقة في البحث ، ومرنوا على التثبت والروية بأساليبهم الصارمة ، وليس فيهم الا من عرف مداخل الخطأ في الاحكام ، ومسارب الشطط الى المدركات، ومستقر الانخداع من النفس ومواطن الاهواء من احناء الصدر . زد على ذلك ان كثيرا منهم من مدرسي علم النفس بالجامعـات الـكبرى ، وعلم النفس على الاسلوب الحديث يعتبر من العلوم الحسية ، فلاهو مستمد من مباحث افلاطون ولا من مقالات ارسطو، وعلماؤه يعتبرون بحكم وظائفهم من أعلم الناس بدسيس الوساوس ، ودبيب الهواجس ، وضلال الهواجس، وتلبيس المشاعر . وكثير منهم من الطبيعيين والـكيماويين والحيويين ، الذين لايعترفون بغير سلطان الآلات المدنية والتجارب الحسية فهم لا يأبهون بالبرهان العقلي ولا يخضعون للقياس المنطقي ، لايقرون لشيء بوجود الا اذا أبصروه ولمسوه وقلبوه على كل وجه، وادركته آلاتهم الحـديدية فوزنته وقاسته وقدرته . ثم هم مع ذلك في بيئة قـد تخلصت من الاوهام، وتملصت من سحر الاحلام ، خاصـة بالنقـدة المدققين ، والعرفة المتميزين والكتبة الصارمين . قلنا ان جمعية بل جمعيات تتألف من مثل هؤلاء الاقطاب فيستمرون في البحث عشرات من السنين ، ويدونون تجاربهم في عشرات المجلدات ويعرضونها في الآفاق على النقاد والمجربين ، كل هذا يعتبر حادثا جللا ليس له نظير في تاريخ المدركات الانسانية . وقد أحدث من التأثير الادبي مالم يحدثه مذهب علمي ولا أسـلوب فلسفي، فأصبح له مئـات من المجـلات والمكتبات الخاصة والوف من الجمعيـات . وقد روى الاستـاذ رسل والاس في كتابه (عجائب العصر الحاضر) ان اتباعه يبلغون عشرين مليونيا . وكتب جان فينو مـدير مجلة المجلات الفرنسية في مجلد سنة ١٨٩٥ وهو بصدد كلامه على الاسبرتزم يقول :

« لنضف الى هذا صفات أشياع هذا المذهب فهم أماعلماء أو أساتذة فنيون أو أطباء أو مهندسون ».

ونقول أضف الى هذا أن بقاء هذا المذهب قائماً اكثر من سبعين سنة يتناوله المجربون الخبيرون من كل قبيل، ويحاول دحضه الناقدون من كل صوب، ويتصداه للادعون ويبذلون وسعهم لاثبات التدليس فيه، ثم ينتهي امرهم بتصديقه والقول به، ثم انتهاء امره الى الشيوع بين أقطاب العلم الاوروبي الى هذا الحد، وانقلاب الفلسفة من مادية متطرفة الى روحية متشددة — كل هذا أثر عوامل مسلطها مدبر الكون على هذا الانسان ليخرجه من ظلمات المادة، وينقذه من براثن الماديين، ليطمئن على وجوده في هذه الحياة القصيرة الأمد، وبقائها بعد هذه الحياة في عالم الجمال الاقدس وليضع أصول أخلاقه ومراميه على أساس متين من فلسفة عالية جديرة بمواهبه الكريمة، يستطيع بها أن يتابع سيره في الترقي ثابت القدم مرفوع الرأس، مطمئناً على أعز عزيز عليه وهي نفسه، واثقاً بأنه حي في وجود كله حياة وجمال وجلال ونور.

* * *

(نشر لنا المقتطف هذه المقالة ثم عقب عليها بما يأتي :)

(المقتطف) ما أجمل ما ختمت به هذه المقالة . أما الامور التي بنيت عليها فقد ذكرناها كلها او اكثرها في مجلدات المقتطف الماضية، وذكرنا معها أوجه الضعف فيها وما ثبت من فساد بعضها ولو كان اصحابها من أكبر زعماء مناجاة الارواح كدجوك وكروكس وستدولفج . ومع اننا نتمنى من صميم الفؤاد ان تثبت صحة مناجاة الارواح ثبوتاً ينفي كل ريب، لكن بحثنا المتواصل في هذا الموضوع منذ اكثر من اربعين سنة الى الآن اقنعنا ان الذين يتقطعون للعلوم الطبيعية

والفلسفية يكونون في الغالب من أبسط الناس وأحسنهم طوية وأقام مقدرة على اكتشاف الخداع . فالدكتور ميرس والسر اوليفر لدج والاستاذ ريشه والاستاذ لمبروزو جلسوا غير مرة مع أشهر الوسطاء أوسابيا بلادينو وأكدوا أن ما كانت تعمله أمامهم لا يفسّر إلاّ بقوة روحية أي باستخدامها الارواح غير المنظورة وجاءها وفد من قبل جمعية المباحث النفسية لكي يبحث في اعمالها فجلس معها مراراً ونشر تقريراً مسهباً عن أعمالها نشرنا خلاصتهُ في المقتطف وأكدوا أنها لا تستعمل الخداع بل تفعل ما تفعل بوسائل غير مادية أو غير طبيعية فانتقد تقريرهم هذا وابنا وجوه الضعف فيه وامكان الخداع في أعمالها وبعد حين ذهبت هذه الخادعة الي اميركا سنة ١٩٠٩ فاكتشف الاستاذ منستربرج أستاذ الفلسفة في جامعة كولومبيا خداعها بما لا يبقي مجال الريب . وكان غشها قد كشف سنة ١٨٩٥ في كمبردج لما جلست مع الاستاذ سدجوك والمستر ميرس والدكتور هدجسن ولكن ثقة هؤلاء العلماء بها لم تفارقهم حينئذ لانهُ لم يظهر غشها الا في بعض أعمالها . ومنذ سنة ١٨٥٠ الي الآن كشف غش اكثر من مئة وسيط من أشهر الوسطاء مثل بلادي وكاوشستر وفوستر والاخوان دفنبرت ومستر ڤي والدكتور سلايدوفلورنس كوك ومس شورس وفر من ومس ود وهدسن وبرغه ومدام بلافتسكي واغلنتن

وقد قلنا غير مرة ان المحك الذي تثبت به صحة المستكشفات والمزاعم هو العمل بها . فنقل الاشارات بالتلغراف أولاً من الامور من أغرب الامور التي يتعذّر علي الانسان تصديقها ولكنهُ لما رأى الاشارات تنقل فعلاً وتبني علي نقلها مصالح الناس صدقها وقال أنها حقيقة لاوهم . ونقلُ الالفاظ المسموعة بالتلفون مثلاً من الاميال اغرب من نقل الاشارات بالتلغراف ولكن محك الاستعمال اثبت صحتهُ. ومن هذا القبيل نقل الاشارات بالتلغراف اللاسلكي والتصوير الشمسي واستخراج الالوان البديعة من قطران الفحم الاسود . واستقطار الارواح العطرية من فضلات المواد الفاسدة ونحو ذلك من مكتشفات القرن الماضي والسنين الاولى من

هذا القرن

فاذا كانت مناجاة الارواح صحيحة أى اذا كان عقل الميت يؤثر فعلا في الاحياء فيحادثهم ويخبرهم بأمور يجهلونها فلا بدّ من ان يصير لهـذا الاكتشاف فائدة عملية يعتمد عليها في مصالح الناس كأن يخبر عقل القتيل عمن قتلهُ اذا كان مجهولا أو يصفه وصفاً كافيا للدلالة عليه وكأن يخبر من اخفى شيئا قبل موته عن المكان الذى اخفاه فيه أو من شاهد حادثة وقعت في حياته بما شاهد . وعدم ثبوت ذلك بالفعل لا ينفي بقاء النفس بعد الموت ولا يثبت زوال عقـل الانسان من الوجود بعد موته ولـكن يجب ان يكون لاثبات ذلك أدلة اخـرى « وضرر الشيء ممن ينصره لا بطريقه أكثر من ضرره ممن يطعن فيـه بطـريقه » كما قال الامام الغزالى في تهافت الفلاسفة

***

لما نشرنا هاتين المقالتين في المقتطف رأينا انهما لا تكفيان لتجلية هذا الفتح العلمي الكبير فعولنا على أن نتبعها ببحث مستفيض نأتي فيه على جميع أدوارها تحت عنوان اثبات الروح بالمباحث النفسية، ونرد فيه ضمنيا على تعقيب المقتطف المتقدم فنشرناه في المبحث التالى نفسه فصدرت هذه المقالة فيه وهي أول حلقة منه في جزء ابريل سنة ١٩١٩

اثبات الروح بالمباحث النفسية

ان البت في مسألة الروح الانسانية بالوجود أو عدم الوجود، والحكم لها بالخلود أو عدم الخلود، من الامور التى يبتني عليها وخصوصا في هذا العصر عصر المبادىء والاصول، انقلابات فكرية غاية في الخطورة يكون لها اكبر الآثار في اخلاق الانسان ومراميه . وقد عهدنا الانسان يحيا بمحصوله الادبي اكثر مما يحيا بمحصوله المادي .

وهذا العالم الغربي الذي نال من المدنيه والرفاهية بفتوحات العلوم الطبيعية أوفر حظ وبعد ان زعزع له العلم المادي والنقد الفلسفي أقوى اصوله الدينية الموروثة منذ عدة اجيال،تراه يضطرب بمجموعه ويتململ سأما مما هو فيه،موجهاً لفتات الحيران لكل حركة يتنسم من ورائها نسمة عقيدة يثلج عليها صدره،وتزول بها شكوكه ويبصر بها الحق واضحا فيتجه اليه

وقد اجبتم على سؤال من سألكم عن منتهى آمالنا في التمدن في جزء يناير الماضي صفحة ٩٢ بقولكم « ان يعيش كل احد مستريحا مسرورا لايتألم ولايمرض ولا يجوع ولا يتعب . وان يعرف ماوراء الموت معرفة يقينية كما يعرف ان الماء يطفيء النار والحبر يسود الاصابع والحرارة تذيب الثلج ، ثم قلتم .ومن المحتمل ان يصل الناس اليها بطريقة يقينية تقنع كل احد »

اصبتم في هذا القول كل الاصابة فليس الانسان بالكائن الذي يقنعه نعيم الجسد دون الوصول الى سر حياته الروحانية،ولولا ذلك لقنع العالم الغربي بما هو فيه من الرفه ولم يحرك للمباحث الروحية ساكنا،وانت تراه اشد اجناس المسكونة تطلعا لاسرار الروح وقد فاق في هذا النهم المتدينين انفسهم.

ماتوسط الناس القرن التاسع عشر حتى كانت العلوم المادية في اوج عظمتها والمذاهب الفلسفية في غاية ابهتها ونبغ موليشوت وكارل فوغت ولويز بوخنر وهيكل في المانيا فاعطوا الفلسفة المادية نهاية سلطانها،فكسفت كل فلسفة في الارض،واعتبرت اشياعها من حثالة الاوهام الفكرية القديمة . ثم جاء مذهب النشوء والارتقاء في سنة ١٨٥٩ بفلسفته التي مؤداها قيام العالم على نظام آلي غير مقود الى غاية معينة بعقل مدبر فأعطى الفلسفة المادية سطوة اختفت امامها كل صوت ، فكان الذي يقول بوجود عقل عام مدبر للكون أو روح مستقلة عن جسد الانسان يعد من البله الذين يستوجبون الرحمة على قصور نظرهم وانحطاط عقلهم.

في هذا الحين الذي بلغ فيه الشطط المادي هذا المبلغ حدثت حادثة هيدسفيل التي ذكرناها في مقدمة المقالة الاولى من بحثنا هذا . وكان من امر تحقيقها وشيوع

امرها وتبالي مباحث العلماء في امثالها ما كان مما كان أثره ايجاد أدلة علمية حسية على وجود عالم حي حياة عقلية سامية وراء هذه المادة وعلى أن الموت ليس هو الحد الفاصل بين الوجود والعدم . ولم تتقرر تلك الادلة لا في سنة ولا في عشرين ولم يقم بها عالم واحد ولا جماعة واحدة من العلماء ، ولم تقتصر على بلد دون بلد ، ولكنها تقررت في اكثر من سبعين سنة بذلت في الابحاث والمشاهدات والمجادلات والتحديات ، وقام بتحقيقها رجال من كل مجال من مجالات العلم والادب وانتشرت في كل أمة راقية وكانت ثمرة ذلك أن اكبر علماء الارض واحكم فلاسفتها ، واجل كتابها وساستها ، وادبائها ينشرون آراءهم في الروح ووجودها وخلودها ويسردون تجاربهم العلمية في ذلك غير خاشين لومة لائم بعد ان كان يخجل اكبر رأس فيهم قبل خمسين سنة ان يشير الى عقيدته الدينية بكلمة واحدة .

هذه حركة لا مثيل لها في تاريخ العالم ، وقد كان من اثرها اعتدال مزاج الفلسفة وصدق النظر في الوجود وظواهره ، وقد كتبت فيه مقالين في المقتطف فعقبتم عليهما بما يفيد عدم اعتدادكم بما ورد فيهما ، ولكني ارى انكم مع هذا لا تضنون على قرائكم ببعض ما يظهر في عالم المباحث النفسية من الاقوال المنسوبة لبعض العلماء ، وهي خطة مثلى حببت الي ان افضي اليكم ببعض ما اعلمه في هذا الموضوع ، فاني قرأت كل شبهة وردت عليه من الناقدين والماديين الذين تألبوا على دحضه بكل وسيلة ، وقرأت كل الحلول التي دفعت بها تلك الشبه وهي حلول علمية لا كلامية مما يتألف منه مجموع من أجل ما ولدته مجهودات البشرية في عصر من العصور وأرى ان نشر صورة موجزة من هذا المجموع في المقتطف مما يخدم قراء العربية اجل خدمة . ولهذا عولت على أن اوافيكم اولاً بملاحظاتي على تعليقكم ثم اردفه بالتجارب التي عملت والشبهات التي وردت عليها وبما دحضت به الشبهات فاقول :

قلتم أن بحثكم المتواصل في هذا الموضوع منذ اكثر من اربعين سنة اقنعكم بان الذين يتعاطون العلوم الطبيعية والفلسفية يكونون في الغالب من ابسط الناس واقلهم مقدرة على اكتشاف الخداع .

وانا لا اوافقكم علي هذا الرأى فان قوما كالطبيعيين مرنوا على الاساليب الدقيقة واقطعوا الشاهدات المحسوسة، وقصروا شهودهم على الآلات المعدنية والحواس البدنية، لايمكن ان يكونوا أقل الناس مقدرة على اكتشاف الخداع . ويؤيدني في ذلك صوالقو الغرب فقد جاء فيما نقلته عن مجلة الجلات الفرنسية في صحيفة . ٥ من مقتطف يناير قولها: «من الصعب أن نتهم هؤلاء العلماء بالسذاجة فان دقتهم الشديدة في التجارب العلمية أشهر من أن تذكر ».

وجاء فيما نقلته بتلك الصحيفة عن الاستاذ شارل ريشيه العضو بالمجمع العلمي الفرنسي قوله : «لا يمكن أن مثل هذا العدد العظيم من الرجال المتازين في انجلترا وأمريكا وفرنسا والمانيا وايطاليا يقعون تحت تأثير الانخداع الغليظ الثقيل».

ثم اني لم اسرد في المقتطف اسماء هذا الجم الغفير من العلماء الطبيعيين والفلاسفة الآ لاني اعتقد انكم مثلي لا تأبهون الا بشهادات رجال الطبيعة والفلسفة. ولو كنت اعلم انكم ترفعون على شهاداتهم شهادات من دونهم لأتيتكم باسماء ألوف من الاطباء والمهندسين والكتاب والسياسيين والقسوسيين .ومما يؤثر عن المستر غلادستون أنه كتب يقول : « ادرس الاسبرتزم فان وجدت فيه غشا وتدليسا فأهزأ بسائر المعتقدين به واسخر بي في مقدمتهم» (انظر كتاب الظاهرة الروحية لجبريل دولان في طبعته الخامسة)

ومنهم اللورد بلفور وزير الخارجية الانجليزية الحاضرة وهو القائل « عندى الاسبرتزم أفضل من السياسة لانها تفيدني أكثر منها» (انظر الكتاب المتقدم)

هذا ولو شئت أن أسرد من هذه الاسماء المشهورة لسردت شيئا كثيراً فاذا كان المتعطون لعلوم الطبيعية والفلسفة أكثر الناس قبولاً للانخداع فهناك الالوف من أمثال من ذكرناهم يشهدون بأنهم بذلوا غاية وسعهم لاثبات التدليس في التجارب فلم يستطيعوا ولم يستطع خصومهم ان يثبتوه لهم .والذين كشفوا تدليس الوسطاء الذين ذكرتموهم هم زعماء الروحيين. فقد قلتم ان أوسابيا بلادينو كشف غشها في كمبردج سنة ١٨٩٥ هدجوك وميرس والدكتور هدجسن وهؤلاء الثلاثة من كبار اقطاب

جمعية المباحث النفسية والقائلين بأنه قد قام الدليل الحسي على وجود الروح وخلودها بعد الموت.

ولا عجب اذا حاول بعض الوسطاء التدليس على المجربين، فان التدليس ليس بقاصر على هذه المباحث، فهو عام في جميع مجالات المجهودات الانسانية وانما العجب ان يفلت مدلس من أيدي أولئك النقدة الصارمين . على ان لجنة الجمعية العلمية الملكية التي عينت في انجلترا لبحث المسائل النفسية لم تستخدم وسيطا مأجوراً كما ذكرت ذلك في تقريرها ونشرناه في مقتطف يناير صفحة ٥٥، وكان لكثير من العلماء والكتاب الباحثين خاصة الوساطة مثل الاستاذ الطبيعي الانجليزي دومورغان والمستر ستنتون موزس المدرس بجامعة اكسفورد: والمستر ستيد الكاتب الانجليزي الكبير وامرأة اكراكوف الوزير الروسي المشهور وبنتا المستر ادمونز رئيس مجلس شيوخ الولايات المتحدة سابقاً وكان يعرض بها للتجربة لشدة شغفه بالمباحث النفسية.

قلنا ان التدليس ليس بقاصر على وسطاء المباحث النفسية فهو في كل مجال من مجالات الاعمال الانسانية، وانما المدار على التمحيص والاخذ بالاحوط، ولا نعرف فرعاً من فروع العلم سرى عليه ادق من أساليب التمحيص ما سرى على المباحث النفسية لغرابتها من جهة، ولغلبة المذهب المادي على الباحثين من جهة أخرى، ولم يتوصل الا الى اثبات تدليس نحو مئة وسيط من سنة ١٨٥٠ الى اليوم، أي في مدى سبعين سنة وهو عدد قليل بالنسبة لعدد الوسطاء الذين خضعوا لهذه المباحث الصارمة.

ثم انكم قلتم ان المحك الذي تثبت به صحة المكتشفات والمزاعم هو العمل بها فاذا كانت مناجاة الارواح صحيحة، أي اذا كان عقل الميت يؤثر فعلا في الاحياء فيحادثهم ويخبرهم بأمور يجهلونها، فلابد من ان يصير لهذا الاكتشاف فائدة عملية، كأن يخبر القتيل عن قاتله وكأن يخبر من أخفى شيئاً قبل موته عن المكان الذي اخفاه فيه الخ.

نقول ان تاريخ مناجاة الارواح مؤسس على ان روحا أخبرت سكان البيت الذي ظهرت فيه بأنها روح قتيل قتله جاره وسلب ماله فكان كما أخبرت . وقد

أشرنا الي ذلك في ايرادنا لتاريخ هذا الفن في صفحة ٥٠ من مقتطف يناير.

ثم حدثت بعد هذه الحادثة ملايين من هذه الاختبارات وغيرها مما حير عقول الباحثين واضطر اكبر الماديين كوليم كروكس وروسل ولاس ولومبروزو وسدجوك وأمثالهم للاذعان. فسئلت الارواح عن حجج ومستندات ضائعة فعينت مواطنها ، وسئلت عن تفاصيل حوادث وفيات مجهولة فأنبأت بها . وسئلت عن مقادير ديون كانت عليها فقدرتها وعينت الدائنين وما لكل منهم بالضبط. واستخدمت في المخابرات بين أمريكا وأوربا في أمور مستعجلة فقامت بما عهد اليها بأكثر واضبط من التلغراف ، وسئلت أسئلة فلكية عويصة فاعلمت بأمور لم تكتشف الا بعد سنين عديدة . كل هذه أمور مقررة ممحصة كما يقول الاستاذ وليم جيمس اكبر من محص الامور الفزيولوجية (أنظر صحيفة ١٤٩ من مقتطف فبراير).

وسنأتي في مقالاتنا التالية على نماذج من انواع هذه المشاهدات كلها مع بيان صنوف التحوطات والتمحيصات التي اتخذها العلماء المجربون لها.

ثم قلتم ان عدم ثبوت ذلك لاينفي بقاء النفس بعد الموت ولا يثبت زوال عقل الانسان من الوجود بعد موته، ولكن يجب ان يكون لاثبات ذلك أدلة اخرى.

وانا اقول ان عدم ثبوت ذلك ينفي بقاء النفس بعد الموت ويثبت انحلال عقل الانسان بعد وفاته ويقوى شبهات الماديين، بل يجعل تلك الشبهات حججاً مقررة . لانه كان يقال بحق : لو كان للروح بقاء بعد الموت لدلتنا بدليل حسي على بقائها هنالك. والا فهل يعقل ان تكون ارواح ملايين الملايين من الامهات والآباء والاحياء حية في عالم وراء هذا العالم فتلبث الوف السنين لاتبدى أقل حركة تشعر بوجودها وتنم على بقائها ؟ وكان المادى اذ ذاك يرفع عقيرته قائلا : اذا كان الانسان في بحثه عن المجاهيل الطبيعية قد وقف على اسرار النواميس الميتة وخواص الحركات الاثيرية الخفية كالكهرباء والمغناطيس واشعة رونتجن وهي من العالم الجامد المجرد عن العقل والشعور، ألا كان يقف على رسوم ذلك العالم الحي الآهل بملايين من العلماء والفلاسفة والقادة والمقودين ؟ الا كانوا يبدون لنا ولو اشارة

خفية تدل على وجودهم وراء هذا الوجود؟ أليس في صمتهم ذلك حجة ناطقة على أنهم اصبحوا رميما تذوروه الرياح، كما تذور بقايا الاشجار وفتات الاحجار؟

نعم كان المادي يستطيع أن يقول ذلك وله الحق، وكان المتدين يحني رأسه خجلا وله العذر، فشيوع أمر الاتصال بالاموات من أول وجود الانسان الى اليوم ودوام ظهور أشباحهم في بعض الاحوال في كل أمة حتى وجد ذلك في اساطير المصريين القدماء والهنود والصينيين، ووجد معه طرق تحضير الارواح منذ ألوف من السنين، ثم ظهور هذا الامر أتم ظهور في هذا العصر والعمل على تحقيقه تحقيقا علميا على الاساليب النقدية الصارمة — كل هذا أثر واضح يدل على صحة وجود ذلك العالم، وعلى صدق العقيدة القائلة بخلود الارواح بعد الموت . وعدم وجود هذا الاثر الواضح كان يصح أن يكون من الادلة السلبية القوية على عدم وجود ذلك العالم.

ثم ان استشهادكم بقول الامام الغزالي « ان ضرر الشيء ممن ينصره لا بطريقه أكثر من ضرره ممن يطعن فيه بطريقه» لا ينطبق على ما نحن بصدده . فان الطريق الذي يسلكه العلماء الاوروبيون والامريكيون في تحقيق وجود الروح هو الطريق الاصلي لاثباتها، بل لا يوجد غيره . فهم يبحثون في أمر ظهور الارواح في أماكن قيل انها تتردد عليها، كبعض البيوت والقصور القديمة . وفي تأثيرها على أدمغة بعض الاحياء بالاستيلاء عليها، واظهار شخصيات غير شخصياتها، وعلى ايديهم في احداث خطوط غير خطوطهم والتوقيع عليها بتوقيعات المتوفين انفسهم — كل هذا لم يقنع الباحثين وكان لهم في تأويله مجال واسع . لانهم كلهم كانوا ماديين لا يعتقدون بشيء. فطلبوا الى أولئك الارواح ان كانت موجودة ان تكتب بدون يد الوسيط وان تتكلم لا بلسانه، فحدث ما طلبوا وظهرت اذرع وايد لمسها المجربون وصافحوها، ثم ظهرت أجساد قاسوها ووزنوها وفحصوها بكل وسيلة ممكنة وطلبوا اليها احداث الخوارق التي يتخيل أنها لائقة بعالم الارواح السائد على

العالم الحسي كادخال المادة من خلال المادة، وفي تغيير صياغة المعادن كأن تقلب السلاسل الذهبية الى خواتم، وفي تمزيق الثياب واعادتها كما كانت، وفي ظهورها بمظاهر مختلفة، وفي افنائها نصف جسم الوسيط اوجسمه كله ثم اعادته، وفي رفع الاجسام بدون لمسها الى السقف حتى انها رفعت بعض الحاضرين أيضاً، وفي جلب الاشياء من بلاد بعيدة، وفي الاخبار عن الامور المقبلة الى غير ذلك مما سننقل بعضه في مقالاتنا المقبلة. كل هذا بينما يكون الوسيط مربوطاً وموضوعاً تحت رقفص من الحديد ومتصلا بسلك من الجلوانومتر لتسجيل أقل حركاته وسكناته ومراقبا أشد مراقبة وهو في حالة خدر تام لايعي مايحدث، بخلاف المشعوذين الذين ذكرتم بعض أعمالهم في مقالة السحر الحلال فانهم يذهبون ويجيئون مطلقي الايدي والارادة، فان لم يكن هذا هو طريق اثبات وجود عالم روحاني مؤثر في هذا العالم المادي فهل طريقه القياس المنطقي والاستنتاج العقلي وقد برهنت الفلسفة المادية الحسية، لعمر دليل على ضلال العقل وعجزه عن الالمام بالحقائق، وعلى ان مسلماته أكثرها اضاليل قررها له قصوره وايدها في نظر جهله.

ثم قلتم في مقالة السحر الحلال: «رأى جماعة من اكبر علماء الارض أعمال الخادمة اوسابيا بلادينو فصدقوا ماتدعيه من أنها تفعل بواسطة ارواح الموتى، ويذهب هؤلاء العلماء انفسهم الى ناد لاحد المشعوذين ويرون من أعماله ما تقصر عنه اعمال أوسابيا بلادينو بمراحل كثيرة ومع ذلك لا يقولون انهُ يفعل ما يفعل بقوة روحية لانه هو نفسه لايدعي هذه الدعوى».

أقول علماء أوربا لم يفتهم أمر المشعوذين فقد اعترض عليهم بمثل ماقلتم فاحضروا مشعوذ امبراطور المانيا ومشعوذ مبراطور النمسا وهما اوسع مشعوذي العالم حيلا في جلسة روحية واروهما بعض الخوارق التي تحدث فيها، فاعترفوا بأن هذا فوق مقدور صناعتهم، وشهدوا بذلك كتابة، وسننشر نص شهاداتهم في مقالاتنا المقبلة هنا

اما ان ما يفعله المشعوذون أغرب مما يحصل في جلسات التحضير فلا نقول نحن به ولا الوف المجربين، فان الخوارق الروحية قد فاقت مايتخيله كل متخيل، واي غريب

بعد ظهور روح الميت متجسدة بصورتها التي كانت عليها في الحياة الدنيا ، وتـكلمها بصوتها الاصلي وعباراتها المألوفة لديها ؟ واي عجيب بعد افنائها لبعض اعضاء الوسيط او الجسم كله ثم اعادتها اياه اوقلبها صورة الوسيط وجنسه فيظهر وجهه ملتحيا وهي امرأة او شعره اصفر وكان اسود او يظهر طفلة ناعمة وهو كهل،ويطول قده، ويضاغط جسمه،ثم يعود الى ماكان عليه . كل ذلك حصل تحت اشد المراقبات العلمية واعيدت تجاربه في كل بلد وفي مدى اكثر من سبعين سنة مما لاسبيل الى دحضه بعد كشفه ووقوف الناس على اسانيده . والا فكيف يعقل ان اكبر علماء الارض واذكى الاطباء والمهندسين والمحامين والكتاب والادباء الاوربين والامريكيين ينخدعون هـذا الانخداع الغليظ وقد سبقونا في العلم والعمل والتشكك بمراحل ، وتشبعوا بالمذهب المادي متعددة قرون، ويستمرون في هذا الانخداع اكثر من سبعين عاما ؟

كل هذا لايقبل التعليل بالخداع والانخداع، فلامناص لقراء العربية من التوسع في معرفة هذا الموضوع، وسأتولى بمعونة الله هـذا الامر فانشره في هـذه المجلة في عدة مقالات متسلسلة من الجزء القادم ثم اترك لكل انسان الخيار في الحكم والسلام

الاسلوب التجريبي

(الذى اتبعهُ العلماء فى اثبات الروح)

الوساطة

نشرنا هـذه المقالة بمجلة المقتطف في مايو سنة ١٩١٩

طبعت الفلسفة الاوربية في القرن التاسع عشر بطابع الاسلوب الحسي ، فلفظت جميع المدركات العقلية الى عالم الفروض ، ولم تقبل في العلم الاّ ما أيـدتهُ التجربة أو دلت عليه الحواس، فـكان على المتصدين لبحث عن الروح ان يجـدوها بدليل محسوس . وكيف يتـني ذلك بغير جعل الانسان ذاته موضوع النظر والبحث لرؤية آثارها فيه؟ أيصح لمن يريد ان يعرف عمل الاثاء التي بين يديه ماءً أن يتركه جانباً ويأخذ في بناء القضايا المنطقية للاهتداء الي ما حواه، أم ينظر فيه هو نفسه ليتحقق من وجود أو عدم وجود شيء فيه ؟

لهذا احتاج الباحثون العصريون فى الانسان الى الوسيط .فيحتاج اليه في التنويم المغناطيسي لتنويمه ورؤية ما يظهر فيه من القوي الكامنـة والخصائص المستكنة . ويحتاج اليه في المباحث النفسية لما ثبت علمياً منذ سبعين سنة وبشهادة ألوف من العلماء انهُ تحدث بحضرة شخص ذي استعداد خاص ، اذا اتجهت ارادة المجربين معه الى الاتصال بالعالم الروحاني ، حوادث روحية غاية في الغرابة يمكن العلم أن يبحثها على اسلوبه التجريبي فيضيف الى ما عرفه من أحوال المبنى الانساني معارف جلية لا تقبل النقض يتجلي من خلالها وجود الروح واستقلالها عن الجسد وقيامها بدونه وعلاقتها بعالم

روحاني وراء هذا العالم المادي

فالوسيط في المباحث النفسية هنا يستخدم كآلة للبحث او كوسيلة لظهور الحوادث الروحية . وليس أمر الوساطة ببدع فانها ضرورية حتى في الحوادث الطبيعية نفسها . فلا يمكن مثلا احداث شرارة من جسم مكهرب بكهربائية موجبة الا بتقريب جسم آخر منه مكهرب بكهربائية سالبة . ولا يمكن احداث تفاعل بين عناصر جسم الا بتسليط عامل آخر عليه كالحرارة او النور او الكهربائية، اوجسم آخر له خاصة احداث التفاعل بينها . كذلك لا يمكن ايجاد الصلة بيننا وبين الاحياء المجردة عن المادة الا بوجود وسيط تكون له خاصة في ايجاد تلك الصلة .

وقد شوهد ان خاصة الوساطة ليست بقاصرة على احد الجنسين ولا على المصابين بأمراض عصبية ولا على ذوي اسنان أو معارف محدودة

فمن الوسطاء رجال ونساء ومنهم المصابون بأمراض عصبية، والاصحاء الذين هم في أكمل حالات القوة، ومنهم الطاعنون في السن ، والاطفال الذين لم يجاوز عمرهم تسعة أيام، كما شوهد ذلك لبنت اللورد سيمور كير كوب فانها أمسكت القلم بيدها وكتبت به رسالة عن لسان جدتها المتوفاة أمام والدها ووالدتها ومربيتها، ومنهم الجاهلون الاميون والعلماء والاعلام

ثم أن الوسطاء يختلفون في الخصائص فمنهم وسطاء يرون بأعينهم من العالم الروحاني مالا يراه غيرهم، فيصفون ما يرونه للمجربين ويبينون لهم موضعه فيسلطون آلة التصوير على ذلك الموضع فترتسم عليها عين الصورة التي اخبر عنها الوسيط . والآلة خير شاهد على ان المرئي ليس بخيال .

ومنهم وسطاء يسمعون مالا يسمعه سواهم من أصوات الارواح فيلقون الى المجربين ما يسمعونه من الاجوبة على أسئلتهم مما لا يعرفه الوسيط ولا يخطر بباله ولا يستطيع ان يجيب به لقصوره عنه .

ومنهم وسطاء يكتبون فتستولي الروح على يد أحدهم وتكتب ماتشاء ان تكتبه بينما يكون الوسيط ملتفتاً الى يمينه أو يساره يحادث المراقبين له . وقد شوهد

وسطاء تستولي الروح على يد احدهم اليمنى وتكتب جوابا على سؤال ، وتستولى روح أخرى على يده اليسرى فتكتب جوابا على سؤال آخر وروح ثالثة على لسانه فتجيب على سؤال ثالث، كل ذلك في وقت واحد.

ومنهم وسطاء تتجسد الارواح بحضرتهم فيلمسها المجربون ويفحصون اعضاءها ويزنونها ويقيسون طولها ويسألونها فتكلمهم وتعمل لهم من الخوارق مالا يخطر بالهم . وقد تظهر عدة أرواح في آن واحد ثلاثة أو أربعة أو اكثر منهم الذكر والانثى والشاب والشيخ فتجول بين الحاضرين وتلمسهم وتطلب اليهم أن يصوروها بآلة التصوير، بينما يكون الوسيط متشنجاً ملقى على كرسيه ومراقباً من اثنين او ثلاثة من المجربين . فلو تخيل متخيل ان أعين المجربين قد انيمت نوما مغنا طيسياً فرأت ماليس بموجود، فهل انيمت آلة التصوير أيضا فرسمت ماليس بموجود؟

هذه أمور خارقة للعادة تحققت علميا وتكررت تجاربها ملايين المرات في كل اقطار العالم المتمدن منذ سبعين سنة، وهي التي حولت الى المذهب الروحاني رؤوساً انتصبت على كل مؤثر في الارض . وسنأتي على أمثلة من هذه التجارب مع بيان التحوطات التي اتخذت لها في مقالتنا التالية لهذه.

التحوطات التي تتخذ ضد الوسطاء

لما شاعت أول حادثة لظهور الارواح في حيد سفيل، وخاض فيها الناس من كل قبيل، استنكرها رجال العلم كل الاستنكار وجزموا بانها خرافة روجها المدلسون لسلب اموال الناس، واكتفوا بنفيها هي وامثالها مما شاع اذ ذاك على صفحات المجلات والجرائد ولم يتنزلوا لبحثها اعتقاداً منهم بأنها لا تستحق النظر . فلما كثر خوض الناس فيها واخذ في الدفاع عنها بعض ذوى العقول الكبيرة من أمثال المستر (ادمون) رئيس مجلس شيوخ الولايات المتحدة بأمريكا، وعدد من الكتاب والادباء، خف بعض العلماء لبحثها لا لظنهم ان فيها حقيقة تستحق الاعتبار ولكن

ليثبتوا للناس بالدليل المحسوس وجوه الاحابيل التي وقعوا فيها تحت تأثير الوسطاء الخادعين. فتولوها بأسلوبهم العلمي الصارم وتحوطاتهم البالغة أقصى غايات الاحتراس. ناهيك بقوم ماديين لا يعتقدون بوجود شيء في الكون غير المادة وقوتها وقد مرنوا من حداثتهم العلمية على عدم التسليم الا لشهادات الآلات والموازين فآبوا بعد طول التجربة وتكرارها الى التسليم بصحتها وكتبوا في ذلك كتباً سطروا فيها كل ما اتخذوه من التحوطات لاثباتها. فتولى النقدة الطبيعيون مباحثهم بالنقد الصارم ولاحظوا على تحوطاتهم أموراً اعتبروها نقصاً وزعموا أنهم لو كانوا تداركوها لظهر لهم التدليس ظهور الشمس. فكان من يليهم في البحث من العلماء يستدركون كل ما لوحظ على من سبقهم من النقص حتى بلغت بهم الوسوسة في ذلك الى حد ليس بعده مزيد. فكانوا يأتون بالوسيط الى جامعة من جامعاتهم أو معمل من معاملهم العلمية ويجردونه من ملابسه ويفتشونها ثم يدخلونه حجرة خالية من الاثاث الا كرسي وخواناً ويغلقون بابها ويختمونه بالشمع ويأخذون مفتاحها معهم ثم يجلسون الوسيط على كرسي ويربطونه عليه ربطاً قوياً بحيث يؤثر الرباط في معصميه وذراعيه وفخذيه حتى تستحيل عليه الحركة قيد انملة. ثم يسمرون أطراف الاربطة على الارض ويختمون العقد بالشمع. ثم يضعونه وهو وكرسيه في قفص من الحديد ويوصدون عليه بالاقفال ولا يكتفون بذلك بل يصلون به سلكاً من آلة الجلفانومتر لتسجل عليه جميع حركاته وسكناته، ثم لا يكتفون بكل هذا بل يوكلون به اثنين منهم يراقبانه طول مدة التجربة. وكان الذي يحدو هؤلاء العلماء لركوب هذه الخطة الصارمة جزمهم المطلق باستحالة وجود خارق للعادة في الطبيعة، وباستمرار الحوادث فيها على نواميسها المقررة، وبأن تلك الخوارق المزعومة هي من الشعوذة البالغة أقصى درجات التمويه والسبك. ولكن كانت تذهب كل تحوطاتهم سدى فيستمر ظهور تلك الخوارق على أتم ما يكون. فاضطروا أمام هذه المشاهدات — وما يضطر أمثالهم امر هين — أن يعترفوا علناً بوجود عالم روحاني بعيد المدى، يمكن أن تتصل به بحضرة وسيط

حاصل على خاصة الوساطة بيننا وبينه

وقد تكررت هذه التجارب مع كل هذه التحوطات فى كل مدينة راقية على يد رجال يعتبرون فى مقدمة أقطاب العلم العصري، أتينا على ذكر بعضهم في مقالاتنا السابقة . وقد بلغ عمر هذا المذهب من العمر أكثر من سبعين سنة وهو يزداد رسوخا وتزداد مشاهداته وضوحا،حتى اصبحت من الحقائق التى لا يصح الامتراء فيها ، ولم تكن تجارب هؤلاء العلماء انفرادية ولكن تألفت لها في كل عواصم البلاد المتمدنة الجمعيات، ومنها مايبلغ عمرها الآن بضعات السنين ، من أكبرهاشأنا جمعية المباحث النفسية التي تأسست في لندرة سنة ١٨٨٢ واتخذت لها أعضاء من أعلام العلم الرسمي في فرنسا وايطاليا وأمريكا وغيرها وهي لاتزال عاملة للآن فيكون عمرها خمسين سنة ، وقد دونت مباحثها وتجاربها في عدة عشرات من المجلدات الضخمة ، وتولى عضويتها ورئاستها أكبر علماء الارض ممن لا يصح اتهامهم بالقصور عن ادراك نقص الدليل، ولا بالتقصير في اتخاذ أي ضرب من ضروب الاحتياط . بل هم الذين علموا الناس أساليب البحث عن المجاهيل ووجوه الاحتراس فى التجارب . ولا يعقل أن هؤلاء الاراكين فى العلم والفلسفة يبقون طوال هذه المدة مخدوعين لا يفرقون بين الشعوذة والظواهر النفسية على كثرة النقدة المحيطين بهم . بل هم أنفسهم أئمة النقد وزعماء الشكوك .

وقد استخدم هؤلاء العلماء أكبر الوسطاء الى دورهم من أقصى الارض،وتكلفوا في ذلك الالوف المؤلفة من الجنيهات،وصبروا على بحثهم السنين الطوال.وقد ألفت كتب في تاريخ بعض وسطائهم منها كتاب وضعه المسيو(ساج) عن الوسيطة الامريكية (مدام بيبر) دعاه باسمها ووضع عليه العلامة الفلكي الاشهر (كاميل فلامريون) مقدمة طنانة ونحن ننقل للقراء بعض ماجاء فيها من طبعته الثالثة صفحة (٣١) :

« متى عرض الانسان مشاهدات من هـذا القبيل على القارىء فاول ما يتبادر الى ذهنه افتراض التدليس،فيعتبر الوسيط خادعا ويرى أنه قد دبر حيلة بمهارة فى

على الخفاء . فالامر في نظره لايعدو الاحتيال والتدليس . فلأجل متابعة هذه المباحث بفائدة يجب ابعاد هـذا الفرض، ولـكن ليس ذلك بالامر السهل فان أكثر الناس جبلوا على ان يكبروا من فطنتهم الذاتية ويسيئوا الظن على وجه عام بفطنة سواهم . وتجد كلا منهم يعتقد في نفسه بأنه لو كان مع المجربين لـكشف الغطاء عن التدليس بأسرع مايكون . وعليه فلأجل اقناع الناس يجب ان لايهمل أى ضرب من ضروب الاحتياط والتحرز، ويجب استخدام جميع الوسائل لذلك وهذا هو الذى قام به مشاهدو مدام بيبر كما سيراه القراء »

ثم ذكر مااتخذه المجربون عليها في أمريكا من ضروب الاحتياط حتي عينوا عليها وعلى جميع اعضاء بيتها الجواسيس ثم قال :

« ولـكن لأجل ابعاد فرض التدليس نهائيا رأي بعضهم ان يرفع مدام بيبر من البيئة التى هى فيها وينقلها الى مملـكة لاتعرف فيها احداً، وهذا هو الذى حدث فعلا. فان بعضاً من علية أعضاء جمعية المباحث النفسية دعوها الى انجلترة ليجربوا عليها هنالك، فلبت دعوتهم ووصلت الى انجلترة في ١٩ نوفمبر سنة ١٨٨٩ على الباخرة شينا من بواخر شركة كونار . فخف لاستقبالها الاستاذ فريدريك ميرس الذى حزن لفقده حديثا علم البسيكولوجيا وأوصلها من ساعة قدومها الي بيته في كمبردج، ولـكنه في اللحظة الاخـيرة دعي الى ادمبورج فرجا صديقه الاستاذ اوليفر لودج (المدرس بجامعة كمبردج) ان ينوب عنه في اضافة مدام بيبر فأضافها الاستاذ لودج في بيته ، هي وبنتيها الصغيرتين اللتين كانتا معها . وفي مساء ذلك اليوم نفسه عاد المستر ميرس وأرجعها الى بيته في اليوم التالى :

فابتدأت التجارب على ذلك في كمبردج . الي ان قال :

« الخلاصة ان في مـدة الخمس عشرة سنة التى ليثتها التجارب مع مدام بيبر أخذ المجربون بكل الآراء التي ابداها المعارضون المـكذبون لاجل كشف التدليس، وكان بعضهم من المتعنتين، فلم يكتشف شيء من ذلك، وذهبت جميع المجهودات سدى . فيجب اذن ان يبحث عن علة هذه الخوارق في غير التدليس »

(الفرق بين الشعوذة والوساطة)

كثيراً ماشبه البعيدون عن التجارب الروحية الوساطة بالشعوذة والفرق بينهما كما رأيت عظيم جداً . فالوسيط يعرى جسمه ويفتش ويربط ويوضع في قفص من الحديد ويوصل بجسمه سلك كهربائي لتسجيل أصغر حركاته عليه، ويوضع تحت مراقبة صارمة، ويقع فيصرع شديد يلحقه بالجمادات . ولكن المشعوذ يكون مطلق اليدين والرجلين،يذهب ويجيء بين المتفرجين لا يسأل عما أخفاه من الادوات والآلات، ل يحضر معه على مرأى من الناس من العلب والاسلاك والاواني ما يعتمد عليه في خدع أعين الناس . ويبث في وسط الحاضرين من مساعديه من يحتاج اليهم في تمويه أعماله . والمتفرجون يعرفون كل ذلك ويرون له الحق فيه .

ثم ان المشعوذ يعرف عنه انه درس هذا الفن وتتلمذ فيه لاستاذ وتمرن عليه تحت اشرافه سنين . ولكن الوسيط قد يتفق ان يكون بعض العلماء المجربين أنفسهم او بعض زوجاتهم أو بناتهم ممن لم يدرسوا الشعوذة ولا تتجه اليهم ريبة فكان الكاتب السياسي والاجتماعي الخطير (ستيد) الانجليزي واسطة لنفسه تستولى الروح على يده فتكتب، بينما يكون هو مشغولا عنها بشيء آخر . وكذلك كان الاستاذ ستنتون موزس المدرس بجامعة اكسفورد . وكان الوزير الرومي الخطير (اكزاكوف) يجرب على امرأته . وكان المستر ادمون رئيس مجلس أعيان الاولايات المتحدة يجرب على بنتيه . ولما اجتمعت لجنة الجمعية الملكية الانجليزية لفحص خوارق الاسبرتزم، وكانت مكونة من ثلاثين عالماً، كان واسطتهم واحداً منهم (راجع مقالتنا الاولى) . فاأعظم الفرق بين الوسطاء والمشعوذين وما ابعد وجوه الشبه بينهما !

(تعليل الخوارق التي تظهر بحضرة الوسطاء)

لما ثبت للعلماء المجربين صحة هذه الخوارق ثبوتاً ليس معه تردد اخذوا في

تعليلها بالعلل المعروفة غير مبالين بما يدعيه سواهم من نسبتها الي أرواح الموتى . فافترضوا افتراضات كثيرة وأطالوا الجدال فيها عشرات من السنين فلم يظهر أن واحداً منها يصلح لتعليل جميع مشاهدات الاسبرتزم غير فرض واحد هو عزوها الي أرواح الموتى. وقد رضي هذا الفرض جمهور من العلماء الذين بحثوا هذا الموضوع الا عدداً منهم محصوراً لا يزال يرجي رأيه الاخير. ومع هذا فهو لا يخفى عن الناس أنه يرجح التعليل المذكور. اما نحن فسنأتي على مجموع هذه التعليلات ونبين وجوه عدم كفايتها في التعليل الا الفرض القائل بوجود عالم روحاني وراء هذا العالم بأقلام العلماء المجربين انفسهم بعد أن نفرغ من الاتيان على بعض تلك التجارب وعلى ضروب التحوطات التي اتخذت لها ليكون القارئ على بينة من تفصيلات هذا الموضوع الخطير.

...

تجارب العلماء

على الوسطاء

نشرنا هذه المقالة بمجلة المقتطف الصادر في شهر يونيو سنة ١٩١٩

لما ظهرت الحوادث النفسية تنفي بعض المقررات العلمية المعروفة تلقاها العلماء اولا بصفير الاستهزاء ظنا منهم أن اوهام الازمان الماضية تحاول ان تستعيد دولتها في عصر العلم التجريبي، ولم يزيدوا على ذلك فلما كثر ترددها اندفع بعضهم لكشف حيل الدالسين مدرعين بالاسلوب العلمي الصارم ، فلما قاومت كل مجهوداتهم اتهموا مشاعرهم وحواسهم ولم يسلموا بتلك الظواهر وان كانت محسوسة لشدة رسوخ المذهب المادي في نفوسهم، فزعموا انها من الخيالات التي تتراءى للانسان وهو في حالة الاستهواء ، وفرضوا ان الوسطاء تأثيراً على المجربين يشبه تأثير النوم

المغناطيسي على المؤمنين فيرون الصور التي تطوف بخيال منيميم كأنها حقائق مجسدة وماهي الا خواطر لا وجود لها في الواقع .

هذه شكوك لا تطوف برؤوس العامة ولا يعرفونها ، ولكنها من رجال العلم ضرورية، فان الموضوع الذي كانوا بصدده في منتهى الخطورة ، وكان هو المعركة الفاصلة بين المذهب المادي والمذهب الروحاني في الواقع .

فكان الاستاذ الكبير كروكس ، الذي وفاه المتطف حقه في الشهر الماضي من الرثاء ، يرى أيدي تتكون أمام عينيه فتلمس الحاضرين وتسلم عليهم مصافحة ، وتمسك القلم فتكتب صحفا طويلة رداً على كل سؤال يوجه اليها . ويرى أجساداً بشرية تامة تتكون امامه من مادتها الاولية فتكلمه وتسمح له بفحصها بكل وسائل الفحص العلمي وتجيب على أسئلته الفلسفية اجابات يقصر عنها الوسيط بل لا يفهمها . ورأى ألوف من العلماء غير هذه المرئيات عينها في كل بلد متمدن ، فكان هم هؤلاء العلماء ان يثبتوا أولا أن هذا الجسد المتكون شيء له حقيقة في الخارج وانهم ليسوا مخدوعين بمظاهر خيالية ولدها ذهن الواسطة واوجبها عليهم الاستهواء الذي قد يكونون وقعوا فيه بتأثيره . حتى اذا ثبت لهم ان تلك الظواهر ليست خيالية وانها مستقلة عنهم وعن الواسطة بحثوا عن حقيقتها كما يبحثون عن المحسوسات في عالم الشهادة .

فعمدوا أولا الى استشهاد الآلة الفوتوغرافية فرسموا تلك الايدي والاجساد الكاملة واتخذوا لذلك من التحوطات ما يليق بمكانتهم العلمية ، فكانوا يأتون بآلاتهم الخاصة وبزجاجات حساسة لم يمسها يد قبلهم ويتولون التصوير بأنفسهم ، فكانت شهادة الآلة موافقة لشهادة أبصارهم . والجمادات كما لا يخفى لا تقع في الاستهواء ولا تتأثر من الخيال . الا أنهم لم يقنعوا بذلك ، فكانوا يأخذون خصلا من شعور تلك الاجساد المتكونة وقطعاً من ثيابها ، كما فعل الاستاذ كروكس والوزير الروسي اكزاكوف وغيرهما ، ليكون بقاؤها واستمرارها بغير حضرة الواسطة أكبر دليل على انها ليست بخيالات ولكن حقائق . فاستمرت تلك الاشياء موجودة وصرح كل أولئك العلماء وفي مقدمتهم الاستاذ كروكس بأن تلك الاشياء لا تزال موجودة عندهم وقد مضى على بعضها نحو

خمسين سنة

الا ان الشكوك العلماء لا تقف عند حد فطلبوا المزيد لان المسئلة في حقيقتها معركة قاصلة بين مذهبين يتنازعان السلطان على عقول البشر منذ الوف من السنين. فاخترع الاستاذ (دونتون) *Donton* ، الجيولوجي الامريكي المشهور ، وسيلة حاسمة لهذه الشكوك ، وهي اخذ قوالب تلك الاعضاء بواسطة البارافين الذائب. وقد نشر اكتشافه في مجلة (البنراوف لايت) الامريكية ، ونقله عنه الوزير الروسي المشهور (الكسندر اكزاكوف) في كتابه المسمى (الانيميسم والاسبرتسم) ، وهو أشهر واكبر كتاب في علم الارواح ، لانه ثمرة جهود هذا الرجل العظيم في مدى خمس وخمسين سنة ، وقد ترجم الي عدة لغات . قال الاستاذ دونتون :

« علمت اخيرا انه لو غمس أصبع في البارافين الذائب وترك حتي يبرد تأتي للانسان ان يسحب اصبعه منه بسهولة ، ثم اذا ملىء هذا القالب بالجبس امكن الحصول على شكله بالدقة ، فكتبت للمستر هاردي ارجوه ان يهيي لي جلسة لتجربة مع مدام هاردي ، ولم اكشف له عن الطريقة التي نويت الجري عليها . فما لبث ان دعاني الي بيته فذهبت اليه ومعي شيء من البارافين والجبس فوضعت البارافين ذائبا تحت خوان وجلست مدام هاردي واضعة يدها عليه ، وجلست انا والمستر هاردي الى جانبيها ولم يكن معنا غيرنا .

« بعد قليل سمعنا حركة في اناء البارافين ، وبواسطة القرع على الخوان أمرت الروح مدام هاردي ان تقدم يدها بضعة سنتيمترات ففعلت ، ولم نلبث ان حصلنا على عشرين قالبا لاصابع ذات حجوم مختلفة منها اصابع اطفال واصابع كبيرة للغاية ، وكانت الخطوط الجلدية ظاهرة فيها اكمل ظهور ، وكان طول اكبر ابهام منها يبلغ ضعف طول ابهامي وكان أصغرها يبلغ طول اصبع طفل عمره سنة واحدة

« بينما كانت تحدث هذه القوالب كانت يد الواسطة على بعد قدمين على الاقل من البارافين . فالفت انظار الوسطاء الى هذا الاسلوب فانه يثبت للمنكر حقيقة تلك الاشباح ووجودها مستقلة عن جسم الوسيط » انتهى .

وكتب هذا الاستاذ بعد ذلك الى مجلة (البنراوف لايت) يقول:

« رأيت أثناء التجارب ظهور الاصابع المتجسدة مغطاة بالبرافين مرارا عديدة»

قال الوزير اكراكوف في كتابه المقدم ذكره صحيفة ١٣٢ من النسخة الفرنسية الطبعة الثالثة :

« تصور الاستاذ دونتون اقامة الدليل التالي وهو انه وزن البارفين قبل التجربة ثم وزن مابقي منه بعد التجربة مضافة اليه القوالب التي أخـذت فـكان وزن الجميع مساوياً الوزن الاول تماما . وقد جرب هذا الوزن على رؤوس الاشهاد مرارا كثيرة امام جم غفير بواسطة لجنة عينها الجمهور نفسه . وقد أعيدت هذه التجارب في بوستون وكارلستون وبورتلند . وبالتيمور وونشنجتون وغيرها من المدن فنجحت في جميعها نجاحا تاماً . ولكن النقاد لم يعتبروا مع هذا انفسهم مقهورين فزعموا ان الوسيط يمكنه ان يرفع بيده او برجله جزءا من البارافين يخفيه بوسيلة من الوسائل.فطلبوا ان يوضع الوسيط في كيس وان يربط من عنقه وعملت التجارب معه وهو على تلك الحالة امام الجمهور نحو عشرين مرة،فكانت النتائج ثابتة تحت مراقبة اللجنة التي عينها الجمهور نفسه .

« ولكن هذه التحوطات لم تقنع المنكرين فزعموا ان الوسيط يمكنه ان يفتق الكيس ويخرج منه يديه ويعمل مايريده ثم يخيطه ثانية ولو ان اعضاء لجنة المراقبة لم يشاهدوا مايبرر هذا الفرض . فعزموا ان يتخذوا تحوطات اخرى تصلح لاعطاء البرهان القاطع المطلق على صحة هذه التجارب. فاقترحوا ان تؤخذ القوالب داخل صندوق مغلق بمفتاح . قالوا اذا نجحت التجربة مع هذا الاحتياط الجديد كان برهانا دامغا وحاسما . فاليك وصف الصندوق الذى عمل خصيصا لهذه التجارب باشارة الدكتور جاردنر »

ثم وصف الصندوق بأنه من الخشب المصفح داخله بالحديد وخارجه بشبكة من ذلك المعدن ايضا وجعل له اقفال متينة والطال فى ذلك ثم قال:

« واذا كنا قد أطلنا في بيان تفصيلات هذا الجهاز فذلك لان عليه يقوم الحكم

بنزاهة الوسيط.

« حضرنا بعد ذلك عند مدام هاردي وكان الحربون الكولونيل فريدريك بوب وجون وتيرلي وج. س دراير وايس سارجنت ومدام دورا بريشام والمسيو هاردي وزوجته. فبدأ الكولونل بوب، وهو خبير بالنجارة، ففحص الصندوق من كل جهاته. وتقدم الحربون فأطالوا البحث فيه. ثم أرادوا ان يتحققوا هل من الممكن توسيع ثقب من الثقوب بآلة حديدية، ثم أعادته الى ما كان عليه، فحاولوا ذلك فوجدوه مستحيلا

« وضع الصندوق المستر وتيرلي وأتي بوعاء فيه ماء بارد في غاية الصفاء فوضعه في الصندوق بعد أن فتشه جميع الحاضرين . ثم أتي بوعاء فيه ماء مغلي وعلي سطحه قشرة ذائبة من البارافين وبعد فحصه بدقة أيضا وضع في الصندوق وأقفل بالاقفال . ولزيادة الثقة ختمت ثقوب تلك الاقفال بالشمع وختمت به كذلك جميع جهات اتصال الغطاء بالصندوق ثم جعل عليه غطاء من القماش .

« بعد اربعين دقيقة سمعنا قرعات سريعة حادة آذنتنا بنجاح التجربة ، فتركنا اماكننا ورفعنا الغطاء وفحصنا الاختام فوجدناها لم تمس ثم فحصنا الصندوق فوجدناه على ماكان عليه فرفعنا الشمع وفتحنا الاقفال، فوجدنا قالبا ليد عائما على سطح الماء فاضطررنا ان نستنتج من ذلك ان قوة لها خاصة التجسد صاغت ذلك القالب ووضعته في وعاء الماء ولم يكن بينه وبين يد الوسيطة أقل شبه»

فاليك النتائج التي وصلنا اليها :

(١) حدوث قالب يد آدمية في حجم اليد الطبيعية بواسطة قوة مجهولة.

(٢) الشروط التي حدثت فيها التجربة لاتدع ظلا من شبهة يحوم حول نزاهة الوسيطة.

(٣) كانت كل التحوطات من العناية والدقة بحيث تنفي كل شبهة في التدليس وفي تأثير الوهم ولذلك فنحن نعتبر شهادتنا نهائية

(٤) هذه التجربة حققت ماشاهده الباحثون من قبل وهو ان ايديا

قد تتجسد فتقاد بعقل منبعث من كائن غير مرئي ويمكن نظرها ولمسها .

(٥) حدوث قوالب من البارافين بانضمامها الى شهادة آلات التصوير يتألف منهما برهان محسوس على تأثير قوة عاقلة خارجة عن الاجساد المرئية وهذه التجارب تصلح أن تكون قاعدة للابحاث العلمية.

(٦) كيفية حدوث هذه القوالب داخل الصندوق تؤدى الى آراء سيكون لها أكبر تأثير على فلسفة المستقبل وعلى المسائل النفسية والفزيولوجية، وستفتح أفقا جديدا للمباحث في القوى الخفية وفي مستقبل الانسانية».

ثم يلي هذا المحضر امضاآت المجربين

قال الوزير اكزاكوف عقب ايراده هذا الكلام ان لهذه التجربة صبغة كافية من الصحة اذا نظر للاشخاص الموقعين عليها، نخص بالذكر منهم الاستاذ دنتون والدكتور جاردنر. وقد كتب المستر ايبس الكاتب الكبير الى مديرجلة الاسبريتواليست بلوندرة ما يأتي:

« لقد شهدت التجارب المذكورة فانا اضمن الصحة التامة للمحضر الذى تقدم عنها »

ثم نقل الوزير اكزاكوف شهادة النحات الامريكي المشهور (جون دوبيان) في الجبس المنصب في ذلك القالب وغيره قال:

« أشهد بأني نحات وقد اشتغلت امارس صناعتي منذ ٢٥ سنة منها عدة سنين أمضيتها في ايطاليا لدراسة أعمال كبار اساتذة النحت والتصوير، وقد عرض على المستر هاردى ستة أشكال من ايد عملت من الجبس ذات حجوم مختلفة ففحصتها في ضوء حاد بواسطة الزجاجة المكبرة فرأيت ان كلا منها يعتبر من الاعمال الدقيقة العجيبة لأنها تظهر جميع الدقائق التشريحية والبروزات والانخفاضات الجلدية بدقة ومهارة لم استطع للآن مجاراتها في أى يد صنعتها او في اى جزء آخر من أجزاء الجسم البشرى، اللهم الا اذا اخذت بواسطة الصب المباشر على الجسم أو على اى جزء آخر منه،

« واني اعلن هنا عن طيب خاطر بأن هذه القوالب لو تحصل عليها بأية طريقة من الطرق فانها تشرف اكبر صناع العالم . الخ الخ »

الامضاء (جون دوبيون)

قال الوزير اكزاكوف وقد اشترط فى التجارب التي اجريت فى انجلترة بواسطة الدكتور مونك ان تقدم الارواح القوالب وهى لاتزال فى ايديها الحاضرين فاليك بعض ماكتبه المستر (ويرس) فى ذلك (وهو من قضاة الانجليز) :

« بعد ان سمعنا حركة الماء أمرت ان أقف مكاني واستلم القالب بيدى فرأيت رجلا ممدودة الي وعليها القالب فامسكت به فانسحبت منها الرجل بسرعة البرق تاركة القالب فى يدى ».

وذكر الوزير المذكور عن تجارب المستر تيبيدمن مارتيز والمستراوكسلى والمستر ويرس بأنهم ادخلوا الوسيط في كيس من التل وجعلوا رأسه في داخله ثم عقد طرفه عدة عقد وجعل عليها عقدة خفية من الورق تسقط اذا تحرك اقل حركة وشبكت أطراف الاربطة بالدبابيس في ظهر الوسيط وشهد جميع الحاضرين بأنه يستحيل علي الوسيط ان يخرج من الكيس بدون ان يرى.

ونقل المؤلف المذكور عن الدكتور (روبيرت فريز) تجاربه في اخذ القوالب بلوندرة فذكر فيما كتبه قوله :

فلذا اخذ القالب علي يد عادية فيستحيل سحبها منه لان محيط المعصم اصغر بنحو بوصة ونصف البوصة من محيط الكف فلا يمكن سحب اليد الطبيعية من القالب الا اذا تمزق . فيمكن تعليل سحب الروح المتجسدة ليدها منه بدون تمزيقه انها تنحل فيه وتتركه ».

ونقل الوزير المذكور ماكتبه المستر (ديسمون فيتزجيرارد) العضو بجمعية مهندسي التلغرافات بلوندرة وهو قوله عقب ذكر تجاربه التي عملها والتحوطات التى اتخذها :

« لاجل فك الوسيط من اربطته اضطررت ان اقطع تلك الاربطة لعدم

نجاحي في حل عقدها، وأستطيع أن أؤكد بأن موضع الوسيط وحالة الاربطة كانت بالضبط في آخر الجلسة على ماكانت عليه في أولها ».

ادخال الوسيط في قفص من الحديد

لما حار الشاكون في أمر حصول هذه القوالب رأى الدكتور اشيد الانجليزى المعروف كما نقله عنه الوزير اكزاكوف ان يدخل الوسيط في قفص من الحديد وان يقفل بابه لا بمفتاح بل بالمسامير ذات البرغي (أي ذات القلاووز) فرأى رغماعن هذا التشدد كله تجسد روح امرأة ثم تجسد روح رجل جلس اليه كلاهما واعطاوه هو والمجربين معه قوالب لارجلهما .

هذا بعض التجارب التي عملت لاخذ القوالب في أكبر عواصم العالم المتمدنة وعلى أيدى رجال مرت الشكوك معدماتهم، وهي تثبت بالحس ان المجربين لم يكونوا مخدوعين ولا مصابين بالاستهواء، وان تلك الاشباح المتجسدة لها وجود حقيقي في الخارج وليست بصور خيالية . واني أترك القراء الحكم على تلك التحوطات وعلى قيمة المجربين، وأذكرهم بأن هذه التجارب تعمل منذ سبعين سنة الى اليوم ولم يستطع منكر اثبات التدليس فيها . وليست هذه التجارب بشيء في جنب ماسيراه القراء . فالحدث الذي حني رؤوس أقطاب المذهب المادى واركان العلم الرسمي في اوروبا ليس بالشيء الصغير . ولا عجب ان حنت هذه المشاهدات ارفع الرؤس فان المكابرة في المحسوسات ليست من العلم ولا من الحكمة ، والكون كبير وقواه لاتعد، وما علمناه منها بواسطة حواسنا الخمس القاصرة لايعد بجانب مالم نعلمه شيئا ، فيا صاح لاتقنع بانك صاح .

لما نشرنا هذه المقالة في الجزء نفسه جاء في المقتطف ما يأتي :

الامتحان العلمى

فى المباحث النفسية

كل ما وقفنا على نتائجه قبـل الآن من الامتحان فى المبـاحث النفسية إما قام به شخص واحـد فوجب أن تكون نتيجته حسب هواه أو استعداده او اقتناعـه السابق أو تغلب الوهم عليـه ، وإما قام به اثنان او ثلاثة في يوم أو يومين أو ايام قليلة فكان عرضة للخطأ أيضاً، ولذلك لم تصبح هـذه النتائج من الحقائق العلمية مثل غيرها من المكتشفات الحديثة كالتلغراف السلكي واللاسلكي والتلفون السلكي واللاسلكي والاحتراق الداخلي الذي بني عليه استنباط الاتوموبيل والغواصات والطيارات وكامل الامراض المنسوب الي المكروبات وعلاجها بالمصل المستخرج منها، ونحو ذلك مما امتازت به السنون الخمسون الاخيرة . ولاعبرة بما يقال من ان الارواح استخدمت فى اكتشاف مواقع المياه في الارض والاستدلال على الخبآت والانباء بما أصاب بعض الجنود في الحرب فان ذلك كله مشمول بالريب ولو كان صحيحا لذاع في أطراف المسكونة ورأينا العمل به فى هذا القطر كانرى العمل بالتلغراف والتلفون والطيارات والاتوموبيلات والتطعيم بالمصل فى علاج الدفتيريا والتيفويد .

وبعد فقد وقفنا الآن فى مجلة ناتشر الصادرة فى ١٧ ابريل الماضي على خلاصة امتحان مستفيض فى المباحث النفسية في اعظم معهد علمي بأمريكا فذلك أن المستر توماس ستانفرد اخا لالند ستانفرد منشيء الجامعة الشهيرة في كليفورنيا وهب تلك الجامعة عشرة آلاف جنيه لكي تستخدمها في المباحث النفسية ، وكان

الدكتور جوردان العالم الشهير رئيساً لتلك الجامعة، فسأل أساتذة فرع العلوم النفسية هل يقبلون هذه الهبة ويتولون هذا البحث فترددوا أولا في قبولها، ولكنهم عادوا ونظروا في الامر واستشاروا أساتذة الجامعات الاخرى فقر القرار أخيراً على قبول الهبة والجرى في الامتحان، وعينوا الدكتور كوفر لادارة هذا العمل وهو من أكبر علماء البسيكولوجيا (أى علم النفس أو الفلسفة العقليـة)، وقد نشر الآن تقريره الاول وهو مجلد ضخم فيه ٦٦٣ صفحة .

وفي القسم الاول من هـذا الكتاب خلاصـة التجارب التي جرّبت في التلبثي أى انتقال الافكار لحزر أوراق اللعب وقطع الزهر وما أشبـه فكانت نتائج عشرة آلاف امتحان على مدقق أجريت في تلامذة المدرسة الذين يميلون الى الاعتقاد بقراءة الافكار سلبية كلها .

ثم أجريت التجارب فى عشرة من شديدى الشعور النفسي وخمسة منهم وسطاء فى السبرتزم وكلهم من المخلصين المعتقدين بصحة شعورهم وقد تبرعوا لاجراء الامتحان فيهم من غير أجر فكانت نتيجة الف امتحان أن شـدة الشعور النفسي لا تفيد أكثر من الوسائل العادية، أى أن حزرهم لم يزد على ما يتفق حدوثه حسب قواعد الصدفة .

والتجارب التي أجريت لاثبـات انتقال الشعور من شخص الى آخر كانت نتيجتها كلها سلبية أي لم يثبت منها انتقال الشعور .

أما التجارب التى أجريت لمعرفة تأثير العقل الباطن كما أشار الفيلسوف برغسن فدلت على وجود شيء من الشعور لا يتناوله الوجـدان في الغالب، ولكنه مستعد لدخول الوجدان ويدخل فعلا في وجدان بعض الناس، والمرجح أن هذا الشعور يدل في ما يروى من حوادث التلبثي أو انتقال الافكار كما اثبت البعض .

ومما امتحن أيضاً ما يتصور الانسان انه سمعه اذا كان الكلام الذى سمعه غير واضح تماما سواء كان الكلام من فم متكلم في الهواء أو بآلة كالتلفون أو الفونغراف فظهر أنه لا يمكن الاعتماد على الاذن في سماع الاصوات والجمل اذا سمعتها في أحوال

عنم وضوحها

وختمت مجلة نانشر ما كتبته من هذا الكتاب بما مفاده ُ ان الدكتور كولر قام بما طالب منه ونشر نتائج تجارب على غاية الدقة قام بها رجل مجرّب

هـذا ما وصل اليه البحث العلمي الدقيق حتى الآن ولـكن هـذه النتيجة لا تنفي أن يتصل البحث والتحقيق غداً الى اثبات أمور كثيرة لم يستطيعا اثباتها حتى الآن لانه يبعد عن العقل أن لا تثبت الارواح وجودها بأدلة مقنعـة كما أنـه لا يستحيل أن يكون شعور الانسان لايزال ضعيفا وقـد يرتقي حتى يدرك ما لايدركه الآن.

...

هذا ما نشره المقتطف في ذلك الجزء ووجدنا في باب المسائل منه أيضا رداًله على سؤال وجهه اليه أحد قرائه تصدى فيه لهذه المباحث ونحن ننشر السؤال والجواب عليه كما ورد ثم نرد عليه وعلى المقالة معا فاليك:

(١) السر وليم كروكس والسير ترنر

مصر. طالب علم. أرأكم تخطئون السر وليم كروكس في اعتقاده صحة مناجاة الارواح مع اعترافكم بأنه من أكبر العلماء الطبيعيين المكتشفين . أفلم يكن علمه كافيا لان يعصمه من الانخداع اذا كان الوسطاء خادعين حقيقة؟

ج. ان العلم بشيء لا يستلزم العلم بكل شيء . فأكبر علماء الشرع لايستلزم علمهم به أن يعلموا أيضا أصول علم الهندسة أو اصول علم الطب أو أصول علم الكيمياء ، بل أن النابغين في علم من العلوم قد يفتهم نبوغهم فيه من ادراك غيره ، حتى لقد ادّعى بعضهم ان النبوغ فى أمر نوع من الجنون أو يلازمه شيء من البله في أمور أخرى . ونحن نبرىء السر وليم كروكس من ذلك ولكننا لا نبرئه من الانخداع فقد اعتقد أن الوسيطة مس كوك على تمام الصدق والاخلاص ، فوثق بها تمام الثقة ، واعتقـد أيضا أن الوسيط هوم من الصادقين واستعمله كثيراً كوسيط في مباحثه النفسيـة . لـكن هوم هذا قال المسيو فلامريون الفلـكي الشهير أن مس كوك خدعته وقد خدعت

السر وليم كروكس .وهذا نص عبارة فلاماريون في كتابه الاخير المطبوع بباريس سنة ١٩١٧:

(هنا أورد المقتطف عبارة كاميل فلاماريون باللغة الفرنسية ثم أورد ترجمتها بقوله)

أي قال المسيو هوم نفسه ان رأيه أن مس كوك خداعة ماهرة وقد خدعت ذلك العلامة الشهير بدناءة

وقال فلاماريون في مكان آخر من كتابه هذا:

(وهنا أورد المقتطف أيضا عبارة الاستاذ كاميل فلاماريون باللغة الفرنسية ووضع ترجمتها كما يأتي:)

« اى ان المشاهدات التي شاهدتها مدة أكثر من أربعين سنة لم تثبت صحة شيء، بل اثبتت لي عكسه »

ونحن لم نر من المشاهدات قدر ما رأى فلاماريون ولكننا رأينا منها (مدة اكثر من أربعين سنة) ما أقنعنا بأن اعمال الوسطاء كلها من قبيل الشعوذة والخداع والانخداع وقد يخالطها شيء من عنعنات العقل الباطن ينطق به الوسيط وهو لايدري .وهي سخيفة تافهة الي حد ان قلنا فيها مرارا ماقاله الشهير هيكسلي وهو انني افضل ان اكون زبالا هنا على ان اموت وتأتي روحي الى وسيط فتنطق بالسخافات التي تنطق بها الارواح بلسان الوسطاء المأجورين بجنيه كل جلسة »

وقد قلنا الشواهد المتقدمة من مقالة للكاتب الكاثوليكي الشهير وليم للي W.S.Lilly نشرت في الجزء الاخير من مجلة القرن التاسع عشر وهو يعتقد ان الارواح يحضر احيانا في جلسات المنوتزم ولكنها ليست أرواح الموتى كما تدعى بل ارواح [illegible] . فخلصنا من ورطة ليوقعنا في شر منها وهو القول بخطفات. أما نحن فقد رأينا [illegible] بالاستهواء يتكلمون بخفة روح كالمنتشين في اول تحشيشهم ويظهر [illegible] الفريقين من قبيل واحد (انتهى كلام المقتطف)

فردّنا نحن على مقالة المقتطف وجوابه على السؤال بهذه الرسالة وقد نشرت فيه بجزئه الصادر في يوليو سنة ١٩١٩:

تجارب العلماء

على الوسطاء

أرى من متعلقات هذا البحث ان آتي بكلمتين في بيان معنى المباحث النفسية فقد غمض على القراء التفرقة بين معنى هذه الكلمة في مقالاتي ومعناها في مقالة المقتطف التي وضعها في صفحة ٤٤٥ عنوانا للجملة التي اقتطفها من مجلة ناتشر الامريكية فنقول :-

كلمة *Psychisme* تطلق ويراد بها جميع المباحث المتعلقة بالنفس فمنها مباحث في التنويم المغناطيسي الحيواني وأخرى في الحالات المختلفة للامزجة وغيرها في التلبثي ، وهي تأثير نفس الحي على نفس اخرى لحي آخر من بعد ، ومنها مباحث في العقل الباطن ، ومنها مباحث في خواص الوساطة وما يحدث بسببها من الاتصال بالعالم الروحاني ومخاطبة العوالم التي فيه ، وظهور الخوارق العادة بتأثيره . كل هذه الابحاث توصف بكلمة (بسيشيك) أي نفسية . فالفرع الذي بحث في جامعة كاليفورنيا هو المسمى بالتلبثي والعقل الباطن ولسنا نعول عليهما في مبحثنا في المقتطف لان المسلك اليهما وعر وهما حديثا عهد بالظهور ولم تهذب وسائل التجربة فيهما بعد . ولكننا هنا نعول على الفرع المثبت للعالم الروحاني والاتصال بالاحياء التي فيه ، والخوارق التي تعملها للمجربين . فهذا هو الاصل في هذه المباحث وعليه المعول في اثبات العالم الروحاني وقيام الروح مجردة عن المادة . فسواء استطاع اساتذة جامعة كاليفورنيا ان يثبتوا التلبثي التي اثبتها اساتذة جامعة كيمبردج الانجليزية (لدج ومير [illegible]) او لم يستطيعوا فالعالم الروحاني مثبت بالتجربة بخواص الوساطة التي تكلمنا عنها هنا .

ولعل المقتطف يريد من قوله عن هـذا المبحث :«إما قام به شخص واحـد فوجب ان تكون نتيجته حسب هواه أو استعـداده أو اقتناعـه السابق أو تغلب الوهم عليه،وإما قام به اثنان اوثـلاثة في يوم أو يومـين او ايام الخ » قلنا لعل المقتطف يريد بهذا القول مبحث التلقي، اما مبحث خواص الوساطـة والاتصـال بالعـالم الروحاني الذي نتكلم عنـه هنا فلا ينطبق عليـه هـذا القول،فان اول قرار علمي صدر في اثباته كان من لجنة الجمعيـة العلمية الانجليزية، وكانت مؤلفة من ثلاثين عالماً من اركان العلم العصرى وقد استمروا في بحثها ثمانيةعشر شهرا.وتقريرهم المفصل الذى رفعوه مطبوع فى مجلد ضخم بالانجليزية والفرنسية ولغات اخرى . وقد تألفت فى أمريكا وانجلترا وفرنسا جمعيات للبحث تعـد بالمئات نأتي على اسمائها وعنوانات مجلاتها ان طلب منا ذلك. اشهر هذه الجمعيات جمعية المبـاحث النفسية التي تأسست في لوندرة سنة ١٨٨٢ اى منذ سبع وثلاثين سنةولاتزال موجودةللآن وهى مؤلفة من اكبر علماء الانجليز ولها مجلة خاصة ولفروعها بفرنسا وامريكامجلات ايضا . يدير مجلة الفرع الفرنسي الاستاذ شارل ريشيه العضو بالمجمع العلمي والمدرس بالجامعة الطبية بباريز .

فهذا الفرع بحثه الجماعات لا الافراد،ودام البحث فيه عشرات السنين لا يوماً ولا يومين، حتى صارت مشاهداته أقرب من مشاهدات علم الطبيعة،وعددمجلاته اكثر من عدد المجلات الطبية. منها مجلة (المغناطيس والعلوم النفسية) وهى تصدر منذ ٧٣ سنة و (المجلة الروحية) وعمرها ٦٢ سنة وغير ذلك مما لا تكفيني فى بسطه عشرات الصفحات

ولست اختم هذا الفصل حتى انبه القارىء الى تدليس احد رجال المذاهب والى فضيلة المقتطف . ذلك ان المقتطف في رده على سؤال طالب علم صفحة ٥٩٧ أتى بعبارتين للعلامة (كاميل فلامريون) نقلا عن مقالة للمستر (والم لي) ظهر من ورائها العلامة فلامريون من اشد المنكرين للمباحث النفسية . وأى انكار بعـد ان يقول جربت اكثر من اربعين سنة فثبت لى عكس مايقال؟

قرأت هذا الكلام فدهشت لاني أعرف ان كاميل فلامريون يكتب في اثبات العالم الروحاني بالتجربة الي مايو الماضي . فتناولت كتابه الذي نقل منه القس وليم الي فلم أمالك نفسي من الضحك اذا وجدته فعل بكلام العالم الفلكي مافعله بعض الزنادقة بالقرآن الكريم في آيتي « لاتقربوا الصلاة وانتم سكارى » « وويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون » فأخذ المستر وليم الي صدر كلام فلامريون وترك بقيته فجاء المعني مبايناً لما قصده المؤلف ومظهراً له بغير صورته الحقيقية واليك تكملة هاتين العبارتين :

جاء في عبارة العلامة فلامريون بعد قوله : «وقد خدعت ذلك العلامة الشهير» قوله « وانه هو وحده دانيال دوجلاس هوم الوسيط الوحيد الذي يمكن ان يوثق به ثقة مطلقة » ومن الغريب ان الاستاذ المؤلف وضع هذه الجملة الاخيرة بالخط الواسع ادلالا على غاية الاستهزاء بالوسيط هوم . ثم قال عقب ذلك :

« والذي علم وشاهد منافسات الوسطاء ، وهي لاتفترق عن منافسات الاطباء والممثلين والموسيقيين والنساء ، لايري لحديث المستر هوم هذا قيمة حقيقية ذاتية » انتهى فالاستاذ كاميل نقل قول هوم مستهزئاً به لامثبتا له.

وقد سلك (وليم الي) هذا المسلك عينه في عبارته الثانية . وذلك ان (كاميل فلامريون) بعد ان سرد مشاهداته ومشاهدات غيره في كتابه (القوي الطبيعية المجهولة) أراد ان يجد لها تعليلا علميا، فعرض جميع التعليلات ومنها التعليل القائل بأن علة الخوارق من عمل ارواح الموتي فلم يقبل هذا التعليل (١) وقال انه في مدي بحثه أربعين سنة لم يرما يؤيده مع اعتقاده صحة المشاهدات ورأى ان يعزوها اما لمجموع عقول الحاضرين أولا رواح مجردة مجهولة الطبيعة.

ثم قال بعد ذلك في صفحة ٥٨٨

« ومع ذلك فان الفرض الروحاني يجب حفظه في مستوي الفروض السابقة

(١) (المقتطف) ان القرينة في جوابنا وفي كلام المستر الي تفيد نفي فلامريون لمناجاة أرواح الموتى لاغير

لان المجادلات لم تدحضه الي الآن » .

ثم زاد في هامش تلك الصفحة قوله :

« كانت تحت نظري حديثاً مشاهدات تشهد لهذا الفرض (الروحاني) فالاولى والثانية من الاحدى عشرة مشاهدة يمكن ان تكون عرفت من القواميس والثالثة والخامسة من الجرائد (اى مرت روح الوسيطة فقرأت ذلك عندما شاءت عنه في القواميس والجرائد)» ولكن بالنسبة للسبع الاخرى نرى ان قبول صحة شخصية الروح هو احسن الفروض المفسرة لها » .

ومن المدهشات ان العلامة (فلامريون) الذى أظهره لنا المستر ولي عظهر أشد المنكرين أتى بأشد اللوم على الذين ينكرون صحة هذه التجارب بعد ان جازت كل أدوار الامتحانات فقال بعد تأنيبه للمنكرين :

« هذا التعليل الساذج الذى مؤداه ان كل مافي هذه الظواهر . ليس قد عرضناه كثيرا في هذا الكتاب وجادلنا فيه ودحضناه وقد صار قرائي يعتبرونه باالرجوع محكوماً عليه حكما تاما مطلقا نهائيا ومطروحا خارج دائرة البحث » انتهى

ولكن بقدر ماأضحكني تدليس المستر (وليم لي) اعجبني المقتطف في عزوه الكلام الي ناقله وتحميله تبعته، وهذا من التحفظ الذى يجب علي كل متكلم في العلم ان يتوخاه .

عود لموضوعنا الاول

أكتب هذا الفصل وبين يدى عشرات من مؤلفات العلماء وتقارير الجمعيات وكلها خاصة بالتجارب الروحية في كل ضرب من ضروب القوى النفسية فما علي الا ان اختار ولن اختار الا تجارب أهل العلم الطبيعي فهم اعلم بسلامة الدليل وطرق الامتحان وفي قلوبهم من الجمود الالحادى مايحملهم علي زيادة التدقيق ، فكلمة واحدة من مثل وليم كروكس أو اوليفرلودج او سيدجويك تفوق في نظرى مئة الف كلمة

من كبار سنيد وساردو وفيكتور هوجو من كبار الكاتبين ونبغاء الشعراء من المصدقين بالاسبرتزم . ولو كان الذي يشهد للاسبرتزم عالم أو عالمان لقلنا مجنون أو مجنونان ، ولكن عددهم أصبح يقدر بالالوف وفي كل أمة متمدنة فلا يعقل أن البله والجنون يشمل هذا العدد العديد من رجال العلم النابهين في مدى سبعين سنة .

بعد أن تحقق أهل العلم أن ما يحدث من الخوارق في أثناء تجاربهم ليس بخيالات عمدوا الى النظر في القوة العاقلة التي تحدث هذه الظواهر وتدعي انها من سكان العالم الروحاني . فقالوا ان لم تأتنا هذه القوة بدليل معنوي يمكن الركون اليه سهل تعليل حصول تلك الخوارق بتأثير روح الوسيط أو بمجموع أرواح الحاضرين أو من عامل آخر يبحث عنه .

لهذا اهتم العلماء كل الاهتمام بالمحصول العقلي لهذه التجارب فسألوا تلك الكائنات عن مسائل شتى في العلم والفلسفة والامور الغيبية ليتحققوا مما اذا كانت الاجوبة التي تعطيها عنها يمكن تعليلها بأنها صادرة من عقل الوسيط أو عقل أحد الحاضرين نقلها من طريق قراءة الافكار (اون كانت قراءة الافكار من متعلقات العلم الروحاني أيضا) . فنختار من ألوف التجارب التي بين أيدينا ثلاثا احداها موضوعها اجابة الروح على مئة مسألة علمية من أعوص المسائل . والثانية حلول مسائل فلكية والاخبار بوجود جرم سماوي قبل اكتشافه بثمانية عشر عاما . والثالثة اتمام الروح لنصف رواية كان وضعها الكاتب الانجليزي الطائر الصيت ديكنز ومات قبل اتمامها فجاءت روحه فأتمتها امام أعين المجربين :

١ — اجابة على مئة مسئلة علمية

كتب العلامة ب . ت باركس *Barkas* الجيولوجي الانجليزي العضو بالجمعية

البيولوجية في مجلة (اللانيت) الانجليزية يقول :

«دعيت لحضور سلسلة من جلسات روحية تجريبية في بيت امرأة ليست من الوسيطات المأجورات، تربيتها العلمية عادية، فالقيت عليها مسائل كنت أحضّرها في أثناء التجربة، وكانت تجيب عليها كتابة في جلسات تستغرق الواحدة ثلاث ساعات. فدأبت على ذلك ٣٦ ليلة، فجاءت الاجوبة من السداد والقوة بحيث لا يوجد في انجلترا كلها فيما يرجح رجل واحد يستطيع أن يجيب اجابات بهذه الدقة في مثل هذه الاحوال على كل هذه المسائل»

وجاء في مجلة (بسيكولوجيال رفيو) الانجليزية ذكر عن هذه التجارب في الصفحة ٢١٥ من مجلدها الاول قالت:

«لا يجوز أن يغيب عنا أن الوسيطة تربيتها عادية، وكانت محاطة برجال يراقبونها بيقظة، وكانت المسائل تحضر وقت انعقاد الجلسة وهي تجيب عنها كتابة بسرعة عظيمة كأنها ترتجلها ارتجالا، ثم لا تعود بتصحيح بعض ما كتبته. وكانت هذه المسائل من علوم شتى لاتميل اليها النساء عادة. ويؤكد الذين عرفوها فوق ذلك انها لاتهتم بالعلم ولم تقرأ في حياتها كتاباً علمياً واحداً»

وقال الوزير الروسي اكزاكوف في كتابه (الانيميسم والاسبرتسم) عن هذه التجربة في صفحة ٣٣٢:

«كان أكثر المسائل يحضرها الاستاذ باركس اثناء التجربة ولا يطلع عليها أحداً من الحاضرين. وكانت الوسيطة تكتب الاجوبة عليها في الظلام وهي متنبهة»

ثم سرد الوزير عدداً من تلك المسائل وما أجابت به الروح عنها ونحن نختار سؤالين منها ليرى القراء مبلغ صعوبتها وهما :

(١) هل تستطيع أن تقول لي (يخاطب الروح الذي يحرك يد الوسيطة) كيف يمكن حساب العلاقة التي تربط الذبذبات النوعية للهواء المأخوذ بحجم معين وتحت ضغط ثابت على حسب السرعة المعلومة للصوت أو السرعة المحددة بواسطة قاعدة نيوتن ؟

(٢) هل تستطيع أن تفسر لي اصل الذبذبات الهوائية الناتجة من الانضمام الناقصة ؟

هذان سؤالان من مئة ليس في بلادنا هذه واحد يجيب عنها ولا يوجد في انجلترا كلها وهي مركز العلم والعلماء واحد يستطيع أن يجيب عليها كلها بدون تحضير فهل يعقل أن تجيب عنها امرأة تربيتها العلمية عادية وأن تكتبها بسرعة البرق وفي الظلام وهي تحادث الحاضرين في اثناء اشتغال يدها بالكتابة ؟ قبل ان يسرع المنكرون الى تعليل هذا الامر انقرأ ما كتبه عنها باركس نفسه في مجلة (الاسبريتواليست) الانجليزية ونقله عنه الوزير اكزاكوف في كتابه فيما قاله :

« يوافقني كل انسان على ان هذه الاجوبة المختلفة لا يعقل أن تصدر الامن انسان واسع الاطلاع جداً على أعرض الفروع المختلفة للعلم. وقد اعطتنا الوسيطة غير هذه الاجوبة المختصرة رسائل تامة على الحرارة والضوء والفزيولوجيا النباتية والكهرباء والمغناطيس والتشريح ويمكن أن يقال أن كل واحدة من هذه الرسائل تشرف رجلا من رجال العلم . وجميعها صدرت منها بدون تحضير وبلا اقل تردد

« والوسيطة طول مدة التجربة تكون في حالتها العادية وتحادثنا وتجيبنا على كل سؤال توجهه اليها في الامور العادية بلا تكلف ولم يبد اثر العالم الخفي عليها الا في استيلائه على يدها وتحريكها بإرادته دون ارادتها.

« فاني اشهد بأني قد وضعت بنفسي اكثر هذه الاسئلة ، وان الوسيطة لم تعرفها قبل ذلك بل لم يكن في جميع الحاضرين من يعرف عبارتها غيري . وقد كنت اكثر هذه الاسئلة بدون تحضير عقلي، فكانت الوسيطة تجيب عنها تحت نظرنا وكان يستحيل عليها ان تستمد الاجابة عليها.

« واضيف الى هذا انها لم تأخذ فلسا واحدا اجرة على تلك الساعات التي سخرتها فيها وهي لا تقل عن مئة ساعة ضحتها بكل نزاهة للدروس الخاصة الجليلة التي طلبها الوساطة »

انتهى

لما نشر الاستاذ باركس تجاربه هذه عنيت بها جمعية المباحث الفنية واعتبرت بعد نقدها من التجارب التي تستحق الاعتبار ودونتها في مجموعتها.

وكتب الوزير اكزاكوف الي العلامة باركس يسأله امورا ايضاحية فأجابه بكتاب ننقله من الانيميسم والاسبرتسم تأليف الوزير المذكور صفحة ٢٣٨ قال باركس :

« سيدي : تسألني عما اذا كنت انا نفسي استطيع ان اجيب علي الاسئلة الطبيعية التي وجهتها الي الوسيطة بمثل الدقة التي اجابت بها عنها ثم تريدون ان تعلموا الوجه الذي نستند عليه في القول بأن هذه الاجوبة ليست نتيجة قراءة الافكار . فأجيبكم بأن الاسئلة التي وجهتها الي الوسيطة في علم الطبيعة كنت استطيع ان اجيب علي بعضها ولكن بأقل اتقان منها.

« وقد كانت الاجوبة التي اجابت بها الوسيطة علي وجه عام تفوق معارفي كثيرا في ذلك الوقت (قبل ١٢ سنة) وهي لاتزال ارقي من معارفي الحالية اذا طلب مني ان أجيب عنها بدون تحضير.

« وفي هذه الاجوبة كثير من المصطلحات الفنية كان لايدور بخلدي أن آتي بها لعدم استعمالي لها . ويوجد في تلك الاجوبة أيضا عبارات أجهلها كل الجهل كقولها غشاء ادنيه *Adnée* فلم اصادف في هذه المدينة كلها (نيوكاسل اون تاين) غير طبيب يعرف معناها .

« واني استطيع ان اوكد لك بشرفي انيلم اكن استطيع ان اجيب بمثل هذا التفصيل علي جزء كبير من المسائل الطبيعية التي وجهتها الي الوسيطة بدون ان اطلع عليها احد او كان من بين المسائل عدة لااستطيع ان أجيب عنها ابدا.

« وقد رجوت أحد اصدقائي ممن يتقنون علم الموسيقى ان يضع لي اسئلة فيها فنتمل ولم أحاول انا ان افهمها ثم وجهتها بعد ذلك الوسيطة فكتبت أجوبتها بدون تردد . تلك الاجوبة التي قرأتموها وقرأها غيركم ولم يكن موسيقي واحد في تلك الجلسة

(يريد بذلك انها لم تقرا الاجوبة في افكار أحد من المجربين) وكانت معارف الوسيطة ذاتها ابتدائية في الموسيقي .

«وأني امرجد السرور اذا رأيت ولو حادثة محققة يجيب فيها وسيط حساس من العوام غير متوسم بالكتابة وبعبارات علمية صحيحة ، على اجوبة موسيقية وعلمية بواسطة قراءة الافكار او بتأثير ارادة رجل عالم او موسيقي عليه .

« تسألونني ان ابين لكم المسائل التي كنت لا أستطيع انا ولا واحد من الحاضرين الاجابة عليها فأجيبكم بأنه في الجلسة الاولى التي كانت مخصصة للموسيقي لم يكن في الحاضرين واحد يستطيع الاجابة عنها بجواب معقول . ولم يكن منهم واحد يستطيع الاجابة على الاسئلة الكيماوية والتشريحية والخاصة بالعين والاذن والدورة الدموية والمخ والمجموع العصبي ومواضيع كثيرة أخرى تتعلق بالعلوم الطبيعية الا ان المستر (ل) كان على شيء من علم الكيمياء الطبية ولكنه ما كان يستطيع ان يعبر عما يعلمه بسهولة وكنت انا على علم بمبادىء علم الطبيعة . واما بقية الحاضرين فكانوا من ابعد الناس عن هذه المسائل

« تفضلوا بقبول ..... الخ »

التوقيع : ب . ث . باركس

وانا لا اتولى بيان قيمة هذه التجربة وقيمة الذي قام بها فمن اراد التعليل فليطلل حركة غير ارادية لليد تجيب على مئة سؤال من اعوص المسائل العلمية لا يوجد في انجلترا كلها من يجيب عليها بدون تحضير فتكتبها بسرعة عظيمة في الظلام او في النور تحت اشراف الحاضرين بينما صاحبة تلك اليد تكلم المجربين بدون تكلف كأن يدها لم تفعل شيئاً ، ثم لا تأخذ على هذا اجراً ولا تريد ذكر اسمها ايضاً .

نرجيء ذكر التجربتين الباقيتين للجزء المقبل ان شاء الله

• • •

رد المقتطف علينا

نشرنا في المقتطف هذه المقالة في رد علينا في جواب رد به على أحد سائليه من ذلك الجزء نفسه، ونحن نورده هنا ليطلع عليه القراء، ولم نشأ أن نناقشه فيه لانه مجرد شبه يمكن أن توجه الى كل بحث، وفي مجموع مقالاتنا الكفاية في ازالتها. اليك السؤال المذكور وجواب المقتطف

(٤) مناجاة الارواح

ومنه . ذكر محمد بك فريد وجدي في مقالاته (اثبات الروح بالمباحث النفسية) مقتطف ابريل أن قد بلغ هـذا من العمر أكثر من سبعين سنة وهو يزداد رسوخاً ويزداد مشاهداته وضوحا حتى اصبحت من الحقائق التي لا يصح الامتراء فيها وقد تألفت لها في كل عواصم البلاد المتمدنة الجميات ومنها ما يعد عمرها بعشرات السنين الخ . ثم قال « وقد سئلت الارواح عن حجج ومستندات ضائعة فعينت مواطنها » وسئلت عن تفاصيل حوادث وفيات مجهولة فانبأت عنها، وسئلت عن مقادير ديون فقدرتها، وعينت الدائنين وما لكل منهم بالضبط، واستخدمت في المخابرات بين امريكا وأوربا في أمور معجلة فقامت بما عهد اليها بأكثر وأضبط من التلغرافات، وسئلت اسئلة فلكية عويصة فأعلنت بأمور لم تكشف الا بعد سنين عديدة . كل هذه الامور مقررة ممحصة اكثر من تمحيص الامور الفزيولوجية»

«فكيف نرى حتى اليوم في أرقي الممالك مدنية اموالا طائلة تصرف وعشرات الالوف من الناس تستخدم في اثبات القضايا والجرائم، وكيف يعاني اهل العلم ما يعانونه في اكتشاف غوامض اسرار الطبيعة وعند هذه الممالك ما يكفيها مؤنة البحث والجهد ولا يكلفها غير استئجار الوسيط. فهل العالم في غفلة وسبات الى حد العدم حتي يهمل

ذلك؟ وكيف يصدق ذلك محمد بك فريد مع سعة اطلاعه وغزره علمه؟

ج . ان ماذكره فريد بك ترجح انه لم ير شيئاً منه بعينه، ولم يقع شيء منه في اختياره، بل قرأه في كتب القوم ومجلاتهم . أما كونه موجوداً في كتب القوم فلا شبهة فيه ولا شبهة أيضا في انه ان كان الذين يصدقونه يعدون بالمئات فالذين لا يصدقونه ولا يعلمون به يعدون بالملايين، وهم لا يصدقونه لا كبرا ولا عندا ولا جهلا، بل اما لانهم لم يعلموا به او لانهم علموا به ورأوا انه غير صحيح، وان الذين يصدقونه مشوشون. وقد وقع لنا ان شاهدنا الذين يقرأون الافكار والذين يستنطقون الموائد والذين يناجون الارواح والذين يخبرون بالغيب والذين يكتبون بالبلنشت، وكان معنا اناس رأوا ذلك معنا واعتقدوا صحته، وبعضهم علماء وبعضهم اطباء، واما نحن فلم نرفيه شيئا خارقا للعادة مطلقا . ورأينا مع جمع كبير في اوتل شبرد كمبرلند يقرأ الافكار ويكتب بالعربية وهو لا يعرف حرفا منها، كتب اسما واضحا اضمره احد الحضور وكنا قد فسرنا كيفية عمله لما قابل الخديوي توفيق ورسم صورة فيل الخديوي قد اضمر صورته، ثم لما رأيناه في اوتل شبرد فسر هو كيفية عمله فاذا هي كما فسرناها نحن كما ترون في مقتطف فبراير ١٨٩٣ وقد فسرنا اعمالا اخرى للذين شاهدوها معنا فلما رأوها ثانية زالت غرابتها من نفوسهم . وقرأنا بالامس مقالة للكاتب الروحي الشهير المستر ستوت ذكر فيها انباء بعض الوسطاء بعدد الجوهر في عناصر الاجسام، ذكر ذلك معجبا به غاية الاعجاب، مع ان بعضه غير صحيح والبعض الآخر مبهم ويستطيع كل من قرأ اصول الكيميا . وما يظنه الكيماويون من وضع الجواهر في العناصر ان يقول به كما قال الوسيط كأن الوسيط اطلع على كتب الكيماويين التي فيها آراؤهم في تأليف الجواهر موضحة بالرسوم فرسخت تلك الرسوم في ذهنه وذكرها وهو نائم كما يذكر من يحلم حلما ماهو راسخ في ذهنه . والعلماء الطبيعيون في أوربا وأميركا يعدون بعشرات الالوف فلا عجب اذا انخدع مئة او مئتان منهم لاسيما وان العلماء من ابسط الناس في الغالب، واقلهم مقدرة على كشف الخداع . وهذا غير خاص بعلماء أوربا واميركا ولا بعلماء هذا العصر بل هو شائع في كل العصور حتى جاء المثل

العربي القائل والمغنطية الحامل ». والذى يقرأ كتب المعتقدين بمناجاة الارواح ولا يقرأ الردود عليها يتعذر عليها ان لا يصدقها، ولا سيما اذا لم يشاهد حوادثها بنفسه ومعه واحد يفسرها له . وفلامريون من أشهر الباحثين فى هذه المواضيع ويظهر لنا مما استشهد المستر قلي من كتابه الاخير انه لا يزال يعتقد بوجود أرواح تؤثر في الاحياء. ولكنها ليست ارواح الموتى والمستر قلي يعتقد انها ارواح الشياطين . ونظن انه لو رأى محمد بك فريد وجدى الوسطاء وسمع أقوالهم وكان معه واحد يشير الى مواقع الخلل فيها لعدل عن رأيه فيهم.

...

تجارب العلماء

على الوسطاء

نشرناها بالمقتطف في ٥ أغسطس سنة ١٩١٩

قلنا في الجزء الماضى من المقتطف ان العلماء اهتموا بعد اثبات صحة المشاهدات الروحية بالبحث فى الدرجة العقلية لتلك العوامل الخفية، واخترنا من الوف التجارب التي قاموا بها ثلاثا اتينا على واحدة منها ووعدنا بايراد الاثنتين الباقيتين في مقتطف هذا الشهر فنوفي بما وعدنا فنقول:

قال الوزير الروسى (اكزاكوف) في كتابه (الانيميسم والاسپريتسم) في صفحة ٣٤١ ما يأتى :

نشر الماجور جنرال (ا . و . دريزون) الانجليزي فى مجلة (اللايت) لسنة ١٨٨٤ ، صفحة ٤٩٩ تحت عنوان (حل مسائل علمية بواسطة الارواح) ما يأتى :

« اجابة له طلبه الى المستر جرك ستوك من إخباره عما اذا كنت استطيع ان او افيه ولو بمثل واحد عن حل الروح أو العامل الذى يدعي انه روح لمسألة من تلك

المسائل التي حيرت ألباب العلماء في القرن الماضي أتشرف بأن ارسل لكم المشاهدة الآتية التي شاهدتها بعيني رأسي:

« اكتشف وليم هرشل في سنة ١٧٨١ الكوكب اورانوس وتوابعهُ ولاحظ إن هذه التوابع على خلاف جميع توابع النظام الشمسي تقطع مداراتها من الشرق الى الغرب . فقال ج.ف هرشل في رسالته الفلكية ان لمدارات هذه التوابع خصوصيات شاذة تناقض النواميس العامة التي تحكم اجرام المجموعة الشمسية . وذلك أن مستوي هذه المدارات يكاد يكون عموديا على سمت الشمس فهو يكوّن معه زاوية ٥٨ و ٧٠ درجة وأنها تجري في حركة قهقرية أي أن دورانها حول مركز كوكبها يحصل من الشرق الي المغرب بدل أن يكون على العكس.

« ولما نشر لابلاس نظريتهُ هذه وهي أن الشمس وجميع الكواكب تكونت من مادة سديمية كان أمر تكوّن التوابع في نظره من المساتير .

« وذكر الاميرال سميث في كتابه (الحوادث السماوية) أن حركة هذه التوابع قهقرية على خلاف جميع الاجرام السماوية التي شوهدت الى ذلك الحين فكان هذا موضع دهش جميع الفلكيين.

« ونشر في (الجالوري أوف ناتشر) مثل ذلك وهو أن توابع أورانوس تدور من المشرق الى المغرب وهو شذوذ غريب لا نظير له في المجموعة الشمسية

« وقد اشتملت جميع الكتب الفلكية التي نشرت قبل سنة ١٨٦٠ على هذا الموضوع فيما يختص بتوابع أورانوس.

« اما انا فكنت لا أجد تفسيراً ما لهذا الشذوذ وكان الامر في نظري من المساتير كما كان في نظر جميع المؤلفين الذين ذكرتهم.

« في سنة ١٨٥٨ نزلت في ضيافتي امرأة حاصلة على خاصة الوساطة فأقمنا جلسات يومية للتجارب الروحية

« ففي ذات ليلة أخبرتني بأن هناك بجانبي شخصا من عالم الارواح يزعم انه كان فلكيا في حياته الارضية.

«فسألت روح: عما اذا كانت الآن وهي في عالمها اكثر علماً بالفلك عما كانت عليه وهي في حياتها الارضية؟ فأجابتني بأنها صارت الآن اعلم بما كانت عليه كثيراً.
فخطر ببالي ان اوجه الى هذا المدعي بأنه روح سؤالاً اختبر به علمه فقلت له أتستطيع أن تقول لي لماذا تدور توابع اورانوس من المشرق الى المغرب لا من المغرب الى المشرق؟

فأجابني على الفور بما يأتي:

ان توابع اورانوس لا تجري في مداراتها من المشرق الى المغرب بل من المغرب الى المشرق على ذات الاتجاه الذي يجري عليه القمر في دورته حول الارض. وانما نشأ خطأكم من أن القطب الجنوبي لاورانوس كان مواجهاً للارض في الوقت الذي اكتشف فيه هذا الكوكب. ولو نظرتم الى الشمس من نصفها الجنوبي ظهرت لكم دائرة من اليمين الى اليسار لا من اليسار الى اليمين. وتوابع أورانوس أيضاً تتحرك من الشمال الى اليمين وهذا لا يعني أنها تجرى في مدارها من المشرق الى المغرب.

فسألته سؤالاً آخر في هذا الصدد فاجابني بما يلي:

«مادام القطب الجنوبي لاورانوس متجهاً نحو الارض بالنسبة لراصد ارضي فان توابعه تظهر انها تتحرك من الشمال الى اليمين، فيستنتج من ذلك خطأ بانها تجرى من الشرق الى الغرب. وقد بقيت هذه الحالة نحو اثنتين واربعين سنة، ولما اتجه القطب الشمالي لاورانوس نحو الارض فان توابعه رؤيت جارية من المغرب الى المشرق.

فسألته كيف حدث ان هذا الخطأ لم يعرف في مدى اثنتين واربعين سنة بعد اكتشاف الكوكب اورانوس بواسطة وليم هرشل؟

فاجابني بما يأتي ذلك لان الناس من عادتهم ان يرددوا ما يقوله أئمتهم فتراهم في اعظامهم امر التقررات التي حصل عليها اسلافهم لا يكلفون انفسهم عناء التفكير والروية فيها.

قال الماجور جنرال دريزون عقب ذلك: فاخذت مستهدياً بهذا التعليم في

حل المسئلة هندسيا فرأيت ان تفسيرها في منتهى درجات الاحكام ، وان حلها غاية في السهولة ، فلم يسعني الا كتابة رسالة على هذه المسئلة في مذكرات الجمعية الملكية المدفية في سنة ١٨٥٩ .

« وفي سنة ١٨٦٢ فسرت أمر هذا السر المزعوم في كتاب فلكي صغير دعوته (نظرة في السموات) ولكن تأثير رأى الأئمة كان شديدا حتى انه لم يبدأ اعتراف المشتغلين بعلم الفلك بأن حركة توابع اورانوس منسوبة لوضع محور هذا الكوكب الا في ايامنا هذه .

« وفي ربيع سنة ١٨٥٩ لاحت لي فرصة بحضرة الوسيطة المذكورة لمحادثة الروح التي ادعت انها روح فلكي فسألتها عما اذا كانت تستطيع ان ترشدني الى حادث فلكي آخر لا يزال مجهولا عند البشر . وكنت اذ ذاك املك منظارا مقاس عدسته أربعة بوصات ومسافته البؤرية خمس اقدام . فأخبرتني بأن لكوكب المريخ تابعين لم يرهما أحد من اهل الارض للآن . وقالت لي بأني أستطيع ان اراهما في شروط صالحة لرؤيتهما . فانتهزت اول فرصة لاحت لي لرصد ما اخبرتني عنه فلم اجد شيئا . فأخبرت بهذا النبأ ثلاثة أو أربعة من اصحابي كنت اجرب معهم في الامور الروحية وقررنا ان لا نكلم أحدا بما أخبرتنا به لاننا لا نملك أى دليل على صحته . وذلك كان منا تفاديا من التعرض للاستهزاء العام .

« ولكني في اثناء اقامتي بالهند قابلت بذلك المستر سينت ولكني لا استطيع ان أعين متى كان ذلك . فحدث انه بعد ذلك التاريخ بثماني عشرة سنة أى في سنة ١٨٧٧ اكتشف هذين التابعين للمريخ فلكي في وشنجتون » . انتهى

هذه هي التجربة الثانية من التجارب الثلاث التي وعدنا بإيرادها لا يمكن ان تعلل الا بشيء واحد وهو ان الوسيطة كانت أعلم بالفلك من جميع علما زمانها فادعت للعالم الفلكي الجنرال دريزون بأنها تعبر عن روح فلكي ميت وهي في الواقع لا تعبر الا عن رأيها الخاص . ولكن ما فائدة هذه الوسيطة من نكران ذاتها الى هذا الحد وهي لو نشرت ما قالته للجنرال باسمها لخلدت ذكرها في تاريخ العلم ؟ وناهيك بمن

يعدل رأي مثل الاماميين الفلكيين «رشل ولا بلاس وهما يكتشف المريخ تابعين جديدين لم يرهما احد من العلماء من يوم خلق الله عز الفلك الى سنة ١٨٥٩».

اليك التجربة الثالثة :

مات الكاتب الانجليزي الطائر الصيت (شارل ديكنز) عن رواية من افضل رواياته اسمها (اسرار إدوين درود) كتب نصفها ونشره في مجلد وبقي نصفها الآخر حسرة في قلوب طلاب الآداب . فاتفق ان جمعية في مدينة براتلبورغ بأمريكا كانت تجرب مع وسيط شاب صناعته عامل عند بعض الميكانيكيين فحضرت روح ادعت انها روح (شارل ديكنز) الانجليزي وانها تريد ان تكمل الرواية التي تركتها ناقصة . فاوسم تلك الجمعية الا اعلان ذلك وضرب له موعدا ١٥ نوفمبر فاهتم بذلك المستطلعون واوفدت جريدة (ذى سبر نجفيلد ديلي يونيون) مندوبا من قبلها ليحضر التجربة فكتب عنها فيها ثمانية أعمدة ونحن هنا ننقل بعض ما كتبته مجلة الاسبر يتواليست الانجليزية عنها نقلا من كتاب الوزير الروسي اكزاكوف من صفحة ٣٢٦ الى ٣٣٢ قالت المجلة :

«حوالي آخر اكتوبر من سنة ١٨٧٢ أمسك الوسيط المتقدم ذكره القلم وكتب بغير ارادته رجاء بتوقيع روح المستر (شارل ديكنز) بأن تعين الجمعية لها جلسة خاصة في ١٥ نوفمبر لتعمل فيها على اتمام الرواية آنفة الذكر قائلة أنها بحثت طويلا لبلوغ هذا الغرض فلم تجد وسيطا مناسبا لهذا العمل غير هذا الوسيط وشفعت هذا القول برجاء الوسيط نفسه أن يخصص لهذا المشروع كل أوقات فراغه »

« قبل الوسيط هـذا التكليف فكانت الروح تستولي على يده وتكتب صحفا عديدة كل يوم أمام المجربين حتى كتبت من نوفمبر الى يوليو ١٢٠٠ صفحة طبعت في مجلد يحتوى على أربع مئة صفحة

« واليك ما كتبه منـدوب جريدة (السبر نجفيـلد ديلي يونيون) في ذلك الصدد :

«نحن هنا بحضرة جمعية مؤلفة من أشخاص لـكل منهم ميزة خاصة وهم يؤدون وظائفهم الى النهاية . وما أشد هـذا على من لم يكتب في حيـاته ثلاث صفحات في أي موضوع كان (يزيد أن الوسيط كان عاميا وأن المراقبة عليه كانت صارمـة). اما نحن فقد دهشنا عند كتابة أول فصل اذ تحققنـا أنه يشبه النصف المطبوع من الرواية من كل وجه . وقد بدأت كتابته من الجهـة التى ترك الكاتب روايته فيهـا بالضبط . وقد انسبك الـكلامان معـا بحيث أن امهر النقدة لم يستطيعوا أن يبينوا الحد الفاصل بين الكلام الذي كتبه ديكنز في حياته وبين الكلام الذى كتبته روحه بعد وفاته .فكل شخص من أشخاص روايته استمر فى النصف الاخير منها على ما كان عليه من الحياة والصفات والاحوال . وليس هذا كل مافى الامر فقد جدت أشخاص أخرى»(وكان ذلك دأب ديكنز لا يزال ينشىء اشخاصا جددا حتى فى آخر أدوار رواياته)» لم تكن صورة منقولة من الاشخاص الذين تقدم ذكرهم فى النصف الاول من الرواية ولم يكونوا هياكل جامدة ولكن كانوا أشخاصا ذوى حياة ومبتدعات حقيقية. فمن الذى ابتدعها؟

«ثم اليك تفصيلات ذات فائدة عظيمة جدا فانى ببحثى فى المسودات وجدت كلمة سائح *Traveller* مكتوبة فى كل موضوع بلامين كما هى العادة عند الانجليز فى انجلترة بخلافها عندنا فى امريكا فلا تـكتب الاعلام واحدة» وكلمة *Coal* فحم كتبت فى كل موضوع باضـافة حرف *S* عليها كما هي العادة عنـد الانجليز دون الامريكان . ومن المفيد أيضا أن ننبه على أن الحروف الكبيرة التي تكتب في أوائل الاعلام كانت في المسودات حافظة للميزات التي كانت لنظائرها في خـط ديكنز وهو حي .ومن المدهشات أيضا الالمام بشكل مدينة لوندرة كما دلت عليه الروح فى مواطن عديدة مـن الرواية . وكانت فى المسودات أيضا تعبيرات مستعملة جـداً بانجلترة ومجهولة تماما بأمريكا.وأتوه أيضا بالتحول الفجائي في الافعال من الزمن

الماضي الي الزمن الحالي وخصوصا في سياق حديث حي . هذاالتحول بعينه كان يكثر وروده في كتابات ديكنز وخصوصاً في مؤلفاته الاخيرة . هذه الخصائص وما يمكن اضافتها اليها ايضاً ذات قيمة قليلة ولكن بمثل هذه الفروق التافهة امكن أن تخيب كل محاولة التدليس .

وختم المندوب كلامهُ بقوله :

« وصلت الى مدينة براتلبوروغ وانا معتقد ان هذا الامر لن يكون الا كفقاعة صابون يسهل فقأها . ولكنني بعد يومين صرفتهما في الامتحان المدقق اعترف بأني عدت وانا حائر . ولقد كنت انكر اولا باعتبار انه مستحيل — كما كان يفعل ذلك كل انسان بعد الاختبار — ان تكون هذه المسودة كتبت بيد الوسيط الشاب . ولقد قال لي بأنه لم يقرأ قط الجزء الاول من هذه الرواية . هذا امر قليل القيمة في نظري لاني مقتنع كل الاقتناع بأنه ليس باهل لانه يكتب صفحة واحدة من الجلد الثاني لهذه الرواية . لا اقول ذلك لاجل اهانته لان كثيراً من الناس ليسوا باهل لتكميل عمل تركهُ ديكنز ناقصا .

« فانا الآن متردد بين امرين : فاما ان افرض ان رجلاعبقريا استخدم الوسيط ليقدم بواسطته للجمهور عملا خارقا للعادة بوسيلة خارقة للعادة كذلك ، ومن مايقوله ذلك العامل الخفي من ان روح ديكنز هي التي كتبته بنفسها . الفرض الثاني ليس بأعجب من الفرض الاول . فاذا كان يوجد في مقاطعة فرمون رجل مجهول للآن يصلح لان يكتب مثل ديكنز فليس له من علة معقولة لان يعمد الى مثل هذه الحيلة . واذا كان ديكنز نفسه هو الذي يتكلم بعد موته فما اعجب هذا الامر .

« واني لاشهد بشرفي بأني اعطيت كل الحرية لاختبار كل شيء فلم أجد أقل أثر للتدليس . ولو كان لي الحق في نشر اسم الوسيط (وقد طلب ان لاينشر اسمه) لكان ذلك وحده كافياً لازالة كل ظن يعتري من لم يعرفه

« وقد كانت كتابة الوسيط تسرع أحيانا حتى تتعذر قراءتها . وكانت التجربة تبدأ في كل مرة في الساعة السادسة صباحا او في منتصف الساعة الثامنة مساء وكان

نور النهار يبقي الى تلك الساعة في ذلك الفصل . ولكن اذا اظلمت الحجرة بعد ذلك كان ذلك لا يعطل الوسيط بل يستمر في كتابته كأنه في نور ساطع.

«وكان الوسيط يقع في غيبوبة عند استيلاء الروح على يده ويخبر بعد يقظته بأنه كان يرى روح ديكنز جالسة بجانبه وهي في حالة تأمل عميق . واحيانا كانت تنظر اليه نظرات ايحائية يفرق منها . وكان ذلك يحدث للوسيط كانه في حلم . وكان متى أرادت روح ديكنز ان تعلن الوسيط بانتهاء الجلسة تضع يدها الثقيلة الباردة على يده. فكان الوسيط يفزع عند ذلك ويصيح وتخرجه تلك الملامسة من الغشي الذي هو فيه. وكان احيانا يشعر بعد انتهاء التجربة بألم في صدره يستمر طويلا» . انتهى

وقالت مجلة الاسبريتواليست الانجليزية عقب ايرادها هذه الحادثة قول المستر هاريسون الاخصائي المشهور في هذه المسائل وهو :

«من الصعب التسليم بأن العبقرية والصناعة المتجليتين في هذه الكتابات واللتين تشبهان من كل وجه عبقرية وصناعة شارل ديكنز تدفعان صاحبهما معا كان شأنه ان يقدم نفسه للعالم على حالة امهر المدلسين».

نقول هذه ثلاث تجارب اخترتها من الوف امثالها ليست باقل قيمة منها عجز اكبر النقاد الاوربيين عن تعليلها بعلل طبيعية فلنكتف بها الآن ولننظر في المقالة المقبلة الي اى حد وصلت خاصة الوساطة عند بعض الوسطاء وفي استحالة تفسير أحوالهم بالتدليس ومنهم علماء من الطراز الاول وكتاب وشعراء من الطبقة العالية ونساء اميرات من بيوت الملك وزوجات وزراء وعلماء ومثل هؤلاء يستحيل في حقهم العمل لخدع الناس.

وقد سئل فاضل المقتطف لماذا لا تعتمد الحكومات على الوسطاء في اثبات الجرائم وكشف الغوامض . فنجيب حضرته متوسلين بذكره اسمنا في سؤاله بأن هذا العلم لا يزال يجاهد لاثبات وجوده ولا يزال خصومه الذين لم يدرسوه يبذلون كل وسعهم لطمس معالمه وذلك مرروحه بحجة انه يهدم اساس المذهب المادى ويبني

على آثاره . والمذهب المادى في نظرهم ثمرة العلم الذى ليس وراءه مرمى ولا بعده مطمح : وقد ثبت بشهادة التاريخ انه ليس اشد على الانسان من تجديد مقررات اتى شب عليها وتبديل مقرراته التي أنس اليها . وقد ظهر فيه هذا الخلق بأشد حالاته في القرن التاسع عشر حيث بلغت دولة المادة اوج عظمتها وغاية ابهتها . ولولا ان المباحث النفسية تجرى على نفس القاعدتين اللتين اتخذهما المذهب المادى اساسين لاسلوبه وهما المشاهدة والتجربة لماتت هذه المباحث وليدة ولما قاومت العوامل الماحضة لها سبعين يوما لا اكثر من سبعين سنة ولخجل ان يلفظ بها الحوذى الاوربي بله الالوف من اقطاب العلم الذين نذكر بعضهم في كتاباتنا عنها . فمتي انتهى هذا الدور دور النزاع الشديد الذى يسبق عادة ميلاد الحقائق الكبرى تلاه دور الاستفادة والانتفاع . ولا يدرى الا الله مبلغ ماستكسبه على الانسان هذه الفتوحات من النور الالهى وغاية ماتصل به اليه من المدركات العالية المناسبة لمقامه الكريم من هذه الخليقة « سأريكم آياتي فلا تستعجلون » .

تعليق للمقتطف

(لما نشر المقتطف هذه المقالة علق عليها بما يأتي)

(المقتطف) اننا نأسف لان وجدى بك لم ينصف الذين لم يروا حتى الآن مايقنعهم ان ارواح الموتى تتجلى للاحياء وتناجيهم بالوسطاء فاتهمهم بانهم يفعلون ذلك لانهم ماديون . فكاتب هذه السطور مثلا ليس ماديا اى لاينكر وجود الروح بل لو اراد ان ينكر واحدا من الاثنين الروح او المادة لرأى انكار المادة اسهل من انكار الروح لان الذى يشعر به العقل ليس المادة نفسها بل التأثير الواصل منها الى الدماغ والدماغ اشعر بمثل ذلك ولو لم تكن المادة امامه . وان لم نكن مخطئين فالعلامة فلامريون الذي قضي اربعين سنة يمتحن ويجرب اقتنع ان قوة روحية تفعل بعض

ما ينسب اليها ولكنها ليست ارواح الموتي فكيف لم يقنعه ما قله الآن وجدى بك بان مفسر حركة اقار اورانوس ومكتشف قرين المريخ هو روح فلكي مشهور . ومتمم رواية دكنز هوروح نفسه . افلامريون لايصدق ما قاله الوزير الرومي في مسأله فلكية من اختصاصه ومسألة انشائية من اختصاصه ايضاولماذا؟هذا سؤال نطرحه على حضرة وجدى بك :

تعليقات على ملاحظات

نشرنا هذه المقالة بالمقتطف في شهر سبتمبر سنة١٩١٩ وفيهاملاحظات على تعليقه المتقدم.

ذيل المقتطف الزاهر مقالتنا الخامسة المنشورة في جزئه الماضي بكلمات ختمها بسؤال وجهه الينا لنجيب عنه .وانا نرى ان في مناقشة تلك الكلمات والاجابة عن ذلك السؤال اكبر فائدةللبحث الذي نحن بسبيله فليعذرنا حضرات القراء اذا استوعبت هذه المقالة تلك المناقشة وارجأنا متابعة البحث الاصلي للاجزاء المقبلة فان للمقتطف مباحث اخري يطالب باستيفائها فلا تتسع صحفه من هذا البحث لاكثر مما نورده اليوم .

تعقيب المقتطف على مقالتنا يشمل قضيتين؟

(الاولى)لومه ايانا على اتهامنامن لايصدق التجارب الروحية بالاخلاد الى المذهب المادي .

(والثانية) سؤاله ايانا عن وجه عدم اعتداد كاميل فلامريون الذى بحث هذه الظواهر اربعين سنة باجابة روح الفلك عن المعاضل الفلكية واتمام ديكنز لروايته الناقصة وكلا الامرين من اختصاصه،

(رأينا فى القضية الاولى)

المكذبون التجارب الروحية ثلاث طوائف وهم الدينيون والماديون وبعض الفلاسفة والاعتقاديين.

فالدينيون يعتقدون وجود الروح من طريق الوحي، وكتبهم مشحونة بظهور ارواح الانبياء والصالحين فى كل مكان وكل زمان، ولكنهم يطعنون على التجارب الروحية الحديثة من جهة اعتبارات مذهبية، ويدعون أن تلك الارواح المزعومة هي من أخبث الشياطين جاءت لتضليل الناس.

وأما الماديون فيكذبون تلك التجارب جملة وتفصيلا ويدعون ان اخوانهم الباحثين فيها قد وقعوا فى شباك التدليس، وترددوا في الفخاخ التى نصبها لهم المشعوذون. هكذا كان يقول وليم كروكس وأوليفر لودج وكاميل فلامريون وشارل ريشيه وسيزار لومبروزو وغيرهم. فلما سنحت لهم فرص التجارب ورأوا صحة ما كانوا يكذبونه بالامس واعلنوا ذلك بشجاعة أدبية يحمدون عليها، ضحك منهم المتخلفون وزعموا أنهم وقعوا في فخاخ المشعوذين كما وقع من قبلهم. ومازال الامر يجرى على هذا المنوال منذ اكثر من سبعين سنة حتى بلغ عدد العلماء الذين جربوا الظواهر النفسية وصدقوها حداً فاق مالكل فرع من فروع العلم فجاوزوا حدود المئين الى الالوف في جميع انحاء المعمورة، ووصل عدد من نحا نحوهم من الشعراء والكتاب والاطباء والمحامين والمهندسين والسياسيين الى بضعة ملايين وصار لهم صحافة واسعة النطاق وجمعيات تعد بالمئات. وقلت المجلة العلمية الاخلاقية للاسبرتزم التى يديرها المهندس (جبريل دولان) في جزئها الصادر فى شهر يونيو الماضى عن جريدة الاكسلسيور ان الكاتب الانجليزي الكبير (كونان دويل) أعلن اعتقاده بهذا المذهب، وعقبت تلك المجلة على ذلك بقولها أن هذه المباحث قد انتشرت فى انجلترا انتشارا عظيما حتى لا تصادف بها أو ناديا أو ملهى الا وجدت المجتمعين فيها يتجاذبون فيها أطراف الحديث. وقد انتشرت أيضا في أمريكا

على هذا النحو . فمثل هـذه الجماهير من كبار المتمدنين لايعقل ان يصمم الأنخداع عشرات من السنين،وان عقل انخـداع الافراد فلا يعقل انخداع الجميات الـكثيرة التي الفت لهـذه المباحث خاصـة ومريت عليها فيها الاساليب العلميـة العمليـة.

وقد أحسن العلامة كاميل فلامريون حيث قال فى مقدمة كتابه(القوى الطبيعية المجهولة) صحيفة ٥ :

«كلما فكرت فى هـذا الامر عراني الدهش من ان معظم النـاس لايزالون يجهلون هـذه الحوادث جهـلا مطبقا مع انهـا عرفت ودرست وقـدرت وسجلت من منذ زمن ليس بقصـير بفضل جميـع الذين تبحروا بنزاهـة اتجاه هـذا النور الجديد» .

واما الاعتقاديون من اهـل العلم والفلسفة فقـد اعتبروا الفروق العظيمة بين الحياة الانسانية وحياة الاحيـاء الاخرى فحـكموا بوجود روح انسانيـة من طريق الظن والترجيح ولهم كلام طويل فى هذا الباب سقط كله امام شبهات الماديين حتى خفت صوتهم في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، فانتشر الالحاد في أوروبا انتشارا مريعا وجاءت مـذاهب النشوء والارتقاء واخصها مذهب دارون فوصلت بين حلقات الاحياء وحشرت بالانسان في رتبة الحيوانات الثديية،ولم تمنحه الاهذه المزية،وهي انه ارقى انواع هذه الرتبة . واقتدح علماء الفزيولوجيا أفـكارهم ليجـدوا فارقا بين الانسـان والحيوان من جهة العواطف القلبية والميول النفسية والقوى الادبية والعقلية فلم يعثروا على شيء من ذلك الا فيالكم دون الكيف. الاانالعلامةدوكاترفارج الفرنسي زعم انه اهتدى الي فارق بين الانسان والحيوان وهوعاطفةالتدين فادعى انها هي الوصف المميز لهذا الكائن الذى يزعم غرورا انه ملك الـكون . فلم ينتشر رأيه هذا حتى صلقه اخوانه الفزيولوجيون بالسنة حداد وعجبوا منه كيف يجرأ على هذا القول وهو يرى ان الحيوانلايتجرد من عاطفة الخضوع والخشوع والاسترحام وهي اساس العاطفة الدينية بمعناها العام . فالـكلب الذى يتخاشع ويتخاضع امام سيده

ويسترحمه بتحريك ذنبه ليعطف عليه ويرضى عنه اذا آنس منه الغضب لا يفترق عن الانسان فى تخاضعه وتخاشعه عند سماعه زمجرة الرعد وهزيم العواصف أووهو متأثر بطلب مغنم أو دفع مغرم لقوة خفية يظن أن بيدها تصريف هذه الشؤون الكبرى. فعاطفة التدين موجودة كما ترى في الحيوانات العليا ولكن على قدر قواها العقلية. فليس للانسان أدنى ميزة على الحيوان من هذه الوجهة أيضا .وقد أفرد هذا الموضوع بالتأليف.

نعم عدت مذاهب النشوء والارتقاء على عقيدة الروح وان كان داروين نفسه تظاهر بالايمان . ولكن لم يفت هذا التناقض كبار أنصاره من معاصريه فزعم بعضهم أنه تصنع التسامح أمام العقائد ليصد حملات الدينيين عليه وعلى مذهبه . ومن ظن منهم اخلاصه فى ايمانه رماه بالعجز عن استقصاء كل النتائج التي يؤدي اليها رأيه في النشوء والارتقاء

فأين ذهبت زخارف الاعتقاديين من الفلاسفة في امر الروح امام هذا السيل الجارف من الملاحظات العلمية والمشاهدات الفزيولوجية وما تخللها من الحملات القوية على العقائد والموروثات ؟ آوت الى بعض الرؤوس ومن بينها رؤوس كبيرة وجدوا في انفسهم من الجرأة مادفعهم الى الجهر بعقائدهم، فهزانصار النشوء رؤسهم متضاحكين ، وقالوا هذا مصداق لناموس الوراثة الذى نعول عليه في نقل الصفات المكتسبة . فان عقيدة اكتسبها الانسان منذ الوف السنين لايمكن ان تزول في أعوام معدودة ، فلا بد من مرور اجيال لتحل محلها المقررات الجديدة.

على ان الباقين من هؤلاء الفلاسفة الاعتقاديين لايعبأن بعقيدتهم فى الروح الا من الوجهة الفلسفية الكلامية، فهم لايعملون على استشرافها ولا يأبهون بالباحثين المجربين فيها . وكثير منهم ينتقد هذه التجارب ويدحضها ولم يكلفوا أنفسهم عمل تجربة واحدة،متأثرين بنفس الاصول المادية التى تغلبت على رجال العلم فى القرن الماضي. وسيرتها في ابطال هذه الحوادث منقولة عن سيرة الماديين انفسهم الذين هم

يزعمون ان ليس وراء المادة مرمى . والا فان الرجل اذا اعتقد فلسفياً أن المادة مجهولة الاصل وانها قد تتحلل وتستحيل الى قوى وان ممكنات الكون غير محصورة وان حواسنا الخمس من القصور والضؤولة بحيث لا تصلنا من الوجود الا باغلظ جهاته، وان العقل قد لا يكون صفة من صفات المادة، ولكن متنزلا من عالم أرقى منها، وأن علومنا الارضية على جلالتها لا تساوى قطرة من بحر العلم المطلق — ان رجلا يعتقد مثل هذه الاصول من الوجهة الفلسفية لا يتحفز لتكذيب كل بحث جديد، ولا يتعجل فى البت بنقض كل نظرية بدون امتحان مدقق، ولا يتهم ألوف العلماء وملايين من الازكياء فيما يدعون انهم شاهدوا أمورا على الاسلوب العلمي الدقيق فى مدى أكثر من سبعين سنة بأنهم مخرفون ضالون . بل يتئد ويستجمع كل ما كتب فى هذا الموضوع ويلقي عليه نظرة عامة ويتتبع سير المباحث وينظر أمامها بمظهر المستعد لقبولها متى بلغ عدد العلماء القائلين بها حداً يستحيل معه اجماعهم على ضلالة، أو وقوعهم فى حبالة، أو اتفاقهم فى البلادة العقلية والبله .

ولكن الذين يكذبون هذه المباحث وان كانوا من المعتقدين بالروح لا يسلكون هذا المسلك، ولكن يسرعون الى تكذيبها باعتبار انها مستحيلات علمية أو مظاهر خيالية . وهذا بعينه سيرة الجامدين على الفلسفة المادية . وهم ما ظهروا بهذا المظهر على مناقضته لاصولهم الا لتأثرهم على غير علم منهم بأصول تلك الفلسفة وانحصارهم فى دائرتها الضيقة . فالحدود الحدود لكل بحث روحاني هو تلك الفلسفة دون سواها سواء كانت بذاتها وجهاً لوجه، أو بمظهر من مظاهرها الكثيرة فى الفلاسفة الاعتقاديين وغيرهم .

لهذا السبب اتهمنا الذين يسرعون الى تكذيب المشاهدات الروحية بدون بحث، أو الذين يهزون أكتافهم عند سماعها لعدم الاهتمام بها بانهم ماديون جامدون على المادية، فان لم يكونوا ماديين فهم متأثرون بالفلسفة المادية ومحبوسون فى دوائرها الحرجة على غير علم منهم . ولا نخلى العالم من وجود أفراد مثل العلامة صاحب هذه المنهلة وقفوا موقف الحياد ولم يتأثروا بالتعاليم المادية الا انهم من القلة بحيث يصح

الغالم من باب التغليب

(رأينا في القضية الثانية)

كيف لا يعتقد العلامة كاميل فلامريون بأن روح فلكي مشهور تكشف القناع عن بعض المساتير الفلكية وأن روح كاتب كبير تكمل رواية تركها ناقصة مع أن كلا الامرين من اختصاصه ؟

الجواب : أن كاميـل فلامريون بمقتضى مذهبـه لا يرتاب في أن روحا من العالم الروحاني تأتي فتحل بعض المعضلات أو تكمل ما تركه بعض الكاتبين ناقصاً . ولـكنه يرتاب في صحة شخصية تلك الروح أي في أن تلك الروح الظاهرة هي روح هـذا الميت أو ذاك . ويرى أن الادلة لديه غـير كافيـة في اثبات الشخصيـات ويرجح أن تلك الآثار العقلية أما أحـدثتها أرواح المجربين مجتمعة ان كانت لا تتعدى قدرتهـم الطبيـة وإما أتت بهـا روح من طبيعـة غـير معروفة للبشر موجودة في العالم الروحاني وهي غير الروح الانسانية . وهو لا يصـير الى هـذا التعليل الا متى رأى أن تلك الآثار العقلية تفوق قـدرة المجـربين منفردين أو مجتمعين كما هو الشأن في الاخبار عن اجرام علوية مجهولة أو احداث كتابة ليس في قدرة أحد احداثها غير أفراد معدودين في العالم كله لم يكن منهم واحـد في جلسة التجربة .

على ان كتابات الرجل في هذا الموضوع تدل على حيرته الشديدة كما نقلناه عنه في مقتطف يوليو سنة ١٩١٩ صحيفة ٤٣ فقد ذكر أن أمامه احدى عشرة مشاهدة ربما منها يمكن أن تعلل بأن روح الوسيط سرت فنقلت ما قالتـه عن النواميس والجرائد وان السبع الباقية منها لا يمكن تعليلها الا بالقول بأنها أرواح الموتى الذين تدعى الارواح بأنهم أرواحهم .

هذا موقف الاستاذ فلامريون وهو بعينه موقف جماعة من الباحثين في الروح ولا بد لنا من كلمة في هذا الموضوع وان لم يجيء وقتها لاعطاء القارىء فكرة عن هذا الباب فنقول :

اجمع العلماء والعقلاء الذين بحثوا في الظواهر الروحية منفردين أو مجتمعين على انها حقة لا يصح الارتياب فيها بعد ان مرت من منخل الامتحان العلمي الدقيق عشرات من السنين . ولكنهم اختلفوا في أمر واحد وهو صحة شخصية الارواح التي تتصل بالاحياء ، هل هي ارواح الاشخاص الذين تعينهم بالاسم أم هي شخصيات تتكون من مجموع أرواح المجربين أو ارواح عقلية أخرى مجهولة الطبيعة أو ارواح الشياطين ؟

فذهب الكثيرون من العلما وفي مقدمتهم الاستاذ الكبير روسل ولاس الفزيولوجي بأنها ارواح الاشخاص الذين تعينهم بالاسم ، مرتكنا على انها لو كانت غير ذلك لما اجمعت في كل بلد ولدى كل امة على انها ارواح الموتى طول هذه المدة ولو جد منها من يصدق المجربين بذكر حقيقتها ولو مرة واحدة .

ثم ان هذه الارواح تأتي فتتجسد على صور اشخاص الميتين ، وتتكلم بلغاتهم ، وتكتب بخطوطهم ، وتوقع بتوقيعاتهم ، وتذكر أهلها بما نسوه من ماضيهم معهاء وتدلهم على مواضع اشياء كانوا ستروها عنهم ، فلو كانت أرواحا غير أرواحهم لما اقتنت التلبيس عليهم الى هذا الحد وعلى هذا الوجه الظاهر .

ثم قالوا أي حظ للشياطين أو لارواح أخرى في تكران شخصياتها الى هذا الحد وانتحال شخصيات أخرى ؟ ان قيل انما تفعل ذلك للتضليل رد على القائل بأنها تأتي بأرفع درجات الحكمة وهي لا تدع وجها من وجوه الاصلاح الخلقي والنفسي الا جاءت به بأبلغ العبارات واكثرها تأثيرا على النفوس.

ولكن الذى حير بعض الناظرين ان روحا قد تأتي فتدعى انها روح فلان ثم تأتي روح فلان ذاك فتسأل عما قاله في التجربة السابقة فتنكره ، وتقول ان الروح التي جاءتكم قبلي هي روح شريرة اتت لتهزأ بكم في غيبتي

وقد شكا كبار المجربين هذا الامر لتلك الارواح وأظهروا التشكك في صحة شخصياتها من جراء تلك الحوادث . فأجابوا بأن عالمهم كالعالم الارضي فيه الطيب والخبيث . فالخبثاء ينتهزون بعض الفرص لتضليل الناس والسخرية بهم على نحو

ما كانوا يعملون وهم على الارض . ويحذرون المجربين من الوقوع في حبالاتهم، ويذكرون ان المميزات التي تميزهم عن اصحاب تلك الشخصيات هي انها تخلط في ماضيها ولاتكتب بخطها، وانما تمثلها تمثيلا ناقصاً فيفتضح امرها بقليل من التأمل كما هو حاصل .

فسألة التحقق من شخصية الارواح هي عضلة العقد في المباحث النفسية وهي المسئلة الوحيدة القابلة للاخذ والرد بين العلما . اما اثبات العالم الروحاني ووجود عالم عاقل فيه مجرد عن المادة يمكن ان تتصل به بواسطة اشخاص ذوي استعدادات خاصة فقد اصبح من البداهة العلمية التي لا يصح التردد فيها بعد ملايين التجارب والمشاهدات السابقة .

فكاميل فلامريون لا يكذب كما قلنا ان روحاً تأتي فتحل مسألة فلكية. وتكمل رواية ناقصة ولكنه يرتاب في شخصية تلك الروح هل هي روح ذلك الشخص الذي تعينه بالاسم او روح عالية اخرى مجهولة الطبيعة . فهو لا يرتاب في صحة المسألة ولكنه يرتاب في تعليلها.

وفي ختام هذا البحث نقول ان المعركة القديمة بين الماديين والروحيين كانت قائمة على امكان او استحالة قيام الروح المجردة بدون مادة ، اما وقد ثبت بهذه المباحث قيامها بدون مادة فان مسألة اثبات الشخصيات ثانوية . وقد تفنن العلماء في وسائل اثباتها تفننا لا يخطر ببال غير امثالهم ، سنأتي على طرف منها حينما نصل في بحثنا الى هذا الموضوع هنا ان شاء الله.

ملاحظات المقتطف

لما نشرنا هذه المقالة لاحظ عليها المقتطف في الجزء نفسه بمناسبة رده على بعض السائلين ونحن نورد السؤال وجوابه هنا وهما:

(٧) حقيقة أقمار أورانوس

مصر . أحد المشتركين . لقد علقتم على مقالة فريد بك وجدي المدرجة في مقتطف أغسطس مشيرين اشارة المنكر الي ماذكره من روح الفلكي الذي صار الآن أكثر علما بعلم الفلك، وأن هذه الروح بينت خطأ الفلكيين الذين يحسبون أن اقمار أورانوس تدور حوله من الشرق الى الغرب، لامن الغرب الي الشرق كسائر السيارات وكما يقتضي الرأى السديمي . والي روح الروائي ديكنز التي قيل انها أتمت رواية ديكنز مات قبل أن يتمها . وسألتم وجدى بك كيف أن هذين الامرين لم يقنعا فلامريون بصحة دعوي الذين يدعون مخاطبة أرواح الموتى بالذات مع ان المسألة الاولي فلكية والثانية انشائية وهما من اختصاصه . ولكن لنفرض ان فلامريون لم يقتنع بان روح فلكي هي التي بينت خطأ الفلكيين، وروح دكنز هي التى أتمت رواية دكنز، اينفي ذلك كون روح فلكي فسرت حركات اقمار اورانوس وروح دكنز اتمت روايته؟

ج . اننا استشهدنا بفلامريون في هذه القضية كبينة قوية على انه لو كانت الحادثتان صحيحتين لما خفيت عليه صحتهما ولكفتا لاقناعه بأن الروح الاولي هي روح فلكي والروح الثانية روح دكنز نفسه . ومن حيث انهما لم تقنعاه فنى صحتهما شبهة قوية ولو ذكرهما كل وزراء روسيا في كتبهم . وهذا هو الواقع . ولم نهتم نحن بتنفيذهما قبلا لان دعاوى مدعي مناجاة الارواح كثيرة جداً ويستحيل علينا ان نبحث فيها كلها . ولكننا لم نبحث بحثا مدققا في واحدة منها الا وجدناها غير صحيحة او وجدناشكا

في صحتها .هذه أقمار أورانوس لما كشفت ظهر انها تدور حوله من الشرق الى الغرب كما قيل ولا يزال علماء الفلك يقولون ان حركتها متقهقرة اى انها تدور من الشرق الى الغرب. قال السر روبرت بول استاذ علم الفلك في جامعة كمبردج في كتابه دليل السماء المطبوع سنة ١٩٠٩ في آخر الصفحة السابعة منه ماترجمته: « ان اقمار اورانوس واقمار نبتون تخالف في سيرها سير كل جرم آخر في النظام الشمسي في كون حركتها متقهقرة » *Rétrograde* وقال العالم انسورت دافز في المجلد الاول من كتابه العلم في الحياة الحديثة المطبوع بلندن سنة ١٩١٠ صفحة ٢١ ماترجمته ان اقمار اورانوس الاربعة حركاتها كلها متقهقرة في سطح يميل ٨٢ درجة على سطح فلك سيارها » . وقال العالم ترماس هيث المساعد الاول في المرصد الفلكي بادنبرج في اطلسه الفلكي المطبوع سنة ١٩٠٣ صفحة ٩٠ ماترجمته: « ان افلاك اقمار اورانوس مائلة على دائرة البروج على زاوية ٨٢ درجة وحركات هذه الاقمار متقهقرة » وجاء في ملحق الانسكلوبيذيا البريطانية المطبوع سنة ١٩١٣ عما تم من التحقيق الفلكي في أمر اورانوس « ان الفلكيين سليفر ولول اثبتا ان حركة اورانوس نفسه على محوره متقهقرة يتمها في عشر ساعات وثلاثة ارباع الساعة ». فاذكره الوزير الروسي في كتابه غير صحيح سواء قالته الوسيطة او وضعه هو او قالته كل ارواح الموتى.

ورب قائل يقول كيف تعللون اذاً كلام الوسيطة العلمي بحدوده العلمية ولو لم يكن منطبقاً على الحقائق العلمية . فنجيب أولا أنه ليس ثم دليل على ان الوسيطة نطقت به . وسواء نطقت هي بهذا القول او غيرها فالتعليل عندنا هو هذا: ان القائلين برأي لابلاس الحريصين على اثباته هالهم كون حركات هذه الاقمار متقهقرة وحسبوا ذلك ناقضاً لرأي لابلاس، ثم لما رأوا ان فلك هذه الاقمار يكاد يكون عموديا على فلك اورانوس قالوا ان حركتها يصح ان تحسب مستقيمة كما يصح ان تحسب متقهقرة . والمرجح عندنا انهم ذكروا ذلك في المجلات والكتب فقرأته الوسيطة وذكرته بشيء من الابهام ان كانت قد ذكرته فعلا .ويحتمل انها فعلت ذلك حينئذ لا

بقصد التضليل، بل ذكرته في غيوبتها كما يذكر الانسان أمورا كثيرة وهو بين النوم واليقظه مما لايتذكره في اليقظة . ولكن افلاك هذه الاقمار ليست عمودية تماما على فلك أورانوس حتى يصح ماتقدم بل تقطعه على زاوية ٨٢ درجة ولذلك تسهل رؤيتها متقهقرة . وترجح اننا ذكرنا اسباب الحركة المتقهقرة فيما كتبناه من بسائط علم الفلك وكون ذلك لاينقض رأى لابلاس.

اما تكميل رواية دكنز فليس لدينا الآن دليل على تكذيبه، ولكننا نذكر قصة وقعت لنا وهى ان جريدة اميركية يومية عيدت عيد بلوغها مائة سنة على ماتذكر ونشرت شرحا منبيا لتقدمها في هذه المدة من سرعة الطبع وسعة الانتشار وبعثت الينا بالعدد الذى ذكرت فيه ذلك . فاستحسناه ونوهنا به في المقطم وبعثنا اليها بالعدد الذى كتبنا فيه عنها فصورت المقطم ونشرت صورته وكتبت فصلا طويلا عنا تقول فيه أن المقطم جريدة يكتبها رجل واحد وهذا الرجل نفسه هو الذى يجمع اخبارها ويكتب مقالاتها ويجمع كل حروفها ويطبعها ويوزعها الي غير ذلك من الغرائب التي تفوق التصديق وينقضها الاختبار. وليس في هذا كله مايشيننا ولكن الجرائد الاميركية لاتحاسب ذمتها في ذكر الغرائب والظاهر انقراءها يرضون بذلك فلا نستبعد ان تستنبط جريدة اميركية أو مطبعة اميركية قصة مثل قصة رواية دبكنز لكي يكثر قراؤها ويربح طابعها من بيعها . والا فلو كانت هذه القصة صحيحة لكفت وحدها لاقناع فلامريون وكل المشككين في عادة أرواح الموتي بصحة ماينسب الى هذه الارواح، أو لاستحضروا روح دكنز مرارا وسألوها عن صحة القصة فأخبرتهم الخبر اليقين حتى لم يبق في المسكونة مشكك،

ردنا على المقتطف

نشرنا هذه المقالة في المقتطف متابعين بحثنا الاصلي وضمنين اياها رداً على مانشره المقتطف من الرد علينا في جوابه السابق.

كلمة في مصلحة هـذا البحث — اني مع احترامي لرأي المقتطف ولـكل رأي يخالف رأيي أري من حقي ان ادفع عن مستنداتي وجوه التجريح.

أجاب المقتطف علي سؤال لبعض قرائه في صفحة (٢٦١)فذكر ان عدم اعتراف كاميل فلامريون بحادثة اقار اورانوس وبقية رواية ديكنز يعتبر بينة قوية علي عدم صحتهما . وقد بينا رأي فلامريون في ذلك الجزء نفسه في امثال هـذه التجارب فلا نعود اليها هنا.

وقد نقل المقتطف أقوال بعض الفلـكيين الذين لايزالون يعتقدون ان أقـمار أورانوس تدور من المشرق الى المغرب . وانا اخشي ان يتسرب الى ذهن القارىء ان الجنرال دريزون صاحب هذه التجربة الروحية يحكم بأن ماذكرته الروح اصبح رأي (١)العلماء كلهم . لذلك انبه القارىء الي انه قال كما نقلته عنه في صفحة(١٢٣) من المقتطف :

« وفي سنة ١٨٩٢ فسرت أمر هذا السر المزعوم في كتاب فلكي صغيردعوته

(١) (المقتطف) اذا قال عالمان من أشهر علماء الفلك انا رصدنا اقمار اورانوس فوجدناها تدور من المشرق الى المغرب لايكون قولهما من قبيل الرأي أو الاعتقاد من قبيل النتائج الحسابية كما اذا قال مهندس انني مسحت الاطيان الفلانية فوجدت مسطحها خمسة وسبعين فدانا . فما وجـده الفلـكيان سليفر ولول في مرصد من اكبر مراصد الدنيا منذ بضع سنوات فقط يجب الاخذ به الى ان يثبت انهما غلطا في حسابهما .

(نظرة في السموات)»ولكن تأثير رأى الأئمة كان شديدا حتى انه لم يبدأ اعتراف المشتغلين بعلم الفلك بأن حركة توابع أورانوس منسوبة لموضع محور هذا الكوكب الا في أيامنا هذه» انتهى.

فهو يقرر أن الاعتراف بذلك لم يبدأ الا حديثا وهو نفسه باعتباره عالما فلكيا جرى عليه.

وقال المقتطف في صفحة (٢٦٢) عند نقده هذه التجربة (ليس ثم دليل على أن الوسيطة نطقت به) والشك في نسبته للوسيطة معناه الشك في صدق الجنرال دريزون أي يجوز أن يكون قد اختلق هذه الحادثة وقوّل الوسيطة ما لم تقل.

وفي رأيي أنه لا يصح أن يصير الناقد الي هذه الدرجة من الشك في صدق مجرب الا اذا كانت هناك قرائن تسوغه . ولا نرى نحن قرينة واحدة في ذلك . فالجنرال دريزون حاصل علي أعلى الالقاب العسكرية في أرقي أمة أوربية ومعروف بمباحثه الفلكية وكتاباته من الاعتبار بحيث تسجل في مذكرات الجمعيه الملكية المدفعيــة . ولم ينفرد من بين العالم بالنقل عن الارواح في الارض ملايين من اهل العقل والبصر يحذون حذوه في هذه المباحث فأي قرينة تسوغ لنا أن نصمه بنقيصه لا يقدم عليها الا كل مجرد عن الشرف، عار عن الادب.

امـا ما ذكره المقتطف عن رواية ديكنز واستشهاده بمـا ذكرته الجـريدة الامريكية عن المقطم ففيه نظر، فان هذه التجربة لم تنفرد بروايتها تلك الجريدة بل نصت عليها مجلة الاسبرتواليست الانجليزية، كما نقلناه عنها في الصفحة (١٢٥) من المقتطف. وكانت التجربة في جمعية المباحث النفسية في مدينة براتلبورغ من الولايات المتحــدة . وقد تناولها النقــدة من الانجليز ومنهم الاخصائي المستر هاريسون فقرروا انها لا تفسر بالغش والتدليس، فليرجــع من شاء لما كتبناه عنهـا في المقـالة السادسة.

اما ما ذكره المقتطف عن الجريدة الامريكية التي قرظت المقطم قال: لا أستطيع ان اشك في صحته حرصاً علي آداب النقد ولكني أقول، لعل تلك الجريــدة خلطت

بين المقطم والاهرام فان المرحوم بشاره باشا كتب عن نفسه . انه لقي في أول تأسيس الاهرام من المتاعب ما لم يلقه غيره، وقال بأنه كان هو وحده يحرر مقالاته السياسية واخباره اليومية ويترجم تلغرافاته ويرتبها ويشرف على توزيعه وادارته جامعاً في شخصه بذلك وظائف لا يقوم بها الا عدة رجال . والا وجب علينا أن نحكم بان الجرائد الامريكية(١) من السخف وقرائها من البله فى حضيض ليس دونه حضيض . وهذا الحكم لا يتفق وما عليه الامريكيون من التبريز في كل مجال من مجالات العلم والعمل والضرب فى المدنية الانسانية بافوز السهوم واوفر الحظوظ.

وبعد فليس رمينا عرض الحائط بكل هذه الشهادات الانسانية والمشاهدات العلمية التي لوحظت فيها ادق الشروط التجريبية على ايدي اعقل افراد الامم وابعدهم نظراً واكثرهم شكوكا من الامثلة الحسنة التي ننقشها فى نفوس من يجتنون شاكلتنا من القارئين. فلو اتيح لي او لحضرة العلامة صاحب هذه المجلة ان نجرب هذه المشاهدات ونقرر ما قرره قبلنا الملايين من الفضلاء لما كان حظنا ان استحسنا

(١) (المقتطف) يقول المثل الغرض يعمي ويصم وبعض الجرائد الاميريكية غرضها الاول في الغالب تسلية القراء بذكر الغرائب المدهشة واليكم مثالا من ذلك يتعلق بموضوعنا ذكره الفلكي الكبير الاستاذ نيوكم اشهر فلكيي اميركا بالاجماع فى مقالة نشرها فى مجلة القرن التاسع عشر ولخصناها حينئذ في مقتطف مارس سنة ١٩٠٩ وهو :

«وسنة ١٨٥٨ احتدمت نار الجدال في جريدة من جرائد اميركا في امر مناجاة الارواح والوسطاء وانتهى الجدال بان واحداً عرض مبلغاً طائلاً من المال جائزة للوسيط الذي يحرك مائدة من غير ان يلمسها او يقرأ ورقة من غير أن يراها او يقرع قرعة لا يعرف سببها، واشترط أن يكون ذلك أمام لجنة يعينها هو. فقبل رئيس المعتقدين بمناجاة الارواح طلبه واتى باشهر الوسطاء من اماكن مختلفة والفت اللجنة من ثلاثة وهم الاستاذ لويس اغاسز واستاذان آخران من اساتذة مدرسة كمبردج الاميركية

هـذا الاسلوب من النقد وجرينا عليه بأحسن من حظ اعـلام العلم ، وأركان العقل ، فيتهمنا تلاميذنا بأننا نكذب فيما نقول، أواننا من السذاجة بحيث ننخدع باحابيـل المشعوذين .

عود لموضعنا الاصلى

اتينا في الاجزاء الماضية على عدة أمثلة من خواص الوساطة التى يتخيل البعض انها نوع من الـكهانة أو العـرافة أو الشعبذة . والواقع اننا جيما حاصـلون على خاصة الوساطة ولـكن على درجات شتى . وقد ظهرت هذه الخاصة في الوف مؤلفة من أعاليا، الاوربيين بين رجال ونساء فـكانت وسيطة الوزير الروسى اكزاكوف امرأته وهى من اعرق البيوت الروسـية . وكانت وسيطة ادموندس رئيس مجلس الشيوخ الامريـكى ابنته المدماة لورا . وكان المستر سـتيد الـكاتب الانجليزى الـكبير وسيط نفسه، فـكانت الروح تسـتولى على يده فتكتب ماشاءت الارواح وجرى الامتحان في نزل بوسطن فلم يفلح الوسطاء في شي. واستصغر أولئك الاساتذة انفسهم لما رأوا انهم جلسوا ساعة ولم يروا شيئا يستحق الذكر . ولم يعمل الوسطاء الا بعض مايعمله المشعوذون عادة، وكان عذرهم عن فشلهم ان الارواح لاتظهر امام اناس لايؤمنون بها . ومن ثم لم يعد الاستاذ نيوكم يعبأ بما يسمع عن مناجاة الارواح، بل كان يقول للذين يكلمونه فى هذا الموضوع ايتونى بوسيط تعتقدون صدقه ودعونى أمتحنه على انفرادا وأخيرا وجد الوسيط المطلوب وهو فتاة اسمها لولو هرست عملت اعمالها المدهشة امام جماعة كبيرة وهو بينهم لـكنها لم تدع انها فعلت شـيئا خارق العادة بل اظهرت كيف فعلت كل مافعلته . واتضح حينئذ ان كل ماسمعه الاسـتاذ نيوكم عنها قبلا كان من قبيل المبالغة والوهم . وكان هناك جمهور من مخبرى الجرائد فصدرت جرائدهم وفيها اغرب الاخبار كأن الفتاة فعلت أعجب مايدعيه مناجو الارواح ، فتأملوا .

ان تبلغه اليد . وكان على هذه الحال أيضا العالم اللاهوتي الانجليزي ستنتون موزس. وكان وسيط الجمعية الطبيعية الرسمية التي تكونت في لوندره لتقديم تقرير عن الاسبرتسم واحدا منهم فلم يحتاجوا لوسيط مأجور . وكان الضابط الانجليزي بول الذي تولى مصلحه الاتجار مع الاعداء في اثناء الحرب في بلادنا هذه وسيطا نفسه أيضا . فذكر في كتابه (العسكري دودنج) ان الروح استولت على يده فأملت عليه ذلك الكتاب، وفيه تنبؤات كثيرة ظهر منها ما جاء وقته كتاريخ وقوف رحى الحرب العامة، وتاريخ ابرام الصلح، مع ان ذلك الكتاب أملى عليه قبل الصلح بسنتين. وقد قال المقطم عقب ايراد هذا التنبؤ في عدده الصادر في ٨ مارس سنة ١٩١٩

« هذا مانقلناه من الحديث المذكور وأعظم مايقع منه في نفس القارىء النبوءة الخاصة بانتهاء الحرب وعقد الصلح فانها كتبت سنة ١٩١٧، كما تقدم ولم يكن في سير الحرب مايدل على موعد نهايتها وتاريخ عقد الصلح »

ان خواص الوساطة تعتبر خطأ من علم ماوراء الطبيعة وهي في الواقع من الحالات الطبيعية . فالباحث الذي ينيم شخصا نوما مغناطيسيا وينظر فيما يكتسبه من من الخصائص العقلية والروحية وهو في تلك الحالة لايقال عنه انه يبحث فيما وراء الطبيعة ولكن يقال انه وسع من دوائر بحثه الطبيعي، فبعد ان كان يقصره على درس خصائص المادة الجسدية تخطى الى درس خصائص الحياة المستكنة فيها. وكذلك الباحث الذي يجلس واخوان له حول خوان ويعمل على الاتصال بعالم الروح، لايقال انه يبحث في عالم ماوراء الطبيعة ولكن يقال انه يتخطى ببحثه الدوائر التي حدها المذهب المادي الى الدوائر التي تظهر فيها خصائص الروح . فالذين يزعمون ان هذه المباحث من علم ما وراء الطبيعة ويلفظونها بهذا الاعتبار يقفون في وجه العلم الطبيعي نفسه ، ويصدون عن سبيله ويحكمون عليه بأن لايتعدى الدوائر الضيقة التي حدها له القصور العلمي وهو حكم يأباه الرقي المطرد للعلم نفسه

علل بعض النقدة في اوروبا هذه المشاهدات تعليلات شتى، فلم يقو واحد منها

على النقد، واضطر النقدة واحدا بعد الآخر الى التسليم بصحة هذه المشاهدات الا الذين لم تتح لهم تجربتها. ونحن هنا نأتي على طائفة من المشاهدات من أنواع شتى لا تفسر بالخدع والانخداع، ولا بالبله والسذاجة، ننتخبها من ملايين من امثالها لننتقل منها الى فصول اخرى من اول المقالة الثامنة المقبلة

(وساطة الاطفال الرضع)

ذكر المستر كابرون Kapron في كتابه المسمى المذهب الروحي في العصر الحاضر في صفحة (٢١٠) قال

«روى لنا المستر لوروا سندرلاند ان المسائل التي كان يطرحها على الروح كان يجاب عنها بالقرع على الخوان وكانت الوسيطة ابنته مارجريت أو ابنتها الطفلة، وكانت لاتزيد سنها عن سنتين. قال فكنت امسك الطفلة بين يدي ولا يكون منا احد فتجيبنا الارواح بالاسلوب المصطلح عليه »

وجاء في كتاب المذهب الروحي بأمريكا في العصر الحاضر ان البارون سيمون كيركوب كتب الي المستر جنكن مؤلف ذلك الكتاب يقول:

« كانت ابنتي وسيطة ولم تتجاوز سنها سنتين، وقد بلغت الآن من العمر احدى وعشرين سنة، وقد كتبت طفلتها بيدها تحت تاثير الارواح ولم تتجاوز سنها التسعة الايام (تاسوعا) وقد حافظت على الرسائل التي كتبتها وها انا مرسل اليكم بصورة فوتوغرافية لتلك الكتابات.

«لم تحمل ابنتي هذه الطفلة غير سبعة اشهر ثم وضعتها في حجم صغير جدا. فكانت ابنتي ترفع هذه الطفلة على وسادة باحدى يديها وتمسك بيدها الاخري كتابا عليه ورقة بيضاء، وما كنا ندري بأية كيفية ينتقل القلم الى الطفلة، فكانت تمسكه بيدها بقوة. فكتبت اولا الحروف الاولى لاسماء الاربعة الارواح التي تلازمها وهي R.A.D.J ثم سقط القلم من يدها، فظنت ان الامر قد وقف عند هذا الحد، ولكن ابنتي الاخرى ايوجين

صاحت قائلة انها قد عاودت القبض على القلم فكتبت الطفلة الجملة الآتية: (لا تنير شيئاً فهذا برهان جلي وافعل ما أمرناك به . أستودعك الله) وانت ترى ذلك في الصورة الفوتوغرافية المرسلة اليك ».

(تكلم الوسطاء عدة لغات يجهلونها)

كتب المستر ادموندس الذي كان رئيسا لمجلس الشيوخ الامريكي في كتابه المذهب الروحي عن وساطة ابنته وهو من سراة الامريكيين وثراتهم قال :

« ظهرت في ابنتي (لورا) خاصة الوساطة ولكنها ما كانت تقع في اغماء أثناء حضور الارواح . وكانت تلك الارواح تستولى على لسانها فتتكلم بلغات مختلفة ولم تكن تعرف في حالتها العادية الا لغتها الاصلية واللغة الفرنسية . ولكنها متى استولت الارواح على لسانها كانت تتكلم بتسع أو بعشر لغات بسهولة تامة »

ومثل الرئيس ادموندس لا يصح اتهامه بالبله والخبل ولا اتهام ابنته بالتزوير والتدليس . وأمثلة تكلم الوسطاء باللغات المجهولة كثيرة لا تحصى .

(تلقي الوسيط رسائل متعددة في وقت واحد)

ذكر الدكتور (ولف) في كتابه عن وسيطه منسفيلد يقول :

«رأيت منسفيلد وهو يتلقى عن الارواح وقد استولت روح على يده اليمنى وروح على يده اليسرى فأخذتا تكتبان بلغة يجهلها . وبينما كانت يداه تكتبان كان هو نفسه يكلمني في أمور أخرى».

وذكر الاستاذ كروكس في كتابه المباحث النفسية صفحة ٩٥ :

« رأيت الميس كيت فوكس بينما كانت تكتب بيدها تحت تأثير روح رداً على سؤال أحد الحاضرين ، كانت روح أخرى تملي بواسطتها جواباً لرجل آخر من الحاضرين

بطريقة الفزع . وكانت الوسيطة نفسها في تلك الحالة تتكلم مع شخص ثالث في أشياء لاعلاقة لها بالارواح »

(التخاطب بواسطة الارواح عن ألوف الاميال)

ذكر المستر ادموندس رئيس مجلس الشيوخ الامريكي المذكور آنفا في الجزء الاول في كتابه صفحة ٣٠ :

« بينا كنت اسيح في امريكي الوسطي كان أصحابي يقفون على أخباري مفصلة بواسطة الارواح يوما فيوما وهم في نيويورك . أول اجتماعهم للسؤال عني كان بعد سفري بأربعة ايام وانا على بعد ٨٠٠ ميل منهم ، ولم تقابلنا في طريقنا سفينة حتى يتوهم انها نقلت من اخباري اليهم »

ثم سرد تفصيلات ما اخبرتهم به واتفاقها التاريخي مع مذكراته اليومية

وكتب الاستاذ الامريكي (روبرت هير) في كتابه (المباحث التجريبية على الحوادث النفسية) فقال :

«لما كنت في كيب مي *Cape May* بايسلاندة كلفت الروح الملازمة لي أن تذهب الي فيلادلفيا (بأمريكا) عند ميسز جورلي وان تبلغها اني ارجو زوجها ان يذهب الي بنك فيلادلفيا ويستفهم منه عن تاريخ حوالة كانت لي فيه . وكلفتها بأن تخبر المسيز جورلي ايضا بأني في منتصف الساعة الرابعة سأجلس امام السبيريتوسكوب (آلة عليها الحروف الهجائية للتخاطب مع الارواح) لتسلم الجواب . وكانت الساعة اذ ذاك واحدة بعد الظهر وفي الساعة المحددة عادت الروح وأخبرتني بنتيجة عملها .

« فلما عدت الي فيلادلفيا حدثتني مدام جورلي بأن الروح التى ارسلتها اتفق حضورها في ساعة كانت هي تتخاطب فيها مع روح اخرى ، فقطعت عليهما التخاطب

عن الامر الذى عناني ووصلتني نتيجة مساعيهما في اليوم نفسه .

« وكان عامل البنك قد أعطاني تاريخاً خطأً عن الحوالة التي انا بصددها وكنت انتظر مجيء الجواب مطابقاً لحسابي ، ولكن لما ذهب زوج دام جوردان واخبرها الى ذلك العامل تحري التاريخ واعطاها اياه صحيحاً هذه المرة فجاءت الروح بتاريخ لم اكن انتظره ولا اتوقعه » انتهى

هنا يمكن ان يقول معترض : اذا كان قد بلغ من قدرة الباحثين فى الارواح ان يتخاطبوا على بعد آلاف الاميال فلم لايكتفون بها عن التلغراف اللاسلكي ؟ الخ الخ

فأقول بأن الارواح لايمكن استخدامها لاغراضنا الدنيوية فهي اذا اطاعت الباحث في نقل الاخبار ، وجلب الاشياء ، واحداث الخوارق فانما تفعل ذلك لاقامة الدليل لهم على انها حية باقية مدركة وقد صرحت بذلك الف مرة . ولكن الفائدة المنتظرة من عقيدة وجود الارواح وخلودها لايمكن العقل تقديرها في مثل هذا القرن وما يليه . فالمذهب المادى ساق الناس الى تيار اداهم الى الاباحة المطلقة ، واطفأ في صدورهم جذوة الامل فأظلمت القلوب ولم تجد لها متنفسا الا في الافراطات من كل نوع . هذا ولا تزال بقية في النفوس من عقيدة موروثة ، فاظنك لو ذهبت تلك البقية الموروثة أيضا وتحقق الانسان علميا انه كمية مهملة فى الوجود لاتبالى النواميس فى اية زاوية من زوايا العدم قذفت بها ؟ فجاء المذهب الروحاني اليوم يثبت للناس من طرائق الحس والعيان وجود العالم الروحاني وخلود النفس بعد الموت فى عالم كله جمال وجلال وترق لاحد له وقابليات عقلية وروحية لاتنتهى الى غاية . فنحن لانحتاج للارواح لتخدمنا في امورنا الدنيوية ، ولكننا نحتاج لها لتثبت وجودها بأى الطرق شاءت .

ان ماأوردته فى باب خواص الوساطة شىء لايذكر فى جنب الملايين من المشاهدات التي تنص بها المؤلفات التي وضعها الافراد والجماعات . وناهيك ان الملايين من الافراد والالوف من الجمعيات دأبت منذ اكثر من سبعين سنة على

التجارب وتدوينها . فالذي حتى رؤوس الباحثين الاوروبيين من أهـل الشكوك المستعصية والالحاد المصمت ليس بالامر الهين، فان توالى هذه المشاهدات فى مـدي ثـلاثة أرباع القرن على أيدي رجـال لا يخشون فى الحق لومـه لائم من العـلماء والكتاب والصحفيين والسياسيين والاطباء والمهندسين والاصـوليين على الاسلوب العلمي الحاصل على ادق الشروط التجريبية هو الذى أعطى المذهب الروحى هـذا الوزن فى أوروبا وامريكا ومكنه من ضرب المذهب المادى ضربة لا قيـام له بعدها

ولو كان مجموع هذه الشهادات والتجارب فى مدى هذا الزمن كله وعلى أيـدي هؤلاء الرجال الذين ذكرناهم في أرقي أمم العالم مما يسهل تعليله بالخدع والانخداع وعدم التفرقة بين الشعوذة والمشاهدة العلمية ، أو بالبله والخبل ، فعلي العقل الانساني وعلي التجارب والمشاهدات، وعلي العلماء والاذكياء، وعلى الباحثين من كل أمة وفي كل اجيال البشر السلام

* * *

تعليـلات المنكرين

الحوادث الروحية

نشرنا هذه المقالة فى المقتطف الصادر فى نوفمبر سنة ١٩١٩ وفيها رد ضمني على الحواشي التي ذيل المقتطف بها بعض الصحف .

لما ذاع امر الحوادث النفسية، وتناقل الناس تجاربها، حاول بعض الناقدين ممن يفسرون مساتير الكون وهم جلوس على اسرتهم، ومن يسرعون الى البت في كل معضلة قبل يلتفتوا الناحية من علمها، أن يعللوا بعض ظواهرها بعلل . وقد نظرنا فى التعليلات التي

تعلل بها الحوادث الانفسية فوجدناها تنحصر في ست نظريات وهي :

(١) هذه الحوادث من الشعوذة لا اكثر ولا أقل فجميع الوسطاء خادعون وكل المجربين مخدوعون .

(٢) هذه الظواهر خيالات تتراءى للمجربين وهم تحت تأثير الاستهواء الواقع عليهم من الوسيط فيرون مالا حقيقة له في الخارج ويخبرون عنه كأنه من المشاهدات الواقعية.

(٣) هذه الحوادث من فعل روح الوسيط نفسه لا روح أجنبية عنه .

(٤) هذه الحوادث عمل الروح العامة التي تتكون من مجموع أرواح جميع الحاضرين .

(٥) هذه الحوادث نتيجة عمل أرواح مجردة موجودة في الكون ولكنها ليست بأرواح الموتى.

(٦) هذه الحوادث فتنة من الشياطين لتضليل عباد الله المؤمنين

فلنلق على كل من هذه التعليلات نظرة انتقادية مستندين على التجارب العلمية التى عملت لدحضها واثبات نقصها فنقول:

(نظرة على التعليل بالتدليس)

قال الاستاذ الكبير وليم كروكس في كتابه القوى النفسية صفحة ١٧٤ :

« قالوا ان كل هـذه الحوادث نتيجة التدليسات والتدبيرات الآلية المتقنـة أو الشعوذة وان كل الوسطاء مزورون وجميع المجربين غفل مخدوعون . . .

ولقد رأيت عدة تدليسات كان بعضها متقنا جدا وبعضها من الثلاثة بحيث لا يتفق ان يقع فيها واحد ممن شهدوا الحوادث الحقة لهذا العلم . فمن الباحثين من اذا صادفه تدليس من هذا القبيل يكره موالاة البحث، ويجد نفسه مدفوعا الى اطلاق العنان لآرائه سواء في مجالسه الخاصة او بلسان الصحف مقيما بانكاره جميع الوسيطين

فيكتب الجرائد شارحا مارآه من التدليس، وقدتأخذه الشفقة من رؤية هـذا المنظر المحزن وهو امعان الرجال المعدودين من الاذكياء في الانخداع بالاحابيل التى كشفها هو من أول وهلة . . .

« فلا يجوز ان ننسى ان اي تعليل من التعليلات يجب ان تتوفر فيه جميع الشروط لاجل أن يكون ذا قيمة حقيقيه . فليس من العقل ان يقول شخص لم ير الا بعض المشاهدات التافهة « اظن ان كل هـذا من التدليس » ولا ان يقول : « قدرأيت كيف تدبر هذه الادوار من الغش » . . .

« وبما اني متحقق من صحة هذه الحوادث فمن الجبن الادبي ان ارفض شهادتي لها بحجة ان كتاباتي قد استهزأ بها المنتقدون وغيرهم ممن في يعلمون شيئاًفي هذا الشأن ولا يستطيعون بما علق بهم من الاوهام ان يحكوا عليها بأنفسهم . أما انا فسأسرد بغاية الصراحة مارأيته بعيني وحققته بالتجارب المتكررة » .

وقال العلامـة كاميل فلامريون في كتـابه القوى الطبيعة المجهـولة صحيفة ٥٤١ :

« من السهل جدا ان يقف الانسان موقف المنكر انكارا مطلقا حيال المشاهدات التي هي غرضنا من هذا الكتاب » .

ثم سرد حوادث روحيـة كثيرة وقال : « كل هذه الحوادث بالنسبة لثلاثة أرباع سكان الكرة الارضية تعتبر هذيانا أو شعوذة، فلا يصح ان يبحث عن علتها في نظرهم . ولديهم ان الرأي المعقول الوحيد هو ان كل هؤلاء الوسـطاء من الذين اتخذوا الوساطة صناعة أولم يتخـذوها كذلك، مدلسون مزورون وكل المجربين غفل مخدوعون .

« وقد لايكتفي الواحـد من هؤلاء القضـاة الاعلين بالغمز بعينيه أو بالتبسم وهو على اريكة اختصاصه الملـكي، ولكنه قد يتفضل فيحضر احدى التجارب، فاذا اتفق كما يحدث كثيراً، عدم حصوله على شيء يخضع لارادته يرح المجرب المسكين وهو معتقد تمـام الاعتقاد بأنه بنفاذ بصيرته الفائق قد اكتشف الحيلة ومنع

ظهور أى شيء بادراكه الواسع ونظره البعيـد . فيسارع الي الـكتابة للجرائد مفسراً التدليس وباكيا بأدمع التمساح تأثراً من ذلك المنظر المحزن وهوانخدع رجال معدودين من الاذكياء بتدليسات اكتشفها هو من أول وهلة .

« هذا التعليل الاولى الساذج قد عرضناه كثيرا في هذا الـكتاب وجادلنافيه ودحضناه، وقد صار قرائي يعتبرونه فيما رجوحكوا عليه حكا تاما مطلقا نهائيا ومطروحا خارج دائرة البحث».

هذا قول رجلين من اكبر رجال العصر الاخير في نقض التدليس وامامنا مئات من هـذه الاقوال فلنكتف بهمـا ولننظر الي ماعلقه المقتطف على بعض ماقلنـاه في المقال السابق:

ذكر المقتطف من الاستاذ نيوكم الفلـكي ماجرى سنة ١٨٥٨، أى قبل ٦٢ سنة من تكون لجنة من ثلاثة أساتذة في نزل بوستن لبحث حوادث الاسبرتسم فلم يروا ما يستحق الذكر . وان الاستاذ نيوكم نفسه جرب على فتـاة اسمها لولو هرست قالت بالمدهشات ولكنهـا لم تدع انهـا فعلت شيئا خارقا للعادة ولكنها أظهرت كيف فعلت مافعلته ، وان الجرائد الامريكية ذكرت الغرائب عن تلك الفتاة .

لتكن الجرائد الامريكية على تلك الصفة، بل ليكن الامريـكان كلهم مخدوعين بالاعيب المشعوذين مثلنا والحمد لله نعتمد عليهم ولكن على مقررات الجمعيات العلمية الاوربية، ومؤلفات الباحثين الاوربيين، وعلى الاخص منهم الانجليز المشهورين بشدة التدقيق والتمحيص والاعتماد على المشاهد المحسوس وعدم التسرع في اصدار الاحكام الطائشة .

وبعد فان الاستاذ نيوكم الامريكي لم يخرج عن كونه أحـد المنكرين لهـذه المباحث، وقد بني انـكاره على تجارب علمية معـدودة، بل بني حكمه الشخصي فيها على تجربة واحدة وقع بها في أحابيل مدلسة عمرها خمس عشرة، سنة فتنطبق عليـه أقوال الاستاذين وليم كروكس وكاميل فلامريون التي قدمناها . فأين البروفسور نيوكم في تسرعه وضجره، من الاعضاء الثلاثين الذين ندبتهم الجمعية العلمية الانجليزية رسميا

لبحث ظواهر الاسبرتسم،فامسنوا في التجارب ثمانية عشر شهرا وليس معهم وسيط أجنبي وبالتروا في الصبر،وبذلوا ماهو معروف عن علماء الانجليز من الثبات والتؤدة وبعد النظر،ثم كتبوا تقريرهم المشهور الذى وقع في أكثر من خمسمئة صفحة وترجم الى جميع اللغات الحية . وقد جاء فيه بالصفحة ٩ وما بعدها من الترجمة الفرنسية ما يأتي :

«قد عقدت هذه اللجنة من يوم تألفها فى ١٦ فبراير سنة ١٨٦٩ أربعين اجتماعا بقصد عمل التجارب والامتحانات المدققة.

« كل هذه الاجتماعات عقدت في البيوت الخاصة للاعضاء لاجل نفي كل احتمال في اعداد آلات لاحداث هذه الظواهر أو أية وسيلة من أى نوع كان،

« ولقد كانت اثاثات الغرف التي عقدت فيها الاجتماعات في كل حال هي اثاثاتها العادية .

« وقد كانت الاخونة(الترابيزات) التي استخدمت دائما للتجارب هي أخونة الطعام ثقيلة تحتاج لقوة عظيمة اذا اريد تحريكها . وقد كان طول أصغرها خمس أقدام وتسع بوصات وعرضها أربع أقدام . وكان طول أكبرها تسع أقدام وثلاث بوصات وعرضها أربع أقدام ونصف القدم وكان ثقلها مناسباً لحجمها.

وقد كنا نعمد الى تفتيش هذه الاخونة وجميع الاثاثات تفتيشاً مكرراً قبل عمل التجارب، لنحصل على الثقة التامة بعدم وجود أي آلة أو جهاز يمكن بواسطته أن تحدث الاصوات والحركات التي ستذكرها بعد،

« وقد عملنا تجاربنا فى ضوء الغاز ماعدا عدداً قليلا منها اقتضي فيها شأنه الخاص أن نعمله فى الظلام دقائق معدودة.

« وقد تحاشت لجنتكم أن تستخدم الوسطاء المشتغلين بهذه الوظيفة في الخارج أو الذين يأخذون أجراً على عملهم هذا .فكان واسطتنا الوحيد احد اعضاء اللجنة،شخص جليل الاعتبار في الهيئة الاجتماعية،وحاصل على صفة النزاهة المطلقة وليس له من غرض مالي يرمي اليه ولا أي مصلحة في غش اللجنة.

«وقد عقدت لجنتكم عدة اجتماعات بدون أي وسيط لاجل محاولة الحصول على نتائج مشابهة التي تحصلت عليها بحضوره فلم تحصل بعد كل جهد نتائج مشابهة تماما التي تحصل مع وجوده.

«كل تجربة من التجارب التي عملناها عما أمكن لمجموع عقولنا ان تتخيله عملت بصبر وثبات . وقد دبرت هذه التجارب في أحوال كثيرة الاختلاف واستخدمنا لها كل المهارة الممكنة لاجل ابتكار وسائل تسمح لنا بتحقيق مشاهداتنا وابعاد كل احتمال لغش أو توهم.

وقد اكتفت اللجنة في تقريرها بذكر المشاهدات التي كانت مدركة بالحواس وحقيقتها مستندة الى الدليل القاطع.

وقد بدأ نحو أربعة اخماس اللجنة التجارب وهم في أشد درجات الانكار لصحة هذه الظواهر ومقتنعون أشد اقتناع بأنها كانت اما نتيجة التدليس أو التوهم أو انها حادثة بحركة غير ارادية للعضلات . ولم يتنازل هؤلاء الاعضاء المنكرون أشد الانكار عن فروضهم السابقة الا بعد ظهورها بوضوح لا تمكن مقاومته وفي شروط تنفي كل فرض من الفروض السابقة، وبعد تجارب وامتحانات مدققة ومكررة فاقتنعوا رغما عنهم بأن هذه المشاهدات التي حدثت في خلال هذا البحث الطويل هي مشاهدات حقة لاغبار عليها.

« وقد كانت نتيجة تجاربهم التي تتبعوها مدة طويلة وقادوها بعناية واهتمام وجشموها جميع اشكال الامتحانات تقرير الاحوال الآتية :

(أولا) أنه بوجود شخص أو اشخاص ذوي استعداد جسماني او عقلي خاص تتولد قوة كافية لتحريك أشياء ثقيلة بدون استخدام أي مجهود عضلي وبدون مس ولا اتصال مادى من أي نوع كان بين تلك الاشياء وبين جسد أي شخص من الحاضرين .

(ثانيا) هذه القوة تستطيع أن تحدث اصواتا في بعض الاشياء الجامدة بحيث يسمعها جميع الحاضرين بوضوح تام ولا يكون بين تلك الاشياء وبين احد الحاضرين اي اتصال

وقد ثبت ان هذه الاصوات صادرة في هذه الاشياء عن ذبذبة تتضح عند اللمس تمام الاتضاح .

(ثالثا) كثيرا ماتكون تلك القوة مقودة بعقل » . انتهى

نقول أين هذه الرزانة والثبات والدؤوب وراء الغاية الجليلة من ذلك التسرع المعيب والتحدى السلبي الذى ظهر بهما الاستاذ نيوكم ؟ فهل كان يتخيل أغاسز وصاحباه ان يكتشفوا عالم الروح بجلوسهم مرة أو مرتين امام وسيط لا يهمه الا قبض الاجرة ؟ وهل كان يرجو الاستاذ نيوكم ان يتصل بالعالم العلوى بجلوسه مرة واحدة أمام مشعوذة وهو بين حشد من الملايين ولم يتخذ بعض ما يتخذه رجال العلم في انجلترا وفرنسا والمانيا من التحوطات التجريبية ، كربط الوسيط وحبسه في قفص حديدى وتسميره بالارض وايصال تيار كهربائي الى جسده ليسجل كل حركة وسكنة الكيلا يقع فيما وقع فيه من الانخداع الشائن حتى كانت المشعوذة هى التي اخبرته بأنها لم تفعل مافعلته بغير اساليب الشعوذة ؟

انا اعجب لماذا يعول خصوم هذه المباحث على أمثال هؤلاء المتسرعين ويتنحون عن قراءة تقرير اللجنة الرسمية التي ندبت لدرس هذه الحوادث في البلاد الانجليزية وهو يعتبر حكم الانجليز المشهود له بالتمحيص والتدقيق ؟

ان تقريرا يكون من الموقعين عليه تندل ولورد افبرى وروسل ولاس وولبم كركس من أقطاب العلم الانجليزى بل من زعماء المذاهب العلمية الحاضرة لجدير بأن يحل في الدرجة العليا من الاعتبار في نظر المتكلمين في هذا الموضوع الذى حول آراء العلماء من المادية البحتة الى الروحانية الصرفة في هذا الجيل .

هل يعقل ان نعتقد بتجربة اغاسز السلبية الوحيدة وبوقوع نيوكم(١) في يد مشعوذة ماهرة فنعتبر فشلهما حجة دامغة ونرمى عرض الحائط باقوال الالوف من رجال العلم الذين

---

(١)(المقتطف) انما استشهدنا بالاستاذ نيوكم للدلالة على عدم تدقيق الجرائد الاميركية . اما رأيه في السبرتزم فيرجع فيه الى مقالته المشار اليها وقد كان اول رئيس لجمعية المباحث النفسية الاميركية

جربوا هذه المباحث مجتمعين ومنفردين في مدى اكثر من سبعين سنة ؟

ألم يكن في الثلاثين اخصائيا الذين ندبهم المجمع العلمي البريطاني لفحص الاسبر تسم واحد في مثل تبصر اغاسزاو نيوكم ميهدى تلك اللجنة الى طريقة التدليس ؟

ان جمعية المباحث النفسية التي تألفت في لوندرة منذ سنة ١٨٨٢ لا تزال قائمة وقد تولى رئاستها لسنة ١٩١٩ اللورد ريليه *Rayleigh* وهو اعلم علماء انجلترا بالطبيعة ناهيك انه يشغل في الجمعية الملكية محل العالم الاشهر تندل . وقد جمعت هـذه الجمعية من التجارب مايقع في اكثر من اربعين مجلدا . فهل يعقل ان هذه الجمعية المؤلفة من غطارفة العلم الانجليزى تتكسع في الغرور والوهم والانخداع نحو اربعين سنة ؟ وهل يليق ان نرمى بتجاربها الايجابية عرض الحائط ونأخذ بقول اغاسز او نيوكم ممن لم يحاولوا هذه الموضوع الخطير الا مرة؟

هل هذا الاسلوب السلبي الانكارى مما يرقى العلوم أو يشجع الباحثين على موالاة التنقيب عن اسرار الكون ؟

لو كان دحض المستكشفات العلمية يتأتى بنقل آراء الخصوم المتسرعين في احكامهم لما جيء مذهب جديد في العالم ولا ثبت رأى حديث فيه.

ولو كانت الحقائق الجديدة تموت بأحكام الخصوم المتسرعين لباد استكشاف الاوكسيجين بواسطة لافوازييه، لقيام قيامة العلماء ضـده اذ ذاك بحجة ان العناصر الاربعـة لا تقبل التحليل . ولذهب استكشاف هرفي لدورة الدم ادراج الرياح لان جامعة الطب هزئت به وسلقته بلسان حاد . ولقبر الاستصباح بالغاز لان العلماء كانوا يضحكون متى ذكروا امـكان وجود مصبـاح بلا فتيل، ولمـا مدت الخطوط الحـديدية وجرت عليها الآلة البخارية، لان الرياضي الاشـهر اراغو اثبت بالادلة الرياضية سنة ١٨٣٨ امام مجلس منواب الفرنسي ان هذا المشروع مستحيل . ولمّا تحقق عمل الاسلاك البحرية التلغرافية لان العلامـة بابيه قال عنها في المجمع العلمي الفرنسي سـنة ١٨٥٣ : « ان نظرية التيارات الـكهربائية تستطيع ان تعطينـا أدلة غير قابلة للنقض (تأمل) عن استحالة مثل هذا النقل للمخابرات » ، وامّـا كنا ا

صدقنا وجود الانسان الحفرى لان العلامة الجيولوجي الكبير (ايلي دو بومون) السكرتير الدائم للمجمع العلمي الفرنسي ظل طول حياته ينكر وجوده ، ولكننا رفضنا الاستفادة من الميكروسكوب لان العلامة اجوست كونت قال اننا لا نستطيع ابداً وبأية وسيلة من الوسائل أن ندرس التركيب الكيماوي للكواكب ، ولحرمنا من القوة الكهربائية في مخاطباتنا ومعاملنا وبيوتنا لان علماء الطبيعة المعاصرين لمستكشفها جالفاني سخروا منه وكذبوه ونبزوه بلقب مرقص الضفادع.

انا لو أردنا استقصاء أقوال خصوم كل بحث جديد لزمنا أن نضع في ذلك كتابا فليس طريق الوصول الي الحقائق وخصوصا الكبري منها أن نقف مع اقوال المنكرين الجامدين من غير المجربين، أومن المجربين الذين فشلوا في تجربة واحدة أو عدة تجارب في سويعات معدودة، ولكن طريقها درس أدلة المثبتين وزنتها بميزان النقد الصحيح.

هذا هو الذي نعمله في كتابتنا هذا البحث وهو الطريق الذي سلكه كل الباحثين في جميع العصور . وبهذا الاسلوب وحده تقررت الاستكشافات الجديدة وزادت بها مادة العلم

ان التنويم المغناطيسي الذي أصبح اليوم جزءاً من العلوم الرسمية رمي مستكشفه مسمر بالشعوذة ونبز بكل الالقاب المحقرة .فلو كان أخذ المجربون المتقدمون بكلام هؤلاء الخصوم لكنا حرمنا اليوم من أعظم استكشاف ظهر في العلوم النفسية .

والاسبرتسم مضي علي جهاده اليوم اكثر من سبعين سنة وقد وصل الى ما وصل اليه من احترام الوف من العلماء وملايين من النبهاء في سائر اصقاع المعمور رغما عن جميع المعارضين حتى صارت له مجامع علمية لا تقل جلالا عن المجامع الرسمية .

وقد ذكرت مجلة التاريخ السنوى للمباحث النفسية التي يصدرها العلامة الكبير

شارل ريشيه العضو بالمجمع العلمي الفرنسي بجريدتها المطبوع في سبتمبر الماضي أنه قد تألف في فرنسا مجمع علمي جديد لتهيئة الحوادث النفسية للدخول الى العلم الرسمي مؤلفا من الاستاذ الدكتور جيليه المدرس بجامعة السوربون وشارل ريشيه المدرس بجامعة الطب الباريزية والدكتور كالمت المفتش العام لصحة باريز. وجبريل دولان المهندس والاستاذ كاميل فلامريون والكونت ا. دوغرامون من المجمع العلمي الفرنسي وجول روش أحد وزراء فرنسا سابقا والعضو بمجلس النواب حالا والاستاذ سانتو ليتكو بدو أحد وزراء ايطاليا ورئيس اللجنة الدولية الصحية لحفظ والاستاذ تيسيه المدرس بجامعة ليون والمسيو بلرتلمي سوريل الصحفي الفرنسي المشهور. فهل يجتمع هؤلاء القادة المشاهير من العلماء والاطباء والسياسيين لتهيئة الاضاليل للدخول الى العلم الرسمي؟ وهل يعقل أن يتنزل أمثالهم للاشتغال بالاعيب المشعوذين مما ثبت لاغاسز بتجربة سابقة ولنيوكم بانخداعه لطفلة مشعوذة أنها خرافات لا تستحق غير الاعراض؟

وجاء في المجلة العلمية والخلقية للاسبرتزم الصادرة في شهر سبتمبر الماضي بصفحة ٢٨٠ ان المجمع العلمي الفرنسي (الاكاديمي فرنسيز) منح المسيو ل. شفروى جائزة (فابي امدن) لتأليفه كتابه الذى عنوانه (الانسان لايموت) وهو أول كتاب روحي حصل على هذه الجائزة من مجمع كان قبل سنوات يهزأ بهذه المباحث ويعدها من الانحرافات العقلية. فهل يهب مثل هذا المجمع جوائزه لنشر الاضاليل وتأييد خزعبلات الخادعين والمخدوعين؟

ان دولة الاسبرتيسم قد تأيدت بحيث لم يعد في وسع أحد ان يعترض سبيلها او يقف حائلا دون انتشارها بعد ما اكتسبت الى صفها الالوف من رجال العلم والملايين من أصحاب الذكاء والفهم وخصوصا بعد ما اجتازت كل عقبة وضعت في سبيلها وثبتت على كل تمحيص واختبار وتجربة سريت عليها. فاي وهم يقاوم كل هذه التجارب والمشاهدات وأى شعوذة تستهوى عقول اعتى المجربين من الماديين في مدى اكثر من سبعين سنة؟

هل عهد في تاريخ البشر ان شعوذة مهما بلغت من الدقة ينخدع بها ثلاثون عالما نزلو خصيصا لبحثها فيجمعون على الشهادة بصحتها ؟ وهل عهد في تاريخ البشر ان الملايين من افراده الاذكياء يتألبون على درس مسألة محسوسة فيلصب بقولهم حثالة من المحتالين والدجالين ويتهوي الامر بأن يصدروا لنشرها نحو ثلاثمائة مجلة، ويؤسسوا لها المجامع العلمية، ويتولاها أقطاب العلم الرسمي في مثل الامم الانجليزية والفرنسية والالمانية وغيرها ؟

وهل يعقل مع هذا كله ان تستمر هذه الحركة وتزيد في هذا العصر عصر الشكوك والالحاد وفي مثل القارتين المتمدنتين حيث دولة العلم قائمة وموازين النقد صارمة ؟

اللهمّ لا

ويحسن بنا ان نختم هذه المقالة بكلمة كتبها الاستاذ فابجو مدرس علم التشريح بجامعة ليسبون للعلامة كاميل فلامريون في ١٥ مايو سنة ١٩١٦ ونشرتها مجلة التاريخ السنوي للعلوم النفسية في عددها الصادر في سبتمبر الماضي جاء في نهايتها :

« أنا لا احاول ان اعلل مارأيته، ولكني اكتفي بأن أقول كما قال السير وليم كروكس بأنه حق صحيح .

« وانا اشعر الآن بندم عظيم من جراء جحودي السابق . فاذا ادرك الانسان ماوصل اليه العلم في هذه السنين الاخيرة تعذر عليه ان ينكر شيئاً لاول وهلة . وانا لنتسى بسرعة تعاليم روجر بأكون وندعي مع ذلك اننا حسيون نحب المذهب التجريبي»

دحض شبهة الاستهواء

في التجارب الروحية

نشرنا هذه المقالة في مقتطف دسمبر سنة ١٩١٩:

ندحض في هذه المقالة النظرية الثانية من نظريات الماديين التي يوردونها لتعليل الظواهر الروحية، ومؤادها ان هذه الظواهر خيالية بحت ليس لها حقيقة في الواقع وانما تتراءى للمجربين لوقوعهم تحت تأثير استهواء الوسيط.

لما آنس الماديون ان اصرارهم على نظرية التدليس أصبح لاوزن له بعد دخول الوف من الرجال المشهود لهم بالالمعية والفضل الى ميدان التجارب، وتطابق شهاداتهم لها في كل صقع من اصقاع المعمور، لجأوا الى نظرية الاستهواء التي قدمناها وهي بمثابة خط الدفاع الثاني لهم، كأن العلماء الكبار امثال كروكس وريشيه وزولنر ولومبروزو وبترهوف والالوف المؤلفة من الاخصائيين العظام، من الغباوة والبله وانحطاط المدارك والبلادة العقلية بحيث يسهل على وسيط ساذج مربوط على كرسيه ومحبوس في قفص من الحديد ان يوقعهم تحت تأثيره المغناطيسي فيوهمهم برؤية مالا يوجد الا في خياله، فيسرعون الى اثباته تحت المدونات الضخمة في مجلاتهم وكتبهم، في مدى جيلين متتابعين ، ويعقدون له مئات الجمعيات ثم لايؤوبون الى رشدهم بعد تنبيه الماديين لهم، ولكنهم يدأبون عليه ويواصلون البحث فيه كأنهم جمعوا الى بلادة العقل البله المستعصي والجمود الذي لاحد له .

ان دحض نظرية الاستهواء من ايسر الامور، بل هي داحضة من نفسها في نظر من وقف على بعض التجارب الروحيه ونحن سارودون هنا الوجوه التي تبطلها .

(١) المعروف في الاستهواء انه يؤثر على واحد، والمجربون للظواهر النفسية يكونون

عادة كثيرين وقد كان عدد الاعضاء الذين ندبتهم الجمعية العلمية الانجليزية لبحث هذه الظواهر ثلاثين فكيف تسني الوسيط استهواء هذا الجم الغفير ؟

(٢) المقرر أن الواقع تحت استهواء غيره يكون فاقد الارادة وملازما لجالسه وفي حالة نوم لا تفترق عن النوم الطبيعي الا في اطاعته لمؤثر عليه . والمجربون في المسائل النفسية يكلم بعضهم بعضا ويقومون ويقعدون ويراقبون الوسيط ويقيدون بالكتابة ما يشاهدون ويسمعون .

(٣) المعروف عن الاستهواء ان المستهوى يقف على قدميه أمام من يريد استهواءه ويحدق في عينيه أو يشير اليه بيديه . والامر على العكس من هذا في التجارب الروحية فان الوسيط هو الذي يقع في خدر تام وقد يتشنج وتعتريه حوادث تعوز الاسعاف في أثناء التجربة، فيقوم بخدمته المجربون ويكون مقيداً ومربوطا على كرسيه، وموضوعا داخل قفص من الحديد، وموصلا بسلك كهربائي ليسجل عليه جميع حركاته .

(٤) كثيراً ما يكون الوسيط امرأة الباحث المجرب أو ابنته كما كان ذلك حال الوزير الروسي اكزاكوف وادموندس رئيس مجلس السناتو الامريكي، او أحد المجربين كما حدث للجنة التي ندبتها الجمعية العلمية الانجليزية لبحث هذه الظواهر، او يكون المجرب وسيط نفسه كما كان حال ستيد وستنتون موزس وغيرهم من كبار الرجال وعظيمات النساء . فهل تستقيم نظرية الاستهواء في هذه الاحوال كلها ؟

(٥) تسجيل الآلة الفوتوغرافية للظواهر النفسية في ساعات حدوثها فتأتي الصور مطابقة لما رآه المجربون بأنفسهم، فهل تقع الجوامد في الاستهواء أيضا فترسم خيالات الوسيط ؟

(٦) ارتفاع الاخونة الثقيلة عن الارض وانتقال الاثاثات من أماكنها وقاؤها في مطارحها الجديدة بعد التجربة، أو تحطمها واستحالتها الي قطع بدون لمس احد لها وخروج مسامیرها بدون آلة، وبقاء ذلك كله مشاهداً محسوسا بعد الفراغ من التجربة .

(٧) حدوث قوالب من البرافين في اثناء التجربة وبقاؤها بعدها ومنها قوالب لايد وأرجل ليست لاحد من المجربين لان منها مايكون فى غوضفى حجم يد الانسان العادي.

(٨) بقاء الازهار والاشياء التى تجلبها الارواح من اماكن بعيدة بعد التجربة ولايزال كثير من تلك الاشياء محفوظا لدى المجربين وقد مضي علي بعضها اكثر من نصف قرن

(٩) بقاء ما تكتبه الارواح بأيديها في اثناء تجسدها بعد انفضاض التجربة

هذه الوجود كلها تنفى نظرية الاستهواء والتخييل، وقد نقلنا عدداً كافيا من هذه التجارب فى مقالاتنا السابقة هذه، ولكن الماديين الذين يزعجهم ان يكون في الكون غير المادة المحسوسة يهزون اكتافهم متى سمعوا بهذه التجارب ويصرون على اعتبارها اضاليل عقلية او احابيل شعوذية وينسون او يتناسون ان الذين يقولون بها اليوم كانوا بالامس اشد منهم شكا وكانوا يصمون المجربين باشد مما يصمونهم هم به اليوم من سقم العقل، والوقوع فى الانخداع، ولكنهم بعد ان خبروها بأنفسهم عادوا فاقتنعوا بصحتها بالرغم منهم.

ولو كان هؤلاء الماديون منصفين ولم يطوح بهم الهوى الي ماطوح بهم اليه من معاندة المحسوسات لكان لهم في تقرير لجنة الجمعية العلمية الانجليزيه التى وكل اليها البت فى امر هذه الظواهر مقتنع. لان هذه اللجنة التي الفت من ثلاثين عالما من اشهر علماء الانجليز دعيت خصيصا لحسم مادة القيل والقال ودرس الموضوع دراسة علمية خالية من كل غرض مذهبي أو اعتبار ديني. ولم تستخدم وسيطا مأجوراً، ولم تجتمع الا في بيوت أعضائها المجربين، وليس فيهم واحد يجهل الاستهواء أو يستنيم للانخداع، وكانت الامة الانجليزية اذ ذاك ناقمة علي حركة الاسبرتسم، وعادة اياها رجوعا للاوهام القديمة، وتود أن يكون من وراء اجتماع هذه اللجنة كشف وجوه التدليس واصدار حكم قاطع صارم لا يقبل النقض على ان هذه الامور من الشعوذة التي لا يقع فيها الا النغفل، ولا يقيم لها وزنا الا السهامة

الباحثون ولكن رغما عن هـذا كله جاء تقرير اللجنة مخالفا لرأى الجمهور ومثبتا لنظرية القائلين بأن وراء هذه المادة قوي تظهر في شروط خاصة وتعمل بعقل وروية،وتأتي أعمالا مادية لادخل لاحـد من المجربين فيها . فكان هـذا رأى المجلس العلمي،وجاء بعدها الوقت مؤلفـة من العلماء المجربين فايدوا كلهم هـذه النتايج . فهل بعد هذا لشاك مهما بلغ به حب التحوط لمدركاته ان يشك في صحة تلك الظواهر بحجة انه لم يرها بعينيـه ؟ ولو رآها هو وقلبها لـكذبه السامعون كما يكذب هو سواه وهلم جرا . وليس هـذا بالطريق التي تؤدي الى تقرير الحقـائق الكبرى . وقد لاحظ هذا الامر قادة العلم في اوربا ونبهوا علي ضرره وعلي تأثيره السيء في تقدم العلوم فقال الاستاذ الرياضي الكبير ألبرت دورشاس مدير مدرسة الهندسة في باريز في مقدمة كتابه « استخراج القوة المحركة التي في الانسان » :

«ان رفض تصديق كل هذه التأكيدات علي كثرتها ووضوحها ودقتها يجعل قيام أي علم طبيعي مستحيلا فدارسه لايجوز له ان يطلب شهود جميع الظواهر التي تنتمي اليه والتي تكون ملاحظتها صعبة غالبا».

على ان المادي المتشكك لو قام له عذر في اطراح قرار لجنة الجمعية العلمية الانجليزية المذكورة آنفا فلم يعهد في تاريخ العلم ان ثلاثين عالما من الاخصائيين يجتمعون ثمانية عشر شهرا للبت في مسألة محسوسة ويجمعون على حكم لايشذ عنه واحد منهم واربعة اخماسهم كانوا مقتنعين قبل بحثها بانها من الشعوذة كما كتبوا ذلك بأنفسهم في تقريرهم، كلهم في الضلال لايشذ عنهم واحد يخالفهم الي الهدى .

لم يعهد هذا في تاريخ العلم ولن يكون في عصر من العصور وقد أثر تقرير هذه اللجنة أعظم تأثير في عقول العلماء فحملهم على احلال هذه المباحث محلها من الاعتبار وانتهي الحال بهم الى مانري اليوم من اعتبار المجامع العلمية الرسمية للمؤلفات التي تصدر فيها. وقد ذكرنا في المقالة الماضية خبر منح المجمع العلمي الفرنسي جائزة (فن إمدن) لكتاب المسيول . شفروى الذي عنوانه الانسان لايموت وكل مستنداته مستمدة من التجارب

الروحية الحديثة .

قال الدكتور السر ارثر كونان دويل وهو من مشهوري المفكرين الانجليز في كتاب أصدره في سنة ١٩١٩ التي نحن فيها وهي التي أعلن فيها انضمامه الي صفوف الروحيين بعد تجارب دامت اكثر من ثلاثين سنة :

« ولقد تأثرت أيضا في ذلك العهد بتقرير الجمعية العلمية الانجليزية وهو التقرير الذى يصعد تاريخه الى سنة ١٨٦٩ فانه من الاعمال التي تفضي قراءتها الى الاقتناع. وهو وان كان قد قوبل من الصحفيين الجهلاء وماديي العصر بالسخرية الا انه في الواقع ذو قيمة جليلة . ولقد تألفت هذه اللجنة من جماعة من الرجال المتازين المعروفين بالنزاهة وقد رغبوا في تحقيق الظواهر الخارجية للاسبرتسم . فجاء تقريرهم مفصلا تجاربهم والتحوطات التي اتخذوها ضد التدليس . فبعد ان يقرأ الانسان البراهين المجموعة في ذلك التقرير لايستطيع ان يدرك كيف كان يصل هؤلاء المجربون الى غير النتائج التى اعلنوها وهي ان هذه الظواهر بلا أقل ريب حقيقية وتدل على وجود نواميس وقوى لاتزال مجهولة من العلم . والاغرب مما تقدم انه لو جاء قرار هذه الجمعية ضد الاسبرتسم كان طمن هذه الحركة طمنة قاتلة وماكان يقابل بالاستهزاء لضمانه صحتها . ولقد كان هذا الاستهزاء حظ مباحث عديدة عملت بعد مباحث هيدسفيل فى سنة ١٨٤٨ أو حين قام الاستاذ هير (*Hare*) من جامعة فيلادلفيا ليمارض الحقيقة كما كان شأن القديس بولس ، ولكنه اضطر ان ينحني اجلالا لها (انظر صفحة ٣٧ من كتاب الوحي الجديد تأليف الدكتور السير ارثر كونان دويل)

هذا تأثير وقع تقرير اللجنة العلمية الانجليزية في العالم العلمي فيحسن بكل من يريد الكلام في هذا الموضوع تصويبا او تخطيئا ان يقرأه احتراما للحقيقة.

وانا فى مناسبة ذكر كتاب الدكتور السير ارثر كونان دويل تقتطف لقراء هذه المجلة كلمات منه فهو احدث كتاب ظهر فى عالم المطبوعات فى هذا الموضوع وصاحبي

نسخة منه منذ ايام وقد أخذت في ترجمته لانه يحكي تاريخ نفسه في الشك والجحود ثم تدرجه شيئاً فشيئاً تحت تأثير البراهين الي الاعتقاد الجازم بان الاسبر تسم حق وانه وحي جديد للعالم ليخرجهم من ظلمات الالحاد المطلق الي انوار الايمان القائم على دعائم العلم الصحيح . قال الدكتور المذكورة بعد ذكره التجارب التي عملها في مدى الثلاثين سنة السابقة.

« ان هذا الموضوع كما برهنت عليه يجدر ان يعتبر بحثاً لمن كان قد اندثر لا استكشافاً جديداً . واننا لسنا في عهد يصح أن تحسب فيه الآراء الناضجة المتروى فيها لامثال كروكس ووالس وفلاماريون وشارل ريشيه ولودج وباريت ولومبروزو والجنرالين دريزون وتوريز والسرجان بالانتاين وستيد والقاضي ادموندس والاميرال اسبورن مور والمرحوم ارشيديكون ويلبر فورس وجم غفير من شهود آخرين قلت لسنا في عهد يصح أن توصف فيه آراء هؤلاء بأنها من الخلط أو اللغو المل . وقد توافقنا انا والمستر ارثر هيل في القول باننا وصلنا من هذا العلم الى الغاية التي تعتبر معها كل شهادة جديدة زائدة عن الحاجة ويقع عبء كل انكار على المنكرين أنفسهم .

« ان زمن البحث والتنقيب قد مضى وحان وقت العمل من زمان بعيد .

« ان الادلة التى يستند عليها هذا العلم من الكثرة بحيث تملأ مكتبة بأكملها . والشهود الذين دعوه لا يعيشون في غيابات الظلام ولا هم في ماض بعيد لا يقبل التمحيص ولكنهم معاصرون لنا ومن اصحاب المدارك والصفات المجمع على احترامها .

« الامر في جملته ينحصر كما أرى في الاخذ بأحد أمرين اثنين وهما : اما ان يفرض بأن ويلا من الجنون ألمّ بهم جيلين من الناس وهم في قارتين من الارض واصاب رجالاً ونساء يعتبرون في أوج الصحة في كل مجال عقلي آخر . واما التسليم باننا منذ ستين تلقي وحياً جديداً من مصدر الهي يخالف اكبر الحوادث الدينية التى حدثت منذ موت المسيح مخالفة كبيرة . لان حادثة الاصلاح البروتستانتي كانت عبارة عن تهذيب الكاثوليكية

وأما هـذا الوحي الجديد فيغير في نظرنا وجه الموت ويحط الانسان من الوجود تغييراً كليا . لا مجال للتردد في اختيار أحد هذين الفرضين . واما النظرية التي مؤداها ان الاسبرتسم لا يعدو التدليس والافك فلا تثبت أمام الوضوح والبيان . فاما ان يكون هذا الامر من الجنون البحت وأما ان يكون انقلابا يجعلنا نقابل الموت وجها لوجه بلا وجل وبعزية لاحدلها باقناعنا بان الذين نحبهم لم يتلاشوا بالموت ولكنهم انتقلوا الى عالم من وراء حجاب

«وأحسن ما أضعه لختام هذا الكتاب الصغير هو أن أنقل الكلمات البليغة التي أعجز عن الاتيان بمثلها وهي كلمات تساوى فيها الفكر والبيان في السمو للمفكر الكبير والشاعر المستر جيرالد ماسي *Geraldmassey* وقد كتبت منذ بضع سنين قال :

«ان الاسبرتسم صارلي كما صار لكثيرين غيري توسعة في مدى أفق العقل ومنفذا لي الى السماء ، وتحولا لايماني بالغيب الى عقيدة بمشاهدات محققة لا يمكن أن تشبه الحياة بدونه الا بالمرور في قاع سفينة مغلقة النوافذ وليس مع السائر من نور غير بصيص من لهب شمعة ثم سمح له مفاجأة أن يصعد الى ظهر السفينة في ليلة حالية بالكواكب ليتأمل لاول مرة هذا المنظر المعجب للسماء وهي تتلألأ بعظمة الله».



الروح والجسد

جاء في جزء المقتطف الذي نشرنا به هذه المقال سؤال وجهه الينا بعض قراء المقتطف هذا نصه :

حضرة الفاضل محرر المقتطف

قرأت في مجلتكم مقالات متوالية تحت عنوان اثبات الروح بالمباحث النفسية لحضرة الفاضل فريد بك وجدى ويتلخص كلام حضرته في أربع كلمات وهي أن الروح غير الجسد خلافاً لما يثبته الطبيعيون من ان الروح ظاهرة من الظواهر التي تنتج من الجسد بتأثير بعض المؤثرات فيه .

فالرجاء من حضرة الكاتب أن يفسر لنا العلاقة بين زوال الروح من الجسد بالامتناع عن تعاطي الطعام وبين استمرارها فيه بتعاطيه الطعام الى أن يصير الجسم غير صالح لها مسكناً . مستفيد

دحض شبهات

تأثير الوسيط بقوته الذاتية

نشرنا هذه المقالة في جزء المقتطف الصادر في يناير سنة ١٩٢٠

لما تحقق المنكرون للعالم الروحاني ان نظرية التدليس والاستهواء لاتنهض لتعليل المشاهدات التجريبية للمباحث النفسية ولا تقوى على مقاومة تيار ظواهرها

التي تظاهرت في الشهادة لها المشاعر والآلات المدنية، وخشوا انهم أصروا على هذا الضرب من المكابرة أن يحاط بهم من كل جهة، تقهقروا الى خط دفاع ثالث وجمعوا صفوفهم استعدادا لمركة فاصلة تسلحوا لها بفروض جديدة . فزعموا ان تلك الظواهر كلها لاتدل على وجود عالم روحاني تظهر لنا آثاره بواسطة ذوى الاستعداد الخاص لاظهارها، ولكنها مظاهر مختلفة لقوى الوسيط نفسه . فقد يظهر الوسيط بشخصية مخالفة لشخصيته فيخيل للمجربين ان روحا استولت عليه وتكلمت بلسانه والحقيقة ان هذه الحالة مظهر من مظاهر الامراض العصبية كحالة المرضى الذين وصف اطوارهم الباحثون في تلك الامراض، كالاساتذة جانه وريشه وجمس وميرز وغيرهم (انظر المقتطف صفحة ٤٦٨) .

والوسيط الواقع في تلك الحالة قد يخبر عما لا يعرفه هو ولا يعرفه المجربون فيتوهم من يراه ان روحا تتكلم عما غاب عن الناس علم الحال كما يقول المقتطف في الجزء الماضي انه يعبر عن « معلومات محفوظة في عقله الباطن الذي أطلق عليه الاستاذ ميرس اسم *Subliminal* أي تحت عتبة الشعور واطلق عليه شوبنهور وهارتمان اسم اللاشعور *Inconscient* نريد بذلك ان بعض الناس يسمعون ويقرأون عن أمور كثيرة فترسخ في عقلهم الباطن ولكنها لاترسخ أولا يبقى ذكرها في عقلهم الظاهر الذي يستولي عليهم وهم في حالتهم الطبيعية، فاذا مرضوا أو ناموا أو استهووا وأصابتهم النيوبية تذكروا ماهو راسخ في عقلهم الباطن وذكروه » .

فان قلت لهؤلاء ان انواع المشاهدات الروحية لاتنحصر في ظهور الوسيط بشخصية غير شخصيته ولا في اخباره بالغيب ولكن تتناول ضروبا من الخوارق يطول فيها العد، ردوا عليك بمثل ماقاله المقتطف في ذلك الجزء نفسه : « لا يخفى علينا ان بعض مايروى من الوسطاء لايعلل بما تقدم ولكن الذين فحصوا بعض الغرائب المروية وجدوا فيها بعدا عن الحقيقة مقصودا او غير مقصود وانها اذا ردت الى حقيقتها زالت عنها كل غرابة » .

المنكرون في كل زمان ومكان رددوا هذه العبارات كلما خوطبوا في المسائل الروحية. فلقد كروكس وروسل واليس وشارل ريشيه وبترهوف ووزولنر ولمبروزو ولجنة الجمعية العلمية الانجليزية التي دعيت لفحص المشاهدات النفسية وتقديم تقرير رسمي عنها وقالها الالوف من العلماء والمفكرين في كل بلد متمدن ولكنها ذابت وتلاشت عند ما بحثوا هذه المشاهدات بانفسهم فانقلبوا الى صفوف أنصارها ودافعوا عنها بكتاباتهم وخطبهم، حتى أصبح لها القوة اليوم. فالامر كما يقول الدكتور (ارثر كونان دويل) ينحصر بين فرضين اثنين لا ثالث لهما: فاما أن يكونوا من الجنون التهم القارئين في جيلين متواليين، واما أن نكون حيال فتح جديد افاضه الله على الناس ليكمل به لهم نقص الدليل العقلي في اثبات الروح والخلود بشاهد من الحس كما تتطلبه الفلسفة العصرية.

وأنا أزيد على هذا قولي: لو كانت مشاهدات ألوف من العلماء والنبهاء مجتمعين ومنفردين في جيلين متواليين، تدحض بمثل هذا الاسلوب، لبطل كل علم في الارض الا ما يراه الانسان بنفسه. فيستطيع أحدنا مثلا جريا على هذا الاسلوب ان ينكر كل ماذكره المقتطف عن العلماء جانه وريشر وجمس وميرس وازام من تجاربهم في الشخصيات المتعددة ويستطيع أن يورد عليها كل ما يورده المنكرون على المشاهدات الروحية من التشكيكات المتنوعة. واذا كان المقتطف يثق بهم ويعتمد على ما ينقلونه عن الشخصيات المتعددة لدحض الوساطة الروحية فلم لا يثق بهم فيما يقولونه هم انفسهم عن المشاهدات الروحية. أليسوا هم أولى الناس بتعليلها بالشخصيات المتعددة باعتبار انهم اكبر العارفين لها والواقفين على أطوارها. انهم لم يفعلوا ذلك بل رأيناهم يشهدون بصحة الظواهر الروحية وبأنها ليست مما يعلل بالشخصيات المتعددة. قال الدكتور جانه في كتابه (الحركة النفسية الذاتية) صفحة ٣٧٦ بعد ذكر الاسبوتسم:

والمذهب المادي الذي اوجزنا الكلام عنه هنا يستحق درسا مدققا ومناقشة أصولية وان التشكيك والازدراء اللذين يحملان على نكران كل ما لا يفهم وعلى

تردد كلتي غش وتدليس دائما وفي كل مكان ليس لها محل هنا ولا حيال ظواهر التنالجيس الحيواني . فان الحركة التي دفعت الى تأسيس خمسين جريدة في أوربا وحملت على الاخذ بها عدداً عظيما من الناس لا يصح أن تعتبر قليلة القيمة.

أما ميرس وجرني فالاول منهما كان اكبر أعضاء جمعية المباحث النفسية في لوندره وفي كتابه المسمى الشخصية الانسانية الذي نقل المقتطف عنه ما قاله في الشهر الماضي عشرات من الشهادات في صحة التجارب الروحية.والثاني منهما كان رئيسا لجمية المباحث النفسية المذكورة وقد نقلنا شهادته لهذه المباحث في العدد الصادر من المقتطف في شهر يناير من السنة الماضية.

ويحسن بنا أن نضيف هنا الى شهادتهم شهادة عالم كبير من الباحثين في مسألة الشخصيات المتعددة هو الاستاذ الدكتور (بينيه) *Binet* مدير المعمل البسيكولجي في جامعة الطب الفرنسية فقد قال في كتابه (تحولات الشخصية) في صفحة ٢٩٨ بعد ذكره بعض التجارب الروحية :

« هذه البراهين كافية لان يتمكن منه . كالاسبرتسم من ادهاش الناس أجمعين ومن كسب الوف مؤلفة من المصدقين ».

هذه شهادات من نخبة العلماء الذين استشهد المقتطف بأقوالهم في مسألة تعدد الشخصيات وقد زدنا عليها شهادة الاستاذ (بينيه) وهو من اكبر الاخصائيين في تلك المسألة فبأي مرجح تأخذ بأقوالهم في مسألة تعدد الشخصية وترفض تجاربهم في المباحث النفسية ؟

* * *

قلنا ان في المشاهدات الروحية مالا يمكن تفسيره بتعدد الشخصيات ولا بالعقل الباطن ولنضرب لذلك أمثلة قليلة من ملايين كثيرة من تجارب بحثت عليها بحثاً علمياً وسرى عليها أدق أساليب التمحيص المعروفة ومنها تكلم الوسيط بأكثر

من عشر لغات لا يعرفها هو ولا احد من المصريين، كالعربية والهندية والجاوية والصينية، يتكلم بها كاحد أبنائها بشهادة أهل تلك اللغات الذين يستحضرون التفاهم مع الروح المتكلمة . وقد كتب المستر ادموندس رئيس مجلس الشيوخ الامريكي ان ابنته (لورا) كانت تتكلم بخمس عشرة لغة كاحد ابنائها وكان من شدة شغفه يفهم المباحث يعرضها المجربين ، فهل يعقل ان عقلها الباطن يحفظ تلك اللغات كلها على غير شعور من عقلها الظاهر ويشهد أبوها، وكان زعيم أكبر هيئة دستورية في العالم، انها لم تعلم غير الانجليزية والفرنسية ؟ ان عقل ذلك فهل يعقل كتابتها لتلك اللغات كلها بخطوط أصحابها المتوفين ؟

ومنها ادخال المواد الجامدة الى غرف التجارب المقفلة من خلال الحوائط، ونقلها اليها من مئات الاميال، وانفاذ الاشياء الجامدة في الصناديق الحديدية المقفلة المقفلة امام أعين المجربين بدون ان تلمسها ، وقد نقلنا شيئا من ذلك في مقالاتنا الماضية، فهل تفسر هذه الخوارق بتعدد الشخصيات أو بالعقل الباطن ؟

ومنها ظهور ايد وأرجل وانصاف اجساد واجساد تامة التركيب تتكلم وتسلم على الحاضرين بيدها وتسمح لهم بفحصها بكل ضروب الفحص وتكتب لهم بيدها وتترك قوالب من البرافين لبعض أعضائها وتهديهم بخصل من شعرها وبقطع من ثيابها، فهل يفسر هذا أيضا بتعدد الشخصيات أو بالعقل الباطن ؟

كل هذه المشاهدات، وهي ملايين، مما يرى فيه أقصى ضروب التمحيص لو عرضتها على الماديين وأخبرتهم بأن الذين شاهدوها هم من اخوانهم العلماء الذين يوثقونهم علما ورزانة اعرضوا بجانبهم ولم يجدوا وسيلة أحسن من نكرانها جملة وتفصيلا، والادعاء بأن أولئك العلماء (وهم ألوف) قد خدعهم المشعوذون واستهواهم الدجالون. فان أتيتهم بشهادة عشرات الالوف من الاطباء والمهندسين والصحفيين والكاتبين والشاعرين رموا بها عرض الحائط أيضا وزعموا ان هؤلاء ينقصهم التمحيص العلمي الصارم وكبر عليهم ان يأخذوا بتجارب من دونهم ، فان قلت لهم تفضلوا انتم بالبحث بأنفسكم

أجابك بعضهم بأن هذه الآية أصلاً كما فعل الأستاذ هكسلي . وأجابك البعض الآخر بأنه حضر تجربة لوسيط (مأجور) فظهر له أنه يحاول الغش فلم يعد بعدها إلى تجربة ووقر في نفسه أن كل الوسطاء مدلسون ! ورد عليك آخر أن هذه المشاهدات مناقضة للعلم المعروف . . . كأن العلم المعروف لا يصح أن يرتقي عما هو عليه إلى أبد الآبدين .

إن هذا الاسلوب في دحض الاستكشافات الجديدة لا يعد من الحيطة العلمية ولا من دلائل الالمعية ولكن يعتبر من قبيل أضخم العقبات أمام العلم واحتكار مسألة الوجود الكبرى لعدد محصور من نواميس ثابتة أظهر النقد العلمي الجديد أنها مستدلات محكية كالتمثيلات المنطقية .

ولقد بلغ الغلو ببعض العلماء الماديين أنهم اخترعوا نظريات لتعليل المشاهدات الروحية لو صحت لكانت أعجب من ظهور أرواح الموتى جهاراً وسيرها بين الناس في الطرقات ، كقولهم إن القوة العصبية للوسيط قد تخرج منه في بعض الأحوال وتحدث أعمالاً مادية محسوسة . فما هي هذه القوة العصبية ؟ وعلى أي دليل علمي استندوا في زعمهم بأن هذه القوة قد تخرج من الجسم لتضحك على لحى المجربين ؟ وما خطؤهم من ادعائها بأنها روح بعض الميتين ؟

وأراد الدكتور ادوارد فون هارتمان الألماني أن يتشدد فلم يقل بخروج القوة العصبية بل قال بخروج الروح من جسد الوسيط وهو متشنج وإتيانها لتلك الخوارق فيظنها المجربون روح أحد المتوفين وما هي إلا روح أخيهم الوسيط . ذكر ذلك في كتابه (سبيريتيسموس اسبيرتسموس) الذي رد به على الوزير الروسي اكساكوف . فيا سبحان الله ومن أين لروح وسيط جاهل أن تأتي بالفلسفة العالية وأنباء الغيب ؟ فأجابه بعضهم بقوله إن الروح الانسانية نفخة من الخالق تعالى وجل فإذا تجردت اتصلت به اتصال الفرع بالأصل وعلمت ما كان وما سيكون إلى أبد الآبدين

فرد عليه اكزاكوف بقوله : ان هذه الارواح التي تظهر للمجربين تدعي انها أرواح موتى معينين فهل يعقل أن روح الوسيط بتجردها من عالم الرعونات البشريه واتصالها بالذات العلية الكلية تتصف بالكذب الصراح وهي في ذلك الطور من الجلال السماوي ؟ اما كان يجدر بها وهي تتجلى في ذلك العالم العالي بذلك العلم المطلق أن تقول الحق وتهدي الناس الي الصواب ؟

وقد زعم بعض العلماء ان هذه الخوارق تحدث من الروح العامة التي تتكون من مجموع توجهات المجربين واتحاد قوام العصبية على احداثها . وهذه شبهة لا تحتمل النقد ولا يصح أن تحشر في عالم الفروض العلمية ، فان القول بتكون روح عامة من قبيل الاستناد الى مجهول فما هي تلك الروح العامة ؟ ومم تتألف ؟ وكيف تتكون ؟ وما حدود سلطانها ؟ وما حظها من الايهام والتدليس ؟ على أن المجربين اكثر ما يكونون مكذبين منكرين يريدون عدم ظهور أي خارق ، او ظهوره وكشف احبولة الوسيط . واذا أمكن تعليل بعض المشاهدات الساذجة بهذه النظرية كتحرك خوان أو انتقال متاع من مكان لمكان فهل يمكن أن يعلل بها حدوث المشاهدات الكبرى كظهور الاشباح وتكلمها بلغات متعددة وكتابتها بها واحداث الخوارق التي سردنا عليك بعضها ؟

ان أوردت عليهم هذا قالوا كل ما لا يعلل بتلك النظرية يجب ان يلفظ الى زاوية الاهمال باعتبار أنه من الشعوذة وانخداع المجربين (؟؟)

الامر جلل . وهنالك ملايين من المشاهدات تتظاهر على نفي هذه الشبهات كلها . وما احتل الماديون اعداء هذه المباحث خط دفاع إلا تعقبهم المجربون فيه وقهروهم منه . فاذا كانت هذه المشاهدات ليست من الشعوذة ولا الاستهواء ولا من روح الوسيط ولا من مجموع أرواح المجربين فلم يبق الا شبهة رجال الدين ومن نحا نحوهم من الاعتقاديين وهي انها آثار ارواح مجردة موجودة في الكون غير ارواح الناس او اعمال شيطانية الغرض منها التضليل وصرف الناس عن حقائق الدين ، وهذا ما سننظر فيه في الجزء المقبل ان شاء الله .

وما سأنيه حضرة المستفيد في صفحة ٥٢٣ من المقتطف فسنجيبه عنه في ختام المقال التالي أيضاً.

...

ردشبهتى الارواح غير الانسانيـة

والارواح الشيطانية

نشرنا هذه المقالة في مقتطف فبراير سنة ١٩٢٠

نفينا فى مقالات سابقة شبهات الماديين على الخوارق والارواح المتجسدة التى تظهر للمجربين لظواهر الاسبرتسم واليوم ننفى شبهة بعض الفلاسفة الاعتقاديين القائلين بان تلك الارواح التي تتكلم المجربين ليست بأرواح الموتى من الآدميين ولكنها أرواح مجردة اخرى موجودة في الكون لا ندرى حقيقتها . وشبهة رجال الدين الذين يذهبون الى ان تلك الارواح أرواح شيطانية تظهر للمجربين لتفتنهم وتضلهم عن الدين

فاما الشبهة الاولى فضعيفة من وجوه عديدة :

منها انه لامعنى لادعاء تلك الارواح المجردة بأنها ارواح موتى الآدميين واصرارها على تلك الدعوى في مدى جيلين متواليين واجماعها على ذلك فى كل ادوار هذه المباحث .

ومنها ان الارواح التى تظهر للمجربين تعلم اسرار الموتى الذين تدعى هى انها ارواحهم وتكتب بخطوطهم وتوقع بتوقيعاتهم ، فاذا تجسدت ظهرت بصورهم التي كانوا عليها وتكلمت باصواتهم واخبرت عن جميع دخائلهم ، ولا يعقل ان تكون تلك الارواح المجردة من الغش وفساد الطوية بحيث تزج بالعالم فى مثل هذا الضلال

البعيد الا اذا كانت من اخبث الشياطين ، فتؤول هذه الشبهة الى الشبهة الثانية .

ومنها ان تلك الروح لايعقل ان تكون من الملائكة الذين تصفهم الاديان فانها تقول بأنهم كائنات علوية ليس من شأنهم التدليس ولا من صفاتهم التلبيس.

ومنها انه لوساغ في العقل وجود أرواح مجردة تحضر فتكلم المجربين، فلا يستبعد ان تكون هي أرواح الميتين خصوصا وهي تؤكد ذلك وتقيم عليه البراهين كما ستراه في المقالة الثانيةعشرة.

ومنها ان هذه الشبهة لاقيمة لها في دحض المذهب الروحاني لانها من جهة لاتؤيد مزاعم الماديين لنفيهم وجود الارواح جملة كافية، ولادعاوى الدينيين لذهابهم الى ان الارواح لاتحضر للمجربين ، بل تقوى حجة الروحيين من امكان اشرافنا على العالم الروحاني واتصالنا بالكائنات اللامادية فيه.

***

وأما شبهة رجال الدين فلا تقوى على النقد، حتى النقد المؤسس على تعاليمهم، لان الشياطين في تعريفهم هي ارواح شريرة، جبلت على اغراء الناس على الفساد وتوريطهم في المهلكات . والارواح التي تظهر للمجربين على الضد من ذلك تأمر الناس بالمعروف، وتزعهم عن المنكر، وتقيم لهم الادلة على الخلود، وتعمل جهدها في هدم المذهب المادى الذى دفع بالناس الى قبول شر التعاليم وكان من اثر تلك الارواح في مدي سبعين سنة ان آمن بالله واليوم الآخر ملايين من الماديين وانفتح لاهل النظر مجالا لاحد له في تنور اسرار الخليقة وكشف مساتير الطبيعة والاستدلال على عالم الروح بأسلوب العلم المادى، وتعديل مزاج الفلسفة العصرية . فلماذا ابقت هذه الكائنات بعد هذا كله الملائكة الكروبيين، وأرواح الشهداء والصالحين؟

الحقيقة ان لتألب رجال الدين في أوربا على الحط من قيمة هذه الآية الكبرى

آية ظهور الارواح سببا قل من فطن له في هـذه البلاد . وهو ان هـذه الارواح تدعى انها مكلفة بهداية الناس الى نظر جديد يرتفعون به على معارج الدليل الحسى الى مستوى من العقائد أرقى مما هم فيـه من اديانه المقررة . وقد صرحت بأن الناس بما يحملونه باسم الاديان من جهالات اسلافهم أصبحوا بعداء عن كل خير ، مستعصين عن كل كال . وانه قد آن وقت خلاصهم من هذه الآصار لا بتكذيب كتبهم ورسلهم، ولـكن باعتبار ان تلك الـكتب أو حيت لهم مشوبة بكثير من الخرافات لان حالتهم العقلية تأبى غير ذلك، وان المرسلين هم وسطاء روحيون لا اقل ولا اكثر .

هذه التعاليم ازعجت رجال الدين وجعلتهم ينظـرون الى المسألة الاسبريتيـة نظرهم الى عامل شديد الخطر يقوض صروح الاديان، ولكنها لفتت من جهة أخرى نظر الباحثين المستقلين، ورأوا فيها حـلا علميا مقبولا لمسألة النبوة والـكتب الموحاة.

ونحن في هـذه المقالة لانرى بدأ من نشر طرف من فلسفة الارواح في هـذه المواضيع . وأحسن ماأتت به من ذلك ما كتبته بنفسها بالاستيلاء على أيدا كبر وسطاء انجلترا القس ستنتون موزس الاستاذ بجامعة كوليدج سكول . كان هـذا القس عدوا للمذهب الروحي كجميع رجال الدين وكان له صديق حميم من غلاة الماديين وهو الدكتور ستانهوب سبير . فاتفق ان ميسز سبير قرأت كتاب (الارض المتنازع عليها) للاستاذ الانجليزي الـكبير (ديـل اون) في الاسبرتسم فحبب اليها البحث في هـذا المذهب. فحملت زوجهـا الدكتور سبير وستنتون موزس على التجربة، وكانت الوسـيط أولا (لوتي فلاور) ثم (وليم) المشهور فاتضح في اثناء التجـارب ان القس ستنتون موزس خاصـة الوساطة، فـكان يشاهد أصحابه اذا اجتمعوا معه للتجربة حدوث طرقات واجابتها على اسئلة السـائلين، وظهور أنوار على هيئة كريات وهبوب روائح زكية عليهم وحصولهم على مقادير من المسك السـائل في أيديهم ومناديلهم الخ ولـكن اكبر هـذه الظواهر كلها كان استيلاء أرواح معينين على يد القس وكتابتهم فصولا طويلة كان لهـا اكبر تأثير عليـه وعلى الحاضرين .

وذلك انها فاجأته بما يناقض عقائده الدينية فكان يجهد يده تكتب ما يعد مجرد الفكر فيه كفراً صريحاً، فيشتد في الرد عليه، فتستولى الروح على يده ثانية وتناقشه في رده حتى أفضى الامر الى صبوه لمذهبها واقتناع الدكتورسيير وزوجته وابنهما شارلتون سيير بصحة مذهب استحضار الارواح بعد أن رأوا من دلائله الحسية ما لا يمكن التردد في قبوله.

وننبه هنا ان ما سننقله عن كتاب القس ستنتون موزس (التعليم الروحى) هو مذهب جميع الارواح في جميع بقاع الارض.

فما كتبته يد القس المذكور عن وثائقها قولها في صفحة ٩٠ من الكتاب المذكور:

« نحن مرسلون من عند الله كما ارسل المرسلون من قبلنا غير أن تعاليمنا أرقى من تعاليمهم . فالهنا هو الهم الا ان الهنا أطهر من الههم، واقل صفات بشرية ، واكثر خصائص الهية

« والايمان التقليدى لا يمكنه ان يحل محل الاقتناع العقلي . لان الايمان انما يكون ايماناً اذا قام على أصول ثابتة منتخبة يقرها العقل، والا فلا يمكن أن يكون واجباً على أحد . فاذا لم يكن مستنداً على شيء أصلا فلسنا في حاجة الى اقامة الدليل على بطلانه .

« ان وجهتنا نحن اعتبار العقل فكيف يمكن أن يستدل من ذلك على اننا آتون من قبل الشيطان ؟ وماهو الخطر المتوقع من الاصل الذى دعوا اليه ؟ وبأي مناسبة يمكن اتهامنا بأننا نرمى لغرض جهنمى ؟

(مذهب الارواح في حب الانسانية وفي الفلسفة)

« حب الانسانية هو الذى يحبها لذاتها، والفيلسوف هو الذى يحب الحق لذاته ، كذلك تلشال هذين الرجلين هم أحباء الله الذين لا تقدر لهم قيمة، وما أعد لهم من السعادات لايمكن ان يحد بحد

فالاول لا يقيد حبه الناس اعتبار الجنس ولا الوطن ولا لاعتقاد ولا لامم، ولكنه يحيط الانسانية عامة بحبه الخالص . فيحب الناس باعتبارهم اخواناً غير مبال بآرائهم الخاصة فهو لا ينظر الا الى حاجاتهم . يهمهم من علمه الراقي فيبارك الله عليه . هذا هو الحب الصادق للانسانية، وليس هو ذلك الذى لا يحب الا الذين يوافقونه فى الرأي، ولا يساعد الامن يتملقونه، ولا يتصدق الا ليعرف عنه انه من المحسنين .

«والثاني أى الفيلسوف هو الذي خلص من وطأة النظريات فيا يجب أن يكون، ومن الخضوع للآراء الطائفية والتقاليد المذهبية، فاصبح حر آمن أسر المقررات، ومستعداً لقبول الحقيقة ،مها كانت بشرط ان تقوم عليها البراهين، باحثاً عن مساتير الحكمة الالهية فيجد سعادته من وراء هذا البحث . وهو لايخشى ان يستنفد خزائن هذه الحكمة فانها لا تقبل النفاد . اما اغتباطه فى الحياة فهو فى الترقي كل يوم في معارج العلوم العالية، وفي الحصول منها على محصول عظيم من آراء هي أقرب الي الحقيقة عن الله وعن العالم . اجتماع هاتين الخصلتين حب الانسانية وحب الفلسفة يكوّنان الرجل الكامل (صفحة ٣٧)

(مذهب الارواح في المقررات التي نعتبرها حقائق)

من الكتاب المتقدم

« اذا رايت ان تعاليمنا تثبت عدم وجود حقيقة مطلقة فنحن نشكرك على انك فهمت مانرمي اليه فما لاشك فيه انه لاشيء . وانتم في حالتكم الراهنة من النقص بقرب من الحقيقة المطلقة ولا من الكمال المطلق .

والحقيقة المناسبة لكم يجب ان تكون متغيرة لانكم لاتستطيعون ان تحيطوا بالحقيقة المطلقة في كليتها، ولا ان تدركوها في جزئياتها، فهي تظهر لكم من وراء حجاب ونحن لاندعي ان نكشف لكم عن وجهها فنحن انفسنا نجهد في الوصول اليها . والذى علينا هو ان نساعدكم فى الحدود المسموح بها، فنعين لكم في صورة غير تامة الجلاء مدركات جديدة هي اقل بعداً من الحقيقة مما لا يقدر من المدركات التي تتخيلون انها وحي مباشر من الحق

تعالى نفسه (صفحة ١٦٧)

﴿ نصيحة الارواح للناس في الامور الاعتقادية ﴾
من الكتاب المتقدم

« لاتخضع لاية عقيدة مذهبية، ولا تقبل بلا بصر ولا روية تعاليم لاتستند على العقل . ولا تأخذ بلا تحفظ وحياً جاء لاحوال خاصة في عصر من العصور . وستعلم بعد أن الوحي لاينقطع أبداً، وهو آخذ في الترقي ولا وقت له ولاحد وليس هو بامتياز لامة دون أمة ولا لشخص دون شخص . والله يكشف نفسه للانسان شيئاً فشيئاً (صفحة ٩٧)

(مذهب الارواح في الاديان الموجودة)
من الكتاب المتقدم

« العقل الانساني مسوق لان يأخذ بدين ورأي، محمول على ان يعتقد أنه يجب أن يكون الله على مايدركه جنسه أو أمرته . فالله عند الهندي الاحمر هو الروح الاعظم الذي يدركه، وعند المتوحش الاسود هو الفتش الذي يعبده ، والنبي يجب ان يكون المسيح أو محمداً او كونفسيوس . وبالجملة فان الانسان من الشمال الى الشرق ومن الغرب الى الجنوب قد أسس علماً لاهوتياً لما يعتقده وأخذ يلقنه لاولاده محضهما ايام بالقوة لدين يعتبره الوسيلة الضرورية للنجاة . وقد نبهناكم قبل الآن الى هذا الامر فتأملوه . فأي دين من الاديان لجنس من اجناس البشر، على أي بقعة من بقاع الارض، يدعي احتكاره للحقيقة الالهية فهو بشري مزوّر ، وليد الكبر ولقته الزهو

« فلا يوجد اي علم لاهوتي محتكر للحقيقة بل ان في كل منها نقصاً الى حد معين . ولكل منها جهات صحيحة تناسب حاجات الذين أوحي اليهم أو ارتقى بهم . ولكن لا يوجد من بينها واحد يصح ان يعلن الناس أنه الغذاء الروحاني الوحيد المنزل من الله اليهم . والانسان في قصوره وعجزه يجب ان يعتقد بأنه المالك رحمه

لاصل من أصول الحقيقة (ونحن نضحك من تمسكه بهذا الغرور) ويؤديه افتخاره بهذه الملكية الوهمية الى الاعتقاد بوجوب ارسال دعاة له في طول الممالك وعرضها يحملون عقائده الجنسية لشعوب اخري تضحك من هذه الحقوق المزعومة (صفحة ١٧٨)

(مذهب الارواح في اختلاف الاديان وصحتها كلها)
من الكتاب المتقدم ذكره

ذكرت الارواح اولا ان الحقيقة المطلقة نور ساطع لاتتحمله اعين البشر طفرة ثم قالت :

« قد حصل كل اجناس البشر علي شعاع من هذا النور . فمنذ وجدت دنياكم هذه حصل كل من البرهمي والمحمدي واليهودي والمسيحي علي بصيص خاص من ذلك النور واعتبره كل منهم ميراثا له خاصة انزل اليه من السماء . فلاجل ان نزيدك تنبيها علي مبلغ بطلان هذه المزاعم نحيلك الي التأمل في الكنيسة المسيحية التي تدعي لاختصاص بالحقيقة الالهية والي ماوصلت اليه من الانقسامات »

« لقد قرب الوقت الذي فيه يخترق شعاع جديد من نور الحقيقة ظلمات هذا الجيل الانساني . والحقائق العالية التي كلفنا باعلانها تمحو من أرض الله الاحقاد المذهبية وغم العلوم اللاهوتية والغضب وارادة السوء والبغضاء والكبر الفريسي (نسبة للفريسيين) وهي الصفات التي شوهت اسم الدين وجعلت كلمة العلم اللاهوتي مرادفة بين الناس للشقاق والتفرق (صفحة ١٧٩)

(مذهب الارواح في الابرار وفي القرب من الله)
من الكتاب المتقدم ذكره

« لايوجد بررة مختارون غير الذين يشتغلون بأنفسهم الترقي في معارج الكمال علي مقتضي النواميس الطبيعية التي تحكمهم . فنحن ننكر مايعزى للاعتقاد الاعمي والايمان الساذج من القدرة المطلقة . ونعترف بقيمة العقل المدرك المخلص

المنزه عن ضيق النظر . فمثل هـذا العقل يقرب من الله ويجتذب ارشاد الملائـكة . ونرفض بصوت عال كل مذهب ما دام يقرر أن للايمان و للاعتقاد والتسليم بالآراء المقررة قدرة ما على محو الذنوب . وننكر أن حيـاة أرضية معيبة نجسة يمكن ان ترتقي وتتحول الى حياة طاهرة بالتسليم برأي ما أو بخيال ما او بعقيدة غير معقولة تسليما اعمى. أن مذهبا هـذه حاله قد حط من النفوس اكثر مما حطته اية خرافة يمكننا ان نبينها (صفحة ٩٤).

(مذهب الارواح في أي الاديان يجب الاخذ به)
من الكتاب المتقدم ذكره

« ليس من تعاليمنا أن ديناً من الاديان له التأثير الاعلى دون سواه . فليس واحد منها يحتكر الحقيقة . ولكن لكل دين نصيبا منها وكلها مشوبة بالاضاليل . فنحن نعلم مالا تعلمون ونعرف الاحوال التي تكون الشكل الديني الذي يفضله كل انسان على سواه ويقدره حق قدره . ونعرف ان ارواحا هي معنا في الطبقات العليا من الرقي الروحاني تقدمت رغماً عن الشكل الديني الذي كانت آخذة به على الارض.فنحن نعتقد لانبأ الا بماطفة التعطش لادراك الحقيقة عند جميع حملة العقائد المتخالفة على السواء، وليس للتأملات المجردة من قيمة هنا. فنرانا نكره المباحث الجامدة التي يزعم اللاهوتيون انهم حلوا بها مساتير العلم السماوي. ولا نبالي بالمجادلات العقلية التي يهتم بها الناس . ولا نكترث بمسألة التخالف المذهبي الا لنعلم انها اشد العوامل خطراً في توليد الحقد والبغضاء والحبث ومقاصد السوء بين الناس

(مذهب الارواح في الوصول الى الحقيقة)
من الكتاب المتقدم ذكره

« يجب على الانسان ان يعلم كل هذا اذا أراد ان يتصل بالارواح بلا خطر . واذا علم ذلك او كان في دور تعلم ذلك ، وجب عليه أن يرى ان نجاحه متوقف

عليه نفسه

«فليكسر نفسه وليطير عنه الي احق ما يصل اليه وليطرد منه التنفر كما يطرد الطاعون لوحل به . وليرفع بصره الي ارفع ما يستطيع أن يرفعه اليه . وليحب الحقيقه حبه لله فهي التى يجب أن ينحني أمامها كل شيء . وليتبعها غير مبال عما يؤديه اليه البحث . اذا فعل ذلك احتف به ملائكة الله وأشرقت في صميم روحه الانوار»

• • •

هذا طرف من مذهب الارواح ، وكتب المجربين مشحونة بها في كل أمة فلا عجب ان ذهب رجال الاديان الى انها أرواح شريرة جاءت لتفتن الناس في دينهم وتحيد بهم عن طريق عقائدهم . ولكن رجال العلم في أوربا وامريكا يرون في هذه التعاليم اصلاحا بعيد المدى لم تصل الى تكوينه والدعوة اليه فلسفة بشرية الي اليوم . وهم يذهبون الي أن هذه التعاليم العالية من أقوى الادلة على أن هذه الارواح ليست من الارواح السفلية ولا من الكائنات الواقفة في درجة معينة من درجات الرقي العقلي . ومن عني من القراء بدرس الفلسفة الدينية ووقف على قوة ما يدلى به نقدة الاديان من الشبهات عليها يجد في هذه التعاليم الروحية حلا عليا أصوليا لجميع تلك الشبهات . ويجد معه الدواء الشافي من داء الالحاد الذي يتسرب الى عقول الواقفين على تلك الفلسفة.

فاذا كانت الارواح تقول بأن الحقيقة ليست محتكرة لاى دين في العالم وانها لا يصح ان تنحصر في واحد منها وانها انما أوحيت في أزمان مختلفة لامم خاصة احتوشتها أحوال خاصة وأن ليس فيها ما يصح الركون اليه في كل أدوار البشر وفي جميع أجيالهم، فانها في الوقت نفسه تصرح بأنها كلها وحي من الله ولكنه وحي مشوب بالخرافات التى كانت عالقة في عقول المرسلين بها، أولئك المرسلين الذين تعتبرهم وسطاء ليس الا

هذه تعاليم خطيرة ندع الخوض في تحليلها وبيان قيمتها الآن ولكنا نقول بأنها تنفي شبهة رجال الدين في ان تلك الارواح من الكائنات السفلية.

فاذا انتفت جميع الشبهات التي قدمناها على حقيقة تلك الارواح فلم يبق الا فرض واحد وهو انها ارواح الموتى الذين تدعي هي انها أرواحهم . ولكن هل تقيم هي الادلة الحسية على ماتقول؟ وهل لها في اثبات شخصيتها مايحمل على الاخذ بما تدعيه ؟

ذلك مانبحث فيه في المقالة الآتية ان شاء الله

وقد طالت هذه المقالة فلم نستطع اجابة حضرة الكاتب المستفيد كما وعدنا فنرجيء ذلك لفرصة مقبلة.

...

تحقيق شخصية الارواح

التي تظهر للمجربين

نشرنا هذه المقالة في جزء المقتطف الصادر في مارس سنة ١٩٢٠

ثبت بالادلة العلمية التجريبية بأدق معاني هذه الكلمات ان كائنات تظهر للمجربين متمتعة بعقل غير عقل الوسيط ولا عقل واحد من المجربين ولا عقولهم مجتمعة فتستولى اما على يد الوسيط فتكتب بخطوط المتوفين وتوقع بتوقيعاتهم واما تتسلط على لسانه فتتكلم بلغته الخاصة . وقد تظهر تلك الكائنات متجسدة بجسد تستمده من جسم الوسيط نفسه كما ثبت ذلك بوزن الوسيط قبل تجسد الروح وفي اثنائه فتدعي هذه الكائنات بأنها أرواح ميتين معينين عاشوا منذ حين أو عشرات بل مئات من السنين . فهل هذه الكائنات الروحانية صادقة فيما تدعيه ؟

هذه مسألة ضخمة ليس لدينا عليها دليل علمي من نوع الادلة التي تستحق هذا الوصف ولكن كل ما لدينا مرجحات اذا جمعت والقي عليهـا نظرة عامة بلغت بالناظر درجة الاقتناع ونحن نثبتها هنا بايجاز فنقول :

(١) تكلم الروح بلغة المتوفى الخاصة واستخدامها عباراته المألوفة وتذكيرا اهله بحوادث قديمة كانوا نسوها لبعد العهد بها ولا يدريها احد سواهم.

(٢) دلالتها اهلها على أمكنة اوراق ومستندات ضائعة وضعها المتوفى في تلك الاماكن قبل موته بدون اطلاع احد عليها.

(٣) كتابتها بخطه والتوقيع بتوقيعه والتعبير بأسلوبه حتى ولو كان من كبار الكاتبين بحيث عرض كل ذلك على الخبراء فحكموا بتطابق الخطين والانشاءين كل التطابق.

(٤) ظهورها متجسدة على صورته التي كان بها على الارض وتكلمها بصوته ولهجته.

(٥) اجماعها في كافة بقاع الارض على التأكيد بأنها ارواح الموتى وانها ليست من الملائكة ولا من الجن ولا هي أرواح أخرى ذات طبيعة مجهولة

(٦) شغفها بأهلها وايصاء المجربين بهم وتكليفهم البحث عنهم ومساعدتهم.

هذه كلها مرجحات قوية وقد قلب العلماء المجربون البحث في هذه المسألة على كل وجه يمكن تصوره فكانت الدلائل تتظاهر على ابطال كل فرض غير هذا الفرض مع كثرة ما أتوا به من الاحتمالات في هذا الباب وطول ترددهم في قبول هذا الرأي

فقال العلامة الفزيولوجي الشهير (الفريد رسل والاس) مكتشف مذهب النشوء والارتقاء هو وداروين في وقت واحد فنسب للثاني لاعتبارات جزئية قال في كتابه (المعجزات والاسبرتسم العصري) :

« كنت ماديا مقتنعا بمذهبي كل الاقتناع ولم يكن في عقلي مكان لتصديق بحياة روحية ولا بوجود عامل في هذا الكون كله غير المادة وقوتها ولكني رأيت ان المشاهدات

الحسية لا تتالب قانها قهرتني وأجبرتني على اعتبارها حقائق مثبتة قبل أن أعتقد نسبتها الى الارواح بمدة طويلة. ثم أخذت هذه المشاهدات مكانا من عقلي شيئا فشيئا ولم يكن ذلك بطريقة نظرية تصورية، ولكن بتأثير المشاهدات التي كان يتلو بعضها بعضا على صورة لايمكن تعليلها بوسيلة أخرى»

يقول انه كان ماديا متشدداً ولكن المشاهدات قهرته على قبول وجود العالم الروحاني بغير عزو تلك المشاهدات الى أرواح الموتى، ثم اضطر أخيراً بتتالي المشاهدات الى القول بهذا الرأى لانه لايمكن تعليلها بوسيلة أخرى.

وقال العلامة الفلكي الكبير كاميل فلامريون في كتابه (القوى الطبيعية المجهولة) :

« كان تحت نظري حديثاً مشاهدات تشهد لهذا الفرض (الروحاني) . فالاولى والثانية من الاحدى عشرة مشاهدة يمكن أن تكون عرفت من القواميس، والثالثة والخامسة من الجرائد (أى أن روح الوسيط سرت فقرأت ذلك عند مامثلت عنه في القواميس والجرائد)، ولكن بالنسبة للسبع الاخرى نرى أن قبول صحة شخصية الروح هو أحسن الفروض المفسرة لها»

• • •

بقي علينا أن نقول كلمة فيما تخبر به الارواح عن أشياء يصعب على بعض الناس تصديقها عن العالم الآخر . كقول بعض الارواح أنها هنالك تأكل وتشرب. وكقول ريموند بن السير اوليفر لودج أنه هنالك يقيم في بيت من الآجر وانه اذا ركم التاث ثيابه بالطين . وقد وجه سؤال الى المقتطف فى هذا الصدد بصفحة ١٨٦ من الجزء السابق . ونحن لبيان هذا نقول:

ان للناس عن الموت وعن الحياة فى العالم الآخر معارف وراثية تقليدية وان كانت أصبحت لدي الاكثيرين فى عداد الاوهام القديمة بتأثير شبهات الفلسفة المادية الاانهم لايزالون يستندون اليها في هدم كل علم صحيح يخالفها مما يختص

بالحياة في العالم الاخر . فالذى ورثه الناس من ذلك ان الانسان متى مات انتقل طفرة الي حالة نفسية وعقلية مباينة لما كان عليه كل المباينة، فعلم كل ما كان يجهله وخلص من كل الاوهام والاباطيل والصفات الذميمة التى عاش عمره عليها، واصبح أحد رجلين اما منعما ثوابا على ماقدم من اعمال صالحة، اومعذبا جزاء على ما اسرف على نفسه

ونحن هنا لانبحث في مصدر هذا العلم ولا فى فساد اسلوبهم في الاخذ عنه ، ولكنا نريد ان نقول للماديين (ولانقصد سواهم بكتاباتنا فى هذا الموضوع) ان الموت كما ثبت علمياً لا يرفع الانسان طفرة من حالة كان فيها على الارض الى حالة اخرى لانسبة بينهما . بل هو انتقال بسيط من حياة كان فيها الانسان يحمل جسداً كثيفاً الي حياة اخرى يحمل فيها جسدا لطيفا خاضعا لقوانين الطبيعية على نسبة الفرق بين تركيب الجسدين. فيبقى الميت في الوجود معنا على ما كان عليه على الارض من الحالتين النفسية والعقلية، الا انه يرانا ويسمعنا ولكنا لانراه ولا نسمعه. ولاعجب فى ذلك فنحن لانرى الاثير وهو مادة ولا نرى الاكسجين والكهرباء والحرارة المغناطيسية وهى مواد اثيرية فى حالة حركة، ومؤثرة فينا اعظم تأثير . ولكن يرى الميت امثاله من الذين انتقلوا الى مثل حالته، فيجتمعون به ويعيشون معه على النظام المقرر فى ذلك العالم اللطيف، كما نعيش نحن في عالمنا هذا على نظامنا المعروف، فيظل الميت على ما كان عليه ويأخذ فى اصلاح نفسه تدريجيا على سنن مقررة ومن الموتى من يستمرون على ما كانوا عليه من الصفات ويزيدون عتوا وعناداً، يعصون كل ارشاد كما كانوا يعصونه وهم على الارض

ولا ادري كيف يعقل ان يكون امر الحياة الاخرى على غير النظام الطبيعى العام والوجود واحد وقواه هي هي في كل زمان ومكان، اليست الطفرة محالا، والسنن الطبيعية حكم لا يمكن التملص منه، والحياة درجات لا تقف عند حد ؟

نعم قد ثبت علميا ان الارواح أقدر منا على المادة المحسوسة وانها تأتي من الخوارق مالا

يكاد يتصور، وان من ارتقي منها قد وصل الي مكانات عالية من السمو العقلي والنفسي، وليس هذا بصعب التعليل لو امعنا النظر فيه قليلا.

اننا بحالتينا الجسمية والعقلية ثمرة وجودنا في وسط عوامل معينة من عوامل الطبيعة المحيطة بنا. فوجود أرضنا على هذه الكثافة المقدرة، وهوائنا على هذه اللطافة المقررة، وحواسنا على هذه القوى المعينة، وجريها من الشمس على هذه المسافة المحددة، هي اكبر العوامل التي جعلتنا على ما نحن عليه جسدا وعقلا. فان تخيلنا كوكبا من الكواكب يخالف أرضنا في كل هذه العوامل جاءت الكائنات مناسبة له كل المناسبة ومخالفة لنا كل المخالفة.

ولو تخيلنا نشوء حاسة سادسة فينا كالحاسة التي تهدي النحل الى خلاياتها، والحمام الى وكناتها، من بعد مئات الاميال، لتغيرت مدركاتنا وحالاتنا الجسدية والعقلية والاجتماعية على تلك النسبة. فاذلك لو زادت قوى حواسنا الخمس كلها فأدركنا من قوى الوجود مالا ندركه منه الآن.

اننا نعلم الآن ان المادة نفسها وكل قوى الكون كالحرارة والنور والكهرباء الخ ليست الا درجات معينة من الذبذبة في الاثير المالىء للكون. فأدركنا تلك المادة وكل القوى المعروفة لنا على نوع ما وبنينا على هذه المعرفة القاصرة وجودنا الصوري والمعنوي، واقناطيها الصنائع والعلوم التي نحن عليها اليوم، ولكن بين عدد الذبذبات الاثيرية التي تولد الحرارة وعدد الذبذبات التي تولد النور والكهرباء الخ درجات كلها مجهولة لنا، ولم ندرك منها أشعة رونتجن المعتمة الا عفواء فبنينا عليها التصوير من خلال الحجب الكثيفة. فلو اتيح لنا ان ندرك نتائج الذبذبات الاثيرية الاخرى فالى اي حد تبلغ قدرتنا على المادة وعقولنا من ادراك الحقائق؟

هذه من الوجهة المادية. فاما من الوجهة النفسية فالانسان على مثل هذه الحال النسبية ايضا. يرى نفسه يفكر في الامور ويذكر الماضي، ويحفظ المسموعات، ويتخيل الصور، فيسمي مجموع تلك القوى عقلا لايعرف له مصدرا فتارة يزعم انه نفحة

من عقل عام متميز عن المادة وخالد لايعتريه الفساد ، وآخر يدعي انه ليس بمستقبل بل هو لازمة من لوازم تركيبة الجسداني يفنى بفنائه .

ينام فيرى خيالاته تتجسد امامه فيلمسها ويكلمها ثم يستيقظ فلا يبقى في ذهنه الا صورها وقد لايذكرها فيسمي مايراه حلما ويذهب في تعليله على مايحسنه له المذهب الذي ينتمي اليه.

وينوم نوما صناعيا فيرى ويسمع مالا يراه ولا يسمعه وهو يقظان ويتجسد امامه كل مايتصوره منومه تصوراً فيسمى هذه الحال نوما مغناطيسيا ويسلك في تعليلها المسلك الذي يزينه له ماهو عليه من المدركات الطبيعية الناقصة .

ويصاب ببعض الاعراض فتكون له شخصية غير شخصيته أوشخصيات متعددة فيتوهم انه يرى اشياء واشباحا يلمسها ويكلمها فيسمي الناظر اليه هذه الحال مرضا عصبيا ويمضى في تفسيره على مايسمح به علمه فى العهد الذى هو فيه .

يحدث كل هذا فى هـذا العالم ويؤلف حتى لايلفت نظرا لاحد لجريه مجرى الامور العادية ولم يجس في عقل عاقل ان ينكر وجود هـذا العالم المادى بسبب وجود هـذه العوارض فيه . ولـكن اذا روى له بعضها عن عالم الارواح اتخذ ذلك دليـلا على عـدم وجود ذلك العالم وعد من يقول بوجوده جانيـا على العلم والفلسفة .

فاذا سألته لم تنكر العالم الروحاني لرواية بعض هذه الاعراض النفسية من اهله ولا تنكر هذا العالم مع وجودها كلها فيه ؟ ولم تكون النفس البشرية وهي فى هذا العالم عرضة لـكل الاعراض التي ذكرتها ويجب ان تتنزه عنها وهي في الحياة الاخرى؟ اجابك على الفور بقوله : نعم لان الروح متي تخلصت من هذا الجسد يجب ان تتخلص من جميع عوارضه المرضية ؟

فان قلت له : من أين أتيت بهذا الايجاب وأنت لم تعن بدرس حالات الارواح بعد انتقالها الى ذلك العالم كما عني بذلك الوف من العلماء والباحثين في عشرات من السنين ؟ وبأى سلطان تتحكم في اسناد تلك الاعراض للجسد المحسوس دون لمساتها

الجسد غير المحسوس الذي ينتقل مع الروح بعد الموت؟ ان قلت اخالك لم تجد جوابا يمكن أن يسمى علميا .

أما الذي ثبت لاهل العلم الذين وقفوا أنفسهم لدرس حالات الارواح بعد انتقالها من هذا العالم، فهو أنها لا تطفر طفوراً من حال دنيا الى حال عليا بل تلازمها جميع صفاتها العقلية والنفسية مدة حتى تتهذب بتجاربها الخاصة وترتقي على سنة تدريجية فقد تكذب وتدلس وتحسد وتتهم بالفساد وتتخيل الخيالات وتصاب بأعراض كل هذه الصفات.

فان أخبرتهم روح بأنها هنالك تسكن في بيت من الآجر وان ثيابها تتلوث بالطين كلما سجدت كما أخبرت بذلك روح ابن السر أوليفر لودج، نظروا في قولها نظر ناقد فلعلها تكذب لتضليل المجربين، ولعلها تسخر منهم، ولعلها انتقلت الى ذلك العالم وهي حاملة لخيالاتها القديمة الخ الخ، ولكنهم لا يتخذون قولها هذا دليلا على عدم وجودها في ذلك العالم، وكيف يسوغ لهم ذلك وهي تكلمهم وتعطيهم البينات على وجودها، كما ثبت ذلك لكل من طالع كتاب السر أوليفر لودج . والعلماء لم يتكالبوا المشاق وراء هذه المباحث وفاء لشهوة من شهوات الانحراف العقلي كما يتوهم خصوم هذه المباحث ولكن بعد قيام الادلة التي لا تقبل النقض على وجود العالم الروحاني وليس بعد تجسد اهله امامهم واحداث الخوارق لهم من مزيد لمستزيد. فهم ليسوا بطائفة من الموسوسين يجتمعون حول وسيط فيستملون مايصوره لهم من أهوائه وخيالاته ثم يقومون بنشره بين الناس، لاجتلاب السخرية اليهم في مدى جيلين متتابعين، ولكنهم أئمة العلم الرسمي ألفوا لبحث هذه الامور مجامع علمية بلغ عمر بعضها اليوم نحو نصف قرن، وقد تكون في فرنسا مجمع جديد في سنة ١٩١٩ جمع بين أعضائه أكبر زعماء العلم في تلك البلاد وقد أتينا على خبر تأليفه في جزء شهر دسمبر من المقتطف واثبتنا اسماء اعضائه وقرناها بالقابهم العلمية ومكاناتهم في الهيئة الاجتماعية .

فمسألة الروح ووجودها في عالم وراء هذا العالم أكبر مسألة اهمت البشرية منذ

وجودها على هذه الارض، وستكون كذلك مادامت عليها وهي من الاعضال والتشعب واتساع المدي وبعد الغاية بحيث يجب أن توقف لها الاعمار ويوصل في بحثها الليل بالنهار. وقد توجهت البشرية بمجموعها اليوم، وفي مقدمتها رجال العلم الى حل هذه المسألة حلا علميا بحيث تصبح من المقررات الطبيعية فتدرس في المدارس كما تدرس الكيمياء العملية والميكانيكاء فكان من آثر هذا الاهتمام كله حدوث حركة روحية لم يسمع بمثلها في أي عهد من عهود التاريخ . وقد جاء في جريدة المقطم في عددها الصادر أمس ٩ فبراير تحت عنوان (بسائط الريح وتحقيق شؤ قديم) ماياتي :

« لم يسبق أن اشتد اهتمام العلماء والكتاب الباحثين برفع ستار الغيب لمعرفة ماوراء هذه الحياة اشتداده هذه الايام . وقلما تصدر جريدة أوبحلة من جرائد الغرب ومجلاته الكبري الا وفيها بحث أورسالة أو فصل عن هذا الموضوع الذي شغل العقول والاذهان منذ عرف المرء الموت مفرق الجماعات » .

(جواب لمستفيد)

طلب الينا فاضل في مقتطف ديسمبر تعليلا لعلاقة الروح بالجسد من بقاء الحياة فيه بسلامته وزوالها عنه بعطبه كأنه يري ان في هذه العلاقة الوثيقة شبهة على استقلال الروح عن الجسد .

فنجيب حضرته على ان هذا الاستقلال قد قامت عليه الادلة الحسية اليوم وفيما كتبناه هنا من المقالات المتتابعة الكفاية في هذا الباب .

أما توجيه وجود تلك العلاقة المشاهدة بين الروح والجسم فهو ان هذا الاخير آلة تستخدمها الروح لاغراضها كما يستخدم الميكانيكي الآلة البخارية لاغراضه كذلك فاذا صلحت الآلة البخارية ساقها الميكانيكي أحسن سوق، واذا فسدت بعض الشئد

قائدها على علاتها قيادة تناسب ما عرض لها من التلف . واذا عطبت كل العطب تركها حيث هي وانصرف عنها لشأنه . فكما لا يقدح تلف بعض عدد الآلة البخارية أو عطبها كلها في استقلال قائدها وسلامته التامة، كذلك لا يقدح ضعف الجسد وعطبه في استقلال الروح وكفايتها التامة.

واني مع هذا اوجه نظر حضرة المستفيد لما سأكتبه في الجزء المقبل في خاتمة مباحثي في اثبات الروح فسيجد فيها مكان هذه الشبهات من العلم الحق ان شاء الله .

. .

خاتمة

نشرنا هذه المقالة في مقتطف ابريل سنة ١٩٢٠ وهي تتمة هذا البحث

امتاز الانسان عن جميع الاحياء التي تشاطره الوجود على هذه الارض ببعد مدى النظر العقلي، ونمو قوتي الاستدلال والاستقراء، وعدم وقوفه من هذه الخصائص عند حد . وقد كافأت هذه القوى فيه تجرده عن الاسلحة الجثمانية لحفظ وجوده بين الاحياء التي تنازعه البقاء، واستظهر عليها بسعة حيلته وقدرته على الابتكار، وسخرها لحاجاته، فوجد فراغا من الوقت فتأمل في نفسه ليعرف مصدرها ومصيرها، وفي الكائنات ليدرك مساتيرها، وفي الطبيعة ليقف على القوى أو القوة العظمى المدبرة لها.

لم يكن الانسان بالكائن الذي ينفعل لقوى الكون مأخوذ الماهو يخضع لنواهيه لا يعيا منها، فأخذ يفكر اولا في علل الحادثات التي تصيبه في ذاته واهله وجماعته وبيئته، فتخيل الوجود عامرا بعوامل عاقلة محجوبة عن بصره، فقرر لها عواطف واهواء من نوع عواطفه واهوائه ، فشرع يتقرب اليها بالعبودية، ويتزلف لها بالقرابين الحيوانية،

والبشرية جلبا لمراضيها وتجنبا لمساخطها فكان هذا اصلا لتدينه ولبحثه فيما وراء المادة المحسوسة .

اطرد الانسان طريقه في الترقي فكان كلما ازداد علمه بالكون والكائنات، ونما ادراكه للعلل والمعلولات، ورقي شعوره بالحقوق والواجبات لطف من عقائده بتلك العوامل وهذب من مدركاته في صفاتها حتى وصل الي توحيدها وتنزيهها وجد في التوفيق بين مايهديه اليه العلم الحسي وبين مايوجبه عليه النظر العقلي حتى كان له بازاء العلم الطبيعي علم لاهوتي . ولكنه ماكاد يصل الي هذه المرتبة العقلية حتى توالت في ذهنه الشكوك والشبهات، وعمر رأسه بالايرادات والاستشكالات، وهي من لوازم الاعمال العقلية، فتجرأ بعض آحاده علي نفي القوة العاقلة المدبرة للكون والذهاب في تعليل الوجود بالعوامل الطبيعية المحضة . الا ان اولئك الآحاد لم ينجحوا في نشر مذهبهم بين الدهماء لغلبة سلطان العقائد على الاذهان، ومسايرة العلوم الكلامية لاهواء الانسان

بدأت هذه النزعة المادية حوالي القرن الخامس قبل المسيح وبقيت مقصورة على بعض المفكرين معرضا لتجريح الدينيين والاعتقاديين من الفلاسفة الرسميين . وتشدد حفظة العقائد في تعصب اصحابها في بعض الادوار تشددا ليس له مثيل في تاريخ التطورات العلمية، وازدادوا في الوقت نفسه جمودا على تعاليمهم وعداء لحرية البحث والنظر حتى لاختنق العقل الانساني تحت آصار التقييد وعميت سبل التأمل على الناظرين، وظل العالم الغربي على هذه الحالة نحوا من الف سنة حتى كانت فتنة الحروب الدينية بين البروتستانت والكاثوليك، وما نشأ عنها من فصم وحدة الدينيين، فتجرأ الفيلسوف الايطالي بطرس بومبانيوس سنة (١٥١٦) على التصريح جهارا بانكار الروح، وبعدم امكان حدوث الاعمال العقلية بدون جسد . وتلاه جسندي سنة (١٥٩٢) فاحيا مذهب ديموكريت المادي اليوناني في الجواهر الفردة، وتلاهما توما هوبس من كبار فلاسفة الانجليز ولكنه اضطر الهرب من انجلترة خوفا من جلاديه

فلما جاء القرن الثامن عشر كان الجو اكثر ملاءمة لنشر الفلسفة المادية فتبغ دافيد هيوم في انجلترة ثامر أهلاوايه وفي فرنسا كوندياك ودولامتري وديدروه وفي المانيا الباون هو لباخ . ولم يهل القرن التاسع عشر حتى كان الفلسفة المادية دولة قوية الشوكة ولا سيما في المانيا دخل تحت لوائها اكثر أذكياء الامم في عشرات قليلة من السنين لانها اعتبرت تحريراً للعقل من اسر الاضاليل الموروثة وزاد الماديين نجحاً بنظرياتهم جمود رجال الدين على عقائد تناقض بداهة العقل واحتفاظهم بآراء ظهر بطلانها بالحس وما دأبهم على معاداة لاهوادة فيها مع ظهور اثره الباهر في ترقية الحياة الانسانية وتخفيف ويلاتها الجمة .

فلما ظهر مذهب دارون سنة (١٨٥٩) تلقاه الماديون بالتصفيق الحاد وعدوه ضربة قاضية على كل مذهب يناقض المادية لاقامته الدليل القاطع على ان الكون سائر على نظام آلى محض ، واكب الماديون على تعليل كل صغيرة وكبيرة في الكون بالنواميس المادية البحتة متشددين في انكار كل ماعداها من عقل مدبر او عالم روحاني ، فكان كل ما يروى لهم من الخوارق التي غص بها تاريخ العالمين ويشير الى وجود قوى تعمل فى الكون من غير طريق النواميس الآلية ، يعدونه من خرافات الاقدمين واكاذيب المتنبئة والمشعوذين .

فكان اذا تجرأ متجرئ على التصريح بوجود عالم وراء المادة صاح به الماديون من كل مكان قائلين له : انتهيت اليه فانت تخبر عنه عن عيان ، ام سلمت به انقيادا لاضاليل الكهان ؟ وان تجاسر متكلم على القول بوجود روح في الانسان نظر بعضهم الى بعض يتغامزون ، ثم قالوا له وهم يتضاحكون : لاتصدق الا ماتراه بعينيك وتلمسه بيديك والا فخذ بكل مايقال ، وهيء ذهنك لقبول كل خيال .

هنا تقوضت دولة المنطق ، وانهارت اركان النظر العقلي ، واصبح الحكم المطلق للحس والعيان وانضم اليهما المتكلمون فى العالم الروحاني والنفوس المجردة عن المادة ؟ ادرك الباقون من اشياع دولة الروح ان الخطب جلل وان العقبات التي تعترضهم لا

تذال، فادركهم الشك مع الآخرين وتحرج موقف حفظة الاديان، وسرت اليهم عدوى التعاليم المادية فأصبح وجودهم في وظائفهم مبنيا على المصلحة الشخصية لا على العقيدة الدينية .

كان كل هـذا ولم تبطل في دور من تلك الادوار تلك الامور الخارقة للعادة الدالة على وجود عالم روحاني محجوب وراء هـذا العالم المادي المشهود، من حدوث حوادث في بعض الدور تدل على وجود عوامل عاقلة مستترة عن العيون، وظهور اشباح متجسدة للمستعدين لرؤيتها، وسريان أرواح النائمين ووقوفها من هذا الطريق على ادراك كثير من الشؤون المخفية . ولـكن من الذي كان يستطيع في دور غلبة المذهب المادي في القرنين السابقين أن يرفع بهذه الامور رأسا، أو يحرك بها شفة، وألسنة المتهكمين مترصدة، وأقلام الناقدين مترقبة، تشن على كل متكلم فيها غارات لا تبقي ولا تذر، أقلها ان تسلبه كرامته بين العارفين، وتعده في زمرة المخرفين، حتى ان الطبيب (مسمر) الالماني لما وقف على سر التنويم المغناطيسي في أخريات القرن الثامن عشر، وهو الفن الذي كان يمارسه المصريون والهنود والصينيون منذ ألوف من السنين، وعالج ألوفا من الذين كان قد حكم الاطباء على أمراضهم بالاعضال، تلقاه الناقدون بألسنة من نار، ووصموه بالتدجيل والشعوذة، وحطوا من كرامته كل الحط حتى أمضى بقية أيامه مرذولا منبوذاً . فخلفه في التجارب جمهور من الاطباء وغيرهم فلم يكونوا أحسن حظا منه . وألفت جمعية العلماء الفرنسية لجنة لبحث هذا التنويم المزعوم . . . فقررت بعد التجارب المدققة . . . انه زور وبهتان، وان القائلين به مدلسون او اغبياء، فظل انصاره مئة عام يقرعون التهم الكلامية بالتجارب العملية، حتى اضطروا تلك الجماعات الرسمية المسماة بالجمعيات العلمية الى اعتباره فرعا من العلوم المقررة . ولـكن المادية الموروثة لم تسمح لهم أن يقروا منه الا ما لا يناقض مذهبهم، وغضوا الطرف عن مشاهداته العالية التي تثبت وجود الروح بالحس لكل مجرب فيه .

ظل العلماء في هذه الحيلولة الفكرية كل القرن الثامن عشر والنصف الاول

من القرن التاسع عشر ، وبات الناس تبعا لهم مفتونين بتلك المقررات العلمية الناقصة متخيلين انهم حلوا مساتير الكون ، وتمكنوا من تحليل كائناته تحليلا آليا محضاً ، حتى هدأت ثائرة هذا الدور الانتقالي وسكنت فورة الفرح بالجديد ، فأخذ العقل الانساني ينظر فيما حصله بعد كل هذا الجهاد المجيد نظر نقد وتمحيص وقد صحا من نشوته ، وسكن من هزته ، فاذا به لم يبرح موقفه الاول ، اللهم الا علما ببعض الظواهر واكتشافا لبعض البسائط . أما من جهة ما كان يزعمه من ادراك سر الطبيعة ووقوفه على آثار العلل الاولية ، فوجد انه قد انخدع بألفاظ بعدت به عن مجال الفلسفة العملية ، التي ارتضاها أسلوبا لبحثه أشواطا بعيدة ، حتى اشبه الخياليين الذين طالما تبجح عليهم بمحصوله وتعالى عليهم بأصوله . وجد ان المادة لاتزال مجهولة وان القوى التي دعاها ميكانيكية مقررة لاتعدو النظريات الظنية ، وان العلل التي فسر بها الوجود ظواهر خداعة لاينطبق التعويل عليها على أسلوبه ، وان تلك النواميس العليا التي علل بها عالم الاحياء والتنوعات البيولوجية كناموس الانتخاب الطبيعي والوراثة معلولة لايصلح ان يركن اليها الا اذا أراد ان يموه على نفسه . وقد اوجز هذا الموقف من الحيرة العلمية الاستاذ المشهور (جوستاف لوبون) في كتابه تحول المادة قال :

« كل نظرياتنا العلمية العظيمة ليست بقديمة العهد جدا ، فان تاريخ العلم التجريبي المحقق لايصعد الى ابعد من ثلاثة قرون . وفي هذا العهد القريب قريبا نسبيا حدث دوران مختلفان من ادوار التحول في افكار العلماء .

« فالدور الاول كان دور الثقة وهو الذي تكلمت عنه آنفا . فكانت المقررات الفلسفية والدينية وهي قواعد مدركاتنا القديمة على الوجود تضمحل وتزول بسطء امام الاستكشافات العلمية التي تتوالى كل يوم ولا سيما في النصف الاول من القرن الاخير . فما كنت تسمع من يرفع عقيرته بشكوى . وكيف يشكى من احلال الحقائق المطلقة محل اوهام المعتقدات القديمة . فكان يظن مؤسسو كل علم جديد انهم يحددون له الدوائر النهائية التي لايجوز لاحد ان يبعد عنها من الفراغ . وكان يخيل اليهم انهم متى اتموا بناء الصرح

العلمي استمر هذا الصرح قائما على انقاض أوهام الزمان الماضي فكانت الثقة العلمية في هذا الدور على أتم ماتكون .

« دامت هذه الثقة في المقررات الكبرى للعلم العصرى حافظة لقوتها الى ان حدثت في الايام الاخيرة استكشافات غير منتظرة قضت على الفكر العلمي بأن يكابد من الشكوك ماكان يعتقد انه قد تخلص منه الى أبد الآبدين . فان الصرح العلمي الذى كان لا يرى فيه من الصدوع الا عدد قليل من العقول العالية ، تزعزع فجأة بشدة عظيمة . وصارت التناقضات والمستحيلات التى قد ظهر تهافتها بعد ان كانت من الخفاء بحيث لاتبلغها الظنون .

« ادرك الناس على عجل انهم كانوا مخدوعين وأسرعوا يتساءلون عما إذا كانت الاصول المكونة للمقررات اليقينية لمعارفنا الطبيعية لم تكن الا فروضا واهية تحجب تحت غشائها جهلا لا يسبر له غور . فحدث اذ ذاك في العقائد العلمية مثل ما كان حدث ذلك للعقائد الدينية عند ماشرعوا في مناقشتها الحساب اذ سبقت ساعة النقد ساعة الانحطاط ثم تلاها دور الزوال والنسيان .

« لامشاحة في ان الاصول التى كان العلم يختال بها اختيالا لم تزل كل الزوال بل هي ستبقى امدا طويلا في نظر الدهماء كحقائق مقررة ، وستستمر الكتب الابتدائية في نشرها ، ولكنها فقدت كل ما كان لها من الاجلال في نظر العلماء المحققين .

« وقد كتب المسيو (لوسيان بوانكاريه) من جهته يقول : « لا توجد لدينا نظريات عالية الآن يمكن قبولها قبولا تاما ويجمع عليها المجربون اجماعا عاما . بل يسود اليوم على عالم العلوم الطبيعية نوع من الفوضى . وقد اتسع المجال للافتراضات الجريئة ولم يظهر ان ناموسا من النواميس يمكن اعتباره ضروريا ضرورة مطلقة . فنحن نشهد في هذه الآونة اعمالا هي اشبه بالهدم منها باقامة بناء نهائي . فالآراء التي كانت تظهر لمن سبقنا انها تأسست تأسسا ثابتا صارت اليوم لدينا موضوعا للمناقشة . وقد رفض اليوم على وجه عام الرأى القائل بأن كل الظواهر الطبيعية تقبل تحليلات ميكانيكية . فان اصول علم الميكانيكا نفسها صارت مشكوكا

فيها .. وقد شوهدت حوادث جديدة زعزعت ثقتنا المتعلقة بالقيمة المطلقة للنواميس التي اعتبرت الى اليوم كلها أساسية» انتهى كلام العلامة لوسيان بوانكاريه .

ثم عاد الاستاذ (جوستاف لوبون) فقال :

«ولكن من حسن الحظ لاشيء أكثر ملاءمة لترقي العلمي من هذه الفوضى الحالية ، فالوجود مفعم بمجهولات لانراها . والحجاب الذي يحجبها عنا منسوج غالبا من الآراء الضالة أو الناقصة التي توجبها علينا تقاليد العلم الرسمي . فقد دلنا التاريخ على مبلغ تأثير النظريات العلمية في تأخير الترقي متى حصلت على درجة معينة من الجمود. فلا يمكن والحالة هذه احداث خطوة واحدة الى الامام الا بعد تفكك الآراء السابقة. فان تبيين ضلالة واحدة وتتبع نتائجها يساوي أحيانا حدوث استكشاف جديد. فالاشد خطرا على تقدم العقل الانساني هو تقديم الظنيات للقارئين لا بصفة الحقائق المقررة على نحو ما تفعله الكتب المدرسية، والتطاول لوضع تخوم للعلم ورسم حدود لما يمكن معرفته، كما كان يود ذلك اجوست كونت » انتهى

ونحن نقول بعد هذا التمهيد : لما وقف العقل الانساني في شخص رجال العلم العالي هذا الموقف من النظر الصادق والادراك الصحيح والتواضع الجدير به، وهو في وسط هذه اللجة من المجاهيل العالية، حرم على نفسه الركون الى اصل ركونا مطلقا مهما زين له الخيال انه ثابت لا ينقض، والقى عن عينه تلك الغشاوة التى كانت تمنعه من النظر في كل ما يخالف مقرراته الموروثة، وعلم من هذا الدرس القاسي من الانخداع تقدم التسليم لغير ما يقوم تحت حسه بالتجربة ، فما كاد يبلغه وجود حادثة من حوادث ما وراء المادة يمكن تحقيقها بالاسلوب التجريبي حتى بادر الى تمحيصها ولم يأنف من إعلان حقيتها ، ولم يستكبر جماهير من العلماء شايت نواميسهم في

المباحث المادية وملايين من الاذكياء والفضلاء جمدوا على الالحاد وتربوا في مهده أن يهتموا بدراستها مجتمعين ومتفرقين وان يصرحوا بما رأوه غير هايبين ولا مترددين

هذا سر تقاطر رجال العلم العالي وأراكين النهضة العصرية على بحث مشاهدات ماوراء المادة وانغماسهم في هذا السبيل بنهمة لم تعهد في تاريخ العلم الى اليوم . ولكن ما أبعد الشرقيين عن مثل هـذا الموقف الجليل من التواضع والتعطش للحقيقة . انهم لايزالون في دور الغرور بالنظريات العلمية الناقصة والتبجح بمقررات الفلسفة المادية البائدة، متوهمين ان ذلك منتهى الالمعية واقصى غايات النضاعة العقلية . ولا يدرى الا الله كم مقدار الامد الذي يمضونه في هذا الدور الخطير سهل الله عليهم الانتقال منه

ومما ننبه اليه هنا ان البحث في المشاهدات الروحية ليس بوقف على العلماء بل تناولته جميع الطبقات من الحكماء ومهندسين وأصوليين وصحفيين وماليين وغيرهم ممن يعدون بالملايين، تألبت كل هذه العقول البشرية على تحقيق حوادثها فلم تزدد الا وضوحا حتى صارت اليوم في عداد الامور الحسية التي تمتحن بالآلات المعدنية، فثبت من مجموع هذه الابحاث ان وراء هذه المادة المحسوسة عالما علي منه عامرا بالكائنات العاقلة، وان الانسان متى اتم العمر المقدر له هنا انتقل الى ذلك العالم بما حصله من علم واختبار، وتابع فيه طريق ترقيه حاملا جسداً اثيريا لا يعدو عليه التحول ولا الفناء، وانه لايزال يترقى حتى يصل الى درجات يعجز عن تخيلها حتى الارواح المجردة العالية التي تتصل بالباحثين بالطرق التي بيناها هنا.

هذه العقيدة لم يحصل عليها العقل العصرى من طريق الدين ولا من طريق المنطق، ولكن من الطريق العلمي التجريبي المعروف . وقد تردد في قبولها عشرات من السنين قلبها فيها على كل وجه وسرى عليها كل اسلوب من التمحيص حتى صارت هي والحسيات في مستوى واحد . فأخذ بها كما يأخذ بالعلم الطبيعي

التى تهديه اليه الحواس، بل هى من العلم الطبيعي وانما سميت ما وراء الطبيعة لانها لم تكن في دائرة البحث العلمي . أما اليوم وقد تناولها الاسلوب العلمي التجريبي فهي من صميم العلوم الطبيعية، مثل الكلام فيها كمثل الكلام في أشعة رونتجن وخصائص الراديوم . وقد اعتبر العقل الانساني وقوف العلم على آثار هذا العالم الروحاني انتقالا منه من دور الحرج والنقص الى دور السعة والتكمل، فانه وصل به بين شطرى الوجود، أى بين شطره المدرك بهذه الحواس القاصرة وبين شطره المحجوب عنها . ولا يخفى ان المحجوب عنها هو مستقر القوى المؤثرة ومسرح العوامل المكونة . فتم له بذلك وصل مايجب ان يكون موصولا ليجد العلم المجال امامه مطلقا فلا يقف حيال كل مسألة من المسائل التى يتحرق الانسان لادراكها حائرا ثم يرتد عنها معترفا بأنه امام مجهول لايسبر له غور . بهذا الوصل بين شطرى الوجود انحلت مسألة من اكبر المسائل الانسانية وهي التناقض المؤلم القديم بين العلم والدين . فتحول الدين عن أسلوبه المعروف من التسليم بالغيب والجولان في متاهات الآراء القديمة، الى ادراك صحيح مبني على الاسلوب العلمى الصارم. فتوحدت وجهتا الانسان . فبعد ان كان امامه عقيدة وعلم على طرفي نقيض أصبح أمامه علم محض جامع لجميع ميوله الجسدية والروحية . اركانه المشاهدة والتجربة وعماده النظر والاختبار، لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا ينابذ فيه الامن خادع نفسه.

هذا عهد للانسانية تصغر كل عبارة عن وصف جلاله وجماله ويعجز كل خيال عن تقدير آثاره فى ترقيتها وايصالها من فهم الحقائق الكبرى الى ماتتوجه اليه بكليتها . ولا يمكن تصوير مايترتب على ذلك من طهر النفوس وسمو الاخلاق وبعد الغايات وتلاشي الفوارق الجنسية والدينية، والشعور بالسعادة الحقة والطمأنينة الكاملة، واعتبار الموت كما هو في الواقع ترقيا من عالم نقص الى عالم كمال، وانتقالا من سجن الحواس القاصرة الى باحة الاطلاق المنزه من القيود .

هذا هو العهد الذهبي الذى طالما تخيله الانسان فى كل زمان ومكان فليعمل

له العاملون ولا يقف في سبيله الشاكون بل ليقرأوا ما كتبه اشياعه وليجربوا طرقه ليجربوه فقد وضح الصبح لذي عينين وملأ نوره الخافقين .

وقد أتينا فيما نشرناه في المقتطف على صورة مصغرة لمشاهدات هذا فتح الالهي وسردنا كثيرا من شهادات مجربيه ولم ندع وجهاً من وجوه بيان مسالة لا اتينا عليه أو اشرنا اليه، حتى صارت مقالاتنا هذه كافلة لدحض كل شبهة تمام ضده فان فيها كل مايكتب في توهينها ردا مقنعا وا.كل مايستشكل به عليها بيانا وافيا، يدرك من يراجع تلك المقالات عند ماتمر به شبهة أو يقرأ في تحقيرها مقالا . والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

٠٠

تعقيب للمقتطف

على اثبات الروح بالمباحث النفسية

أتم محمد بك فريد وجدى مقالاته المتممة التى اراد بها اثبات الروح بالمباحث النفسية وهو الموضوع الذى كتبنا فيه في مجلدات المقتطف السابقة ماعلا الف صفحة على الاقل ذاكرين مايقوله انصاره وما يقوله خصومهم . ولم نكتف بالنقل عن زعماء الفريقين بل امتحنا الوسطاء الذين يدعون مناجاة الارواح وذلك في أوروبا وهذا القطر والقطر السورى فلم نر شيئا غريبا لا يمكن تفسيره بغير مناجاة الارواح. وزد على ذلك انا انتقدنا مرة ماكتبه المسترستد عن انباء وسيطه يقتل ملك الصرب قبلما قتل ثم ثبت ان انتقادنا كان في محله وان ماكتبه المسترستد لم يكن صحيحا . وانتقدنا ايضا تقرير اللجنة التى ارسلتها جمعية المباحث النفسية لامتحان أوساپيا بلادينو وأيدت دعواها ثم ثبت بالامتحان ان تلك المرأة كانت تخدع مشاهديها.

وقد طالعنا كثيراً من أنفس الكتب التي تلم بهـذا الموضوع مثـل كتـاب الدكتور ميرس « الشخصية الانسانية وبقاؤها بعد موت الجسد » وكتاب الاستاذ وليم جمس « علم النفس » وكتب السر أوليفر لدج وكثيراً من المقـالات التي نشرت في اكبر المجلات الانكليزية والاميركية فلم نر فيها كلها دليـلا قاطعا على ان الذي ينطق الوسطاء هو روح انسان ميت مع رغبتنا الشديدة في مخاطبـة ارواح الموتى .
وهذا ما يقوله كل الذين يعتدّ بقولهم من رجال الدين في الكنيسة الـكاثوليـكية والبرتستانتيه والارثوذكسية أي الزعماء الدينيون لستمائة مليون من البشر الروحيين المعتقدين بخلود النفس . واحدث ماقرأنا من الادلة على ذلك ماجاء في مجـلة القرن التاسع عشر الانكليزية في عدد يناير هذه السنة وهو ان مؤتمر الكنيسة الانكليزية الذي عقد حديثا اعلن رئيسه فيه (وهو رئيس اساقفة انكلترا) ان مجمع الاساقفة الذي موعد اجتماعه هذه السنة سيبحث في مسألة مناجاة الارواح.
وهذا دليل قاطع أن اشد الروحيين تمسكاً بالروحية لايزالون مرتابين في صحة مناجاة أرواح الموتى .
وقد أورد وجدي بك في مقالاته خلاصة الادلة التي يقيمها اصحـاب مـذهب المناجاة لتأييده فأجاد واوفى الموضوع حقه من هـذا القبيل . لـكنه لم يكتف بأدلة التأييد بل شدد النكير على منكري المناجـاة أو مفسري أعمـال الوسطـاء وأقوالهم بغير مخاطبة ارواح الموتى وجارى الذين يتهمونهم بأنهم ماديون وان اعتقادهم المادى هو الذى يمنعهم من التسليم بوجود الارواح وبالتالي من التسليم بصحة مناجاتها. والتهمة بالمادية قديمة جدا اتهم بها كل الطبيعيين من ايام غليليو الى الآن حتى باخت وصدق عليها ماقيل في تلك الناقة:

لقد هزلت حتى بدا من هزالها كلاها وحتى سامها كل مفلس

ونود ان يترفع وجدى بك عنها ونرجح انه لو علم أن أكبر المعترضين على دعوى مناجاة أرواح الموتى هم رؤساء الدين في الـكنائس المسيحية الذين لا يرتاب أحـد منهم في خلود نفس الانسان ـ لوعلم ذلك لما خطر على باله ان يتهمهم هذه التهمة

ثم ان بعض العلماء الذين يعتقدون مناجلة الارواح لايفرّقون بين المادة والروح بل يقولون أن الروح تتجسم فتصير مادة والمادة تنحل فتصير روحا

هذا ولا خلاف في ان الوسطاء يفعلون افعالا غريبة سواء كان بالكلام او بالقرع أو بالكتابة . والناس في تفسير هذه الافعال فريقان فريق يقول أن سببها داخلي *Subjectif* أي أن الوسيط يفعلها من تلقاء نفسه اما احتيالا واما بفعل داخلي فيه كما يتكلم ويمشي وهو نائم أو مصاب بالبحران . وان الذين يشاهدونها قد يتوهمون انهم رأوا وسمعوا اكثر مما رأوا وسمعوا او يروون عنها غير ما رأوا وسمعوا وفريق يقول أن سببها خارجي *Objectif* وهؤلاء ثلاث فرق فرقة تقول ان سببها أرواح الموتى وفرقة ان سببها أرواح الشياطين وفرقة أن سببها منتشرة في الكون

وما من أحد الا وهو يود ان يعرف أين كان قبلما ولد والى أين يذهب بعد ما يموت . اما جسده فأمره معلوم تراب والى التراب يعود . وأما عقله أوروحه أو نفسه فشيء آخر غير هذا التراب نعلم وجوده فينا مادمنا احياء فما هو واين تكوّن والى اين يذهب بعد موتنا . الاديان الثلاثة الموسوية والعيسوية والمحمدية تقول انه يذهب بعد الموت الى الجنة أو الى النار . والعلوم الطبيعية تقول انها لا تعلم اين كان ولا الى اين يذهب . فهل صار في الامكان ان تتصل أرواح الموتى بالاحياء فتثبت وجودها لهم وتخبرهم بالحالة التي هي فيها وبما يصيب ارواحهم بعد مغادرتها اجسادهم . هذه احق المسائل بالبحث والتحقيق

ملاحظاتنا على هذا التعقيب

اننا لم نشأ ان نرسل بملاحظاتنا هذه الي المقتطف بعد ما اعلنا فيه اتمام مقالاتنا لاسيا وقد رأينا ان حضرة العلامة منشئه لم يزد شيا في هذا التعقيب عل ما سبق مساجلته البحث فيه، ولكننا في هذا الكتاب نأتي بهذه الملاحظات عليه لان المقام يدعو اليها هنا فنقول :

يقول حضرته انه امتحن الوسطاء الذين يدعون مناجاة الارواح فلم يرشيئا لايمكن تفسيره بغير مناجاة الارواح .

ثم ذكر ان الوسطاء يعملون افعالا غريبة والناس في تفسيرها فريقان أولهما يرى ان سببها داخلي، اي ان الوسيط يفعلها من تلقاء نفسه اما احتيالا واما بفعل داخل فيه . وأن الذين يشاهدونها قد يتوهمون انهم رأوا وسمعوا اكثر مما رأوا وسمعوا الخ، وفريق يقول ان سببها خارجي وهؤلاء ثلاث فرق فرقة تقول ان سببها أرواح الموتى وفرقة ان سببها ارواح الشياطين وفرقة ان سببها روح منتشرة في الكون .

ونحن نرى ان في هذا الكلام نظرا . فاما امتحان حضرته للوسطا وعدم رؤيته شيأ لايمكن تفسيره بغير مناجاة الارواح ، فليس بعجيب لانه فيما يظهر امتحن الوسطاء المأجورين ، وقد قلنا انه لايوثق بهم ، وقد أكد ذلك المجربون للشؤون النفسية واثبتوا ان جلهم دجالون وانهم لم يعتمدوا علي اكثرهم في مباحثهم،

وقد الف أولئك الباحثون كتبا في ذلك لتحذير الناس منهم .

واما قوله انه لم ير شيئا لايمكن تفسيره بغير مناجاة الارواح ، فكلام غامض . فهل يفسر ما رآه بالخداع المحض ، ام بفعل روح الوسيط نفسه ، ام بروح منتشرة في العالم ، ام بالجن ؟

فان كان يرى انه يفسر بالخداع المحض عذرناه لانه لم يصادف غير الوسطاء المأجورين ، وان كان يريد بهذا ان يطعن علي مجموع المشاهدات معتقدا بما قوله هذا بما كتبته لجنة الجمعية الجدلية الانجليزية في تقريرها عن هذه الحوادث، وقد كانت

مؤلفة من ثلاثين عالما ندبوا خصيصا لفحص صحة هــذه الظواهر .فقد ذكرت في تقريرها ما يأتي :

« وقد تحاشت اللجنة ان تستخدم الوسطاء المشتغلين بهذه المهنة في الخارج والذين يأخذون اجرا على عملهم هذا الخ . . .

« كل تجربة من التجارب التى عملناها بما امكن لمجموع عقولنا ان تتخيله عملت بصبر وثبات ، وقد ديرت هذه التجارب فى أحوال كثيرة الاختلاف ،واستخدمنا كل المهارة الممكنة لاجل ابتكار وسائل تسمح لنا بتحقيق مشاهداتنا وابعاد كل احتمال لغش أوتوهم .

«وقد بدأ نحوا ربعة أخماس اللجنة التجارب وهم في أشد درجات الانكار لصحة هذه الظواهر ، وكانوا مقتنعين أشد اقتناع بأنها اما نتيجة التدليس أو التوهم ،أوانها حادثه بحركة غير ارادية للعضلات. ولم يتنازل هؤلاء الاعضاء المنكرون أشدالانكار عن فروضهم السابقة الا بعد ظهورها بوضوح لاتمكن مقاومته وفي شروط تنفى كل افتراض من الافتراضات السابقة الخ الخ » .

لو قابلنا هذا الــكلام الصادر من ثلاثين عالما انجليزيا تألبوا على كشف اللثام عن هذه المسئلة ، بما يقوله حضرة صاحب المقتطف من انه لم ير فيهاشيأ يعلو عن التعليل تحققنا ان حضرته تسرع فى حكمه فلفظ من مجال البحث العلمي موضوعاهو أجل ماهدى اليه الانسان من حين وجوده على سطح الارض الى اليوم .

ولو كان وقف أمر هذه المباحث عند حد الحكم القاطع الذى اصـدرته لجنة المجمع العلمي الجدلى البريطاني لوجد المشككون سبيلا الى تشكيكاتهم باهمال العلماء لها ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد فقد أسس اساتذة من جامعة كيبردج وغيرهم جمعية سموها جمعية المباحث النفسية سنة ١٨٨٢ لاتزال قائمةالى اليوم ،وقدجمعت من تجاربها اكثر من اربعين مجلدا . وتألف فى فرنسا مجمع علمي برئاسة الاستاذالفزيولوجي الكبير (شارل ريشيه) العضو بالمجمع العلمي والمدرس بجامعة الطب الفرنسية وبادارة الدكتور جوستاف جوليه العالم المشهور وعضوية الفلكي الاكبر كميل فلامريون والدكتور

كالمث مثلش صحة باريس والكونت دوغارمون اجدوزوا. فرنسا السابقين والاستاذ تيسو وغيرهم، وهاهي اليوم تعمل تجاربها تسويقا لادخال هذه الحوادث الى العلم الرسمي وقد تأدت الى نفس النتائج التي تأدت اليها لجنة المجمع العلمي البريطاني وجمعية المباحث النفسيه كما تشير اليه مجلتها الجليلة المسماة (نشرة المجمع العلمي لدرس الحوادث النفسية) .

وقد قرأنا في المجلة الروحية الفرنسية الصادرة في شهر يونيو ان خمسة عشر عالما من علماء امستردام (هولاندا) كثير منهم اعضاء في المجمع العلمي دعوا اخوانهم في البلاد المتمدنة كافة ان يحضروا مؤتمرا سيقام فيها للمسئلة الروحية من ٢٦ اغسطس الى ٤ سبتمبر .

فمسألة تجتمع لفحصها اللجان العلمية وتؤسس في سبيلها الجمعيات التجريبية ، في ارقي الامم مدنية ، وتؤلف لها المؤتمرات في العواصم الاوربية، لايصح ان تلفظ الى مجال الامور الخرافية، ولا أن يكتفى فيها مثل صاحب المقتطف بحكم كالذي اصدره فيها .

وقال حضرته انه سيتألف مجمع للاساقفة الانجليز في سنة (١٩٢٠) وسيبحث في مسألة مناجاة الارواح.

نقول نعم وقد اجتمع هذا المجمع وكان قراره عدم الاستخفاف بهذه المسألة والاشادة بثمراتها وقد لخص هذا الحكم العلامة (جان فينو) مدير المجلة الدالمية وهى اكبر المجلات الاوربية الصادر في ١٥ يناير من هذه السنة (١٩٢١) فقال:

« في مؤتمر الاساقفة الانجليكانية الذى عقد في قصر لاميث في ٥ يوليو الى ٧ اغسطس سنة ١٩٢٠ وحضره ٢٥٢ من رؤوس الكنيسة منهم مطارنة كنتربورى ويورك وسيدني وكيتاون والهند الغربية وميلبورن وامارة بلادالشمال الخ هذا عدا اكثر من مئة اسقف من اكبر الاساقفة تقرر النظر بنوع خاص في امر الاسبرتسم والعلم المسيحي والتيوصوفية نظرا لتأثيرها العظيم في عقلية اهل العصر الحاضر

«وسع تخوف هذا المؤتمر المؤمنين من مزاولة اعمال الفرق المختلفة للمذهب الباطني

اعترف مؤتمر لامبيث المذكور بقيمة هذه الميول الروحانية التي تكافح المادية بنجاح عظيم . ولكن تفاديا من أن يفضي شدة انتشار هذه المذاهب وسلطانها الآخذ في الازدياد الى هدم سلطة الكنيسة واصولها الاعتقادية استحسن كبار الاساقفة المؤتمرين وضع معالم جديدة النصرانية لتكسب ثقة العناصر التي تشذ كل يوم عن الايمان الرسمي

« فيخطيء الفكر الحر خطأ جدا اذا ظهر أقل تسامحا من الكنائس النصرانية التي فقدت شيأ كثيراً بغلبة المذهب الروحاني الكامل لان مذاهبه المختلفة قد أعلنت منذ الآن حربا ضروسا على الاديان ذات العقائد الجامدة وخصوصا ضد مدعي الوكالة عن الله في الارض

« وبعد كل هذا فالحقيقة ستتغلب على كل هذه الاعتبارات ونحن باسمها نطالبه باحترام هذا (الوحي الجديد) وبحث ظواهره بحثا علميا في حدود الامكان ».

الى أن قال :

« فالعلم القديم المتأخر يكره هذه الفتوحات الجديدة ، ولكن من الظلم ما يؤسف له اغلاق النوافذ التي فتحت أمام أعيننا فبهرتنا منها الانوار » انتهى

ذلك قرار المؤتمر وهذا رأى الفيلسوف المشهور (جان فينو) مدير المجلة العالمية ، في أرقي البلاد مدنية ، فليقدّر القراء تأثير المباحث الروحية في المراكز العلمية ، وليواجهوا هذا الفيض السماوى الجديد بقلوب متعطشة للحقيقة ، فان العالم والعلم قد دخلا في عهد هو أعظم عهود الانسانية وأجلها شأنا سيتأدي الانسان به الى كماله المطلق من أقرب الطرق وآمنها

ويجدر بنا أن ننبه هنا الى امور جديرة بالتأمل

(أولها) ان الخوارق الروحية لنقضها جميع السنن الطبيعية المعروفة للآن عز على العقول التسليم بها وأكثر الناس من اتهام الباحثين فيها بالانخداع والوقوع فى حبائل

المشعوذين ، وتطلب كل منهم ان يراها بنفسه ليفضح الشعوذة التي انخدع بها غيره، هذا على خلاف المسائل العلميه التجريبية التي يكفى في الاخذ بها ان يجربها عالم او عالمان . لهذا السبب تألبت على دراسة الخوارق الروحانية جميع صنوف العقول من علماء وفلاسفة واطباء ومهندسين واصوليين وكتبة وشعراء وصحفيين وماليين فاتفق الجميع على القول بأنها حقة لاغبار عليها ، وان لاأثر للتدليس فيها . وهذا الاجماع كاف في اثبات حقيتها . وهل يعقل ان تعجز كل هذه العقول في مدى اكثر من سبعين سنة عن فضح أى شعوذة مهما بلغت من الاتقان وخفاء الوسائل ، وانت تعلم ان الوسطاء كانوا يربطون ويوضعون في اقفاص من الحديد ويقبض على أيديهم وتوصل أجسادهم بالاسلاك الكهربائية التي تسجل عليهم اصغر حركاتهم ؟

(ثانيا) ان المنكرين لهذه الحوادث كلهم ممن لم يكلفوا أنفسهم تجربتها أو ممن جربوها مرة أو مرتين فلما لم يجدوا شيأ يذكر أو وقعوا مع وسيط مدلس اقلعوا عن التجربة واسرعوا فى الحكم بأن المسألة كلها تدليس في تدليس . قال العلامة (كاميل فلاماريون) في صفحة ١٠٥ من كتابه (القوى الطبيعية المجهولة):

« من السهل جدا أن يقف الانسان موقف المنكر انكارا مطلقا حيال المشاهدات التي هي غرضنا من هذا الكتاب » .

ثم صور حال أولئك المنكرين فقال :

« قد لايكتفى الواحد من هؤلاء القضاة الاعلين بالغمز بعينيه ، أو بالتبسم وهو على اريكة اختصاصه الملكى ، ولكنه قد يتفضل فيحضر احدى التجارب فاذا اتفق، كما يحدث كثيرا ، عدم حصول على شيء يخضع لارادته،يبرح المجرب المبجل المكان وهو معتقد تمام الاعتقاد بأنه بنفاذ بصيرته الفائق قد اكتشف الحيلة ومنع ظهور أى شيء بادراكه الواسع ونظره البعيد . فيسارع الى الكتابة للجرائد مفسرا التدليس وباكيا بادمع التمساح تأثرا من ذلك المنظر المحزن وهو انخداع رجال معدودين من الاذكياء لتدليسات اكتشفها هو من أول وهلة » انتهى.

هذا حال المنكرين كلهم ، ولا يحفظ تاريخ هذه المباحث ان عالماً وقف على بحثها عدة سنين فهب بعد ذلك يعلن على رؤوس الاشهاد انه لم ير شيئا او انها كتشف فيها وجوه التدليس ، كما لا يحفظ تاريخها أيضا ان جماعة من العلماء أو الاذكياء قاموا بفحصها بصبر وثبات مدة كافية ثم اعلنوا انها خداع في خداع كما يقول المنكرون من دون بحث ولا تنقيب . بل حفظ تاريخها ان كل العلماء الذين وقفوا زمناً كافيا لدراستها صدقوا بها وكتبوا فيها كتابا او رسائل .

وهذا من اكبر الادلة على صحة هذه المباحث وتعاليها على كل تعليل مادي يريد أن يعللها به الماديون .

(ثالثا) أن الشعوذة عرفت بهذه الصفة في كل زمان ومكان، وتاريخها يصعد الى عدة الوف من السنين ، والمشعوذ تطلق له الحرية في اعداد الآلات ، واتخاذ الادوات ، وبث اعوانه بين الجمهور ، وتعطى له كل الفرص الضرورية للذهاب والجيئة على المسرح لعرض الاعيبه على المتفرجين . والمباحث الروحية عرفت كذلك في كل زمان ومكان، ووجد كلام عنها في اساطير المصريين القدماء والصينيين والهنود والبابليين وغيرهم ، وميزت عن الشعوذة بميزات كثيرة ، منها ان الذين كانت تحصل على أيديهم في الازمنة القديمة كانوا من اهل الرياضات والعبادات ، ظهرت منهم هذه الخوارق من غلبة أرواحهم على اجسادهم نابعة لسنن طبيعية أرقى من السنن المعروفة من عالم المادة .

وكل الذى يفعله العلم اليوم هو انه يقوم بفحص هذه الخوارق على من تظهر على أيديهم متى وقعوا في حال خاص كنوم مغناطيسى أو انتقال نومي او خدر تام الخ ، والعلماء يبحثونها بالاسلوب العلمي الدقيق متخذين كل التحوطات التي تنفى كل تدليس أو خداع . كربط الوسيط على كرسيه وتسميره بالارض ووضعهما تحت قفص من حديد وايصال أجسادهم بالتيارات الكهربائية الدقيقة لتسجل عليهم كل حركة وسكون . فأين هذا من الشعوذة ؟

وقد ظهرت هذه الخوارق على ايدى اطفال رضع منهم من كان عمره تسعة ايام

ومنهم من كان عمره عامين ومنهم خمسة اعوام . وظهرت بوساطة رجال ونساء من الذين لا يعقل أن يصدر منهم غش او تدليس ولا تزال تصدر منهم الى اليوم .

وليس في تاريخ العقل الانساني انه انخدع الشعوب فيه بمثل هذا الانخداع في مثل هذا الامد الطويل ، فهل يعقل انه يقع فيه وهو في اشد القرون كراهة لكل قديم ، واكثرها تمسكا بالاسلوب العلمي القويم ؟

وهل يعقل ان يروج هذا الانخداع في كل بلد وفي القارتين معاً ، ويكون في مقدمة المخدوعين العلماء الاعلام الذين مرنوا على الاساليب العلمية الحاسمة ، وجمدوا على التعاليم المادية الصارمة ؟

وان عقل كل هذا فهل يعقل دوام هذا الانخداع جيلين متواليين ، فيزداد زيادة مطردة حتى يبلغ الى حد تأسيس مئات المجلات للبحث فيه ، واقامة المجامع العلمية لدعم مبانيه ، والوصول به الى اقصى مراميه ؟

اللهم ان كل هذا مما لا يعقل ولاسيما في مثل هـذا الجيل الذى لم تدع الشكوك مكانا من قلبه لقبول رأى لم يقم عليه دليل محسوس ، فضلا عن خرافة يقوم على فسادها الف شاهد ملموس .

(رابعا) ان المصدقين بصحة الخوارق الروحية من العلماء والاذكياء في كل صقع لم يرفعوا رأسا بتكذيب المكذبين ، ولم يأبهوا باستهزاء المستهزئين ولكن قالوا كلهم كما قال السير وليم كروكس العلامة الانجليزى الكبير في كتابه (القوى النفسية) :

« وبما أني متحقق من صحة هذه الحوادث فمن الجبن الادبي أن ارفض شهادتي لها بحجة ان كتاباتي قد استهزأ بها المنتقدون وسواهم ممن لا يعلمون شيأ في هذا الشأن ولا يستطيعون بما علق بهم من الاوهام ان يحكموا عليها بانفسهم » انتهى

فكيف صمات المصدقين بها كل هذه الثقة ؟ ولماذا تعلقوا بها كل هذا التعلق ، رغما عن سخرية الساخرين ، وتنطع المتحذلقين ؟ أليس لان الادلة العيانية لا تدحضها الاقاويل ، والوقائع الملموسة لا تطمسها الاضاليل ؟

فلو كان هـؤلاء الباحثون قد انخدعوا كما يقول المنكـرون ، لكانت زواجر خصومهم نبهتهم الى مواطن الغفلة من نفوسهم ، فظهروا أكثر استمساكا على تضليلات المضللين ، واحابيل الدجالين ، ولانتهى بهم الامر في جيلين متواليين الى الانفضاض من حولهم ، وتبيين وهن اصولهم ، كما هي السنة في تنازع الحق والباطل ، ولكن الذي يحدث هو ان كثيراً من هؤلاء المنكرين المتشددين ، والمستهزئين المتغالين ، أخذوا يجربون هذه الخوارق لدحضها بشاهد محسوس ، فرأوا من صحتها مالم يكونوا يحتسبون ، فعادوا الى الاعتراف بحقيتها ، وبقصر نظرهم السابق في تحقيرها ونبذها ، بل كل من كان يأخذ بها ، ونشروا ذلك في كتبهم ، وقد اتينا على طرف من ذلك في هذا الكتاب كما رأيت ، فهل كان يمكن هذا اذا كانت هـذه الخوارق الروحية من أضاليل المشعوذين ؟

فعلى الذين يسرعون الى انكار هذه الظواهر لغلبة التعاليم المادية على عقولهم ان يتأملوا في هذه الوجوه الاربعة ، وليربأوا بانفسهم عن الاستخفاف بعقول الالوف من العلماء ، والملايين من الفهماء ، فان مثل هذا الاستخفاف لا يعتبر من الالمعيـة ولا من قوة الموهبة العقلية ، ولكن من الجمود المزرى بصاحبه ، والركود المردى للآخذ به ، وليعلم كل من له عقل سليم ، اننا نعيش في بحر لجي من مجاهيل ، واننا متنا بالقوى التى تمكننا من استكشافها فلا يقطعن قاطع على نفسه طريق التقدم ولا يجعلن هذه القشور التى يسميها علمية عوائق له عن متابعة سيره الى استجلاء هـذا العالم الكبير ، فذلك منه ام خطير ، وشر عليه مستطير ، والله نسأل ان يتولانا بعنايته ، وان يكلأنا برعايته ،

فهرست الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

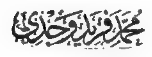
على أطلال المذهب المادي

(الجزء الثالث)

موضوع هذا الجزء تعريب بحث جليل للعلامة الفرنسي الكبير
جان فينو مدير المجلة العالمية الفرنسية نشرها في ثلاثة
أجزاء منها من ١٥ ديسمبر سنة ١٩٢٠
الى ١٥ يناير سنة ١٩٢١
تحت عنوان

فتح علمي ـ الروح خالدة

نقله الى العربيـة



الطبعة الثانية

(طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين بمصر)
سنة ١٩٣٦



نحمد الله ونشكره، ونصلي ونسلم علي رسوله محمد وعلى آله وتابعيه آمين

وبعد فاننا نقدم للقراء اليوم الجزء الثالث من كتابنا (على الطلال المذهب المادى) وهو تعريب بحث جليل للعلامة (جان فينو) مدير المجلة العالمية نشره فيها في ثلاثة أجزاء متعاقبة من ١٥ دسمبر سنة ١٩٢٠ الى ١٥ يناير سنة ١٩٢١ تحت عنوان (فتح على الروح خالدة) أتي فيه من افتنانه الكتابي بما لا يتفق الا لأهل البلاغة من أمثاله.

ولسنا فى حاجة لتقديم هذا العالم للقارئين فان شهرته قد طبقت الارض ، وهو أحد الكتاب المعدودين من ذوى الصيت العالمي، ترجمت كتبه الممتعة الى اكثر اللغات الحية ، وبلغت مجلته الي الأوج الذى لامرام فوقه لطامح ، فاشتغال مثلها بالمباحث النفسية في اجزاء متعاقبة أدل دليل علي مابلغته هذه المباحث من الاحترام في نظر الجماهير ، واعلان مثل (جان فينو) لثقته بها أقوى حجة علي أن هذا الضرب من البحث نال ماهو جدير به من القيمة العلمية والفلسفية .

ونحن بتعريبنا هذه المقالات الممتعة لهذا الفيلسوف الكبير نعتقد اننا نخدم هذه الحقيقة الجديدة خدمة جليلة ، فان في اعلان (جان فينو) الاعتقاد بصحتها ، لا باعتبار انه اصدق نظرا من جميع الذين بحثوها وصدقوها قبله وفيهم اقطاب العلم الرسمي ،ولكن باعتبار وظيفته الصحفية ومكانة مجلته من الذيوع ، يعد حادثا من الحوادث المؤثرة غاية التأثير في البلاد الفرنسية والبلاد التى تستمد منها العلم والفلسفة،

وقد سبقه الي مثل ذلك صديقه الحميم للستر (ستيد) صاحب مجلة المجلات الانجليزية ومكانها هي أيضا من المجلات الانجليزية مما لا يمكن النزاع فيه، ويمتاز الصحفي الانجليزي الكبير بأنه هو نفسه كان حاصلا علي موهبة الوساطة ، ووجود مثله في

الوسطاء أقوى ... على الذين يدعون أن كل الوسطاء خادعون ، فان مكان المستر ستيد من الهيئة الاجتماعية ، وموضعه من البسطة المالية والعلمية، وعده من ملوك الارض وقادتها، لاتسمح له ان يلعب بسمعته ، حتى لو كان مدلسا بفطرته ، فاقوالك وقد كان من قوة الاخلاق وكرامة النفس بحيث ابى ان يدير تركة المستر (سسل رودس) وهي تبلغ تسعة وثلاثين مليونا من الجنيهات لمنافاة بعض نصوص وصيته لرأيه الخاص.

على أن نزاهة الوسيط مسألة ثانوية فانه عامل سلبي في التجارب الروحية ، اذ يكفي وجوده بين الجماعة لتسهيل ظهور تلك الكائنات الحية ، وكثيرا ما حمل الشك العلماء الباحثين على شد الوسطاء على كراسيهم وتسميرها بالارض والختم على اربطتها بالشمع وجعلهم تحت اقفاص حديدية الخ من انواع التحوطات ، فلم يمنع كل هذا ظهور تلك الخوارق التي قلبت شكل العلم . وغيرت الفلسفة من حال الى حال .

ولكن وجود أمثال المستر ستيد والكاتب الفرنسي الطائر الصيت ساردو والعلامة الانجليزي الكبير باني فارلي والعلامة اللاهوتي ستنتون موزس وغيرهم في عداد الوسطاء من الضمانات القوية على صحة هذه الموهبة التي لايزال ينازع فيها من لم يلم بشيء من تاريخ هذه المباحث التي عمت العالم المتمدن .

لنبدأ الآن في ايراد تعريب مبحث العلامة (جان فينو) قال :

« بما ان النظريات والمقررات العلمية ليست هي الحقيقة الثابتة »
« التي لاتتغير فيجب علينا ان نكون دائما متأهبين لهجر تلك »
« النظريات وتهذيبها حين يظهر انها تمثل تلك الحقيقة »

كلود برنار

ان الناس ترتعد فرائصهم ويرتعدون أمام فناء الموت المزعوم . وقد احتفظ الناس من هذه الناحية بالذعر الذى كان يعتري آباءهم أيام سكناهم المغاور في خلال الوف من الاجيال . فالعلماء والشعراء ورجال السياسة وكتاب الطرقات سواء في التشبع بالمدركات التقليدية ، يلعنون الفناء ويخافونه .

مما يوجب الدهش أن الناس على شقائهم وتعرضهم لكروب الشقاء بدة

يتجافون دائما عن النظر في الاسباب الجة التي تهوي بهـم في الضلال . والحـال انه اذا انقشع عنهم هذا الضلال حل محله هناء وصفاء من ذات المنظر الذي كان يملأهم كدراً وذعراً

نعم ان الآخذين بالديانات المسيحية واليهودية والاسلامية يعلنون أملهم في حياة سماوية، هي تتمة هذه الحياة الارضية ، ولكن عقيدتهم القطعية في ذلك لاتخلو من شكوك فطرية، فان ثقتهم في أن المولى سيتلقاهم في صدره بعد موتهم لا تتعدى أفواههم. فهم وقوف على عتبة ارواحهم، متملكهم الهلع من وشك انقطاع وجودهم المـادى . والا فكيف نفسر ذلك الشعور بالوجل والفراغ الذى يصيب الماديين والمؤمنين حيال هذا المصير النهائي على السواء ؟

لقد شغلت مسألة البقاء بعد الموت في كل زمان الخلقيين والفلاسفة فبـذلوا قصارى جهدهم في ستر إعضالها مراعاة لمصلحة الدهماء، ولكن القصد الحسن لايكفى فى كشف مساتير مافوق الطبيعة :

ان القول بالانتهاء الى العدم المحض يظهر أوضح ظهور من الثرثرة العقيمة أو الحارقة. التى تمتاز بها المؤلفات القديمة في العلوم الكونية . ولا بأس من الاعراب عن اعجابنا في هذا المقام بحمية الفلاسفة الذين اندفعوا الى تتبع هذه الغامضة بدون أن يكون لديهم أية وسيلة لحلها .

أما نحن فنستطيع بعد هذه القرون التى انقضت فى البحث والترقى فى كل مجال من مجـالات الفـكر أن نعالج موضوعا فشل فيه سابقونا كل الفشل. فالعالم الذى كان موصدا أحكم ايصاد على عهد آبائنا الاولين قد انفتحت اليه عـدة كوى (نوافـذ) أخـذ يتسرب الينـا منها النور . فاصبحنـا اليوم أكثر أمـلا منا من أى عهد كان في امكاننا عاجلا أو آجلا ادراك الاسرار التي كانت تعتبر فوق متناول العقول .

١ — (استكشاف مزدوج لمصلحة الروح)

صار من المسموح لنا قبل كل شيء الادلاء بحجج جمة لاثبات الحياة بعد الموت،

هي ثمرة المشاهدات العلمية تقرب من أصول كثيرة للايمان الوجداني . وهذا يوجب علينا ان نكون متسامحين حيال أصحاب الايمان وأن نحترم براهينهم أو عجزهم عن البراهين . فان تشككنا يجعل من الجنايات محاولتنا حرمان السعداء الراجين من عقيدتهم العالية، في الحين الذي يميل فيه العلم الى تحقيق بعض الافتراضات في البقاء بعد الموت .

وما أصدق ما قاله أراغو من ان الطبيعيين الذين يأبون أن يسلموا بغير المشاهدات التي يعرفون لها تفسيرا يضرون بتقدم العلوم أكثر مما يضره به الرجال الذين يؤخذ عليهم التهافت على تصديق كل ما يسمعون.

ومن الخطر العظيم أن يسلك الانسان هذا المسلك حيال الحياة التي هي بعد الحياة الارضية لان الادلة على صحتها آخذة في الازدياد في نظر العقول المنصفة التي تتطور مستقلة عن العقائد المقررة والمذاهب الدينية.

فلنقر عينا بخلاصنا من ضلالتين رئيسيتين كانتا تصدان من سبيل كل تقدم في هذا المجال، فلسنا الآن تحت سطوة النظرية النفسية المؤسسة على الفزيولوجيا، وقد تحررنا كذلك من ربقة المذهب الآلي .

فعلى مقتضى النظرية الاولى كل ظاهرة روحية يجب أن تتألف عناصرها من علل فزيولوجية، وعلى موجب النظرية الثانية أعضاؤنا هي المحور الوحيد الذي تتطور حواليه وتتعلق به حالاتنا العقلية والشعورية . ولكن العقل الباطن قد دخل الآن دخول المنتصر الى المجال البسيكولوجي (أي النفساني) (١) وأصبح من المقرر أن ما يصل الينا من طريق ذلك العقل الباطن ارفع كثيرا مما يصل الينا من طريق المخ وقد تنجم ظواهر عديدة

(١) العقل الباطن الذي يسمونه *Subconscience* هو ما شوهد في اثناء النوم المغناطيسي والانتقال النومي من ان للانسان وراء عقله العادي عقلا أرقى ثبت انه هو المصرف لجميع آلاته، والحافظ لكل مدركاته، يدرك ويشعر من ذاته مستقلا عن الحواس وليس عقلنا العادي الا مظهرا من مظاهره .

وتنمو فيا دون شعورنا بدون أن يكون لها علاقة ما بالاعمال الآلية لحفظنا وادراكنا .
وقد سمحت لنا المشاهدات الجراحية في الحرب الكبرى بترقيات غير منتظرة من هذه الناحية.

نعم ان الامر كما أكده الدكتور(منيار) في التاريخ السنوى للطب النفساني لسنة (١٩١٨) بانه لم يشاهد قط زوال اوضعف اواضطراب خاص لاحدى الوظائف العقلية تابع لاصابة خاصة لجزء من أجزاء المخ، حتي انه لم يعد من الممكن تعيين عضو محدود يكون مركزاً للنفس كالفصوص الجبهية مثلا.

ويمكننا ان ننوه باسم اثني عشر عالما وصلوا الى هذه النتائج عينها بعد درسهم لهذه المسئلة ؛ نذكر من بين هذه الاعمال الابحاث التركيبية(٢) التى قام بها (شيرنجتون) و (موناكوو) مما يؤيد هذه المشاهدات ؛ والدكتور(ترود) بعد أن قام ببحث العلاقة الموجودة بين المخ والفكر سرد عددا من المشاهدات التي حصل عليها بعد درسه لجروح المخ فظهر له انها منطبقة على المقررات المذكورة آنفا. من بين هذه التجارب ما دل على أن بتر جزء عظيم من المخ لم تكن نتيجته تقليل صفات الشخصية. وقد شاهد الدكتور (رافيجو) جريحين شفيا بعد ان اخترقت القذيفة مخيهما من طرف الي طرف.

وذكر الدكتور(لوفور) انه استخرج قطعة من المخ الباطني المجاوز للزاوية اليسري المسماة (بوتتاسيرا يللو) فبعد أن اصيب المريض بالعمى والصمم والشلل النصفي مرتين شفي ولم يحفظ من مخلفات جراحه الا اضطرابات لا تذكر .

وقدم الدكتوران(بيللو)(وكونو) الى المجمع الجراحي في سنة ١٩١٥ أربعة وعشرين حالة مدهشة جميعها يؤيد حقية هذا الموضوع أى افلاس تينك النظريتين الرسميتين حتي في المجال التشريحي الباتولوجي (الباتولوجيا علم الامراض) فخرج المذهب القائل بتركز

---

(٢) يريد بالابحاث التركيبية ما يقابل الأبحاث التحليلية . فالمجرب لا تصح تجربته الا بهذين الركنين. فان استطاع أن يحلل جسما الى عناصره وأن يؤلفه ثانية منها كان ذلك دليلا قاطعا على انه عرف العناصر المؤلفة له معرفة تجريبية.

الشخصية في المخ مصابا بضربة قاضية .

٢ـ (استقلال الروح عن الجسد)

على هذا النحو يصل الانسان بنظام الى تحديد جديد لوظيفة المخ ولسلطانه التام فى الحياة النفسية . نعم أنه من الصعب انكار حدوث تغيرات مخية عقب تغيرات تطرأ على حياتنا النفسية . ولكن من المستحيل مع هذا الاقرار على المذهب المطلق القديم الذى مؤداه ارتباط النفس بالمخ منذ ظهر لنا أن الاصابات المخية الخطيرة تكاد تدع ظواهر الشخصية سليمة حتى فيم يختص بالذاكرة . والذاكرة كما لا يخفى هي الخاصة الاصلية المميزة للشخصية. ومن هنا تتراءى لنا صحة النتائج المطمئنة التي يمكن ان تستنتج فى مصلحة القول ببقاء النفس بعد الموت . ذلك لانه يجب التسليم بنتيجة رئيسية وهى : أنه اذا كان المخ يحصر شخصيتنا النفسية . فان هذه تزول بزواله . واكن اذا كان المخ لا يظهر فى الواقع الا جزءا من وجداننا أو من حياتنا النفسية فانهما يكونان غير تابعين لسلطانه . فاذا عرفنا ان النفس تكاد تكون مستقلة عن المخ عرفنا تبعا لذلك ان الحياة النفسية تستطيع حفظ وظيفتها والتمتع بالبقاء بعد الموت على صورة أخرى مادام العضو الرئيسي الذي ظنوها متعلقة به مدة قرون أخذ يهوى عن عرش سلطانه ، وما دام قد ظهر استقلال وجداننا أو بعبارة افضل استقلال روحنا عن سلطان الجسم ، والبراهين العلمية والمادية على ذلك آخذة فى الزيادة كل يوم ، فانه لا يلبث ان تقرن فنائها النهائى بفناء غلافها الجثمانى .

العلم الجديد الذى يؤتينا بهذه المقررات المعزية والتى لاتقبل الدحض لايزال في بداءاته ، ولكنه لنشوته بهذه اللآلآء والرسوخ يسمح بتحقيق آمال لاعظيمة في مستقبل قريب . فقد انفتحت أمامنا مملكة عظيمة من ظواهر جديدة ظواهر بلغت من الكثرة والتنوع حدا من الجلالة بحث يحق لنا أن نأمل الحصول من ورائها على فتوحات لاتخطر ببال .

٣ — (الواقع وقوة العقل الباطن)

يرجح ان اكثر الظواهر الاسبريتية (الخاصة بتحضير الارواح) يمكن تفسيرها بفعل العقل الباطن للوسيط . فان تجارب حديثة تفتح امامنا من هـذه الوجهة باحات عجيبه ، لنذكر منها التحقيقات التي عملها الدكتور (كروفرد) أستاذ الميكانيكا بالمجمع العلمى الصناعى لمدينة (بلفور) .

هذا العالم الطبيعي الذى هو أجدر أن يعتبر خصما للعلوم الباطنية لا مشايعا لها يسلم بوجود قوة نفسية حالة فينا تحدث آثارا لا يمكن الشك فيها على الاشياء المادية . واليك حجة من حججه البينة قال :

لنضع وسيطا في أثناء جلسة تجربة روحية على ميزان فترى انه عندما يزايل الخوان (الترابيزة) الارض تحدث زيادة في وزن جسم ذلك الوسيط ويكون الفرق بين وزنه قبل التجربة وفى أثنائها مساويا لوزن ذلك الخوان .

فاذا بقى الخوان معلقا فى الهواء ، وهو الامر الذى ينسب عادة للفعل المباشر للأرواح ، فان الميزان يستمر دالا على تلك الزيادة عينها .

فماذا يستنتج من ذلك ؟

يستنتج منه انه بما ان الوسيط هو الذى يحمل الثقـل فيكون هو نفسه سببا مباشرا لارتفاع الخوان في الهواء . وذلك بأن يكون عقله الباطن هو الذى أحدث هذه الظواهر على غير شعور منه بحيث انه لا يستطيع احداثها وهو في حالته العادية .

وفي رأى الدكتور (كروفورد) ان الوسيط يشع منه نوع من قضيب روحاني ، ولكن اذا كان قد أمكننا أن نحقق أمر زيادة ثقله فمن المستحيل علينا أن نشاهد وجود القضيب المذكور .

أما آثار العقل الباطن باعتباره قوة روحية سواء أكان له أم لم يكن له ذلك القضيب المتوسط

فقد ثبت بغاية الوضوح الآن .

والتنويم المناطيسي الذي يجب أن يشغل مكانا عاليا من علم النفس لاسباب كثيرة،والذي أخطأوا في اعتباره فرعا من العلوم الباطنية يعطينا في هذا الموضوع تفسيرات لا تحتمل الشك فيما يختص بحقيقة وجود العقل الباطن والقوى التي تحت دائرة الشعور العادي

نعم أنه لا يفسر لنا كنه هذه القوي المجهولة، ولكن ماهو العلم الذي يكشف كنه قوة من القوي المولدة للظواهر الطبيعية ؟ فنحن نشهد في هذا الموطن مانشهده في كل موطن، وهومظهر خارجي لقوى خفية. فالذي يهم الباحث هوالتحقق من وجود تلك القوى في الواقع، أما معرفة الكنه الحقيقي لتلك القوى فسيطول انتظارنا لها وستضطرنا الى الالجأ الى الافتراضات، وهذا عينه ما يحصل في مجال أدق العلوم الطبيعية.

فنرجع الى كلمة (ليبنز) الشهير وهي : لنحذر من اعتبار قشور الالفاظ لبابا للاشياء.

في التجارب الجمة التي عملتها بمساعدة المأسوف عليه الاستاذ (الفريد بينيه) و (او كورو يكز) أمكنني دائما أن اشاهد وجود العقل الباطن الذي كان بأعماله العجيبة والمعقدة يؤتينا بتفسيرات اكثر المعجزات التي رويت لنا عن القرون السابقة .

وعليه فجميع سلسلة الحوادث الخارقة للعادة يمكن أن يأتي مثلها ذلك العقل الباطن اذ تخلص من الطبقات العميقة لانيتنا (أي ذاتنا): كالتعلم من بعد، وتنفيذ الاوامر التي تصدر اليه بغير طريق المشاعر المباشر أي بواسطة التأثير النفساني ،ومعرفة المغيبات، واعطاء معلومات عن أشياء ، والتكلم بلغات يجهلها الوسيط في حالته العادية ،وزيادة مقاومته الطبيعية وقواه المادية ، وفقد جسمه للحس بالآلام ، وتأثر جسمه بآثار التلقين كتوليد بثور او دمامل به ، وحوادث أخرى متنوعه يستحيل الحصول عليها والانسان في حالته العادية.

٤ — (تلاقي العقل والايمان)

في بداءة هذه التجارب كانت الكلمات المكاربة لباسكال عن الصمت الابدي للعوالم غير المتناهية ترن في أذني . ولكن كان تجددهذا المظهر واستمراره على الاتساع أمام عقلي المدهش من لا لأنه قد فتح لي باب الرجاء لادراكه ، بل لفهم هذا الحلم السامي .

واني ليجب على ان اعترف بتواضع بأني اثمت مرة سيدة خضعت لتجاربي عن طيب نفس فلم أستطع أن أعيدها الى اليقظة الا بعد بذل جهد عظيم اكثر من ساعة فعاهدت نفسي ان لا أنيم بعدها انسانا الا وهو في حالة تنبه وقد وفيت بهذا العهد .

ومع هذا فقد وجدت في هذه المجالات المحدودة كثيرا من الادلة على وجود العقل الباطن الذى يعمل بمعزل عن الدائرة الفزيولوجية للمخ بل كثيرا ما يعمل ضدها .

القوانين الفزيولوجية المعروفة لا يمكن أن تنفق وعمل العقل الباطن،فهل هومقر الروح التي احس الناس بوجودها منذقرون في كل صقع من أصقاع الارض ؟

ان العالم والرجل الساذج يقران بصحة وجود المادة على السواء بسبب آثارها وتفاعلاتها ، أو ليس الامر كذلك بالنسبة للعقل الباطن ؟ اننا مع عدم امكان وزنه ولا مسه على صوره مادية نرى قواه العاملة ظاهرة بمظاهر شتي . وكأنه ينبوع الفرح والترح فهو كذلك القوة البانية والهادمة في الجسم . وهي يخفى كنهه على نحو ما تخفى جميع قوى الطبيعة ومع ذلك فلا شيء يمنع من الاعتقاد بوجودها في الخارج .

ان حواسنا دائمة الانخداع للمظاهر ، وانه لينتج من ضلالها في الحكم متناقضات واضحة للوجود الذى انجحت العلوم الطبيعية في استكشاف بعض جوانبه . فليس بمسموح لنا والحالة هذه أن ننكر نوعا أو ظواهر تناقض ما نشهده بحواسنا ومشاعرنا .

على أن العقل الباطن يتجلى لنا أيضاً بمظاهر تدل عليه من وجه آخر .فلا يمكن الشك في وجوده كما لا يمكن الشك في الظواهر الكثيرة التي هو ينبوعها ومجالها معاً . وبما كانت هذه الظواهر تمتد الى ابعد ما يحيط به النظر فيكون مما يناقض العلم التحكم في تضييق دائرتها. ولا يمكن التسليم اليوم بالاصل المادي الاكبر الذي يقضي بانكار وجود الروح بحجة عدم ادراكنا أي خاصة بدون المادة، كالحرارة لا يمكن أن توجد بدون جسم حار، ولا الكهرباء بدون جسم كهربائي، فان العقل الباطن يلفت نظرنا اليه على الدوام بمظاهره التي لا تنتهي الى غاية، ولا يمكن تحديدها بحد. وبما أن عددا عظيما من الظواهر التي اجمع الباحثون في تدوينها تتفق والخصائص التي تعزى الى الروح في رأي الذين يعتقدون بها بالفطرة أو بالهداية المجلى او بتأثير الايمان فليس من العقل ان لا نعتبر تلك المظاهر المسجلة شيئاً مذكوراً .

وبناء على هذا فان علم النفس المستخرج من الفزيولوجيا بدون أن يعنى بما يقتضيه الايمان، وبحاجة الناس من الوجهة الادبية، قد انتهى به الامر منذ الآن الى اعارة امانيهم الروحانية قواعد علمية .

فهذا التلاقي غير المنتظر بين العقل والايمان سيكون ثمرته ارتفاع قيمتهما وحدوث التسامح بينهما

ان خلود شخصيتنا تتجلى لنا اليوم في مجالي كثيرة ولكنا تحت تأثير التشاؤم الملازم لافكارنا نحول وجوهنا عنها عن قلة ثقة ان لم نقل عن شيء من الكراهة . الا ان الواقع هو أن الجرثومة البروتوبلاسمية قد انتقلت من حي الى حي منذ أجيال . وقد ثبت أن كل وجود شخصي مهما كان حقيراً يترك بعد زواله عناصر خالدة ادبية ومادية ،

ولجسمنا نوع من الخلود حيوي فيزيولوجي كما حاولت التدليل على ذلك في غير هذا الموطن ويخطيء المتدينون في احتقارهم هذا الجسم لانه كالروح مستمد وجوده من الفكر الالهي او من الاصل الابدي للموجودات ولكن مما لا مشاحة فيه ان الوجوه الاخرى من الخلود تفوق وتحتقر الدرجة القصوى امام الايماني

التي يسمح لنابها استكشافنا العقل الباطن وهو اليوم يوشك ان يعتبر مقراً للروح

اعتاد الانسان أن لا يعتقد بصحة الوجود الا للآراء التي يمكننا ان يستنبط منها فوائد مباشرة . والعقل الباطن يهبنا وسائل عجيبة أصلية لاصلاح صحتنا الجسمانية والنفسانية وهي تؤدى لنا في سبيل تحقيق سعادتنا مالا تؤديه الجهود العقيمة التي نبذلها فى حياتنا اليومية . فان الانتفاع المعقول بالقوة المستحكمة فى العقل الباطن تستطيع على مر الايام أن تقلب حياتنا الشخصية والاجتماعية من طور الى طور آخر .

٥ـ(في مملكة العقل الباطن)

الرجل العامي يجهل أن المعلومات التي يعتبرها ادق شيء ليست في الواقع الامدركات ضالة لمشاعرنا وعقولنا . فنحن لانعلم الا بالظاهر الخادع للاشياء اما حقيقتها اى الحوادث على ماهى عليه في الواقع فتتعالى عن مداركنا .

ان الجهود التي بذلها الانسان للوصول الى ادراك الواقع أو الى معرفة أصول الكائنات ومصائرها كانت وستكون عقيمة . وهذا هو الذى قرره (كانت) بأسلوب جلى في كتابه (نقد العقل المحض) وقد اثبتت العلوم الحاضرة صحة شكوكه وهي تلك العلوم التي تقدمت فى دراسة علاقاتنا مع العالم الخارجي دراسة تزداد كل يوم تعمقاً وتوسعاً ولكنها لم تستطع ان تستكشف شيأ يتعلق بالواقع المبحوث عنه بشغف عظيم منذ النشأة الاولى لعلم الميتافيزيكا (علم ادراك العلل الاولية للوجود)

فالفلسفة والعلم وقد أدركهما الاعياء اصبحتا ينبعثان فى اللاأدرية المطلقة . وقد سلما باستحالة تخطي دائرة العلاقات الخارجية بين الناس والاشياء والقوى الطبيعية وحرما على نفسيهما كل استطلاع فيما وراء هذه الحدود وجاء اجوست كونت بمذهبه الوضعي فجعل هذا العجز المزمن عن الادراك قانونا محتوما ولكن البرغسونية مذهب

الفيلسوف المعاصر لنا (برغسون الفرنسي) استحقت الثناء بمقاومتها هذا التشاؤم المتطرف فان نقدها الدقيق للاساليب العقيمة التى يتبعها العقل عند مايشرع في دارسة الحياة ذاتها ومقابلة ذلك النقد بتمجيد قوى الوجدان وخصائصه قد سمح لنا بتوقع مجيء الزمن الذى نستطيع فيه ان نتقدم في طريق ادراك ذلك المجهول (يريد بالوجدان القوة التى بها يدرك الانسان بدون تدخل العقل العادي بأساليبه المنتزعة من العالم المادى)

البرغسونية المذكورة تؤكد لنا وجود خلاف اصلى بين العلم المادى، وهو المجال الخاص بالعقل، وبين ظواهر الحياة والوجدان التي لايمكن فهمها لا بقوة البديهة . فالعقل الذى يمتد سلطانه في العالم الطبيعي لا يصلح الا لتوليد آراء مادية ، ولكن الحياة والوجدان تتطلب ادوات اخرى للبحث عنها وماقصور العقل التأملي الذى قال به (كانت) الا حكما بقصور ادراكنا في الواقع فالوجدان وحده يستطيع الاتصال بحقائق الاشياء

ان نقد اساليب الادراك يثبت قبل كل شيء بأنه يخضع لضرورات العمل ويأخذ عنه عوائد وصفات محدودة لاننا لا نفكر الا لنعمل وهو لكونه مخلوقا للاشتغال بالمادة الجامدة يفشل اذا أراد بسط سلطانه على حوادث الحياة والوجدان ، لانه يستخدم فيها الوسائل والادوات التى اعتاد استخدامها في العالم الآلي. ان هندستنا ومنطقنا لايمكن ان يطبقا الا على المادة، والادراك اذا حاول فهم الحياة التى هى خلق مستمر، وتحول ونماء لاحد لها يعرض للناظر بين جميع ضروب قصوره بسهولة تامة. وان تحليلنا لا يدرك الشيء الذى لا يقبل الانقسام كما لايدرك فكرنا الهندسي الحياة السارية والطفرة الحيوية وقد بقي لنا الحس حقا قوة الغريزة وهي ليست متولدة من الادراك ، ولا هى وظيفة خفية ودنيئة ولكنها علم مناقض للعلم المستمد من الادراك المباشر وليست في حاجة لبذل جهود للحصول على العلم منه.

فلاجل تذليل الصعوبات التى رآها (كانت) واجتياز دائرة الادراك الخاص من اسر الرسوم التي يحبسنا فيها ينبغي علينا الانماء وتوسيع اختصاص الوجدان، ذلك الوجدان

التي ضمر ناها وضحيناها في سبيل ذلك الادراك .

فالعالم سيستمر على استخدام الادراك ، ولكن الفلسفة ستعاود التعويل على العقل لترتج من آفاق الوجدان الانساني والاصول الحية التي يصدر هو منها . بالجرى على هذه السنة سنفوز باسقاط الحوائل التي منعتنا الي اليوم من الوصول الي سر العقل الباطن .

بهذا الاسلوب سنتمكن من اقامة الجسر المبحوث عنه الذي سيوصلنا على مر الايام الى المجهول السامي،وذلك بتشييده على الظواهر التي لايمكن الشك فيها،اى ظواهر العقل الباطن .

٦ـ (التوفيق بين الادراك والوجدان)

مع ماتقدم لايجوز اعتبار نقد القوة المدركة علي اطلاقه ، لاننا بترك التحليل والهجة العادية نصل الي الاطلاق المطلق من العلم والفلسفة . فان الحقيقة التي يحصلها لنا مذهب عدم الاعتداد بالادراك تصبح باطنية غير قابلة للتمحيص ولاالنقد، فترجع بذلك الى الحاد متطرف يثور على جميع فتوحات الفكر باعتبارها ناتجة من الجرى على اسلوب ما ، ومن شروح مشوبة بالضلال .

فماذا يبقى لنا بعد هذا الادراك من الاسلحة لاستقصاء البحث في الوجود وحوادثه ؟

وقد لاحظ بحق (هنرى بوانكارية) في كتابه (قيمة العلم) ان العالم الزلوجي (الزلوجيا علم الحيوانات) اذا شرّح حيوانا افسده ، وحكم على نفسه بعدم الالمام به في جملته ، ولكنه باهماله تشريحه يحكم على نفسه بعدم الالمام بشيء فيه .

ففضل مذهب (برغسون) يرجع الى مساعدته في اعادة سلطان قوة كانت مضيعة ومهجورة، فيجب اعتبار حق الوجدان واسناد بعض المباحث المقاومة التي اشتبهت منه

الادارك . ولكنا مع تقدنا لحكم الادراك لايجوز لناان ننسى بأننا في حاجة الى مساعدته لاجل تمحيص عمل العقل الباطن والوجدان

اما العلم فانه بحالة لايستطيع معها ان يتحرر من سلطان الادراك الا اذا جازف بتعرضه للعدم . ولقد تنازع الناس بيئة في قيمة كل من الادراك والوجدان. ولكن من الخطر محاولة جهل مزاياهم التي تمت والتي هي على وشك التمام .

ومما لاشك فيه أن اوثق النظم العلمية كعلم الطبيعة الرياضية التي تجتاز اليوم دورا من ادوار الانتقال ، تعد انصار الوجدان بأسلحة قوية .

والكوسموغونيا الجديدة للعالم انيشتين (الكوسموغونيا علم وصف تركيب العالم) تهدم في نظر كثيرين من المفكرين مدركاتنا الاصلية عن الزمان والمكان ولقد اصبحت اصول كارنو ونيوتن ونسبية لافوازييه ونظرية مابر في حفظ القوة كلها هدفا للطعن في اتجاهات مختلفة ، فتركت بين يدي تقدتها ماكان لها من حظوظ ضئيلة من قوة البقاء، وما يضرنا من ذلك ونحن بدفننا النواميس العتيقة ، التي يمتاز بها الدور الثاني لعلم الطبيعة التجريبي ، يدخل هذا العلم في دور جديد من الانتقال يثبت به مرة اخرى مرونته او قوته وهو يتقدم للوصول الي الحقيقة؟

والرياضيون انفسهم يعتمدون اليوم على الوجدان . لانه يكمل تحليلاتهم ويعتبر ضروريا لتعليم الفروع الرياضية كما هو ضروري للعلماء المؤسسين للمذاهب العلمية وفي رأى النابغة مؤلف كتاب (حساب المرجحات) أن الوجدان مع مساعدته الادراك قد يخدع انصاره كما يخدعهم العقل نفسه .

ومع هذا فان النواميس الطبيعية الكيماوية الصارمة التي تكاد تعتبر نهائية والتي تناسب في الجلالة مضوعها المحير للالباب تكفي لتقرير قيمة العقل في المباحث ولا تزال منزلة ممتازة بجانب الوجدان

ومجرد الذوق السليم وهو افصح الاساليب العقلية يرى وجوب اعتبار الوجدان والعقل معا في المباحث

والفكر في هذا الامر وهو : ان عقلنا لاشيء غير مجتمع من خلايا مادية ينحصر

فيها عقلنا ، واذا شئت فقل روحنا وشعورنا وتفكرنا وجميع جهودنا ومحاولاتنا. فالجرح الذي يصيب المخ يؤثر جد التأثير في محتوياته مباشرة . ومسألة استقلال أحدهما عن الآخر أو تعلقه به لاتزال محلا النزاع . من هنا يظهر المخ مظهر عضو العقل. ولا يلزم من ذلك ان العقل ليس له وسائل أخرى الظهور بها . ولا يمكن أن يستنتج من ذلك ان المخ هو المحتكر لخاصة إشعاع و إعمال كل الخصائص العقلية . فان هذا الزعم في جوده يناقض المنطق والمشاهدة معاً . ويمكن أن يقال فوق هذا : ان المخ ليس الامادة ، والمادة ليس من خواصها هداية نفسها ولا العلم بالشيء قبل حدوثه ولا العمل على موجب تدبير أو غرض أختير من قبل . فالذي يعطي المخ هذا كله هو العقل وهو يدل بهذا على انه شيء زائد عن المخ الذي أداته في ظهوره.

نحن لانبصر الضوء الا بالعين ولكن لنفرض ان عددا عظيما من الناس كف بصرهم فجأة فهؤلاء لايبصرونه قط . فهل يلزم من ذلك أن يعدم النور نفسه ؟

كذلك ليس من حق أحد أن يؤكد بأن الخصائص العقلية تبطل أو لاتصير حقيقية اذا زال المخ.

وعليه فوهن أساس القول بكفاية الادراك وحده أو الوجدان وحده يتضح بأقل نظرة من نظرات العقل الخالص عن المسلمات التي لا تستند الى تجربة .

فلنتنزه عن التعصب حتى للحقائق المقررة لان ذلك هو الشرط الوحيد لولوج العالم المجهول وكشف أسراره .

٧ — (العهد الكريم للوجدان)

العالم مصاب بكراهة كل جديد ، وهذه الكراهة الفطرية تخطيء في حلمها أمام غلبة الوجدان أو العقل الباطن ، لان هذا الامر لايعدو في جملته عودة أصل تراثي

الناس منذ أقدم العهود الانسانية . وهذا العقل الباطن نفسه قد عمل على تقويم النوع البشرى دائما وفي كل مكان . ولكنه بعد أن كان عمله فطريا في الانسان أصبح اليوم علميا وفلسفيا. وقد شوهد حتى وهو على تلك الحالة الفطرية يعمل لدى الفيلسوف سقراط وقد اعتبر رتبته فوق رتبة العقل . فقد قال في تقريظ افلاطون :

« ان الشعراء والعلماء ملهمون لامن العقل ولكن من انفعال قد يشبه انفعال المتنبئة ويحملهم على أن يقولوا أشياء لايفهمون منها شيئا » .

وثبت القول بالوجدان عند الافلاطونيين الجدد وكان روسو بكبر من شأنها وكان يقول ان الفطرة كانت هي المتسلطة على الناس في عهد كالحلم الاول وقد فسد هذا العهد باخضاع العاطفة للادراك . وعنده ان الدور الثالث من ادوار الانسانية سيقوم باعادة اخضاع الادراك للعاطفة التي سميت بعد سقوطها قلبا لافطرة .

وفي القرن التاسع عشر عقب حدوث رد الفعل ضد المذهب العقلي رجع فلاسفة كثيرون الى الاعتداد بالفطرة أو العقل الباطن ومنهم شوبنهور وتلاميذه.

ولكن كل اطلاق يؤدى الى نتائج سيئة . فان تسلط الفطرة وحدها على الناس في الازمان السابقة أفضى بهم الى البربرية، والى الجمود عن كل ترق، كما أن تسلط الادراك عليهم وحده ادى الى الافلاس العقلي نفسه . فظهور الحقيقة يستدعى قبل كل شيء اعتداد أحدهما بالآخر هذا هو ينبوع الوحي الجديد في تحسين الوجود الانساني المظلم تحسينا بعيد المدى .

فنحن بفتحنا العالم الاخروى الذي ظل دائما موصدا أمام الادراك سنوجد أسبابا لاتنضب تبعثنا لمذهب عال من طلب التكمل. هذا المذهب سيقلب مدركاتنا المتطرفة في المادية ويوجد لنا آفاقا لم نحلم بها ولا تنتهي الى حد من الغبطة والكمال المعنوى.

فاذا كان قد صعب علينا ان نعرج الى السماء فسيكون في امكاننا أن نوجد تلك السماء على الارض .

والحوادث التي لا يحصى لها عدد والتي تتسامى عن الخضوع لنشاطنا العقلي والعضوي مما توجد لنا عالماً جديداً مستقلا استقلالا لا ينازعه فيه شيء. وهذا العالم سيبقى مستقلا عن مخنا وعن مجموعنا العصبي.

وهناك براهين لا تعارض تضطرنا للتسليم بوجود قوة أو قوى مجهولة مستقرها فينا نحن نغفلسميها شعورا أو روحا، فالذي يهمنا انها سواء أكانت هذه او تلك فانها لن تزول بعد موت أعضائنا ومخنا.

ما اكثر ما نجد أدلة من نوع آخر لاثبات هذه القضية. فالعلوم المسماة بالباطنية تؤتينا بألوف مؤلفة من الشهادات غير المباشرة في مصلحة هذه النظرية. وما أساء سمعة هذه العلوم الا الذين يحشرونها بدون مراقبات دقيقة ومخففة، حتى أن أرزن العقول لتدين المشاهدات ضالة ومخالفة لكل أسلوب علمي. ومع هذا فانه فيما يلي رغماً من وجود تجارب باطنية ناقصة وتحقيقات لا يوثق بها، سنبرهن على انه يمكن اقامة الدليل العلمي على البقاء بعد الموت مع تركنا الآن البحث في معرفة حالات ذلك البقاء.

٨ـ (أخطاء الاسبرتسم وغيره)

(من المذاهب الباطنية)

الناس عادة اكثر تعويلا على الضلالات الظاهرة منهم على لُمَع الحقيقة التى يتعذر عليهم ادراكها.

فلاسبرتسم والتيوسوفيا(١) ذانك المذهبان المعدان لان يؤديا أكبر خدمة

---

(١) التيوسوفيا كلمة مركبة من كلمتين يونانيتين (تيو) اى الاله (وسوفيا) أي الحكمة ومعناها معا الحكمة الالهية وهو علم وضع على مذهب مختار من الفلسفة والعلم مستمد من الحكمة الهندية القديمة يشبه الصوفية في اعتماده علي تطهير النفس وعاش العلم في فتوحاته الكونية (المعرب)

في حواسة العالم الاخروى هيا نفساهيا كما أشد من سواها في تسوى، عممة للباحث التي سبق تحققنا فيه . وماذا يقال في الفروع الباطنية الاخرى مما هي أقل منها قيمةالتى تبدأ من قراءة الكف وتنتهي بالتنجيم أو كشف الغيب من خلال الكريات البلورية، فلقد شوهت المباحث الروحية المتبعة بعناية وحوأت من سمعتها .

لنأخذ مثالا على ذلك من الفوتوغرافية الاسبريتية فان اشياعها بتشبثهم بقرنها بظهور الموتى للاحياء جعلوا الامرين محلا للنزاع على السواء .

فرجل من مدينة بوسترن يدعى (مولر) صناعتــه الحفر ويشتغل بالفوتوغرافيا في ساعات فراغه ، رأى ذات يوم وهو يعمل لتثبيت الصورة على الزجاجة الحساسة رأسا ظاهرة بجانب الصورة وبعد عدة أيام رأى مثل ذلك فتأثر منه غاية التأثر ولكنه عرف أخيراً ان ذلك ناشيء من نقص تنظيف المرآة فبقي عليها اثر صورة انطبعت فيها من قبل. فلما ادراك ان الاتفاق قد وضع بين يديه كنزا يستغله أصبح اماما للفوتوغرافيا الاسبريتية حصل من ورائها ثروة طائلة ووجد له مقلدون عديدون. ولقد بلغ من رواج التجارة الاسبريتية أن اعلن في سنة ١٨٧٤ عن قرب صدور طبعة جديدة للكتاب المقدس مصحوبة بصور حقيقية لابراهيم وموسى وداود والملك سليمان وبعض رجالات الاناجيل

وبعض مصورى الممالك الاخرى كرهوا ان يسبقهم مصورو الولايات المتحدة الامريكية فأخذوا مثلهم عجائب من هذا النوع .

وقد رأت المحاكم ضرورة وضع حد لتهافت الارواح على طلب تصويرها بمعاقبة أولئك المصورين المهرة الذين يتجرون بتصوير سكان العالم الاخروى فالقتهم في غيابة السجون عدة سنين .

وقد عجز المحتفون عن اقناع الناس بامكان تنطية الصور السالبة بأى مظهر يريده المصور الماهر من طريق التدليس، فاستمر التصوير الروحي متابعا سيره في التضليل.

ونحن هنا مع عدم ارادتنا انكاره قل حالة مطلقة، التصوير الروحي الذي يوجد بين القائلين به رجال لهم حظ من سعة العقل ومكان لا نزاع فيه من طهارة النفس فلا نمالك أنفسنا من الاسف من الخفة التي يقبل بها بعضهم حوادث مشكوكا فيها في غالب الاحوال .

لنضرب مثلا آخر : وهو كشف الامور من خلال الكريات البلورية ، التي اصبح يقول به عدد عظيم من الناس ليس في المملكة الانجلوساكسونية وحدها ولكن في فرنسا وفي غيرها أيضاً . وقد أتى على هذا الامر حين من الدهر كانت آثاره فيه تشبه مرضا معديا في قوة الانتشار وكيفية عمله أن ينظر في منشور بلوري فلا يمضي طويل زمن حتى يرى الناظر فيه مرائي ليست بشيء غير ما يشتغل به عقله في الاحوال العادية . وقوة ظهور تلك المرئيات يتبع شدة قبول الناظر للتأثر من جهة وصفات المنشور البلوري من جهة أخرى .

فكان المنشور البلوري الذي ملكه موريسون صاحب تقويم (زادكيئل) شهرة طبقت العالم كله في سنة ١٨٦٣ فكان يرى فيه الناظرون آدم جالسا(حواء) والملك ارثور وخوانه المستدير والانبياء والقديسين المشهورين في جميع الكنائس حتى انه قد رؤي فيه يهوذا الاسخريوطي . والتقويم الذي كان يحمل انباء هذه المناظر التي تقلمها هذه البلورة المشهورة ذكر عن هذا المنظر الاخير ما يأتي:

«يهوذا على غاية ما يكون من الشقاء . فقد باع المسيح وهو الآن في الجحيم ويريد أن يخرج منها بمساعدة البلورة»

فلما رفعت على موريسون المذكور قضية سرد في دفاعه عن نفسه أن من المعتقدين بصدقه أرقى رجال انجلترة عقولا مبتدئا باللورد غراهام مار البلارشيد يا كرويفسون والاسقف ليشفيلد وعقبا بالكولونل فيس واللورد اليزجيا . فقد عدت جميعهم بركات البلورة وقد نوه بالخصائص التي لا تخطر ببال الكرة البلورية التي يصدق بها جم غفير من الناس في مؤتمر العلوم النفسية الذي أقيم في شيكاغو سنة ١٨٩٠

فالجلسات الروحية والاخونة المتحركة وحوادث الجسد تعطينا أدلة جديرة بالنظر

واحياناً مرجحة عن نهاتت لاحد له فى سرعة تصديق أولئك الرجال الذين ينهمكون فى الاعمال الباطنية .

وكاتب هذه الصحف اشترك فى تجارب عديدة نشق عليه فى اكثرها تجرد المجربين من كل حاسة انتقادية وتعقلية . فكانوا يقعون فى غالب الاحوال تحت تأثير تخيلات اجماعية وبعض العلماء ممن أرادوا التعمق فى بعض المستكشفات الباطنية صار واضحايا طهارتهم القلبية لا تصافهم غالبا بسذاجة لا حد لها .

---

* (المعرب) يشحى العلامة جان فينو فى هـذا الفصل من مقالته باللوم والتثريب على المجربين الذين يتجردون من النقد الصارم فى مباحثهم ولم يبري بعض العلماء من ذلك عقلا يتبادرن الى ذهن القارىء انه يرى بذلك كل الباحثين لانه قال ان فى هذه التجارب ألوفا مؤلفة من مشاهدات محققة تجبر اعصى الناقدين قيادا على احترامها ولا يستطاع عـدم الاعتداد بها بوجه من الوجوه . بل هو نفسه واحد من الباحثين فى الامور الروحانية وقد بنى مبحثه هذا عليها ، وهو لم يسمه فتحاعليها الا بسبب كون هـذه المشاهدات اصبحت داخلة فى دائرة العلم المحض كما ستراه من كلامه الآتى .

نعم انه يعيب قوماً يتهافتون على تصديق ما يرونه بلا تمحيص ويبنون عليه تعاليم مذهبية تسىء الى هذه المباحث العملية من كل جهة وترمي بها الى عالم الظنون والخيالات .

قد يكون المسيو جان فينو متحاملا على اكثر من ينبغي ، ولكن وجود ألوف مثله من المتطرفين فى النقد والتمحيص بين المتقدين صحة الظواهر الروحية اكبر ضمان للقارئين على ان هذه المباحث اجتازت كل عقبات النقد ومرت من ادق مناخل التدقيق وحوت كل صنوف العقول فلا يكبر على القارىء ان يصادف مثل هذه العقول الشديدة المراس فى المنتقدين بهذه الفتوح الروحية فى العصر الحاضر فان وجودهم اجلى مظاهر حقيتها واكبر دليل على صحتها

٩ ـ (الاتصال الكاذب بأرواح الموتى)

يجب عدم الثقة خصوصا بالوسائل المتفق عليها للاتصال بالارواح سواء أكانت على صورة تحريك الاخونة أم بالكتابة بلا واسطة أو بواسطة ، فقد أفرط المدلسون فى استغفال المجربين . فلا بد من استخدام التبصر التام قبل كل شيء فى تحقيق هذه التجارب لمصلحة المذهب الروحاني نفسه . لان أشياعه المتناهين فى السذاجة أو المتشبعين بالحماسة كانوا فى كل زمان ومكان أقوى العوامل فى غلبة الالحاد الذهبي من أشد الماديين حية .

وانا لنلح على العلماء ذوي التأثير العظيم أمثال (كاميل فلامريون) بأن لا يحشروا الى مؤلفاتهم حوادث غير حاسمة وسهلة التعليل والتقليد . وعلى خصوم الماديين أن يكونوا من هذه الوجهة أشد شكية من خصومهم ، لان مشاهدة واحدة يقبلونها بخفة تهدم مئات من مشاهدات أخرى جديرة بالنظر .

وانه لتوجد أمثلة بينة على الخفة التى يقبل بها علماء وكتاب مشهورون ظواهر هذه المجاهيل وتعليلاتها .

فتراهم بمجرد دخولهم فى الديانة الروحانية يأخذون إخذ المتحمسين من المتمذهبين حديثا فيجافون مقتضيات الفطرة السليمة ، بل وأصول أعمالهم العقلية التي جعلت لهم الشهرة والمجد باستحقاق وجدارة . فكروكس ولومبروزو وهيزلوب وأوليفيه ولودج الخ ولا ضرورة لذكر بعض العلماء الفرنسيين من ذوي الشهرة العالمية الذين يعطوننا من هذه الناحية أمثلة مدهشة من سرعة التصديق .

فلنأخذ مثلا لذلك كاتبا مثل (كونان دويل) المعروف فى العالم أجمع بدقة النظر وبمواهبه فى الملاحظات الدقيقة وهي المواهب التي سمحت له بعمل أقاصيص بوليسية بمهارة مدهشة . فهذا الكاتب بمجرد اقتناعه بصحة بعض ظواهر التلباثيا (التأثر عن بعد) اعتقد بصحة مجموع العقائد الباطنية بخفة تستدعي الاسف الشديد . كان قراء (المجلة العالمية) قرأوا باهتمام عظيم (رسائله الحبوية) الموجهة للاعجاب التي

يوجد فيها بجانب ظواهر حقيقية للغاية مظاهر توجب الدهش والحيرة. فان تأكيداته في مسألة الجسد الأثيري للإنسان وتصويراته للعالم الاخروي لا يمكن أن تقابل الا بشيء من الاستخفاف. فهو اذا تكلم عن عالم الآخرة يخيل انه عاد منه بعد أن لبث فيه عدة سنين .

فهو قال عنه : « هو عالم كل ما فيه مادي ولطيف ، والموجود به نماذج ومؤنس ، وفيه طوائف عديدة تسكن المساكن تحظى فيها بلذات الجمال والموسيقى : ففيها حدائق غناء وانهار عذبة وغابات خضراء وبحيرات جميلة وحيوانات مستأنسة » وقال ايضا : « ليس هناك غني ولا فقير فكل منهم يخدم المجتمع بأحسن ما عنده . فهو مستقر تعمره الغبطة والضحك . ترى فيه جميع صنوف الالعاب والرياضات الجسدية . ليس فيه طعام ولا شراب . ولكن الحال هناك كما هو عندنا اذا صرف الانسان ادراكه وقواه وارادته في سبيل الخير أمكنه أن يصبح رئيسا » الخ الخ.

يقول كونان دويل هذا ويؤكد بأن البراهين قد تظاهرت على وجود هذا العالم الذي يصفه للناس

وان المتأمل ليشاهد هنا نوعا من التجسيد بلا شعور من القائلين به ، ومظهراً من مظاهر الرجعة الى العقائد التي انطبعت في النفس منذ قرون

فلودج في كتابه ريموند الذي كثر انتقاده في الايام الاخيرة ، وكتاب آخرون ممن يكتبون عن العالم الاخروي ، كلهم يكتبون متأثرين بالوراثة الدينية ، أو بالآراء السائدة في البيئة التي يعيشون فيها

فالارواح التي تأتي من العالم الاخروي تتكلم عادة بلغة الوسطاء ومن يحيط بهم وتتبع ما يحبون ، وتأكيدات ريموند من هذه الوجهة أحسن نموذج لكل هذا وقد ارتج العالم حديثا بضحك جنوني من تهييج بشعور قوي من حب الاطلاع الشديد عقب ما سمع باستكشاف اديسون ، ورغب في تحقيق أمانيه من مناجاة

الارواح (١).

ولقد حدث حادث جلل في حياة هـذا المخترع الامريكي الـكبير . وذلك انه كان قد ظهر منذ سنين شديد الشكيمة نحو الظواهر الباطنية . وفي أمريكا اليوم وسيط مشهور اسمه (برت ريز) عرف في الولايات المتحدة بمواهبـه الـكشفية . فـكان اديسون لايفتر عن الاستهزاء به بدون أن يحضر معه تجاربه على عادة العلماء المبالغين في الجمود . فلم يسع (برت ريز) الا ان حثه على أن يجرب معه مرة . فدعا الوسيط الى معمله فـكشف له هذا جميع أعماله التى لم يطلع عليها أحد وقرأ من خلال الاجسام الـكثيفة مذكراته المودعة ظروفا مخبوءة بعناية تامة .

فلم يك من اديسون الا ان وقع كما وقع قبله كثير من المتشددين في الطـرف المناقض للطرف الذى كان فيه ، فأرسل الى جريدة (نيويورك تيمس) بالاسس التى بنى عليها ايمانه الجديد ...

وهناك عالم آخر يدعي الدكتور (و . هـ . طومسون) مؤلف كتـاب (المخ والشخصية) فلما بلغه ماحدث من اديسون اخذ يسخر منه ومن الوسيط معاً فاستأذنه اديسون في أن يرسل اليه الوسيط ليجرب معه . فأعـد طومسون للتجربة طائفة من الاوراق كتبها باللغة اللاتينية والعربية والفرنسية والانجليزية ووضعها في ظروف مغلقة وخبأها في اماكن مختلفة، وكلف الوسيط بأن يقرأها ، فقرأها كلها رغما عن جهله باللغات الاجنبية ، فلم تمض غير ايام حتي اعلن طومسون دخوله في الديانة الروحانية في جريدة صانداى تيمس .

فالقراء يرون خروج هذين الرجلين العظيمين على قوانين المنطق فقد كان يكفيهما ان يقولا بصحة الظواهر الـكشفية وخصوصا قراءة الفكر وان لا يتجاوزا ذلك اذ لم يريا

(١) يشير المسيو جان فينو الى ماشاع اخيرا من ان المخترع المشهور اديسون اخترع آلة دقيقة يخاطب بها الانسان الارواح بدون وسيط . وقد نشر اديسون تكذيبا لهذه الاشاعة .

مايسمح لها بقبول المذهب الروحاني جملة .

والاداة التي استكشفها اديسون يظهر انها تناسب درجته من النقل باعتباره روحانيا متحمسا للغاية . فهي آلة مكبرة . فكل تأثير يقع عليها يكبر ويسجل . واديسون يشبه اداته هذه بقوة رجل اذا استخدم محركا قوته ٨ خيول يستطيع ان يدير آلة قوتها ٥٠٠٠٠ حصان وهو يؤيد عقيدته في خلود الجسم بالنظرية القائلة بعدم قبول المادة للتلاشي .

ونحن نشتد في بيان هذه الحوادث لنبرهن على ضرورة التبصر واحترام المنطق في هذه التجارب وهما الصفتان اللتان كثيرا مايتجرد منهما المجربون الذين هم في المجالات الاخرى يعتبرون من أكثر الناس تدقيقا . وهم فوق ذلك لايستطيعون ان يدققوا تدقيقا كافيا في امتحانهم الاحوال التي تصحب حدوث كل ظاهرة باطنية .

١٠ـ (بعض ظواهر غريبة)

ليسمح لي بايراد حادثة شخصية أثرت أعظم تأثير في صديقي العظيم (و . ت . ستيد) فقد دعيت ذات يوم لجلسة روحية عظيمة وأنا بلوندرة فرأيت تلك السهولة التي بها تتأثر جماعة مؤلفة من خمسة عشر شخصا من الاذكياء من ظاهرة ليس لها أصل ثابت في الواقع . فقد كنا مجتمعين في بهو عويرى هاوس بشارع نور فلك تطل نوافذه على نهر التاميز . فلم يمض زمن حتى ظهرت فوق رأسي أنوار غريبة . فتصاعدت في وسط الظلام والصمت الذي كنا فيه أصوات متحمسة ومتأثرة تحيي تلك الروح .

فلما رفعت عيني دهشت من ظهور هذه الانوار غير العادية مضطربة في صور من أغرب مارأيت . وقد ظهر لي أني لااستحق أن اخص بتركز هذه الاشعة فوق شخصي دون غيري وكان أولى بذلك أن تظهر فوق رأس بعض كبار الروحيين من الموجودين

فاكتفيت بملاحظة ذلك بتواضع.

ولكني على مجازفتى بتجردى من هذا الامتياز رأيت من واجبي أن أعمد الى تمحيص هذه التجربة. ولما بحثت الستائر المرخاة بدقة تامة وجدت فجوات صغيرة خلالها فاستنتجت من ذلك أن المصابيح المتألقة على شاطىء النهر يمكن أن تنعكس منها اشعة غريبة علينا. وطلبت وقف الجلسة وارخاء الستائر بأكثر عناية حتى لا يبقى فيها فرج تصلنا بالخارج.

فاذا تكررت هذه الظاهرة بعد اصلاحنا أحوال الجلسة فلا يسعنا الا الاعتراف بصحتها. ولكن وا أسفاه بزالت هذه الانوار العجيبة بعد تغييرنا تلك الاحوال.

فاذا كنا لم نحدث ذلك التغيير كان الحاضرون وأنا منهم اعتبرنا اجلالا لهذه الظاهرة الباطنية.

فيجب والحالة هذه على كل العقول النزيهة أن تمد الى كل أنواع التمحيص فى التجارب. ولكن الافراط فى الحذر لا يجوز ان يسمح قط بنكران الحوادث الباطنية جملة كافية فانه مما يناقض الاسلوب العلمي الحق ما يتصف به أكثر العلماء. والرجال الذين يتسمون بسمات الحسيين من مناقضة المنطق فى أطراحهم الحوادث الكثيرة والمعقدة للامور المجهولة فان ذلك يستوى وتطرف الروحيين الغلاة فى سرعة التصديق.

ومما لا مشاحة فيه ان حالة البقاء بعد الموت لا تزال وستبقى غير مسيئة ... طويلة ولكن الشيء الذى يهم الآن هو أن نستطيع أن نبرهن اليوم على الوجود الحقيقي للروح بأدلة اكثر مما كان لنا في الايام الماضية، وتجارب الشخصية تشككني في دوام الشخصية الانسانية على الحالة التي تعطينا اياها تجسدات الارواح. ومع ذكري جانبا ذكر تلك التجارب غير الحاسمة التي كان لي الشرف بحضورها في باريس ولوندرة وايطاليا وغيرها صحبة أشهر الرجال في عصرنا الحاضر فاني الفت نظر الباحثين النزيهين الى شكوك جهيرة عندي.

قد عقدت لشدة شغفي بالتحقق من بقاء الشخصية الانسانية فيما وراء هذا العالم

عدة عهود وثيقة بيني وبين رجال عظماء لا يعد كثير منهم الآن بين الاحياء . وكان كل واحد منهم قد تكفل بموجب تلك العهود أن يحضر ليرى أخاه المتروك وراءه وليعطيه الدليل المقنع على البقاء بعد الموت. فاذا علمنا أن الارواح تأتي بدعوة غير المهتمين بهم ممن لا يعرفونهم وهم أحياء على الارض ، فكيف يعقل أنهم يأبون الوفاء بالعهود المأخوذة عليهم في أحوال خطيرة ؟

ولكن ، وا أسفاه لم يف (سيزار لومبروز) واضع علم الجرائم المشهور ولا (دوكلو) المدير المأسوف عليه لمعهد باستور ولا (و ت . ستيد) غريق السفينة تيتانيك المشهور بما وعدوا من الحضور والافضاء الي بشهاداتهم التي أنتظرها بلهف شديد

الحالة الخاصة بالمستر ستيد تستحق أن تذكر هنا . فانه بعد أن مات ميتته الجريئة التي برهن فيها على علو نفس كان أحسن تاج لحياته اعتباره كاتبا نزيها متصفا باستقامة لا تكون الا للقديسين ، قيل أن روحه حضرت الى مكتب جوليا (المكتب الذي كان أسسه لتحضير الارواح مجانا) وطلب حضوري (ويمبلدون) ليفضي الي بأمر هام . وقد أرفق هذا الاستدعاء بشهادة عشرة ممن حضروا الجلسة . فاجبتهم معربا من دهشي كيف أن صديقي الخالد الذكرى عندي لم يحضر الى باريز ليعطيني شهادته مباشرة بدل أن يستدعيني الى البلاد الاجنبية ، وروحه أقدر على الانتقال منا عليه معشر سكان الارض . فأجابوني بانه يوجد في مكتب جوليا وسيط شهير يستطيع ان ينقل الي فكر المتوفي . فكان هذا الجواب حاملا آخر على عدم الخضوع لشروط الجلسات المتفق عليها التي لا تظهر فيها الموتي الا بواسطة وسطاء مأجورين .

يقولون اجابة على هذا أن الموتي اذا لم يأبهوا لندائنا ، ويرفضون أن يفوا بالعهود المأخوذة عليهم من هذا القبيل هنا ، فهذا يرجع الي نقص وما للمنافي ضيرهم ليس الا .

والامثلة الكثيرة التي تؤتينا بها مستندات الجمعيات والجرائد النفسية أولى بها أن تمنع عجرة العقل من أن تعتبر مقنعة . فانه رغما عن طهارة ذمة المجربين وحسا

يأخذونه من التحوطات يبقى في النفس أثر من الشك فيها . ويمكن التسليم بأننا مع الزمن سننجح في تهيئة خاصة للاتصال بالموتى تسمح لنا بالدخول بقدم ثابتة في عالم المتبيين عنا . أما الآن فان الحوادث النادرة التي تستحق الاحترام الخاص توجد غالبا مختلطة بظواهر هوائية على درجات مختلفة لم يحسن تمحيصها أو لم تمحص مطلقا غالبا .

ومن هذا القبيل أولئك الذين كانوا وهم أحياء قد أتونا بمشاهدات لاتحصى عن علاقاتهم بعالم الموتى ، فلما ماتوا لم يحضروا قط لتعليم الاحياء شيأ من شؤون العالم الاخروى ، رغما عن وعودهم الخطيرة لاتباعهم الغيورين فالشك والحالة هذه لايزال حائما حول ظهور الارواح .

وحادثة (ميرس) الشهير تستحق الذكر . فقد كان وعد أن يحضر بين خواصه ليؤتيهم بدليل أقوى على صحة ظهور الموتى للاحياء . فلم يحضر مدة طويلة، فلما حضر أخيرا بوساطة وسيط ظهر بمظهر سذاجة فكرية وشعورية آلمت الحاضرين ايلاما شديدا . وقد علمت هذه الحادثة بأن النابغين في هذا العالم قد يصيرون سذجا في العالم الاخروى، فلم يشف ذلك غليلا . لانه ان صح هذا انهدم هذا الاصل الذى مؤداه استمرار الشخصية ، وهو الامر الذي يهمنا في مسألة البقاء بعد الموت .

وقد حدث مثل ذلك فيما يختص بالاستاذ (هيزلوب) فانه بعد ان أثر في أشياع العلوم الباطنية أكبر تأثير بتجاربه على المسمريزم وأتى في مؤلفاته على شواهد جمة من ظهور الاموات للاحياء ، لم ينجح هو نفسه في الظهور للاحياء بعد موته . ومع ذلك فرفقاؤه على رأسهم لايفترون عن نشر حكايات خيالية عن ظهوراته، ولكن جمعية المباحث النفسية في الولايات المتحدة التي أسسها هيزلوب نفسه اضطرت أن لاتعتد بكل ماشاع من حوادثه الكثيرة بحجة انها مجردة عن كل أساس تمحيصي .

ومع كل هذا فان المذهب الاصلي للبقاء بعد الموت الذى يستدل على براهين مقنعة من نوع آخر لم يصبها من جراء هذا خطر ولا نقص . لان الامر لايتعلق في هذه الحالة لابصورة من صور البقاء بل بأصل البقاء ذاته ؟

(المرب) يلاحظ القراء ان المسيو جان فينو أفرط في الاستخفاف بجمهور المجربين ويحارون بين مذهبه هذا فيهم وبين قوله وقد نقلناه في العدد الماضي (العلوم الباطنية تؤتينا بألوف مؤلفة من الشهادات غير المباشرة في مصلحة هذه النظرية) وقوله فيما سيأتي في الاسطر القادمة (ان عددا لا يحصى من المشاهدات المستقاة من جميع مجالات العلوم الباطنية تميل لاثبات صحة البقاء بعد الموت) وقوله فيما سيأتي أيضا (انه لتعوزنا مجلدات عديدة لتسجيل البراهين على بقاء النفس المدونة في المجاميع الضخمة لجميات المباحث النفسية التي تأسست في كل مكان ، وفي المؤلفات الصادرة عن علماء من ذوي الشهرة العامة الخ الخ) قلنا يحار القراء في التوفيق بين مذهبه في المجربين وأقواله هذه ويتساءلون معنا اذا كان المسيو جان فينو لا يثق بالمجربين الى هذا الحد فمن أين نتت تلك الالوف التي لا تحصى من المشاهدات الممحصة التي يقول بوجودها في كل مجال من مجالات العلوم الباطنية ؟

ومن الغريب انا لاحظنا مثل هذا التناقض في مؤلفات كبار الباحثين في المذهب الروحاني الجديد وكلهم من المعتقدين به، العاملين عليه، الكافين بنشره كالمسيو جان فينو نفسه .

والذي يلوح لنا ان هؤلاء المؤلفين لشعورهم بأنهم يكتبون في موضوع قد يتهمهم قراؤهم فيه بسرعة التصديق يجدون أنفسهم محمولين على الظهور بأنهم من التشكك بالمكان الأرفع ، ومن التثبت والتوقف بحيث لا يتابعون كائنا من كان ، فلا يجدون وسيلة لاثبات ألمعيتهم احسن من النيل من دقة المجربين السابقين ، وهو اثر من آثار الضعف الذي تجد آثاره حتى في أكبر النفوس البشرية

وهذا العلامة جان فينو نفسه سيسرد عليك من تجاربه الشخصية في قيمة بحثه ما يتفق وما دونه الباحثون قبله بنحو سبعين سنة ، فما هي الميزة التي يزعم انفراده واستأهل بها ان ينال منهم الى الحد الذي يجعل قارئيه يظنون بهم الظنون ؟

يكبر على المسيو جان فينو ان لا تتى لارواح لومبروزو ودكار وستيد ، اوعدت من حضورها اليه بعد موت اجسادها ، افيريد المسيو جان فينو ان تأتيه مباشرة ، امهو

استمان بالوسطاء من تحضر ؟ أما اذا كان الامر الاول فهو مستحيل كما لا يخفى، واذا كان الثاني فالسبب فيه نقص وسائله في استحضارها . اللهم الا أن يقول بأن عدم حضورها دليل على فنائها بفناء أجسادها، وهو لا يقول به، بل هو لم يكتب بحثه ذلك الا لاثبات وجودها بعد الموت ويسمى ذلك اثباتا علميا.

والواقع أن اتصال الارواح المجردة عن المادة بنا ونحن متورطون فيها، لا يمكن أن يكون الا بتوافر أحوال تجعله ممكنا . والا لحضرت الارواح المتوطنة على ذويها فتواتهم في شدتهم . ولكنها لا تفعل ذلك ولا في الرؤيا لانها لا تستطيعه ونحن على الحالة التي نحن عليها من التلبس بالمادة . فالمدار والحالة هذه على توافر الاحوال التي تجعل اتصالنا بها ممكنا وهو ليس بسهل فليس كل وسيط بأهل لاحداث كل ضروب الاتصال بالعالم الاخروى . والسبب في ذلك تفاوتهم في خاصة الوساطة كتفاوتهم في خصائصهم العقلية والجسدية . والامور هنا وهناك جارية على قوانين لا يمكن نقضها بوجه من الوجوه .

فهل يريد المسيو جان فينو أن تحضر كل روح بوساطة كل وسيط رغما عن كل الحوائل التي تحول دون ذلك ؟ اذا كان الامر كذلك فلم لا يريد أن يتنزل كل فكر على كل مخ، وان ترسم كل عين كل صورة على أى بعد كان وان تشم كل انف كل رائحة على درجة واحدة، وان يذوق كل لسان كل طعم على حالة معينة ؟ فاذا كانت آلات ادراكنا للمحسوسات تتفاوت الى هذا الحد فهل يعجب المسيو فينو أن تتفاوت خصائص الوسطاء في الشعور بالكائنات المجردة عن المادة وهي أدق من المحسوسات بما لا يقدر وتعوزه من توافر الاحوال واجتماع الشروط مالا تعوزه تلك ؟

والمدهش أن المسيو جان فينو انقلب في الشق الثاني من مبحثه (وستأتي ترجمته) من طرف الى طرف فبعد أن ذكر عن شكوكه بمجموع التجارب الروحية ما طالعه القراء، عاد مؤمنا بها ايمانا مطلقا، وناعتا اياها بنعوت توجب الاخذ بها بدون حرج فقال مثلا في فصله الثاني عشر

« يكفي الانسان ان يلم بالامثلة التى لا يحصى لها عدد (تأمل) والتى درست بضروب

شتى من العنايةوالتمحيص المتناهي في الدقة ونشرت في مطبوعات الجمعية الجدلية الانجليزية، فلنا يكفي ذلك لان تخضع الانسان أمام هذه الحقيقة الجديدة »

وقال بعد ذلك :

« أن المنكرين مهما بلغوا من شدة الشكية لا يستطيعون أن ينكروا وهم مخلصون في انكارهم بأنه توجد قوة نفسية تولد كل هذه الظواهر الخارقة للعادة (تأمل) التي تزداد عدداً كل يوم ، ولا يمكن النزاع في صحتها »

وسيرد مثل هذا كثيراً في كلامه والتوفيق بينه وبين ما سبق من افراطه في الاستخفاف بمن قبله غير ممكن ، ولا حل لهذا التخبط الا ما ذكرناه .

• • •

لنعد الى ترجمة بقية مبحثه، قال :

ان حوادث لا يحصى لها عدد مستقاة من جميع مجالات العلوم الباطنية تميل للبرهنة على صحة البقاء بعد الموت. هذه الحوادث اذا نظر اليها وهي منفصلة بعضها من بعض لا تجمع بالمشاحة في ازالة شكوكنا واقامة صرح من عقيدة ثابتة لنا، ولكن اذا وضع الانسان نفسه فوق هذه المشاهدات الفردية ونظر اليها في جملتها فلا محيص له من أن يخضع أمام تطابقها الذي يحير اشد العقول أستعصاء وعناداً ومن هنا فان هذا المذهب يأخذ على الاقل، حتى في نظر أبعد الناس عن التصديق ، هيئة فرض علمي محترم على وشك الصعود الى مرتبة حقيقة تجريبية .

انه لتعوزنا مجلدات عديدة لاجل تدوين ادلة البقاء بعد الموت المسجلة في المجاميع الضخمة لجمعيات المباحث النفسية التي تأسست في كل مكان، وفي المؤلفات الصادرة من علماء مشهورين شهرة عامة .

فنكتفي على سبيل المثال وعلى عجل بذكر ظواهر تستطيع العقول المحبة للاطلاع أن تجد منها عددا لا يقف عند حد اذا لجأت الى مطبوعات العلوم الباطنية وهذه المطبوعات التي تزداد كل يوم نماء وتنوعا تلفت نظر رجال المتعطشين لادراك الحقيقة.

لنقف مشدوهة أمام الظواهر التي لاتدركها حواسنا ولا آلاتنا الدقيقة ، وندركها طائفة من ذوي التراكيب الاستثنائية ، فانها لتمتعها بخصائص خاصة تستطيع أن تراها وأن تعرفها مشفوعة بأدلة على وجودها لاتقبل النقض.

فصاحب الانتقال النومي من ذوى الكشف يرى الجو المناطيسي المحيط بأجسامنا ويميزبين ألوانه المختلفة . وقد أمكن تقرير هذه الحقيقة التي كانت مجهولة في الازمان الماضية ، وهي ان لكل انسان جواً خاصا محيطا بجثمانه يختلف في لونه باختلاف صاحبه .

وقد اخترع نوع من الآلات المصورة الآن لاظهاره للعين المجردة بوضوح تام

ويزعم أطباء من الذين درسوا العلوم الباطنية ان من الجواء الانسانية ما فيه نقط عجيبة تنم عن أمراض كامنة في أصحابها

وقد أكدلي طبيب معروف في لوندرة بأنه استطاع بفضل ارشاد الجو المناطيسي الانساني اكتشاف أمراض كامنة فيمن سمحوا له بفحصهم على هذا الاسلوب وتمكن من شفائهم وكانت لاتقبل الشفاء بأية وسيلة اخرى . واني انقل هذا التأكيد بكل تحفظ لأني لم أتأكد منه بنفسي

أما الكتابة (أى كتابة الوسيط بدون ارادته) فلا يمكن التشكك فيها في أيامنا هذه . وماهيتها معلومة : وذلك ان شخصا متمتعاً بهذه الخاصة المجهولة قد يكون غالبا منقادا لامر لايمكنه تعليله يضطره القبض على القلم والمضي في الكتابة عدة ساعات أحيانا معربا عن حوادث وآراء خارجة عن دائرة معلوماته الشخصية. وقد تكتب هذه الحوادث والآراء عكسا ولا تمكن قراءتها بدون عكسها بواسطة مرآة

وقد اتفق لى حضور جلسات لتجربة هذه الكتابة الآلية كانت فيها الوسيطة شابة صغيرة تربيتها العلمية أولية فكانت تكتب آراء في علم ماوراء الطبيعة في درجة نادرة من السمو تفوق خصائصها العقلية فواقاتها كثيرا : وكانت تكتبها أحيانا بلغة أجنبية تجهلها جهلا تاما

هذه الموهبة العجيبة قد تظهر في صورة أشد غرابة مما مر . فان المثال (كمولان) كان أراني مجموعة من الصور غاية في الجمال صورتها يده وهو في حالة لاشعورية. وهو

لم يكن مصوراً فطاقته من صور حياته وأيام نفسه خلت بيوم محفوظا بقوة لا يمكنه تحليلها المهندسين مناظر بلاد أجنبية لم يزرها بعمره . وقد عمل هو على هذه الحالة أيضا صوراً غاية في الضبط للأشخاص لم يقابلهم قط

كان هذا الحفار صديقا حميما لاميل زولا ، وقد كلمني عنه هذا الصديق العظيم كثيرا باعتباره حاصلا على فطرة سليمة نادرة وبعيدة عن كل تأثر بالآراء الباطنية

فحدث في حين من الاحيان أن وقع تأثير هذه العوامل الخفية التي كان يجهلها وأخذت يده ترسم على غير شعور منه فأتتنا بمجموعة من صور ذات قيمة نادرة دالة على صناعة مجهولة تؤثر على النفوس تأثيرا يفوق تأثير التصوير المعهود بين الناس ولاعتقاد هذا الحفار اعتقادا راسخا بأن هذه الصور لم تصدر من شخصيته العادية لم يرد أن يبيع صورة منها رغما عن القيم المغرية التي كانت تعرض عليه من كل صوب ، مع ان ثروته المتوسطة كان يجب ان تسول له قبول هذه المكاسب

وقد تظهر هذه الموهبة على صورة ميل الموسيقى فيستولى على شخص [illegible] العلم بهذا الفن .

وقد نشر الاستاذ ([illegible]) عدة أحوال من هذا القبيل تارية لتعدد الشخصية .

ومن هذا القبيل ما نذكره من ان احدى [illegible] [illegible] بكتابة ولا نثر أخذت في يوم من الايام تخشى [illegible] على اسلوب ([illegible]) ولقد كان [illegible] [illegible] الروحية [illegible] الامريكي الشهير ([illegible]) على كل [illegible] الحادثة بحثا خاصا

ويذكر ان [illegible] آخر كان يجهل التصوير جهلا تاما [illegible] صور [illegible] على أسلوب أستاذ كبير في التصوير مات قبل هذه الحادثة ببضعة أشهر وهو ([illegible])

[illegible] ([illegible]) المذكور عدة حالات أخرى مشابهة [illegible]

تقبل تمثيلاته التي ترمي الى القول بحدوث أضلال في شخصية الوسيط وتدخل شخصيات أخرى معها من أهل العالم الآخر .

وكثيراً ما حدث أن الشخص العصبي زاول الكتابة الآلية يكشف أسرار جرائم مجهولة ويدل على امكنة أشياء مسروقة كما يأتي احياناً بمعارف تفوق درجة الحاضرين العقلية

وتدل المستندات التي جمعتها الجمعية الجدلية بلوندرة على أن الخصائص الحادثة المحركة في هذه الاحوال قد تستولي في الوقت ذاته على حاستنا السمعية وعلى اعضاء اخرى فتقوى قابليتها العادية

وماذا يقال ايضا عن كشف الوسيط لحوادث التي يجهلها هو والحاضرون معه ؟

بماذا تعلل هذه الحوادث ؟ يعللها أقطاب الروحيين بأن عقلا من العقول المجردة عن المادة من سكان العالم الاخروى استخدم مجرد الوسيط وآتانا برسالة منه ؛

وقد كثرت حوادث تجسد الارواح والموتى الى حدان المطلعين على تلك الاسرار الروحية اصبحوا لايشكون في حصولها ،

والتجارب التي يسردها الاستاذ (جمس هيزلوب) بوساطة (مدام بيبر) والاستاذ كروكس الكيماوى المشهور بوساطة (ميس كيتي كنج) الخ لا يمكن أن يضرب بها كلها عرض الحائط (١)

وهناك طائفة من العلماء من أعصام شكوكا كانوا ينكرون كل هذه الحوادث بدون تجربة ثم قبلوها جملة ، يدلون على نحو ما يدلل به هيزلوب بأن الارواح التي تتصل بالاحياء

(١) المعرب : كيتي كنج اسم الروح التي كانت تتجسد أمام الاستاذ كروكس لا اسم الوسيطة ، المعتمد تسميتها ميس كوك ، ويظهر ان كاتب البحث وهم فهم ذلك

هي شخصيات انسانية بقيت حية بعد ماحدث لاجسادها مايسمى بالموت ولاتزال تهتم بالامور الارضية .

قد تكون هذه التعليلات صحيحة اوباطلة . ذلك لا يهم . اما الذي يهمنا فهو صحة الحوادث ذاتها . فاذا اعتبرت تسعة اعشار الحوادث المحصة والمحققة بواسطة الجمعيات الموثوق بها جداً مشكوكا فيها بعد درس دقيق آخر فان المشاهدات الصحيحة القليلة التي تبقى تضطرنا لعدم الطيش في رفض القول بوجود هذه القوة المجهولة .

١٢ — لننحن اجلالا للحقائق)

ان حادثة واحدة من الحوادث الدالة على البقاء بعد الموت تمحص بحيث لا يمكن مقابلتها باعتراض وجيه تكفي لكسر اصرار المادية التي فات وقتها ونصوحت زهرتها

مما لا مشاحة فيه انه من الصعب تحديد معنى التلباتيا (التأثر عن بعد) • فان خصائصها وصورها لا يمكن احصاؤها كما لا يمكن احصاء الساتير التي تحيط بآثارها المعقدة المتنوعة .

ومجاميع الجمعيات النفسية التي تنشر الآن في اكبر المراكز العقلية للعالم المتمدن تؤتينا بمئات الالوف من المشاهدات تعارض اصولنا المقررة التي تعتبر شبه علمية • فاذا لم يبق منها بعد التمحيص الا عدة حوادث لا يمكن دحضها فهل نستطيع بعد ذلك ان نبقى جامدين على مقرراتنا القديمة

اذن فلا محيص لنا من دراسة هذه المذاهب الجديدة دراسة منزهة عن الهوى . مع العلم بأن ادق العلوم كانت مجالا للاخطاء في ملاحظة حوادثها وتعليلها حتى بالنسبة لاهم تلك الحوادث واكثرها وضوحا : فالتواضع هنا والمبالاة هذه لا يعد فضيلة فقط يجب الاخذ بها بل يعتبر شرطا ضروريا للبحث الموافق لقوانين العقل

يكفي الانسان ان يلقي نظرة على الشواهد التى لايحصى لها عدد مما قد درس بعنايات مضاعفة ومراقبات شديدة للغاية ونشر في مطبوعات الجمعية الجدلية بلوندرة لينحني اجلالا «لهذه الحقيقة الجديدة» . لنضرب لذلك مثلا بشاهدة واحدة من مشاهدات لاتدخل فى حصر حدثت فى عهد هذه الحرب العامة وقد شوهدت وحققت بواسطة ناس لاعلاقة لهم بالدين ولا بالاعمال الباطنية .

هذا المثال هو حالة مدام ريتشاردسون امرأة الجنرال الذى كان على بعد ١٥٠ كيلو مترا منها فلما جرح سمعت صوته وهو يقول: «اخلعوا خاتمى هذا من اصبعي وارسلوه لامرأتي» وقد شهد من حضروا جرح الجنرال المذكور مباشرة وأكدوا صحة سماع امرأته لصوته عن بعد عدة مئات من الكيلو مترات .

والبراهين متظاهرة على انه يوجد بين الاحياء اتصال سرى يحمل شعورهم من خلال المكان والزمان » فهل يوجد مثل هذا الاتصال بين الاموات والاحياء ؟

يظهر ان تجارب عديدة فى هذا الباب تثبت صحة ذلك الاتصال

وعلى هذا فهذا النوع من التلباتيا يستطيع وحده ان يثبت عقيدة البقاء بعد الموت . ولكن لندع هذه الظاهرة جانبا لآن ، ولننظر في امكان معرفة الحوادث عن بعد خلال المكان والزمان ، وهي خارج مرمي خصائصنا الطبيعية . لان هذا وحده يثبت وجود عالم فوق المادة مستقل عن المخ وعن اعماله

فالمنكرون حتي اعصاهم قياداً لايستطيعون ان ينكروا وهم مخلصون في انكارهم بأنه توجد قوة نفسية تحدث ظواهر خارقة للعادة يزداد عددها يوما بعد يوم ولايمكن النزاع فى صحتها.

فلتكن علة هذه الحوادث هى التلباتيا أو العقل الباطن أو أرواح الموتي فان صحة تلك الحوادث نفسها شيئ لاغبار عليها رغما عن المناقشات التي تدور حول الاصل المولد لها .

فالذين ينتسبون للعلم ليس لهم ادني حق في تقليد المتعصبين الدينيين الذين يرفضون التسليم بكل ماينافض آراءهم المقررة ،

وقد روى (كاملدوريل) حادثة مضحكة عن واعظ من فيتالرادوهوعلى منبره ان يدحض التنويم المغناطيسى بهذا الاسلوب وهو قوله:

« أنا لاصدق بصحة التلقين المغناطيسى الا اذا رأيته بنفسي ، ولكني لن أراه لأن ديدني أن لاحضر مثل هذه التجارب »

واننا لنستطيع ان نزيد فى الامثلة الى مالا نهاية لامن حوادث الاخبار بالمغيبات ، والنظر بدون الاعين ، وقراءة حوادث تقع بعيدا عن الشخص فى ملال المكان والزمان الخ الخ ...

فاذا اعتبرنا ، ولو على حالة سطحية ، ظواهر التلباتيا ندرك بسهولة بأن مدى كلامنا في هذا الباب ستكابد فى مستقبل قريب تحولا أساسيا . واذ ذاك سيقلع الناس عن البحث عن العالم الاخروى وعن الجنة والنار فى السماء المزدانة بالكواكب ، لان علم الطبيعة السماوية عنعها من التسليم بوجود سماء فوقنا ، ولكننا نجعل العالم الآخر فى ذاتنا وبما ل حولنا . كيف نقول العالم الآخر ، ونحن لم نخرج منه قط وسنبقى فيه الى الابد ، لان افكارنا وعواطف ، وآراء واحساسات ، تربطنا فيه بسلاسله والذى يتغير هو فهمنا اياه ، وهذا الفهم يعلو ويسفل على قدر رقى قوتنا النفسية وروحنا وعقلنا الباطن ، ودرجتنا الخلقية

ووجود التلباتيا بين الاحياء لايسمح ببقاء ادنى شك فيا يختص بوجود قوة روحية تزيد عن القدر المقرر لارواحنا وعقولنا (أى ان هذه القوة الروحية فينا أكبر واكثر خصائص مما يعتقده الناس قديما وحديثا)

ولكن التلباتيا بيننا و بين الموتى تثبت استمرار وجود روحنا أوعقلنا الباطن ، ان لم نقل بقاء غير محدود أى خلودها وعدم قبولها الفناء

هذه الظواهر الجديدة تناقض مؤقتا مدركاتنا الطبيعية ومقرراتنا النفسية المؤسسة على الفزيولوجيا ، وما نعلمه عن الزمان والمكان ، ولكن العلم القديم اوجعنا

عن ضلالات كثيرة سيهرعنا في مستقبل قريب فيا نؤمل، عن اغلاطنا فيا يختص بالنظر والتعقل ونقتصر على هذا الملخص منذ الآن ان لا يحتقر الحوادث المرئية الدالة على بقاء النفس بعد الموت

اذن فالانسان لا يموت وحياته مستمرة رغماً عن عنصر الوفاة الذي يشهد بزوالنا وبالاضمحلال والعقل الباطن، وهو المجهول الخطير في وقتنا الحاضر سيصبح هو نفس شعورنا الذاتي العالي في اليوم الذي نزداد بحقيقته علما

(المعرب) يتبين القارئ مما مر في هذه الفصول ان العلامة جان فينو لم يتقدم امام بحثه تلك العبارات الشديدة ضد كثير من العلماء والمجربين قبله الاليبري، فيسمن الجري مع الاوهام ومن عدم اتخاذ الحيطة الكافية ضد الخدع والانخداع، والا فكيف يوفق القارئ بين اقواله هذه وتلك الاقوال؟

وعلى اى حال فان المباحث الروحية جمعت من اشداء الشكيمة من امثال جان فينو الوفا مؤلفة ولم تمنعهم شدتهم من الخضوع للحقائق الجديدة فماذا يبغي بعد ذلك اولئك المتوقفون هنا عن قبولها بعد ان جازت كل هذه المراقيل واقتحمت كل هذه العقبات وخرجت فائزة خروج الحقائق بعد ضروب التمحيص والتحقيق

على ان هذه الخوارق لغرابتها وشدة عداء الناس لها قد لقيت من التمحيص اضعاف اضعاف مالقيته المعارف الطبيعية وكان المجربون لها يزاولون عملهم فيها لا بقصد اثباتها كما هو الشأن في بقية العلوم بل بقصد دحضها او كشف احابيل التدليس فيها فلم تزدد الا وضوحا وثبوتا فلو كان عليها غبار لضعف لظهر ظهور الشمس في رائعة النهار ولم تقو على هذا التمحيص المتوالي اكثر من سبعين سنة

وهناك امر آخر جدير بالنظر هو ان الحقيقة العلمية يكفي في تقريرها ان يشاهدها عدة علماء فيأخذها سائرهم بدون تردد، ولكن الحال يجرى على خلاف هذه السنة في التجارب الروحية فان تمحيص الثقة بين العلماء فيها وصار كل منهم يربأ بنفسه على الاعتماد على تجارب غيره حتى يكررها بنفسه فان كررها بنفسه ووجد صحيحها الخلب مع توقفه في قبولها غيره وان

وكان يقول به الثلث من أمثاله . لهذا السبب كان عدد المجربين من العلماء في هذا الفرع العلمي يربو على عدد المجربين في كل فرع آخر من فروع العلم وفي هذا اقتناع آخر على صحة هذه الظواهر

فهل يريد المتوقفون هنا عن قبولها أن يجربوها هم أيضاً بأنفسهم؟ ولو فعلوا فماذا تكون قيمة شهاداتهم بجانب شهادات أرقى العلماء وملايين الفضلاء في مدى سبعين سنة متوالية وفي أشد الامم بعداً عن الاغترار بالظواهر والانخداع للاحابيل والتأثر بالتقاليد ؟

نحن لا نطالب اليهم أن يسلموا بهذه الحقائق ، فان ذلك يعنيهم وحدهم ، ولكنا نريد ان نثبت الذين يسمعون القول فيتبعون احسنه ان تشكيكات أولئك المتوقفين لا يصح ان يقام لها وزن بعد دخول هذه الحقائق في هذا الدور العلمي وبعد ما اصبح يقول بها اعاظم علماء الطبيعة وفطاحل الكاتبين والمؤلفين .

***

لنعد الى ترجمة بقية مبحث للمسيو جان فينو ، قال :

١٣ — (مسكن الروح)

كثيراً ما يصادف الاسبرتسم بلا تقصد في العقائد القديمة للشعوب في الاولية . وقد شبه الناس في كل زمان روح الانسان بنفخة ساذجة مأواها الجسد ، ولكنها تتركه بالليل لمدة قصيرة ، ثم تهجره بالموت لأمد لاحد له . فعلم النفس والحالة هذه يجد له عوناً عظيماً في دراسة (الفولك لور) والاساطير العامية وقد أدخلها (هربرت سبنسر) الى العلم الرسمي . ولقد صارت دراسة (الفولك لور) من أهم الاشتغالات في هذا الباب وهي تعطي عناصر لا تقدر قيمتها لدراسة النفس الانسانية في تطورها خلال العصور . وتأكيد (باسكال) أن الجسم مسكن النفس يدل على الميول التي كانت لدى مؤمني كل العهود الانسانية ولا تزال لدى اكثر العلماء في أيامنا هذه .

هومير وأهل المذهب الرسمي من اليونانيين والرومانيين متفقون من هذه الوجهة مع أحط الشعوب الاولية . وفي رأى مؤلف الالياذة ان تناتوس (وهو الموت) وهينوز (وهو النوم) اخوان توأمان . وهما شبيهان كل الشبه وفي نظر الفيدا (كتاب الهنود المقدس) الروح تزال الجسم في أثناء النوم وتتحادث مع (الفيدا) ومع الآلهة الخالقة والحامية للكائنات . والاحلام دلائل تدلي بها الروح لاثبات وجودها .

ويعتبر (الايبون) اهالي بلراجيه (بأمريكا الجنوبية) ان الموت ليس بشيء غير نوم طويل المدة . والعقائد العامية تختلف في تعيين مستقر الروح من الجسد . فبعضهم يجعلونها في المخ وبعضهم يعتبرونها في القلب ، ولكن اكثر الناس يقررون بأن الروح مستقرة في النفس وان الموت هو خروج هذا النفس من الجسم وعلى هذا الاعتبار كان الرجل من الرومانيين اذا حضرته الوفاة استدعي أصدق أصحابه اليه ومال عليه وقال له قبل أن يزفر النفس الاخير « خذ روحي من فمي » .

وبما ان النفس في اعتبارهم أبيض اللون فتكون الروح بيضاء كذلك . ومن هنا جاء التعبير (بياض الروح) الذي يستعمله المؤلفون الدينيون والشعراء ورجال العصور الماضية والعصر الحالي .

لنذكر هنا في هذا المقام مرت (كانت) الفيلسوف الالماني كما رواه أقرب مترجميه اليه قال :

« في يوم مشرق صافي الاديم ظهرت سحابة صغيرة خفيفة في السماء الصافية الزرقة واتجهت ببطء نحو الشرق فلمحها جندي يحرس قنطرة فالتفت الى من حوله وقال لهم وهو مقتنع بما يقول : « انظروا فهذه روح (كانت) صاعدة الى الله » .

كان كثير من الشعوب الاولية تعتقد بأن الجسم قد يحوي أرواحا كثيرة في وقت معا فيعين الملاجاشيون والصينيون عدد تلك الارواح بثلاثة . ويشاركهم في ذلك سكان اواسط افريقيا . ولكن الاسكيمو يقصرونها على اثنين ، والداكوتاس يرفعونها الى اربعة ، منها واحدة تبقى بعد موت صاحبها في قريته ، وثانية تمكث في جسمه وثالثة تضيع في الهواء وأما الرابعة فتنضم مع الارواح . وكان المصريون القدماء يتولون بعقائدهم بطريقة

غريبة العقل الباطن المتعدد. فكانت الروح في نظرهم تتألف من مجتمع عناصر نفسية تبقى مجتمعة مدة بقائها على الارض ولكنها تفترق بموت صاحبها. وفي هذه العقائد كنوز من معارف تخدم التيوصوفيين من كل الصور. وعند المصريين (اوزيريس) هو العنصر الاصلي للروح، فيترك الميت بعد تصييره ويصعد بعد ذلك لينضم الى الله وهو مجده الاول.

وقد أخذ أرسطو كما يلحظ ذلك بوضوح قوله بتعدد الروح من المذهب المصرى فعنده ان الارواح الثلاثة الناذية والشاعرة والعاقلة تعمل معاً في الجسد مدة الحياة ولكن بعد الموت لا يبقى في حالة كمل الا الروح الاخير

١٤ — (ميراث الماضى)

الشعوب الاولية تذهب الى ان الميت لا يعزيه شيء في انفصاله عن الاحياء ويفعل قصارى جهده ليعود حيا بينهم. ويقولون بأن الارواح لا تنسى شيأ مما علته أثناء نقلها على الارض وتعلم أسرار الاحياء فلا يغيب عن علمها ونظرها شيء. ومذاهب الرجعة بعد الموت قد استقت من هذا الينبوع. لان الروح بعد انفصالها من الجسم تريد أن تعود الى الارض في خلال وجودات جديدة ومتتالية. ومن هنا نشأت مذاهب التناسخ على اختلافها وغرابتها على ما تمثله أديان خاصة والمذاهب الباطنية.

هذه المدركات التي للشعوب الأولية أثرت في المؤمنين والفلاسفة واتباع المذاهب الصوفية المختلفة. فالروح عندهم قد تكون نفساً وقد تأخذ شكلا ماديا انسانيا أو حيوانيا.

وقد قالت الكنيسة المسيحية بامكان تجسد الروح قبل أن يقول بذلك المذهب الباطني الراهن بزمان بعيد.

ذكر تيرتوليان في رسالته عن الروح انها جثمانية الاصل. قال والا فكيف نكبد

المذنبين عذاب جهنم اذا كانت الروح معنى عضاداً قابل للجسم لاسلطان له على ماليس جثماني وما كان كذلك لا يمكنه ان يتقي في ابراهيم ».

وقد ألف (دو دانتي) في روايته الهزلية الموسومة بالكوميديا الالهية بالمدركات الدينية للقرون الوسطى فيما يختص بالبقاء بعد الموت على اسلوب غاية في الاتقان فاذا ما تدبرها الانسان وجد الصلة المتينة التي تربط بين مخاوف الانسان الاول وأمانيه وبين مخاوف الناس وأمانيهم في العصر الراهن .

فالاديان والمذاهب الباطنيه ونظام ماوراء الطبيعة وعقائد او شكوك المثليين من الفلاسفة (نسبة للمثل الاعلى) كلها مرتبطة كل الارتباط او بعضه باساطير وضعت في زمان عريق في القدم ولكن بقيت حقيقتها الي اليوم على ما كانت عليه .

ان واجباً أولياً أصبح مفروضاً على جميع الذين يودون ترقية علم البقا بعد الموت وذلك أن يتخلصوا من جميع الضلالات التي تكاد تكون فطرية وإعادة درس الحوادث الروحية في مظاهرها المتعددة وهم بعيدون عن الاوهام وعن التعصب . هذا هو الطريق الوحيد الذي يمكن أن يوصلنا الى حقائق مجزية

أضعف جهة في المباحث التي من هذا القبيل هي عدم امكان استخدام الاسلوب التجريبي فيها ، وهو الاسلوب الوحيد الصالح لاتياننا بالحقائق الحسية . والحوادث المتعلقة بما وراء الطبيعة والحوادث الباطنية تستعصي عن طرق التحليل والتجارب المعروفة فيجب والحالة هذه معاملتها بطريقة مناقضة للطرق العادية .

واذا كنا نلح في التنويه بهذه الحوادث فاذلك الا لنثبت مع مقتنا ومكافحتنا التدليسات في صورها المتعددة بأنه يجب التسليم علمياً بصحة الظواهر المتنوعة لهذه القوة المجهولة .

٦٥ — (الحقيقة الجديدة)

بما أن الزمان من المدركات المتفق عليها ، وهو صورة ذهنية ليس إلا فلا نستطيع أن

تتصر من و .ة الصفية على الحدودالضيقة التي يبيتها لشخصيتنا

فالذى يحدث فى اعماق هذه الشخصية علاً نا ذعراً أو تعجباً . وبعد استكشافنا لعقلنا الباطن فليس في مكنتنا أن نهمله وانا لنتوقى فى التحقق من ان العالم الخارجي على مايدركه العقل ليس هو الا ظاهرة أو مدركا عضاء وتضيره ان لم نقل حقيقته مستقرها هـذا العقل الباطن وهـو الموجود الاصلي على حسب مذهب «كانت» (١)

الانسانية لم تأبه بعالم الميكروبات الذى يساور الجسم ويحتله حتى قام العلم باستكشافه، فهل من ينكر قيمة هذا الاستكشاف اليوم؟ والنواميس البيولوجية الفزيولوجية المدركة صرف النظر ن وجود هذا العالم الميكروبي تصبح لهذا السبب وحده باطلة ومناقضة للحقيقة الجديدة .

فما اشبه هذه العلاقة بعلاقة العقل الباطن بعلم النفس .

من الخطأ القول باستحالة التقدم فى مجال زيادة العلم بالمجهول . واننا لنذكر هذا العلم الميكروبي الذى كان مهملا قديما وخصوصا علم الميكروبات الدنيا كما بحثنا فى ظواهر العقل الباطن التى لا تقبل التقييد والمراقبة .

بجانب الميكروبات التى يستطيع الميكرسكوب أن يدرسها توجد الميكروبات الدنيا التى تستعصى على اقوى المظارات المكبرة فهى كائنات غاية فى الصغر بحيث ان حجومها تبقى أقل كثيرا من طول الامواج الضوئية المرئية وهى ٤ ٠ جزء من مئة مليون جزء من الاشعاعات البنفسجية القصوى ومن هنا كانت الصعوبة فى دراسة تلك الكائنات على اى صورة من الصور. وهناك صعوبة اخرى وهي استحالة الحصول على هذه الميكروبات الدنيا على حالة نقية اذ لا يمكن فصلها عن العناصر الخلوية

(١) كانت فيلسوف الماني توفى سنة ١٨٠٤ كان يذهب ان لكل موجود اصلا معنويا هو الموجود بحق، واما مظهره المادي فصورة تناسب تركيب عقلنا وكان يسمى ذلك الاصل المعنوى (نومين) ومثلها الاصل .

التي تنمو فيها ، أو عن الميكروبات الأخرى الفائية في السوائل ، من الميكروبات الدنيا المميزة من هذه الوجهة ميكروب الكلب . فالسم المعدى من هذا الداء يمر من خلال المصافي الخزفية او المصافي الطينية المسامية التي تمنع مرور أصغر الكائنات المعروفة ومع هذا فقد نجحنا في الحصول على نتائج علمية لايمكن النزاع فيها في هذا المجال الذى كان يظن انه موصد في وجه كل تحايل علمي وكل أسلوب تجريبي .

وقد حظى العلم في هذه العشرين السنة الاخيرة باستكشاف عدة دوزينات من هذه الميكروبات الدنيا (الدوزينه عندهم تعني اثني عشر) والعلم يستفيد من هذا الاستكشاف الآن في معالجة بعض الامراض . لنذكر من هذه الميكروبات الدنيا الجرثومة غير المرئية للحمي الصفراء وطاعون الطيور والطاعون البقري وجدري الدجاج وتيفوس الطيور والتيفوس الطفحي وجدري الخراف الخ .

ولكن رغما عن عدم امكان رؤيتها حتي باستخدام أتقن الآلات المكبرة فقد امكنت دراستها بفضل تأثيراتها الخارجية وقد علمنا من ذلك اننا نستطيع ابادتها في دقائق معدودة اذا سلطنا عليها درجة من الحرارة تعلو عن ٥٥ وانها كلها معدية تسبب اضرارا تشريحية مرضية على صورة تغييرات تطرأ على النواة الخلوية الخ . ولكن لايزال أمرها غامضا بعالم من المساتير . واذا كنا نعلم انها سامة فاننا لانزال نجهل التأثيرات الحسنة التي تستطيع أن تحدثها حولها مما سيؤدي العلم به في يوم من الايام الى انتقال ذريع للعلم في معالجة الامراض الحالي . فأى ضرر كنا نجنيه على أنفسنا اذا وقفنا أمام عدم امكان رؤية هذه الميكروبات الدنيا وامام استحالة دراستها على الاساليب المقبولة لدى العلم ترفضنا البحث فيها أو انكرنا وجودها ؟

ولكن الذى حدث انهم بفضل التأثيرات الناجمة من هذه العوامل المتناهية في الصغر والاستقرار على حياتنا اليومية قد نجحوا في ايجاد علم من أكثر المعارف قياما على الاسلوب الحسي وأكثرها نفعا للعالم .

أليست الحالة هي هي ، مع حفظ الفرق بينهما ، فيما يختص بالعقل الباطن .

وهو غير مرئي ويستعصي على الابحاث التي تحاول أن تحدد مستقره المادي ، ولكن آثاره الكثيرة والمعقدة مما تلفت نظرنا وتفرض علينا بحثها على صورة لا يمكن النزاع فيها .

انه مما يناقض العلم ارادة انكار أو اطراح ظواهر العقل الباطن كما يناقضه أيضا احتقار مسألة وجود الميكروبات الدنيا وهي غير مرئية وغير قابلة للتمحيص .

ومع هذا فما أبعد الفرق بين ظواهر العقل الباطن وبين تأثيرات الميكروبات الدنيا من جهة سمو طبيعتها ووجودها معا .

فاذا صعدنا من عالم الكائنات المتناهية في الصغر الى عالم الكائنات المتناهية في الكبر نجد فيها دليلا لايدحض لتأييد الموضوع الذى نحن بصدده ويكفينا أن نعيد الى ذكرنا التأكيدات المتطرفة لاجوست كونت التى كان يقول بها جميع العلماء المتقدمين وعلماء عصره أيضا وهي انه يجب قطع الأمل في امكان معرفة التركيب الكيماوى للاجرام العلوية حتي ولا في مستقبل بعيدا جدا . فكانت الفطرة العلمية مضافة الى أدق المقررات العلمية تؤيد آراءه التى ترمي الى تثبيط كل المحاولات التي تتجه الى هذا الغرض

ولكن لم تمض غير سنوات قليلة حتي استكشف التحليل الطيفى الذى سمح بمعرفة تركيب مادة النجوم معرفة أتم من معرفتنا لنواميس تطوراتنا الاجتماعية والسياسية .

ونحن بدون التعويل على الادلة العديدة التي تدلي بها الفرق الروحية نستطيع ، وكل منا في دائرته ، أن نستجمع أدلة لاتقبل النقض على صحة وجود ظواهر خارقة للعادة تفوق آراءنا الخاصة بحدود الزمان والمكان ولسنا فى حاجة اذا اردنا ذلك الى توثق خاص ولا وسطاء ذوي شهادات أو من يجرى مجراهم، بل الذى علينا هو أن ندون ونفحص كل الظواهر الباطنية بمثل العناية التي نبذلها لرصد وبين حوادث الطبيعة .

فقد صادف كل منا في مدى حياته حوادث معبرة من اخبارات بالمستقبل وانتقالات

فتفكر الى مسافات بعيدة ورؤية الحال والمستقبل على درجات من القرب والبعد وذلك بدون الاعتماد على أي حاسة من هذه الحواس.

ثم يجب تمحيص هذه الحوادث خصوصاً وهي تتعلق بحوادث تزعزع غالباً آراءنا المقررة.

ومع هذا فلو بحثنا الالوف المؤلفة من الحوادث المدونة في السجلات الضخمة المسماة (بروسيدنجس) الجمعية الجدلية بلوندرة وما يقدمه لنا كاميل فلامريون في كتابه المجهول والمسائل النفسية وكتابه القوى الطبيعية المجهولة أوفي كتابه الموت وغامضته في نحو مئة مؤلف من هذا النوع ، فلنا لو بحثنا في هذه الحوادث يكاد يكون من المستحيل أن نرفض رفضاً جلياً الاعتراف بتلك القوة الخفية التي تعمل فينا وبنا او بجانبنا وتسمى بالعقل الباطن أو الروح او المجهول العظيم. ومما لاشك فيه ان هذه القوة موجودة وانه لاوجه لنا في عدم الاعتداد بها في بحثنا عن الاسباب الاولية والثانوية لحياتنا الطبيعية والروحية

لقد أخطأ الناس خطأً جماً في كل زمان بسوق الفكر المستقل مساق الاماني والعقائد المادية.

وكان العلماء السابقون يظهرون متشبعين غالبا بهذه الفكرة وهي انه يجب عليهم أن يضعوا أنفسهم في الطرف المضاد للطرف الذي فيه الديانة والمتدينين. وترى تلاميذهم واشياعهم اكثر تطرفا من أساتذتهم في هذا الشأن ويظهرون شديدي الجفاء لكل تدخل روحاني في مجال الفكر . فان اشباه (هومي) لا يقتصر على عهد فلوبير فهو موجود في كل زمان في جميع البلدان .

(المترجم) هومى هو المسيو هومي الصيدلاني شخص قصصي اخترعه الكاتب الفرنسي فلوبير في قصته (مدام بوفارى) جعله مثالا للحمق المصبوغ بصبغة الآداب والعلم فاصبح هومي علما لكل متمثل بعلم في غفلته ظاهر من العلم). نعود الى ما نحن بصدده من نقل مبحث المسيو جان فينوقال :

فالعقل الحسي الصحيح المستند على الاسلوب الاستنتاجي وعلى التجربة قد

أحدث شيأ فشيأ ثلمة كبيرة في سياج العقيدة المادية . فرأينا من هـذا القبيل ان أعاظم المجددين واكابر ذوى القرائح العلمية يتخذون لهم سبيلا من المذهب الروحاني اليوم.

وزيادة على هذا فقد اصبح يعتبر اليوم مناقضا للعلم نبذ وانكار الحوادث الكثيرة التي لا تفتأ تطرق علينا الباب وتلفت نظرنا اليها بقوة لا تغالب.

رجل العلم الصحيح يبتسم برحمة وصفح عند ما يحاولون اعتبار علمه واعماله وفتوحات فكره من المذهب المادى المتفق عليه وظنهما شيأ واحداً . كلا فقد يمكن أن يكون الانسان متقدما جداً من وجهة المحصول والمرمى العقلي مع اعلانه على رؤوس الاشهاد بأنه من الروحانيين .

فلا ينسين المعاندون وخصوم الايمان ان المذهب الروحاني لا يعني الخضوع مطلقاً كيدات غير المحققة والاعتقادات المريبة . فالذى يهمنا قبل كل شيء هو ضرورة عدم حبس فكرنا في دائرة مصنوعة تحيط به فيها المذاهب الضيقة لان العقل خلق لتكميل هذه المذاهب واجتيازها الى مابعدها . فاتفاق هذه المذاهب والعقل وتساعدهما دون انقطاع يمكنه وحده ان يوجد لنا علم متلائم النواحي محقق عن الوجود ونواميسه .

فالفكر الحر والعلم الحق يهمهما جدا ان ينفصلا عن المادية التي فات وقتها وعن المذهب الحسي الذى يوجب علينا ان لا ننظر الا من خلال فتحات صنعها هو واتضح انها ضارة ولا حاجة اليها .

فالفكر الحر الصحيح وعلماء الاجتماع الذين يتعالون عن مستوى الاحقاد التي ولدتها اختلافات الاديان والالوان والاجناس والاقوام لا يستطيعون ان ينبذوا جملة تلك المقررات المؤسسة على خير الانسانية التي تقدمها لنا التيوصفية الراهنة وفتوحات اخرى باطنية تمد أعلى الفتوحات واجدرها بالثقة .

فاذا كان القول بالتناسخ وبأصول أخرى كونية تستوجب شكوكا عميقة فليس الامر كذلك من ناحية مايدعو اليه ذلك المذهب من الاخوة العالمية العامة الموقظة

الروحانية . اى شيء أعلى كعباً في الحرية من الاصول الاولية الثيوصوفية التي تكتفي ببحث الآخذين بها مجتمعين البحث عن الحقيقة لا بتكليفهم بقبول عقيدة أو عقائد جديدة ؟

فالثيوصوفية ليست في الجملة الا تأييد الاصول التي هي القواعد الجلية لكل الاديان ولجميع المذاهب الخلقية . وجرياً على أوسع مذاهب التسامح الديني قد صارت الثيوصفية معددة للآلهة في الهند وموحدة لله في جميع البلاد الاخرى.

ان القول بالكارما يجعلها مناقضة للعقائد المسيحية وكذلك طريقتها في ادراك شخصية المسيح، فمسيحها الصوفي لا ينطبق على ما يصوره الانجيل ، والمخلص المنتظر للعالم يشبه (ميتريبيا) المذكور في الاساطير البوذية ، وتجسده في صورة الشاب تاميل الذي يعيش الآن خفية بالهند باسم كريشنا مورتي يبعدنا بلا شك عن الترجيح الذي تقبله الفطرة السليمة العادية .

أما المذهب الكوني الذي يعتبر اخا الثيوصوفية فينشر هو أيضاً حقائق إلهية مما يؤدي تطبيقها الى ترقية الانسانية من الوجهة الخلقية والعقلية.

نعم انه يعتد بظهورات روحانية ترفرف بين السماء والارض وليس لها من اصل ثابت لا في العلم ولا في العقائد العادية ، ولكن ما أوسع وأروح الآفاق التي فتحها أمام الناس، مساعداً اياهم على ازدراء الشدائد التي تصدنا عن السبيل في حياتنا الارضية .

لقد انتشر المذهب الرحاني كما كان منتظراً انتشاراً عظيماً بعد تلك الزوبعة الهائلة التي ثارت عليه . وقد زاد عدد المجلات الباطنية في كل بلد وزاد كذلك عدد الجمعيات الروحية وعدد أعضائها ، ومظاهرات من كل نوع تقوم في هذا المجال بكثرة وتأخذ أشكالا غاية في التنوع .

فاذا لم يصادف المذهب الروحاني ما يقفه فلا يمضي غير قليل من الزمن حتى يصبح أكثر من نصف البشر تابعين لفرقه المختلفة

في مؤتمر الاساقفة والمطارنة للكنائس الانجليكانية الذي عقد في قصر لامبث

في ٥ يوليو الى ٧ اغسطس سنة ١٩٣٠ وحضره ٣٠٧ من رؤوس الكنيسة منهم مطارنة كنتربوري ونيويورك وسيدني وكبتاون والهند الغربية وملبورن ولمارة بلاد الفال الخ هذا عدا اكثر من مئة أسقف من اكبر الاساقفة تقرر النظر بنوع خاص في أمر الاسبرتسم والعلم المسيحي والثيوصوفية نظرا لتأثيرها العظيم في عقلية أهل العصر الحاضر ومع تحذير هذا المؤتمر للمؤمنين عن مزاولة اعمال الفرق المختلفة للمذهب الباطني اعترف مؤتمر لامبيث المذكور بقيمة هذه الميول الروحانية التي تكافح المادية بنجاح عظيم . ولكن تفاديا من أن يفضي شدة انتشار هذه المذاهب وسلطانها الآخذ في الازدياد الى هدم سلطة الكنيسة واصولها الاعتقادية استحسن كبار الاساقفة المؤتمرين وضع معالم جديدة للنصرانية لتكسب ثقة العناصر التي تشذ كل يوم عن الايمان الرسمي .

فيخطيء الفكر الحر خطأ جدا اذا ظهر أقل تسامحا من الكنائس النصرانية التي تفقد شيأ كثيرا بغلبة المذهب الروحاني الكامل لان مذاهبه المختلفة قد اعلنت منذ الآن حربا ضروسا على الاديان ذات العقائد الجامدة وخصوصا ضد مدعي الوكالة عن الله في الارض .

وبعد كل هذا فالحقيقة ستتغلب على كل هذه الاعتبارات . ونحن باسمها نطالبه باحترام هذا (الوحي الجديد) وبحث ظواهره بحثا علميا في حدود الامكان.

انما لم نعرف الاوكسجين وجود الا منذ قرن ونصف قرن وهو العنصر العام الاصلي لاقامة حياتنا . فقد كان فينا وبيننا وفوقنا وتحتنا ولم يكن احد يعلم بوجوده . فهل الامر كذلك بالنسبة للقوة النفسية وظواهر العقل الباطن والحوادث الروحية التي يقال انها حادثة بتأثير سكان العالم الآخر، وبتأثير الروح وهي تلك القوة العاملة لا بهيئة وظيفة من وظائف الجسم ؟

وغير هذا فان طريقة فهم الروح بواسطة العلم العصري ليست الاوراثة كافية بين علم علماء الطبيعة الا الشائع وهو لا يتفق والمستكشفات الحديثة ولم يستطع فطان

يلائمها. فقد خلق هذا التنازع أيام كان علم التشريح والفيزيولوجيا والبسيكولوجيا أيضاً في دور الطفولة، في ذلك الحين نشأ قرر واضعو الثنوية المزدوجة وهي الجسد والروح وقرروا تعلق أحدهما بالآخر تعلقاً مطلقاً ونتج من ذلك المذهب الذي يقول ان الروح ليست إلا مظهرا المخ والجسم.

ولكن ظهور المستكشفات الحديثة صار ما يناقض العلم ان لم نقل من الطفولة المشروح لعلم (يريد علم ما وراء الطبيعة الرسمي) تهدمه التجارب كل يوم في مجموع بنائه لا في تفصيلات تركيبه.

يصعب علينا ان نحيل الوجود كله الى النظام الذي وضعناه مستعينين بعقر كائنا ولم يمكن تفسيره تفسيرا كافيا بمعارفنا الناقصة وبعلم لا يزال في حالة التكون.

فلا يجوز للعلماء الجديرين بهذا اللقب الذين يبحثون في الطبيعة جملة أن ينبذوا العقيدة الروحانية، اما الاخصائيون حتى ذوي الالقاب العالية منهم فمن يمكن تشبيههم بالمحتويات الناقصة لدرج خزانة (دولاب) فان الاسلوب الذي يصغرون به العالم حتى يبلغ ابعاد مساعاتهم او مدرجاتهم أجدر أن يوافق تراكيب عقولهم من أن يوافق الحقيقة.

فالعلم القديم المتأخر يكره هذه الفتوحات الجديدة ولكن من الظلم محاولة وصفه اغلاق النوافذ التي فتحت امام اعينها فبهرتها الانوار.

ان الحوادث التي نواجهها اليوم تحت ضوء العقل الباطن يكون منها البا كما يكون من انسان ترفع من عينه غشاوة ؟

ونحن بدون ان نتابع الشكاك الكبير (شوبنهور) الذي كان يقول ان الانسان يحمل في باطنه أسرارا عجيبة، ومفتاح هذا الطلسم العالي عستطيع ان نسلم بأن جهود الزمان ستكشف فيا نرجحه في أبحاثيات ذات تلسر العالم الاخروي المبحوث عنه منذ وجد الانسان

الفروع الكثيرة للمذهب الباطني التي تريننا من اسرار العقل الباطن حللا يريناه ولعلها هي التي يعول عليها اليوم لهدايتنا في متشعب التجارب النفسية

يوجد بجانب البسيكولوجيا التي تدرس الجانب الظاهري لحوادث النفس محل المذهب الروحاني الذي يدرس لهن الجانب الداخلي فكلاهما يستطيعان ان يتعاونا في ترقيهما مكملا أحدهما نقص الآخر ولكن اهل الجمود العلمي سيستمرون بلا شك على رفض هذه الحقائق

الجديدة عن شخصيتنا . فالامر كما قال ج . ب . لامارك مهما تكن شدة المصاعب التي تعترض العاملين لاستكشاف الحقائق الجديدة فان مصاعب تعريفها الناس اشد واعظم ولكن العهد الذي تتغلب فيه تلك الحقائق قادم لامحالة. وكثرة الاسباب التي تحملنا على التأميل تساعد في زيادة سعادة البشرية . فلندع جانبا الشكل الشعرى الغريب او الطفلي للبقاء بعد الموت ، وهو الشكل الذي يحرك أرواح المؤمنين السذج او الاتباع غير المفكرين للاسبرتسم ولنكتف بأن نخرج من مضطرب الشكوك الكاربة صحة تلك الحوادث الباهرة فـيقيم المستقبل على هذا الاساس صرحا اكثر طمأنة للنفس على الخلود . فالذى يهمنا الآن هو أن نخطو خطوة الى الامام لاجل تخليص سيادة الروح الذاتية استقلالها عن المخ والاعضاء . فان هذا سيكون فاتحة عهد يشرق فيه شعورنا الباطن شيأ فشيأ وان كنا لانستطيع من الآن تحديد شكل تلك الحال .

١٦ — (مزايا الحقيقة الجديدة)

الاخلاء العام وتزايد حب الانسان لاخيه، والتضامن بين الكائنات والعروج باستمرار نحو قمة الكمال الخالق، كل هذه المزايا تنتج من اول وهلة من انتشار الفتوحات الروحية الجديدة بان تغير حال الانسانية تغييراً كليا .

ونحن ندرك على اقدار متفاوتة مبلغ الترقيات التي تحققت بسببه الآن من الوجهة الاجتماعية، ولكنا نجهل كل الجهل ما حدث من الترقيات المعنوية فى ارواحنا لانها ترقت ومترقي فى الكمال فاذا اردنا أن نقدر أقدار الصور التى تتعامى على الادراك اضطررنا الى البحث عن الغاية التى نرمى اليها في هذا البحث

والمعتبر على وجه عام اننا لانملك وسائل لتقدير قدر الترقي الادبي الذى تم في خلال هذا القرن . ولكني حاولت في كتابي (التقدم والسعادة) ان أضم أسلوبا حائزا لكل الضمانات العلمية يسمح بتجلية قانون التكامل الادبي فظهر منه ان الانسانية في ايامنا هذه أرقى في الوجهة الادبية كثيرا مما كانت عليه في القرون الماضية .

ولا بد من أن نصل الى مثل هذه النتيجة اذا امتحنا تطور ذاتنا الداخلية .

بعد مضي العهد اللاشعوري لأسلافنا وهو ميزة تميز الحياة الحيوانية، دخلنا في دور الشعور بعلائقنا الادبية والمادية المباشرة ، فحدث لنا بذلك شعور شخصي . وهذا الشعور الشخصي يتمشى الآن نحو شعور عالمي يفتح للاجيال المقبلة آفاقاً من الجمال والهناء لا حد لها.

اليك أمثلة تدل على ذلك : منذ قرون كان الذين يقدرون اتحاد البشر والعقول العالية يشتغلون لاجل أن توجد على الارض الاخوة العامة ولكن رغماً عن دور المحنة العظيمة (يريد دور الحرب العالمية الاخيرة) فاننا نعمل اكثر مما كنا نعمل لابطال الحروب وتغليب أصل التقرب الاخوي بين الشعوب، ولمحو التفاوت الاجتماعي والسياسي . والمذهب الروحاني الذي يفتح الآن أركان الارض سيساعد على صورة مؤثرة في اقامة هذا التضامن الجديد بين الكائنات . فان حوادث التلباثيا (التأثير والتأثر عن بعد) قد أعطى الحياة معنى جديداً . فقد صارت الحياة إلهية حقيقة . وهي متى تشبعت وتأيدت بروح التضامن بين الكائنات وبعاطفة حب الخير للغير فانها تملأ ما يحيط بها روحاً ماوياً وهذه العوامل التكميلية الجمة التي لا يحصى لها عدد في الهواء (هذا الوحي الجديد) يجعله ذا قيمة لا تقدر . فيجب علينا أن نستقبله باقبال عظيم ونلجأ اليه في انجاز الوعود السماوية التي يعدها أرواحنا المتألمة . لا أن نصارحه العداوة ونكاشفه الجفاء . ولنفكر في القيمة العظيمة التي يعطيها لترقينا الروحاني . واتخاذنا أسلوباً عملياً حسناً في دراسة هذه الظواهر يفرض علينا الايمان بهذا الترقي الجديد للناس وهو ترق يتابع طريقه في وسط غياض ملأى بزهور إلهية ؟

فلنعد ذكرى هذه الكلمات الحكيمة لمونتسكيو وهي :

« اذا استطعت أن أجعل الناس يشعرون ببواعث جديدة لمحبة واجباتهم وأوطانهم وشرائعهم لاعتبرت نفسي أسعد الخلق »

وانا اعترف بكل اخلاص بأن اقتناعي التام بنجاحي في خدمة الحقيقة وسعادة اخواني الآدميين بهذه المباحث يحثني ويشجعني على نشر المقررات المزية لهذا الوحي الجديد وحمل الناس على تحسين طرق البحث فيه .

(جان فينو)

فهرست هذه الرسالة

صفحة

صفحة

صفحة

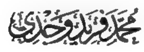
على أطلال المذهب المادي

تنشر تحت هذا الاسم العام كل ما نكتبه وما نؤلفه في علاج داء هذا العصر
وهو الالحاد. وهذه الحلقة الرابعة من هذه السلسلة العلمية وهي
الجزء الأول من كتاب يقع في ثلاثة مجلدات للعلامة
الكبير كاميل فلامريون نشره تحت عنوان :

الموت وغامضته

ما قبل الموت

نقله الى العربيـــة



﴿ طبع بمطبعة دائرة معارف القرن العشرين ﴾
سنة ١٣٤٦ الموافقة لسنة ١٩٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

كثيراً ما اقترح عليّ ، أن اوالي الكتابة في تقويم الاخلاق ،صدا لتيار الاباحة التي عمت جميع طبقات الناس في العهد الأخير ، وهددت بتدهور ادبي عام لامرد له الا بقارعة عظمى لاتبقي ولا تذر . فكنت اعتذر اليهم عن القبول بأن هذه الاباحة لاترجع الي الاسباب القريبة الظاهرة للناظرين ، بل الي علة ابعد غوراً ، سطت على اصول العقائد الموروثة فاجتثتها، بتأثير الفلسفة المادية ، بحيث لا يتأتى اعادة سلطانها على العقول الا من طريق العلم الطبيعي،لامن طريق الوعظ والارشاد

ذلك انه قد حدث تطور ادبي ضخم،في العصور المتأخرة، فرض علي العقول ان لاتسلم بوجود شيء أو عدم وجوده الا بدليل محسوس

جر هذا التطور الأدبي الجلل المفكرين الي وضع جميع المسلمات القديمة علي بساط التحليل ، وسلط عليها أدق أساليب التمحيص ، فلم تقو واحدة منها علي النقد ، حتي العقيدة بوجود الشخصية الانسانية متميزة عن الجسم . فعم الالحاد اوروبا وامريكا، وانتقل الينا من طريق العدوى . وكان من اثره نشوء ميل شديد الي ابلاغ النفس مشتهياتها الي اقصي مايصل اليه الامكان من مدى هذا العمر القصير

الا ان السلطان لم يتم لهذا الالحاد،فلم تكد تأتي سنة ١٨٤٦ حتي ظهرت في امريكا حادثة خارقة للعادة، اتينا علي تاريخها في الجزء الثاني من كتابنا علي اطلال المذهب المادي فتهافت كثير من علماء امريكا لتحقيقها، وكتبوا في صحتها كتبا ورسائل. فأيقظ ذلك شوق الناس الي تمحيص أمثالها في كل مكان ، فتألفت من مجموع هذه الجهود حركة قوية اثارت الصحافة في أوروبا وامريكا اثارة عنيفة ، فطلب الناس ان يدلي العلماء برأيهم في هذه الامور، فانتدبت في انجلترة لجنة علمية مؤلفة من نحو ثلاثين عالما من اكبر علماء الطبيعة، لفحص هذه الخوارق، وكان ذلك سنه ١٨٦٩ فبحثت هذه المسئلة ثمانية عشر شهراً وكتبت عنها تقريرا وقع في ٤١٥ صفحه أيدت فيها صحة هذه الخوارق بالاجماع، بعدأن بذلت كل ما في امكان الانسان يأتي به من اساليب التثبت والتمحيص

فكان من آثار صدور هذا التقرير العلمي الخطير ان غري العلماء في كل بلد متمدن بفحص هذه الامور، منذ هذا التاريخ . فكانت ثمرة هذه المحاولات وجدان ادلة عملية ، تثبت وجود العالم الروحاني والروح الانسانية وخلودها، اثباتا علميا . ولم يبق

الا تقرير تدريس تلك المباحث في الجامعات الكبرى كفرع للعلوم الطبيعية . وقد بادرت الي تقريرها حكومتا فنزويلا والبرازيل من أمريكا بأوامر عالية منذ ثلاث سنين .

ولا تزال المباحث في هذه المسائل آخذة في النماء بحيث صارت الشغل الشاغل للعالم العلمي اليوم

ولا عجب في هذا، فان ثبوت وجود العالم الروحاني، والروح وخلودها، ثبوتا علمياً من طريق التجربة، بجرالي حدوث تطور ادبي ينقل البشرية الي مكانة من الرقي المعنوي لا يتخيلها اليوم اكثر الناس تفاؤلا ، وتوجد للعلم الطبيعي معارف صحيحة علي أصل الحياة والوجود، وجميع غوامض الكون، يمدما لديناامنها اليوم من هذيانات العقول الطفلية

وقد وقف جم غفير من رجالات العلم في اوروبا انفسهم للتبشير بهذا التطور الجديد، علماً منهم انه لاشفاء للانسان من داء الاباحة الذى هو فيه اليوم الا بهذا العلاج الجليل . وقد ادركنا نحن ، منذ ان تصدينا للكتابة في تقويم عوج النفوس، صحة هذا الرأى، فعمدنا الي نشر أخبار هذه الفتوحات العلمية بكل ما اوتيناه من ثبات ومثابرة. واليوم نقدم لقراء العربية ترجمة المجلد الاول من الكتاب القيم للعلامة الفلكى الكبير (كاميل فلامريون) الذى نشره منذ خمس سنين باسم (الموت وغامضته) .
وكان له من التأثير ما كان ينتظر لمثله في ذلك العالم الآهل بالعلماء والمفكرين

يقع هذا الكتاب في ثلاثة مجلدات، وقف (الاول) منه علي اثبات الروح بالادلة العملية ، واوردفي (الثاني) الحوادث الخارقة للعادة التي تحصل في اثناء الموت، كظهور المحتضر لاقربائه البعيدين، وخص (الثالث) بايراد المشاهدات المقررة في ظهور الارواح بعد الموت، واثبات وجودها لذويها، بادلة محسوسة، حتي المثول امامهم متجسدة في صورها التي كانت عليها قبل الموت. اعتمد في كل ذلك علي تجاربه الخاصة وتجارب العلماء الثقاة العاملين

وقد عمدنا الي اسلوب حسن في ترجمة هذه المجلدات الثلاثة، فحذفنا كثيراً من الاقوال التي لا تمس اليها الحاجة، حتي لا يكون الكتاب مملا للقارئين . وحرصنا كل الحرص علي ترجمة أقوال المؤلف ترجمة حرفية، كما هو دأبنا فيما ننقله عن العلماء الغربيين

فها هي ترجمة المجلد الاول نقدمها للقارئين ، راجين ان يكون لها من الاثر لديهم ما كان لاصل الكتاب عند الغربيين محمد فريد وجدى

الموت وغامضته

قبل الموت

قال العلامة كاميل فلامريون :

ان موضوع هذا الكتاب محدد بالفرض من وضعه وهو : تحقيق البراهين الحسية على البقاء بعد الموت . فلن يجد فيه القراء لامباحثات أدبية ، ولا عبارات جميلة شعرية ، ولا نظريات تختلف في قوة تأثيرها على الاذهان ، ولا افتراضات علمية ، ولكنهم سيجدون حوادث مرئية فقط مقرونة بنتائجها المنطقية

هل سنموت موتاً نهائياً ؟ هذه هي المسألة . وأي شيء سيخلد منا ؟ ان قيل ان خلودنا قائم بتعاقب أخلافنا ، وبما نتركه وراءنا من أعمالنا ، وبما نجلبه للانسانية من الرقي بمجهودنا ، فهذا يعتبر مزاحا محضا . لاننا ان متنا موتاً نهائياً فلن نشعر بشيء من خدماتنا الباقية بعدنا ، وستتأدي الارض ومن عليها الى التلاشي . اذن فكل شيء فان

لاجل معرفة ما اذا كانت الروح تبقى بعد الجسد يجب أولا معرفة ما اذا كانت هذه الروح ذاتها موجودة مستقلة عن هذا التركيب المادي . فعلينا اذن أن نؤسس القول بوجودها على قواعد علمية من المشاهدات الحسية ، لاعلى العبارات الخلابة أو علي الادلة الكونية التي اكتفت بها العلوم الكلامية في كل زمان الى هذه الايام. وقبل كل هذا يجب علينا أن نتحقق من نقص النظريات الفزيولوجية المسلم بها تسليما عاما والتي تدرس علي حالة رسمية

---

(1) "La mort et son mystère,, Par Camille Flamma - rion. Chez Ernest Flammarion, 26 Rue Racine, Paris

المــادية

مذهب ضال وناقص

« لتحذر خدع الظواهر »

كوبرنيك

ليس فى الناس من يجهل (الفلسفة الوضعية) لاوجوست كونت وأصالة ترتيبه العلوم متنزلا تدريجياً من الكون للانسان، ومن علم الفلك الى علم الحياة (البيولوجيا). وليس في الناس من يجهل أيضاً (ليتريه) خليفة اجوست كونت، فان قاموسه ماثل فى جميع المكتبات ومؤلفاته منتشرة فى كل مكان. وقد عرفت شخصه، وأقول انه كان عالي القيمة، عالما، من مؤلفى دائرة معارف القرن الثامن عشر ومفكراً بعيد الغور، ولكنه كان ماديا ملحداً عن اقتناع، ومخلصاً للدرجة القصوى. وكانت سيماه لاتناسب جمال روحه. فكان ممن يصعب على الناظر اليهم أن لايفكر في أصلنا القردى. ومع هذا فقد كان عقله في أعلى درجات الاصالة، ونفسه نادرة في الكرامة. وكان لايبعد عن مرصدي كثيراً، وكانت امرأته تقية جداً. فكان يوصلها كل أحد للصلاة بكنيسة سان سولبيس مسوقا بطيب قلبه وصفائه، ولكنه ماكان يدخل معها اليها. والاستاذ (لوداتك) الذي خلفه وهو ملحد ومادى متهمر بالكنيسة فى جنازته مراعاة لشعور امرأته وهي أيضاً متدينة تقية، ولكنهم يأسفون لحالتها هذه اذ يحبون أن يروا النساء مشايعات لآراء أزواجهن. وقد كان أستاذ الالحاد هذا طيب القلب جداً كسلفه. وهذا كله مخالف للرأي العام. وكان على هذه الشاكلة (جول سوري) هذا (الملتهم للقسوس) وقد دفنه هؤلاء بعد أن صلوا عليه صلواتهم المقررة. فما أبعد المنطق عن هذا العالم. ولكن المذاهب لاتتحكم دائما فى سيرة أصحابها، فقد يكون الانسان كاثوليكيا عاملا بدينه، ولا يمنعه ذلك من أن يكون كاذبا في حديثه وعاديا على

حقوق أخيه . ويمكن أن يكون ماديا وهو مع ذلك شريف الغاية . وقد عرفت أيضاً ارنست رينان العظيم برفض الوظيفة الكهنوتية التي كانت تؤدبه اليهاباحثه اللاهوتية مسوقا باخلاصه الاصيل وبحبه للتنزه عن كل رياء

هذه العقول العالية يجب أن يحترموا في عقائدهم المخلصة كما كانوا يحترمون عقائد غيرهم ، ولكن يمكننا مناقشة آرائهم وهم لايدعون أنهم معصومون عن الخطأ

وقد اشتغل ليتريه بالمسائل النفسية التي عولنا على بحثها هنا ، فنستطيع أن نعتمد على براهينه كاعتمادنا على براهين (تين) نديده، باعتبار أنهاقواعدالحجج المادية الراهنة. فلا نخش أن نكافحهم وجهاً لوجه، وأن نقبض على الثور من قرنيه

عقد (ليتريه) فصلا في كتابه (العلم من الوجهة الفلسفية) على الفزيولوجية النفسية صرح فيه بما يأتي :

« اليوم لايمكن الشك فى ان الظواهر العقلية والخلقية هى من الحوادث الخاصة بالنسيج العصبي،وان الحالة الانسانية ليست الا حلقة ، بل أعظم حلقة في الواقع ،من سلسلة ممتدة ليس لها حد مقطوع الى آخر درجة من الحيوان، وانه بأي عنوان يبتدي، الانسان،على شرط أن يستخدم الاسلوب الحسي والمشاهدة والتجربة، يكون عاملا فى مجال الفيزيولوجيا لم يخرج عنه . وأنا لا أتصور فيزيولوجية لا تشتغل منها نظريات العواطف والافكار بكل مافيها من السمو محلا عظيما»

(مناقشة كاميل فلامريون لليتريه)

قال كاميل فلامريون بعد نقله هذه القطعة :

هذه هي قاعدة المذهب المادى في الروح . وأنا أدعو القارىء أن يزن بدقة هذا النوع من الفهم

قالوا : لايجوز لنا أن نسلم بوجود الروح « لاننا لم نر قيام أية خاصة بدون مادة ، ولاننا لم نصادف الجاذبة بدون جسم ثقيل، ولا الحرارة بدون جسم كهربائي، ولا الالفة الكيماوية بدون مواد قابلة للاتحاد، ولا الحياة والحس بدون كائن حي حساس مفكر ... »

والحال ان هذا التدليل معيب لابتنائه على التسليم بأمر يحتاج هو نفسه الى دليل يثبته ، وذلك الامر هو كلمة (الخاصة)

وتشبيه الفكر بالجاذبة وبالحرارة وبالآثار الآلية ، الطبيعية والكيماوية للاجسام المادية، فيه تسوية بين شيئين مختلفين جداً لاتزال مسئلتهما معقدة وهما الروح والمادة

فارادة الكائن الانسانى ، ولتكن ارادة الطفل، هي شخصية شاعرة، ولكن الجاذبة والحرارة والضوء والكهرباء فهي غير شخصية ولاشاعرة، ثم هي في بعض الحالات المادية، ضرورة عمياء ، وهى نفسها مادية محض . فالخلاف شاسع بين ركني هذا التشبيه كما بين الليل والنهار

فهذا التدليل العلمي نفسه فاسد من أصله . فالحرارة مثلا لاتأتي دائما من جسم حار، والحركة التى ليس فيها أدنى حرارة يمكن أن ينتج منها حرارة، والحرارة نفسها شكل من أشكال الحركة . والنور نفسه شكل من أشكال الحركة . وطبيعة الكهرباء لاتزال مجهولة

واني لأعترف بأني لاأفهم ان رجلا في قيمة «ليتريه» زعيم المذهب الوضعي يكتفى بمثل هذا التعليل ولا يتنبه الى انه دائر حول التسليم بأصل هو نفسه يحتاج لدليل أو حول لعب بالالفاظ . لان هذا التدليل معتمد على كلمه «الخاصة» والذى كان يجب اثباته بالحس أولا هو ان الفكر خاصة من خواص المادة العصبية ، وان الشيء غير الشاعر يمكنه أن ينتج الشيء الشاعر ، مما هو في الاصل متناقض

ان الانسان يتجاسر بصعوبة على تشبيه قطعة من الخشب بقطعة من الرخام أو بقطعة من المعدن ، ولكنهم لايجدون بأساً من تشبيه الروح والعقل المفكر وعاطفة الحرية والعدالة والرحمة والارادة بوظيفة من وظائف المادة العضوية . فان (تين) *Taine* يؤكد بأن المخ يفرز الفكر كما يفرز الكبد الصفراء. ألايظهر من هذا ان محل التعقل لدى هذه العقول قد غشي مقدما بعماية لاتقل عن عماية اللاهوتيين؟ أليس فيه دلالة على ان هؤلاء العلماء كانوا منقادين لرأي ليس عليه دليل ، ولاقتناع مذهبي محض ؟

يهمنا ونحن في بداءة هذه المناقشة أن لا نعتمد على الكلمات الفارغة . فما هي المادة؟ هي في العرف العام ماندركه بحواسنا أي هي ما يرى وما يلمس وما يوزن. نسلم بذلك. والصحف الآتية ستثبت ان في الانسان عنصراً مستقلا عن الخواص المادية، أي أصلا عقلياً شخصياً يفكر ويريد ويعمل ويظهر بعيداً عن جسده ويري بغير العينين ويسمع بغير الاذنين ويكشف المستقبل الذي لم يوجد بعد ويبين أشياء مجهولة . فافتراض ان هذا العنصر النفساني الذى لا يرى ولا يلمس ولا يوزن خاصة من خواص المخ قول بلا دليل وتعقل متناقض ، كما لو قيل ان ملحاً يستطيع أن ينتج سكراً ، وان السمك يمكنه أن يكون من سكان الارض القارة

الذى نريد أن نبينه هنا هو ان المشاهدة الحسية نفسها ـ (وليس لنا أسلوب غير أسلوب ليتريه وتين ولودانتك وأئمة المادية ونحن نرفض المذاهب البيزانتية في الاعتماد على الالفاظ فانها من الهذيانات) ـ قلنا الذى نريد أن نبينه هنا هو ان المشاهدة العلمية والتجربة تثبت ان الكائن الانساني ليس بجسد مادي بحت متمتع بخصائص متنوعة، ولكنه كائن نفساني أيضاً متمتع بخصائص تخالف خصائص الجسم الحيواني

كيف استطاعت عقول عاليـة من أمثال كونت وليتريه وبرتلو أن تتصور ان الوجود الحقيقي لايخرج عن دائرة تأثير مشـاعرنا وهى الآلات البعيـدة المدى في القصور والنقص ؟ ان السمكة لتستطيع أن نعتقد بأنه لا يوجد شيء خارج الماء، والكلب أن تصدي لترتيب المعارف الـكلية لا يرتبها اعتماداً على النظر كالانسان ولكن اعتماداً على الشم . والحمائم السياحة تعول على الحاسة التي تهديها في سيرها . والنملة على حاسة عصبها المقدم الخ الخ

الروح متسلطة على الجسد . فقدراته ليست بقائدة ولكنها منقادة . وهذا النظر العقلي نفسـه ينطبق على الكون برمته، وعلى العوالم الدائرة في الفضـاء، وعلى النباتات والحيوانات . فالورقة من الشجرة ممتعة بأعضاء ذات وظائف . والبيضة التى تفقس ممتعة بأعضاء كذلك . وهذا التمتيع يعتبر من الامور الصادرة عن عقل

فالعقـل العام ظاهر في كل شيء ومالىء الوجود ، وهو كذلك بدون مخ . ومن

المستحيل أن يحلل الانسان آلات العين والابصار والاذن والسمع بدون أن يستنتج أن عضو البصر وعضو السمع مصنوعان بعقل . وهذا الاستنتاج يكون أكثر وضوحا اذا حللت مسألة تلقيح زهرة وحيوان وانسان، وتطور البيضة النسوية الملقحة ووظيفة المشيمة (الخلاص) وحياة الجرثومة والجنين ، وتكوين هـذا الكائن الصغير في بطن أمه، والاستحالة العضوية للمرأة وتكوين اللبن في ثديها وميلاد الطفل والارضاع وتطور الطفل جسديا ونفسيا . كل هذه الامور مظاهر لاتنقض لقوة مدبرة عاقلة ترتب كل شيء وتقود اصغر الجواهر المادية بمثل النظام الذي تقود به الكرات الكوكبية أو النجمية في هذه اللانهاية السماوية . وهذا العقل لم يتولد من مخ . ولقد قيل بحق انه اذا كان الله قد خلق الانسان على صورته فقد قابله الانسان على ذلك بمثله . واذا كانت الخنفساء تتخيل خالقا لم تتخيله الا خنفساء كبيرة . ولكن الاله الانساني الذي تخيله اليهود والنصارى والمسلمون والبوذيون لم يوجد قط . وعبارات الاله الآب وجيوفاه وجوبتير ليست الا كلمات رمزية

فاذا كانت الذرية الآدمية مخلوقة في أحسن تقويم من الوجهة الفيزيولوجية فهي لا تزال بعيدة عن الكمال فيما يختص بآلام الامومة. فلم كانت هذه الآلام؟ وماحكمة الاوجاع القاسية التي تلازم نهاية الانسان؟ تراها الكنيسة عقوبة على خطيئة حواء. فيا للمزاح؟ فهل وجد آدم وحواء في زمن من الازمان ؟ ألا تتألم اناث الحيوانات ؟

اننا نرى الطبيعة لاتأبه بالادوار المؤلمة للمرأة، ولا بالشدائد الملازمة لخروج ما يخرج منها. فالطبيعة هنا مجردة حقيقة من الرحمة ويلزم منه أن يكون الله الرحيم ليس برحيم نحو مخلوقاته ، بل ليس له مثل عواطفنا الانسانية. وتكون العذارى المترهبات المنقطعات لتخفيف ويلات الانسان أفضل منه. هذه مسألة خطيرة الشأن رغما عن ثقتنا في وجود العقل المدبر في الطبيعة

اننا لم نفهم ماهو الله. هذا أمر من الوضوح بمكان. وماذا يثبت هذا العجز منا؟ يثبت انحطاطنا الروحاني

أما من جهة وجود العقل المدبر والفهم والنظام العقلي في كل شيء، فهذا أمر لا يمكن

نكرانه . والعلم التجريبي يقف في الطريق اذا قرر أن جميع الحوادث الكونية تستحيل في نهاية تحليلها الي المذهب الثنوى المادة والحركة ، أو الى التوحيد الطبيعي المادة وخواصها . فالتاريخ الطبيعي وعلم النباتات والفيزيولوجيا الحيوانية والانتربولوجيا (علم التاريخ الطبيعي للانسان) تكشف للشاهد عن عنصر متميز عن المادة والحركة هو الحياة . ألم يبين لنا (كلودبرنار) الفزيولوجي ان الحياة ليست نتيجة الذرات المادية؟

وزيادة على هذا فان الوجود ينكشف لنا على حالة حركة محضة ، لان الحركة ملازمة للذرات أنفسها وهذه الحركة ليست من العالم المادي لوجود النظام في الكل من كائنات وأشياء

المذهب الذى يعتبر الفكر الانساني وظيفة من وظائف المخ أو الذى يري توازيا وتوازنا بين عمل المخ وعمل الفكر ، نستطيع أن نعده كاعده البسيكولوجي (بيرغسون) مذهبا ناقصا كل النقص

يقولون بأن الاشياء التي يتذكرها الانسان مخزنة في المخ على حالة تحولات مطبوعة في طوائف من العناصر التشريحية فاذا زالت من الذاكرة فماذلك الا لان تلك العناصر التشريحية التي هي مستقرها تكون قد فسدت او دثرت. والتأثيرات التي تأتى من الاشياء الخارجية تبقى فى المخ كما تبقى على الزجاجة الفوتوغرافية الحساسة أو على صفيحة الفونوغراف

لامشاحة في ان هذه التشبيهات سطحية فانه اذا كان التذكر النظري لشيء من الاشياء مثلا ناشئا من تأثير هذا الشيء على المخ ، فلا يكون لهذا الشيء ذكرى واحدة بل ألوف من الذكريات أو ملايين لأن أبسط الاشياء وأثبتها يتغير فى صورته وحجمه ولونه على حسب النقطة التي ينظر اليه منها، اللهم الا اذا قصرت نفسك على حد معين كلما نظرت اليه ، وكانت عينك تجمد في حجاجها فترتسم على شبكيتها الصورة بعد الصورة ثم تنتقل الى المخ صور لايحصى لها عدد وغير قابلة لان يرتسم بعضها على بعض

فماذا تكون الحال اذا كان التأثير البصرى واقع من شخص تتغير صورته، وجسمه

متحرك ، ويختلف لباساً وصحباً في كل مرة تنظر اليه فيها ؟ ما لانزاع فيه ان ضميرك لايحفظ عنه الاصورة واحدة، وتكاد تكون لك ذكرى غير قابلة للتغير عن كل شيء أو كل شخص تقع عليه عينك . وهذا دليل واضح على أن فى هذا الامر شيأ غير الاختزان الميكانيكي الذي يعللون به قوة الذكر في الانسان

ويمكننا أن نسري ماقلناه أيضاً على الذكرى السمعية . فان الكلمة قد يلفظها أفراد مختلفون أو فرد واحد في أوقات مختلفة وفى حالات متباينة فتعطي نغمات لا يشبه بعضها بعضاً فكيف يصح بعد هذا تشبيه الذكرى السمعية بنظرية الفونوغراف

هذا الاعتبار وحده يكفي لان يشككنا في النظرية التي تعزو مرض نسيان الكلمات الى فساد او الى دثور الذكريات المطبوعة تشريحيا في القشرة المخية

ولكن لننظر مايحدث في هذه الامراض على رأى هذا المؤلف نفسه (يريد بالمؤلف ليتريه المتقدم ذكره) فقد قال :

« اذا كانت اصابة المخ خطيرة وذكرى الكلمات متأثرة بشدة فقد يحدث ان تهييجاً ما او انفعالا ما يعيد فجأة الذكرى التى كان يظن انها ضاعت نهائيا »

« أفيمكن هذا اذا كانت الذكرى مطبوعة فى المادة المخية وقد فسدت هنا أو دثرت ؟ فالامر يجري كما لو كان المخ أداة للذكر لا انه خازن له . فالمريض بفقده الكلام يعجز عن وجدان الكلمة متي احتاج اليها . ويظهر كأنه يدور حولها وليس له من القوة مايجعله يضع يده على مبتغاه منها ، والعلامة الخارجية للقوة في المجال الفزيولوجى هي الضبط دائما . ويظهر أن الذكر تسرى عليه هذه القاعدة أيضا . وأحيانا بابدال المريض الكلمة الضائعة بجمل متعددة يدخل تلك الكلمة في واحدة منها وهو لايدرى

« فلنعمل الفكرة الآن فيما يحصل في مرض فقد الكلمات الآخذ في التفاقم ، أعني لما يكون نسيان الكلمات متدرجا فى درجات الخطورة ، فنجد دائما ان الكلمات تزول من الذاكرة بترتيب محدد كما لو كان المرض ملما بقواعد الآجرومية . فتزول اولا اسماء الاعلام ، ثم تليها الكلمات العامة ، ثم النعوت ثم الافعال طبقة بعد طبقة

فيصيب المرض كل طبقة منها الواحدة بعد الاخرى

« نعم ولكن للمرض يمكن أن يحدث من أسباب كثيرة الاختلاف . وأن يأخذ أشكالا شديدة التباين . وأن يبدأ في جهة ما من المخ ثم يمتد في أي اتجاه كان . ولكن نظام ضياع الذكر يبقى على ماوصفناه ، فهل هذا يكون ممكنا اذا كان المرض في المحفوظات نفسها ؟

«واذا كانت المحفوظات ليست مختزنة فى المخ ففى أى محل تختزن ؟ وهل لقولنا (أين) معنى اذا كان كلامنا عن شيء آخر غير الجسم ؟ اننا نعلم انالقوالب المطبوعة يمكن حفظها في علبة ، وان الاسطوانات الفونوغرافية يمكن ايداعها في بيوتها. ولكن كيف تحتاج المحفوظات التي ليست بأشياء مرئية ولامحسوسةلمكان يشملهاو كيف يعقل أن يكون لها مكان ؟ هل هذه المحفوظات فى شيء غير العقل . واذا كان العقل هو الوجدان نفسه فالوجدان معناه قبل كل شيء ذا كرة » انتهى

(مناقشة كاميل فلامريون للاستاذ لغزيه)

قال كاميل فلامريون عقب ايراده هذا الكلام :

اننا نستطيع أن نقول مع هذا المفكر العظيم ان كل شيء في أجسادنا يحصل كما لو كان الجسم مسخراً للروح . ومن هنا فلا حق لاحد ان يعترض بأن الجسم والروح متلازمان بحيث لاينفك أحدهما عن الآخر

هذا مخ يعمل ، وهذا وجدان يحس ويفكر ويريد . فاذا كان عمل المخ يقابل مجموع عمل الوجدان اي اذا كان هناك توازن بين المخي والعقلي، فيمكن ان يخضع الوجدان لما قدر على المخ، ويكون الموت نهاية الاثنين ، وتكون التجربة على الاقل لاتثبت الضد ، ويستحيل أمر الفيلسوف الذي يثبت بقاء النفس الي الاستناد على قاعدة من علم ماوراء الطبيعة، وهي قاعدة واهية على وجه عام . ولكن اذا كانت الحياة العقلية تطفى على الحياة المخية ، واذا كان المخ لايترجم بحركاته الا عن جزء صغير مما يحدث فى الوجدان ، فالبقاء بعد الموت يكون من الرجوح بحيث يلقى عبء التدليل على المنكر لا على المثبت . لان الدليل الوحيد الذي لنا على تلاشي الوجدان بعد الموت

هو أننا نرى الجسم يتحلل ، ولكن هذا الدليل لايكون له اقل قيمة اذا كان استقلال الوجدان عن الجسم ، ولو استقلاله الجزئي ، صار من الحوادث الداخلة فى نطاق التجربة

وان (برغسون) على كونه من علماء ماوراء الطبيعة يظهر انه اكثر اعتمادا على الحس من الطبيعي (ليتريه) نفسه

فالروح ليست المادة . ولم يثبت بدليل انها وظيفة من وظائف المخ او خاصة من خواص المادة الحية قدّر عليها ان تموت معه

وقد يسأل المتسائل كيف ان رجلا عاقلا في سعة ادراك (تين) مثلا ممن يقدرون ادراك وتأليف كتاب او مشروع وتنفيذه حق قدره ، وهو نفسه واضع كتابا خاصا في الادراك ، يستطيع ان يعزو ابتكار عمل فلسفي الى افراز تركيب ذى اجزاء مادية مؤلفة لمخ . فان عمل العقل الشخصي ظاهر ، وهو من الوضوح والثبوت بحيث لايكسفه الا جحود مذهبي

المخ عضو الفكر ، لامشاحة فى ذلك ولا يتأتي لاحد نكرانه، ولكن المخ فى جملته على عكس ما كانوا يسلمون به من قبل، ليس ضروريا لوجود الفكر ولا الحياة

ويمكننا ان نضيف امثالا كثيرة على الامثال التي اتينا بها من امراض الذاكرة التى نوهنا بها وكلها تؤدى الى هذه النتيجة

قدم صديق العلامة (ايدمون پرييه) الى مجمع العلماء فى جلسته المنعقدة فى ٢٢ دسمبر سنة ١٩١٣ مشاهدة للدكتور (روبنسون) تتعلق بشخص عاش مدة سنة، ويكاد يكون ذلك بلا ألم ولا أدنى اضطراب عقلي ظاهر، مع ان مخه كان قد استحال الى عجينة مائعة بسبب قرحة عظيمة ممدة «اى ذات مدة»

وفي يوليو سنة ١٩١٤ نقل الدكتور «هالوپو» الي الجمعية الجراحية حديث عمل جراحي عمل في مستشفى «نيكر» لشابة وقعت من المترو . فشوهد بعد خرق جمجمتها ان جزءاً عظيما من المادة الحية قد استحال الى عجينة مائعة بكل معنى هذه الكلمة فلما نظف الجرح وسحبت تلك العجينة منه وأقفل الجرح شفيت المريضة

وقد بين الدكتور «جيبان» للمجمع العلمي في ٢٤ مارس سنة ١٩١٧ بعمل جراحي على جندي بأن بتر جزء من المخ لايمنع بقاء الخواص العقلية

ويمكننا ان نأتي على شواهد اخري . فقد يبقى من المخ جزء قليل أحياناً فيستخدم منه العقل بمهارة مايستطيع استخدامه

فاذا كان الجراحون لم يجدوا الروح على اطراف مشارطهم وهم يشرحون جسماً فذلك لأنها ليست هنالك . واذا كان لايعتبر الاطباء والفيزيولوجيون خواصنا النفسية الا خواص المادة الحية ، فأنهم ضالون ضلالا بعيداً . فانه يوجد في الانسان شيء غير المادة البيضاء والمادة السنجابية للمخ

يمكن ان يعترض معترض بقوله ان خاصة الفكر تتبع حالة المخ وأنهـا تضعف بتقدم السن كالمخ نفسه . ولكن أليس الآلة هي التي تضعف في هذه الحالة اي الجسم وليس العقل ؟ قد يشاهد في اكثر الاحوال عند المشتغلين الكبار بأفكارهم ان عقلهم يبقى قويا الي آخر أيام حياتهم . فان كل المعاصرين لي يعرفون في باريز كتابا مثـل فيكتور هوجو ، ولامارتين ، ولوجوفيه ، ومؤرخين مثل تيير س، وميتيه ، وهنري مارتان ، وجهابذة مثل بارتلمي سانتيلير « ١٨٠٥ ١٨٩٥ » وعلماء مثل شيفرول « ١٧٧٩ — ١٨٨٩ » قد أظهروا الي سن متقدمة جـداً رجولة تامة وشبيبـة روحية بينة .

يُعَرَّف بعض الفيزيولوجيين النوع البشرى منذ زمان بعيد بأنه الكائن المتعقل، فهل الذى أوجد هذا الامتياز للانسان هو مجتمع الذرات المادية المكونة لمخه ؟ وهل التجمعات الكيماوية لذرات من الايدروجين والكربون والازوت والاكسيجين الخ يمكنها ان تعقل وان تفكر ؟

البيولوجيا علم حديث الظهور . وهي في شكلها الجبرى فلسفة لاعلم . وخاصـة الفلسفة هي اعتبار الظواهر العقلية والنفسية نتائج التفاعلات الفزيولوجية . والتعليلات الفيزيولوجية اذا جاءت على صور تعبيرات مجـازية كانت اعـترافا صريحاً بالعجز

فانهم يعتبرون العثور على كلة جديدة اكتشافا علميا ، والتفسير اللفظي لمشاهدة تعليلا طبيعيا

فالاحساس والاصل الحيوي لايزالان سرين مكنونين كما كانا عليه في القرون الخالية رغماً عن المكتشفات العصرية الدالة على الاصل الفيزيولوجي المحض للحركات العضلية . ولا يستطيع واحد منا أن يمتنع عن الاعتراف بأن فيه بجانب جميع الظواهر الفزيولوجية، وبعبارة أحسن، فوق جميع الظواهر الفيزيولوجية اصلا عقليا عاملا باستقلال بدونه لايمكن تعليل شيء ، وبه يمكن تعليل كل شيء

لنقل عقب هذا بأن المظاهر الطبيعية المعروفة عن الروح ، وهي التي تكلمنا عنها هنا، تنمحي أمام الظواهر الطبيعية التي سنأتي عليها في الفصول التالية

وكان يجب على الطب ان يعتمد على هذه الاعتبارات فيؤثر لا على الجسد الطبيعي وحده بل وعلى الحركة العقلية أيضا . فان عدداً من الامراض التي استعصت على الوسائل العلاجية امكن شفاؤها بالتأثير العقلي . ولدينا من الشواهد على تلك الشفاءات التي تمت بالتنويم المغناطيسي والتلقين العقلي والمعجزات المزعومة للعقيدة الدينية من منذ وجود هيكل « ايدور » وعبادة « اسكولاب » الى « لورد » ومنافساتها « ١ » والجيبيات المؤسسة على العلاج بالامراض المشابهة للمحلول العشرين، لاتؤثر هذه الوسائل كلها بفضل الاقناع العقلي ؟ نعم فان الاعتقاد يحرك الجبال

أجل . الروح ليست بالجسم . ولا هي مستفادة منه . بل هي تؤكد بأنها ممتازة عنه. وليس في الناس من لا يعرف فضل الارادة. فالثبات في هذه الارادة سواء أكانت

« ١ » ايدور مدينة يونانية على بحر ايجيه كان بها هيكل لاله الطب اسكولاب كان يزورها المرضى ويشفون . ولورد قرية فرنسية بها هيكل للسيدة مريم يحج اليها المرضى فيبلون من أمراضهم . وقد شوهدت شفاءات غريبة حدثت بسببها عزاها الباحثون لفعل التأثير الاعتقادي

حسنة ام رديئة ، وفكرة التضحية والبطولة واحتقار الآلام، وعدم حس أعضاء الشهداء الذين كانوا يتكبدون أفظع التعذيبات ، ونكران الذات ، والاخلاص ، والفضائل ، والعيوب، والاحسان، والحسد ، والحب والبغض ، أليست كل هذه الصفات تدل على استقلال الروح عن المخ استقلالا نسبيا

من الناس من لايفكرون فى شيء . واننا لنصادفهم بين الخلق . ولكن الانسان مهما انحط فى علمه فانه يدرك بأنه يوجد شيء أعلى مقاماً من الاكل والشرب والتزاوج . وان هذا العالم الفاني للحواس ليس بحظه من الوجود ، وانه ليس الا مظهراً لاصل عال لانرى منه الا ظله مرتبكا . وقد جاءت الاديان محاولة أن تبل غلة هذه العاطفة

فاذا حللنا الجسم الانساني ووظائفه الطبيعية فلا يمكننا أن نمالك أنفسنا من الاعتراف بأنها رغماً عن كل هذه اللذات التي تستطيع أن تمنحها لمشاعرنا فانها في الجملة أشياء تافهة اذا لم تعتبر فيها الا المادة وحدها. ولكن الكرامة الحقة هي للعقل والعاطفة والادراك وحب الصناعة والعلم . وان قيمة الانسان ليست بجثمانه السريع العطب الكثير التحول القليل المقاومة . ولكن بروحه التى تظهر منذ هذا الدور من الوجود متمتعة بخصائص غير قابلة للفناء

على ان هذا الجسد ليس بكتلة جامدة متحركة بنفسها، بل هو تركيب حي. ولا يخفى ان تركيب كائن أو انسان أو حيوان أو نبات يشهد بوجود قوة منظمة وعقل مدبر في الطبيعة و عقل مدرك يقود ذرات المادة وأنه ليس خاصة من خواصها. فان لم يكن في العالم لا ذرات مادية مجردة من التدبير لما استطاعت الخليقة أن تقوم، و كان استحال العالم الى مجموع مرتبك من المواد مجردة من النواميس الرياضية . وكان النظام ليس من حظ هذا الوجود

مؤدى النظرية الميكانيكية للوجود ان مجموع الاشياء هي الثمرة المحتمة للمركبات المجردة عن الشعور، وان الخليقة أصلها غاية محضة تصبح شيأ يذكر بالتدريج وينتهي

أمرها بالتحلي بفكر . أيستطيع الانسان أن يتخيل فرضا أشد استحالةمن هذا الفرض وأكثر مناهضة للشاهدات ؟

ان الطبيعة الغامضة قد وضعت فى كل شيء قسطا من العقل . وأنها تظهر متمتعة بحيل لا تخطر علي بال على وجه عام . فما معنى غرضها حب الزينة والتبرج في البنت، وهي العاطفة التي تقودها لان تصير امرأة، وأن تتحمل ان تستبقى النوع بواسطة جسمها اللطيف ، وأن تتكبد آلام الأمومة وهي راضية مستبشرة ؟ وما هو العشق ، هـذه الاحبولة المحبوبة ؟ وماهي الآلام القلبيـة ، وما هي العاطفة ، أليس لهجـة الطبيعة الصامتة يسمعها كل من له أذنان ؟ وما معنى تعاون عصفورين لبناء عش ؟ وتغـذية الذكر لانثاه وهي جاثمة على البيض ، وايتائها بالطعام لصغارها الجيـاع ؟ وما هي الدجاجة وفراخها ؟ أتفكرت قط في اول خفقة القلب حدثت في بيضـة وفى طفل ؟ أحللت قط تلقيح الزهور ؟ فاذا لم تر في هذا كله نظاماً عقلياً ، وغرضاً ، وبرنامجاً ، ومقصداً عاماً ، وغاية ، وتدبيراً يتسلط علينا جميعاً ، واذا لم تردأن تري في «الحياة» الغاية العليا لنظام الدنياوات فانك لاتريد أن تري الشمس في رائعة النهار

الى أي غاية تسوقنا هذه القوة الخفية ؟ اننا لاندري ذلك . وبينما الحياة تفرض علينا قوانينها يندفع هذا الكوكب الذى نسكنه فى الفضاء بسرعة ١٠٧٠٠٠ كيلومتر في الساعة . وهو نفسه ألعوبة في يد القوي القائدة للمجموع الارضي وللحركات الاربعة عشرة المختلفة . فنحن ذرات مفكرة على ذرة متحركة تعتبر جزءاً من مليون من حجم الشمس. وهذه الشمس تعتبر جزءاً من مليون من «كانوبوس». وهو نفسه يعتبر ذرة في مجموعتنا الكوكبية الضخمة . وهذه المجموعة ليست الا عالماً محاطاً بعوالم اخرى لاتنتهي الى حد . فما أوسع هذه اللانهاية ، وما اعجب هذه الحركات ، وما أدعى هذه السرعات للحيرة !

يظهر ان القوة ملازمة للذرة المادية، لانه لم تصـادف قط ذرة ساكنـة . وكل كائن حي ليس فيه قوة مدبرة لا يستطيع أن يعيش ، بل يسقط متحطما كبناء ترك وشأنه

كان رينان وبرتلو ، وهما الصديقان المتلازمان ، يتباحثان أحياناً في هذه المسئلة التي نحن بصددها . وقد مات كلاهما على غير أمل منهما في حياة أخرى. ولكن كان لكل منهما عواطف متخالفة من بعض الوجوه . فني ٢٥ اغسطس من سنة (١٨٩٢) كتب برتلو لرينان وهو ينحل يوما بعد يوم (وذلك قبل موته بشهر واحد) يقول :

« لنتعز برؤية أحفادنا يكبرون . فان هذا هو النوع الوحيد من الخلود الذى نعرفه بعلم محقق »

هذا النوع من الكلام لايستدعي أن يكون برتلو منكراً للخلود انكاراً مطلقاً ، ولكنه كان يوافق بلا شك بعض آراء مؤلف حياة المسيح

وكان رينان قد كتب الي برتلو فى ٢٠ يوليو ماصورته :

« أهم حادث في مدي حياتنا هو الموت، وهذا الحادث يقع على وجـه عام في أحوال غاية في الشناعة . ومذهبنا الذى أساسه أن لانتمسك بأى خيال له عن تلك الساعة الخطيرة فوائد خاصة

« أنا أشتغل في هذه الساعة بتصحيح مسودات الجزئين الرابع والخامس من مؤلفى «اسرائيل» وأتمني أن أراهما مطبوعين . فاذا كان أحد غيرى يقسم الخطوط فسأشعر بقلة الصبر في قعر المطهر ، فان اكثر الاصطلاحات التي رميت اليهالايدريها أحد غير الله وغيري . فلتنفذ ارادة الله » انتهي

من هنا يرى ان هذا الفيلسوف ، الذى كان لاهوتياً قبل ذلك ، قد أعد نفسه لما قدّر عليه.فان عقيدته بالله بقيت له . وقد يكون الانسان مضاداً للهيئة الكهنوتية ومؤمناً بالله معاً . فيحتمل أن رينان لم يكن بعيداً عن القول بالبقاء بعد الموت بقـاء غير محدود

ولكنه ، على مارواه صهره المسيو بسيكارى الذي لازم سريره سـاعة وفاته ، قال وهو يجود بنفسه : أنه لن يبقى منه شيء بعد موته ، لاشيء ، لاشيء ، لاشيء .

هكذا كان شعوره فى الساعة الاخيرة من حياته . ويشبهه في هذا الشك مئتمن كبار العقول . مع أنهم كانوا يبحثون عن حقيقة البقاء بعد الموت مثله . هذا الشـك

لايستند الا على جهلنا ليس الا . فقد كان بطليموس (الفلكي الاكبر) لايجد شيئاً أسخف من افتراض الحركة الارضية ، ولا أدعي منه للاستغراق في الضحك!

﴿ ماهو الفكر ؟ ماهي الروح ؟ ﴾

ليس يوجد شيء من وراء الطبيعة . والروح اذا كانت موجودة مستقلة فهي كالجسم طبيعية محضة

قد وصل العلم أخيراً الى قبول نظرية وحدة القوة ووحدة الهيولي

كل شيء في هذا العالم حركة ، فالحركة العالمية تدير العوالم كلها ، وقد سماها «نيوتن» الجاذبية العامة . ولكن هذا التعليل ناقص فان كان لايوجد في الوجود غير القوة الجاذبة لاستحالت الكواكب الى كتلة واحدة لأنها تكون قد جذبتها منذزمان بعيد بل منذ الازل.ولكن توجد أيضاً الحركة،والحركة الحيوية تدير الاحياء . وفي الانسان الراقي تشترك الحركة النفسية مع الحركة الحيوية . وأصل كل هذه الحركات في الحقيقة واحد ، وهو العقل المدبر في الطبيعة ، الذي يظهر أصم وأعمى في العالم المادي ، حتى في دهماء الخلق ، وشاعراً بذاته في عدد قليل من الناس

لقد كتبت في كتابي (أورانى) سنة ١٨٨٨ مايأتي :

« ان مانسميه مادة تتلاشى متى امكن ان يتناولها التحليل العلمي . وفي رأينا ان عماد الوجود واصل جميع الصور هي القوة وعنصر الحركة . واصل الانسان الاصيل الروح . والعالم مجموع حركات مدبرة بعقل لايمكن ادراكه »

وكتبت في كتابي (القوى الطبيعية المجهولة) سنة ١٩٠٦ مايأتي :

« ان الظواهر النفسية تثبت لنا مانطمه من جهة أخرى بأن تعليل قيام الطبيعة بالحركة الآلية المحض هو تعليل ناقص ، وأنه يوجد في الوجود شيء غير المادة المزعومة . فالمادة ليست هي المدبرة للعالم بل هي عنصر من الحركة والروح معاً »

ومن منذ السنين التي كتبت فيها هذه الاسطر توالت المشاهدات النفسية التي تؤكدها عن سعة

توجد قوة عقلية تدبر ، وهي صامتة ومتسلطة ، إلهامات الحشرات شاهدة

وجودها واستمرارها ، كما تدبر ميلاد عصفور وتطور الحيوانات العليا وفيها الانسان نفسه فهي هذه الحركة التي تقود البذرة لان تستحيل الى عجينة مائعة لاشكل لها داخل شرنقتها ثم تقلبها الى فراش . وهي هي التي تخرج من جسم الوسطاء هيولى تستحيل الى اعضاء حية وقتية ولكنها حقيقية وهذه الحركة توجد التجسدات الوقتية من طريق التولد الذاتي

اننا نؤكد بأن الوجود مجموعة حركات . وان فيها قوة غير مرئية مفكرة تدبر الدنياوات والذرات . اما المادة فعليها الطاعة والانقياد

ان تحليل الاشياء يدل على تأثير عقل مدبر فيها وهذا العقل العام في كل شيء يدبر كل ذرة وكل جزىء ، وهما في ذاتهما لايلمسان ولا يوزنان ومن الصغر بحيث لايريان يؤلفان بتجمعهما القائم على اصل الحركة الاشياء المرئية والكائنات . وهذا العقل العام المدبر لايقبل الفناء فهو أبدى

المذهب المادى ضال وناقص وغير واف ، فليس فى وسعه أن يفسر لنا شيأ تفسيراً مقنعا . فان عدم التسليم بشيء غير المادة المتمتعة بخصائص ، من الفروض التي لاتقاوم التحليل العلمي . والتابعون للفلسفة الوضعية ضالون كذلك ، فانه توجد براهين وضعية «حسية» على ان الافتراض القائل بأن المادة متسلطة على كل شيء ومدبرة لكل شيء بخواصها بمعزل عن الحقيقة . فانهم لم يحلوا بوجود هذه الحركة العاقلة التي تمد الكائنات الحية والجمادات

واننا لنستطيع ان نقول مع الدكتور (جوليه) بأن العوامل الرسمية تعجز عن حل المعضلة الفلسفية العامة الخاصة بالارتقاء وهى خروج الاكثر من الاقل

المذهب المادي المنتشر كل الانتشار عن شعور أو لاشعور في جميع طبقات المجتمع ليس هو الا نظرية المظاهر ، فهو تقدير للاشياء غير المحللة

(المترجم) ثم نقل الاستاذ كاميل فلامريون بعد هذا عبارة للعلامة الملكي كوبرنيك باللاتينية ولم يترجمها الفرنسية . فأهملناها . ثم قال بعدها :

اننا سنشهد ضعف المذهب المادى بالاسلوب التجريبي نفسه ، وسنعمل على بيان

ضلاله المطلق. وكل الفزيولوجيا النفسية الرسمية قائمة على الخطأ ومناقضة الواقع. وانه ليوجد في الانسان شيء غير الجواهر الكياوية المتمتعة بخصائص. يوجد فيه عنصر غير مادي اى اصل روحاني مما سيثبته الامتحان النزيه للحوادث. وسنري هذا الاصل الروحاني يعمل وهو مستقل عن الحواس الطبيعية

ما هو الانسان ؟ هل الروح موجودة ؟

« يجب علينا أن نبحث عن الحقيقة وعقلنا
« مطلق من كل قيد وخالص من كل
« رأى سابق لادليل عليه »
« ديكارت »

رأينا ان النظريات المادية لايقوم على صحتها دليل ، وليست قائمة على قاعدة من المتانة في الدرجة التى كان يتوهمها الناس . فان فيها جهات فراغ ، وتدع بجانبها كثيرا من أشياء غير مفسرة ، وهى أبعد من أن تشبّه ، على ماتدعيه ، بالنظريات أو باليقينيات الرياضية . فالمسألة والحالة هذه معروضة برمتها أمامنا لنبحثها بحثاً حراً

وقبل أن نبحث فيما اذا كانت أرواحنا تبقى بعد تحلل أجسادنا ، يجب علينا أن نعلم ماذا كانت موجودة في الواقع . فان المناقشة في الامد الذي يمكن أن يبقاه شيء ليس بموجود هو نفسه، تعتبر مضيعة للوقت بشيء من البله . فاذا كان الفكر افرازاً مخيا فلا شك في انه يزول بزواله

العلم بهذا الامر لايمكن الحصول عليه الا بالمشاهدة العلمية المحسوسة أي بالاسلوب التجريبي . ولكن كيف السبيل الى ذلك وعلم النفس لايزال الى أيامنا هذه من المسائل الكلامية ، والتأملات النظرية ، والافتراضات الظنية؟ وان هذه لمن الاساطير التي يجب أن نتحاشى اتباعها هنا . اننا سنحاول أن نحدد طبيعة الروح بمشاهدات

علية ، وأن تعرف خصائصها

وانه ليؤسفنا أن نرى ان هذه الخصائص لاتزال قريبة من ان تكون مجهولة.فعلم النفس الجديد يجب أن يكون مؤسساً على العلم ولنذكر دائما أصل كلمة مابعد الطبيعة في ترتيب العلوم الذي وضعه مؤسسه ارسطو . فلقد تمادي الناس في نسيان هذا الاصل « ١ »

لاجل ان يتحقق وجود الانسان بعد انحلال جسده يجب أن يكون للانسان وجود روحاني . فهل لعقلنا وجود ذاتي مستقل ؟ هل لنا روح ؟ وبعبارة أضبط هل للانسان روح ؟ هذه هي المسئلة الاولى التي تتطلب الحل ، بل هذه النقطة الاولى التي يجب تقريرها

لقد علمنا مما تقدم بأن الماديين والحسيين والملاحدة والمنكرين لروح الطبيعة على ضلال بعيد بذهابهم في تعاليمهم الى انه لايوجد في الكون غير المادة وخواصها ، وأن كل حوادث الانسانية يمكن تعليلها بنظريتهم العلمية العامية في آن واحد.فان اعتراضهم هذا ليس بحق ولكن يجب أن نثبت لهم الموضوع المناقض لموضوعهم فنقول :

ماهى الروح ؟ ومن أين أتت هذه الكلمة؟ وما معناها؟

قامت العقيدة بوجود الروح الى الآن على ابحاث من علم ماوراء الطبيعة ، وعلى ايحاءات الهية مزعومة لم يقم على صحتها .دليل.فان الدين والايمان بالغيب والعاطفة والرغبة والخوف ليست بأدلة

كيف خطرت لعقل الانسان فكرة وجود الروح؟

« ١ » يشير العلامة كاميل فلاماريون الى هذا الامر ، وهو ان كلمة ميتافيزك تعني باليونانية مابعد الطبيعة ، وهى تطلق على علم النفس والامور الروحانية .وهي ماسميت بما بعد الطبيعة لأنها لاتخضع لاسلوب علم الطبيعة، بل لأنهم كتبوها بعد ما كتبوا علم الطبيعة ، فأطلقوا عليها هذا الاسم لهذا السبب ليس الامع أنها تخضع في الواقع للاسلوب العلمي نفسه

كلة روح ونظائرها ككلمة عقل مثلا في لغتنا الراهنة وفي اللغات القديمة من يونانية وسانسكريتية تنم عن معنى النفس فليس مما يشك فيه اليوم ان فكرة الروح كانت تعني قديماً ماتعنيه كلة النفس عند علماء النفس من أهل العهد الاول حتى ان كلة «بسيشيه» اليونانية مشتقة من النفخ

فهؤلاء الناظرون يرون ان أصل الحياة والفكر وظاهرة التنفس شيء واحد. وهم من جهة اخرى لاجل أن يوفقوا بين هذا الحادث البين الذي لايمكن نقضه وهو انحلال الجسم الميت المحروم من النفّس، أى المحروم من الروح، وبين عقيدة ظهور الموتى أي استمرار حياة الذين أجسادهم همدت وصارت لاحراك بها او تحللت واستحالت الى تراب، قلنا لاجل أن يوفقوا بين هذين الامرين تخيلوا ان النفس شيء يغادر الجسم بالموت لاجل ان يذهب الي عالم آخر ليعيش فيه حياته الخاصة به

وقد يعبر اليوم عن الموت بلفظ النفس الاخير

فاذا كان بعض الناظرين قد سلموا ببقاء الحياة علي صورة غير مرئية لنا، فان بعضهم الآخر لم ير فيها الا أثراً من ميل الاحياء وأسفهم وعطفهم على موتاهم . فلقد قام من أول قيام الطوائف البشرية مذهبان علي هذا الامر متميزان، بل متعارضان من آراء الناس. وهما المذهب الروحاني من جهة، والمذهب المادى من جهة أخرى . ولكن كلا منهما قائم على اصول سطحية

فمعنى كلة روح وعقل يجب ان يتغير وان يتناقش فيه وان يمتحن . لانه توجد مميزات أساسية يجب تقريرها . فخواص التركيب الحي تخالف العناصر النفسية كل المخالفة

يعتقد الناس علي وجه عام باقتناع تام، بأنه لايوجد فى العالم الا حقيقة واحدة لا يجوز النزاع فيها، وهي الاشياء الخارجية أو المادة، أعني الشيء الذى يرى ويلمس ويخضع لتقدير الحواس، وكل ماعداها عندهم فأمور تجريدية وأوهام أى عدم محض

من الذين يرون هذا الرأى الغالبية العظمى من العلماء ومن الدهماء، ولكن السواد الاعظم والعلماء أيضا يجوز عليهم الانخداع ، وهذا حالهم فى هذا الموطن

اقول كما قال صديقي المأسوف عليه دوران دوغرو ، العالم الطبيعي ، العلم الطبيعي نفسه يقرر لنا ان شهادة المظاهر ، حتى في الحين الذى تلوح فيه أنها حاصلة على قوة الوضوح التى لاتقاوم ، يجب أن تعتبر مريبه وأن تمحص تمحيصا صارما

اى شيء أوضح من دوران الشمس؟إن هذا الشعوروهذا الادراك يدلان على انه حق وعلى ان السماء كلها فوق رؤوسنا. أما شهدت هذا الوضوح أعين الناس اجمعين فى كل زمان ومكان ؟ وهل لهذا الوضوح مثيل في العظم والجلالة؟ لا وهو مع ذلك هو وهم محض كما أثبته علم الفلك بالدليل القاطع

فما أشد مايظهر أشياع المذاهب سطحيين كلما اعتمدوا على المشاهدة الظاهرية وحدها في تقدم المعلومات، عندما يعتقدون انهم حيال أمر تجربي فى الحيز الذى يرونا اياه فيه

« الشمس سطح لماع يدور فوق رؤوسنا من الشرق الى الغرب ، في شروقه وغروبه » هذه حقيقة شهودية قد أيدتها شهادة الناس بالاجماع الوفامن السنين. فكيف يتجاسر العلم مع ذلك أن يؤكد لنا بأن هذه الحقيقة المقررة بالمشاهدة من الضلالات التي لانزاع فيها ؟ وكيف اتفق العالم كله اليوم على التحقق من انها ضلالة في الواقع ؟

فالشيء المحقق كل التحقيق ، والذى هو من المشاهدات الصحيحة ليس هو ما نعبر عنه بقولنا : «الشمس سطح الخ» ولكنه هو الذي يجب أن يعبر عنه هكذا : «أشعر بوجود سطح لماع أطلق عليه اسم شمس ، وهذا السطح يظهر لي انه متحرك من الشرق الي الغرب » الخ

هذا هو مايجب علي المتبع للمذهب التجربي أن يحصره فى تأكيده التجربي ان اراد ان يبقى فى الحدود المضبوطة لمقررات التجريبية ، أي في عالم التحقيق المطلق

وهذا السطح نفسه ليس الا مظهراً كاذبا ، فان الشمس فى شكلها الحقيقى كرة لاسطح مستو

فلنعط الشعورات والمدركات حقها ولا نخلط بينها وبين الواقع . فان الواقع فى

حاجة الى ان يثبت بدليل . فاذا رأيت برقا يلمع ، وطرقت أذني جلبة انطلاق مدفع، وجب علينا ان كنا مدققين، ان نفكر هكذا : «انا اشعر بأني أري برقاً واشعر بأني سمعت جلبة انطلاق مدفع». ولكن الفزيولوجيين يهملون غالباً الجرى على هذا التمييز الاساسي، فالذي يقدمونه لنا باعتبار انه حوادث مشاهدة ليس في الغالب الا أموراً ظنية ، اي انها ليست مشاهدات ولكنها استنتاجات من المشاهدات . يفعلون ذلك بدون ان يتنبهوا لهذا العمل من عقولهم

فاذا قلت : اني احس بأني أرى سطحاً لـامعا يظهر ان طول قطره كذا وكذا سابحاً في السماء من الشرق الى الغرب

فما تقوله صحيح صحة مطلقة ، ولك الحق في الادلاء به الى غيرك بتأ كيد، وتكون جاريا على سنة المذهب التجريبي لادراك الحقيقة

ولكنك لو قلت: ان سطحاً لامعا يجرى في السماء الخ كنت مؤكداً شيأهو أكثر مما تعلم ، وتكون متعرضاً للانخداع ، والدليل على ذلك انك انخدعت حقيقة في نوع ذلك الجرم

مما لا فائدة فيه الا كثار من الامثلة في هذا الباب. فانا نحس بشعور ما مثلا او يكون لنا فكر ما ، او انفعال نفساني ما ، فهذا كله من المعارف المباشرة الا كيدة، وهي حقيقة تجريبية جديرة بالثقة المطلقة

فالاحساس بالشيء يقتضي شعوراً أو ادراكا أو فهما، ولكن ما هي كل هذه المسميات؟ أهي خصائص لذلك الشيء ؟ لا . يوجد ازاء الشيء المشعور به والمدرك والمفهوم شيء يشعر ويدرك ويفهم

فان أردنا الكلام بتدقيق قلنا ان حادث الشعور والادراك والفهم هو وحده حادث أصلي مطلق ، وهو وحده الحادث الذي تفرضه علينا المشاهدة المباشرة

اننا ندرك هذا الامر منذ عهد مناقشات «بوكلي» سنة (١٧١٠) بل منذ عهد «مالبرانش» سنة (١٧٦٤) وليس من امس فقط

اننا لانحكم على الوجود والاشياء والكائنات الحية والقوي والمكان والزمان

الا بشعورنا ، وكل مايمكننا أن نراه عن حقائق الاشياء هو في فكرنا وعقلنا وبحثنا ، فيكون من التعقل الغريب أن نستنتج من ذلك ان أفكارنا هي عـين الواقع . وهذه التأثرات لها سبب يولدها ، وهذا السبب خارج عن اعيننا ومشاعرنا ، فنحن مرايا تعكس صور الاشياء المقابلة لها

نعم ان المذهب المثالى «لبركلي» و «مالبرانش» و «كانت» و «بوانكاريه» يذهب الي مدى بعيد من التشكك «لأنهم ينكرون الوجود المادى» ، ولكن لا يذهبن عن نظرنا الاصل الذي يقوم عليه

وقد اصبح من الضروري الآن ان نثور على هذا الاعتماد العامى على المظاهر ، وأن نعلن على رؤوس الاشهاد ان العالم الخارجى ليس في حقيقته على مايعطيه هذا الظاهر . فاننا ان لم نكن حاصلين على أعين وآذان ، لكان ظهر لنا الوجود على حال غير ماهو عليه الآن . وقد كان من الممكن ان تكون شبكية أعيننا مركبة تركيبا يخالف ماهي عليه اليوم ، وكان يمكن أن يتذبذب عصبنا البصرى وان يدرك الذبذبات التي ليست فقط بين ٣٨٠ الى ٧٦٠ ترليون في الثانية اى من الاحمر المتطرف الى البنفسجى المتطرف ، بل يدرك ماهو بعد ذلك من الاشعة الحمراء المعتمة الى الاشعة البنفسجيـة المعتمة ، او يكون مركبًا من اعصاب تدرك معها الاشعاعات الكهربائية ، أو الامواج المغناطيسية ، أو القوى غير المنظورة التي نجهلها . والوجود بالنسبة للكائنات (التى يمكن أن توجد على كواكب أخرى) يظهر على حال غير ماهو مقرر فى نظامنا العلمي . وعليه فاننا نكون ضالين ان اعتقدنا ان شعوراتنا هى عين الواقع . فالطبيعة فى الواقع هي على غير ماندركه منها ، نجهلها ولكن على العقل ان يدرسها

أنا أحس وأتفكر ، هذه هي حقيقتنا الوحيدة المؤكدة ، الحقيقة المباشرة التجريبية الجديرة وحدها بهذا الوصف . وانه ليستنتج من هذه الحقيقة الشهودية الوحيدة التى لا يمكن الشك في حقيتها ، حقيقة اخرى ثانوية كبيرة ، وهي وجود سبب صدر منه هـذا الشعور وهذا الفكر

وهذا السبب ينشطر الى عاملين وهما القابل والشيء نفسه ، أعني الشيء الذي يشعر ويفكر، والشيء الذي يشعر به ويفكر فيه

بعض الفلاسفة من شيعة المذهب المثالى مثل (بركلى) في القرن السابع عشر و(هنري برانكاريه) فى القرن العشرين ذهبوا الى ان الموجود بحق هو الشيء المفكر ، وان شعوراتنا وحدها هي الثابتة في نظرنا، واما الشيء المشعور به أى العالم الخارجي فيمكن ان لايكون موجوداً . ولكن هذا غلو يقابل غلو الماديين المتطرفين وكلاهما يستويان فى الضلال

فالحقق الذى لايمكن رده هو اننا نعلم بأننا نفكر، واننا نجهل حقيقة الواقع، وأصل الاشياء والعالم الخارجي الذى لاتصلنا حواسنا الا بمظاهره فقط

أما الافتراض بأننا ندرك حقيقة الواقع فليس من العلم في شيء. لاننا متحققون ان مشاعرنا لاتكشف لنا الا جزءاً منه ، وهي لاتكشف لنا هذا الجزء الا على طريقة المناشير التي تغير حقيقة الواقع . فاذا كانت كرتنا الارضية محاطة بالسحب باستمرار كنا جهلنا الشمس والقمر والكواكب والنجوم ، وكان المجموع العالمي بقي مجهولا عندنا الى حد كان معه العلم الانساني يستحيل الى ضلالات لاعلاج لها. اذا تقرر هذا فالذي نعلمه ليس بشيء في جانب مانجهله . وعصبنا البصرى، نفسه ترجمان ليس على شيء من الامانة

فالانخداع بالمظاهر هو القاعدة الواهية لافكارنا وشعوراتنا وعواطفنا وعقائدنا. فأول مظهر من مظاهر هذا الانخداع واكثرها اصالة هي شعورنا بسكون الارض . فتخيل الانسان بأنه قائم في مركز العالم وبني على ذلك كل خيالاته من طريق الاستنتاج. ورغما عن الادلة الفلكية فاننا نحاول ان نري وان نلمس الحقيقة ، ولا نستطيع ذلك . فاذا كنا فى أصيل يوم من أيام الصيف ، خيل الينا ان الهواء ساكن، والسماء صافية . وكل شيء حولنا في هدوء مطلق، والواقع بالفعل اننا فوق اوتوميبل يجرى بنا فى فسيحة السماوات بسرعة توجب الدوار لمن يفكر فيها

فالانسانية تعيش فى جهالة بعيدة الغور وهى لاتدرى ان تركيبنا الجثماني الطبيعي

لايعرفنا بحقيقة الواقع . فان حواسنا تخدعنا فى كل شئ . والتحليل العلمي وحده هو الذى يؤتى عقولنا بيصيص من النور

من أمثلة ذلك اننا لانشعر بشئ من الحركات الهائلة للكوكب الذى نحن عليه فانه يظهر ثابتاً ذا اتجاهات محددة الي فوق وتحت ويمنة ويسرة الخ، ومع هذا فهو يسبح في الفضاء بسرعة ١٠٧٠٠٠ كيلو متر في الساعة في تطوافه السنوي حول الشمس، وهي نفسها تتنقل في خلال اللانهية السماوية بحيث ان خط سير الارض ليس خطا منحنياً مقفلا ولكن حلزونياً مفتوحا دائما، وان كرتنا الهائمة لم تمر من نقطة واحدة دفعتين منذ وجدت الى اليوم

وفي الوقت نفسه تدور هذه الكرة على نفسها دورة في كل أربع وعشرين ساعة بحيث ان مانسميه (فوق) في ساعة من الساعات يكون (تحت) بعد اثنتي عشرة ساعة. واننا نجري في هذه الحركة النهارية بمعدل ٣٠٥ أمتار في الثانية فى خط عرض باريز و٤٦٥ متراً في خط الاستواء

هذا وكوكبنا الارضي تلعب به اربع عشرة حركة مختلفة فلا نشعر بواحدة منها حتى تمسنا من قرب. كالمد والجزر للقشرة الارضيه ، وهي ظاهرة طبيعية ترتفع معها القشرة الارضية دفعتين في اليوم تحت أرجلنا الى علو ٣٠ سنتيمتراً ولا توجد أى علامة ثابتة تجعلنا نلحظ هذا الامر مباشرة. ولولا وجود الشواطي لما أدركنا وجود المد والجزر في الاوقيانوس كذلك

وهل نحن نشعر بالهواء الذي نستنشقه أو ندرك ثقله؟ ان سطح جسم الانسان يحمل منه ماوزنه ١٦٠٠٠ كيلو غرام معادلا بمثله من الضغط الداخلى. وما كان أحد يتخيل ان الهواء ثقيل قبل غاليليه وياسكال وتورسلى. هذا مايشهدنا اياه العلم ، ولكن الطبيعة لاتشعرنا به

وهذا الهواء مخترق بتيارات مختلفة نجهلها كل الجهل ، فالكهرباء تلعب فيه دوراً لا ينقطع ، ولكننا لانشعر بها الاوقت الاعاصير اى وقت اختلال التوازن بشدة

والشمس ترسل لنا على الدوام باشعاعات مغناطيسية تؤثر عن بعد ١٤٠ مليون

كيلو متراً على الابرة الممغنطة مما لانشعر نا به مشاعرنا.ولكن توجد اجساد حساسة لطيفة تشعر بوجود هذه التيارات الكهربائية والمغناطيسية

وعيننالاتدرك مانسميه نوراًالا بواسطةذبذبات الاثير المحصورة بين ٣٨٠ ترليون ذبذبة في الثانية (احمر متطرف) و٧٦٠ ترليون (بنفسجي متطرف) ولكن الذبذبات البطيئة للاشعة الحرارية الحمراء المعتمة فيما دون ٣٨٠ ترليون موجودةوعاملة في الطبيعة كاتعمل الذبذبات السريعة فيما فوق اﻟ ٧٦٠ ترليون للاشعة الحرارية البنفسجية المعتمة غير المرئية لشبكية عيننا

وأذننا لاتدرك مانسميه (أصواتاً) الا منذ الذبذبة الثانية والثلاثين من الاثير في الثانية للاصوات التي نسميها شديدة الي ٣٦٠٠٠ ذبذبة فى الثانية للنغمات الحادة

وأنفنا لايشعر بما نسميه (روائح) الا عن قرب شديد وفى حالة عدد محصور من التصاعدات فقط . ويختلف شم الحيوانات عن شم الانسان

وغير ذلك فالواقع انه لايوجد في الطبيعة خارج حواسنا لانور ولا صوت ولا رائحة . فنحن الذين خلقنا هذه الكلمات لنعبر عما نحسه من تأثراتنا فالنور شكل من أشكال الحركة كالحرارة . والا فنى الفضاء من النور فى وسط الليل بقدرمايوجد منه في وقت الظهيرة . أعني توجد فيهما أعداد متساوية من الذبذبات الاثيرية تخترق هذه اللانهاية السماوية . والصوت شكل آخر من أشكال الحركة ؟ وليس هو بذي جليه الا بالنسبة لعصبنا السمعي . والروائح تحدث من جزيئات معلقة فى الهواء تؤثر على عصبنا الشمى

فهذه هى الثلاثة الحواس التى تصلنا ، ونحن في تركيبنا الارضي هذا ، بالعالم الخارجي . وأما الحاستان الاخريان، الذوق واللمس، فلا تؤثران الا بالملامسة . وهذا شيء قليل ، وهو في كل الاحوال لايؤتينا بشيء من العلم بحقيقة الواقع .فيوجد حولنا من الذبذبات والحركات الاثيرية أو الهوائية، ومن القوى والاشياء غير المرئية مالانراه ولا نحس به . هذه حقيقة علمية مطلقة، وبديهة عقلية لايمكن النزاع فيها

فيمكن أن يوجد حولنا أشياء بل كائنات حيـة لاترى ولا تلمس ولا تستطيع حواسنا أن تصلنا بها . أنا لا أقول ان هذه الكائنات الحية موجودة، ولكني أقول يجوز أن تكون موجودة. وهذا التأكيد هو النتيجة العلمية المطلقة المعقولة للمشاهدات السابقة

فاذا تقرر وثبت بالدليل ان أعضاءنا الادراكية لاتكشف لنا كل ماهو موجود، وأنها تعطينا شعورات كاذبة أو ضالة عن الكون المحيط بنا (لاتنس حركات الارض وثقل الهواء والاشعاعات والكهرباء والمناطيس) الخ . فلسنا نكون على شيء من التثبت ان فكرنا ان مانراه هو كل الحقيقة ، بل نحن مضطرون للتسليم بضد ذلك

قلنا ان كائنات حية يجوز ان تكون موجودة حولنا . فمن الذي كان يحلم بوجود الميكروبات قبل اكتشافها . فهاهي تتكاثر حولنا بالمليارات ، والدور الذي تلعبه في حياة جميع الاجسام من الخطورة بمكان

فالمظاهر لاتكشف لنا الواقع . ولا يوجـد الا حقيقة واحـدة نستطيع تقديرها مباشرة هي فكرنا . والموجود الذي لايمكن النزاع فيـه في الانسان هو عقله . هذه هي النتيجة التي تأديت اليها في مؤلفاتي السابقة ، وقد أعددت هذا المؤلف للتدليـل عليها بوضوح أوفي

فليعف قرائي عما ارتكبته من اعادة ماسبق لى نشره في كتابي « لومين » سنة ١٨٦٧ وفي كتابي القوي الطبيعية المجهولة سنة ١٩٠٧ ولكن هذه المعلومات مما يجب دوام التذكير بها

وهنرى بوانكاريه الذى تـكلمنا عنه آنفاً على كونه مثليا لاروحانيا (مثلياً أي مشايعاً لمذهب المثل الاعلى) ورغماً عما ظهر من الشكوك في حديثه قدنشر الصفحة الآتية بمناسبة السنين الاخيرة لحياة عالم فرنسى وهو « بوتييه » الاستاذ بمدرسـة الهندسة قال :

« لقد كان المرض الذى قتله طويل الأمد وقاسياً . فقد أمضى اثنى عشرة سنة ملقي على سريره أو على كرسيه محروماً من الانتفاع بأعضـائه ، وفريسـة للألم في

غالب أوقاته . وقد كان دبيب المرض فيه بطيئاً ومستمراً ، وكانت نوبه تزداد عدداً سنة فسنة . حتي آل جسمه الى الاضمحلال ، وكان الناظر اليه وهو في سريره الذى لا يستطيع مزايلته لا يري منه غير عينين . وقد كانت روحه أقوى من السلطان الاعمي لمرضه القاسي ، فلم يستخذ له ولم يذل أمامه . وكان يأمر بحمله الى مدرسة الهندسة أو الي مدرسة المعادن . فكان مستمراً على الاهتمام بما كان يحبه في زمنه الماضي في الأوقات التي كانت تتركه فيها آلامه . وكان عقله في هذا الجسم الذى يزداد كل يوم نحولا قد بقي كما كان مضيئاً متألقاً . وقد كان مثله في ذلك كمثل حصن تنهار جوانبه قطعة قطعة بتأثير قذائف العدو ولكن حية القائد الذي يدافع عنه لا تزال محوفة . حتي انه قبل وفاته ببضعة أسابيع طلب الى كتباً رياضية ليشرع في عمل بحث جديد عنده

«فقد أرانا الي آخر يوم من أيامه ان الفكر أقوى من الموت » انتهي .

كلا . ليس الذى كتب هذه الاسطر رجلا ساذجا ولكنه أستاذ فى التشكك . فما أصدق ماقيل من أن الحقيقة تتسلط على العقول بقوتها الذاتية وتأتلق غير خامدة في وسط الليل الحالك بالنجوم الزواهر

وفوق هذا فان هنرى بوانكاريه هـذا كان يؤكد لى بنفسه غالباً في أثناء محادثاتنا الكثيرة التى قد تكون غالباً طويلة ، بأنه على شكه في صحة العالم الخارج عنا لا يصدق الا بوجود العقل . وهذا منه تطرف فانه يوجد شيء خارجا عن العقل . فلا نبالغن فى شيء

وبعد كل هذا فاننا نتحقق من كل مانشعر به في أنفسنا . ففي أثناء وضعي لهذا الكتاب وادراكي لرسمه وتوزيعي لأبوابه كنت أحس بتأكد وقوة ، وأنا منزه عن التعصب لمذهب أو لعقيدة أيا كانت ، احساساً مباشراً بأنى أنا الذى يضع هذا الكتاب ، أي عقلى وليس جسمي ، وأنى أنا أملك جسمى لا أنه يملكني . هذا الشعور بذاتنا هو شعور مباشر ، ومدركاتنـا يمكن بل يجب ان تكون قائمة على شعوراتنا فانها أساس كل تعقلاتنا

كيف يتجرأ المتجري، على الزعم بأن تحديد الكائن الانساني يمكن ان ينحصر في هذه الكلمات وهي انه «نسيج من اللحم محيط بهيكل من العظم» او في هذه الكلمات الاخرى وهي «انه تركيب من ذرات الاوكسيجين والايدروجين والازوت والكربون» او في هذه الكلمات ايضاً وهي : «ان الانسان هو ٦ كيلو غرامات من العظام و٥ من المواد الزلالية والليفية و٥٠ من الماء» او في هذه الكلمات ايضاً وهي انه «رزمة من الاعصاب»

ولكن أفضل من هذا كله تحديد بونالد فقد قال : «الانسان عقل تخدمه أعضاء»

ونحن نعلن هنا ان الانسان في أصله عقل سواء أعلم ذلك أم جهله . أما يحمل كل منا في نفسه عاطفة العدل ؟

والطفل الذي يعاقب بعدل أما يشعر بأنه قد استحق العقوبة ، والذى يعاقب بظلم أما يثور على المظلمة ؟ فمن أين يأتي هذا الشعور الادبي ؟ ان أسلاف الانسان هي الحيوانات من لدن العهود الجيولوجية الثالثة والثانية والاولى ، تطورت يسيراً يسيراً فارتقت من درجة الزواحف الى درجة القردة . فليس مخها هو الذي أوجد الشعور الادبي، وبخاصة هذا الشعور بالعدل الفطرى في قلب الطفل . يمكن أن يدعي مدع بأن هذا الشعور أتى من أسلافنا ثم من التربية . ولكن من أين أتت هذه التربية ؟ أتت من عالم العقل ، ولا يوجد قياس مشترك بين هذا العالم العقلى الروحاني الأدبي وبين الظواهر الطبيعية الكيماوية للمادة الحية

الارادة كما لا يخفى قوة من رتبة القوة العقلية . فلنضرب عنها مثلاً واحداً من الف : أراد نابليون أن يفتح الارض كلها وضحي كل شيء في هذا المطمع . فامتحن أعماله كلها حتي أصغر عمل منها من أول وقعة مصر الي معركة واترلو، تجد انه لا الفيزيولوجيا ولا الكيمياء ولا علم الطبيعة ولا الميكانيكا لا تستطيع أن تعلل قيام شخصيته، ولا استمرار أفكاره، ولا ثباته، ولا اصراره . فهل كانت هذه كلها اهتزازات مخية ؟ ليس هذا التعليل بكاف . ولا بد من أن يكون في أعماق المخ كائن مفكر ليس هذا المخ الا آلة له . فليست العين هي التى ترى ، ولا المخ هو الذى يفكر

ودراسة كوكب من الكواكب بالتلسكوب لايمكن أن تعزى لا الى الآلة ولا الى العين ولا الى المخ ولكن الى عقل الفلكي الذي يبحث ويجد

الارادة الانسانية وحدها تكفي لاثبات وجود العالم الروحاني، العالم المفكر، مخالفاً للعالم المادي المنظور الملموس

وان تأثير الارادة ليظهر في كل شيء . ويمكن أن نلاحظ ذلك بغاية السهولة فيما يلي :

أنا الآن جالس على كرسي ويدىّ موضوعتان على ركبتيّ . فقد ألعب بأصابع يدي اليسري فأرفع واحداً بعد آخر بيدي اليمنى ، فتسقط بعد رفعها ، ولكني لو أردت أن لاتسقط بقيت مرتفعة

فما هو ذلك الشيء الذي يؤثر على عضلاتها ؟ الجواب هين ، هو ارادتي. فتوجد اذن قوة عقلية تؤثر على المادة . وهذه القوة متعلقة بمخي، هذا مما لامشاحة فيه. ولكن هذه الارادة آخر مايقال عنها انها «فكرة»، وهذه الفكرة تؤثر على المادة. ومنبعها الاول ليس في المخ لان ذبذباته ليست الا معلولات لاعللا

فلننظر الآن من الانسان الى قوته المفكرة على الخصوص . فانها الدليل المستمر على وجود الروح . فاذا تأملنا تأملا أو قلنا في أنفسنا (أنا أفكر) أو (أنا أريد)، واذا حاولنا حل مسألة أو اذا استخدمنا قوتنا في التجريد والتعميم، فاننا بهذه الاعمال كلها نثبت فينا وجود الروح

فالفكر هو أثمن مايملكه الانسان وهو أشد الاشياء تميزاً بشخصيته وأكثرها استقلالا عن غيره، فحريته لايمكن العدوان عليها فانك تستطيع أن تعذب الجسد وأن تحبسه وأن تقتاده بالقوة المادية ، ولكنك لا تستطيع أن تعمل شيئاً ضد القوة الفكرية. فكل ماتعمله أو تقوله لايؤثر عليها. فهي تهزأ بكل شيء ، وتحتقر كل شيء . فاذا لعبت دوراً هزلياً ، أوحملها النفاق العلمي او الديني على الكذب ، او البسها الطمع السياسي او التجاري وجهاً مستعاراً خداعاً بقيت هي على ماكانت عليه في جانب كل شيء

وضد كل شيء ملمة بما تريده . أليس هذا كله شهادة واضحة على وجود الكائن النفساني مستقلا عن المخ ؟

فليست المادة ، وليست مجموعة الذرات هي التي تفكر . والقول بأن المخ يحس ويفكر ، يعتبر من هذيان الطفولة ودرجة الاضحاك بمنزلة نسبة تصميم الآراء المحوية في رسالة تلغرافية الى الاعمدة المولدة للكهربائية من الآلة الموضوعة لذلك

فالعقل والفكر والاتجاه النفسي ليس من المادة ولا من القوة في شيء . فالكرة الارضية التي تدور حول الشمس ، والحجر الذي يسقط، والماء الذي يجرى، والحرارة التي تمدد او تقصر المسافات بين ذرات الاجسام، هذه كلها تمثل لنا المادة من جهة اخرى، ولكن التفكر والتعقل والاتجاه وراء مقصد معين فهي شيء آخر ، وفيها دلالة على وجود اصل مخالف لغيره كل المخالفة

لم ينس احد تلك الابيات المقررة لفرجيل في اغنيته السادسة من قصيدته (الانييد):

« كل ما يوجد في الكون مبثوث فيه اصل واحد هي الروح المحيية للمادة وذلك بامتزاجها بهذا الجسم العالمي الكبير »

لقد اعرب الشاعر عن الحقيقة . فان الكون مقود بالروح واذا درسنا هذه الروح في الانسان تبين لنا انها ليست القوة الطبيعة ولا المادة بل هي التي تستخدمها وتسيطر عليها بارادتها

البراهين على وجود الشخصية الانسانية لا يحصى لها عدد، ونحتاج في سردها الى كتاب خاص . وقد قدّرها قدرها كل منا مرات عديدة

هذه البراهين ماثلة امام اعيننا كل يوم. فاحتقار الشدائد والقدرة على التخلص من انياب الحاجة ، والاخلاص للاغراض الشريفة، وتضحية الحياة في سبيل سلامة الوطن، وارادة التغلب والقهر ، والتجرد للدعوة العلمية أو الدينية ، وتحمل آلام التعذيب لنصرة ما يعتقده الانسان حقاً، أليست هذه الصفات كلها مظاهر لوجود الروح؟ فكيف

يعقل ان تولد مفرزات مخية مادية شبيهة بما يزعمون سفرزات الكلي او الكبد شخصيات عقلية على ماترى ؟

وقد أقام منذ زمان طويل (سنة ١٨٦٨) عالم مشهور عرفته في ذلك الوقت اسمه المسيو (رامون دولاساغا) العضو بالمجمع العلمي برهاناً جديداً على وجود الروح تحت عنوان «صحة وجود الروح بدرس تأثير الكلوروفورم والكورار على البنية الحيوانية» وقد توفي هذا العالم فى سنة ١٨٧١ في جزيرة كوبا

قال العالم المذكور :

« ان استنشاق أبخرة الاتير او الكلوروفورم يبطل الحس العام بحيث يمكن ان تخضع الاشخاص الذين يقعون في تلك الحالة الفيزيولوجية العجيبة لتحمل الاعمال الجراحية الخطيرة دون ان يشعروا بها . والاشخاص الواقعون تحت تأثير الاتير أو الكلوروفورم لاتقتصر حالتهم على عدم الشعور بألم، بينما تمزق الآلات أنسجة اجسادهم وتقطعها وتسـذبها ، ولا على بقائهم غير شاعرين بجروحهم وقروحهم التي لوحدثت لهم وهم في حالة يقظة لحملتهم على الصياح من الألم والذعر ، بل يحـدث غالباً انهم يتأثرون بشعورات لطيفة ولذيذة بأرواحهم وهم فى هذه الحالة من النوم العميق »

رامون دولاسارغا قدم هذه الظاهرة معتبراً اياها دليلا علمياً على وجود الروح، لانه يتضح منها ان الروح والجسم ليسا شيئاً واحداً . وقد رأينـا ان الروح تستمر على التفكر بينما الجسم تحت تأثير الاتير او الـكلوروفورم خاضع لفعـل الآلات الحديدية . فهذان العنصران من المجموع الانساني قد ظهرا هنا منفصلين بفعل العامل المبطل للحس.

وقد دهش هذا العالم الاسباني مما حدث لامرأته وهي تحت تأثير الكلوروفورم لانها حفظت فكرها سليما وقت ماكانت متخدرة وأثبتت له أن عقلها لم يصب بأقل تأثر فى ذلك الحين . فكانت تتكلم بهدوء وسكينـة مع الجراح بينما كان يشق لحمـا واعصابها بمشرطه . وقالت لزوجها ان افكارها وهي فى تلك الحالة كانت لذيذة

ولنتذكر ايضاً ان الالم امكن حذفه فى الاعمال الجراحية بالتنويم المغناطيسي في جامعة نانسى (بفرنسا)

فالتمايز بين الروح والجسم بل تفاصلها قد شوهد في أحوال غير هذه كثيرة ، فشوهد فى حالة النوم المغناطيسي وحالة الانتقال النومي ، وانقسام الشخصية الخ ماجعل الافتراضات الفيزيولوجية التى تخيلت لتفسير هذه الظواهر الدالة على الشخصية النفسية المستقلة عن الجسم، كلها غير كافية في التعليل . فعلوماتنا الراهنة عن الحياة والفكر على وشك الانهيار والزوال

كل شيء يثبت لنا ان الروح الانسانية جوهر متميز عن الجسم . فالروح رغماً عن مؤداها اللغوي ليست نفساً بل هي انية عقلية. فما أكثر الكلمات التي تغيرت مدلولاتها ، ومن أمثلة ذلك كلة الكهرباء المشتقة من كلة كهرمان

أما نحن فنؤسس هنا وجود شخصية الروح مع خصائصها التى تظهر الطبيعة، وليس بينها وبين خصائص المادة أية صلة

من السذاجة ان يتوهم الانسان انه يستطيع أن يصل الى درجة اليقين التام في أي مجال من مجالات العرفان . فلسنا على يقين من شيء . لان حواسنا وأساليب ملاحظاتنا وإدراكنا ليست كافية لكشف الحقيقة المطلقة . وليس أمام العلم العريق في تحرى الاسلوب الحسي الا مرجحات قد تكون ذات قيمة عالية حتى تساوي مايسمي في اللغة المتفق عليها باليقين . فعلم الهندسة نفسه يقوم على أحد المسلمات ، ولا يوجد شيء يثبت لنا انه لايوجد غير ثلاثة ابعاد في الفضاء . والقول في علم الحساب بأن اثنين واثنين تساوى اربعة لايعني شيأ كبيراً اللهم الا اصطلاحاً كلامياً أو تعبيراً عن عمل اضافي. ومع هذا فان العلوم الرياضية تمثل لدينا المعارف اليقينية . ولكن يتعذر الوصول الى هذا الحد في علم النفس

كل المعارف النفسية المذهبية وجميع المباحث الرسمية المدرسية فيها يعوزها التكميل بل التغيير والتنقيح

وبما ان الخصائص الطبيعية للنفس والادراك والعقل والارادة التي هي مرعي

التعاليم المدرسية الرسمية، والتي مظاهرها عادية ومستمرة، لم تثبت استقلال الروح عن المخ اثباتاً لايمكن النزاع فيه ولم تحصل لنا اليقين عن البقاء بعد الموت، رأينا أن ننظر الى هذه المسئلة من وجهة جديدة، وأن نذهب الى مدى أبعد مما وقف البحث عنده الى اليوم

فالانسان قبل كل شيء كائن مفكر، فالفكر أمر عملي محقق. أفلا يمكننا بجانب هذا الامر العملي الاولي ان نبحث فيا اذا كانت بعض الخصائص الروحية المجهولة أو التي لم تدرس الا قليلا، تستطيع أن تؤتينا بموضوعات جديدة للبحث يساعدنا تحليلها الدقيق على تمزيق غشاوات من جهالة طال علينا الأمد، وعلى انارة مسألة تركيبنا النفساني وزيادة معارفنا المحدودة، وتأسيس علم روحاني يمكن قبوله يكون محققاً لأمانينا بعد كل هذه المجادلات العقيمة في موضوع واحد، وبعد هذه التمحيصات المديعة الجدوي التي لاتخرج عن دائرة محدودة ؟

لقد رأينا من الاعتبارات السابقة في الفصل السالف ترجيح الوجود المستقل للروح بشهادة الفيزيولوجيا نفسها. فنستطيع الآن ان نذهب الى مدي ابعد من هذا وان نزيد هذا الوجود المستقل للروح، بمظاهر خصائصها التي لا يمكن ان تعزى الي الخواص المادية للمخ، ولا الي تركيبات عضوية أوكيماوية أوميكانيكية او صفات ذاتية . . .

فشعور الانسان مقدما بماسيقع، مما سيطلع عليه قرائي هنا، من الامور الجديرة بالتفات خاص . فأدعو أشدهم عناداً ان يمحصوه ويقلبوه على كل وجه..

مثال ذلك ماوريناه في محل آخر من ان (ديالونيه) مدير مرصد باريس كان يشعر في نفسه ان ركوب البحر سيجر عليه مصيبة، وكان يرفض ان يمتطي صهوته لهذا السبب، حتي حضر اليه أحد أقربائه وهو المسيو (ميتو) في اغسطس سنة ١٨٧٢ ورجاه ان يمضى معه اسبوعا من الرياضة. فقصدا شيربورغ فغرقا الاثنان معاً وهما عائدان من زيارة مرفئها بتأثير ريح شديدة

فالشعور بالحوادث المستقبلة والانذارات النفسية التي من هذا القبيل هي من

الكثرة بحيث تخرج عن حد الامور الاتفاقية ، ولا يدهشنا أن يهتم الباحثون بالتنقيب عن علتها، فانها جزء من الحوادث الواجب دراستها . فقد تكون حادثة واحدة يمكن تفسيرها بالاتفاق المحض ، ولكن تفسير عشرة حوادث او عشرين او مئة او الف بالاتفاق فذلك مما لا سبيل اليه

وقد كتب الدكتور (مينوسافاج) فى مجلة (اينسليزمجازين) الامريكية فى مارس سنة ١٨٩٢ ما يأتي :

« كان في احدى ضواحي نيويورك شاب أتم دروسه في البلاد الاجنبية بجامعة (هيدلبرج)، وكان أبعد ما يكون عن المزاج التصوري الوهمي . وكان لطول قامته وقوة عضلاته اشتهر بين قومه بالمصارع ، وكانت العلوم التي آثرها على سواها هي الرياضيات والطبيعيات والكهربائية . ولما عاد من البلاد الاجنبية لم يعرف عن صحته الا انها جيدة للغاية . وكان يقيم مع أمه فى دار خلوية تملكها في تلك الأنحاء . وكان من عاداته ان يذهب كل يوم بعد العشاء فيتمشي خطوات وهو يدخن في (بيته) . ففي ذات ليلة عاد الى بيته هادئاً لم يكلم أحداً ودخل مخدعه . فلما أسفر الصباح دخل الى حجرة والدته قبل أن تستفيق من نومها ومسح وجهها بيده بقصد ايقاظها بتلطف ثم قال لها :

« يا أماه ، سأخبرك بشيء غريب محزن جداً فيجب أن تدرعي بالشجاعة لتكوني قوية وتتحملي سماعه

« فدهشت والدته مما سمعت وسألته عما يقصده من قوله هذا

« فأجابها بقوله : يا أماه اني عالم بما اقول ، اني سأموت قريبا

« فألم بالام من الكرب والاضطراب كما يعهد من كل ام في مثل هذه الحال وسألته ان يزيدها بياناً

« فقال لها : بينما كنت أتمشى أمس مساء فى الميدان ظهر لى روح ومشي بجانبي وأخبرني بأني سأموت فلا بد من اني سأموت

« فتأثرت الأم مما سمعت أشد تأثر واستدعت طبيباً وكاشفته بما سمعته من ابنها

« فقرر الطبيب بعد اطالة فحص الابن انه لم يجد عنده شيأ غير طبيعي وهدأ بال الام بقوله لها ان ماحدثك ابنك به لم يكن سوي حلم ردي، وهذيان محض ، وانه لا يجوز لها أن تفكر فيه ، وانه لاتمضى الا أيام معدودة حتي تضحك هي وولدها من خوفها الوهمي

« فلما اصبح الولد في اليوم التالي شكا بوعكة خفيفة فاستدعى الطبيب ثانية فهزىء بوسوستها

« فاشتد المرض فى اليوم الثالث على الشاب وأحضر الطبيب فرأي انها التهاب حدث فى الزائدة الدودية ، فقرران تستأصل بعمل جراحي . فلم يعش بعد العمل غير يومين اثنين ولم يمض بين مارآه وبين موته غير خمسة ايام » انتهي

امثال هذه الروايات اعتاد الناس ان يطلوها بطيش بكلمة (هذيان) ، ويخيل اليهم أنهم يحلون المسألة بحذفها علي هذا النحو . وليس هذا من الجد فى شيء

فليس علىَّ هنا الا ان استمد من الاسانيد التي لاتحصى من يخى القدى عندى لأزيد على ماقدمت اسانيد جديدة مختلفات الطبيعة ، وللدلالة بذلك علي سعة المجال المجهول الذي علينا اكتشافه . وقد وقعت الآن يدى على الكتاب الآتى وهو يخالف الكتاب السالف ولا يقل عنه في الغرابة . وقد ارسل الي من الآستانة فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٠٠ فاليك :

سيدي الاستاذ

« في سبيل البحث العلمي التجريبي الذى تبذلون فيه باخلاص عظيم ساعات كثيرة من وقتكم بقصد اتمام العلم العام ، اري من واجبي ان افضى اليكم بحادثتين شاهدتهما بنفسي

« قابلنى في بيتي رجل من معارفي ذات يوم بالآستانة نحو منتصف الساعة الثانية عشرة صباحا وقال لي :

«ولأدرى لماذا أنا منذ صباح هذا اليوم مشغول الفكر بأن عمتي قد توفيت في مدينة (جنوا) . فسألته عما اذا كان يعلم ان عمته مريضة ؟ فأجابني انه مغاضب لأسرته منذ عشر سنين ولم يصله منها أقل خبر. وبينما نحن نتحدث وأنا مجتهد في أن أثبت له ان شعوره هذا وهمي ، اذ أقبل خادمه حاملا اليه تلغرافا من مدينة (جنوا) وفيه ان عمته توفيت فجأة في تلك الصبيحة عينها

« وهذا الرجل نفسه هب من نومه فجأة في ليلة ٣١ يوليو الماضي وقال لزوجته بأن ملك ايطاليا قد قتل . فلم تعارضه زوجته اعتقاداً منها انه يحلم. فلما أصبحت أخبرته عما رآه في الحلم . فقال لها ان ذلك لم يكن حلما ولكن تلك العبارة خرجت من فمي وأنا لم أعلم لماذا ولا كيف خرجت

« وكان بيتهما مطلا على الميناء فقال لزوجته ان أدل دليل على ان ملك ايطاليا لم يمت هو ان السفن الراسية رافعة أعلامها

« وبعد مضي ساعة عاد الى النافذة فرأى في هذه المرة ان تلك السفن قد خفضت راياتها الى انصاف سواريها (علامة الحزن) . فدهش من هذا التغيير وأسرع الى الاستعلام فقيل له ان ملك ايطاليا (والد الملك الحالي) قد قتل غيلة في الليل

« خاف صاحبي من هذا التوافق العجيب فجاء يستشيرني باعتباري طبيباً للامراض العقلية، ويسألني عما اذا كان ماحدث له يدل على عرض خطير لاصابة مخية. فهدأت باله ولكني دونت هذه الحالة لاسيما وصاحبنا كما قلت عنه انه رزين للغاية وجدير بالثقة من كل وجه

« وأرجوكم وأنا في انتظار جوابكم أن تتفضلوا بالعفو عن جراءتي بالكتابة اليكم قبل أن أتشرف بمعرفتكم شخصياً وتكرموا بقبول شكري واحترامي

الدكتور ل . موغيري

طبيب الامراض العقلية بالمستشفى الملكي

الايطالي بشارع كاريستان

رقم ٢٠ بالآستانه

لقد شكرت هذا الدكتور الكريم على كتابه هذا الذى ضمنه الي أمثاله الكثيرة . فمن الجنون اعتبار كل هذا من الاوهام اذ يكون ذلك بمثابة انكار الشمس وقت الزوال . فالكائن الانساني لايزال بالنسبة الينا سراً غامضاً ، وعلم الدارس قد ضل سبيل الرشاد الى الآن ، ولكن العلم الذى أخذ على نفسه البحث عن الحقيقة ، يجب بعد الآن أن يقتنع بأن هنالك خصائص للروح لاتزال مجهولة وهي أهم الاشياء التي يجب كشفها وتحديدها وتفسيرها . . .

واليك حادثة هامة للغاية تدل علي الشعور عن بعد بالحوادث، حصلت لامرأة عن زوجها ، وهي مستخرجة من مجموع (الفانتاسمس اوف ذى ليفنج) (١) وهذه الحادثة تتعلق بالدكتور (اوليفييه) الطبيب بمدينة هويلجوت «فيستر» :

« فى ١٠ اكتوبر من سنة ١٨٨١ دعيت لأداء عيادة طبية في الريف على بعد ثلاثة فراسخ من دارى وكان ذلك في وسط ليل دامس . فسرت فى طريق أجوف تحفه أشجار قد قامت على حافيه وصارت عليه كالقبة . وكان الظلام شديداً الي حد انى لم أدر كيف أقود حصاني فتركت الحيوان يسير بفطرته، وكانت الساعة حينذاك تسعة . وكانت الطريق التى سلكتها يعلوها حجارة غليظة مستديرة مكونة لانحدار شديد . فكان الحصان ينحدر منها ببطء عظيم . فما راعني الا انثناء يدى الحصان ثم وقوعه فجأة ماداً فمه علي الارض ، واستلزم ذلك سقوطي من فوق رأسه ماساً الارض بكتفي فانكسرت احدى ترقوتىّ

« فى هذه اللحظة كانت امرأتي تخلع ثيابها فى الدار وتستعد لدخول السرير ، فشعرت بأني قد أصبت بأذي ، واعترتها رعدة عصبية ، وأخذت تبكي، ثم استدعت الخادمة قائلة لها : أسرعي اليّ فاني خائفة ، فقد حدث لزوجي سوء ، فهو اما ميت أو مجروح

---

(١) هذه مجموعة الحوادث الروحية التي حققتها بنفسها جمعية المباحث النفسية المشكلة في لوندرة من جماعة من العلماء منذ سنة ١٨٨٢ ولا تزال موجودة للآن

«ولبثت طول غيبتي عنها ممسكة بالخادمة عندها ولم تفتر عن البكاء . وأرادت أن ترسل رجلا ليبحث عني ، ولكنها لم تدر الى أي قرية قصدت . أما أنا فعدت الى داري في الساعة الاولى بعد نصف الليل، وناديت على الخادمة لتؤتيني بمصباح وترفع السرج عن حصاني قائلا : اني قد جرحت ولا أستطيع أن أحرك كتفي

« فتحقق بذلك شعور امرأتي »

الدكتور اوليفيه

طبيب هويلجوت ، فنيستر

وقد كتب لي العلامة المدرس المسيو سافيلي من كوستا « جزيرة كورس » في سنة ١٩١٢ يقول :

« المشاهد ان هذه المسائل أصبحت في نظر القارئين في الدرجة العليا من الافادة واني متحقق بأني أعبر لكم عن رأيهم في رجائي اياكم بمتابعة مباحثكم فيها

« ان مسألة حقيقة الزمان صعبة الحل للغاية وقد أجاب أحد الرياضيين المشهورين باحثاً مسألة القول الفصل فيها بقوله « لنتكلم في شيء آخر » ومع هـذا فاني أرى من واجبي أن أرسل اليكم بمشاهدات توجب الحيرة الشديدة ولا يمكن ان يتسرب اليها الشك أصلا

« بينما كان أبي عائداً الى داره ذات ليلة يصحبه احد اصدقائه اذ طرق آذانهما صيحات انزعاج منبعثة من نساء يبكين ويولولن ، فلم يشكا في طروء نازلة عليهن ، وظنا ان أحداً قد قتل عندهن . فوقفا أمام الدار التي تنبعث منهـا هذه الصيحات ليستكشفا جلية الخبر ، فكان نصيبهما ان انقطعت الاصوات فجأة فلم يعودا يسمعان شيأ . فلما كانت الليلة التالية، ومر ابي ازاء هذه الدار، سمع مثل الصيحات التي سمعها في الليلة السابقة تماماً ولكنها في هذه الدفعة لم تكن وهمية . وعلم ان طفلا لم يكن به مرض في الليلة الفارطة اصيب فجأة في اثناء النهار بالخناق ومات من ساعته بما يشبه موت الفجأة. حدثت هذه الحادثة في مدينة بارازو وهي مجاورة للمدينة التي أودي فيها وظيفتي التدريسية » انتهى

فالذي يجب علينا التسليم به بدون ان نتأثر بأدنى شك، هو ان علم المستقبل سيبحث في تعليل الخصائص الروحيـة المجهولة للآن لدى العلم العصري، او التي لم تدرس الى اليوم الا دراسة ضئيلة جداً .

والصحف الآتية ستزج بنا في معمعان هذه المباحث بادخالها ضمن هذه التقاسيم الضرورية وهي : الارادة المؤثرة بمحض التلقين العقلي. — والتأثر والتأثير عن بعد. — والانتقالات النفسية الى مدي بعيد . — والنظر بدون واسطة الاعين او بالروح. — ورؤية المستقبل

هذه الحوادث الحسية تثبت كلها الوجود الروحاني للنفس مستقلة عن الخصائص الطبيعية للحواس

فالروح والجسد هما شيئان متميزان لكل منهما خصائص خاصة بها

الارادة تعمل بلا لفظ ولا اشارة وعن بعد

المانيتيسم والابنوتسم والتلقين العقلي والتلقين الذاتي

« العلم مكلف تحت سلطان القانون الخالد »

« الشرف ان يبحث كل مسألة تتقدم اليه بصراحة»

السير وليم طومسون

من بين اعظم المظاهر المختلفة لشخصيتنا النفسية عمل الارادة الانسانية بدون الالفاظ او اية اشارة اخري وعلى بعد من صاحبها

مما لامشاحة فيه ان الارادة خاصة غير مادية فى اصلها ومتميزة عما يعرف على وجه عام من خصائص المادة

فيمكنك ان تؤثر على مخ انسان غيرك بتركيز عقلك فيه . فتستطيع وانت فى تياترو او كنيسة وعلى بعد عدة امتار خلف انسان ان تجبره على ان يلتفت اليك بدون

اخري، وحاسة اللاحقة فيها كانت جيدة . الا أنهـا كانت تصـاب بضعف الارادة والتردد المتعب، ثم يعقبه ثبات مفرط . وكان أقل شعور بتعب معنوي، وأي تأثير غير منتظر قليل القيمـة سواء كان ساراً أو محزناً ينعكس على الاعصـاب المحركة ببطء وبدون ان تشعر به ، فيفضي الى نوبة او الى اغماء عصبي

قال الدكتور (اوكورويكز) فيا كتبه:

« حدث ذات يوم بل ذات ليلة بعد انتهاء النوبة (بمـا فيها دور الهذيان) ان المريضة نامت بهدوء ثم استيقظت فجأة فلما رأتني انا وصديقتها بجانبها رجتنا ان نذهب حتي لانتعب انفسنا من اجلها بغير موجب ، وألحت في ذلك الحاحا حملنـا على اطاعتها تفاديا من ان يسبب لهـا إباؤنا نوبة جديدة . فنزلت أنا السـلالم ببطء (وكانت تسكن الطبقة الثالثة من البيت) ووقفت اثناء النزول عدة مرات أتسمع ما يأتي من قبلها وأنا متوقع حدوث حادث سيءٍ (فقد كانت جرحت جروحا عديدة قبل ايام) ، فلما انتهيت الى الحوش وقفت مرة اخري متردداً بين الذهاب والبقاء . وبينما انا افكر في ذلك واذا بالنافذة قد انفتحت بضوضاء . فرميت ببصرى اليها واذا بجسم المريضة يميل الى الخارج بحركة سريعة، فأسرعت الى النقطة التي اتوقع سقوطها منها واخذت في تركيز ارادتي بقصد منعها من السقوط مدفوعا الي ذلك اندفاعا آليـا ، ولكن بدون ان اعلق عليه أية قيمة، لانه عمل غير معقول، وقد كان مثلى فيه كمثل لاعبي البلياردو الذين يحاولون ، وقد ادركوا أنهم لم يصيبوا المرمي، أن يقفوا الكرة باشارات من ايديهم والفاظ من افواههم

«ومع هذا فان المريضة التي كانت قد تدلت وقفت فجأة ، ثم تقهقرت ببطء وبصدمات متوالية

«ثم كررت هذا العمل خمس مرات متوالية، فبدت على المريضة علائم الاعيـاء، فوقفت جامدة مستندة بظهرها على افريز النافذة التي كانت لاتزال مفتوحة

«وكنت في اثناء هذه الاعمال بحيث لاتراني في الظلام لان الوقت كان ليـلا . وفي هذا الوقت كانت صاحبتها قد اسرعت اليها وقبضت على ذراعيها . وقد سمعتها

يتدافعان فأسرعت في الصعود لاساعدهاء فوجدت المصابة في نوبة جنون، فلم تعرفنا وتصورتنا لصوصا . ولم استطع ان اجتذبها من ناحية النافذة الا بالضغط على القسم الميغي من جسمها، فاضطررتها بذلك للوقوع على ركبتيها . فحاولت مراراً ان تعضني وما استطعت ان انقلها الي سريرها الا بعد جهد جهيد، وتمكنت اخيراً من انامتها

«فلما انتقلت الى دور النوم المغناطيسي كان اول ماقاهت به هاتان الكلمتان :

«شكراً وعفواً

«ثم حدثتني بأنها كانت قد صممت علي القاء نفسها من النافذة ولكنها كانت تحس في كل دفعة أنها كانت تمنع بقوة من جهة الدور الاسفل

«فقلت لها : كيف كان ذلك ؟

«فقالت: لاادرى

«فقلت لها : أكنت تتخيلين وجودي هناك ؟

«فقالت : لا. وانى مااردت ان انفذ ارادتي الا لاعتقادى بذهابك . ومع هذا فقد كان يخيل لى من وقت لآخر بأنك كنت الى جانبي او خلفي وانك لم ترد ان اقع »

اليك تجربة المؤلف المذكور (يريد الدكتور اوكوروبكز) قال :

« اعتدت ان انيم هذه المريضة كل يومين مرة، وان ادعها فى نوم عميق مدة كتابة مذكراتى عنها . وقد تأكدت من تجارب شهرين عليها بأنها لاتبدي حراكا وهي في تلك الحالة الا اذا اقتربت منها لأنقلها الي حالة الانتقال النومي . ولكني في هذه التجربة التي اذكرها بعد ان كتبت بعض المذكرات ودون ان اغير جلستي (وكنت علي عدة امتار منها خارجا عن مرمي بصرها واضعاً كراستي على ركبتي ومسنداً رأسي على يدى اليسرى) تظاهرت بأني لاازال اكتب بحمل القلم على الصرير، الا اني باطنيا ركزت ارادتي على امر اصدرته اليها وهو :

(١) ان ترفع يدها اليمني

ان يتخيل انك تؤثر عليه وبدون ان يعلم بوجودك ، وليست تجربة هذا الامر بالامر النادر ، وانه باسقاط الاحوال التي يمكن ان تحدث اتفاقا يبقى عدد كبير من احوال محققة لاسبب لها الا تأثير الارادة . حتى ولو كان الامر يتعلق بشخص ليس بينك وبينه سابق معرفة

فاذا كان التأثير يقع على شخص معروف من المجرب فان عددالمشاهدات يزداد زيادة كبيرة . وهى تثبت تأثير الارادة عن بعد

يستطيع النقد المادى هنا ان يدعي بأن هذا الامر سببه عمل حاسة للمخ مجهولة وأن لادليل على ان عملها هذا ذو أصل روحانى . ولكن دحض هذه الشبهـة ليس بالامر الصعب،وذلك ان المخ عضو مادي ويمكن تشبيهه بالجهازالكهربائي ، ولكن لابد ان يكون خلف هذا الجهاز في اقصي جهات المخ شخصية روحية . فاني اذا تكلمت فما ذلك الا لانى أفكر فى التكلم . فالكلام هو النتيجة وليس بالعلة . فتخيل وجود جهازمخي، متمتع بشخصية عقلية مسئولة ذات ارادة واهواء وتعقـل وتفكير، فذلك يكون من باب الافتراض الذي يعوزه الدليل . أليس شعورنا الخاص يكفى فى ان يدلنا على الحق في هذه المسألة؟

فنحن باعمالنا حواسنا الخمسة، البصر والسمع والشم والذوق واللمس ، تتجـه الحركات التذبذبية من العالم الخارجي الي المخ وتنتقـل اليه بواسطة الاعصـاب البصرية والسمعية والشمية واللمسية . ولكن في تأثيرنا بارادتنا عن بعد ، أى فى نقل أفـكارنا الى مسافة منا، تتجه الحركة التذبذبيـة بعكس الحالة الاولى ، أى من مخنـا الي العالم الخارجي.فيجب أن يكون فى ابعـد غور من مخنا العلة المؤثرة في احداثهـا وهو العقل

وقد وضعت مؤلفات خاصة فى مسألة التلقين العقلي، والامثلة التى تثبت صحته لاتدخل تحت حصر . وقد شاهدت انا نفسي منها عدة فى الايام السالفة من تجارب (شاركو) في مستشفى (السالبتريير) والدكتور (لويس) فى مستشفى(لاشاريتيه).ولكن أغرب مارأيته منها كانت تجارب (بيرجانيه) في مدينـة (الهافر) أجراها علي امرأة

قوية فلاحة هي ربة أسرة وليست مصابة قط في أعصابها . فكانت تتلقى مايوحيه اليها بعقله وهو بعيد عنها عدة كيلو مترات بتعليمه بضبط مطلق وذلك بدون ان تعرف ماسيلقيه اليها مقدماً بأي وجه من الوجوه (١)

فهل الارادة تقتضي وجود شخصية نفسية ، اى ذات ، او عقل ، اوروح ؟ وهل هذا التعليل آكد من التعليل بالخصائص الطبيعية والكيماوية المتعلقة بالمادة الحية ؟ وهل الذات الشاعرة بنفسها موجودة ؟ ان كيفية وضع هذه المسألة هو بمنزلة حلها

اننا سنري فى الحوادث المشاهدة بدقة تامة عن التلقين العقلي وعن الافكار التى تنتقل من انسان لآخر بدون تلفظ ولا اشارة ، بل بمحض الارادة تجلى الشخصية الانسانية بكل وضوح . وان التجارب المشهورة التي اجراها الدكتور (اوكورويكز) ستمكن القراء من الحكم على علة هذه الظواهر بدون تمييز

فقد كان هذا الدكتور يعالج امرأة مصابة بهستريا صرعية مزمنة ، ثم تضاعفت بطروء نوب من الهم بالانتحار . كانت سن هذه السيدة ٢٧ سنة وكانت لقوة بنيتها يظهر عليها الصحة التى لاشائبة فيها . وكان يغلب على مزاجها النشاط والغبطة ، مضافا اليهما احساس ادبي مفرط من جهة نفسية محضة ، اى انه لم تكن لها علامات ظاهرة ، وكانت مع هذا محبة للصدق طيبة القلب للغاية وميالة للتضحية وذات عقل عال وعدة خصائص

---

(١) يمكن الاطلاع على تفصيلات هذه التجارب وتجارب كثيرة غيرها في كتاب الدكتور اوكورويكز *Achorowicz* المسمي بالتلقين العقلي *De la suggestion Mentale* (باريز سنة ١٨٨٧) وكتاب (جول ليجوا) *jule Liegeois* المسمي (التلقين والانتقال النومي) *De la suggestion el du somnanıbulisme* (باريز سنة ١٨٨٧) وكتاب بيرجانيه *Pierre janet* المسمي الحركة النفسية الذاتية *L'automatlsme psychologique* (باريز سنة ١٩٠٣) وكتاب الدكتور جوار *Joire* المسمي التاريخ السنوي للعلوم النفسية *Annale des sciences psychiques*

يراقب على الباب وهو مفتوح قليلا بحيث يرى (مسمر) والشخص الذي يحاول التأثير فيه

فأحدث (مسمر) أولا حركات مستقيمة بسبابة يده اليسرى في الجهة المفترض وجود المريض بها وراء الحائط ، فابتدأ هذا يشكو، ومس أضلاعه وظهر عليه التألم

فسأله (سيفرت) قائلا : ماذا أصابك . فأجابه أشعر بأني غير مرتاح

فلما لم يقنع (سيفرت) بهذا الخطاب طلب اليه أن يصف مايشعر به بدقة. فأجابه المنوم بأني أحس كأن كل شيء يميد في باطني يميناً ويساراً

ولاجل ان لايكثر عليه من المسائل طلب اليه أن يعلن عن التغيرات التي يشعر بها في جسمه بدون أن يلقى عليه سؤال

وبعد دقائق أخذ (مسمر) يحدث بأصبعه حركات بيضية الشكل . فقال المريض من وراء الحائط : « الآن أشعر انكل شيء يدور حولي على هيئة دائرة»

ولما قطع (مسمر) العمل أعلن المريض بأنه صار لايشعر بشيء . وهلم جرا . فجاءت كل هذه التصريحات من المريض مطابقة لاوقات احداث التأثيرات واوقات قطعها بل وجاءت مطابقة طبيعة الشعور الذى أراد (مسمر) احداثه على المنوم «١»

***

وقد رأيت صديقي المأسوف عليه الكولونيل دوروشاس *De Rochas* يحدث هذه التجارب في مدرسة الهندسة بباريز (وكان ناظرها) وكذلك رأيت الدكتور (بارتي) *Barety* يعملها في مدينة نيس ، ومجربين آخرين. فالتأثير بالارادة عن بعد ليس بالامر المشكوك فيه كما يعلم الذين درسوا هذا الموضوع

اما (فان هيلمنت) الذى كان طبيباً كبيراً ومفكراً عظيما في القرن السابع عشر

«١» من كتاب الدكتور كرنر *Kerner* المسمى (فرنزانتون مسمر) المطبوع سنة ١٨٥٦ وقد نقله عنه الدكتور (او ورويكز) في كتابه التلقين العقلي *De la Suggestion Mentale*

فانه وضع هذه المسألة قبل (مسمر) وجاء حكمه فيها صريحاً جداً . فقد كان يعتقد ان كل انسان صالح لأن يؤثر في أمثاله عن بعد، ولكن هذه القوة تظل فيه على وجه عام كامنة ومختنقة بغلبة سلطان الجسد . فلاجل ان ينجح الانسان في ابرازها يحتاج لوجود تطابق بين المجرب والوسيط . ويجب ان يكون هذا الاخير شديد الحس ومتمرن على ان يحس تفاديا من أن تقوم شدة حسه تحت تأثير تصوره الباطني بمناقضة التأثير الواقع عليه من المجرب . أما أخص جهة يبتدىء فيها الشعور بهذا التأثير السحري هو فم المعدة، لان الحس الانساني في هذه الجهة أدق منه فى الاصابع بل وفي الاعين . وقد يتفق ان الوسيط لايتحمل أن تلمس منه تلك الجهة باليد

وقد كتب الدكتور المذكور في كتابه يقول :

« لقد أرجأت أن أكشف القناع عن هذا السر الكبير وهو ان في الانسان قوة تستطيع بمحض ارادته وخياله أن تؤثر فيما هو خارجي عنه وأن تطبع أثرها الثابت على شيء بعيد عنه جداً . وان هذا السر ليفسر تفسيراً واضحاً عدة حوادث يصعب فهمها تتعلق بالمغناطيسية الموجودة فى جميع الاجسام ، وبالقوة المعنوية للانسان وتسخيرها الكون «٢»

***

عاش الدكتور (فان هلمونت) من سنة ١٥٧٧ الى سنة ١٦٤٤ . ولنفتح الآن كتاب (كيرخر) *Kircher* المسمى *Magnes,sive de arte magnetice* المطبوع في رومة سنة ١٦٤١ في فصل المغناطيس الحيواني فنجد فيه أمثلة على (الجذب والدفع) وعلى (الخاصة المغناطيسية للاعضاء الانسانية) وعلى تطبيق (المغناطيس التصورى) على الطب وعلى (المغناطيسية الموسيقية)

«٢» من كتاب فان هلمونت *Van Helmont* المسمي *Operaomnia* المطبوع في فرانكفورت سنة ١٨٦٢ نقلها الدكتور اوكوروبكز فى صفحة ٤٠٥ من كتابه التلقين العقلي

«ثم راقبت حركات المريضة من خلال اصابع يدي اليسرى المستندة على جبهتي فرأيت انه:

«في الدقيقة الاولى : لم يحدث شيء.

«في الدقيقة الثانية : اضطراب في اليد اليمنى

«في الدقيقة الثالثة : زيادة الاضطراب ، ثم قطبت المريضة حاجبيها ورفعت يدها اليمنى

واني اعترف بأن هذه التجربة اثرت في ما لم تؤثره اية تجربة اخرى فأعدتها كما يلي :

« (٢) امرتها عقليا ان تقوم وان تأتي الي

« فقطبت حاجبيها وتحركت،ثم قامت ببطء وصعوبة واقبلت الي ويدها ممدودة

« (٣) امرتها عقليا ان تسحب سوارها من معصمها الايسر وان تعطينيه

«فلم يحدث شيء

«ثم مدت يدها اليسرى وقامت متجهة نحو المدموازيل X ثم نحو البيانو

«فلمست ذراعها الايمن وارجح اني دفعت به الى صوب ذراعها الايسر مركزا ارادتي على الامر الذي اصدرته اليها

«فسحبت سوارها وظهر عليها أنها تفكر ثم ناولتنيه

« (٤) أمرتها عقليـا أن تقوم وان تقرب الكرسي الكبير من الخوان وأن تجلس بجانبنا

«فقطبت حاجبيها ثم قامت ومشت نحوي . ثم أخـذت تبحث ولمست كرسي البيانو ، ونقلت كوبة الشاي من مكانها . ثم تقهقرت وأخذت الكرسي الكبير ودفعته الى الخوان باسمة بسمة ارتياح وجلست عليه ساقطة من الاعياء »

قال العلامة كاميل فلامريون عقب نقله هذه التجارب :

كل هذه الاوامر أصدرت عقلياً بدون اشارات ولا النطق بكلمة واحدة

وفي كتاب (اوكوروبكز) اجدى وأربعون تجربة من هذا النوع

ويعرف قرأي مانشرته من امثال هذه التجارب في كتابي (المجهول) في باب التأثير النفساني من روح على روح أخرى ، وخاصة في صفحتي ٢٩٦ و ٣١٦

فالتجربة الحاسمة التي شوهـدت عن تأثير الارادة وعن التلقين العقلي لا يمكن ان تعزى الى المادة الجسـدية ، ولا الى التفاعـلات الكيماوية ، ولا الى الحركات الميكانيكية . بل ان سببها فكرة ، أى سبب عقلي أو أصل روحاني يؤثر بحالة لاتزال مجهولة ، ولكن التلغراف والتلفون اللاسلـكيين يعطياننا عنهـا صورة يمكن البحث في تفسيرها

هذه المشاهدات من التلقين العقلي قد درست منذ زمان طويل من عهد (مسمر) ومن قبله بواسطة (فان هيلمنت) *Van Helment*

فاليك تجربة مشهورة من تجارب كثيرة أوردها شاهد نزيه وهو العالم (سيفرت) *Seifert* الذى كان يعتبر (مسمر) في أول أمره مشعوذاً ثم انتهى به الحال الى قبول نظريته تحت تأثير هذه المشاهدات

أجريت هذه التجربة في هنكاريا سنة (١٧٧٥) في قصر قديم للبارون (هورنسكي دوهوركا) حيث كان (مسمر) يعالج البارون بالتنويم المغناطيسي ويعالج في الوقت ذاته مرضى كثيرين كانوا يحضرون لاستشارته . فكان العالم (سيفرت) المذكور يعتبر هذه الامور كلها من الهذيانات

حضرت الجرائد ذات يوم وكان في واحدة منها ذكر حادثة تمت على يد (مسمر) مؤداها انه أحدث ارتجافات في بعض المصابين بالصرع، وهو مختبىء في غرفة مجاورة، بمحض اشارة بأصبعه وجهها الى المرضى . فشخص سيفرت الى القصر والجريدة في يده فوجد مسمر فيه محاطا برجال من الاشراف . فسأله عما اذا كان ماذكرته عنـه تلك الجريدة صحيحاً؟ فأجابه مسمر بالايجاب. فتغيظ سيفرت وطلب اليه دليلا تجريبيا عن تأثيره من خلال الحائط

فوقف (مسمر) عند ذاك على بعد عدة خطوات من الحائط ووقف العالم سيفرت

فليست هذه الشؤن النفسية من الحوادث العصرية ، بل هي تصعد الى عهد عيسى وفيثاغورس والى عهود أبعد من ذلك ايضا

ولكن ماهو التلقين القاني ؟

يقول المغطسون ان الارادة تركز سيالهـا ثم تقذف به الي الخارج في وجهـة تقريبية كأنه لفافة أفيون . ولهذا السيال من الادراك والظرف مايحمله على الاسراع وعلي وجدان طريقه فيدور على الجدران ويصيب الشخص الموجهاليهفيغير عليه.وعند مايستولي عليه الى الحد المناسب ، يحصل النوم عن بعد أو عن قرب علي حدسواء.هذا واضح ، واضح كالتعليل القديم لفعل الافيون ، وهو انه منوم « لانه يملك خاصـة منومة» على ماقاله موليير

ولكن «يجب أولا كما يقول اوكورويكز اثبـات ان ذلك السيال موجود ، ثم اثبات انه مما يمكن قذفه ، ثم اثبات انه يهتدى الطريق ، ثم اثبات انه يقف عند ما يصل الى المجموع العصبي للشخص المراد» ولكن يظهر ان من التبصر أن تقنع بعبارة (القوة النفسية) التي اقترحتها قبل سنة ١٨٦٥

فالتأثير النفساني من روح على روح أخرى أصبح من الامور التي لايشك فيها مهما كان شكل انتقاله اليها

فهل أفكارنا تجول ؟ نعم أنها تنتقل على حالة تموجات في الاثير . وانا لنعلم قبل الآن ان الافكار تبحث بمتعلقاتها من الحركة الي كل مكان، أريد بكل مكان، نقطة بروز تلك الفكرة

والذي ينتقل ليس بمادة، وانما هي موجـة تأخذ في الاتسـاع . وتأثيرها عام، ولكنها تمر غير محسوس بها حتي تجد بيئة مشابهة، وتصادف جميع الشروط متوافرة، فتحدث فيها حالة خاصة غير دائمة . فاذا خرجت الموجـة من الارادة (ا)، وكان المخ (ب) يجمع هذه الشروط، فان الفكرة التي بعثتها تصل فيه، فينام اذا كان ممغطسه يريد منه ذلك

ثم قال العلامة كاميل فلامريون :

ان تأثير الروح على المادة، وهو الامر الذى درس من زمان بعيد لا يظهر أكثر وضوحا الا في الحوادث الناتجة بواسطة التلقين الذاتى فى بعض اضطرابات الثورة العصوية، مثل احرار بعض أجزاء الجسد والاحتقان الجلدى والتفاطات والأزفة والخدوش الدامية . أما كون الروح متميزة عن الجسم، وانها هي المسيطرة عليه، وان العقل يؤثر فى المادة، وان الفكر مهما كان لطيفا يحدث آثاراً مادية، وان التصور العقلى يكفى في بعض الاحوال لايجاد أعضاء أو لافساد أعضاء ، كل هذا أظهر صحته جليا عدد كبير من الامثلة المتنوعة ، بحيث يستحيل أن يكون للانسان أقل شك فى هذه المسئلة الكبرى. ويمكننا أن نشاهد بين هذه الامثلة العلامات التى يوجدها فوق الجلد بواسطة توارد الدم بعض الفكر أو العقيدة أو الاقتناع . فهذا (سان فرانسوا داسيز) ، وكان رجلا متصوفا تقياً للغاية، زهد فى العالم المادى واعتزل الناس فى غابة، متجرداً للعبادة، وجامعا حوله رجالا أتقياء سماهم تواضعاً بالاخوان القصر (فرانسيسكان). وكان ذهب الى سورية ومصر للوعظ والارشاد، ثم عاد الى ايطاليا آخذاً بصيام شديد، وحياة تبتلية، حدث له بعدها انه كان يرى مرئيات خيالية، ظهر له فى واحد منها سيرافان ذو أجنحة منبسطة، فخدره وطبع علي جسده علامات صلب المسيح، فانخرمت يداه ورجلاه علي النحو الذي حدث للمسيح بتأثير المسامير، وانفتح جنبه كأنه طعن بحربة، وبقيت فيه هذه العلامات

هذا بلا شك من التأثير النفساني للروح في الجسم ، وهذا الامر من الخطورة العظيمة من الوجهة الفيزيولوجية المادية، حيث أنكر انكاراً باتاً بزعم انه من الاساطير الدينية ، وانه من الامور المغالي فيها بل غير الصحيحة . وبما ان هذا الامر كان في نحو سنة ١٢٢٠، فقد عزاه المنكرون الي تسارع الناس الى تصديق كل شيء في القرون الوسطي . فقالوا من الذى شهد هذا الامر ؟ شهده الدينيون والمؤمنون الذين يقبلون كل شيء وأعينهم مغمضة

على ان هذا المثال عن قديس مشهور عزيت اليه أكثر من كرامة، ليس بالمثال

الوحيد في نوعه . فالبحث الذي أنقبه في هذا الكتاب أعثرني على عدد كبير من أشباهه

ثم أخذ الاستاذ كاميل فلامريون يسرد ماورد في التاريخ من أمثال هذه الحادثة فذكر ماحدث (للماريا مارل) التي ولدت في سنة ١٨١٢ . و (للمريادمومينيكا) المولودة سنة ١٨١٥ . و (لكريستزيانيكلوتش) المولودة في سنة ١٨١٦ .و (لاناكارن اميريخ) التي ولدت سنة ١٧٧٤ . وللقديسات تيريز وكاترين دوريكش وارشانجيلوتاردبرو وجيرترود وليدوين وهيين دوهونجري واوزان دومانتو وايدا دولوفان وكريستين دوستراملين وجان دولاكروا ولوسي دومارني وكاترن دوسيين وباسكتيس وكلاريس دوكوجيس وكترين دورانكيوز وفيرينيكا جيولاني وكولومب شانولت ومادلين لورجيه وروزسيراء ولأكثرمن رجل تقي،ولكن ليس من غرضنا أن نضع كتابا في هذا الموضوع ، فلنكتف بأن نضيف الى هذه الامثلة حالة أدهشت العلماء العصريين وهي حالة لويز لاتو التي اشتهرت بهذه العلامات في برادين (بلجيكا) ودرسها في سنة ١٨٦٩ الاستاذ ديلبوف المدرس بجامعة ليج

وذلك انه في يوم الجمعة ٢٤ ابريل سنة ١٨٦٨ بعد عيد الفصح بثمانية أيام كانت لويز لاتو عروساً قد مضى على زواجها خمسة أيام وهي لاتتجاوز الثامنة عشرة من عمرها . وهي مريضة وضعيفة من منذ أكثرمن سنة، وعرضة للاغماء،وذات تصور صوفي حاد،ظهرت في جسمها أول علامة (من علامات صلب المسيح)، وتلك علامة الجنب الايسر (المقابلة لعلامة الحربة التي طعن بها المسيح) ثم ظهرت علامة الرجل اليسري (وهي العلامة المقابلة لاثر المسمار الذي سمرت به رجل المسيح على خشبة الصلب). وفي يوم الجمعة الثالثة تمت لها العلامات الخمس المعروفة (أي علامات مسامير اليدين والرجلين والجنب). أما العلامات التي أحدثها التاج الشوكي فلم يسل منها الدم الا بعد مضي خمسة أشهر على ظهورها، (وعلامات التاج الشوكي تقابل العلامات التي ظهرت في رأس المسيح حين ألبسوه تاجا من الشوك استهزاء به)

فلنرفع صوتنا عاليا بأن هذه المشاهدات لمناقضتها الفزيولوجيا العادية التي تعتبر

الفكر خاصية مادية للتركيب الجثماني، قدأنكرها الاساتذة الرسميون انكاراً باتاً . ولما ذكر الاستاذ الشهير المردو كتورفيركو العلامات التي ظهرت بجسم (لوبزلاتو) صرح بأن الامر لايخرج عن حالتين، اما تدليس أوآية. وقدرفض بحق أن تكون آية، فلم يبق في باب التجويز الا التدليس . أما نحن فنستطيع أن نؤكد باسم العلم الحر ان هـذا الامر ليس بتدليس ولا بآية

ثم ذكر الاستاذفلامريون مايحدث من تأثير زيارة المغارة المسماة (لورد) بفرنسا من عجائب الشفاء للامراض العضالة وعزا ذلك لتأثير الاعتقاد فقال:

جميع المرضي الذين يقصدون مغارة (لورد) *Lourdes* يتطلبون شفاء أمراضهم. وقد رسموا صورة الشفاء في مخـاخهم . ولكن عدد الذين يشفون منهم قليـل لأن ذوى التركيب العصبي الكافي لاحالة رغباتهم الى أشخاص جسدانية، وتأثيرها فيهم كما تؤثر الكائنات العلوية المتمتعة بسلطان عجيب قليلون

فالعقيدة الدينية قابلة لكثير من الاستحالات الصورية. فقدتتصور بصورة الاله (ابولون) و (اسكلبيوس) و (المسيح) و (الشيطان) و (مريم العـذراء) أو أية روح طيبة أو خبيثة علي حسب عقيدة المعتقد والآراء المختزنة في الشخصية الشاعرة

ثم ختم الاستاذفلامريون هذا الفصل بقوله :

كل هذه الحوادث من المانيتسم، والهيبنوتسم، والانتقالات العقلية، والتلقينات الذاتية، وظهور صور الاحياء في أمكنة غير التى هم فيها، مما ألممنا به الماماً خفيفاً لمحض تأكيد صحتها، كل هذا يؤيد بدون أدني شك تأثير الروح علي الجسم الطبيعي ويؤدينا الي هذا الاستنتاج وهو: ان الروح موجودة ومستقلة عن الجسد

التلباتيا والانتقالات النفسانية الى مسافات بعيدة

الابصار والسمع التلباتي

حوادث واقعية لاعبارات كلامية

اذا كان تأثير الارادة بدون وساطة الكلام ولا أية اشارة، يعتبر مظهراً من مظاهر وجود الروح، فالتلباتيا والاتصالات العقلية عن بعد، بحسب شهادات اخري ليست بأقل ادلالا على وجود الروح الانسانية

فالشعورات الذاتية وغير المنتظرة، بحدوث حوادث وأمراض ووفيات عن بعد يقدر بعشرات ومئات والوف الكيلو مترات، هي من الكثرة بحيث أصبحت جزءاً من المواد العادية للمباحث النفسية . وهي على مامنيت به من الانكار والغموض في مدى قرون، فانها مع ذلك صارت مادة لفصل رسمي من فصول تلك المباحث

ان قرائي يعرفون هذه الحوادث، ولا أريد أن أعود الى ماسبق لي نشره في هذا الباب، وسأكتفي بتذكيرهم بهذه الظاهرة العقلية الهامة وهي التلباتيا، لأنهما تثبت وجود الروح وتضع أمام الناظرين حوادث جديدة متميزة عن سواها

فاليك حوادث أخرى من الانتقالات التلباتيـة الفكر يستحـيل الشك فيها، أستخرجها من كتاب أرسله اليّ من باساقان (بفرنسا) الدكتور (بوارسون) من جامعة باريس قال :

« أرسل اليكم بيان ثلاث حوادث من انواع مختلفة ولكنها تصلح لان تعينكم في مباحثكم عن الظواهر النفسية، وانا ضامن لكم صحتها، لاني اعتدت ان لا أعـير اهتماما الا لما أراه بنفسي من الحوادث التي من هذا القبيل

(١) بينما كنت في (بلفور) احدى ضواحي فرنسا من منذ نحو شهرين اذ رأيتني أفكر ذات يوم بشدة وبالحاح غريب في صديقي (جورا) وكنت لاأفكر فيه مرة واحدة في كل سنة ، اذ لم توجد بيني وبينه غير علاقات وظيفية انقطعت منـذ ثلاث عشرة

سنة ولم أره بعدها قط . فلم تمض بضع دقائق حتى رأيتني وإياه وجهاً لوجه في دهليز Carrefour وبما انه كان آتياً على بسكليت من شارع عمودي على الذي كنت سائراً فيه، فكان من المستحيل ان اراه قبل تلك اللحظة من بعيد . هذه حادثة لا أحاول تعليلها ولكنها أدهشتني

(ب) نظراً لمهنتي الطبية فأنا معرض كثيراً لان أستدعى في الليل. والذين يمرون أمام بيتي ليسوا بقليلين، ولكن اذا كان منهم واحد يقصد أن يطرق على الجرس فاني أستيقظ من نومي من تلقاء نفسي قبل أن يصل الى بابي بنحو عشرين متراً، فأعرف مقدماً بهذه العلامة انه سيستدعيني احد الناس

وقد شاهدت هذا الامر لا مرة واحدة ، ولكن مئة مرة منذ اثنتي عشرة سنة. ولاجل أن أكون مقنعاً في روايتي هذه يجب عليّ ان اقول بأني لو كنت صاحياً، وهو مايحدث كثيراً، فلا أستطيع أن أتنبأ بشيء من ذلك . ويجب عليّ ان اقول ايضا بأني اذا كنت مستغرقا في النوم، عقب يوم امضيته متعباً، فان هذه الظاهرة النفسية لا تحصل

(ج) من بين زبائني شابة مصابة بالهستريا أحدث لها نوماً مغناطيسياً وتلقينات بسهولة خارقة للعادة . وكثيراً ما أوعزت اليها أن تستيقظ وان تقوم في ساعة معينة . فكانت تستيقظ في تلك الساعة بدقة عظيمة . فكل من مارس صناعة التنويم يعلم ان ليس في هذا الامر شيء خارق للعادة . ولكن ما هو جدير بهذا الوصف انه حدث ان زوج هذه السيدة استبطأ يوماً من الايام ساعة يقظتها فقدم عقرب الساعة التي كانت توضع على الخزانة الصغيرة التي توضع فيها آنية الليل . وكانت الساعة اذذاك ٦ ونصف فجعلها ٧ ونصف فقدمها ساعة عن موعد تيقظها ، ولكنه وهو يدير العقرب لايصاله الى الوقت المذكور رأى ان امرأته قد تنبهت فجأة عند وصول ذلك العقرب الى الساعة السابعة وهو الموعد المقرر لها . فجاءني زوجها وقص علي ماراى . ولكني لما انا عليه من صعوبة التصديق اردت ان احقق هذا الامر بنفسي وفعلت ذلك بضع مرات

ويجب عليّ ايضا ان اقول ان هذه السيدة تقرأ وهي نائمة واعينها مغلقة عدة

الساعات في ساعتي حتي ولو غيرتها ولكن على شريطة ان انظر الى عقاربها وكذلك كانت تخبرني عن اسم الشيء الذى امسك به وراء ظهرى على شرط ان اقبض عليه بيدي ... الخ الخ »

وقد نشر الاستاذ (لومبروز) الكتاب الآتي الذى ارسله اليه زميله (دوسانكتيس) المدرس بالجامعة معه وهو :

« كنت في رومية دون اسرتي التي بقيت في الريف . وبما ان بيتي قد سرق في السنة الماضية فكان اخي يأتي وينام فيه . فأخبرني ذات ليلة انه ذاهب الى تياترو كوستانزى . فأويت الى البيت وحدى وشرعت اطالع، ولم اكد افعل حتى شعرت بذعر شديد في نفسي ، فحاولت ان اقشعه عني وتشاغلت بخلع ثيابي ، الا انه لازمني ملقيا في روعي ان اخي في خطر وان التياترو الذي هو فيه يحترق . اطفأت النور فلم يفدني ذلك، بل ازداد بي الكرب حتي اضطررت الي ان اعود الى ايقاد المصباح خلافا لعادتي، وانا مزمع ان ابقى صاحيا حتى يعود اخي . وقد كنت في الواقع خائفا كأني غلام صغير . وبعد منتصف الليل بساعة سمعت فتح الباب فما كان اكثر دهشتي حينما قص على اخي الهلع الذى اصاب المتفرجين عند ما أخذت النار تدب الى التياترو . وقد وافق ذلك بالضبط الساعة التى شعرت فيها بالقلق العظيم »

واليك حادثة هامة جداً من انتقال الفكر افضى بها الدكتور كانتار الى الجمعية الطبية في (انجير) وهي:

« طفل يدعي (لودوفيك) لايبلغ السابعة من عمره كان متمتعا بخاصة حل المسائل الحسابية تشبه خاصة (اينودى) الشهيرة . فانتهى امر والده ان لاحظ فيه (اولا) انه لا يصغى الى منطوق المسائل التي تلقى اليه الا قليلا . (ثانيا) ان وجود امه معه كان شرطا مؤكداً لنجاح التجربة . وكان ذلك يتوقف على ان يكون الحل المطلوب تحت نظرها او محصلا في فكرها

« واستنتج الاب من ذلك ان ابنه كان لا يحسب ولكنه كان يتلقى الحل كما يظن من فكر والدته . ولذلك رجاها ان تفتح قاموسا وان تسأل ابنها عن رقم الصفحة

التي تحت نظرها . فأجابها الولد على الفور قائلا هي صفحة (٤٥٦). وكان الامر كما قال. فكررت التجربة عشر مرات،فلم يخطيء في واحدة منها

« فاذا كتبت عبارة على مذكرة فكان يكفي الغلام معها كانت طويلة ان تمر الام بعينها عليها ليرددها اذا سئل عنها حتى ولو كان السائل اجنبيا »

كل هذه الحوادث مجتمعة تثبت لنا حصول الاتصال بين روح وروح اخرى

والشعور التلباثي الآتي رواه الدكتور (فرواساك) بنفسه باعتبار انه حدث له نفسه فلا محل للتردد في تقدير قيمة هذه الحادثة قال في كتابه (الحظوظ والاقدار صفحة ٥٩٩) *Chance et Destinee* قال:

« رأيت في النوم حينما كنت طالباً داخلياً في مدرسة الطب بمدينة (دوبويترن) ان أبي قد أصيب بمرض سيفضي به الى القبر. فاستيقظت في كرب عظيم وحاولت ان اتغلب عليه قائلا لنفسي بأني قد تركت ابي يوم الاحد الماضي في صحة تامة. وكان يومنا اذ ذاك الاربعاء . واخذت اقنع نفسي ان من الضعف الادبي ان اقلق الى هذا الحد بسبب حلم، وعزمت ان لا افكر فيه . ولكن صورة أبي وهو في حالة النزع كانت لا تزايل ذهني، فأجمعت تخلصا من هذا الكرب، وان كنت في غاية الخجل من ضعفي، أن اشخص الى (سان جرمان) حيث كان أبي . فلما وصلتها وجدته مصابا بنزيف صدري قضي عليه في خمسة ايام»

اليك مثالا قيما آخر دالا على النظر من بعد في النوم وموضوعه حادثة خاصة أنقله عن الكتاب المسمي *Phantasms of the Living* المجلد الاول صفحة ٣٢٨ . فقد كتب القس (واربورتون) من مدينة (ونشستر) بتاريخ ١٦ يوليو سنة ١٨٨٣ قال :

« سافرت من اكسفورد لتمضية يوم او يومين مع اخي (اكتون واربورتون) المحامي اذ ذاك . فلما وصلت الى داره وجدته قد ترك كلمة فوق الخوان يعتذر بها عن غيبته، ويخبرني بأنه مدعو في بالو في (وست اند)، وانه سيعود الى البيت في الساعة واحدة . فرأيت بدلا من ان ادخل لأنام ان اجلس على كرسي كبير أهوم فيه حتي

يأتي . ففي الساعة واحدة استيقظت فجأة وانا اصيح : (لقد وقع وحق جوبتير) وذلك اني رأيت أخي في النوم خارجا من بهو على دهليز سلم مضاء اضاءة تامة ، اذ عثرت رجله في الدرجة الاولي،فوقع ورأسه الي الامام غير متق السقطة بغير مرفقيه ويديه . وكنت لم أر قط الدار التي هو فيها،ولم أكن أعلم أين هي .فلم أهتم بهذا الامر كثيراً وعدت الي النوم ثانية،فلم تمض غير نصف ساعة حتي استيقظت بدخول اخي بغتة وهو يقول : «أراك هنا لقد كادت عنقي تنكسر . وذلك أني لما غادرت بهو البالو اشتبكت رجلي فوقعت بطولي كله الى اسفل السلم »

سندرس في الفصل التالي لهذا حوادث الابصار بدون وساطة الاعين دراسة خاصة، وهو سيدلنا بوضوح أكمل من كل ماسبق على وجود الخصائص العالية للنفس البشرية

هذا الابصار عن بعد، هذه الشعورات التلباتية تحصل أيضاً في غير الاحلام،أو في ضروب من الغشي . فلنقرأ المشاهدة الآتية للمحامي (رتشاردسيرل) التي بعث بها الى جمعية المباحث النفسية بلوندرة في ٢ نوفمبر سنة ١٨٨٣

« كنت بعد ظهر يوم من الايام جالسا في مكتبي (بالتامبل) أنظر في مذكرة . ومكتبي هذا موضوع بين احدي النوافذ المطلة على (التامبل) وبين المدفأة.فرأيتني فجأة انظر من خلال الزجاجة الاخيرة للنافذة،وكان في مستوى عيني، فبصرت برأس امرأة مقلوبا الى الخلف وعيناها مغمضتان ووجهها ابيض تام البياض شاحباً كأنها ميتة.فتحركت مكاني أريد أن أعود الي رشدي، ثم قمت ونظرت من النافذة فلم أجد الا الدور الامامية، فخيل لي أني قد هومت ثم نمت،فقمت أمشي في الغرفة لأدفع عني ذلك النوم الموهوم، ثم عدت الى عملي ولم أعد أفكر في هذه الحادثة

« رجعت الى داري في الساعة المقررة .وبينما نحن نتعشي تلك الليلة انا وامرأتي، قصت علىّ أنها تغدت عند صاحبة لها تسكن (جلونسترجاردن) وأنها كانت مصاحبة لبنت صغيرة (هي احدي بنات أختها تسكن معنا) . فحدث في أثناء الغداء او بعده مباشرة ان سقطت البنت وجرحت في وجهها وتفجر منه الدم . قالت امرأتي فلما

رأيت ذلك أصابني اغماء . فلما سمعت منها هذا تذكرت مارأيته من النافذة . فسألتها عن الساعة التي حدث فيها هذا الامر؟ فقالت في الساعة الثانية وبضع دقائق . فوافق الوقت الذي رأيت فيه مارأيت . وهنا يجب علي أن أقول ان هذه هي المرة الاولى التي أصاب امرأتي فيها اغماء . وقد قصصت هذا الامر في حين حدوثه على كثير من أصحابي» انتهى

ان ابصار حوادث رتشارد سيرل بدون عينيه اى بواسطة التلباتيا عن بعد عشرة او عشرين او خمسين او مئة او مئتي كيلو متر بل اكثر، اصبحت من الامور غير المشكوك فيها لدى الذين درسوا هذا الموضوع

فاليك مثالا نشر في فبراير سنة ١٩٠١ في مجموعة الجمعية الأنجليزية للمباحث النفسية مما رآه باحثو هذه الامور مردداً مئة مرة بعد ذلك التاريخ . والحادثة الاخيرة تتعلق بابصار دقيق جداً من بعد ٢٣٠ كيلو متراً . والذي حدث له وهو المستر (دافيد فرازر) أستاذ المحاضرات في جامعة (سانت اندريه) هو الذي كتبها بقلمه بالعبارات التالية قال :

« حدث أمر هام منذ بضع سنين منعني من العود الى داري في لوندرة في آخر الاسبوع. فلعدم رغبتي في تمضية يوم الاحد بمنشستر قصدت يوم السبت بعد الظهر (ماتلوتش باث) لتمضية ذلك اليوم فيها بهدوء، ثم العود الى داري يوم الاثنين بقطار الصباح

« فلما وصلت الي الجهة التي يممتها وأويت الى فندق لاسرة قريب من المحطة، طلبت قليلا من الشاي، ودخلت الي البهو لأستدفيء لان يوم ذلك كان من شهر يناير، والبرد في اقصى درجاته والثلج يسقط بكثرة، والترمومتر يشير الى درجات كثيرة تحت الصفر

« فرأيتني وحدي في تلك اللحظة بذلك الفندق. فتمكنت من الجلوس على كرسي كبير منتظراً الشاى أمام مدفأة حامية الوطيس، ولم يكن الظلام قد أرخى سدوله بحيث يصح ايقاد الغاز ، ولا النور بكاف لامكان القراءة، فأدرت ظهري الى النافذة ولم أفكر

في شيء خاص. وبينما انا في تلك الحالة من الهدوء والسكينة اذا بي قد اضعت معرفة المكان الذي انا فيه. وبدلا من أن ارى امامي حائط الحجرة والوحات المعلقة عليها، اذ كشفت امامي وجهة بيتي في لوندرة وامرأتي واقفة امامه على عتبة الباب تكلم صانعاً ممسكا بيده مكنسة كبيرة. وظهر على وجه امرأتي انها متكدرة جداً، وأحسست انا لحال ان الرجل الذي يكلمها كان في بؤس عظيم. لم اسمع حديثهما ولكن ألقى في روعى ان هذا الرجل يطلب منها المعونة. في هذه اللحظة قدم الي خادم الفندق الشاي، فزال هذا المنظر من امامي. فكان التأثير الذي احدثه هذا المنظر في نفسي من العظم، واقتناعي بحقيته من القوة، بحيث اني بعد ان تناولت الشاي كتبت الى امرأتي كتابا اخبرها فيه بما حدث لي وارجوها ان تستزيد علما بأمر هذا الرجل وان تعينه على حاله بقدر ماتستطيع

« فاليك تفصيل ماحدث في لوندره. جاء غلام صغير فطارق باب داري (الذي على بعد ٢٣٠ كيلو متراً من المكان الذي كنت جالساً اذذاك فيه) فخاطب الخادمة متطوعا ان يرفع الثلج المركوم على الافريز وعتبة الدار في مقابل دريهمات. وبينما الغلام يتكلم اذا برجل اقبل في اطمار فقال للخادمة: ارجوك ان تخصيني انا بهذه الخدمة فان هذا الغلام قد ينفق الدريهمات التى يأخذها منك في شراء حلوى، اما انا فمحتاج اليها لشراء خبز، فان في عنقي امرأة واربعة اطفال مرضي جميعا وليس لديهم مايأكلونه ولامايستدفئون به. فرجته الخادمة ان ينتظر وذهبت فأخبرت امرأتي، فأقبلت تكلم الرجل المسكين. فكرر لها قوله بأنه كان مريضا وان اسرته في حالة بؤس شديد، ولكنه قبل ان يمتهن نفسه في التسول اراد ان يحاول ان يجد اى عمل كان

« فكان هذا المنظر هو الذى رأيته ساعة حدوثه، ويلوح لي انه انتقل الي بسبب تأثر عقل امرأتي بما سمعته من بؤس الرجل الفقير

« واليك آخر ماحدث، فان امرأتي وعدت ذلك الرجل بأنها ستذهب الى داره في المساء، وستنظر فيما يجب عمله لمساعدته، فلما ذهبت اليه وجدته صادقا، فأعطته ما

قدرت عليه من الدراهم والملابس والاغذية والوقود . ولست في حاجة لأن اقول ان كتابي الذي وصل اليها صباح الاثنين احدث لها دهشا عظيما . وبعد ايام معدودة رأيت الرجل بنفسي فوجدت انه هو بعينه الذي رأيته فيما رأيت . وقد وجد له عملا عند لبان وكان يأتي يوزع اللبن على سكان الحي الذي انا فيه مدة سنتين »

دافيد فرازر هاريس

اليس في هذه المشاهدة الحقة دليلا مطلقا علي وجود خاصة للروح لاعلاقة لها بالعين المادية ولا شبكيتها ، ولا بالعصب البصري ولا بالمخ ؟ اليست الروح هي التي كانت تعمل وحدها في هذه المشاهدة ؟ وقد حدث فيها انتقال روحاني عن بعد لأن الرائي لم ير المنظر فقط ولكنه ادرك ايضا طبيعة الحادثة بين السائل وامرأته ؟

الاتصالات النفسية العقلية بين الاحياء ، قد تكيف احيانا بشكل سماعي ، كما دللنا عليه فيما سبق . فيسمع الانسان صوتا او نداء ملحا ، وهذا الصوت وذلك النداء يقابل رغبة او عزيمة او غرضا او امرا صادرا من بعيد يحمل السامع علي اطاعته . فاليك حادثة عظيمة الشأن جداً شهدها بنفسه الدكتور (نيقولا) والكونت (غونميس) من جزيرة كورفو ، قال الدكتور المذكور :

في سنة (١٨٦٩) كنت من رؤساء الاطباء في الجيش اليوناني فألحقت بأمر وزير الحربية بحامية جزيرة (زانتا) . فبينما انا اقترب من الجزيرة لأشغل مركزي الجديد ، فكنت على نحو ساعتين من الشاطيء ، اذ سمعت صوتا باطنيا يقول لي بدون انقطاع باللغة الايطالية : « اذهب وقابل فولتيرا »

واخذت هذه العبارة تتكرر حتى حيرتني . واني وان كنت في حالة جيدة من الصحة في ذلك الوقت ، الا اني خشيت ان اكون مصابا بهذيان سمعي . ولم يكن عندي مايحملني على ان افكر في اسم المسيو (فولتيرا) الذي يسكن (زانتا) ، بل اني ما كنت اعرف هذا الاسم وان كنت رأيت صاحبه مرة منذ عشر سنين . فأخذت

اسد مسامعي واتشاغل بالكلام مع رفاقي فلم يجـد ذلك نفعاً، واستمر الصوت يطرق اذني على ما كان عليه

وصلنا اخيراً الى البر فيممت الفندق من فوري وأخـذت أفتح حقائبي ، ولكن ذلك الصوت لم يزايلني. وبعد قليل دخل علي الخادم وقال ان أحد الناس بالباب ويريد أن يكلمني. فسألته من هو ؟ فأجابني اسمه المسيو (فونتيرا) . وما أتم الخادم هذه العبارة حتى دخل هذا الشخص وهو يبكي وفي غاية من اليأس، ورجاني أن أذهب معه لأرى ابنه الواقع في مرض شديد

« فذهبت معه واذا بابنه الشاب في حالة جنون مطبق وتهيج، عاري الجسم، في حجرة خالية، وقد يئس منه جميع أطباء (زانتا) من منذ خمس سنين. وكان منظره بشعاً، ويزيده بشاعة ما كان يعتريه من النوب المصحوبة بالصفير والجؤار والعواء وأصوات أخرى للحيوانات. وأحياناً كان يزحف على الارض كالثعبان، وأحياناً أخرى كان يجثو على ركبته في حالة ذهول . وفي اوقات اخرى كان يتكلم ويتشاجر مع كائنات. وكانت النوب الشديدة تنتهي بدور اغماء تام وطويل . وعند مافتحت عليه الباب هجم على بشراسة ، ولكني ثبت مكاني وأمسكت به من ذراعه ناظراً اليه بتحـديق . فلم تمض غير ثوان حتى قلت قوة عينيه، ثم أخذ يرتعد ووقع على الارض مغمضا عينيه . ولم تمر نصف ساعة حتى صار في حالة انتقال نومي . فعالجته بهـذه الوسيلة مدة شهرين ونصف شهر رأيت في خلالها أكثر من حادثة مفيـدة . وبعد ما تم له الشـفاء لم يقع في انتكاس »

الدكتور نيقولا

واليك الكتاب الذي أرسله المسيو (فونتيرا) الى الكونت (غونوميس) في ٧ يونيو وفيه تأكيد تام لما سبق ذكره جاء في آخره :

« قبل حضوركم الى زانتا لم تكن بيني وبينكم أدنى علاقة، ولو اني أمضيت سنين كثيرة في جزيرة كورفو بمنصب عضو الجمعية التشريعية . ولم يكلم أحدنا الآخر قط، ولم أقل لكم كلمة واحدة عن حالة ابني، ولم أفكر فيكم ولم أطلب معونتكم ، حتى قصدت

ان اراكم عند وصولكم الى (زانتا) بوظيفة طبيب عسكرى، ورجوتكم تنجية ابني مما ألم به

« فنحن مدينين بحياته لكم، ثم للتنويم المغناطيسى. وأري من واجبي أن أقدم لكم شكري الخالص وان اوقع علي هذا :

محبكم المخلص الشاكر

دمتريو فولتيرا — كونت كريسو بليفري

ويلى هذا توقيعات اضافية هى :

(لورا فولتيرا) امرأة المسيو فولتيرا و(ديونيزيو د. فولتيرا) الكونت كليسو بليفرى و (اناستازيو فولتيرا) الابن الذى كان مريضا . و (س. فسابولوس) شاهد و (لورنزو ميركاتى) شاهد و (دمتريو) الكونت جيرينو شاهد

وكان الدكتور (بالم) *Balme* من نانسي بفرنسا يعالج الكونتس دو.ل. المصابة بالدسبيسيا (وهو مرض مَعِدى عصبي) . فكانت تأتي الى عيادته ولم تدخل قط الي بيته الواقع خارج المدينة. فبمضي ثلاثة ايام على احدى زياراتها اى في ١٩ مايو سنة ١٨٩٩، سمع الدكتور وهو داخل الى داره فى أثناء اجتيازه الدهليز هذه العبارة : « اني اشعر بألم شديد وليس عندى من يسعفني بالعلاج » ثم سمع كأن جسما يسقط علي الارض . وكان الصوت صوت الكونتس دو.ل. فبحث الطبيب في الامر، فظن ان احداً من البيت لم ير ولم يسمع هذه السيدة. فدخل الى حجرة عمله واوجد نفسه في حالة نوم مغناطيسي خفيف ونقل نفسه الي دار الكونتس فشاهد كل مارآها تعمله واخذ به مذكرة

فلما جاءت الكونتس لعيادته اخبرته بجميع ماشعرت به، فرأى انه مطابق لما رآه بنفسه . ثم سألها قائلا :

«عن اي شيء كنت تبحثين حولك بعد ان دخلت الي حجرتك ؟ »

قالت : «كان يخيل الى ان انساناً ينظر اليّ »

.فالسماع عن بعد لا يمكن تصديقه اذا لم نرد ان نعترف بوجود روح اونفس او اية نفسية (مهما كانت الكلمة المستعملة للدلالة عليها) تعمل خارجا عن الجسم وعن مرمى الحواس .....

وهذه الحوادث كلها من التلباتيا والانتقالات النفسية لايمكن الشك فيها تبين ضروبا من الخصائص العلوية للنفس تخالف ماتعلمناه من البسيكولوجيا الفيزيولوجية الرسمية وهي : النظر والسمع عن بعد بواسطة الامواج النفسية

ليس لى ان اعود الى ما كتبته عن الانتقالات الفكرية . فان مسألة قراءة الافكار قد شوهدت مراراً فى تجارب جديدة. واليك تجربة منها كتبها الدكتور (ج.دوميسيى) عن وسيط له في حالة انتقال نومى قال :

« ان الكشف الذى كان يحدث لوسيطي كان يمتد الى قراءة افكار الحاضرين مني فقد رجوت مرة اثني عشر شخصا من الجمعية ان يقفوا امام الوسيط ورجوتهم ان يفكر كل منهم في نوع خاص من الازهار بدون ان يفضي واحد بما يفكر فيه لغيره . ثم التفت الي المنوم وامرته ان يسمي بصوت عال اسم الزهرة التى يفكر فيها كل من الحاضرين.فسماها كلها بدون ان يخطيء وبغير ادنى تردد قارئا افكارهم كأنه كان يقرأ كتابا

(الدكتورج. دوميسيى)

هذه تجربة من مئة تجربة من هذا النوع . فالانتقال الفكري ثابت ثبوت انتقال الحرارة والضوء والكهرباء والمغناطيسية الشمسية

فالابصار التلباتي يحصل بدون مساعدة الاعين ولا يمنعه طول المسافة ولا العوائق المادية . وليس الزمن بمؤثر فيه كالمسافة . فقد يرى الانسان حادثاً حاضراً او ماضيا او مستقبلا على السواء . وهذا العمل النفسى يستخدم خاصة عقلية مستقلة عن الجسم

فاذا اعترض معترض على استدلالنا على وجود الروح من الشعور بالامور المستقبلة ، ومن هذه التأثيرات التلباتية، بأن هذه الخصائص الطبيعية يمكن ان تكون من خواص

المخ لامن اصل عقلى مستقل عن الجسم، ولايمكن ان تثبت وجودروح ذات شخصية متميزة في الانسان اكثر مما تثبته حاسة الشم القوية عند الكلاب اوميزة الحمام السياح. اذا اعترض معترض بهذا اجبنا بأن التحليل الدقيق للشاهدات يؤدي كل عقل خالص من الاوهام الى ان يستدل منها استدلالا مخالفا لاستدلال المعترض . لان الامر فيها يتعلق بعمل فكرى لا بعمل جسمي . فنحن مغمورون هنا فى عالم روحاني غير منظور. فليعزوا هذه الشعورات الى مايسمونه الشخصية اللاشاعرة من الانسان *L'inconscient* اوالشخصية التي دون الشعور *Le Subconscient* او الى مابعد الشعور العادى *Le Subliminal* الخ فالاسماء لا تهمنا فان الذى ندركه هنا هو وجود انية عقلية عاملة وهي الروح

فليست شبكية العين ولا العصب البصرى ولا مايتصل منه بالمخ هوالذي يعمل فى احداث هذه الامور ، فان كل الاعمال التي يمكن تصور حدوثها من أية مادة مخية لا تستطيع ان تكون شيء في عقل الغير، ولا ادراك حادث يجرى في الجهـة المقابلة التي نحن فيها من الكرة الارضية، ولا كشف امور لم تحدث بعد

اليك حادثة اخرى من النظر عن بعد جاءت فى غاية الاحكام رآها غلام عمره سبع سنين ارسلها مشاهدها الدكتور (جان) من اركان الحرب فى الحرب الاخيرة الي الاستاذ ريشيه (احد اعضـاء المجمع العلمي ومدرس الفيزيولوجيـا بجامعة الطب الفرنسية) قال :

« منذ عشر سنين كنت اعالج فى قرية (كوجوليس) غلاماً مريضاً يناهز السبع سنين . فاستدعيت لعيادته فى صباح يوم من الايام دعوة مستعجلة . فقصت علي امه وهي مذعورة بأن ابنها اصابه دور فجائي من الهـذيان . وذلك انه استيقظ كعـادته ظاهراً عليه التحسن، ولكن ماوافت الساعة العاشرة حتي وقف في سريره مذعوراًمن مشهد خيالى امامه . فكان يخيل اليه انه يري الماء في كل مـكان . ثم اخذ يستصرخ لتخليص ابيه، زاعما انه علي وشك الغرق. اما أبوه فكان غائبا في مدينة نيس حيث يقيم أخوه ليمضى معه بضعة ايام

فلما وصلت الي القلام كان قد هدأ ، ولكنه مصر على القول بأنه رأي اباه وهو يغرق. وما لبثت أمه حتى ورد اليها تلغراف من أخي زوجها يستدعيها بسرعة وينبئها بأن زوجها غرق في نيس في الساعة العاشرة،حيث كان يريد تنجية أخيه من الغرق، وقد كان ألقى بنفسه في اليم تخلصاً من الالم . وكان آخر ما نطق به الاب قوله : «ياولدى المسكين»

يظن الظانون ان هذه الحوادث نادرة، أو غاية فى الندرة،ومشكوك فيها ،وغير ثابتة، وهذا ضلال بعيد . فان أحاديثى مع الناس منذ نصف قرن أثبتت لى على انه يوجد على الاقل واحد في كل عشرة علم سواء بنفسه،اوسماعا من احد اقاربه،اما حادثة تلباتية،اواخباراً بغيب،اوانذاراً بموت،اورؤية لشيء مستقبل، او اى حادث نفساني.ولكنى لاأدرى لماذا يكتمون ذلك ويبالغون في اخفائه كأنه شئ لا يصح التصريح به . لاشك ان هذا أثر من آثار التربية الضالة أو الخشية الوهمية

ان التلباتيا (اى التأثر والتأثير عن بعد بواسطة الروح) ارسخ أساساواعم اصولا واكثر ثبوتا من اى دين كان في العالم . فان الحوادث التي تأسس عليها الدين المسيحي على اختلاف شيعه (الكاثوليكية والبروتستانتية والارثوذكسية الخ)، او التي قامت عليها الديانة اليهودية والاسلامية والبوذية ، وسائر الاديان الاخري التي تتوزع البشرية ، قد شوهدت بأقل تدقيق وأدني عناية، وأضعف تدليلا، من المشاهدات النفسية التي ندرسها فى هذا الكتاب . وهذا ماحدا بالنفوس الحريصة على القرب من الحقيقة أن تلجأ الي المباحث التجريبية التي نتابعها هنا كما لجأت غيرها الى الاديان

الابصار بدون الاعين،

اى بالروح خارجا عن الانتقالات التلباتية

(الكشف)

« الحوادث اذا جاءت مناقضة لنظرياتنا »
« المقررة تفيدنا أكثر مما اذا جاءت مؤيدة لها »

السر همفرى دافي

اذا كانت الحوادث التي لايمكن الشك فيها، الدالة على تأثير الارادة بدون وساطة الكلام، ولا أية اشارة خارجية، وكذلك الانتقالات الفركية عن بعد، تبرهن ان فينا شخصية عقلية تفكر وتدبر وتنقل تأثيرها الي مابعد مدى حواسنا العضوية، فان هنالك مشاهدات لاتقل عنها ثبوتاً عن النظر بدون الاعين تؤيدنا بشهادات أخري مستقلة عن الشهادات السابقة، ولكنها مؤيدة ومكملة لها

ان هذا الموضوع الخاص هو من الثروة والثبوت بحيث أني لما شرعت في دراسته منذ سنين، اضطررت أن أفرده بالتأليف ووضعت فيه سفراً لم يطبع بعد ، سأختار منه هنا بعض البراهين ذات الدلالة ، ليست من الانتقالات التلباتيـة التي درسناها آنفـا، ولكن يمكن ان تضاف اليها . وفى هذا الموضوع طبقة غريبة من الحوادث الخاصة تعوز الدرس والتنقيب

لامشاحة في ان هذه الحالة هي احدي الخصائص الروحية المجهولة، ودراستها أعود بالفوائد من غيرها . فقد شوهد ان افراداً اختصوا بها وهم في حالتهم العادية، خارجا عن حالتي الرؤي والانتقال النومي، سواء كان طبيعيا او صناعيا . ولكننا نشاهد هذه الظواهر في هذه الحالات من النوم خاصة

هذا النظر عن بعد سواء كان مباشرة او بقراءة فكر يجول في مخ الغير، يشهد بأنه يوجد فينا أصل كشاف غير مادى وله شخصية خاصة به . فالزعم بأن المادة الحية تفرز الفكر ، يعتبر من الآراء الغريبة في الجراءة . واذا أضيف الى هذا الزعم زعم آخر وهو

ان المخ يرضى بالفكرة تبحث عن مخاخ الغير تتصيد مافيها وتشرحه ، لهو أدخــل في الغرابة مما مر . وهو من قبيل الخلط بين المعلول والعلة ، لان هنا أيضاً يظهر الفكر انه العلة لا المعلول ، فان عمله الذاتي واضح لاغبار عليه

واذا كانت توجد جمهرة من الكلمات تصلح لان تحمل رجلا من رجال العلم على ان يصرخ ويولول من الغضب فهي هذه العبارة : الابصار بدون الاعين ، بالجبهة او الاذن او المعدة او الانامل او الارجل اوالركب ، اى بالبصيرة الباطنية ، من خلال الاجساد الكثيفة ، اوعن بعد مسافات كيلو مترية بعيدة . فياله من تأكيد لاشك فيــه لحوادث مناقضة للعرف ؟

الجبهة والمعدة والايدى والارجل والركب ليست بأعضاء للابصار ، ولاالابصار الذي نذكره يحدث منها ولكن الروح هي المبصرة فى كل ذلك

فالبيولوجى الذي يعرف كنه الابداع الماثل على الجهاز البصرى من العين ، ويدرك كل استعدادها لتلقى الصور ، لايستطيع ان يقبل ان هذه الصور يمكن ان تدرك بدون تركيب آلى صالح لها كتركيب العين ، وهي منتهي الـكمال للتطور العضوى فى خلال الآماد ، اي أنها تطورت من تركيب ساذج لعين (التريلو بيت) الذى كان موجودا في العهود الجيولوجية الاولى ، الى تركيب العين البشرية

اما من جهتي انا فقد لبثت سنين وسنين ممتنعا عن تجربة هذه المسألة رغماً عن تأكيدات اصحابي من علماء النفس ، والتأكيدات التى صادفتها في مؤلفات المغطسين . فان العالم الفلكي هو آخر من يقبل ان يدرس مثل هذه المسألة . وكنت لا استطيع ان امتنع عن التفكر ، في هذه المناسبة ، فيا يعمله مشعوذة الموالد ، وفي جميع حيل مدعي قراءة الافكار التي تتلهي برؤيتها في الصالونات

ولكنى بعد البحث الذي عملته فى سنة ١٨٩٩ عن الظواهر النفسية ، اضطررت ان انشر في الفصل الثامن من كتابي المسمي (المجهول) ٤٩ حادثة جديرة بالتصديق عن النظر عن بعد مناما . ثم عزمت على دراسة هذه المسألة ذات القيمة الخطيرة دراسة حرة وبدون فكرة سابقة عنها ، وكانت خاتمة بحثي ان اؤكد في هذا المؤلف (صفحة ٣٧٩)

صحة التصريح الآتي وهو : «يمكن الابصار بدون الاعين والسمع بدون الآذان، لا بامتداد سلطان حاستي البصر والسمع، لان المشاهدات تثبت العكس ، ولكن بحاسة باطنية نفسية عقلية »

. . . . . .

المشاهدات التي سنحاول تقديرها قدرها هنا تثبت صحة المقدمات التي نشرتها عنها منذ عشرين سنة، والاعتراضات التي اعترض بهـا علينا من الخطأ والانخـداع والتدليس والاخفاء والتزوير والشعوذة وكل مايمكن تصوره، تفني وتستحيل بخاراً وتدع الحقيقة وحدها تتلألأ في سناها كله

الموضوع الذي أؤيده هنا رئيسي من الوجهة الفلسفية، لان نتيجته ابطال الاصل الذي قرره ارسطو ولوك وكوندياك وجميع زعماء المذهب الحواسي وهو: «كل مايكوّن ادراكنا يرد الينا من طريق الحواس» . وذلك انه اذا أمكن الابصار بدون الاعين فانما يكون ذلك بعمل خاصة نفسية باطنية ، اى بقوة مجهولة مستقلة عن حاسة الابصار العادية. فالادراك يقبل والحالة هذه معارف ليست آتية من الحواس

. . . . . .

أول مشاهدة حسية لفتت نظري منذ زمن بعيد على هذه المسئلة البسيكولوجية الغريبة، هي الرواية المحققة التي نقلتهـا دائرة معارف (ديدرو ودالمبـير) في مادة (انتقال نومي)

وهذه الرواية يضمن صحتها شاهد ندهش من وجوده في هذا المقام وهو أسقف بوردو . واليك ماجاء في تلك الدائرة وهو :

« حـكي لي هذا الاسقف انه لما كان بالدير عرف كاهناً شاباً كان مصـاباً بالانتقال النومى

« فأحب ان يعرف طبيعة هذا المرض، فكان يتسلل الى حجرة ذلك الكاهن لما يعلم انه قد نام ويراقب مايحدث له . فرأى انه كان يقوم ويتناول ورقة ويكتب عليها خطبا . فكان اذا أتم كتابة صفحة قرأها بصوت عال من اولها الى آخرها (اذا كان

يمكن أن نعبر بلفظ قرأ عما كان يعمله بدون وساطة عينيه) فاذا لم يعجبه شيء فيما كان يرجه (اي يشطبه) ويكتب تصحيحه فوقه بدقة عظيمة

« قال قرأت مرة مقدمة احدى هذه الخطب وهي خطبة عيد الفصح • فرأيت أنها في درجة حسنة من الاتقان وخالية من الخطأ ، ووجدت بين التصحيحات واحد يوجب الدهش • فقد كان كتب في بعض جهاتها هذه العبارة: «هذا الطفل الالهي» فاستحسن بعد أن طالعها أن يبدل كلة المعبود بكلمة الالهي فرمج هذه الكلمة الاخيرة ووضع فوقها بالدقة الكلمة الاخري • ولكنه رأى بعد ذلك ان اسم الاشارة وهو ce الذي كان يليق بكلمة إلهي (divin) اصبح لا يتفق مع كلمة المعبود (adorable) فأضاف عليه بكل حذق حرف (t) لتقرأ العبارة هكذا

cet adorable enfant

« فأراد هذا الشاهد البياني لهذه المشاهدات ان يتأكد من ان الكاهن النائم لم يستخدم عينيه فيما يكتب فوضع ورقة غليظة (مقواة) تحت ذقنه بحيث لا تسمح له بأن يري الورقة التي يكتب فيها علي المكتبة ، فاستمر النائم يكتب بدون ان يصده ذلك الحائل» انتهي

وانا انقل هذه المشاهدة البعيدة العهد لاجل أن ألفت نظر قرائي الى المشاهدات التي لا تحصي بعد هذا العهد عن النظر عن بعد بدون الاستعانة بالعضو البصري بواسطة الاشخاص الذين هم في حالة الانتقال النومي، سواء كان طبيعيا أو صناعيا • فقد حدثت المشاهدة المتقدمة في سنة ١٧٧٨ وقرأتها أنا في سنة ١٨٥٦ في بلدة العالم (ديدرو) ذاتها

هذه الامثلة من ابصار النائمين بالانتقال النومي في الظلام، ليست من الندرة بحيث تكون مجهولة . فكثير من الناس يعرف عنها شيئا ، اما انا فقد صادفت في سنة ١٨٦٦ في قصر كليفمون في مقاطعة اللارن العليا، شابة في العشرين من عمرها كانت تقوم في الليل وهي لا تشعر ، وتتم في الظلام عملا كانت بدأته في النهار من الحياطة او الزركشة

اننا نستطيع تشبيه هذه الخاصة الابصارية بخاصة الهررة والفيران والبوم ولا تكون في هذه الحالات إبصاراً بغير الاعين ولكن كيف تغفل عن ان شبكة اعين هذه الحيوانات ذات تركيب خاص وبعضها لايبصر بالنهار قط؟

ويمكننا أن نسأل أنفسنا أيضاً عما اذا كانت هذه الاعين تخترق الاجساد الكثيفة كالعين الفوتوغرافية لأشعة رونتجن مادام السطح المرسل للأشعة لايرسل منها شيئاً ؟

على ان هذا لايخرج عن كونه افتراضاً فيه شيء من الجرأة وسنرى انه لاينطبق على الملاحظات الآتية

فلنبق مؤقتاً في القرن الثامن عشر . فما أبطأ العلم في تقدمه !

في سنة (١٧٧٥) في عهد مسمر أجرى المار كيز دوبويزيجور تجارب غريبة مدققة على الانتقال التوى الذي يتحصل عليه بالتنويم المغناطيسي، فاليك واحدة منها:

أنام الماركيز المذكور مرة شابا في الرابعة عشرة وهاك ماكتبه عنه:

« لما سألته عن مركز الالم الذي يشكوه ، أجابني بقوله انه لما كان يحمل احجاراً على معدته منذ سنة أجهد نفسه اجهاداً عظيما فنتج من ذلك ان تراكم فيها سائل هو الذي يسبب له الآلام التي يشكو منها

« فسألته : أتظن انك تشفى من هذا المرض قريبا ؟

« فأجابني بعد ان قبض على يدي قائلا : نعم ياسيدي سأشفى بعد ظهر الغدفي الساعة الرابعة والنصف . ثم أشار عليّ بعدم تنويمه الا مرتين ، مرة في اليوم التالي في الساعة العاشرة والنصف ، ومرة اخرى في اليوم الذي يليه

« وكان يشكو من ألم شديد برأسه . فلما سألته من أين يأتيه هذا الألم ؟ قال من المعدة

« فسألته هل توجد صلة بين المعدة والمخ ؟ فأجاب نعم

« فسألته ماهي تلك الصلة ؟ فقال هي قناة

« فسألته في أى الجهات تسير هذه القناة ؟ فأجاب مشيرا الى سير العصب السمبثاوى اليسارى العظيم

« فسألته بأى شيء ترى داءك ؟ فقال انه يراه بأطراف أصابعه

« فقلت له اذن يجب عليك ان تجس جسمك لتعرف داءك ؟ فقال نعم»

وفي اليوم التالى اعطي هذا الغلام دلالات عن الخواص المغناطيسية الممتازة للاصابع المختلفة من اليد

هذه المشاهدات استمرت من منذ مئة واربعة وثلاثين سنة . منها جانب عظيم لاطائل تحته وقد أسيئت مراقبتها فهي ملأى بالانخداعات والضلالات . ولكن بعضها له قيمة لا يمكن نقضها، وهي تثبت بأنه توجد وسائل للمعرفة تخالف الوسائل المادية

ان قرائي يعرفون الامثلة التي نشرتها عن هذا النوع فى كتابي (المجهول) ومنها مشاهدات ذات صفة خاصة لاأتمالك نفسي من التذكير بها هنا بايجاز

فيرى القارىء في صفحة (٤٩٦) في الفصل الثالث والخمسين المشاهدة التشريحية التي لايمكن الشك فيها فى العمل الجراحي الذي اجراه الدكتور (كلوكيه) في ثدى مدام (بلانتان) التي أنيمت نوماً مغناطيسياً فلم تحس بأقل ألم، وكانت في أثناء العمل تتكلم بهدوء مع الطبيب ، وكانت بنتهـا مدام (لاجانديه) قد أنيمت أيضاً في تلك اللحظة، فرأت باطن جسم أمها ، وأثبت التشريح فى أدق التفاصيل صحة ابصارها بدون عينيها

« سألها الدكتور : أتظنين اننا نستطيع ان نحفظ حياة امك مدة طويلة ؟

« فقالت : لا، انها ستموت فى بكرة الغد بدون نزع ولا ألم

« فسألها الطبيب: ماهي الاجزاء المريضة منها ؟

« فقالت : لقد تقلصت رئتها اليمنى وتدخلت في نفسها وهي الآن محاطة بغشاء اشبه بالصمغ، وعائمة في وسط ماء غزير . ولكنها تشكو على الاخص من هذه الجهة، واشارت الى الزاوية السفلى من عظم الكتف، والرئة اليمنى لاتؤدى وظيفتها اصلا، فهي

ميتة . اما الرئة اليسري فسليمة، وبها وحدها بقيت امي حية، ووجد قليل من الماء في غلاف القلب

فسألها الطبيب : فكيف ترين اعضاء البطن ؟ .

فأجابتها قائلة ان المعدة والامعاء سليمة ، والكبد ابيض فاقدلونه من جهة سطحه»

فماتت المريضة في اليوم التالي وشرحت الجثة ونومت مدام (لاجانديه) فكررت بصوت ثابت وبلا تردد ماسبق لها قوله للدكتورين كلوكيه وشابلان . فقادها هذا الاخير الي الحجرة المجاورة التي ستشرح فيها الجثة واقفل عليها الباب باحكام فأخذت تتبع سير المشرط في يد المشرح «(وهي لاتراه)» وكانت تقول للاشخاص الذين بقوا معها لمراقبتها : «لماذا يجعلون الفتح من وسط الصدر اذا كان الانسكاب في الجهة اليمني

فظهر ان كل ماقالته المنومة صحيح . وكتب الدكتور (دونسار) محضر التشريح بيده

قال ناقل هذه التجربة وهو (بربيردو بواسمون) ان شهود هذه المشاهدة كلهم احياء ويشغلون الآن في العالم الطبي درجة عالية . وقد أول المأولون تجربتهم تأويلات شتي ، ولكن لم يشك احدفي صحتها . ومع ذلك فقد رأيت (علماء) من اهل الوقار يستلقون على اقفيتهم ضحكا عند مايسمعون هذه الهذيانات في زعمهم

هذه مشاهدة لايمكن الشك فيها من نوع الابصار بدون الاعين . ويمكننا ان نضيف اليها حالة الخادمة التي أنيمت نوماً مغناطيسياً بينما نزل سيدها الى مخزن الخمر للاتيان بزجاجة منه ، فقد صاحت قائلة انه قد انزلقت رجله في السلم وسقط . فلما صعد وجد امرأته عارفة بما جرى له وبجميع الدقائق التي حدثت له في رحلته الى المخزن الارضي، فقداخبرتها به المنومة في حين حصولها (انظر كتابنا المجهول صفحة ٤٩٩)

وكان احد الميرالايات الفرسان ينوم امرأته ، فحدث له توعك فاستدعى احد الضباط من فرقته لتريضه فلبث عنده ثمانية ايام او عشرة ايام . وبعد ماشفي بمدة

انام الميرالاي امرأته وكلفها ان تأتيه بخبر عن ذلك الضابط لانقطاع كتبه. فصاحت قائلة : « مسكين انه في ... وبريد ان يقتل نفسه ، هاهو يتناول المسدس ، أسرع اليه » فاندفع الميرالاى وركب حصانه وقصده ، ولكنه ماوصل اليه حتي وجده قد نفذ عزيمته

وفي سنة ١٨٦٨ في مدينة استراسبورغ كان الدكتور (كوبرليه) يعمل عملا جراحيا لشابة، فأخبرته بأن لديها كيسافىالمبيض،ووصفتهوصفادقيقا،وكان الدكتور من ابعد الناس تصديقا لامثال هذه الامور . ولكنه بعد ان فتح بطنهاوجدأنالكيس علي ماوصفته تماما

وقد نقل (هنرى دولاج) في كتابه اسرار النوم المغناطيسي المشاهدةالآتيةالتي حصلت في دار الفيكونتس دوسامارس مع الوسيط الكشاف المشهور(اليكسي)الذي نومه (مارسيليه) قال :

« حضر فيكتور هوجو (الشاعر الكبير) هذه الجلسة علي عادتهمن حب الاطلاع وكان معداً لفة من الورق مختومة كان في وسطها كلة واحدة مطبوعة بأحرف كبيرة فأخذها المنوم وادارها في يدهمراراً ثم اخذ يملى هذه الاحرف P و O و L و I اي Poli ثم قال اني لاارى الحرف التالى لهذه الاحرف ولكني اري الاحرف التى تأتي بعدهوهي I و Q و N و E تأتي احرف لاتسعة... و T، فتكون كلهاكلة Politique . نعم هي هذه الكلمة بعينها والكلمة مطبوعة علي ورق اخضر رائق قطعها المسيو (هوجو) من كتاب اراه فى داره

ثم سأل (مارسيليه) فيكتور (هوجو) عن صحة ذلك . فبادر الشاعر باعلان شهادته في صحة كشف الوسيط . ومن ذلك الحين اصبح فيكتور هوجو من اشهر المدافعين عن وجود بصر ثان في الانسان »

وقل المسيو (دولاج) في كتابه ذلك مايأتي ايضا :

« نشرت جريدة (البريس) فى ١٧ اكتوبر سنة ١٨٤٧ فصلا مطولا عن جلسة مغناطيسية قرأ فيها الوسيط (اليكسي) ليس صحفا عديدة في خلال كتب مقفلة فقط،

ولكن رسائل مختومة، فأثبت بذلك ان السيال المغناطيسي باضاءته الوسيط بنور علوي يسمح لروحه باختراق أشد الاجسام كثافة بسهولة لايدانيها كل مايتخيله الخيال عن القوي السحرية

« وقد كان محضر هذه الجلسة موقعاًعليه باسم (الكسندر دوماس) وقد حصلت في داره بالريف في حضرة رجال شرفاء شهدوا جيعاً بصحتها في المحضر المذكور. ولقد كان دهشهم عظيما

« وأراد (دوماس) أن يعيد المشاهدات التي رآها بنفسه فأقنعناه بأن ينوم (اليكسي) ففعل . فروت لنا روح الوسيط تاريخ خاتم كان أهدى الي (دوماس) ، وذكر اسم اليوم الذي ملكه فيه الرجل الذي أعطاه اياه. ثم أخذت روحه تصف، وهو كالعصفورة التي لايصدها شيء عن اختراق الهواء محولة على جناح ارادة غريبة عنه ، مدينة تونس وضواحيها،ولم يكن يعرف عنها،وهو في حالة اليقظة غير اسمها، وبالجملة فقد تغلب على المكان والزمان معاً . وقد ذكرت بضع جرائد اخرى. ولما لم تستطع هذه الصحف أن تتهم أمانة هؤلاء الذين شهدوا بأنهم رأوا هذه الخوارق بأعينهم، حاولوا أن يهزأوا بهم باعتبار أنهم أمناء ، ولكنهم انخدعوا بسبب سذاجتهم . وصرحوا بأن (روبير هودان) يفعل بواسطة شعبذات متقنة جيع هذه العجائب كل ليلة في بهو السراي الملكية . ولكن مما يؤسف له ان هذا المشعوذ المشهور كان قد كتب قبل ذلك كتابا الي المركيز (دوميرفيل) أعترف له فيه بعجز صناعته عن توليد هذه الخوارق، وشهد بأن هذه الظواهر لم تحدث بأية وسيلة من وسائل الشعوذة المحكمة

« واليك نص كتابه ذلك :

« في جلسة عند (مارسيليه)حصلت هذه المشاهدة الآتية :

« قد فضضت غلاف رزمة من ورق اللعب أتيت بها معي بعد ان وضعت علي ذلك الغلاف علامة خشية ان يبدل به سواه وخلطت الورق ، وكان علي ان افرقه ، فأعطيته منه، متخذاً جميع التحوطات التي يتخيلها رجل مثلي متمرن على دقائق صناعته،

ولكن تحوطاتي لم تجدِ فان(اليكسي) وقفني مشيراً الى ورقة وضعتها أمامه على الخوان قائلا : « عندك الملك . فقلت له ليس لك علم بذلك

« فقال ستري ذلك فالعب . وفي الواقع رميت الثانية (الكارو) فقابل ذلك بالملك (الكارو) . فاستمر اللعب على صورة مدهشة، لانه كان يخبرني عن الورق الذي سألعب به مع اني كنت واضعاً اياه تحت الخوان ومخفياً اياه في كلتا يدي. وفي مقابل كل ورقة كنت اضعها كان يضع اخري بدون ان يعيدها وكانت تأتي مناسبة كل المناسبة للورقة التي لعبتها بنفسي

« فعدت من تلك الجلسة وانا في اقصي درجات الدهش، ومقتنع بأن الاتفاق أو المهارة لايمكنهما انتاج مثل هذه النتائج العجيبة . تقبل الخ الخ

باريس في ١٥ مايو سنة ١٨٤٧ (روبير هودان)

« فالمشعوذ المشهور انتقم بهذا الاعتراف للتنويم المغناطيسى من المهاجات التي يستهدف لها دائما بتصريحه علنا بأن صناعتـه تعجز عن الاتيان بهـذه الانواع من الخوارق، وأعلن اعتقاده بها اطاعة لذمته »

« المستشار القضائى (سيجيير) ذهب خفية ذات يوم الى(اليكسي) وسأله:

« أين كنت من ساعة الزوال الى الساعة الثانية ؟

« فقال له : كنت فى غرفة عملك ، وانى لأراها مشحونة بالاوراق واللفائف والصور والآلات الصغيرة . وأرى أيضاً علي مكتبك جرس جميل

« فقال له : لا ، لايوجد جرس على مكتبي

« فأجابه اليكسى قائلا : انى لاأخطيء ، ان هنالك جرساً فاني أراه وهو علي يسار وعاء الورق على المكتبة

« فأسرع المسيو سيجيير الى داره فوجد جرساً علي مكتبته وضعته امرأته هنالك بعد الظهر »

ونقل المسيو (دولاج) ان الكونت (دوسانت اولر) السياسى المشهور بعد أن كان يعتبر النوم المغناطيسي من الهذيان غرم في سبيـله غرامة شريفة . وذلك انه راهن

بأن يثبت انه يستحيل على (اليكسو) رغما عن ادعاءاته ان يقرأ ورقة مخبوءة داخل ظرف محكم الختم. وذهب اليه ومعه ظرف سميك مختوم ختما سياسياً محكماوقال له :

ماذافي هذا الظرف؟

فأجابه: فيه ورقة مطوية أربع طيات

فسأله : وماذا على الورقة؟

فأجابه: نصف سطر

فسأله : أتستطيع أن تقرأها؟

فأجابه نعم ، ومتى فعلت فسترجم عما كتبته فيها

فقال له: لاأظن ذلك

فقال له: أنا متأكد منه

فقال السفير: اذا أفلحت في ذلك فاني أعدك بأني أصدق كل ماتقوله

فقال له : فصدق من هذه الساعة فقد كتبت فيها هذه العبارة (أنا لاأصدق)

وأشار (روسل ولاس) الطبيعي الانجليزي الكبير أيضاً الى مشاهدات من الكشف شهدها الدكتور (جريجوري) ونشرها في كتابه المسمى (رسائل على التنويم المغناطيسي) ،جاء منها ان أشخاصاً حضروا الى جلساته لمشاهدة التجارب،وكانوا اشتروا من محل من المحلات بضع دوزينات من حكم مطبوعة وموضوعة داخل قشور الجوز . فوضعوا تلك القشور في كيس فكان المنوم يخرج منها واحدة ويقرأ مافيها وهي مودعة داخل قشرتها . فكانوا يكسرون القشرة ويجدون ماقاله عمافيها صحيحا. وامتحنوه على هذه الصورة بقراءة بضع دوزينات من هذه الحكم ، فلم يخطيء في واحدة منها . وكان عدد كلمات احدى هذه الحكم ثماني وتسعين كلمة

فأضاف العلامة (ولاس) الى هذه التجارب قوله اننا مع وجود شهادات الدكتور (جريجوري) والدكتور (مايو) والدكتور (لي) والدكتور (هادوك) ومئات آخرون من رجال لايقلون عنهم قيمة علمية ولاطهارة ذمة، وكلهم يؤكدون حوادث مشابهة بعضها لبعض لانستطيع ان نفرض ان جميع هؤلاء الناس وقعوا في اشراك تدليس لم

بمكنهم فضحه ، وخاصة اذا كان أولئك الناس أطباء شكاكين أتوا لتشخيص الامراض، ومنهم أستاذ فى صناعة الشعوذة وهو (روبرت هودان) . فاما ان تكون كل مشاهدة من مشاهدات الكشف بالنظر التي رواها المشاهدون، (وهي تصدق الواقع بالالوف)، نتيجة التدليس ، واما ان نجزم بأنه قد أصبح لدينـا البرهان الدامغ على ان لبعض الناس حاسة باطنة يجب علينا درسها . واذا كان النظر العـالى فى ندرة هذا النظر الخارق للعادة ، كان من الصعب التدليل على صحة هذه الخاصة العجيبة ولكن أمر النظر العالى الذي نذكره قد أصبح واضحاً وضوحا حاسما لدى الذين جربوه ولم يسرفوا في هذا الرأى الطلى وهو اننا نستطيع أن نميز « بلا دليـل » بين ما هو ممكن وما هو مستحيل

« لقد أجريت هذه التجارب مئة مرة، وخاصة بين سنة ١٨٢٠ و ١٨٦٠ ويكفى ان نطالع فيها مؤلفات الدكتور بيرتران *Bertrand* وبتيتان *Pételin* والجنرال نوازيه *Noizet* ودولافنتين والدكتور كوميه ومجربون أخر كثيرون فى ذلك العهد لنقتنع بقيمة هذه الخاصية وحقيتها المطلقة

«وقد أراد مجرب نشط من هؤلاء وهو الدكتور (فرابار) *Frapart* ان يقنع علما من اعلام الطب الرسمي وهو الدكتور (بويو) *Bouillaud* المدرس بجامعة الطب، والعدو الألد لهذا الموضوع، فأرسل اليه كتابا بلهجة الآمر المتحدي

فأجابه ذلك الرجل الكبير بمثل لهجته قائلا له ان له الحق في أن لا يصدق، وليس عليه أن يطيع أوامر الدكتور فرابار وهذا نص ماكتبه له:

« اما عن الموضوع المغناطيسى الجديد الذي تكلمني عنه، ويظهر لك انه يصلح لأن يحدث هذا الحدث الضخم، وهو اقناعي، فلا أرفض أن أحضر شهود مثل هذه الخوارق، ولكن ماذا كنت قائلا لواجبتك بعد شهودها بهذه العبارة الشهيرة التى قالها فيلسوف من نوعى : « أنا أصدق بهذا لأنك رأيته ، ولكنى لو رأيته أنا نفسي لما صدقته » ؟.

« ان التجربة التي تخبرني عنها لا يمكن أن تثبت أمراً مستحيلا في الطبيعة كالنظر

بدون وساطة الاعين ، وليس عندي الا ماقلتــه المجمع العلمي، وهو انه متى ذكرت هذه الخوارق وجب على المجمع العلمي ان يقف حيالها كوقفه حيال من يخبره بأنه وجد تربيع الدائرة » انتهى

يدرك القــارىء ان عبارة (اذا كنت رأيت ذلك بعيني لما صــدقت لانه مستحيل طبيعيا) لم توجه الى أذن صماء ، مع العلم بأن الدكتور فرابار مستقيم الطبع وشديد النضال . لذلك لم يأبه بالصبغة الرسمية للدكتور البروسفور بوبو الذى رد عليه بقوله :

« اليك كلمتي الاخيرة : انا لاأصدق ولن أصدق ان الانسان يري بدون وساطة عينيه، وليس الامر كما تقول انى انكره لانه خارق العادة، بل لانه فوق الطبيعة. وازيد على ذلك لأنه ضد الطبيعة

« وانا اصدق بمشاهدات كثيرة خارقة للعادة، واذا كنت لاأصدق ماتقول فليس ذلك لانى لاافهمه ، بل لانه مستحيل فيزيولوجيا استحالة واضحة جلية »

فأجابه فرابار في سنة ١٨٣٨ كما يجيبه كل رجل سليم الفطرة فى أيامنا هذه فقال:

« ليس لأى عقل مهما كانت درجة اتساعه ان يضع حدوداً للممكن وغير الممكن. لان الممكن لاينتهي الى حد كالمكان والزمان. ونحن وان كنا قد حددناه فى نظرياتنا فهو يتعداها في كل لحظة ويسخر من ضيق عقلنا . وغير ذلك، ألم تعلمنا التجربة ان ما يظهر لنا مستحيلا اليوم قد يكون بديهة الغد . . هكذا كان الحال حيال اكتشاف امريكا وبارود المدافع، ودورة الدم، والكهرباء الجلوانية، والبوصلة، وآلة الطباعة، ومانعة الصواعق، والطيارات، والتلقيح، والعلاجات المقطرة الخ الخ . امامايقوله لنا العقل فهو انه لايوجد خطأ محض الا في الامرين المتناقضين ولاحق محض الا فيما هو بدهي

« وعلى ذلك يمكن الانسان ان يقول انه من المستحيل ان يرى مثلثا بغير ثلاثة اضلاع، اوعصى لاطرفين لها، لان هذه الامور متناقضة، ولكنه لا يستطيع ان يقول بستحيل ان رجلا يمكنه ان يقرأ من قفاه، وان آخر يسمع من فم معدته، وثالثا يرى عن بعد مائة فرسخ، وراب‍عا ينبىء عن الغيب، وخامسا لايشعر بالالم، وسادســا يشخص داء

وادواء سواء، وساب ما يلهم بوصف العلاجات . لا ، لا يستطيع احد ان يقول، بدون ان يحط من كرامة العقل، بأن هذه الحوادث بدهية الاستحالة، لانه ليس لاحد الحق ولا القدرة بأن يقول لممكن : «انك لن تصل الي هذا المدى» .

« وفي الواقع، إن هذه الظواهر الخارقة للعادة جداً ليست أكثر ادهاشاً ولا عجباً ولا استعصاء على التعليل من الظواهر التي نشاهدها كل يوم . أليس كل شيء في الطبيعة غامض وعجيب ؟ ولكن يوجد عجائب تجري في الطرقات، وأخري قليلة الشيوع، فيخيل للانسان انه قد فهم الاولي لانه يراها على الدوام، وينكر الثانية لانه لا يراها الا نادراً . ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يعلل هذه ولا تلك فهو يشاهدها وكفى »

هذا التدليل من الدكتور فرابار الذي لم يفهم اذذاك، كان أرفع من العماية المذهبية للدكتور بويو رغماً عن الرفعة الرسمية لهذا على زميله المتواضع . والمجمع العلمي للطب الذي يمثل بويو رأيه بقي مصراً على مجافاة الحقيقة

الاستاذ بويو الذي كان عضواً بالمجمع الطبي، وبالمجمع العلمي أيضا، وبجميع المجامع العلمية المشهورة، كان نموذجا خاصاً لهذه العقول الضيقة المحصورة في أحرج المخاخ البشرية التي يمكن تصورها . فكان متديناً عن اقتناع ، وغير صالح لحرية البحث على الاطلاق، فهو الذي حكيت قصته في كتابي «المجهول» بمناسبة اختراع الفونوغراف . ففي ١١ مارس سنة ١٨٧٨ حضرت جلسة المجمع العلمي في اليوم الذي قدم فيه الطبيعي دومونسل فونواغراف ايديسون الى هذا المعهد العلمي . فلما لقن الفونوغراف ما لقن أخذ يعيده كما هو محفور على اسطوانته، عندذاك خف عضو من المجمع ذو سن ناضجة، وعقل راجح، وفكر مشبع بالاساطير الرسمية، وأبدى هياجا ضد جرأة المخترع، وانقض على ممثل اديسون وقبض على مخنقه وهو يصيح : «أيها الرجل الخبيث مثلنا لا ينخدع لمشعوذ يتكلم من بطنه » . فكان هذا العضو الموقر هو المسيو بويو المذكور . وأغرب مما مر انه بعد مضي ستة أشهر أي في ٣٠ سبتمبر في أثناء انعقاد المجمع، رأي من واجب الشرف أن يعلن انه بعد أن درس الفونوغراف درساً مدققاً، ظهر له انه كلام من البطن وان مما لا يقبله العقل أن يتأتي لمعدن حقير أن يقوم مقام الجهاز الصوتي

الانساني الكريم . فكان الفونوغراف في نظره من الاضاليل السمجة ، فهؤلاء القوم الذين يصدق عليهم قول الشاعر بأنهم مشدودون خلف مركبة الترقي ، يؤخرون كل رقي، ويعاكسون كل تقدم،وينجحون في اخفاء كل نور عن الدهماء الذين لا يعون شيئا

هذا الرجل الكبير كان طبيب (ارسين هوسيه) ويمكننا أن نقرأ في اعترافات هذا الكاتب المبدع بأن هذا الرجل كان سبباً في موت امرأته الجميلة وابنها ،وفي موت امرأته الثانية أيضا

هذا هو التعقل (العلمي) لبعض العلماء فنرجو أن يهب لقب عضو في المجمع العلمي شيئا من الذكاء لرجاله وأن يفتح عقولهم

ان ما قلناه عن الاستاذ (بوبو) ينطبق على زميليه في المجمع العلمي (شيفرول) و (بابينيه) فيما يتعلق بالمسئلة النفسية

فقد كتب صديقي المأسوف عليه الدكتور (ماركاريو) في سنة ١٨٥٧ في كتابه (عن النوم والاحلام والانتقال النومى في صفحة ١٩٥) يقول :

« ان النظر من خلال الاجسام الكثيفة وعلى مسافات غير محدودة ، وهو الامر الذى لم يقبله العلماء ، والمنافي لجميع النواميس الفيزيولوجية المعروفة ، والمستعصي على كل تعليل ، يظهر مع كل هذا انه حق لاغبار عليه » ثم نشر عنه الشهادات التالية فقال :

« ان الدكتور (بلينجر) اقتنع بصحته بعد تجارب كثيرة . فقد كتب مرات عديدة وهو في داره، ولا رقيب عليه، بعيداً عن كل مطلع،عبارة على ورقة ثم طواها طيتين ثم وضعها في ظرفين أو ثلاثة أظرف وختمها بعناية تامة، فاستطاع المنوم أن يقرأها من خلال كل هذه الاوراق الكثيفة وأن يثبتها على ظهر الظرف

« هذه الظواهر بعينها كانت حققتها لجنة المجمع الطبي في سنة ١٨٣١ فقد جاء في تقريرها مانصه :

« قدم المسيو (ريبس) العضو بالمجمع الطبي قائمة أخرجها من جيبه فقرأ المنوم

بعد جهد ظهر انه أنبه هذه الكلمات بوضوح تام : (الاقار . من الصعب جداً معرفة الرجال) وكانت هذه الكلمات الاخيرة مطبوعة بأحرف غاية في الدقة . ثم وضعوا على عينيه المغمضتين ورقة جواز سفر (باسبورت) فعرفها وعينها باسم (جواز انسان) . ثم أبدلوا هذه الورقة برخصة حمل سلاح، وهي تكاد لاتفترق عن ورقة الباسبورت، وقدموها اليه من وجهها الابيض (وعيناه مغمضتان) . فقال المنوم أنها ورقة فيها كتابة محصورة بين أربعة جداول . فلما أداروها، ترددهنيهة ، ثم قرأ هذه الكلمات بوضوح تام (بنص القانون) . وقرأ من جهة اليسار (حمل السلاح) . ثم قدم اليه رسالة مفتوحة، فقال انه لايستطيع قراءتها لانه لايعرف الانجليزية . وكان ذلك الكتاب مكتوبا حقيقة بتلك اللغة

« كل هذه التجارب أتعبت المنوم فترك ليستريح . وبما انه يحب اللعب اقترح عليه أن يلعب الورق ترويحا لنفسه من العناء . فلعب معه المسيو (رينال) المفتش السابق للجامعة،فخسر.فاجتهدوا بضع مرار ان يقهروه بحذف الورق وابداله فلم يفلحوا

« ونوم الدكتور (فواسار) المسيو (بول فيلجران)، وهو طالب بالحقوق مصاب بشلل الجانب الايسر،فكان يقرأ مايطلب اليه قراءته وعيناه مغمضتان . ثم عرضت عليه، وجفناه مقفلان ومعطيان بواسطة المجربين على التعاقب، أنواعا من ورق اللعب، فعرفها كأنه يراها بعينيه

« ثم عرض عليه مجلد كان أتى به المسيو (هوسون)، وعيناه مقفلتان ومغطاتان بواسطة المسيو (سيجالا)، فقرأ عنوانه وهو (تاريخ فرنسا)، ولم يستطع ان يقرأ السطرين المتوسطين،ثم قرأ في الخامس اسم مؤلفه (انكتيل) وكان مسبوقا بحرف الجر Par . ثم فتحت الصفحة ٨٩ من الكتاب، فقرأ من سطرها الاول هذه الكلمات ، (عدد ما كان يملكه) ،وترك الكلمة التي بعدها وهي الجيوش. ثم قرأ بعدها هذه العبارة «في الوقت الذى كان يظن فيه انه مشغول بملاذ المراقص» الخ

« هذه الحوادث المقررة بوضوح تام في التقرير الذي تحرر باسم لجنة المجمع

العلمي بواسطة المسيو هوسون تحمل شهادة العلم المنزهة عن الغرض . ولكن يمكن أن يقال هنا ان المنومين قد قرأوا هذه العبارات في افكار المجربين . قد يكون هذا صحيحاً بالنسبة لبعض هذه التجارب التى اجراها المجمع العلمي . ولكن هذا التعليل لايمكن ان ينطبق على الحوادث التالية، لان المجربين لم يكونوا يعرفون العبارات التى أقرأوها المنومين

« كان احد اصدقائي، وهو الدكتور(ن)، حاضراً فى الايام الاخيرة فى سهرة حافلة بالكثيرين من رجال الفنون والآداب، ممن يعرف بعضهم بعضا جد المعرفة. وصديق هذا ليس ممن يعملون على ترويج هذه التجارب . فكان بين الحاضرين اليكسي الوسيط المشهور. فنومه المسيو مارسيليه واليك ماحدث : ذهب صديق الدكتور(ن) الى الحجرة المجاورة واحضر منها كتابا لم تقص اطراف صحفه بعد، ورجا المنوم ان يقرأ سطراً معيناً من صفحة معينة ، ولم يفتح الكتاب. فتردد المنوم اولا وظهرت عليه آثار الجهد، ثم طلب قلما وكتب السطر الذى امر بقراءته . فقصت اطراف تلك الورقة وبحثوا عن الصفحة والسطر المطلوب، فدهش جميع الحاضرين عند مارأوا ان التجربة قد نجحت نجاحا تاما . ولكن السطر كانت عبارته انجليزية فى الكتاب فنقله الوسيط الى الفرنسية . ومما حير المجربين ان هذا الوسيط عينه عجز عن قراءة كلمة باريس المكتوبة بخط عريض على ورقه مطوية اربع طيات

« لايمكن هنا الاحتجاج بمسألة انتقال الافكار فان أحداً لم يفتح الكتاب الذي كان غير مقصوص فى ساعة التجربة » انتهي

هذا ماقاله الدكتور ماركار من منذ نصف قرن. فالمسائل التي تنهم أحياناً بتأكيدها بجرأة كانت معروفة من زمان بعيد . فان كنت أوردت مشاهدات قديمة من سنة ١٨٥٠ و ١٨٤٠ و ١٨٣٠ بل ١٧٨٦ عن بوزيجور و ١٧٨٨ عن دائرة المعارف المجلد ٣١ فما ذلك الا لاثبات ان هذه الحوادث النفسية كانت مقررة منذ سنين كثيرة، بل منذ أجيال عديدة. فلنستمر على النقل فان المورد غزير

أما من جهتي انا فقد سمعت روايات عن تجارب أجريت في مسئلة الابصار بدون الاعين وشاهدتها بنفسي

ففي صيف سنة ١٨٦٥ أقمت مدة شهر الاجازات في مدينة سانت ادرس على سند رأس هيف في غرب الهافر بشارع الصيادين رقم ٥ ، وكان يقيم في الدار المقابلة لداري طبيب مشهور يحمل اسما عليه مسحة فلكية هو الدكتور كوميت (١). وكانت له امرأة أعطته أمثلة غريبة عن هذه الخاصة ، فقد أصيبت في بعض أدوار حياتها بعرض الانتقال النومي، فكانت تقرأ وعيناها مغمضتان من خلال الاجسام الكثيفة ، وكانت تسمى أصغر الاشياء التي كانت تقدم اليها وهي محجوبة في قبضة اليد، وتقرأ الافكار وترى مايجرى في الدور المجاورة من الامور في وقت حدوثها، وتعين بالدقة الايام والساعات التي ستصيبها فيها النوبة المرضية وتصف العلاجات التي ستشفيها

فيمكن الاطلاع على تاريخ شفاء مدام كوميت بكشفها المغناطيسي وعلى رؤيتها لأعضائها الباطنية، في كتاب الدكتور فرابار المسمي رسائل على التنويم المغناطيسي، مما لايترك مجالا للشك في صحة هذه المشاهدات . وفيه مشاهدات الدكتور كوميت تليها مشاهدات مشابهة لها حدثت أمام الدكتور الفونس تيست في امرأته نفسه أيضاً. كل هذه المباحث تاريخها سنة ١٨٤٠ وقد ذكر المؤلف انه يجب انتظار خمسين سنة أخرى حتى يعترف العلم الرسمي بصحتها . ولكنه أخطأ في ذلك . فانه بعد الخمسين السنة التي ذكرها أي في سنة ١٨٩٠ كانت أوهام الجهل القديم لاتزال متلبدة في العقول. ولم يزل الامر على ماكان عليه الى اليوم

على ان الوقت يمر سريعا والانسانية بطيئة في تقدمها . وقد قلت في اول صفحة من هذا الكتاب بأني قد بدأت هذا العمل منذ أكثر من نصف قرن . وما قرأوه من السطور السابقة وما تحمله من تاريخ سنة ١٨٦٥ أكبر دليل على ذلك

---

(١) معنى كوميت بالفرنسية النجم ذو الذنب *Comète* ولكن اسم الدكتور يكتب قريبا من ذلك أي هكذا *Comet*

من بين التجارب الكثيرة التى تساعدنا في حل المسألة التي نحن بصددها أذكر مشاهدة عجيبة أوردها الدكتور (جيبيه) وهو طبيب بمستشفيات باريز أوردها في كتابه (تحليل الاشياء) *Analyse des Choses* صفحة ١٣٧

حدثت هذه المشاهدة فى ابريل سنة ١٨٨٥ وقد اكثر من ذكرها امام شهود عينهم بأسمائهم . فقد حصل على قراءة من الوسيط بدون عينيه، وهو فى حالة النوم المغناطيسي واليك ماقاله :

« كانت الوسيطة شابة اسرائيلية في العشرين من عمرها . فلما نامت ووصلت الي حالة متوسطة من الخروج عن الجسد ليست بحالة ليتارجية (الليتارجيا حالة تشبه الموت) ، ولا بالانتقال النومى ، ولا بالذهول المصحوب بالكلام ، ولكن الحاله التي يسميها المغطسون الاخصائيون بالانتقال النومي الكشاف ، وضعت قطعتين من القطن على كل من عينيها وربطتها بفوطة ثخينة او بقطعتين الفولاذ ، وعقدتها وراء قفاها ، وكانت هذه أول مرة حاولت فيها التجربة التي سأذكرها ، فدهشت من تمام نجاحها . وأرى من واجبي أن أقول بأني الى ذلك الحين لم أكن من الدربة على ماصرت اليه بعد ذلك عقب ابحاثي الطويلة ودراساتى العديدة المتواصلة على هذه المسئلة

« فتناولت من مكتبتي الكتاب الذى وقع تحت يدى وفتحت بدون قصد صفحة معينة . ثم أمسكت به فوق رأس الوسيطة وهو مغلف ، بدون ان انظر اليه ، على بعد سنتيمترين من شعرها ، وأمرتها بأن تقرأ السطر الاول من الصفحة التي على يسارها . فأجابت بعد ان سكتت هنيهة قائلة « نعم انا اراه فانتظر » . ثم قالت « ان التشابه يؤدي الي الوحدة لانه اذا كانت » ثم سكتت ، وعادت فقالت : « انا لا استطيع ان اقرأ اكثر من هذا . كفى فان هذا يتعبنى » فخضعت لاشارتها ، وأدرت الكتاب فوجدته كتابا فيالفلسفة ، ورأيت أنها قرأت منه السطر الاول الذي عينته الاكلتين »

لنورد مشاهدات اخري ، ولنفتح مثلا الكتاب القيم للسر اوليفرلودج (مدير جامعة برمنجهام) المسمي بقاء الانسان بعد الموت فى صفحة ١١٠ ولننقل عنه هذه المخاطبة الروحية العجيبة لستنتون موزس وهي :

« المستر ستنتون موزس الاستاذ بجامعة كوليدج بلوندرة كان حاصلا على خاصة الكتابة تحت تأثير الارواح، وهو منفرد وحده كل صباح، (اى ان الروح كانت تستولي على يده قهراً عنه فتكتب ماتشاء وهو يخاطب من يكون بجانبه او يفكر في أمر هام). وكثير مما كتبته يده على هـذه الحالة قد نشر واشتهر لدى الذين يدرسون هـذه المسائل . ولكن الحادثة التالية مدهشة وتصلح ان تكون مثالا غريبا مؤثراً القدرة على القراءة من بعد . والنص الذى سنورده هنا حصل عليه المستر ستنتون موزس بينما كان جالساً فى مكتبة الدكتور (سير) في حالة ماكانت يده تكتب بغير ارادته وهو يحادث مخاطبيه غير المرئيين . واليك هذه الحادثة :

« سأل المستر ستنتون موزس الروح المزعوم قائلا :

« أتستطيع أن تقرأ ؟

« فأجابه : لا ياصاحي لاأستطيع ولكن (زكريا لوغرى) و (ريكتور) يستطيعان ذلك

« فسأله : أيوجد واحد منهما هنا ؟

« فأجابه : سأحضر لك أحدهما

« حدثت فترة ثم كتبت يده بغير ارادته

« ريكتور هنا

« فسأله ستنتون موزس : اتستطيع ان تقرأ ؟

« فأجابه : (وقد تغير الخط)، نعم ولكن بصعوبة

« فقال له : تفضل علي بكتابة السطر الاخير من المجلد الاول لكتاب (الانيد) *Enéide*

« فأجابه انتظر

Omnibus errantem terris et fluctibus aestas

« فرأى ستنتون موزس ان النقل صحيح، ولكنه توهم انه قد يكون هو نفسه رآه من قبل وحفظه في ذاكرته على غير شعور منه . فوضع سؤالا آخر وهو :

« أتستطيع ان تذهب الى المكتبة، وتنظر في المجلد الذي هو قبل المجلد الاخير من الصف الثاني منها ، وان تقرأ الفقرة الاخيرة من صفحة ٩٤ ؟ قال ستنتون موزس ولم اكن اعلم ماهو ذلك الكتاب، بل كنت اجهل اسمه

« فبعد مضي برهة من الزمن كتبت يد ستنتون موزس بغير ارادته هذه الكلمات : (سأبرهن بحادثة تاريخية بأن البابوية بدعة تكونت يسيراً يسيراً وكبرت من لدن العصور الاولى للمسيحية الصحيحة ، لامن العهد الرسولي بل من العهد المحزن الذي أحدثت فيه الكنيسة والحكومة في زمن قونسطنطين)

« قال ستنتون موزس فرأيت ان الكتاب المذكور مؤلف غريب اسمه

Antipapo priestian, on attemp to liberate and purify christianity الخ لمؤلفه (روجر) » انتهى

فاذا لم يكن هذا قراءة روح فاذا هو اذن ؟ ان من المستحيلات العقلية انكار الحوادث المقررة بالتجربة

لنذكر في هذه المناسبة تجربة السير وليم كركس، (من اكابر علماء الانجليز والعضو بالمجمع العلمي البريطاني)، في قراءة العبارات التي كان يجهلها هو نفسه، ويجهلها الوسيط ايضا . كان الوسيط امرأة تتصل بالارواح بواسطة قطعة من الخشب مثبت فيها قلم من الرصاص. فكان يتحرك هذا القلم تحت يديها على الورقة. قال الاستاذ كروكس المذكور :

« كنت اود لو أكتشف وسيلة لاثبات ان ماكانت تكتبه الوسيطة لم يكن من عمل لاشعوري صادر من مخها . فكانت قطعة الخشب على عادتها دائما تثبت بأنها وان كانت تتحرك تحت يد الوسيطة وذراعها، الا ان العقل القائد لها كان عقل كائن غير منظور، يستخدم مخها كما يستخدم آلة موسيقية، ويحرك عضلاتها على هذه الصورة

« فقلت عند ذلك لهذا العقل غير المنظور : أترى كل مافي هذه الحجرة ؟

« فكتبت قطعة الخشب : نعم

« قلت له : أترى هذه الجريدة وتستطيع قراءتها ؟ وعند قولي هـذا وضعت أصبعي على عدد من التيمس كان خلفي على خوان ولكني لم انظر اليه

« فأجابت قطعة الخشب : نعم

« قلت لها : اذا كان الامر كذلك فاكتبي الكلمة التي تحت اصبعي لاصدقك

« فبدأت قطعة الخشب تتحرك ببطء وكتبت بصعوبة عظيمـة هذه الـكلمة (*However*) فالتفت خلفي فرأيت ان الـكلمة التي كان يخفيها أصبعي هي هذه الـكلمة

« لما عملت هذه التجربة تجنبت عمداً أن انظر الى الجريدة، وكان يستحيل على تلك السيدة أن ترى منها كلمة مطبوعة واحدة ولو حاولت ذلك ، لأنها كانت جالسة امام خوان والتيمس خلفي على خوان آخر وجسمي حائل بينهما »

***

أضيف الى هذه المشاهدات المتنوعة المشاهـدة الجديدة التي حضرها الطبيعي الامريكاني الكبير اديزون (مخترع الفونوغراف) الذي لا يتأتى لاحد ان ينكر قيمته في النقد التجريبي. فاليك تقريراً كتبه بنفسه (أنظر مجلة التاريخ السنوي للعلوم النفسية . مايو سنة ١٩١٦) قال :

« ان الرجل الذي سأتـكلم عنه ارسله اليّ احد اصدقائي الاقدمين، وكتب اليّ بدون تقديم مقدمة يقول : ان هذا الرجل المدعو (رز) يأتي اعمالا غريبة ، فأردت ان تعرفه، فلعلك تتوصل الى تعليل الخاصة التي عنده

« فضربت له موعداً . فحضر لي في اليوم المعين في معملي . فدعوت بعض عمالي التجربة معهم . فطلب رز الى واحد منهم، وكان نورفيجيا، ان يدخـل الى الحجرة المجاورة وان يكتب على قطعة من الورق اسم البنت الصغيرة لأمه ومحـل ولادتهـا واشياء كثيرة اخرى . ففعل النورفيجي ما أشار به عليه ، وطوى الورقة وحفظهـا في قبضة يده . فأخبرنا رز عما فيها كله، واضاف الى ذلك قوله: ان ذلك الشاب يحمل في جيبه قطعة من السكة (العملة) تساوي عشرة كورونات . فكان الامر كما قال

« فبعد ان اجري تجارب كثيرة كهذه مع العمال الآخرين، طلبت اليه أن يجرب معي انا . وعند ذاك دخلت الى عمارة أخرى، (اي خارج معمله)، و كتبت هذه الكلمات « أتوجد مادة خير من هيدروكسيد النيكل لوضعها فى بطارية كهربائية مع المواد القلوية ؟ »

« وكنت في ذلك الحين اعمل في بطارية كهربائية قلوية، وكنت اخشي ان لاأكون من عملي على هدى . وبعد ان كتبت هذه العبارة ، القيت على نفسي مسئلة وركزت فكري كله فى حلها، بقصد ان اضلل ريز اذا حاول ان يعرف ما كتبته بقراءة فكري . ثم عدت الي الحجرة التى تركته فيها

« فما دخلت عليه حتي بدرني بقوله: لا، لايوجد خير من هيدروكسيد النيكل لبطارية فيها مواد قلوية . ومعنى هذا انه قرأ سؤالى كما وضعته

« فأنا لاأزعم أني استطيع ان اعلل هذه الخاصة . وانا مقتنع بأن حاجات المدنية ستولد اكتشافا عظيما بواسطة رجال لهم هذه الموهبة . فالعدد النزر من أهل الكشف فى الجيل الحاضر سينقلبون الى جم غفير فى الاجيال القريبة . والعقل الطبيعى سيكبر في المستقبل ويكمل بسرعة عمل العقل الطبيعى الراهن

« وبعد التجارب التى ذكرتها بستين دخل علي بواب معملي وأخبرني بأن ريز حضر ليراني، وهو موجود بالغرفة الخلفية . فتناولت قلمي وكتبت بأحرف غاية فى الدقة كلمة كينو، (وفي الاصل بأحرف ميكروسكوبية اى لايكشفها الا الميكروسكوب) ثم طويت الورقة ووضعتها في جيبي ، وأمرت الخادم ان يدخل عليّ ريز

« فلما دخل قلت له : لقد خبأت ورقة في جيبي فما الذى كتبته فيها؟

« فأجابني بلا توقف : كلمة (كينو)

« بعد مدة من هذه التجارب التي أجريتها في معملي عمل الدكتور (جيمس هانا تومسون) الطبيب الاخصائي المشهور فى الامراض العقلية تجارب متناقضة . وذلك انه دخل مكتبه وكتب اسئلة على قطع صغيرة من الورق واخفاها . وبقى ريز يكلم من بالبهو حتى انتهي الدكتور تومسون من عمله. فابتدره الوسيط بقوله :

« يوجد في قعر الدرج الايسر من مكتبتك ورقة صغيرة مكتوب عليها كلمة *Opsonic* ، وتحت الكتاب الموضوع على مكتبتك ورقة اخرى عليها هذه الكلمة *Ambiceptor* ، ومكتوب في ورقة صغيرة ثالثة كلمة *Antigen*

«فكانت الدلالات التي اعطاها ريز بدون توقف غاية في الضبط. فدهش تومسون مما رأى واعترف بصحة هذا الامر

« ومنذ بضع سنين شرعت في عمل سلسلة من تجارب حاولت بها ان انقل الافكار من شخص الى آخر بكل ماتخيلته من الوسائل ، فاجتهدت للنجاح في ذلك بواسطة اجهزة كهربائية تبثها على رؤس المجربين . فدخل اربعة منا الى اربع غرف مختلفة، ولكن تصل بعضهم ببعض أجهزة كهربائية صنعتها لهذه الغاية . ثم اجتمعنا وجلس كل منا في ركن من حجرة واحدة ، واخذنا نتقارب شيئاً فشيئاً على كراسينا متجهين نحو مركز الحجرة، حتى تماست ركبنا ومع ذلك لم نحصل على أية نتيجة

« ولكن ريز لم يكن في حاجة لاي جهاز ولا لاي شرط خاص لعمل ما كان يعمله » انتهى

هـذا مايقوله اديزون وجميع المجربين الذين درسوا (ريز) شهدوا فيه مثل هذه الشهادة وخاصة المسيو (شرنك نوتزنج) الذى درس هذا الموضوع معه دراسة خاصة (شرنك نوتزنج هذا مدرس علم النفس بجامعة برلين)

لقد جمعت مئات من حوادث النظر بدون الاعين . ولا مشاحة ان من أهمها ما شاهده الاستاذ (غراسيه) المدرس بجامعة مونبيليه . فقد اخفى اربعة اسطر من خطه في ظرف صغير واقفله باحكام، فقرأه عن بعد ثلاثمائة متر وسيط الدكتور (فيرول). كما ورد ذلك في مجلة التاريخ السنوي للمباحث النفسية عن سنة ١٨٩٧ صفحة ٣٢٣ .

وليس على هذه الحوادث شية من خيال او انخداع او تدليس ، فهي من الدقة والتمحص في مثل ماعليه مشاهدات الحوادث الجوية والفلكية . وهي بهذا الوصف تستحق ان تكتسب الصبغة العلمية

ان شخصيتنا الروحية وأنيتنا العقلية تستطيع ان ترى بدون وساطة الاعين الجسدية . وقد جمعت هذه المشاهدات في مدى سنين كثيرة. وبما اني افترض ان قرائي على مثل ما انا عليه من صعوبة التصديق، فاستحسن ان استمر على عرض بقية إيماني امام اعينهم ، وليس يصعب عليَّ شيء غير تخير أحسن هذه المشاهدات المتنوعة التي لايمكن نكرانها . فاليك واحدة كنت آسف ان لم اضفها الى ماسبق من امثالها باعتبار انها لاتقل عنها تدليلا على صحة ما نحن بصدده، وهي منقولة مما نشره الدكتور (فانتون) من مدينة (كانيت) في مجلة (التاريخ السنوى للمباحث النفسية) لشهر ديسمبر سنة ١٩١٠، وهي تتعلق بشابة تحب الرقص حبا جما اصبحت بعد اصابتها بعدة حوادث هيسترية بحال يؤسف لها، حتى صارت تعبة العقل ومريضة في الدرجة القصوى .وكانت تسكن مرسيليا وزوجها في جنيف . فاليك ما كتب عنها :

« تسلم الدكتور (فانتون) الذى كان يعالجها في (اكتوبر سنة ١٨٨٥) تلغرافا من زوجها يخبره فيه بأنه قادم من جنيف في ليلة تلك بالقطار الذى يصل في الساعة السابعة ، وهو القطار الذي يمر بمدينة كولون في الساعة التاسعة، ويصل الى ليون في الساعة العاشرة، ويبلغ مارسيليا فى نحو الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى

« وفي الساعة السابعة مساء استدعي الدكتور الى بيت المريضة لاصابتها بنوبة شديدة . فلم يتعجل وتمشى على مهل، وكان ما أكله عجة بحشائش دقيقة . وكان بيت المريضة على نحو ٣٥٠ متراً من بيته

قال الدكتور : « رأيت عند وصولى الى دار تلك السيدة أنها محاطة بثمانية أشخاص ،لا يزال ستة منهم على قيد الحياة، وقد شهدوا كلهم بما وقع من الحوادث التي سأذكرها

« فقد اخبرتهم عني قائلة : « انه لم يتعجل الحضور . ها هو قد عزم عليه» ثم لما مضت مدة قالت : «ها هو بالباب ، انه يقرع الجرس» وما كادت تتم هذه العبارة حتى دق الجرس . فلما دخلت عليها قابلتنى بقهقهة عالية وعاتبتنى قائلة : « انك لم تسرع

بالحضور حين دعوتك.وقد أوعزت اليهم ان ينكروا وجودك بالدار في الوقت الذى كنت تتعشى فيه، وقد كنت تأكل عجة بحشائش دقيقة

« ثم قالت من العبث ان تحاول الاعتذار،فقد علمت ماذا كنت تعمل، فأعطني تلغراف ألفريد الذى تحمله معك فقد كان يستطيع أن يرسله اليّ انا » وبعـد مضى برهة من الزمن ذكرت المريضة بصوت عال مفهوم مؤدى التلغراف الذى كان في قصر جيبي ولم يعرفه من الحاضرين سواي . جرى كل هذا بدرجة من السرعة وكنت انا على حالة من الدهش،والحاضرين انفسهم على درجة من الاستغراب، بحيث اضطررت ان انتظر هنيهة لاعود الي رشدي قبل ان اخبر الحاضرين بأن كل ماقالته صحيح ، وأريهم التلغراف الذي تسلمته قبل حضوري بنصف ساعة

« فكيف علمت مدام ألفريد مؤدى هذا التلغراف ولم تتوقع عودة زوجهـا،ولم نخبر عن ساعة حضوره ، ولاعن الطريق الذى سيتبعه ؟ هذا ماجهدنا في تعليـله ولم نفلح

« بعد هذا حدثت لهانوبة أخري من الضحك العالى الدال علي السرور وتخللت ضحكها هذه الكلمات : « انه نائم ، انه لم يستيقظ ، لا ، لا » ثم تزايد الضحك الى درجة الاختناق، وانتهي الى تمتمة سمعنا منها بوضوح هذه الكلمات : «انه نائم،وقد بقي في القطار فلا يمكنه ان يصل الينا» وكانت الساعة اذذاك تسعة

« وفي الصباح خرجت لاستقبال زوجها مع رجلين من أصحابنا في ساعة حضور القطار . وقبل ان ابرح البيت اوصيت الجميع،وخاصة الذي يلازمون المريضة، بأن يحفظوا بغاية الدقة كل مايحدث في غيبتنا حتي اصغر الامور . وأجمعنا نحن ان نحفظ كل مايصدر منا من الاعمال والاقوال . فوصلنا الي المحطة بدون حدوث شيء ، فلم نجد الزوج بالقطار الآتي من ليون.فرجعنا الي بيت المريضة، وقبل ان نغادره ورد الينـا تلغراف مسحوب من (غرينوبل) يخبرنا الزوج فيه بأنه لايصل الا بعد الظهر لانه لم يلحق القطار

« فتركت المريضة في الساعة الحادية عشرة ، وبعدالظهر استقبلت الزوج قبل ان

يقابله أحد، وبدرته بالسؤال غير تارك له وقتا للتخمين . فأخبرني بأنه في الساعة التاسعة س من مدينة (تولوز) ولم يستيقظ، فاتجه القطار به الى شايري ولم يتنبه من نومه الا بها . فلما رأي انه يتغير وجهته لايمكنه ان يصل الى مرسيليا الا متأخراً سبع ساعات، أرسل تلغرافه الثاني . فكلفته أن يعيد ماقاله أمام كثير من الشهود الذين راقبوا امرأته في الليلة الماضية ، فرأينا بعد أن قصصنا عليه ماجرى بأن امرأته تتبعته في أثناء سفره، ونقلت الينا التفصيلات التي حكتها لنا ساعة حدوثها »انتهى

الدكتور (فاتتون) الذي اورد لنا هذه المشاهدات لم يكن يعرف الموضوع الذي ندرسه اليوم وهو النظر عن بعد بدون الاعين، ولذلك دهش منه غاية الدهش. ولكنا نعلم اليوم بأن هذه الخاصة الروحية لايمكن نكرانها، وان الانسان يرى بروحه لابالعصب البصرى لشبكية عينه

فلننصت الآن الى ماكتبه الدكتور (اوستي) على بعض المشاهدات الحديثة التي محصها بنفسه قال :

« قد أعطت مدام كامبل المشتغلة بفن العرافة بمدينة (نانسي) في فبراير سنة ١٩١٤ ، وهي في حالة نوم مغناطيسي دلالات سمحت بوجدان جثة المسيو (كادير) المتغيب من منذ ٣٠ دسمبر بدون ان يوجد عنه أية علامة يمكن الاستناد عليها في الاستدلال عليه . فأحدث ذلك ضجة عظيمة في الصحافة . فأجمع رجال البوليس والقضاء على استهجان هذا الامر . فان اصحاب (العقول القوية)، والخبثاء، والذين مداركهم عالية في نظرياتهم الثاقبة، لم يتأخروا لحظة عن اتهام الوسيطة بأنها مدلسة استأجرها الجناة لتضليل التحقيق

« وقد قابل الاستاذ (سيرنهيم) مخبر جريدة الماتان فصرح له بأن العرافة لا وجود لها، وقال له : « .... لم أستطع الحصول في مدى حياتي العلمية الطويلة على حادثة واحدة من النظر عن بعد أو من العرافة . وكل تربيتي العلمية تثور ضد القول بوجود مثل هذه الخوارق ، ولا أزال أنازع في صحتها حتي يقوم عليها دليل جدى .... »

ومع هذا كله فلا شيء أصح من وجود هذا الكشف المغناطيسي

وبعد مضي شهر، اي في ١٩ مارس سنة ١٩١٤ اختفت مدام (اندريه ريفو) بوابة قصر (بورسولت)، ففتش رجال البوليس الغابات والبحيرات المتولدة من نهر المارن الذي كان في حالة فيضان اذذاك . وقامت الجندرمة وخفراء مدينة ريمس المتنقلون بتفتيشات نشيطة، فلم يستفد القضاء من ذلك شيئا . فجري اخوان (ريفو) على أسلوب أسرة (كادير) ولجأوا الى بضع وسطاء مغناطيسيين ، فاتفقوا على التصريح بأن البوابة قتلت ضربا والقيت في الماء . اما مدام كاميل التي كانت احدى العرافات الثلاثة فصرحت في ٢٤ مارس بما يأتي كما ورد في جريدة الجورنال :

« انكم تبحثون عن قريبة لكم ، اني أراها، فانها بعد أن قابلت رجلا يلبس بدلة عسكرية وتبادلا أوراقا، سارت بالليل سالكة طريقا خاليا ، ولما كانت على مقربة من جدول ماء،ولم يبق بينها وبين بيتها غير قليل، جاء رجل فضربها على الجهة الخلفية من رأسها بهراوة فسقطت المسكينة ميتة . فحملها قاتلها والقاها في الماء، وها أنا أري جسدها الساعة . وهي ستوجد بعد أيام بعيداً عن هذه الجهة »

«وفي ١٢ ابريل التقط بعض الصيادين جثة مدام (ريفو) اذ وجدوها طافية على الماء عند مدينة (جولفون) فقرر الدكتور (ويتيت) الطبيب الشرعي بأن الموت جنائي، وقال بأن هذه البوابة ماتت ضربا بانكسار جمجمتها قبل ان تلقى في الماء (انظر مجلة التاريخ السنوي للعلوم النفسية الصادرة في ابريل سنة ١٩١٤)

والمشاهدة الآتية اكثر في الدلالة مما سبقتها وهي منقولة عن مجلة (التاريخ السنوي للعلوم النفسية الصادرة في ابريل سنة ١٩١٤) بتوقيع الدكتور (اوستي)

« في ١٨ ابريل سنة ١٩١٤ وصل الدكتور اوستي كتاب جاء فيه ان المسيو (اتيين ليراسل) البالغ من العمر اثنين وثمانين سنة قد فقد في مركز (الشير) الصغير وان جميع الجهود التي بذلت لوجدانه لم تؤد الى نتيجة. فقصد الدكتور (اوستي) مدام (موريل) العرافة والمقيمة في باريس، (وقد قابلتها انا بنفسي وكانت لي فرصة استفتائها)، وكان مع الدكتور المذكور قطعة من الفولار من اشياء الفقيد . فأخذت العرافة تتبع سير المسيو (ليراسل) في تنزهه خلال غابة، فوجدته ميتاً وممدوداً على الارض حيث

وقف معيبا رازحا مصمما على أن يموت . حصل هذا في ٢ مارس وقد لبثت اسرته ١٥ يوماً هى ورجال القرية وثمانون رجلا عينهم عمدةالبلد، يبحثون عنه في الغابة فلم يعثروا به. ولكن باتباع الباحثين الدلالةالتفصيلية للعرافة، ودخولهم في المسارب التي وصفتهالهم، اهتدوا الى جثته في المكان الذي عينته . فكان الذى فعلته أنها تعقبته بروحها، ورأت انه لما وصل الى هناك ضرب بعصاه الارض كعادته وتمدد بجانب شجرة ضخمة وغدير ماء، وكانت هذه ضجعته الاخيرة

« أما (مدام موريل) فلم تسمع قط عن هذا الرجل ولا عن بلدة (شير)

« وليس هنا أثر من التلباتيا، ولا من انتقال الافكار، لان الجميع كانوا يجهلون هذا الامر . اما الذى فيه فهو النظر بدون الاعين عن بعد، كما هو الحال في جميع الامثلة التي قدمناها فى هذا الفصل »

هذه حوادث شوهدت لا يجوز الخلط بينها وبين الاعمال التافهة للعرافات اللائي يدعين أبعد درجات الكشف، ولا لضاربات بالورق. فلا نكن متحيزين لشئ، ولنبحث في كل شئ . وقد تقررت مسئلة النظر بدون الاعين فيجب اعتبارها فرعا جديداً لشجرة العلم

***

ازاء جميع هذه المشاهدات لا يتأتي لاى انسان بعد الآن ان ينكر مسئلة الرؤية بدون الاعين من خلال الاجسام الكثيفة، ومن خلال المكان والزمان

يضحكنا المنكرون عند مايؤكدون بأنه لا يوجد فى كل هذا غير خداع وتضليل وأحابيل وهذيانات . فليتخيلوا أنهم ألموا بجميع نواميس الطبيعة ، وان الكون لم يعد فيه خاف عليهم ، وان النفس غير موجودة ، وانه ليس للانسان ولا للوجود روح ، وان كل شيء يمكن تعليله بالمادة وخواصها . فهم باحثون على جانب عظيم من البلاهة

فان الحوادث التي أتينا بها في هذا الفصل عن الابصار بدون الاعين، اي بالروح، هى من التحقيق في درجة المشاهدات الفلكية والمتيورلوجية (الخاصة بالحوادث الجوية)

والطبيعية والبيولوجية والانثربولوجية (الخاصة بطبائع الانسان) وغيرها مما يتألف منه اى علم بعيد المدى في التمحص

وهى كذلك من الصحة والثبوت بدرجة الحوادث النفسية والوساطية والاسبرتية البالغة أقصى حد في التحقيق، والمسجلة بالفوتوغرافيا، وان كانت هذه تقتضي دقة شديدة خاصة لمخالفتها لمعلوماتنا الحاضرة على الطبيعة ونواميس الثقل وعلى الفيزيولوجية البشرية، الخ

فما هى القوى المنتجة لهذه الخوارق؟ مما لامشاحة ولاجدال فيه ضرورة وجود شىء وراء الحجاب، شىء عال خارج عن دائرة حياتنا المادية الحقيرة، حياة اللحم والدم، حياة العضلات والاعصاب. ان وجودنا الجسدى المادى قد يتزعزع ويتحلل، ولكن دون ان يجر الى انحلال هذا العنصر النفسانى المستقل. هذا من الممكنات الممكن قبولها علميا

ومن المدهش والغريب جداً ان هذه الحوادث التى نقلناها هنا شوهدت منذ زمان بعيد، بل منذ قرون، دون أن يهتم لها أحد. حتى كانت سنة ١٩١٨ فاستندعليها القس (فاريا) وقرر صحة وجود الروح البشرية مستقلة عن الجسد فى كتابه المسمى (سبب النوم الكشاف). ونحن اليوم نتظاهر بأننا نأتي باكتشافات جديدة بجمعنا اياها من هنا وهناك

وهذا يدل على ان الرجال الذين يحبون أن يتعلموا لايزالون اقلية ضئيلة جداً

بقى علينا أن نأتيك بخاصة الروح في معرفة المستقبل والعلم بالحوادث الآتية وهو باب يؤتينا بأدلة أشد مناعة وأقوى مراساً من كل الادلة السابقة

رؤية الحوادث المستقبلة

المستقبل الحاضر

التشكك الكثير المزاعم ، الذي ينبذ الحوادث
دون أن يتحنها ليري نصيبها من الصحة ، يعتبر أكثر
استحقاقا للذم من سرعة التصديق بدون تعقل
ا . دو هامبولدت

من بين الخصائص النفسية المجهولة التي نعوز البحث ، اذا كنا نهتم بايجاد بسيكولوجيا تجريبية مؤسسة علي المشاهدات الحسية ، الخصيصة التي تسمح للانسان رؤية المستقبل وشهود ماليس بموجود الآن

وكما ان النفس ترى خلال المكان كذلك ترى خلال الزمان

لقد ألفت كتابا في هذا الموضوع لم يطبع للآن أسميته : (رؤية المستقبل) «انباءات مضبوطة حققت بالمشاهدة ، أحلام منبئة بأمور مستقبلة ، حوادث رؤيت قبل حدوثها بضبط تفصيلي مدقق ، الحيرة في التوفيق بين رؤية المستقبل والحرية الانسانية ، وبين القضاء السابق والاختيار

وليس من غرضي أن أتبسط هنا فى درس هذا الموضوع الواسع ، ولكن بما اننا بصدد اثبات خصائص الروح ، فيناسب هذا المقام أن نضيف الي المشاهدات السابقة لحوادث الابصار بدون الاعين ، مشاهدات أخري ليست أقل استحقاقا للتأمل وخاصة النوع الذي يسمى (المرئي من قبل) ، وهو علي كثرة ماتنوزع في أمره لا يحتمل الشك لدى الذين درسوا هذه المسألة ، وملكوا من الوقت ما سمح لهم بمقابلة كل ماشاهدوه بعضه ببعض بدقة وعناية

الحوادث المستقبلة يمكن رؤيتها قبل وقوعها بضبط عظيم بدون نزاع . ولسنا نعالج

هذه المسئلة هنا باعتبارات ميتافيزيكية (أي متعلقة بعلم ماوراء الطبيعة) ولكن بالاسلوب التجريبي والطريقة العملية

أول ماتنبه فكرى لهذه المسئلة، التي تعتبر غير معقولة، كان في ربيع سنة ١٨٧٠ وذلك بالقصة التي ستقرأها الآن، وهي خاصة بمشاهدة تمت على يد انسان متمتع بعقل منير وراجح، هي الاميرة (اماكارولاث)، التي تحب فرنسا حباً جماً وتحضر في كل ربيع الى باريس، وتحب أن تحادثني في هذه المسائل الكبيرة . فلما حدثت الحرب بين فرنسا والمانيا تأثرت بشدة ولم تعش هذه الشابة بعد هذه الكارثة الدولية الازمناً قصيراً . (انظر مقدمة نكبة سنة ١٩١٤) . وهذا الكتاب هو من أواخر الكتب التي وصلتني منها، وهو يحكي رؤية رأتها تنبيء عن المستقبل، وهي واضحة وضوحا تاماً وقد نقلتها في كتابي (المجهول) وتاريخها يصعد الى عشر سنين قبل سنة ١٨٧٠ اليك نص كتابها بايجاز :

« نمت وأنا قلقة على صحة انسان أحبه ، فرأيتني قد انتقلت الى قصر كنت أجهله وأدخلت الي غرفة مثمنة الاضلاع مفروشة بالحرير الدمشقي الاحمر . ووجدت بها سريراً عليه انسان تقلقني حالته الصحية، وكانت أشعة المصباح المعلق في القبة تغمر وجهه الشاحب ، ولكنه كان على شحوبه باسما وعاطلا بشعر اسود كثير ، وكان في مقابلة رجليه صورة معلقة ارتسمت في حافظتي بقوة حتى أني صورتها بعد القيام من النوم . وهي للمسيح متوجة بالورد بفعل ملك سماوى، ومعها أبيات (شيلر) فقرأتها

« فلما مرت سنتان على هذا المنام دعيت للنزهة في قصر بأقصي هنكاريا ، فوقفت باهتة عند ماأدخلت الى الحجرة التي خصصت لنا ، اذ وجدتها هي الحجرة المثمنة المفروشة بالحرير الدمشقي الاحمر، وأمامي السرير وصورة المسيح المتوج بالورد، ومعها ابيات (شيلر) . وهذه الصورة لم تنقل ولم تقلد، ويستحيل أنا كون رأيتها في غير المنام. وكذلك يقال عن الحجرة المثمنة الاضلاع »

(إما اميرة كارولاث)

من ذلك العهد البعيد سنة ١٨٧٠ كان كثيراً مايتحول انتباهي الي البحث في

هذا النوع من الحوادث التي عزمت على دراستها بعناية خاصة . فالعمل الذى أقدمه اليوم للقراء يمثل مشاهدات منوعة قمت بها فى نحو نصف قرن،واني أقدمه بكل الثقة التى يوجبها هذا التحضير العلمي.

ان تحقق الامور التى يراها الانسان واضحة جلية فى الاحلام الانبائية،أصبح مما لايمكن نكرانه مهما عجزنا عن تعليل ذلك في الدرجة الراهنة لمعارفنا البسيكولوجية. اليك مثالا على ذلك قيما لايمكن دحض ماحواه، كتبه قسيس ارشية (لنجر)الشاوان (جارنييه) المدرس سابقاً في المدرسة الكهنوتية الصغيرة التى رأى فيها هذا المنظر الذى لايمكن الشك فيه قال:

« كنا في سنة ١٨٤٦ في السنة الثانية لمدرستي الكبيرة، فرأيت فى نومى ذات ليلة انى أسيح في عالم الارواح وكانت الطريق التي اسلكها بيضاء ممهدة ومحفوفة بأشجار الواحدة منها بعيدة عن الاخرى ، وكان يظهر انها نازلة من سفح جبل الى سهل من الارض يمتد الى مالا يستطيع أن يدركه البصر . وكانت الشمس تهبط الى الافق بين الساعة الرابعة والخامسة مساء باسطة ضوءها المادى، على الخلاء بألوان تصورُها أيسر من وصفها

« فرأيتني وقفت دون أن أعلم لماذا ولا كيف؟ وقفت فى مكان يقطعه طريق آخر في زاوية قائمة في النقطة التي انا فيها.ولم يكن هناك شيء غير عادى يلفت نظر السائح او يستدعى انتباهه . ومع كل هذا فقد وجدتني واقفا هناك معتدلا كأنى تمثال، متأملا بارتياح عظيم في غير كبير شيء، بل في منظر زراعي يرى مثله كل يوم

« وقد لاحظت ان ذلك الطريق يقطع الطريق الذي انا عليه ويدور حول الجبل حيث أقيم جدار ارتفاعه متر على طول الطريق ليحفظه من تهايل الاتربة عليه

« وكان كل طول ذلك الطريق ثلاث اشجار غليظة ذات ظلال ظليلة

« وعلى بعد ثلاثين خطوة من الجهة التي كنت فيها رأيت بيتا ظريفا جدا مبيضا بالجير وحسن التعرض الشمس، وله فناء مسطح اجمل تسطيح . وكانت نافذته الوحيدة المطلة على الشارع مفتوحة . وكان خلفها امرأة جالسة حسنة الزي على بسطة ويكان يغلب على

ألوان حليها اللون الاحمر، وعلى رأسها قبعة بيتية مصنوعة من القماش الخفيف المخرق، وكان شكلها مجهولا عندي . وكانت هذه السيدة تبلغ، فيما يلوح عليها، الثلاثين من عمرها

وكان بجانبها ابنة صغيرة تبلغ العاشرة أو الثانية عشرة واقفة على قدميها، فتخيلت أنها ابنتها لأنها كانت تنظر الى أمها بانتباه وهي تعمل بعض الاعمال النسوية وتعلمه اياها . وكان شعرها مدلى وليس في رجليها حذاء ان ولابسة على شاكلة والدتها. وكان بجانبها ثلاثة أطفال يحبون على الارض، منهم غلام قد يبلغ الاربع أو الخمس السنين، قائما على ركبتيه يرى اخويه الصغيرين شيئاً في يده ليسرهما . وكان هـذان الطفلان مستلقيين على بطنيهما، والثلاثة مستغرقون في الاعجاب بذلك الشيء. فلما آنست المرأتان وجودي نظرتا اليَّ وأنا واقف بالطريق ولفتنا نظرى اليهما بذلك. ولكنهما لم تتحركا لأنهما معتادتان رؤية المارة في ذلك الشارع

« وكان بجانبهما كلب على درجة من الضخم جاثم يحك جسمه من حين الى آخر ليطرد عنه البراغيث

« ورأيت من الباب، وكان مفتوحا على مصراعيه، ثلاثة رجال حول خوان في أقصى المكان، اثنان على جانب، والثالث على الجانب الآخر، يلعبون ويشربون. وكان يلوح عليهم أنهم من العمال الذين يعملون في الجهة المجاورة

« وكان الى اليسار من الجهة الاخرى ثلاثة خراف ترعى الحشائش وتتناطح لهوا ولعبا، وبجانبها حصانان احدهما اشقر والآخر ابيض مربوطان الى الجدار

« ورأيت هراً جميلا يذهب الى كل جهة مرحا، ثم اتجه للخوان الذى عليه اللاعبون يعبث في شعورهم بمخالبه، فلطمه أحدهم لطمة شديدة مكافأة له على ما فعل

« ورأيت أيضاً اربع او خمس دجاجات وديكا على شيء من جمال الشكل

« هذه هي المزرعة التي كنت أتأملها مسروراً مدة عشر دقائق، ثم زالت فجأة كأنها لم تكن من قبل، فخلتها غرقت في نهر العدم الى الابد . وأني لأراها في حافظتي اليوم كما أرى قبة الناقوس في قريتي

« في سنة (١٨٤٩) شرعت مع صديقين لي ان نسيح في ايطاليا . فاخترقنا قرية

من جبال (الابنان)، وركبنا عربة تجرها خمسة من الجياد، حتي انتهت بنا الى قمة الجبل ومكثنا هنالك خمس دقائق، ثم هبطنا بسرعة مفرطة حتي انتهينا الى موقف . وهنالك جال جسمي العرق، وأخذ قلبي يخفق، واخذت امسح عيني وادلك اذني، فعل الذي يهب من نومه فجأة . وقد ظننتني نائما ولست بنائم، واؤكد اني لست بمجنون ولا بمخدوع بخيال . فقد رأيت بعيني رأسي المزرعة الصغيرة التي رأيتها في منامي لم يتغير فيها شيء، وكان أول ماجال به خاطري عند ماوقع بصري عليها ان قلت في نفسي اني كنت رأيت هذه المزرعة ولا أذكر أين رأيتها، ولكن أنى لي رؤيتها ولم أحضر الي ايطاليا غير هذه الدفعة ؟ فكيف اتفق ذلك ؟ هذان هما الطريقان المتقاطعان، والجدار القصير، والاشجار والبيت الابيض، والنافذة المفتوحة، والام التي تشتغل والبنت التي تنظر اليها، والاطفال الثلاثة والكلب، والعمال الثلاثة يشربون ويلعبون، والمهر وما فعله بهم، وما كوفيء به منهم، والحصانان والخروف لم يتغير من ذلك شيء . فالناس هم بعينهم كما رأيتهم بكل دقة يعملون الاعمال التي كانوا يعملونها في رؤياي، وجالسون في مجالسهم بعينها علي ماكانوا عليه لم يتغير منه شيء الخ . كيف كان هذا على هذا النحو ؟ لاأدرى ولا أزال من منذ خمسين سنة أسأل نفسي هذا السؤال . فقد رأيت ذلك في نومي أولا ثم رأيته في اليقظة بعينه بعد ثلاث سنين »

(القس غارنييه . ش)

وقد أورد العالم الايطالي (بوزانو) في مؤلفه القيم على حوادث الانباء بالمستقبل حادثة تعتبر كنموذج لرؤية الشيء قبل وقوعه. قال :

« لقد قص الشفاليه (جيوفاني دي فيجروا) وهو أستاذ في المضاربة بالسيف ومن أقوى وأشهر من يوجد منهم في (باليرم) ماوقع له بنفسه فقال :

« تيقظت ليلة من ليالى اغسطس سنة ١٩١٠ تحت تأثير حلم واضح الى درجة حملتني على ايقاظ زوجتي وقصه عليها في جميع تفصيلاته الغريبة المضبوطة

« وجدتني في ارض زراعية علي طريق يؤدي الى غيط محروث، وكان في وسطه

بناء خلوي له حوش به مخازن واسطبلات ورأيت على يمين الدار نوعاً من كشك خشبي مصنوع من افرع الشجر ومن الخشب الجاف، ورأيت بجانبه مركبة تقل جوانبها مثنية وعليها عدة الحصان الذي يجرها

« وكان هناك فلاح لابس بنطلونا قاتم اللون، وعلى رأسه قبعة رخوة سوداء، اقترب مني ودعاني لاتباعه ففعلت . فقادني الى خلف ذلك البناء وأدخلني من باب ضيق ومنحط الى اسطبل صغير يبلغ مسطحه اربعة او خمسة امتار مربعة مملوء وحلاء وكان في هذا الاسطبل سلم صغير من الحجر يدور فوق الباب . وكان هناك بغل أمام مذود متحرك وبالجزء الخلفي من جسمه كان يسد الممر الذي يمر منه الى السلم الذي كان في آخره حجرة صغيرة أرضيتهـا خشب ، ورأيت معلقاً في السقف بطيخات شتوية وعناقيد من طماطم وبصل وذرة

« في هذه الحجرة التي تعتبر حجرة خلفيـة كانت امرأتان وطفلة مجتمعـات . وكانت احدى المرأتين عجوزاً والاخرى شابة ، وهي فيما أظن أم الطفـلة . وقد ارتسمت تقاطيع وجوه هذه النسوة الثلاث في حافظتي بوضوح تام، ولمحت من الباب الموصـل الى الحجرة المجاورة سريراً لانسانين غاية في لارتفـاع بحيث لم أر له شبيهاً قط

« هذا هو المنام فلنتركه جانبا

« في شهر اكتوبر التالي اضطررت للشخوص الى نابل لحضور براز أحد الخصمين فيه مواطننا (اميديو بروكاتو) . فسافرت انا ومساعدي على اوتوموبيل الى (مارنو). وما دخلتها قبل ذلك، بل وما كنت اعرف اسمها . فأول ماأثر عليّ ، وأنا أجتاز الفـلاة، الطريق الواسع الابيض، فذكرت اني كنت رأيته من قبل ولكن متى ؟ وفي اي فرصة؟ ثم وقفنا على حدود مزرعة ، فرأيتني اعرفها لاني رأيتها من قبل، فنزلنا من الاوتوموبيل ودخلنا المزرعة. فقلت لرفيق اليوزباشي (بروتو) انا اعرف هذا المكان، فليست هذه المرة الاولى التي اراه فيها ، وعليه فان في آخر هذا الطريق يوجد بيت، وهناك جهـة اليمين يوجد كشك مصنوع من الخشب . وفي الواقع فان كل ما ذكرته كان موجوداً ،

وكذلك مركبة النقل ذات الجانبين المثنيين وعليها عدة الحيوان التي يجرها

« وبعد لحظة أتي فلاح لابس بنطلونا اسود، وعلى رأسه قبعة رخوة سوداء، هو بعينه الذي رأيته في منامي، أتى يدعوني الى خلف البيت . فبدلا من ان اتبعه مشيت امامه نحو الباب والاسطبل اللذين عرفتهما من قبل (في النوم). ولما دخلت وجدت البغل مربوطا امام المذود. فنظرت الي الفلاح لأسأله عن الحيوان هل يؤذي ام لا لان جسمه كان يمنعني من صعود السلم الحجري ؟ فأكد لى الفلاح بأنه لا يوجد أي خطر من الاقتراب منه. كما حدث ذلك فى المنام تماماً

« فلما صعدت درجات السلم، وجدت نفسي في مخزن الغلال. فرأيت في سقفه البطيخات المعلقة وعناقيد الطماطم والبصل والذرة ، ورأيت فى الحجرة الصغيرة في الزاوية اليمنى منها النساء الثلاث العجوز والشابة والطفلة، كما رأيتهن في المنام تماما . ولما دخلت الي الحجرة المجاورة لخلع ثيابي رأيت السرير الذي ادهشني بارتفاعه في المنام. فوضعت عليه جاكيتي وقبعتي

« وقد ذكرت منامي هذا لكثيرين من اصحابي في بهو الاسلحة ومجال البراز وغير ذلك من الامكنة ، وجميعهم مستعدون للشهادة بذلك . فاليوزباشي (بالامنجى) والافوكاتو (تومازفوركازي) والسنيور (اميديوبروكاتو) والكونت (دنتال دياز) والسنيور (روبرتو جانينا) من نابل جميعهم يشهدون بمعرفتي لتلك الاماكن والاشخاص الذين ورد ذكرهم فى حوادث هذا البراز

« هذا ماحدث، اما تعليله فمن وظيفة العلماء

(جيوفاني دي فيجروا)

قال العالم (بوزانو) عقب ايراده هذه الحادثة أنها جديرة بالالتفات لان صحتها لا يتطرق اليها الشك بوجه من الوجوه . فان راويها رجل يعرف قيمة الشرف، وحكايته للمنام قبل تحققه ينفي الاعتراض الذى مؤداه ان تأثره بما رآه وتوهمه إنه رآه من قبل يرجع الى حال من احوال الوهم

عند ماكان هذا المؤلف تحت الطبع وصلني الكتاب التالى اجابة على محادثة شفهية أهمتني كثيراً ، واتباعا للاصل الذى سرت عليه ، طلبت الى كاتبه أن يشفع روايتـه بالشهادات الدالة على سبق المنام الرؤية الحقيقية . فاليك هذا الكتاب

باريس في ٩ سبتمبر سنة ١٩١٩

« وفاء بما وعدتكم به ارسل اليكم بحكاية منامي مصحوبة بشهادتين ، وهو المنـام الذى أبديتم رغبتكم فى نشره . وأني لسعيد بارسالى هذه المشاهدة المحققة اليكم وارجوكم قبول الخ الخ

(ا. سوريل)

« في سنة ١٩١١ رأيت في نومى انى بجهة ريفية جديدة في مملكة مجهولة لديّ . فشاهدت على ربوة صغيرة ذات انحناءات رخوة مغطاة بالكلأ الرطب بناء عظيما ذا مظهر مديقال، نصفه يصلح لبعض الاشراف ، ونصفه الآخر عزبة محصنة، تحيط به جدران مرتفعة كحزام غير منفصم ومعرضة لريح الجنوب . وكان في كل زاوية من زوايا هذه الجدران برج ضخم قليل الطول . وكان يجرى أمام الجهة الرئيسية من هذا البناء في المرج غدير، مياهه صافية ذات خرير

« ورأيت ان رجالا بل جنوداً يستقون الماء من هذا الغدير ، وآخرين يوقدون النار غير بعيدين ، وطوائف من البنادق مرتبة على طول تلك الجدر. وكان هؤلاء الرجال يرتدون ملابس غريبة على طراز واحد لونها ازرق شـاحب لم أكن أعرفه من قبـل، ويلبسون على رؤسهم قبعات ظهرت لي ذات اشكال غريبة

« ورأيتني أنا نفسى مرتديا بكسوة ضابط اعطي اوامر بالنزول فى تلك الجهة

« وبتأثير ظاهرة من الظواهر التي أحس بها ناس، كنت اقول في نفسى وانا أؤدى هذه الاعمال : ماهذا الموقع الذي نحن فيه ؟ لماذا انا هنا ، وفيم ألبس هـذه الكسوة ؟ ».

« ثم استيقظت وقد ترك هذا المنام في ذهنى أثراً واضحاً مضبوطا . واهمّني منه خلوه من الجزئيات المتنافرة او المضحكة التى تكثر فى نومنا ، وحصوله جامعاً بـين

التلاؤم والترتيب المنطق في الحال — لأني كنت اعتقد حالا ظهوري بمظهر ضابط في ذلك الجيش المجهول .

« فقصصت هذا المنام في النهار على أقاربي وما تخلله من وجود الجنود الزرق . ثم اهملته ولم افكر فيه قط

« حدثت الحرب التي قلبت حالات كثيرة الى نقيضها فجعلت مني بعد سلسلة من التقلبات ضابطا برتبة ملازم للمشاة . ففي سنة ١٩١٨ كان طابوري خلف الجبهة الحربية في (اوب)، في دور الراحة. وكنت انا اقود الجنديين الجدد لصف سنة ١٩١٩

« فكان الطابور ماشياً منذ الفجر، والحرارة التي كانت تصوح الخضرة الناضرة لسوق الجويدار الكبيرة ، كانت تشق على جنودي الزرق المساكين، و كثف الغبار التي كانت تثيرها الوف الارجل المثقلة كانت لاتسمح لي ان اتعرف المكان الذي نحن فيه، فتلقيت أمراً بوقف الطابور تحت جدر القصر الذي كان على ماقاله البلوكامين على نحو مثني متر جهة اليمين. وبعد ان اعطيت تعليمات الى رؤساء القطاعات، ذهبت لمقابلة قائد الطابور . وبعد بضع دقائق رأيت رجالي في منعطف الطريق المحوط بأشجار الحور التي تحجب عنا القصر

« ظهرت المزرعة بعد آخر شجرة من اشجار الحور، فتأثرت من رؤيته اذ رأيت ان المرج ذا السفح اللطيف، وهو موشي بالازهار التي ينشرها شهر يونيو في كل مكان، والجدران والابراج، مشابهة للتي رأيتها في نومي قبل سبع سنين، ولا ينقصها الا الغدير الجميل ذو الحرير ، والباب الاثري

« وبينما انا الاحظ هذا الفارق بين المنام والحقيقة جاءني صف ضابط وسألني الى اى مكان يذهب الجنود للاستقاء

« فأجبته ضاحكا يذهبون الى الغدير . فنظر الى مخاطبي دهشاً . فقلت له : نعم ان الغدير اذا لم يكن في هذا الجانب فهو بلا شك في الجانب الآخر من هذا البناء . تعال معي . »

« فلما قطعت محيط الزاوية الشمالية ، لمحت بغير دهش ذلك القدر الظريف يجري علي الاحجار المخضرة الي نحو وسط الجدار والباب الكبير، كما رأيت ذلك في منامي تماما، وهو بأعمدته المكونة من الآجر القديم

« هذه الصورة علي ما وصفتها هنا هي صورة منامي الذى رأيته في سنة ١٩١٠، وما هو الا رؤية مؤثرة لما سيحدث في المستقبل ، حدثت لتريني ما سأشغله من وظيفة ضابط، وهذا كان مستحيلا تخيله في سنة ١٩١١»

(ا . سوريل)

شهادة مدام سوريل

اذكر ان زوجي حدثني عن هذا المنام الذى ادهشته تفاصيله في الحين الذى رآه فيه

١ سبتمبر سنة ١٩١٩ (هيلين سوريل)

شهادة والد المسيو سوريل

اصرح بأن ابني الفريد سوريل حدثني عن تفصيلات هذا المنام في الوقت الذي رآه فيه ، وبأن روايته عنه هنا غاية في الضبط

٤ سبتمبر سنة ١٩١٩ (سوريل)

هذه الرؤيا الانبائية جاءت كفلق الصبح . فقد رأي المسيو سوريل في سنة ١٩١١ ، حادثة من حوادث الحرب التى وقعت بين سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ التي اشترك فيها بوظيفة ضابط . وهي شبه رؤيا المسيو (رنييه) الذى رأى في سنة ١٨٦٩ ، حادثة من حوادث حرب سنة ١٨٧٠ . فهنا وفي جميع الحوادث المماثلة لها، تعترضنا هذه المسئلة وهي : اذا كان يري الانسان قبل سنة من وقوعه او قبل سبع او ثلاث سنين، كما في رؤيا الاب هارنييه التي ذكرناها آنفا، ما سيحدث للانسان في حينه، فمعني ذلك ان تلك الاشياء محتمة الوقوع، وان الاختيار الانساني غير موجود، وان المذهب الحق هو الجبرية المطلقة . ففي تاريخ معين من سنة ١٨٤٩ ، يجب ان تكون الايطالية جالسة في بيتها علي طريق رومية مع اولادها الثلاثة، والعملة في اسفل الدار يشربون، والمهر يمرح الخ . وفي

تاريخ معين من سنة ١٨٧٠ يجب ان يكون المسيو (رنيه) جنديا يقاوم البروسيين والباڤاريين، ويقذف بنفسه والحجر في يده على المهاجم عليه . وفي تاريخ معين من سنة ١٩١٤، يجب ان يأمر المسيو سوريل جنوداً للبحث عن الماء امام البرج المجهول. وقل مثل هذا عن مئات من الحوادث المشابهة لهذه من رؤية المستقبل. فماذا يبقى بعد ذلك لاختيارنا ولحريتنا الشخصية ؟ ألا يوجد هنا تناقض مطلق ؟ فهل يمكن القول بحريتنا في اعمالنا، وبامكان رؤية الحوادث قبل وقوعها؟

سنناقش هذه المسئلة بتوسع في الفصل الآتي ، فلأكتف بأن أقول هنا انها على اقصى مايمكن ان تكون من الصحة

الجبرية الدينية

والجبرية العلمية والاختيار

مسألة الزمان والمكان

ان ماكتبناه على الشيء الذي يرى قبل وقوعه، هو مقدمة طبيعية لما سيأتي بيانه، فاننا الآن بصدد درس المشاهدات المؤكدة للمرائي الانبائية المقررة لمسألة معرفة المستقبل

لقد نشرت تحت هذا العنوان في (المجلة)، وهي مجلة المجلات سابقاً، وتسمى الآن المجلة العالمية، اول مارس واول ابريل سنة ١٩١٢، الادلة الرئيسية المثبتة لرؤية حوادث المستقبل والعلم بها قبل وقوعها في شروط خاصة . فتتبع هذا البحث منذ ذلك الحين بضعة كتاب، ونقلوا تلك الادلة بدون ان ينبهوا على مصدرها من كتاباتي وهذا

تفصيل قليل القيمة هنا) ، فالذي يهمنا على وجه خاص هو ان نتحقق ان المستقبل قد يُرى ويُوصف ويعلن بتدقيق تفصيلي ، وانه ينتج من ذلك ان يكون في الانسان اصل روحاني متمتع بخصائص مستقلة عن خصائص المادة ، اي ان لروحا خالقة لجثمانه

سنأتي هنا اولا على الرؤيا الانبائية التي نشرتها في سنة ١٩١١ بمجلة التاريخ السنوى للعلوم النفسية ، ثم في سنة ١٩١٢ بالمجلة التي ذكرناها آنفا . فاليك هي :

حضر الى المسيو فريدريك باسي العضو المحترم في مجمع العلماء ، والذى ضحى حياته الطويلة بشرف في سبيل نشر السلام في العالم ، ومحق الفكرة النبية عن ضرورة الحرب ، في شهر يناير من سنة (١٩١١) ، بعد ان اخترق بقوة الخمسة الادوار من بيني رغما عن التسعة والثمانين سنة ، وكانت هذه من اواخر زياراته لى ، وما حكاه لى يستحق التقديم حقيقة

قال لى : « انى لم أجده في كتابك (المجهول) ، ومع هذا فأنا متحقق من انه سيفيدك لجيئه من كاتب مدقق شكاك ، ورجل لانزاع في كماله ونزاهته ، وهو (اتيين دو جريليه) . وهاأنا معطيك حكايته كما نقلتها من كتاب سياحته في الروسيا . ففي مدة اقامته في سان بطرسبورغ قصت عليه الكونتس توتشكوف ما يأتى :

« قبل دخول الفرنسيين الي الروسيا بنحو ثلاثة أشهر كان معها زوجها الجنرال في املاكها بتولا . فحلمت بأنها وهي مقيمة بقصر من مدينة مجهولة دخل عليها والدها ممسكا بيد ابنه الوحيد وقال لها بكل دقة :

« لقد انتهى عهد سعادتك ! قد سقط زوجك ، سقط في بوروديتو »

« فاستيقظت في اضطراب عظيم ، ولكن لوجدانها زوجها بجانبها ادركت ان ما رأته من اضغاث الاحلام ، وعادت فنامت ثانية

« فتجدد الحلم عينه ، وظلت مكتئبة بعد ما استيقظت مدة ، حتى انها لم تستطع ان تعاود النوم الا بعد مدة طويلة

« فحدث الحلم ثالث مرة،فشعرت عند ذاك بكرب عظيم،حتى انها أيقظت زوجها وقالت له اين بورودينو ؟ فلم يعلم عنها شيئا

« فلما اصبح الصباح، اخذ الاثنان يبحثان عن هذه المدينة فى الخريطة، يساعدهما والدهما فلم يهتدوا اليها . والحقيقة ان هذه المدينة كانت موجودة ،ولكنها قليلة القيمة، ولم تشتهر الا بالموقعة الدامية التي شبت نارها بالقرب منها . ومع كل هـذا فان تأثر الكونتيسة من منامها كان عظيما، وقلقها مفرطا . وفي هذا الحين كان شبح الحرب بعيدا ولكنه لم يلبث أن اقترب

« فقبل أن يصل الفرنسيون الى موسكو، كان الجنرال توتشكوف (زوج الكنتيسة) قد عين على رأس الجيش الاحتياطي. وفي صباح يوم دخل ابو الكونتيسة وهو ممسك بذراع ابنها الصغير الى الدار التي كانت تسكنهـا ، وكان حزيناً كما رأته فى منامهـا وقال لها :

« انه سقط ، سقط فى بورودينو »

« فرأت الكونتيسة نفسها في الحجرة عينهـا ، ومحاطة بجميع الاشياء التي رأتهـا في منامها

« فكان زوجها واحدا من الضحايا الكثـيرة في المعركة الدموية التى حـدثت بالقرب من نهير بورودينو، الذي اعطي اسمه لقرية صغيرة بجواره

(فريدريك باسي)

هذه الرؤيا الانبائية التي جاءت كفلق الصبح على شؤمها، لاشك في انهـا من الرؤى ذات الميزات الخاصة

فهل يمكن ان يفترض أنها تألفت في ذهن صاحبتها بعد حدوثها ؟ لا ، لان رؤيتها اصابتها بتأثر لا يمكن نسيانه ، ولانهم بحثوا عن هذا الموقع في خريطة الروسيا قبل تحقق الرؤيا بثلاثة اشهر . فهي مستوفاة لجميع شرائط الصحة

. ولكن ألقرر عقب هذا بأنه مادام موت الجنرال في بورودينو (وقعة السكووا) رؤي قبل حدوثه منذ ثلاثة اشهر، فهذا الموت وهذه المعركة كانا مما لايمكن تخلفهما ؟

في هذه الحالة ماذا يكون شأن الاختيار الانساني ؟ فـكان محكوما على نابليون اذن ان يشن الغارة على الروسيا، فلاتبعة عليه . وتكون التبعة الانسانية والاختيار من الاوهام والحالة هذه ؟

اما نحن فسنحلل الآن كل هذه النتائج المحيرة للالباب، وحقهـا ان تحار، فان الجبرية تظهر مناقضة لجميع الترقيات الانسانية . ولكن من الخطأ ان يخلط بين الجبرية الدينية والجبرية العلمية فتتوهم انهما سواء .

وقد كتبت لى شابة من نابل المادموازيل (فيرا كنزل) في هذا الشأن في ابريل سنة ١٩١٧، كتاباً رتعدفيه تذمرأبن جراء عبارات قرأتها فى كتاباتي خاصة بالمشاهدات التى لاتنقض عن رؤية الامور المستقبلة ، راجية اياى ان افسر لها كيف يمكن التوفيق بين هذه المشاهدات التي اضمن صحتها وبين الاختيار الانسـاني، وشعورنا بالحرية وبالتبعة الواقعة علينا من اعمالنا ؟ وقد ألحت في هذه المسئلة الحاحا قواها فيه ما هى فيه من التأثر العظيم من جراء تحقق نبأ سيء في اسرتها

فأجبتها بأن الجبرية الدينية والجبرية العلميــة مذهبان متخالفــان كل التخالف ، ويحسن عدم الخلط بينهما كما هو حاصل على وجه عام

فالانسان بموجب المذهب الاول كائن منفعل بطروء الحوادث عليه، وهي احكام مبرمة لايمكن ردها ، ولكنه بموجب المذهب الثاني فاعل مختار، وهو نفســه من العلل العاملة في الوجود . فالانسان اذا رأى المستقبل فلايرى ما (يجب) ان يحدث، ولكن ما (سيحدث) . وبما ان الحوادث جارية لاتنقطع، فما نراه هو هــذه الحوادث ، ولا تسمي من اجل ذلك قضاء مبرماً . الفارق بين الامرين على غاية مايكون من الدقة. ولكني توقعت ان تكون روح هذه الآنسة التي لم تزدعن السابعةعشرة، والتي تحررت وطهرت من كل الآراء المقررة من قبل، وظهرت لى برسائلها من لطف الشعور على درجة عالية ، قد أدركـت هذا الفارق الدقيق بالتأمل فيه التأمل الواجب له . ثم رجوتها ان تخبرني عن الامر الذي تحقق واوجب لها كل هذا التأثر العظيم ؟ فأجابتني بما يأتي حرفياً :

نابل في ١٠ يونيو سنة ١٩١٧

الاستاذ الاكبر العزيز

« ماأشد ماشعرت به من الغبطة والسعادة بقراءة كتابكم المحبوب . وكان حسن وقعه عندي مضاعفاً أولا لأ نمنكم، وثانياً لالقائه بصيصاً من النور على الافكار التي تضطرب في مخي . وقد فكرت طويلا في كتابكم هذا وفهمت ماتفضلتم به علي من التفسير . وهو ان ماسيحدث من الحوادث يمكن رؤيته ، ولكنه ليس بقضاء مبرم . وقد شعرت لذلك بارتياح لا حد له ، لأني كنت خشيت على نفسي الجنون من الفكر في اننا مسيرون وغير مخيرين ، لأنملك شيئاحتي ولا أفكارنا

« أردتم أيها الاستاذ العزيز أن تعرفوا ماهي الحادثة التي قادتني الى الاعتقاد بالقضاء والقدر،فها أنا أكتبها لكم بأحسن ماأستطيع

كنا منذ سبع سنين اى في ربيع سنة (١٩١٠) في علاقات أكيدة مع سيدةالمانية تدعى (هيلين شميد) ، وهي وسيطة ذات قوة عجيبة ، وبما ان والدتي كانت تهتم كثيراً بالجلسات الروحية، وجتهاوعاً ان تعقد معها جلسة للاتصال بالارواح

« لم أحضر أنا تلك الجلسة ، لانى كنت صغيراًلاأجاوز العشر السنين،وكنت وقت التحضير بالمدرسة ، ولكن والدتي وخادمتنا المرمة كانتا دائما تذكران لى هذه الحادثة

« وكان مجرد وضع هيلين شميد يدها بخفة على خوان يكفى في جعله يضطرب بشدة .وأنتم أيها الاستاذ تعرفون كيفية الاتصال بالارواح ان كان هنالك ارواح.فلما قرع الخوان، وكان من اخونة الاكل الضخمة التي يستحيل رفعها بالقوة العضلية، القرعات العادية، مؤذناًبأن روحا قد حضرت . سألت أمى تلك الروح عن اسمها بطريقة املاء الاحرف بالقرع.فأجابت ان اسمها (انتون) وكانت الوسيطة تجهل هذا الاسم كل الجهل . اما المتسمي بهذا الاسم فهو (انتون فيدلر) المتساوى،الزوج الاول لخالتي، ثم تزوجت بعده (ادولف ريسبيك) . من كل هؤلاء الناس كانت الوسيطة لاتعرف منهم واحداً، بل كانت تجهل وجودهم

« وبما ان (انتون فيدلر) هذا كان أقرب الاقربين الي خالتي، فرأت والدتي ان تسأله عن مستقبل أختها فسألته :

« هل يحتفظ (ريسبيك) بثروته؟

« الجواب بوضوح : لا

« يفقدها بعد كم سنة ؟

« فقرع الخوان كرعتين، أى بعدسنتين

« فسألته أمي بعد ذلك قائلة : «وهل يعيش عمراً طويلابعداضاعةثروته ؟

« الجواب واضح مضبوط : خمس سنين

« فأرادت والدتي أن تعرف على أية حالة سيكون موته . فأجابها بأنه سيكون فجأة

« فسألتها : هل يموت من مرض أو حادث خطر أو انتحار أو غرق أو جناية ؟

« فأجابت الروح : نفياً . فصارمن المستحيل معرفة الحالة التي سيموت بها . ولم يفكر أحد اذذاك في الحرب. وكان يجب ان يوضع هذا السؤال على غير هذا النحو . والشيء الوحيد الذي أمكن استخلاصه من روح (انتون فيدلر) هو الجواب على هذا السؤال : (كم سنة يكون عمر ابن ريسبيك عند مايموت هذا) فأجاب بوضوح تام : (سبع عشرة سنة) ثم انقطع الاتصال

« فأنا بحضرة الاستاذ العزيز لاأسمح لنفسي بأى شرح ، بل أكتفي بأن أنقل اليكم ماحدث . ووالدتي لم تقص هذا الامر على أختها خشية ان تقوله لزوجها . وهي نفسها كانت لاتصدقه . ولكن كل ماأخبرت به الروح حدث بدقة مزعجة . ففي ربيع سنة ١٩١٢، أي بعد التنبؤ بسنتين أضاع(ريسبيك) ثروته في مضاربة جريئة بالبورصة ، وبعد قليل أخبرت والدتي أختها عن الشق الثاني من النبوءة . فقالت لها مايقوله كل انسان في مثل هذا المقام، وهو ان هذه حماقات لايصح التعويل عليها

« ولكن هذا لم يمنع تحقق الشق الثاني من النبوءة . وكنت قبل تحققها كثيراً ما

أقول لوالدتي اذا كانت صحيحة فسيكون موت زوج خالتي في اول سنة ١٩١٧
« لحدث ياحضرة الاستاذ العزيز انه مات في القتال في ١٢ فبراير سنة ١٩١٧ فجأة بقذيفة أصابته في رأسه . وكانت سن ابن خالتي قد وصلت الى السابعة عشرة. والحالة التي مات عليها، ولم تستطع الروح ان تعينها بمرض أو حادث أو جناية الى غير ذلك من حالات الموت المعروفة، كانت في الحرب .... الخ الخ

(فيرا كوزلر)

شهادة والدتها

أشهد بأن ماكتبته ابنتي صحيح في جميع تفصيلاته

(ارملة ا . كوزلر)

مسالة القضاء والقدر

ان مسألة الحرية الانسانية تستحق التحليل في هذا الموطن

اننا نقرأ دائما بسرور من يقدر الجمال حق قدره مؤلفات عالمنا الرياضي الكبير (لابلاس)، وهو من أكبر العقول اتساعاً، وأنفذها شعاعاً، ممن يحق لفرنسا أن تفخر بهم ، وهو مع هذا كله من أصنى كتابنا صفاء، وأروامهم تعبيراً. اليك ماكتبه عن الاختيار في الانسان في كتابه المسمى (محاولة فلسفية على الحسابات الترجيحية). امامى من هذا الكتاب الطبعة الثانية المطبوعة سنة ١٨١٤ قال :

« كل الحوادث، حتى التي يظن لحقارتها أنها تفلت من سيطرة النواميس الكبرى للطبيعة ، هي في الحقيقة تابعة لها تبعية ضرورية ، مثل تبعية انتقالات الشمس لها . والانسان لجهله بالعلاقات التي تربطها بالنظام العالمي برمته، ظنها تابعة للاسباب الغائية، أو للاتفاق، حسب ماإذا حدثت وتعاقبت بنظام او بغير نظام ظاهر . ولكن هذه العلل الوهمية تقهقرت حدودها بزيادة معلوماتنا ، وزالت تماماً أمام الفلسفة الحقة التي لا ترى فيها الا أنها مظهر من مظاهر الجهل الذي نحن عليه بالعلل الحقيقية

«ان الحوادث الراهنة ارتباطا بالحوادث التي سبقتها مؤسساً على الأصل البدهي

المعروف ، وهو ان شيئاً لا يستطيع أن يحدث بدون علة تحدثه . هذه البديهة المعروفة باسم اصل (العلة الكافية) تسري حتى على اعمالنا التافهة . فان الارادة التي نشعر بأنها أكثر من سواها حرية ، لا تستطيع ان تحدث تلك الاعمال بدون وجود سبب موجب لها ، لانه اذا كانت جميع الاحوال في امرين من الامور متماثلة تمام التماثل ، واندفعت الارادة الانسانية وراء أحدهما ، وامتنعت عن الآخر ، ظن الرائي ان اندفاعها هذا نتيجة بلا سبب مولد لها ، فيكون السبب كما يقول ليبنتز هو الاتفاق الذي يقول به الايقوريون (أتباع أبيقور الفيلسوف اليوناني) . فلا شك ان الرأي المضاد وهم من أوهام العقل ، الذي لعجزه عن ادراك العلل الخفية لاختيار الارادة الانسانية في الاشياء التافهة ، يقنع نفسه بأنها عزمت على ماعزمت عليه من نفسها وبدون سبب

« فيجب علينا ان نواجه الحالة الراهنة للوجود باعتبار انها نتيجة حالاته السابقة ، وسبب للحالة التي سيكون عليها في المستقبل . فاذا كان هناك ادراك يلم في برهة من الزمن معينة بجميع القوى العاملة في الطبيعة ، ومكان كل كائن من الكائنات المكونة لها من مجموعها ، واذا كان هذا الادراك من السعة بحيث يستطيع ان يخضع جميع هذه المسائل للتحليل ، فانه يستطيع ان يجمع في نظرية واحدة بين حركات اكبر الاجسام الكونية ، وحركات اصغر الذرات المادية ، ولا يمكن ان يكون شيء مشكوكا فيه لديه من هذه الوجهة ، ويكون المستقبل كالماضي حاضراً أمام عينيه ، والعقل الانساني بالدرجات التكميلية التي استطاع ان يهبها العلوم الفلكية ، قد بدأ في هذه الخطوة من الفهم » انتهى

اننا سنناقش في هذا التدليل الساعة وقد عزوا أصله الي (لابلاس) ولكن جميع المفكرين قد ذكروه قبله ولا شيء أكثر انطباقا على العلم من هذا

فالطبعة الاولي لكتاب (لابلاس) على الحسابات الترجيحية هو مجموعة دروس القاها سنة ١٧٩٥ في مدرسة النورمال التي أسستها حكومة الثورة الفرنسية

و (عمانوئيل كانت) كتب سنة ١٧٨٧ في كتابه انتقاد العقل العملي مايأتي :

« اما وجهة الزمان وتتابعه المنتظم ، فاننا ان استطعنا ان ندخل الى روح انسان على الحالة التي يظهر انها عليها بأعمالها الباطنية والظاهرية ، وان نلم بجميع البواعث ، حتي

امفرها شأناه واعتبرنا فى الوقت ذاته جميع التأثيرات الخارجية، استطعنا ان نعرف السيرة المستقبلة لهذا الانسان، بمثل الدقة التي تحسب بها كسوف القمر اوخسوف الشمس »

على ان (كانت) نفسه ليس بمكتشف هذا التدليل، فانا نصادفه لدى اقدم المؤلفين الرومانيين اى (سيسرون) مثلا. فانه فى كتابه على (التنبؤ) كلف أخاه (كانتوس) ان يذكر الاتفاق التام بين رؤية المستقبل ومذهب الجبر فقال:

« لاجل أن يتحقق الانسان من صحة الانباء بالغيب، يجب ان يصعد في هذا البحث الى الله والى القدر والى الطبيعة. العقل يجبرنا أن نعترف بأن كل شيء محكوم بقضاء لامرد له. وأريد بالقضاء مارآه اليونانيون انه النظام، او تسلسل الاسباب المترابطة المنتجة لنتائجها. هذه هي الحقيقة الابدية التي لاينبوع لها الا الابد نفسه. وبناء على هذا الاصل فانه لاشيء يحدث في المستقبل الا وفي الطبيعة علله المولدة له. فيكون القضاء تبعاً لهذا، هوالسبب الابدى لكل الاشياء، السبب الذي يفسر الحوادث الماضية والحوادث الراهنة والحوادث المستقبلة. ومن هنا فانه بواسطة المراقبة يمكن معرفة ماهى نتائج كل سبب منها فى أكثر الحالات. ولا شك فى ان هذا التسلسل في الاسباب والنتائج هو الذي يكشفه الوحى والاحلام

ولنضف الى هذا انه لترتب كل شيء بالقضاء، اذا اتفق وجود انسان يصلح لادراك الروابط التي بين جميع الاسباب فانه لايخطيء قط. وفى الواقع انه يعرف الاسباب والحوادث، فلا يضل في معرفة الامور المستقبلة » انتهى

هذا الدليل في نفسه ناصع لاشية فيه، وأنا أكرر هنا بأن هذا يكاد يكون حقيقة من المسيو (دولابلاس). فاما انه لاتوجد نتيجة بلا سبب، فهذا واضح لايحتاج لبيان، ولكن استنتاج الجبرية الدينية أو الجبرية العلمية منه ليست من الوضوح في درجة هذا التدليل الساذج الذى أتى به الذوق السليم

وانى على الرغم من اعجابي العظيم بلابلاس بما تربيت فيه من المؤلفات، أعترف بأنى لاأستطيع ان اشاطره نفيه المطلق للاختيار الانساني. وقرائى يعرفون ما كتبته عن هذا الموضوع المعضل في مذكراتي اذ قلت:

« الارادة الاكثر حرية لاتستطيع أن تعمل بغير سبب موجب » نعم ولكن من بين الاسباب العامة فى الاختيار، شخصيتنا نفسها، وليس بسبب واه ومما يمكن اهماله

يقولون ان هذه الشخصية تعمل خاضعة للسبب الاقوى، وهي نفسها موجودة بأسباب سابقة . هذا أمر لانزاع فيه . ولكنها مع هذا كاموجودةومتأثرة بأخلاقنا . ومما يجب أن يعتبر أيضاً أمر رئيسي لايقبل الدحض، هوانا نشعر جد الشعور بأننا نختبر ونزن ونناقش أنفسنا عند ماتكون الحالة تقتضي ذلك، ونعزم بعد تقدير التبعة التى نشعر بأنها ملقاة علينا

انه ليتفق أحياناً وأنا أريد حصول ذلك، أن تكون كفتا الميزان متعادلتين فى أمر من الامور، وان احداهما ترجح بمجرد اضافة ثقل صغير اليها ، ولكن هذا الثقل الصغير قد يكون هوانا او شهوتنا او ارادتنا او مصلحتنا في مضادة نتيجة متوقعة . وقد يكون فى الواقع حبنا للتمتع بحريتنا الشخصية . فالقول بأن هذا وهم من عقولنا ، فلا يوجد شيء يسمح بتأكيد هذا الافتراض باعتبار انه حقيقة مقررة . فأصل (السبب الكافي) يعمل فينا عند ماتناقش انفسنا في ضمائرنا

فكوننا نعزم على الشيء مدفوعين بالسبب الاقوى، لايدل على اننا لانختار على مقتضى طبعنا . فارادتنا اشتركت مع هذا الطبع دون ان تكون اسيرته . وقد كتب ارسطو في رسالته عن السماء (٢ — ١٣) :

« ان هذا يشبه حالة رجل في أشد درجات الجوع والظمأ ، وموجود فى مكان على على بعد واحد بين جهتين، في احداهما طعام وفي الاخرى شراب . لانشك في أنه يبقى مكانه لايتحرك »

وقال (دانتي) مثل هذا القول في كتابه الرابع عن الجنة . ويقال ان (بوريدان) هو الذى ذكر هذا التدليل قبل غيره ولكنه افترض بدل الانسان حمارا

لايشك احد فى ان الانسان والحمار لن يموتا جوعا . إلا ان النظام الآلي هو السائد وحده في الطبيعة

هل يوجد تناف مطلق بين الانباء بالمستقبل والاختيار؟ هذا مايؤكدونه على وجه عام وهو ماأكده الكتاب الاقدمون والمحدثون على السواء

من الواضح الجلي أنهم اعتقدوا ذلك لأنهم خلطوا بين العلم الالهي بما سيكون، وبين الضرورة، وهذا ضلال مبين

في المحادثات التي جرت بين (غوث) و (ايكيرمان) في ١٣ اكتوبر سنة ١٨٢٥ قرأنا مايأتي :

« مايدرينا ولو بذلنا كل جهودنا العقلية الي أي حد وصلنا الآن ؟

« لم يخلق الانسان ليحل مسألة وجود العالم، ولكن ليتحقق من عظم هذه المسألة، وليقف بعد ذلك علي الحد الاقصى الذى أمكنه ادراكه

« فان خصائصه العقلية لاتصلح لقياس الحركات العالمية، والالمام بمجموع الاشياء الوجودية، مادام ليس لها غير وجهة نظر ضيقة. والعمل على نقيض ذلك عبث. والخلاف شديد جداً بين الادراك الانساني والادراك الالهي

« فاذا قررنا ان الانسان حر فيما يفعله، كان ذلك قادحا في احاطة علم الله بكل شيء. ومن جهة أخرى اذا كان الله يعلم ماسأعمله، فلن أكون حراً في أن أعمل خلاف مايعلم. وأنا لاأسوق هذه المحاورة العقلية الا لأضرب مثلا على قلة علمنا، ولنثبت انه لايحسن التعرض للاسرار الالهية »

. . . .

غوث لم يجسر علي الذهاب الى ابعد من هذا، فلنبحث في سبب ذلك

ان الحوادث والاحوال تقودنا على شاكلة أكثر كثيراً مما يظنه الناس على وجه عام. ومن يحلل بانتباه أعماله الحيوية يعترف بذلك بدون عناء. وخاصة الاختيار التي فينا لاتؤدي عملها الا في دائرة ضيقة جداً على حد مايقوله المثل القديم : « الانسان يتحرك والله يقوده» ولكن هذا ليس صحيحاً من كل وجه، فان الله أو القدر أو فاتوم، كما كان يسميه اللاتينيون *Fatum*، قد يترك لنا قليلا من الحرية. وهناك مثل

يناقض التقدم ، ولكل حكمة نقيض ، يدل على ماتذهب اليه نحن وهو: «ساعد نفسك يساعدك الله »

نعم ان الانسان يتحرك والحوادث تقوده ، ولكنا مع ذلك صناع مقادير نا الخاصة

وجملة القول ان الحقيقة ليست في مباحث مابعد الطبيعة التي تؤثر عن الفلاسفة المنقبين في تحتم القدر ، ولكنها في الشعور العام العملى الذى يمكن حصره في الحكمة العامة ذات الست الكلمات التي ذكرنها آنفا

تفسيري انا لهذه المسئلة يقتضى بحكم الاصل القائم عليه ان لا يبرح مجال المشاهدات المحققة، بدون التجأ الى اى افتراض كان. فاذا قيل لنا ان شعورنا بالاختيار وهم باطل، كان هذا منهم محض افتراض. فها أنا جالس أمام مكتبي أسائل نفسي عما أفعله، فأقابل بين عمل وعمل، وأناقش نفسي ثم أعزم على هذا أو ذاك. أترام يصارحونني بأنني مخدوع للاحوال الخارجية عن ارادتي . ولكنى أقول انه اذا لم يكن لى عقل تركت الحوادث تجرى كانشاء ، وتكون الحرية مقصورة على اختيار مايظهر انه الاحسن . الا ان هذا لايمكن الاخذ به على الطلاقه بل هو نسبي . فاننا قلقون على الدوام في أغراضنا. وقد تمر أيام لايجرى فيها شيء . هذا علم ناقص جداً ولكنه موافق لشعورنا الذي لانزاع فيه ، والذى لايجوز لنا أن نحذفه لنستعيض عنه بافتراض على انه واضح كالشمس في رائعة النهار . قد يقال ان هذا أمر ظاهري . نعم هو ظاهرى كالشمس أو كأحد المناظر الخلوية أو كشجرة أو ككرسي كبير أو كدار ، وهى الاشياء التي نعرفها بالتأثيرات التي تقع منها علينا ، ولكن هذا المنظر يختلط علينا بالواقع

على ان هناك مشاهدة يومية مستمرة لايمكن المشاحة فيها وهي اننا كثيراً ما نكون على حالة سلبية وليس لدينا عزيمة محدودة على عمل شئ . فيعترض علينا بأننا عند مانجادل انفسنا ثم نعتزم عمل شيء بعد انضاج الروية ، فما ذلك الا انقياداً منا للسبب ، الاقوى بحيث ان حريتنا المزعومة يمكن تشبيهها بميزان يهوي احدى كفتيه بتأثير الثقل الذى يوضع فيها

ولكن مما لامشاحة فيه اننا نعزم على ما نراه افضل متى ناقشنا أنفسنا بثبات، ووازنا بين المنافع والمضار بين أمرين من الامور. وهذا هو المجال الذى يعمل فيه عقلنا. ولا توجد سفسطة تستطيع ان تنتزع منا هذه العقيدة. واننا لنشعر بأننا لو فعلنا على عكس ذلك، لكنا مخالفين للعقل ومتى حدث منا أحياناً اننا عملنا على خلاف ما حكمنا بصوابه، شعرنا بأننا أجبرنا على ذلك اجباراً نسبيا

قد يرد علينا معارض فيقول : لاشك في اننا متمتعون بقسط من حرية العمل، فنستطيع ان نختار وان نعزم مقودين بالسبب الاقوى، فأين الاختيار المطلق في هذا؟ أليس كل منا مقوداً رغم أنفه بمزاجه وذوقه وآرائه وايثاراته؟ ومقودا أيضا بالاحوال المحيطة به وبتتابع الحوادث عليه ؟ فكيف الخلاص من هذه السلاسل؟ اننا نبدأ أعمالا حقيرة وجليلة دون أن نعلم الغاية التى ستتأدى بنا اليها . فليبحث كل منا في أمور حياته وليرَ مبلغ حريته من الضعف

فالانسان متورط في زوبعة القدر يتحرك وهو يقوده الى حيث شاء . وهذا القدر هو الروح العام الذي لسنا نحن ازاءه غير أدوات حقيرة . ولكننا نحن أرواح أيضاً

(لا يوجد اختيار مطلق ولكن يوجد اختيار نسبي)

مما لامشاحة فيه ان حريتنا أقل كثيرا مما يظهر للعقول السطحية . فان السر العالمي للوجود هو الذى يقودنا، لاننا نعيش تحت تأثير الحالة الفلكية والحالة الجوية والحرارة والبرودة والمناخ والكهرباء والضوء والبيئة المحيطة بنا والوراثات وما تعلمناه، ومزاجنا وصحتنا وقدرتنا وارادتنا الخ الخ، فحريتنا والحالة هذه تشبه حرية سائح على سفينة يزمع الانتقال من اوربا الى امريكا. فسياحته مقررة من قبل، ولكن حريته لا تتعدى مقدم السفينة، وهو يستطيع ان يذهب ويجيء على سطح الجارية على الماء، ويتحدث ويقرأ ويدخن وينام ويلعب الخ، ولكنه لايستطيع ان يخرج من داره المتحركة . فما سنراه في حياتنا مرسوم من قبل مثل سير اعضاء الآلة، وعلينا عمل مطلوب منا تأديته بشيء من الجهد الشخصي . وهذه الحرية المقيدة هي في الواقع محدودة جداً

ولكنها موجودة على كل حال . أتخيل انك على مائدة أحد أصدقائك ، وهو يهديك صنوفا من الطعام، وانت تستطيع ان تختار بين الشراب الابيض والشراب الاحمر، وبين ما يأتي من بورغونيا وما يرد من بوردو وكذلك تستطيع أن تميل الى شرب الجعة اوالماء القراح ، بعد معرفة استعدادك المعدى وبعد استخدام عقلك في هذا الاختيار

اذا راقبنا بعناية أصغر أعمالنا في ساعة من الساعات، رأينا ان حريتنا محدودة للدرجة القصوى، وان ما نعتزم عمله في الصباح عندما نستيقظ، يصرفنا عنه الف حائل، ولكن مع ذلك تتحقق عزيمتنا الرئيسية على قدر ما، ويؤثر اختيارنا تأثيرما في أعمالنا الكبيرة والصغيرة على السواء، أعمها تحدده الاحوال المحيطة بنا وارادتنا في وقت ما

يمكن للانسان أن يعتقد بامكان الانباء بالغيب دون ان يقدح ذلك في أصل الاختيار والتبعة الانسانية . فالوقت الحاضر لا يقف قط ، بل يستمر على الدوام باتصاله بالمستقبل . ولا بد دائما من حصول شيء، فهذا الحصول لا يصح أن يوصف بأنه كان حتما مقضيا، لان الارادة الانسانية لها نصيب في توليده باشتراكها مع تسلسل الحوادث ، ولان هذه الارادة متمتعة بحرية نسبية . فالذى نعزم عليه، يصبح أمراً واقعاً، ولكنها كانت تستطيع أن لا تعزم ، والمستقبل تبع الماضي ، فرؤيته لاتختلف أصوليا عن رؤية الماضي . وهذا الامر لا يمنع من الاعتقاد بأن الارادة الانسانية هي احدى أسباب حدوث الحوادث . وقد كان يمكن ان يحدث خلاف الحوادث التى حدثت، وهذه الحوادث المخالفة هي التي كانت ترى بخاصة رؤية المستقبل

ان ما يحدث من الحوادث هو نتيجة تسلسل العلل، وقد يكون من تلك العلل قوة انتقامية تأمر باطلاق الرصاص على خصومها، او قطع اعناقهم بالآلة المستعملة لذلك كما شهدت باريز ذلك من سنة ١٧٩٣ الى سنة ١٨٧١ (وكما رأيت أمثال ذلك في كل صقع من اصقاع كوكبنا الارضي الظريف) . وقد يكون من تلك الاسباب رجل محب للانسانية يتدخل في ثورة ليقف افراطاتها ويعدل سيرها . فالحوادث التي تحدث لا تمنع من ان يوجد الطيب والخبيث ، والجاني والمجني عليه ، والعادل والظالم والارعن

والمتروى ، والذكي والابله، والحربي والسلمي، والزائد والمسخرله ،والصوص،ومن وقعت عليهم عاديتهم

فرؤية ماسيحدث بتعاقب المسببات والاسباب بأية وسيلة من الوسائل، يمكن ان يتفق مع القول بوجود جميع العلل المحدثة لها، ومن بينها الحرية الانسانية

المستقبل ليس بأغمض من الماضي . فاذا قلت مذ اليوم ان حركة القمر حول الارض، وحركة الارض حول الشمس، تقضي بوجود كرتنا الارضية وتابعها والشمس على خط مستقيم مع فرنسا، على طريق ظل القمر في ١١ اغسطس سنة ١٨٩٩ في منتصف الساعة الحادية عشرة صباحاً، وسيدعو ذلك الي خسوف كلي للشمس، يرى في شمال باريز مدة دقيقتين فقط . ان قلت هذا القول مذ اليوم فلا يجد أحد في نفسه حرجا من هذا التنبؤ ، كما لايجد فيها شيئاً لو أنبىء بواسطة الحساب الرجعى عن ان خسوفا كلياً حصل للشمس في ٨ يوليو سنة ١٨٤٢ . ففي وقت حدوث خسوف سنة ١٨٤٢ الذى اشتهر بارصاد (اراغو) في مسقط رأسه، كان عمري اربعة اشهر واحدعشر يوما، وعند حدوث خسوف ١١ اغسطس سنة ١٩٩٩ سأكون مت منذ مدة طويلة ، ولكن هذا ليس له اقل قيمة ، فالمستقبل بالنسبة الي اليوم وبالنسبة اليك، والى جميع الاحياء المعاصرين ، سيكون الوقت الحاضر بالنسبة لآخرين ، ثم سينقلب فيصبح ماضياً

يمكن هنا ان يعترض معترض فيقول : ان تشبيه الحوادث الفلكية بالحوادث الانسانية ليس بصحيح . نظراً لانه لاتوجد أية حرية في حركات الكواكب، وان التحتم فيها مطلق . ولكنا نجيبهم بأنه اذا كان الاختيار الانساني من الاسباب العاملة، فنتائجها تكون محتمة الحصول كتحتم حوادث الكواكب

أما كون ان كل مايحدث هو نتيجة ضرورية لاسباب عاملة فذلك مما لاشك فيه، ومن بين الجنايات المتناهية في الفظاعة، حريق رومية ، واضطهاد نيرون للمسيحيين، وخرق الالمانيين لحياد البلجيك ، وقتلهم لاهالى البلاد ، وحرقهم لوفان ، وضرب كاتدرائية ريمس بالقنابل ، وفضائح المجازر البشرية في الحرب الاخيرة. ولكن كل عامل

يشترك مع الاسباب العاملة فى احداث الحوادث يكون عليه من القيمة بقدر حصته من التأثير والحوادث سلسلة آلية بما فيها

حُكم الاسقف (كوشون) على جان دارك بالحرق بتهمة السحر، وتقديس أساقفة آخرين لها وقيهم الكيماوي (لافوازيه) والفلكي (بيل) والشاعر (اندريه شينيه). والفيلسوف (كوندرسيه) وضحايا أقسى الثوريين وأشدهم تمسكاً في العماية، كل هذه الحوادث حدثت بتأثير الاسباب الموجبة ولكنها لم تكن محتمة الوقوع. فان سير الامور قد كان يمكن أن يتغير فيقع خلاف ماوقع. فمن القول بهذا الرأي الى القول بأن الانسان غير مسئول عما يفعل توجد هوة بعيدة الغور. فامبراطور المانيا الذى حل عقال الحرب فى سنة ١٩١٤، وكان سبباً في موت اثني عشر مليوناً من الكائنات البشرية، لايصح ان يسوى (بسان فانسان دوبول) ولم يكن اولهما ولا ثانيهما مسيراً كالآلة، ولا أسيراً فى يد القضاء المبرم

ان حذف الحرية معناه حذف كل تبعة، وكل مزية خلقية. والتسوية بين الخبيث والطيب، هو أمر يناقض ماغرس فى طبيعتنا من العلم الفطري اليقين. وفي هذه الحالة يجب علينا أن نرفض أوضح وأجلى مالدينا من الافكار

كل منا امامه حظ مجهول، ولكن الحوادث تتوارد كلها رغماً عن اختيارنا الشخصي الذي يختلف قوة وضعفاً باختلاف الناس، وقد تتوارد بسبب هذا الاختيار نفسه. وفي الحياة الانسانية كلهم يعملون على درجات مختلفة فتحدث لها نتائج

والعالم يشتمل على مجانين وعقلاء، وقد يكون عدد المجانين أكبر من عدد العقلاء، اذ المؤكد ان العقل لاسلطان له وخاصة على غير المالك

ومع وجود حظنا المجهول أمام كل منا، فكل واحد منا يعمل على حسب خصائصه وامكانه وتأثير المحيطين به ووراثته وعلمه وحكمه وعقله وقلبه، وهو متحقق بأنه متمتع بحرية نسبية وفي وسعه ان يعزم على اشياء. فنحن والحالة هذه صناع مقاديرنا ومسيروها

ومعها علمنا فان ساعة موتنا معينة من قبل. لماذا؟ لان جميع الحوادث تتعاقب

ومنها اهواؤنا وما نلقته من بيئاتنا وضعفنا وطيشنا وضلالاتنا، ومنها ايضا كل ماسيتحقق حولنا . ونحن نسلك في العادة على حسب امكاننا وبما تدركه عقليتنا . فلا يستطيع احدنا ان يحمل على الكذب رجلا قويم الاخلاق، ولا ان يدفع الشحيح الي السخاء . فعمل كل منا مهما كان محصوراً في دائرة خصائصه، موجود كثيره من الموجودات. وقد توجد امور يتطلب البت منافيها اسابيع واشهراً نمضيها في الفكر والقياس. وعليه فالحوادث متعلق بعضها ببعض ، ورؤيتها قبل حدوثها لايمنع هذا التعلق

يظهر لي ان المحلل النشط الحوادث النفسية (بوزانو) قد حدهذا التناقض الظاهري حداً ينطبق على حكم العقل اذ قال : لااختيار ولا جبرية مدة الوجود الجسدي للروح الانسانية، ولكن حرية مقيدة

وربما امكنك ان تعترض علينا قائلا : اذا كان مايحدث ضروري الحدوث فمن العبث ان يعذب الانسان نفسه لينجح في أمر من الامور، اوان يجد ليخرج فائزاً من مسابقة، أو يذهب ليحضر طبيباً لمريض، وان يكافح في خصومة الخ .

ان هذا الاعتراض يثبت بالتحقيق ان لعملنا تأثيراً في سير الامور . فمهما كنت جبريا فانك ستجري لاحضار طبيب ، وستدافع عن وطنك ضد المغير عليه ، وستستدعي رجال المطافيء لاطفاء حريق ، وستعمل على وقف النار التي بدأت تشب من جراء شرارة أصابت أوراقك في حجرة عملك الخ . ان لديك لعقلا وانك لتستخدمه . فاعتراضك لا يدل قط على ان ليس لديك ذلك العقل، ولا على انك آلة مسيرة

وأحسن دليل نملكه لاثبات حريتنا وخصيصتنا في الاختيار وفي العزم على الشيء بعد التروي فيه، هو شعورنا الصميم المطلق بأننا نملك هذه الخصائص، وهو شعور لا تستطيع أي سفسطة أن تطمسه . انك لتشعر شعوراً صحيحاً بأنك تستطيع أن تشير أية اشارة تريدها . قد يقولون لك ان هواك في رفع أصبعك مثلا سبقته سلسلة افكار متقدمة عليه ، ونحن نقول ان هواك هذا نفسه أمر واقع، وقد صدر من العقل الحاصل على حظه من الحرية

فالمستقبل تحدده الاحوال ومنها الحرية الانسانية، حتي احقادحيوان ضرب ظالمه وحتى ألوف من مؤثرات خاصة لايفكر فيها الانسان

فالشخصية الانسانية هي بعض الاسباب العاملة في سير الحوادث الارضية.هذا هو حل المسألة التي وضعها سيسرون وسان اجوستان ولابلاس واضرابهم

هنا يوجد فارق غاية في الدقة تنبه اليه لاجل عدم الوقوع في الخلط بين الترابط المحتم للحوادث الانسانية،وبين مذهب الجبر.فمايحدث من الحوادث لايكون بقضاء سابق ولو انه النتيجة الضرورية لاسباب . مثال ذلك رجل يضرب بجمع يده على ظهر مار متعجل في وسط مزدحم بالسابلة . كان يستطيع هذا الرجل أن لايضرب ، لأنه كان يتأتى أن لايخرج من بيته في ذلك اليوم ، وأن لايسلك ذلك السبيل،وكان يمكن أن لايكون الضارب له هنالك . فكانت الامور جرت في غير هذا المجرى . هذا كل ماقي المسألة . وخاصة كشف المستقبل ترى ماسيحدث من الحوادث بدون ان يكون هذا الكشف منافياً لخاصة الاختيار

ليس من التواضع أن يتكلم الانسان عن نفسه ، ولكن هذه المسألة يحسن تحكيم أنفسنا فيها . ولذلك أسمح لنفسي أن أضرب فيها مثلا أعرفه جد المعرفة : منذ سنين كثيرة كنت أجهد نفسي لانشر في العالم أجمع المعلومات الفلكية، وقد أصبت في ذلك بعض النجاح، وقد آتاني محبون عظام للعلم والتقدم بمساعدتهم لتأليف الجمعية الفلكية بفرنسا . فلا يوجد في العالم أحد يستطيع أن يمحو من ذاكرتي المكافحات المنوعة التي خضت غمراتها في هذا السبيل،وأن يقنعني بأنه لم يكن لى في هذا العمل أثر شخصي، بل كان لي أثر سّاقيه، وكل العاملين والمتطمين لهم مثل مالي فيما تم على أيديهم.فالارادة ليست كلة فارغة . وكل انسان يستطيع أن يفكر على هذا النمط فيما يخصه . فنحن نعمل والمستقبل يتألف من أعمالنا المتعاقبة . فليس هذا بالقضاء،والقدر بل هو نقيضه. فالقول بأن الانسان مجبر على مايفعل، هو قول البـلداء والمتواكلين الذين ينتظرون طروء الحوادث باعتبار أنها واقعة لامحالة، وعلى رغم أنوفهم . ولكنا على العكس نعمل ونعتقد اننا نؤثر في سير الحوادث . فلسنا منفعلين ولكنا فاعلون. اننا نبني بأيدينا

صرح المستقبل . فلا يجوز والحالة هذه الخلط بين الجبرية العلمية والجبرية الدينية. فان هذه تمثل الجمود وتلك تمثل العمل

والجبرى الدينى هو الشرقى ، هو التركي (؟) ولكن الجبرى العلمي هو الاوربى . وبين المدنيتين هوة بعيدة القرار

ورؤية المستقبل هو رؤية ماسيحصل فهي رؤية. ونحن فى علم الفلك نحسب مدار مذنب من المذنبات مثلا ، مداره الطبيعي أو النظري أو شكله البيضاوى ، بارابوليك أو الهيبربوليك في الفضاء . ولكن قد يحدث ان المذنب يمر بجوار كوكب عظيم تؤثر جاذبته عليه فيغير سيره ، فلا يكون تقديرنا لاوضاعه المستقبلة صحيحا الا اذا اعتبرنا هذا التأثير الذى سيعرض له

فكل المؤثرات تؤثر في الحوادث اليومية ، وأعمال الانسان من المؤثرات التي لايجوز اهمالها كما لايجوز اهمال تأثير الكوكب في المذنب الذى ضربناه مثلا وان كانت حاصلة علي شيء من الاستقلال

فليس من المستحيل والحالة هذه التوفيق بين شعورنا بالحرية ، وبين خاصة الانباء بالحوادث المستقبلة

فلنفترض مراقبا يقوم على قمة جبل يمتد فى أسفله سهل فسيح ، يرى رجلا يتبع طريقا يؤدى الى قرية. فيخمن ان هذا المسافر يقصد هذه القرية لقضاء مهمة من المهام. ففى أي شيء من هذا تتعارض رؤية مايعمله مع حريته الشخصية

ان اختيار العامل لايتعارض مع رؤية المراقب له . وكذلك الرؤية لحادثة مستقبلة لاتؤثر علي هذه الحادثة . فاذا رأينا من قمة الجبل الذى ذكرناه قطاران يجريان بأقصى سرعة ، احدهما ضد الآخر من جراء خطأ فى تحويل القضبان ، علمنا من ذلك ان كارثة ستقع لامحالة لهذا السبب . ولكن رؤيتنا المستقبلة لتلك الحادثة لم تكن من أسباب حدوثها فى شيء . فمسألة الرؤية اجنبية جدا عن مسألة حدوث الحادثة

فرؤية الحوادث متعاقبة فى المستقبل ، كرؤيتها قد تعاقبت فى الماضي ، لاتنافى الاسباب المحدثة لها التي أثرت فيها ، ومن هذه الاسباب الارادة الانسانية

ألم يحدث لك أحيانا وأنت تقرأ رواية أن تتنبأ بتتمة الحكاية؟ أليست المهارة العظمى للكاتب هي في اعطاء الاشخاص الخياليين في روايته من مظاهر الحقيقة ما يجعل القارئ لروايته يهتم كل الاهتمام بها بحيث لا يطيق الصبر على جهل نهايتها

***

من مجموع هذه الاعتبارات يمكننا، فيما يظهر لنا، أن نستنتج نتيجة لازمة لها وهي ان مسألة النظر الذاتي للحوادث المستقبلة من الكبر والضبط ، بحيث ان افتراض حصولها بالاتفاق أصبح لا قيمة له على الاطلاق ويجب لفظه بلا هوادة . فان هذا النظر الذي يفوق الشعور العادي أصبح لا غبار عليه من الشك عند الذين درسوه دراسة كافية . نعم قد عجز العلم عن تفسيره في الوقت الراهن ، ولكنه لا يبطل الحرية الانسانية

فرؤية الامور المستقبلة رغماً عن مظهرها، ورغماً عما يعتقده فيها الفلاسفة الذين لم يدرسوها دراسة كافية، ليست منافية للحرية الانسانية ولا للاختيار، مهما توسعوا فيه وأبتعدوا من حدوده . فالانسان يرى ما يحدث مع حذف الزمان الذى ليس له وجود في الواقع ، لانه نتيجة عرضية لحركات الكوكب الذى نعيش عليه . فبحذف الزمان لا نكون قد حذفنا الا مظهراً من المظاهر . وبهذا الاعتبار فالانسان يري ماسيحدث كما يستطيع أن يرى ماحدث . واذا كانت الارادة أو الهوي أو الاحوال قد أوجبت حدوث شيء آخر فالذى يرى هو ذلك الشيء . فرؤية المستقبل لا تؤثر في الحرية الانسانية كما لا تؤثر فيها معرفة الماضى

فالزمان في الفضاء المطلق ليس بموجود. فاذا كانت الارض تدور بضعف السرعة التي تدور بها الآن كانت الايام على نصف ماهي عليه الآن . فهذه المقاييس نسبية وليست أصلية، فلا نخلطن بين تعاقب الحوادث وهى ماينتج منها الزمان بالنسبة لتأثراتنا البشرية، وبين المطلق في اطلاقه . وعلم الفلك قد فتح أعيننا لنظر هذا الفارق بين الامرين . فانظر الليلة مثلا الى الكواكب سيروس وفيجا والدبران ترها لا كما هي عليه في الواقع، ولكن على ما ليست عليه ، أي على ما كانت عليه الاولى قبل ثمان سنين،

والثانية قبل عشرين سنة، والثالثة قبل اثنين وثلاثين سنة . فحاضرنا نحن موجود وماضيهم في وقت واحد . وقد شهدنا حريقاً في السماء في ٢٢ فبراير سنة ١٩٠١ حدث في سنة ١٥٥١ . فالكواكب التي تراها في الوقت الحاضر لاتوجد في الواقع. والزمان الحاضر لجوبيتير وساتورن ليس بالزمان الحاضر للارض

اعتاد علماء مابعد الطبيعة ان يشركوا بين الزمان والمكان الذين تربطهما في الواقع روابط، وأن يعزوا اليهما خصائص مشتركة، وهذا خطأ ، فالمكان موجود في ذاته وهو مطلق وأبدي وغير محدود وان كان فارغا لان الفراغ في نفسه مكان محض . وأما الزمان فعلى عكسه لاوجود له في ذاته . فهو موجود بوجود حركات الكواكب وتعاقب الاشياء . فاذا كانت الارض ثابتة، والكواكب غير متمتعة بأية حركة، فلن يوجد زمن قط ولكن يوجد مكان . ففى المكان العام المطلق لا يوجد زمان مابين الدنياوات

وقد تصادفت منذ خمسين سنة أكثر من مرة عن هذه المسألة مع فلاسفتنا المعاصرين ، فوجدت أكثرهم يؤثرون تضحية الانباء بالمستقبل في سبيل الحرية الشخصية، ولم يتخيلوا انه يمكن ان يوجد اتفاق بين الاثنين. وأنا أؤمل أن أكون قد وفقت بينهما هنا . وعلى كل حال لايجوز، بل لايمكن انكار الحوادث المثبتة بالمشاهدة. فلنعد الى هذه الحوادث

لم تنشر الترجمة الفرنسية لكتابات الفيلسوف الالماني شوبنهور عن المغناطيس الحيواني والسحر الا في سنة ١٩١٢ . وقد كانت نشرت في المانيا سنة ١٨٣٦ وكذلك ترجمة ماكتبه عن الارواح وعن الرؤي المثبتة بالمستقبل مع ان أصلها نشر في برلين سنة ١٨٥١ . فاليك ماكتبه الفيلسوف في ذلك المؤلف :

« تنبيء الاحلام غالباً عن حوادث هامة وأحيانا عن أشياء تافهة لاتلفت لحقارتها نظر المفكر . وقد تحققت أنا نفسي من ذلك بتجربة لايمكن دحضها . وأريد اليوم نشر هذه التجربة لأنها توضح في وقت معاً الضرورة القاهرة لحدوث الحوادث على ماهى عليه حتى ماكان منها عرضياً جداً . كنت أكتب ذات صباح بعناية عظيمة

كتابا طويلا هاما باللغة الانكليزية خاصاً ببعض الشئون . فلما انتهيت الى الصفحة الثالثة منه دخلت، فأخذت الدواة بدل وعاء الرمل وصببتها على الكتاب . فسال المداد من على المكتب الى الارض، فحضرت الخادمة باشارة الجرس الذي قرعته ومعها دلو من الماء، وأخذت تمسح خشب الارض لترفع عنه البقع . وقالت لي وهي تؤدي هذا العمل، قد رأيت الليلة في منامي اني أرفع من هذه الحجرة بقعاً من الحبر بحك أخشابها

«قلت لها : « ان هذا غير صحيح»

«فأجابتني بقولها: «هذا صحيح وقد حدثت بهذا المنام الخادمة الاخرى التي تنام معي »

«فدخلت الخادمة الاخرى المذكورة اتفاقا، وكان سنها سبع عشرة سنة لتنادي الخادمة التي ترفع البقع . فتقدمت اليها وسألتهـا : « ماذا رأت صاحبتك في منامها الليلة» فأجابتني قائلة : «لاأدري» . فقلت لها ومع ذلك فهي تقول أنها قد حدثتك عنه عند يقظتها. فقالت الشابة عند ذلك : « نعم،أنها رأت أنها ترفع من هذه الحجرة بقعة من الحبر على خشب الارض »

«ان هذه القصة التي أضمن صحتها المطلقة، تجعل صحة المنامات التي من هذا القبيل لاتحتمل الشك . وليس بأقل قيمة من ثبوت صحتها كونها تتعلق بحدوث أمر يمكن أن يوصف بأنه غير ارادي، لانه حدث رغماً عن ارادتي، وهو نتيجة خطأ صغير ارتكبته يدي.ومع هذا فقد كان وقوع هذا الامر ضروريا ومحدداً تحديداً لايمكن تخلفه، بحيث وجد على صورة منام قبل حدوثه بساعات في وجدان انسان آخر من هنا يتجلى بأوضح مايمكن ان يكون صدق نظريتي وهي : كل مايحدث من الحوادث لابد من وقوعه ولا يمكن تخلفه » انتهى

انا ما كنت لاجعل هذا المنام في عداد براهيني الحسية، وكنت القيت بعفي باب الامور المشكوك فيها (لان شهادة الخدم تكون دائما مريبة، وكثير منهم يحبون أن يخدعوا ساداتهم) لولاان راويها شوبنهور نفسه، وانه ساقها دليلا على اعتقاده بوجوه

الضرورة القاهرة . وقد أعلن انه مقتنع بصدق خادمتيه وعنده ان صحة الرؤي المنبئة بالمستقبل لاتحتمل أى شك

ولكنه أخطأ فى تفسير هذه الحادثة المنامية . فانه لم يكن قط يحبر أعلى قلب دواته. وقد رؤيت الحادثة قبل وقوعها لانها قد حدثت ليس الا

وقد اذكرتني حادثة خادمة الفيلسوف الالماني حادثة لخادمة أخرى رويت في مجلة (ويبر سنليخ ويلت) *Uebersinnliche Welt* البرلينية التى صدرت في شهر اغسطس سنة ١٩١٤ وهى رؤية تشبه الرؤية المتقدمة وهى :

« المسيو بوخبرجر مستشار وزارة الحقانية كان في (اوبرميه) فرأى فى منامه حوالى الساعة الخامسة أنه يرى داره التى في (اولموتز) ، وان ثياب خادمته تحترق ويصب عليها الماء . ثم رأى هذه المسكينة وقد ابيض جلدها ثم استيقظ

« وبعد زمن قصير عاد المسيو بوخبرجر الى داره. فأخبرته امرأته ان الخادمة قد ماتت متأثرة من حروقها، وكان ذلك في اليوم الذي رأى فيه منامه المتقدم، ولكن في الساعة العاشرة صباحا وكانت تسخن ورنيشاً فالتهب وصب عليها الماء حتى طفئت النار ثم نقلت الي المستشفى وهناك توفيت بعد أيام » انتهى

مما يجب ملاحظته ان هذا المنام حدث في الساعة الخامسة صباحا ووقعت الحادثة في الساعة العاشرة ، فهي تشبه حادثة شوبنهور من كل وجه

وهذه القصة موقع عليها بتوقيع المسيو بوخبرجر مستشار وزارة الحقانية في جراز ووشر لبرج

الامر الرئيسى الذي يجب أن يدهشنا وأن يحصل في نظرنا على صفة الحقيقة الناصعة هو ثبوت هذا الامر المخالف للعرف ، وهو ان المستقبل الذى لم يوجد بعد ، والذي سيوجد بتسلسل طائفة من أسباب صغيرة متعاقبة يمكن ان يرى كأنه قد وقع فعلا

الامر الذى يجب أن يحير ألبابنا ويحصل في نظرنا علي الثقة به هو هذا الامر المخالف للمعهود من ان المستقبل الذي لما يوجد ، والذى سيحدث من تسلسل أسباب

ثانوية متعاقبة يمكن مع هذا كله رؤيته كأنه قد وقع فعلا

والمستقبل لا يرى فقط في المنامات الانبائية ولكن في بعض حالات نفسية ايضا صعبة التحديد . من أغرب الامثلة التي أعرفها عن رؤية الامور المستقبلة بالضبط ، هي الحادثة التي أوردها العالم زميلي في المجمع العلمي للمباحث النفسية الدكتور (جوليه) الذي يعرف قرائي أعماله العلمية حق المعرفة . واليك هذه الحادثة كما هي منقولة عن مجلة (التاريخ السنوى للعلوم النفسية) الصادرة فى اكتوبر سنة ١٩١٠ قال:

« في ٢٧ يونيو من سنة ١٨٩٤ ، نحو الساعة التاسعة صباحا ، كان الدكتور (غاليه) لايزال طالب طب في ليون ، وكان يدرس في حجرة مع زميل له هو الآن الدكتور (فاريه) الطبيب في مدينة (انيسى)

« كان (غاليه) اذ ذاك مشغولا جداً بتحضير امتحان أظل وقته ، وهو الامتحان الاول للحصول علي شهادة الدكتوراه . وكان لايفكر في شيء غيره وخاصة السياسة ، فكان يكتفي بالقاء نظرة عجلي علي الجرائد ، ولم يتحدث عن وشك انتخاب رئيس الجمهورية فى الايام السابقة علي ذلك اليوم . وهو موعد انتخابه ، الا عرضا وبغير اهتمام ، وكان المقرر له ان يجتمع مؤتمر الانتخاب ساعة الزوال في فرساي

« فبينما هو مكب علي درسه ، اذ طرأت عليه فكرة اضطرارية ، وأحس بأن عبارة غير منتظرة انطبعت في ذهنه بحيث لم يتمالك نفسه من كتابتها علي كناشته (مذكرته) وتلك العبارة هي بنصها : (انتخب المسيو كازمير بريه رئيساً للجمهورية بحصوله علي ٤٥١ صوتاً)

« حصل هذا ، ولا بأس من تكراري هذا القول ، قبل انعقاد المؤتمر . ومما تجب ملاحظته ، وهو غريب ، ان هذه العبارة التى انطبعت في ذهن الدكتور (غاليه) انطباعا واضحاً جداً ، تشير الى الزمن الحالي لا المستقبل

« دهش (غاليه) مما حدث له ، فنادى زميله (فاريه) وناوله الورقة التي كتب عليها تلك العبارة

« فقرأها (فاريه) وهز كتفيه . وبما ان صاحبه كان مهتما جداً بهذه الحادثة ، ويلح

عليه مصرحا بأنه يرى فيها نبوءة رجاه بشيء من العنف أن يدعه يشتغل في هدوء

« بعد الغداء خرج (غاليه) ليحضر درساً فى الجامعة، فصادف فى طريقه طالبين آخرين أحدهما الدكتور (بوشيه)، هو الآن طبيب فى (كروزى)، وثانيهما المسيو (دورن)، هو الآن صيدلاني في (تونون)، فأخبرهما بأن (كازمير بريه) سينتخب رئيسا للجمهورية بحصوله على ٤٥١ صوتا. وألح فى تأكيد ذلك لهما مراراً، رغماً عن ضحكهما منه، واستهزائهما بنبوءته

« وعند الخروج من الجامعة، تقابل الاصحاب الاربعة وذهبوا يتناولون بعض المرطبات على سطح قهوة مجاورة. وفى هذه اللحظة وصل باعة الجرائد يبيعون ملاحق منبئة بنتيجة الانتخاب لرئاسة الجمهورية، وهم يصيحون انتخب المسيو كازمير بريه رئيساً للجمهورية بـ ٤٥١ صوتا » انتهى

مما لاشك فيه اننا نصدق الدكتور (جوليه) متى قال، ولكنه أراد أن يضيف الى ماوراه أسانيد لاتقبل الجرح وهي شهادات الشهود وهم

(أولا) الدكتور (فاريه) الطبيب الداخلى لمستشفيات ليون سابقا

(ثانياً) شهادة المسيو (دورن) الصيدلاني فى تونون

(ثالثاً) شهادة الدكتور (بوشيه) الطبيب فى كروزى

فليس في مكنة أحد والحالة كما ترى ان ينازع في صحة هذه الحادثة. ويجمل بنا أن ننبه على ان انتخاب المسيو كازمير بريه، الذى لم يحصل الا على أكثرية ٢٨ صوتاً، كانت غير متوقعة، وكان المنتظر انتخاب المسيو بريسون أو المسيو دبوي. فافتراض ان هذه النبوءة نتيجة الاتفاق (أى الصدفة)، يزيد كما هو ظاهر عن حدود التشكك المعقول

وقد أرسل لي العلامة مدير مجلة (التاريخ السنوي للعلوم النفسية) المسيو سيزار دوفيسم في سنة ١٩٠١ النبوءة الغريبة الآتية:

« في الايام الاولي من سنة ١٨٦٥ ذهب رجل اسمه قسان ساسارولى ليعيش في قرية سارتيانو التى يسكنها ٦٠٠٠ نسمة

« وبما انه كان يوجد في تلك القرية جوقة موسيقية متقنة،مؤلفة من ٣٤ شخصاً، ومديرها المسيو جوزيف فرونتيني وكان مضطراً للفرار منها لاسباب سياسية،دعاه ليتولى ادارتها مكانه

« فقبل المسيو ساسارولي الطلب، وقُدم الجوقة فى صالة الدرس في الطبقة الثالثة من دار القس (دوم باشيريني) . وبعد تكرار الادوار الموسيقية بحضرة جميع أفراد الجوقة ،أعلن المسيو ساسارولي بأن الطبقة التي هم فيها ستنهدم مع سائر البناء ،من أول الحجر التي بالسطح الى الدور الاسفل . وأضاف الى ذلك بأنه يري انقاض الدار تغمر جميع الحاضرين وتسحقهم وهو من بينهم

« فما أتم كلامه حتى أخذ بعضهم ينظر الي بعض دهشين، وهم يتساءلون عما اذا كان المدير الجديد يمزح،او حدث له جنون . ولكن المسيو ساسارولي لم يعبأ بدهشتهم وثبت علي مايدعيه، معينا اليوم والساعة التي ستحقق فيها النازلة

« حيال هذا التأكيد لم تشك الجماعة في خبل هذا المسكين،وانسحبوا وهم يتغامزون، وانتشر خبر هذه النبوءة في القرية ، وصارت مثيرة للضحك والسخرية

« فلما آنس المسيو فرونتيني ان ساسارولي صار أضحوكة لدى الجميع، وتحقق ان هذه الفكرة الثابتة لديه ربما أدته الي الجنون، أخذ يعيد اليه رشده بكل مايستطيع من جهد .فاتفق مع القس جوزف باشريني وعرض البناء من أول السطح الي الاساس على مهندسين خبراء ،فأجمع الجميع علي ان البناء خال من كل خلل . فتقوى المسيو فرونتيني بهذا الحكم ،وقصد المسيو ساسارولي وأراه اياه، ناصحاً له أن لا يصر على نبوءته الجنونية، ومتمنياً له أن يعيش بقدر مايعيش البناء المذكور

فكان اصرار صاحب النبوءة على مايقول، بعد صدور هذا الحكم، مؤيداً للناس مايظنونه من جنون المدير الجديد ، وابتدأوا يراقبونه خشية أن يدفعه جنونه لاتيان أمر ذي بال . وصار حديث الناس فى القهوات والامر دائراً حول هذه الحادثة التي أصبحت أضحوكة الجميع في القرية

« جاء اليوم العظيم المنتظر . ولما كان مساء ذلك اليوم معينـا لترديد الدروس

اجتمع الموسيقيون كعادتهم في الصالة، وأخذوا وهم ينتظرون الرئيس يهزأون به. فما علم المسيو ساسارولي أن حضر، ولم يرد أن يسمع كلمة واحدة عن عمله في هذا المساء لانه كان مضطربا من قرب ساعة الحادثة، واجتهد في أن يحمل الحاضرين على اخلاء المكان . وكان وهم نازلون على السلم الموضوع تحت القباب العظيمـة التي تسبق غيرها، لايفتر عن أن يكرر لهم قوله : «ارجوكم أن تنزلوا بخفة فان ثقلنا جميعا يمكن ان يعجل وقوع الحادثة»

« يستطيع كل انسان أن يتخيل النكات والضحكات التي تنبعث من ٣٤ شخصا يعتقدون جميعهم أنهم انما يتبعون رجلا به جنة، وانهم يأتون بعملهم هذا أمراً موجباً للسخرية . فلما تم خروجهم الى الشارع ، لم تمض هنيهة حتى انهارت الدار على نفسها في الساعة المعينة . فليقدر كل انسان مبلغ ما تحدثه هذه الحادثة من التأثير العميق في القرية برمتها

« والتقرير الذي نلخص منه هذه الحادثة كتبه المسيو فرونتيني بنفسه ، وكان ابوه ، وهو رئيس المجلس البلدي للقرية، أول من خف لتهنئة المسيو ساسارولي في اليوم التالي لوقوعها . ومع هذا التقرير ثلاث شهادات (اولها) من جميع افراد الاسرة التي يسكن معها المسيو ساسارولي . و (الثانية) من حارس التياترو . و (الثالثة) من الاسرة المقيمة بالدار المجاورة للتياترو، وكلها تشهد بصحة هذه النبوءة» انتهى

كيف يقيم الانسان على شكه امام هذه الحادثة المحققة على وجه مطلق؟ ألا ينطبق على المنكرين قول الكتاب المقدس : «لهم أعين ولكنهم لا يبصرون، ولهم آذان ولكنهم لا يسمعون» فماذا يفيد الانكار ، الانكار المستمر ومهما كانت الحال؟

من أشد الامثلة التي اعرفها تحييراً للعقل، واكثرها غرابة ، واعظمها دلالة في باب الكشف المغناطيسي هو ماذكره الدكتور (الفونس تيست) في رسالتـه العملية على المغناطيس العام . ليست هذه المشاهدة مما وقع امس، فان هذه الرسالة نشرت في سنة ١٨٤١ ولكن هذا لا يقلل من قيمتها ، لان الزمن لا يؤثر في صحة الامور كما يقول (موليير) فاليك هذه المشاهدة الغريبة :

« كنت أنوم في يوم الجمعة ٨ مايو الماضي مدام (هورتنس م.) فكانت فى هذا اليوم على اشد ماتكون كشفا . ولم يكن معنا غير زوجها فظهرت مشغولة البال بستقبلها الشخصي ، وقالت لنا ضمن ماقالته من الامور غير المنتظرة

« أنى حبلى في خمسة عشر يوما ، ولكني لن اضع فى الوقت الطبيعي وهذا ما أشعر منه بكدر محرق . ففى يوم الثلاثاء القادم ١٢ الجارى ، سأخاف من شيء واسقط على الارض ، وسيجر ذلك الى اجهاضي »

« وأنى لأعترف رغما من كل مارأيته سابقا ، بأن امراً واحداً من هذه النبوءة كان يحير عقلي

« فسألتها بمظهر من الاهتمام لم يمكني اخفاءه قائلا : ماالذى سيخيفك ياسيدتى ؟

« فأجابت لا أدري

« فسألتها : ولكن أين يحدث لك ذلك ، وفى اى مكان تقعين ؟

« قالت : لااستطيع ان اعينه لأني لا ادريه

« فسألتها : الا توجد وسيلة تتجنبين بها كل هذا ؟

« قالت : لاوسيلة

« قلت لها : حتي ولو لم نتركك وحدك ؟

« قالت : هذا لن يكون له أدني تأثير في منع وقوعه

« قلت لها : وهل تقعين في مرض شديد بسبب ذلك ؟

« قالت : نعم مدة ثلاثة ايام

« فسألتها : أتعرفين على وجه التفصيل ماستحسين به ؟

« فأجابت قائلة : فى منتصف الساعة الرابعة من يوم الثلاثاء وعلى اثر الخوف الذي سيعتريني ، سأشعر بضعف يستمر معي ثماني دقائق ، ثم تلم بي آلام شديدة جهة الكليتين تدوم بقية اليوم ، وتمتد الى الليل . وفي صباح الاربعاء سيبدأ النزيف ويتزايد بسرعة ويكون غزيراً جداً . ومع هذا فلا يجوز القلق عليّ من جراء ذلك ، لانه لن يميتني . وفي صبيحة الخميس ستتحسن صحتي كثيراً وسأستطيع مغادرة سريري نهاري كله

تقريبا . ولكن في منتصف الساعة السادسة من المساء سيعاودني النزيف ويعقبه هذيان . وفى ليل الخميس الي نهار الجمعة ستكون صحتي جيدة، ولكن في مساء الجمعة سأضيع عقلى

« ثم سكتت مدام (هورتنس). ونحن وان لم نصدق كل ماقالته، أصابنا تأثر شديد، حتي اننا لم نستطع ان نعاود سؤالها . ولكن زوجها تأثر تأثراً كبيراً، فسألها بلهف لا يمكن وصفه عما اذا كانت ستبقى مجنونة مدة طويلة ؟

« فأجابته بهدوء تام قائلة : ثلاثة ايام

«ثم اضافت الى ذلك بهدوء مفعم بالظرف : «لاتقلق فانى لن ابقى مجنونة ولن اموت بل سأتألم فقط »

« ايقظنا مدام هورتنس ولم تذكر شيأ مما حدث لها، كما كانت العادة، فلما اختليت بزوجها أوصيته بأن يكتم، وخاصة امرأته، الحوادث التي قد تكون وهمية ولكنها تقلقها كثيراً اذا عرفتها . وفوق هذا فان كتمانها يكون في مصلحة العلم، فوعدنى بأن يكتمها. واني خبير بأخلاقه الي حد استطيع معه ان أؤكد بأنه وفى بما وعد . اما انا فقد اخذت في مذكرتي كل هذه التنبوءات . وفي اليوم التالى كاشفت بها الدكتور (اميديه لاتور)

« اقبل الثلاثاء الموعود ، وكان كل مايشغلني ان اعرف الامر الذى ستذعر منه (مدام هورتنس) . فلما قدمت اليها وجدتها تتغذى مع زوجها، وظهرت لى على أتم ما يكون من اعتدال المزاج

« فقلت لها وانا داخل ياصديقيّ العزيزان سأكون لديكما الي المساء اذا لم يكن هذا يثقل عليكما

« فقالت مدام هورتنس : علي الرحب والسعة ، ولكن على شرط ان لا تتكلم كثيرا عن التنويم المغناطيسى

« فقلت لها ياسيدتى لن اتكلم عنه قط اذ تفضلت فقبلت التنويم لاجلي عشر دقائق فقط

« فقبلت اقتراحي ، وبعد زمن من الغداء أنمتها
« فسألتها كيف تجدين نفسك ياسيدتي؟
« فأجابت : على احسن حال ياسيدي، ولكن لن يطول ذلك
« فسألتها وكيف ذلك ؟
« فرددت عبارتها الفظيعة التي قالتها يوم الجمعة وهي : فيما بين الساعة الثالثة والرابعة سيحدث لي ذعر من شيء ، فأقع ويجر ذلك الى ضرر عظيم
« فسألتها : ماالذي سيحدث لك ذلك الذعر ؟
« فقالت : لا أدري
« فقلت لها : اجتهدي في معرفته
« فقالت : لا ادري
« فسألتها : أين الشيء الذي سيذعرك ؟
« فقالت : لا ادري
« فسألتها : ألا توجد وسيلة لتنجيتك من هذا القضاء الحتم ؟
« قالت : لاتوجد وسيلة
« فقلت : سأكون هذا المساء قادراً على نقض قولك هذا
« فقالت : ستكون هذا المساء يادكتور قلقاً على صحتي. سأكون مريضة جدا
« فلم اجد ماأجيبها به في تلك اللحظة ،ولا محيص لي من الانتظار،فأخذت انتظر
« ولما ايقظتها في دقائق قليلة،لم تذكر مما جرى شيئاً . وكان وجهها مكفهرا من الصور المزعجة التي رأتها وهي نائمة، وما لبث ان عاد اليه صفاؤه العادي ،ثم اخذت فيما كانت فيه قبل ان تنام من الحديث والمزاح،بدون ان يكون في ذهنها شاغل يشغلها. واستمرت تتابع نكاتها الرقيقة التي كانت طبيعية لها ،وكانت هي تحسن ايرادها . اما انا فقد كنت في حالة عقلية لااستطيع ان اصفها،وكنت مستغرقا في ظنون وفروض كانت تزعزع ايماني احيانا ، وكنت اشك في كل شيء حتى في نفسي
« وكنا ، ونحن عاقدو النية على عدم تركها ثانية واحدة ، نراقب اصغر حركاتها.

واقفلنا النوافذ اقفالا محكما، خشية من ان حادثا يطرأ في الشارع او في الدور المجاورة فيكون سببا في تحقيق النبوءة . وكنا اذا دق الجرس يقوم احدنا لاستقبال القادم في الحجرة المجاورة

« ولما اجتازت الساعة قليلا النصف بعد الثالثة قامت مدام هورتنس عن الكرسي الكبير الذي كنا اجلسناها فيه وهي معجبة بالرعايات التي رأت نفسها محاطة بها منا وقالت لنا :

« أتسمحون لي ياسيدي بأن أختلس نفسي دقيقة واحدة من عنايتكما التي لا أدرك سببها ؟

« فقلت لها بمظهر من القلق لم نستطع اخفاءه : اين تريدين ان تذهبي ياسيدتي؟

« فقالت : ياللعجب ، ماذا أصابك ياسيدي ، اتظن في عزمي ان اقتل نفسي؟

« فقلت : لا ياسيدتي ولكن . . .

« فقالت : ولكن ماذا ؟

« فقلت : ولكن ماذا ؟ وقد احسست من نفسي الميل لعدم الكتمان، ولكن لان صحتك تهمني

« فقالت وهي تضحك اذن فأنت أجدر أن تتركني أخرج . . .

« ففهمت (يريد انه فهم أنها تريد المرحاض)

« رأيت ان الداعية قاهرة، ولا توجد وسيلة للالحاح عليها ، ومع هذا فان صاحبي اراد ان يبلغ اقصى مايستطيعه فقال لامرأته:

« أتسمحين لي ان اصحبك الى هناك ؟

« فقالت ماهذا ؟ أبينكما مراهنة ؟

« فقلت لها: نعم ياسيدتي أنها مراهنة واني متحقق من اني سأكسبها وان كنت قد اقسمت انك تخسريني اياها

« فأخذت مدام (هورتنس) تنظر الى كل منا ، وهي حيرى، ثم قبلت ذراع زوجها وهو مده اليها وخرجت وهي تضحك مقهقهة

« وكنت انا اضحك ايضا ولكنى كنت احس بأن الساعة الموعودة قد أتت، وكنت معتقداً ذلك الى حد ان تلك الفكرة كانت تتملكني، ولم افكر فى ان اعود الي اللهو الذي كنا فيه، وبقيت كأني بواب علي باب الحجرة المجاورة لا ادري ماذا اصنع

« فما هى الا لحظة حتى سمعت صرخة حادة وصوت سقوط جسم على دهليز السلم، فصعدت وانا اجرى فرأيت علي باب المرحاض صاحبي ممسكا بامرأته بين يديه، وهي في حالة تشبه حالة النزع

« فتحققت أنها هى التى صاحت، وان الصوت الذى طرق أذنى هو صوت سقطتها، وكان الذى حدث هو أنها ساعة تركها الفراغ زوجها لتدخل الى المرحاض ترامت لها فأرة، ولم يشاهد هناك فيران منذ عشرين سنة، فحدث لها ذعر بلغ من الحدة والفجاءة الي حد انه تسبب في سقوطها على ظهرها، دون ان يتمكن احد من امساكها

« فتوالت بعد ذلك جميع الحوادث التي اخبرت عنها وهي منومة

« فأضاف الدكتور (تيست) الى ماسبق ذكره قوله فمن الذى يجرأ بعد وقوفه علي هذه الحادثة ان يضع حداً للممكنات، اوان يعرف حقيقة الحياة البشرية ؟ » انتهي

لايستطيع انسان ان يشك فى صدق هذا المؤلف . ولقد أدهشته هذه المشاهدة الكشفية المحيرة للعقل ادهاشا لانمالك أنفسنا من ان نشاركه فيه . فانكار كل مايقال، كما يفعله أكثر الناس، هو بمثابة انكار التاريخ الانساني كله

أليس لى الحق فى أن أقول بأن هذه المشاهدة (يريد المشاهدة المتقدمة) اعجب جميع المشاهدات التي ندرسها الآن، وهى من الصحة بمكان عظيم جداً . لا محل هنا للاعتراض المبتذل وهو الاتفاق (الصدفة). وقد يستطع المعترضون ان يفترضوا ان المنومة قد أوجدت بتصورها المريض من طريق التلقين الذاتي كل ماأنبأت به، وانها هي التي خلقت هذا المستقبل لنفسها بنفسها، ولكن ماأوهي هذا الاعتراض ؟

على انه لايفسر الحادثة السابقة وهى أنهيار التياترو على نفسه، ولا يعلل المشاهدة الآتية أيضا:

نعم لايجوز للانسان ان يقبل روايات الذين يخبرون عن انفسهم انهم رأوا حوادث غريبة قبل وقوعها الا بالحذر والاحتراس، ومع هذا فهنالك شهادات يستحيل التشكك فيها، وبهذا الاعتبار ذكر لى صديق الكولونيل دوروشاس مشاهدة تافهة فى ذاتها ولكنها غريبة، حدثت لجراحنا الشهير البارون (لاريه) وهو الذى رواها له بنفسه. قال له انه رأى في نومه اربعة ارقام ستربح من اليانصيب ، فلما اصبح رجا امرأته ، وكان هو مضطرا للنزول لعيادة مرضاه ، ان تحصل بنفسها على هذه الارقام الاربعة، فقدر مبلغ ماأصابه من الكدر حين عاد الى بيته وعلم ان هذه الارقام كلها قد كسبت الجوائز ، وان امرأته نسيت ماوصاها بهمن شرائها

فافتراض الاتفاق هنا لا يمكن قبوله، اذ ان اللاعب كان ضده ٢٥٥٥١٩٩ رقما خاسراً

يمكن تعليل هذا الامر بالاتفاق، اذا كان الامر يتعلق برقم واحد، اما بأربعة أرقام فلا . والذي نعلمه الآن هو ان المستقبل يمكن ان يرى

هذه المشاهدة مفيدةمثل سابقاتها، واني عرفت البارون (لاريه) وجلا دنيويا ممتازا بقدر امتيازه في العلم والاستقامة ، وشهادته تعد في درجة شهادة رجل شريف

وقد تسلم المستر (وليم ستيد) مدير مجلة المجلات الانجليزية الذى غرق مع الباخرة (تيتانيك) ، من الروح المسماة جوليا، نبأ غيبيا مدهشا للدرجة القصوى . فقد كتب في مجلة (التاريخ السنوى للعلوم النفسية) الصادرة في سنة ١٩٠٩ صفحة ١٢٠ يقول :

« منذ بضع سنين كانت موظفة عندى سيدة ذات قريحة عالية، ولكن طبعها كان ليس في درجة قريحتها، وصحتها دون القوية. وقد آل بها الامر أن أصبحت من صعوبة القياد بحيث فكرت فى يناير أن أفصلها عن الخدمة، ولكن (جوليا) استولت على يدى وكتبت مايأتي : (١) :

---

(١) المستر ستيد اشهر صحفي في العالم وكان نفسه وسيطا، فكانت تستولى بعض الارواح ومنها الروح المسماة جوليا على يده فتكتب ماتريده من الرسائل

« كن صبورا مع (ا.م.) فانها ستلحق بنا قبل ختام هذه السنة » (اى أنها ستلحق بعالم الارواح)

« فدهشت من هذا النبأ لأني لم آنس عليها شيئا يجعلني اتوقع قرب انتقالها الى عالم الموتي . تسلمت هذه الرسالة ولم اخبر بها احداء وبقيت مستخدماً لتلك السيدة . وقد وقع هذا النبأ في ١٥ او ١٦ يناير، اذا لم تكنذا كرتي قد خانتني، وقد تكرر في فبراير ومارس وابريل ومايو ويونيه انبائي بهذه العبارة « تذكر ان (ا.م.) ستفارق الحياة قبل نهاية هذه السنة »

« وفي شهر يوليو ابتلعت تلك السيدة مسمارا علي وجه الخطأ، فسكن في امعائها ووقعت بسبب ذلك في مرض خطير . وكان الطبيبان اللذان يعالجانها قد فقدا الامل في تخليصها من الموت . وفي هذه الاثناء كانت الروح (جوليا) مستولية على يدي فسألتها :

« أليس هذا بلا أدني شك ماكنت أنبأتني عنه من انها ستموت ؟

« فأجابتني بجواب أوقعني في الدهش العظيم قائلة :

« لا ، انها ستشفي من هذا المرض، ولكنها على اي حال ستموت قبل انتهاء هذه السنة

« فحدث ان (ا.م) ابلت من مرضها فجأة، في وسط الدهش الكبير من طبيبيها، واستطاعت بعد زمن قليل ان تعود الى عملها . وفي اغسطس وسبتمبر واكتوبر ونوفمبر تكرر انبائي بقرب موتها بواسطة يدي . وفي شهر ديسمبر أصيبت بالانفلونزا

« فسألت جوليا : أفي هذه المرة ستلقي حتفها ؟

« فأجابتني قائلة : لا ، انها لن تأتي الي عالمنا على طريقة طبيعية، ولكن مهما كانت الحال فانها ستحل لدينا قبل نهاية السنة .

« فذعرت، ولكني ادركت اني لاأستطيع أن أمنع وقوع الحادثة. تصرمت السنة ولكنها لم تمت . فكتبت جوليا بواسطة يدي : « لقد أخطأت في بضعة أيام، ولكن ما قلته لك صحيح ».

« وفي نحو ١٠ يناير كتبت جوليا بيدى :

« سترى (ا.م.) غداً فودعها الوداع الاخير. وخذ جميع الاهب الضرورية، فلن تراها بعد ذلك على الارض

« فذهبت لالقاها، فاذا بها مصابة بالحمى المصحوبة بسعال شديد . وكان ذووها على وشك نقلها الى المستشفى

« بعد يومين من هذا التاريخ وصلني تلغراف ينبئني بأن هذه المسكينة القت بنفسها من نافذة بالطبقة الرابعة، وهي في حالة هذيان شديد ،وانهم رفعوها من على الارض ميتة . فلم يزد تاريخ موتها الا بضعة ايام بعد الاثني عشر شهراً عن للموعد الذى حدته النبوءة السابقة

« واني في استطاعتي ان اثبت صحة هذه القصة بالاوراق الاصلية التي كنت اتلقى فيها الرسائل الروحية، وبشهادة سكرتيريَّ الاثنين الموقعين عليها » انتهى

يظهر من هذه القصة حقيقة ان الروح علمت مقدماً موت تلك السيدة، وانها تحققت من انه سيكون نتيجة حادث . ألهذا السبب يجب علينا ان نعزو هذه النبوءة لروح مجردة ؟ ليس لدينا على ذلك من دليل . واني قد عرفت المستر ستيد معرفة تكفي لتقديري لخصائصه النفسية النادرة، وان كان لم ينتفع بها لتنجية نفسه من الغرق

لاشك في ان هذه النبوءة من اعظم النبوءات شأناً . فما هي جوليا هذه التي اشتهرت لدى الباحثين في الارواح من كتابات ستيد ؟ أهي روح مجردة، أم الشخصية الباطنية للمستر ستيد نفسه ، ام هي خاصة عقلية له ؟ اننا نجهل ذلك كله. ولكن على أية حال ليست هي المادة الحية التي تقرأ المستقبل على هذه الصورة

يمكن كل منا ان يقرأ في ترجمة حياة البارون (لازوار هلينباخ) التي كتبها بيده نبوءة منامية عن موت . وهاهي كما نقلتها مجلة (التاريخ السنوى للعلوم النفسية) لسنة ١٨٩٧ صفحة ١٧٤ :

« كان في نيتي ان اطلب مساعدة مدير قسم الكيمياء للمعهد الجيولوجي بفيناء وهو المسيو (هوور) مستشار المناجم عن بعض المباحث التي عملتها على التبلور، وكنت

قد كلفه في ذلك وكان المعمل قريبا من بيتي » والمسيو (هورر) معروف في العالم العلمي ويمكن ان اقول في اوربا بأسرها ، بأنه أخصائي في هذا الموضوع . وكنت أرجي دائما زيارتي الموعودة ، ثم عزمت على زيارته صبيحة يوم . فرأيت في نومي تلك الليلة رجلا شاحب اللون ضعيفا ، يسنده من تحت ذراعيه رجلان . فلم أعبأ بهذه الرؤيا وذهبت الى المعمل الجيولوجي . ولكن بما ان المعمل كان في الطرف الآخر من المعهد ، على غير ما كان عليه في السنين الماضية ، ضللت عن بابه ، ولما وجدت ذلك البـاب مغلقا رأيت حين نظرت من نافذة صورة رؤياي على أتم ماتكون من دقة . رأيت (هورر) يسنده رجلان لانه تسمم بسيانور البوتاسيوم وكان الرجلان ينقلانه الي الدهليز على مارأيته عليه تماما »

ان صديقي النشط المأسوف عليه جداً الدكتور (موتان) الذي عمل في بيتي في سنة ١٨٩٩ تجارب عظيمة على التنويم المغناطيسي ، مما أتكلم عنه في مناسبة أخرى ، اشتغل في سنة ١٩٠٢ بالمباحث التحليلية على الاسبرتزم نستطيع ان ننوه منها بهـذه النبوءة وهي :

« في الجلسة التي عقدت في ١٩ اغسطس ، وحفظ المحضر الذي حرر عنها على عادته الحسنة ، ظهرت له روح استولت على الخوان وادعت أنها سيدة تدعي هيرمانس ف . ماتت حديثا . وكان الدكتور يعرف هذه السيدة وزوجها منذ زمان طويل . فدهش من تصريحها التالي وهو :

« ان زوجي سيتزوج ثانية في شهر سبتمبر المقبل ، وسيحضر الى باريز قبل زواجه ، ولكنه لن يجد وقتاً لزيارتك

فقلت لها : ان ماتقولينه مستحيل ، فاني أعرف (ف.) وأعرف الحب الذي يحفظه لامرأته ، ويتعذر علي ان اصدق انه يتزوج بعد موتها بأربعة أشهر

« فأجابته قائلة : ان ماأقوله لك صحيح ، وسترى تحقيقه بعد بضعة أيام

« فقلت لها : اذن هو مسوق بداعي المصلحة لا الحب

« فقالت : ليست الداعية هي المصلحة ، ولكنك تعلم جيـداً ان لوسيان (هو

لقب ف.) لايستطيع ان يمكث وحيداً

« فسألتها : أيتزوج امرأة من سنه ؟

« فقالت : لا ، ولكن شابة عمرها ثلاث وعشرون سنة ، وبعد زواجه بزمن قليل سيترك الاقاليم ويأتى لسكنى باريز

« فقلت لها : كيف يتأتى له ذلك مع المركز الذى يشغله فى الجنوب . ان هذا لايمكن قبوله

« فقالت : ان احوالا سيئة، وخاصة خسارة مالية عظيمة، ستضطره للمجيء الى باريز ليحصل مركزاً جديداً

« فقلت لها : سنرى اذا كانت نبوءتك تتحقق ام لا ، فانى أشك فيها كثيراً ، ولكن هي ان ذلك يكون انشعرين من اجله بسوء ؟

« فأجابت اشعر بعكس ماتقول ، فان لوسيان لايستطيع ان يعيش وحيدا

« بعد هذه الكلمات بقي الخوان ساكنا . وبعد بضع دقائق سألت الروح عما اذا كان التخاطب قد انتهى ؟ فكان الجواب : نعم

« مدام ف . لم تظهر لنا قبل هذه المرة قط . وكانت هذه المرة هي الوحيدة التى ظهرت لنا فيها

« في ذلك الوقت لم يكن احد يتخيل وقوع هذه النبوءة ، ولا ان يعتبرها من الاتصالات الجدية بالارواح . وأنا وجميع أعضاء أسرتى كنا نعرف الميتة، وكنا لا نستطيع تصديق ماأنبأت به . والمجربون الذين كانوا معنا في هذه الجلسة لم يسمعوا عن ف . شيئا

« وبعد أيام قليلة اى في ٢٧ اغسطس أتاني كتاب من صديق ف . يخبرني فيه بزواجه في شهر سبتمبر بالمادموازيل . . . . معطيًا اياى بعض المعلومات عن قرينته المستقبلة ، معلومات كانت مطابقة كل المطابقة لما اخبرتنا عنه الروح في ١٩ اغسطس

« وفي شهر مارس سنة ١٩٠٤ حضر المسيو ف . لزيارتنا واخبرنا انه حضر

ليسكن باريز . فأخبرته عن اتصالنا بروح امرأته الاولى هيرمانس. فدهش من ذلك الى حد انه اراد ، وان لم يكن في شك من أقوالنا ، ان يري يحضر هذه الجلسة. فوجد ان كل ماقالته امرأته الاولى صحيح لاشية فيه، كشخوصه الى باريز قبل زواجه الثاني وكتغير مركزه

« وأكد لنا صحة هذه المشاهدات التي لم تتأخر عن اعتبارها برهانا على بقاء الشخصية الانسانية بعد الموت ، ودليلا محسوساً على ان الروح التى اتصلت بنا هي روح مدام هيرمانس ف . ذاتها »

وقد ذكر الدكتور (موتان) هذه المشاهدة ، وقال انها أهم المشاهدات التي أقنعته بصحة الاسبرتزم

فهل هذه المشاهدة لها القيمة المطلقة التى يصفها بها ؟

لقد ثبت ان أفكارنا تستطيع أن تؤثر، سواء على علم منا أو على غير علم، فتملي الامالي بواسطة الأخونة . والدكتور (موتان) وأسرته يعرفون مدام (هيرمانس ف.)، وفكرة ان زوجها الذي صار أرمل يحتمل أن يتزوج ثانية ليست فوق الحوادث العادية. ومن جهة اخرى فان فكرة الارمل يحتمل أن تكون ذات تأثير في هذه التجربة، لأنه كان عازماً على التزوج ، وانه أخبر بذلك أصحابه بعد هذه الجلسة بثمانية أيام . ومسألة ترك الاقاليم، وسكناه باريس، ألا يحتمل أن تكون في ذلك الوقت شاغلة لعقله أيضاً؟ فيظهر لى أن صحة شخصية الميتة لم تتحقق مطلقاً في هذه التجربة ، وان هذه الظاهرة يمكن أن تأتي من أسباب نفسية أخري . على أنها مع كل هذا تظهر لى مرجحة. وليس هنا محل مناقشة هذه المسألة الهامة ، وأني لم أورد هذه المشاهدة الا على سبيل المثال عن الانباء الصحيح بحادثة مستقبلة

وأضيف الى هذا أيضاً ، انه فى هذه الحالة السابقة كما فى غيرها مما يشبهها، يحتمل ان تكون زوجة صديقة الدكتور (موتان)، قد شعرت في حياتها بامكان حدوث هذا الزواج الثانى. وربما كانت قد أقرته ، ويكون هذا الاحتمال في مصلحة صحة شخصيتها. واننا سنعود الى هذا الموضوع فى الجزء الثالث من هذا الكتاب فى بحثنا في ظهور

أرواح الموتى

أضيف الى مامر انباء بالغيب نجي أسرة برمتها، وكان مصدره صوتاً باطنياً. نقتبس ذلك عن بوزانو، وعن مجلة جمعية المباحث النفسية الانجليزية (المجلد ١ ص ٢٨٣)، وقد أفضى به الكابتن (ماك جوان) الى الاستاذ (باريت) فقال :

« في يناير سنة ١٨٧٧ بينما كنت في بروكلين مع ولدي الصغيرين، إبان الاجازة المدرسية، وعدتهما بأن آخذهما ذات ليلة الى التياترو وقد اخترت ثلاثة محال واستأجرتها وفاء بوعدي

« ففي صبيحة اليوم المعين شعرت بأن صوتاً باطنياً يردد لي هذه العبارة بالحاح : (لا تذهب الى التياترو بل أعد ولديك الى المدرسة) ورغماً عما بذلته من المجهود لالهاء نفسي عن هذا الصوت، لم أستطع منعه واستمر يردد لي هذه العبارة بعينها بصوت الآمر وبأشد مما كان، حتى اني لم أتمالك نفسي عند الظهيرة من اخبار اصحابي وولدي بأني عدلت عن الذهاب الى التياترو. فألحى علي أصحابي باللوم، مظهرين لي بأن حرمان الولدين من ملهي غير عادي عندهم ينتظرانه بنافد الصبر، بعد وعدهم به وعداً صريحاً، يعتبر من القسوة بمكان. فلم يسعني الا تغيير عزمي

« ومع هذا فلم ينقطع هذا الصوت ساعات بعد الظهر كلها، ولم يزل يردد الامر بعدم الذهاب بالحاح شديد التأثير، حتى اني لم يسعني في المساء قبل موعد التياترو بساعة الا أن أعلن ولدي نهائياً بأننا ذاهبون الى نيويورك بدل الذهاب الى التياترو. فسافرنا

« فحدث انه شب حريق في هذا التياترو في تلك الليلة أتي عليه كله، وهلك فيه ٣٠٠ من المتفرجين في وسط اللهب. فما الذي أجبرني أن أعدل عن الذهاب الى التياترو رغم ما كنت عزمت عليه، بعد ان دفعت أجرة الثلاثة المقاعد، واعداد كل شيء لتمضية ليلة في سرور وارتياح؟»

وأضاف الكبتن (ماك جوان) الى هذا قوله للاستاذ (باريت) بأن ذلك الصوت الباطني كان يرن بوضوح كأنه آت من انسان حقيقي يكلمه من باطن جسمه، وانه

قاومه من اول ساعات الانفطار الي ان سافر بوالديه الى نيويورك

كل هذه الحوادث من الصحة وقوة الدلالة بحيث ان بعضها يفسر البعض الآخر فتتألف منها مجموعة لا يمكن لأية قوة في العالم أن تذيبها

ومن أجل الحوادث في هذا الباب المشاهدة المحققة التي أوردها المجرب المدقق الاستاذ (ليبولت) فى كتابه العلاج بالتلقين *Thérapeutique suggestive*

روى دكتور نفسي العالم (يريد ليبولت المذكور) انه في ٧ يناير سنة ١٨٦٦ فى الساعة الرابعة بعد الظهر حضر اليه احد زبائنه المسيو دو (ش.) يستشيره في حالة عصبية مفهومة جداً وهى :

« انه بينا كان يتفسح في احد شوارع باريس فى٢٦ديسمبر سنة ١٨٧٩ ، رأى مكتوبا علي أحد الابواب (مدام لنورمان العرافة من النظر الى الكف) ،فدفعه حب الاطلاع للدخول اليها

« فلما بحثت يده قالت له : انك ستفقد أباك بعد سنة، يوما بيوم، وعما قليل ستؤخذ الى الجندية، (كان عمره اذذاك تسع عشرة سنة)،ولكنك لن تمكث فيها طويلا وانك ستتزوج صغيراً وسترزق بطفلين ، وتموت فى السادسة والعشرين من عمرك»

« لم يعتبر المسيو دو (ش .) هذه النبوءة من الامور الجدية ، ورواها لاصحابه وبعض ذويه . ولكن بعد أن تحقق موت أبيه بعد سنة كاملة، أي فى ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٨٠، عقب مرض قصير، بطلت حدة شكوكه قليلا . ولما صار جنديا لم يمكث الا سبعة أشهر تحت السلاح ، ولما تزوج بعد ذلك بقليل وصار أبا لطفلين وعلي وشك بلوغ السادسة والعشرين من عمره ، أصابه خوف شديد، وتخيل انه لم يبق له في الحياة غير أيام معدودة . في تلك الآونة ذهب لاستشارة الدكتور (ليبولت) *Liebault* وسأله عما اذا كان من الممكن تحويل هذا القضاء عنه . وقد كان يرى ان تحقق النبوءات الاربعة الاولي يدل على تحقق الخامسة لامحالة

« فى ذلك اليوم والايام التالية حاولت أن أضع المسيو دو (ش .) فى نوم عميق لتبديد تلك الفكرة السوداء المتوشحة في ذهنه، وهي انه سيموت في ٤ فبراير، وهو يوم

عيد ميلاده، ولوان العرافة لم تعين له يوماً للوفاة، فلم استطع ان اوجد له حتى اخف درجات النوم، من شدة تأثره من هذه الفكرة . ولكن بما انه كان من الضروري ازالة هذه الفكرة من ذهنه، لانه قد رؤيت نبوءات تتحقق بمحض تأثير التلقين الذاتي، اقترحت عليه أن أسأل أحد وسطائي الذين عودتهم النوم، وهو رجل هرم يلقب بالنبي، لانه أنبأ عن يوم شفائه من روماتزم لازمه اربع سنين، وعن يوم شفاء ابنته ايضا

« فقبل المسيو دو (ش.) اقتراحي بارتياح، ولم يتأخر عن الحضور عندي في الوقت الذي عينته له . فلما جعلته في اتصال مع ذلك المنوم كان اول مانطق به : « في أي وقت أموت؟» فأدرك المنوم مبلغ ارتباك هذا الشاب، ثم أجابه بعد أن دعاه للانتظار قائلا : « ستموت . . ستموت . . بعد احدى واربعين سنة » فكان تأثير هذه الكلمات من اغرب مارأيت، فان الشاب تحولت حاله على الفور، وعاد اليه سروره وانبساطه وامله . وبعد ان مر يوم ٤ فبراير، وهو اليوم الذى كان يخشاه كثيراً اعتقد انه نجا تماماً

« اما انا فلم افكر بعد ذلك في شيء من هذا، حتى كان اول اكتوبر فوصلني كتاب مؤداه ان زبوني المسكين قد توفي في ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٨٦، وهو في سنته السابعة والعشرين اى بعد ان عاش ستاً وعشرين سنة، كما أنبأت به مدام (لنورمان) »

هذه رواية الدكتور (ليبولت) المشهورة أعلاه . فلل وشرح هذه السلسلة من الحوادث المتتابعة، متذرعا بكل ماتدليك من الشك، وماتتصور منه، وبأقصى شدة الدقة الجراحية، واذا رأيت بعد ذلك ان ليس شيء خارقا للعادة في انبائها لهذا الشاب بأنه سيدخل في الجندية، وانه سيتزوج بعد ذلك، بقيت لدينا أربع نبوءات وهي : ١ ـ موت ابيه بعد سنة يوماً بيوم. ٢ـ خروجه من الجندية قبل الزمن العادي. ٣ـ ميلاد الطفلين. ٤ـ موته هو نفسه في السادسة والعشرين من عمره

خاتمـة

اكتفى هنا بهذه الامثلة،فان هذا الجزء يجب ان يقف عند هذا الحد، معتذراً الى قرائى من اكثاري هذه الامثلة، ومعتقداً بأنهم أصبحوا مقتنعين بها كل الاقتناع

الخلاصة هي ان المستقبل يمكن ان يرى

فى الحالة الراهنة لمعارفنا الانسانية، من العبث البحث عن تفسير كيف تحصل هذه الرؤية فى ذهننا، وكيف تتولد الشعورات التي تتعلق بها

يمكن الظن بأن عقلنا الباطن، او شخصيتنا النفسية، في ممارستها لخصائصها المتعلقة بعلم ما فوق الطبيعة، كما يحدث فى بعض اشكال الكشف او معرفة الغيب، تتحرر من قيود المكان والزمان، اى من القوانين التي تسود عالمنا المادى . وعلى هذه الشاكلة تظهر لها الاشياء المستقبلة كأنها في مستوي الاشياء الحاضرة والماضية . فهي تستمد سلطانها من نواميس لازال نجهلها . وأية مشاهدة معها كانت غير قابلة للتعليل، يمكن قبولها اذا كان هذا الكائن او التركيب النفسانى هو الشخصية الكلية الدائمة للذات الانسانية، الشخصية التى تستمد غذاءها المعنوى من المنابع الكثيرة الباطنية المختلفة . ولا يكون من الجرأة ان نفترض بأنه في هذه الشؤون الفكرية، قد تفيض علي العقل الباطنى آثار من العالم المحجوب عنا، في بعض الاحوال التي تطرأ علي الانسان بسبب النوم الطبيعي أو النوم المغناطيسي، أو بسبب الاستعداد الشخصي، وتوحي اليه معارف عن الحوادث الماضية والحالية والمستقبلة . فان الروح مغمورة في حالة الحياة الارضية وحالة الموت، في جو أثيرى من عالم محجوب عنا

والبحث الدقيق في هذه المسائل، والمنطق الصارم فى تقدمها، يؤديانا الى استنتاج استحالة عزو الخاصة العقلية من النظر بدون الاعين، ومعرفة الحوادث المستقبلة، والالمام بما يحصل بعيداً عنا، او ما سيحدث فى الزمان الآتي، الى المادة، او الى القرات العصبية، أو الى الاتحـادات الكياوية او الميكانيكية، من اى نوع كانت، وهى كما ترى امور خارجة عن التركيب الجثماني ومن رتبة عقلية محضة . هذه المشاهـدات تثبت وجود

الروح ممتعة بخصائص ذاتية مستقلة عن الحواس الطبيعية

والروح في مدة الحياة الارضية ، جعلت مصاحبة لمخ مناسب لوظائفه المطلوبة منه

فاذا كانت الروح ليست من مفرزات المخ ، واذا كانت مستقلة عن المجموع العصبي المخي الشوكي ، واذا كانت موجودة وجوداً مستقلا ، فلا يوجد سبب لان تنحل بانحلاله

ان بعض الظواهر ، مثل قراءة الوسطاء نصوصاً مجهولة، تشهد بوجود روح ممتعة بخصائص خاصة . هذه الروح يمكن ان تكون روحنا ، ولم يثبت بأن هنالك أرواحا أجنبية تتدخل بين أرواح المجربين ، ومع هذا فافتراض تدخل روح اجنبيـة يجب ان يحتفظ به . لانه اذا ثبت ان الروح تبقى بعد الموت ، فلا مندوحة من انهـا تكون موجودة في جهة ما ، واذا كانت روحنا تستطيع ان تستكشف شيئاً محجوباً عنها في مدة حياتنا ، فكيف يعقل انها تفقد هذا السلطان بعد الموت ؟

وكما اننا نعزو الي روحنا التأثير في احداث هذه الظواهر ، يجب علينا ان نقبل امكان تأثيرها بعد الموت ، ومقابلة الافتراضين احدهما بالآخر لمعرفة أيهما أسهل في التعليل به

والقول بأن هذه القراءات والنبوءات والاعمال النفسية والاتصالات الروحيـة تتحقق بدون شعورمنا، يقتضي اشكالا اكبر من افتراض تدخل ارواح اجنبية في احداثها

ويظهر ان هذين العنصرين لها تأثير في احداث هذه الظواهر ، وأريد بهما خصائصنا النفسية وتأثير الارواح الاجنبية . فلا يصح لنا ان نجهد على أمر من هذين الامرين

فنحن نعيش في وسط المساتير ، وهذه المساتير توجب علينا التعطش لمعرفتها

فعدم قبولنا من الظواهر غير التي يمكن تعليلها بمعارفنا الحالية ضلال بعيد جداً ، فان عدم القدرة على تفسير مشاهدة لايقدح في صحتها ، ويجب على العلماء ان يجعلوا نصب اعينهم ملاحظات (اراغو) بمناسبة تاريخ الاحجار السماوية وهي :

« كان الصينيون يعتقدون ان سقوط الاحجار السماوية له ارتباط بالحوادث الارضية ، ولذلك جعلوا لها جداول تفسيرية . ولا أدرى ماذا كان يحق لنا أن نضحك من هذه الخرافة ؟ فهل كان علماء اوروبا أعقل منهم عند مارفضوا سقوط هذه الاحجار مع وضوحه ، محتجين بأن سقوط هذه الاحجار من الجو مستحيل ؟ ألم تعلن جمعية العلماء في سنة ١٧٦٩ بأن الحجر الذى أخذه ساعة سقوطه بقرب (لوسيه) ، جماعة من الناس تتبعوا سقوطه بأعينهم حتى مس الارض ، لم يسقط من السماء ؟ وأخيراً ألم تعتبر الجرائد المحضر الذى عمله مجلس بلدي (جوليـاك) ، في ١٤ يوليو سنة ١٧٧٠ ، عن سقوط مقدار عظيم من الاحجار في الحقول وعلى الدور وفى شوارع القرية ، من الاقاصيص المضحكة الموجبة لرحمة ، لامن العلماء وحدهم ولكن من جميع العقلاء ؟

« فالطبيعيون الذين لا يريدون ان يقبلوا غير الحوادث التي يتراءى لهم تعليل لها ، أضر على تقدم العلوم من أولئك الذين يوصمون بأنهم يصدقون كل ما يلقى اليهم » انتهى

وأنا كم كررت قولى انه من الضلال المبين الظن بأن كل حادثة لايمكن تفسيرها لايجوز قبولها ؟ ففهم أية حادثة أو عدم فهمها لايقدح فى صحة وجودها . هذا ما قاله سيسرون من قبل

ان الحادثة مهما كانت لاتفهم تعتبر حادثة . ولكن التعليل الذى لا يفهم لا يعتبر تعليلا . فالخصائص العقلية التي رأيناها عالقة فينا تثبت انه يوجد في الانسان عنصر نفسي متميز عن تركيبه الطبيعي ، يرى من خلال الزمان كما يرى من خلال المكان ، نافذ في العالم المحجوب عناء ولديه المستقبل والماضى حاضران على السواء

نحن ندرس هنا علم الروح الذي لايمكن نكرانه بوجه من الوجوه ، فلأجل أن نحل غامضة الموت ، ونبرهن على بقاء الروح بعد انحلال الجسد ، يجب علينا أولا أن نقتنع بأن الروح لها وجود خاص ، وجود يبرهن عليه بخصائصها الخاصة التي طبيعتها فوق طبيعة الجسد ، ولايمكن تشبيهها بخصائص المخ المادي ، ولا بالانعكاسات الكيماوية ، او

الميكانيكية ، تلك الخصائص مثل تأثير الارادة بدون الاستعانة بالالفاظ ، والتلقين الذاتي المحدث لنتائج طبيعية ، والشعور بالحوادث المستقبلة ، والتأثير والتأثر عن بعد ، والانتقالات الفكرية ، والقراءة في كتاب مقفل ، ورؤية بلدة بعيدة أو منظر أو حادثة مستقبلة بمحض الروح ، فان هذه الامور الخارجة عن نطاق تركيبنا الفزيولوجي، والتي لاارتباط بينها وبين شعوراتنا العضوية،تثبت ان الروح جوهر مستقل موجود في ذاته . واني أرجو أن يكون قد قام على ذلك الدليل القاطع في هذا الكتاب

والمشاهدات النفسية تدل على ان الكون ليس قاصراً على الاشياء التي تدركها حواسنا الخمسة أوالستة المشتقة من وراثتنا الحيوانية ، بل انه توجدعوالم أخرى غيرها في هذا الكون

ونحن بعد أن برهنا على وجود شخصيتنا الروحية ، سنبدأ على هذا الاسلوب التجريبي عينه بدرس الحوادث المصاحبة للموت ، وظهور من هم في حالة النزع في أمكنة بعيدة ، وظهور أرواح الاحياء والموتى ، وتركيب الكائن النفساني ، والدور المسكونة بأرواح الموتى ، والاتصال بالمتوفين ، وأدلة بقاء الجوهر النفساني بعد الموت والجسم الاثيري . فان كل الذي من يتعلق بالحياة نفسها

وقد وصلنا الي درس مايتعلق بالموت، وما يبقى بعد الساعة الاخيرة للوجود الجسداني . فان هذا التأليف (ضد التحليل) الروحاني الجديد يتركب من ثلاثة أقسام متتابعة منطقياً وهي : ماقبل الموت ، وما حول الموت ، وما بعد الموت

(١) فما قبل الموت موضوعه اقامة الدليل على وجود الروح (وهو كل ماسبق)

(٢) وما حول الموت موضوعه حوادث ظهور الذين في حالة النزع ، والصورة الثانية للانسان الواحد، وحوادث الامور الباطنية

(٣) وما بعد الموت حوادث ظهور الموتى ، وحالة الروح بعد الموت

فالجزآن الثاني والثالث من هذا المؤلف قد تم تأليفهما كهذا الجزء وسينشران على التتابع

وغرضنا الوحيد من هذا العمل،ومطمحنا منه، هو ان تحمل هذه المجموعة على قدر الامكان، في الحالة الراهنة للعلم الصحيح، روح الطمأنينة التي تتعطش اليها النفوس بحق، وهي في طريقها لادراك الحقيقة

وهذا الجزء الاول من عمل كثير التركيب، يثبت وجود الروح الانسانية مستقلة عن التركيب الجثماني . هذه،كما يظهر لى،مسألة قد تقررت نهائياً،وهي من القيمة بالمحل الاعلى بالنسبة لكل مذهب فلسفي

(المترجم) انتهينا والحمد لله وحده من ترجمة الجزء الاول من كتاب العلامة الاكبر كاميل فلامريون، وسنبدأ بترجمة الجزء الثاني، ونوالي الترجمة حتى تتم هذه الاجزاء الثلاثة التي تعتبر في اوروبا بحق من الاحداث الفلسفيـة الكبرى التى لن يقف تأثيرها عند حد

